



الهيئة العامة السنورية للكتاب

أوضاع منطقة جند دمشق في العصر العباسي

(من قيام الخلافة العباسية حتى سقوط الدولة الإخشيدية)

(١٣٢ - ٣٥٩ هـ / ٧٥٠ - ٩٦٩ م)



تصميم الغلاف
عبد الله القصير

الهيئة العامة السورية للكتاب

أوضاع منطقة جند دمشق في العصر العباسي

(من قيام الخلافة العباسية حتى سقوط الدولة الإخشيدية)

(١٣٢ - ٣٥٩ هـ / ٧٥٠ - ٩٦٩ م)



د. سامي مرعي

الهيئة العامة
السورية للكتاب

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٣ م

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراء المؤلف ومواقفه ولا تعبر
(بالضرورة) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

أوضاع منطقة جند دمشق في العصر العباسي: من قيام الخلافة العباسية حتى سقوط الدولة
الإخشيديّة... / سامي مرعي . - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٣م. - ٦٤٠ص؛
٢٥سم. - (إحياء التراث العربي ونشره).

١- ٩٥٦،١٠٠٥ م ر ع أ ٢- ٩٥٦،١١١ م ر ع أ ٣- العنوان
٤- العنوان ٤- السلسلة
مكتبة الأسد

مُقَدِّمَةٌ

من المعروف أنّ العالم العربي الإسلامي شهد مع مطلع العقد الرابع من القرن الثّاني الهجري تحوّلاً كبيراً في تاريخه، وتمثّل هذا التحوّل في قيام الخلافة العباسية وسقوط الخلافة الأموية، وقد ترك هذا التحول أثراً كبيراً في بلاد الشام، ولا سيّما جند دمشق الذي كان يحوي حاضرة الخلافة الأموية، فحسر هذا الدور لصالح العراق الذي بات يحوي حاضرة الخلافة العباسية.

والواقع أنّ العلاقات العباسية - الشامية اتخذت منذ البداية طابع العداء، واستمرّت كذلك مدة طويلة من الزمن، فقد أقدم العباسيون بعدما سيطروا على دمشق على ارتكاب المجازر بحق أهلها وأهل الشام عامة، وقتلوا الأمويين ولاحقوهم، مما ولّد شعوراً بالعداء عند السكان، فثاروا ضد الحكم العباسي تعبيراً عن رفضهم له، وفي محاولة لاستعادة مكانة بلادهم، غير أن ثوراتهم أخفقت أمام قوات الخلافة العباسية التي لم تتوان عن استخدام القوة للقضاء على هذه الثورات وضرب القوى النامية في الشام، وذلك للمحافظة على سلطتها، وهذا ما جعل السكان يعيشون في حالة من الاضطراب وغياب الاستقرار.

هكذا فقد دفع الاضطهاد العباسي السكان إلى التّرحيب بأحمد بن طولون عندما أقدم على مدّ نفوذه إلى الشام في سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧م، إذ رأوا فيه فرصة للتخلّص من الحكم العباسي، ولتحسين أحوال بلادهم، ومما يدلّ

على ترحيبهم بالسيطرة الطولونية اجتماع خلع الموفق الذي عقده أحمد بن طولون في دمشق سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٢م، وفيه عبّر أهلها عن رفضهم للحكم العباسي، على أنّ حالة الاستقرار في مطلع العصر الطولوني لم تلبث أن تراجعت مع وفاة مؤسس الدولة الطولونية، وقيام الحروب العباسية - الطولونية، فعانى السكان ويلاتٍ كثيرةً منها، وفيما بعد ازدادت هذه الويلات مع ضعف الدولة الطولونية، وتعرض جند دمشق لهجمات البدو.

ولم تستقرّ الأحوال في منطقة جند دمشق بعدما استعاد العباسيون أملاك الدولة الطولونية، وقضوا عليها، بل استمرّ السكان يعانون اضطرابات متعدّدة، ولم تكن الأحوال أفضل في المدة التي خضعوا فيها للسيطرة الإخشيدية، بل زادت سوءاً بسبب قيام الحروب بين الإخشيديين ومنافسيهم للسيطرة على بلاد الشام، وهجمات البيزنطيين الذين وصلوا بها إلى مناطقهم.

ومن الجدير بالذكر أنّ حالة عدم الاستقرار والاضطرابات شبه المستمرة في المدة الممتدة بين سيطرة العباسيين على دمشق ونهاية العصر الإخشيدي، تركت آثاراً كبيرة على حياة السكان في مختلف الجوانب اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وغيرها.

ويشكل جند دمشق أكبر أجناد الشام، وقد حدّته المصادر الجغرافية بالبقعة الممتدة ما بين البحر المتوسط غرباً، ودُومة الجندل التي كانت تابعة له في شمالي شبه الجزيرة العربية شرقاً، وبين جندي حمص وقنّسرين شمالاً، وجندي الأردن وفلسطين والبحر الأحمر جنوباً.

ويمتد الإطار الزمني للبحث من سقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م، إلى نهاية العصر الإخشيدي سنة ٣٥٩هـ / ٩٦٩م، وقد اعتمد هذا

التّحديد لأهمية هذه المدّة من تاريخ جند دمشق، وللمتغيرات التي شهدتها في أعقاب سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية وتبعيته لها، ثم في أعقاب تبعيته للدّول: الطولونية والإخشيدية والحمدانية، وهي دول قامت في بلاد الشام ومصر، وكانت مستقلة عن الخلافة العباسية نظرياً، ولكنها كانت تدور في فلك السياسة العباسية، وتدين لها بالولاء فعلياً.

وتنبثق أهمية هذا الموضوع من تقصير الدّراسات الحديثة في الإلمام الواسع بأحوال جند دمشق والتغيرات التي لحقت به في المجالات المختلفة، رغم ما كان يتمتع به من موقع إستراتيجي مهمّ بالنسبة إلى التجارة العالمية، فضلاً عن أنه كان حاضرة الخلافة الأموية في العصر الأموي.

والدراسة خطوة جديّة تهدف إلى إلقاء الضوء على مجمل الجوانب السياسية والإدارية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والفكرية في جند دمشق التي تشكل الصورة الحقيقية للمجتمع آنذاك.

أرجو أن أكون قد قدمت حقائق تاريخية جديدة، ومعلومات مفيدة تُغني المكتبة، وإن قصّرت في بلوغ الهدف فحسبي أني سعيّت صادقاً، والله ولي التوفيق.

د. سامي مرعي



الهيئة العامة
السنورية للكتاب

تمهيد

جغرافية منطقة جند دمشق

إنَّ كلمة جند تعني لغة العسكر أو الجيش، وجمعها أجناد^(١)، وقد استُخدمت هذه الكلمة مصطلحاً عسكرياً - إدارياً للإشارة إلى أقسام بلاد الشام، ولم تستخدم في غيرها^(٢)، إذ إن بلاد الشام قسّمت مع دخول الجيوش العربية التي تحمل راية الإسلام إلى أربع مناطق إدارية عرفت باسم الأجناد، وهي: جند دمشق، وجند الأردن، وجند فلسطين، وجند حمص، ثم أضيف جند خامس في العصر الأموي هو جند قنّسرين^(٣)، وفي العصر العباسي أخرجت العواصم من جند قنّسرين، وجعلت منطقة مستقلة^(٤).

- (١) ابن منظور، محمد بن مكرم (ت، ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العرب، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، ج٢، ص٣٨١، مادة "جند".
- (٢) الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي (ت، ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ج١، ص٥٥.
- (٣) الحموي، م.ن، ج١، ص٥٥؛ الإصطخري، إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي (ت، ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال، مراجعة: محمد شفيق غربال، الجمهورية العربية المتحدة، دار القلم، ١٣٨١هـ-١٩٦١م، ص٤٣؛ ابن حوقل، محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت، نحو ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩م، ص١٥٤؛ ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٣٨١، مادة "جند".
- (٤) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت، ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، فتوح البلدان، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، عمرو أحمد عطوة، الإسكندرية، دار ابن خلدون، (د.ت)، ص١٥٦؛ الإصطخري، المسالك والممالك، ص٤٣؛ شيخ الربوة، محمد بن أبي طالب =

وقد أسهمت الضرورات العسكرية في تقسيم بلاد الشام إلى هذه الأجناد، فأطلق مصطلح الجند على كل مكان استقر فيه المقاتلون المسلمون، وأقاموا معسكراً، فنسب هذا المعسكر إلى المكان الذي أقيم فيه، فقبل جند دمشق، جند حمص^(١)... إلخ، أو أطلق على كل ناحية يقبض الجند فيها أعطياتهم^(٢)، وبذلك استخدم هذا المصطلح للإشارة إلى وحدات عسكرية- إدارية تحوّلت فيما بعد إلى وحدات إدارية مالية مستقلة^(٣).

هذا وقد ذكرت بعض المصادر والدراسات أن تقسيمات الأجناد الإدارية هي استمرار للتقسيمات الإدارية البيزنطية^(٤)، وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنه ربّما كان للتقسيمات البيزنطية أثرها، ولكنّ الأجناد تختلف عنها من حيث حدودها ومراكزها حيث اتخذ العرب المدن الداخلية مراكز

= (ت، ٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص ٢٥٨؛ زيادة، نقولا، التطور الإداري لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٩٨٦م، ص ١٢٨.

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ٢، ص ٣٨١؛ هيوار، جند، دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة عن الأصيلين الإنكليزي والفرنسي، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتاوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣٣م، مج ٧، ص ١٨؛ حتي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة: كمال اليازجي، بيروت، دار الثقافة، ط ٣، ١٩٨٣م، ج ٢، ص ٢٢؛ خمّاش، نجدت، الشام في صدر الإسلام، دمشق، دار طلاس، ط ١، ١٩٨٧م، ص ٨٣.

(٢) البلاذريّ، فتوح البلدان، ص ١٥٦؛ الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٥٥-٥٦، ١٢٩.

(٣) Salibi, Kamal, Syria under Islam, empire on trial 634-1097, Lebanon, first published, 1977, p. 23. P. 23.

خزنة كاتبي، غيداء، الخراج منذ الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، (د. ت)، ص ١٢٠.

(٤) عن التقسيمات الإدارية البيزنطية، انظر: زيادة، التطور الإداري لبلاد الشام، ص ١١٨-١٢١.

للأجناد على عكس التنظيم البيزنطي الذي اتخذ مدناً ساحليةً، ويعود الأساس في تقسيم الشام أجناداً إلى الانتصارات التي حققتها الجيوش العربية الإسلامية التي خرجت من المدينة إلى الشام^(١).

كان جند دمشق^(٢) أهم أجناد الشام، وأكبرها مساحة، وأطولها مسافة، وهو يمتد بين البحر المتوسط غرباً، وجندي حمص وقتسرين شمالاً، وجندي الأردن وفلسطين والبحر الأحمر جنوباً، ويمتد شرقاً ليشمل جزءاً من بادية الشام^(٣)، وقصبتها دمشق^(٤)، وهو يقسم إلى كور^(٥) متعددة، تتنوع بين برية وبحرية، أما الكور^(٦) البحرية التي تقع على ساحل البحر، فهي من الشمال إلى الجنوب:

- (١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤١؛ خزنة كاتب، الخراج، ص ١٢٢.
- (٢) ذكرت بعض المصادر جند دمشق باسم جند جلق؛ ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت، ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨م، ج ١، ص ٤١؛ وجلق: هي اسم لكورة الغوطة أو هي دمشق نفسها؛ الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ١٧٩.
- (٣) Salibi, Syria, p.23.
- (٤) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٥؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٠؛ المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المعروف بالبشاري، (ت، نحو ٣٨٠هـ / ٩٩٠م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدمته وحواشيه وفهارسه: محمد مخزوم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، ص ١٣٦.
- (٥) الكورة: مصطلح جغرافي يعني كل صقع يشتمل على قرى عدة، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمعها؛ الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٥٤.
- (٦) تجدر الإشارة إلى أن بعض المصادر الجغرافية في القرن الرابع الهجري قسّمت جند دمشق إلى مدن ورساتيق كما عند الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٨؛ والمقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٣٦.

- عَرَقة^(١)

- طرابلس

- جُبيل

- بيروت

- صيدا^(٢)

- صور: ذكر ابن الفقيه أن منبرها (أي إدارتها) إلى دمشق، وخراجها إلى الأردن^(٣).

وأضاف ابن خُرْدَاذِبَه ضمن الكور البحرية جونيه^(٤) التي تقع على

ساحل البحر بين جبيل وبيروت.

(١) اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن واضح (ت، ٢٨٤هـ/٨٩٧م)، البلدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ٨٨؛ ابن الفقيه، أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني (ت، ٣٤٠هـ/٩٥١م)، البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، بيروت، عالم الكتب، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ص ١٥٦؛ ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت، ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، قسم لبنان والأردن وفلسطين، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م، ص ٩٢.

(٢) ابن خُرْدَاذِبَه، عبيد الله بن عبد الله (ت، ٣٠٠هـ/٩١٢م)، المسالك والممالك، إعداد وتقديم: خير الدين محمود قبلاوي، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٩م، ص ١١٢؛ ابن الفقيه، البلدان، ص ١٥٦؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٨٨؛ ابن شداد، الأعلام، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ٩٢.

(٣) البلدان، ص ١٥٦.

(٤) المسالك والممالك، ص ١١٢.

أما الكور البرية، فيمكن تقسيمها حسب موقعها بالنسبة لدمشق إلى الكور الآتية:

- الغوطة^(١)، وفيها مدينة دمشق مركز الجند، وتضمُّ قرىً كثيرة.

• الكور الواقعة شمال دمشق:

- جبل سنير^(٢)، وهو بين حمص وبعلبك على الطريق، وهو اليوم جبال القلمون ومن ضمنها جبال لبنان الشرقية، يمتد نحو الجنوب الغربي حتى جبال الزبداني^(٣).

- القريتين^(٤) التي تقع على طريق دمشق تدمر، إلى الجنوب الشرقي من حمص^(٥).

• الكور الواقعة شمال غرب دمشق:

- البقاع ومدينتها بعلبك.

(١) اليعقوبي، البلدان، ص ٨٧.

(٢) ابن خُرْداذبَه، المسالك والممالك، ص ١١٢؛ ابن الفقيه، البلدان، ص ١٥٦؛ اليعقوبي، البلدان، ص ٨٧.

(٣) عطوان، حسين، الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي، بيروت، دار الجيل، ط ١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ص ٤٤.

(٤) ابن الفقيه، البلدان، ص ١٥٦؛ الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٧٠.

(٥) الحلو، عبد الله، تحقيقات تاريخية لغوية في الأسماء الجغرافية السورية استناداً للجغرافيين العرب، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، ط ١، ١٩٩٩م، ص ٢٣٤، ٤٤٧؛ عطوان، الجغرافية التاريخية، ص ٤٥.

- جبل الجليل^(١).

- إقليم لبنان^(٢).

• الكور الواقعة جنوب غرب دمشق:

- الجولان ومدينتها بانياس^(٣)، التي تقع على السفح الجنوبي لجبل الشيخ^(٤).

- الحولة^(٥)، وهي تحتوي على بحيرة الحولة، وتمتد سهولها عند المجرى الأعلى لنهر الأردن إلى الجنوب الغربي من بانياس^(٦).

• الكور الواقعة جنوب دمشق:

تنتشر معظم كور جند دمشق في جنوب مدينة دمشق، وهي من الشمال إلى الجنوب:

- الجابية^(٧).

- حوران ومدينتها بصرى.

(١) اليعقوبي، البلدان، ص ٨٨؛ ابن شداد، الأعلام، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ٣٧، ٤١.

(٢) ابن خُرْدَاذَبَه، المسالك والممالك، ص ١١٢.

(٣) اليعقوبي، البلدان، ص ٨٧؛ ابن شداد، الأعلام، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ٤١.

(٤) الحلو، تحقيقات تاريخية لغوية، ص ٢٣٥ - ٢٣٦؛ بانياس: في سورية منطقتان تعرفان بهذا الاسم (إضافة إلى بانياس أحد فروع بردى)، الأولى على السفح الجنوبي لجبل الشيخ، وتعرف باسم (بانياس الداخل) لتمييزها من الثانية التي تقع على الساحل.

(٥) ابن الفقيه، البلدان، ص ١٥٦؛ الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٧٠.

(٦) الحلو، تحقيقات تاريخية لغوية، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٧) ابن خُرْدَاذَبَه، المسالك والممالك، ص ١١٢؛ ابن الفقيه، البلدان، ص ١٥٦.

- البثنية ومدينتها أذرعات^(١)، وهي بلد في أطراف الشام، يجاور أرض
البلقاء وعمّان، وهي اليوم مدينة درعا بسورية، وتقع على سبعين
ميلاً إلى الجنوب من دمشق^(٢).

- الظاهر ومدينتها عمّان.

- الغور ومدينتها أريحا^(٣)، التي تقع على الضفة الغربية من نهر الأردن،
بينها وبين عمّان أربعة وعشرون ميلاً^(٤).

- زُغر^(٥) في الطرف الجنوبي الشرقي من البحيرة الميتة، وهي اليوم غور
الصافي بالأردن^(٦).

- مآب^(٧) التي تقابل الطرف الجنوبي الشرقي من البحيرة الميتة، وهي
مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء، بينها وبين عمّان نحو خمسة
وستين ميلاً، وهي اليوم محافظة الكرك بالأردن^(٨).

(١) اليعقوبي، البلدان، ص ٨٧؛ ابن الفقيه، البلدان، ص ١٥٦.

(٢) عطوان، الجغرافية التاريخية، ص ٤٧.

(٣) اليعقوبي، البلدان، ص ٨٧-٨٨؛ ابن شداد، الأعلام، قسم لبنان والأردن وفلسطين،
ص ٤١.

(٤) عطوان، الجغرافية التاريخية، ص ٤٨.

(٥) اليعقوبي، البلدان، ص ٨٧-٨٨؛ ابن شداد، الأعلام، قسم لبنان والأردن وفلسطين،
ص ٤١.

(٦) عطوان، الجغرافية التاريخية، ص ٤٩.

(٧) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١١٢؛ ابن الفقيه، البلدان، ص ١٥٦؛ اليعقوبي،
البلدان، ص ٨٧.

(٨) عطوان، الجغرافية التاريخية، ص ٥٠.

- جبال ومدنتها عرندل^(١)، وتشكل منطقة جبال قسم من الشراة جنوبي البحر الميت، وتقع عرندل إلى الشمال الشرقي من بتر^(٢).
- الشراة (شرقي البحر الميت) ومدنتها أذرح^(٣)، التي تقع شرقي بتر على تخوم الصحراء العربية^(٤).

أما المناطق الداخلية من جند دمشق التي تقع في بادية الشام إلى الشرق والجنوب من معان - التي تتبع كورة الشراة - فهي تعرف عند المؤرخين والجغرافيين بـ "مشارف الشام"^(٥) و"أرض الشام"^(٦) و"أطراف الشام"، وهي تشكّل مناطق الحدود بين الشام والحجاز، وتشمل مقنا، وتبوك، وذات السلاسل، ودومة الجندل، فمقنا تقع في الطرف الجنوبي الشرقي من خليج العقبة^(٧)، وتقع تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر^(٨)، وتبعد ٢٥٠ ميلاً إلى الجنوب من عمّان، وتقع بعدها ذات السلاسل

- (١) اليعقوبي، البلدان، ص ٨٧-٨٨؛ ابن شداد، الأعلام، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ٤١.
- (٢) الحلو، عبد الله، تحقيقات تاريخية لغوية، ص ٣٩٠.
- (٣) اليعقوبي، البلدان، ص ٨٧-٨٨؛ ابن شداد، الأعلام، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ٤١.
- (٤) الحلو، تحقيقات تاريخية لغوية، ص ٦٦.
- (٥) ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت، ٥٧١هـ / ١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من أروادها وأهلها، دراسة وتحقيق: علي شيري، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ج ٢، ص ٢٤؛ عطوان، الجغرافية التاريخية، ص ٥٢.
- (٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٨٣.
- (٧) عطوان، الجغرافية التاريخية، ص ٥٢.
- (٨) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ١١٢؛ ابن الفقيه، البلدان، ص ١٥٦.

بمنطقة العلا بين ينبع والوجه على بعد ١٦٠ ميلاً إلى الشمال الغربي من المدينة^(١)، وتقع دومة الجندل بين دمشق والمدينة على بعد سبع مراحل من دمشق، وتبعد ٣٦٠ ميلاً إلى الشمال من المدينة^(٢).

ومما هو جدير بالذكر أنه مع العصر الإخشيدي في القرن الرابع الهجري / ١٠م طرأ بعض التعديل على جند دمشق، ففصلت بعض المناطق عنه، وألحقت بالأجناد المجاورة^(٣).

وتقسم البنية الجغرافية لجند دمشق - عند المقدسي - من الغرب إلى الشرق إلى أربعة صفوف، هي: الصف الأول ويشمل مدن الساحل، والصف الثاني ويضم منطقة الجبال الغربية، ومنطقة البقاع، والصف الثالث وهو منطقة الأغوار، أما الصف الرابع فهو سيف البادية، وهو جبال عالية باردة متصلة مع البادية، وفيه من البلدان: مآب، وعمّان، وأذرعان، ودمشق^(٤).

وهذا الوصف الذي قدّمه المقدسي قريب من الوصف الذي يقدمه علماء الجغرافيا الآن لتضاريس منطقة جند دمشق، وقد قسموها من الغرب إلى الشرق إلى خمس مناطق تضريرية وهي:

١ - السهل الساحلي: يمتدُّ على هيئة شريط مواز للبحر فيما بين البحر المتوسط وجبال لبنان الغربية، وهو يتّجه من الشمال الشرقي نحو الجنوب

(١) عطوان، الجغرافية التاريخية، ص ٥٢.

(٢) الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٥٤؛ عطوان، الجغرافية التاريخية، ص ٥٣.

(٣) حول هذا التعديل، انظر: الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٤ - ٤٨؛ ابن حوقل،

صورة الأرض، ص ١٦٠ - ١٧١؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٣٦ - ١٥٢.

(٤) المقدسي، م.ن، ص ١٦٠.

الغربي، ويشرف على الساحل اللبناني، ويختلف اتساعه بين موقع وآخر، فهو مُتَّسِعٌ نسبياً في الشمال والجنوب، وضيَّقٌ في الوسط^(١).

٢- جبال لبنان الغربية: تشكّل قسماً من سلسلة جبال وهضاب مرتفعة تبدأ في شمالي سورية، وتنتهي بجبال سيناء جنوباً، وهي تُمثّل أعلى جزء في هذه السلسلة وأكثرها وعورة وأروعها منظراً، وتُشكّل وحدة طبيعية متميّزة تمتدُّ في اتّجاهٍ عام من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي في اتجاه مواز للساحل، وهي عريضة في الشمال وضيقة في الجنوب، ويصل أعلى ارتفاع لها في قمة القرنة السوداء التي تصل إلى ٣٠٩٠ متراً، وتمثّل جبال لبنان الغربية التواء محدّباً، وهي تشرف على سهل البقاع بجروفٍ شديدة الانكسار^(٢).

٣- سهل البقاع والأخدود الأردني: أمّا سهل البقاع فيفصل بين سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية، ومتوسط ارتفاعه عن سطح البحر ٨٠٠ متر، وهو في أواسطه أعرض مما هو عليه في طرفيه، وتطلُّ عليه جبال لبنان الشرقية والغربية بحافات شديدة الانحدار^(٣)، ويتّصل سهل البقاع جنوباً بالأخدود الأردني الذي ينحصر بين السلسلتين الجبلتين الغربية والشرقية، ويقسم الأخدود الأردني من الشمال إلى الجنوب إلى وحدات تضاريسية مميّزة هي: وادي الأردن، وحوض البحر الميت، ووادي عربة^(٤).

(١) جوده، جوده حسنين، جغرافية لبنان الإقليمية، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٨٥م، ص ٣٧-٣٨.

(٢) جوده، م.ن، ص ٤٠-٤٢.

(٣) جوده، م.ن، ص ٤٥-٤٧.

(٤) الروسان، نايف وآخرون، جغرافية الأردن، عمّان، دار الشروق، ١، ٢٠٠١م، ص ٢٠.

٤ - سلسلة لبنان الشرقية: وهي تقابل سلسلة لبنان الغربية، وهي تشكّل شريطاً من المرتفعات العالية، وهي ذات محور رئيسي متجه من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي، وأعلى ارتفاع لها في قمة جبل الشيخ، ويصل إلى ٢٨١٤ متر، وتقسم سلسلة لبنان الشرقية إلى وحدات جبلية أصغر وهي: كتلة لبنان الشرقي، وسلاسل القلمون في شمال دمشق، وتشكّل حفرة الزبداني صلة الوصل بين كتلة لبنان الشرقي، وسلاسل القلمون في الشمال الشرقي، وجبل الشيخ في الجنوب الغربي^(١).

وتمتد سلسلة لبنان الشرقية من جبل الشيخ نحو الجنوب حيث تندمج بجبل العرب في حوران، ثم تندمج بالمرتفعات الأردنية التي تمتد محاذية لمنطقة الأحدود الأردني من جهة الشرق، وتقسم المرتفعات الأردنية من الشمال إلى الجنوب إلى عدة أقسام هي: جبال عجلون، وجبال البلقاء، وجبال موآب، وجبال الشراة، وجبال الجرائنية^(٢).

وتمتد إلى الشرق من سلاسل القلمون السلاسل التدمرية، وهي ثلاث سلاسل تمتد بطول ٢٤٠ كم من الضمير شرقي دمشق حتى واحة السخنة في الشمال الشرقي، وتتميز هذه السلاسل بأنها قليلة الارتفاع^(٣).

وتجدر الإشارة إلى انتشار سهول وأحواض جبلية في سلاسل لبنان الشرقية والتدمرية، وهي أحواض متشكّلة في قلب الجبال أو على هوامشها،

(١) عبد السلام، عادل، جغرافية سورية، دمشق، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ج ١، ص ٩١ - ٩٣؛ جوده، جغرافية لبنان، ص ٤٨ - ٤٩.

(٢) الروسان وآخرون، جغرافية الأردن، ص ٥٢ - ٢٦.

(٣) عبد السلام، جغرافية سورية، ج ١، ص ١٠٢ - ١٠٥.

وأهمها: حوض دمشق، ويقسم إلى قسمين غربي يعرف بالغوطة، وشرقي يعرف بالمرج^(١).

٥- بادية الشام: وهي تمتدّ إلى الجنوب من السلاسل التدمرية وشرقي جبل العرب والجلال الأردنية، وهي تتّصف بقلة الأمطار والمياه الجارية السطحية والجفاف، وهي ذات تربة رملية أو حصوية أو حجرية، وتنتشر على سطحها الكثبان الرملية^(٢).

يسودّ جند دمشق مناخٌ متوسّطي معتدل في المناطق الساحلية، ومناطق الجبال بينما يسود دمشق مناخ جاف^(٣)، لوجودها خلف سلسلة جبال لبنان الشرقية التي تحجب عنها المؤثرات البحرية، ويزداد هذا المناخ جفافاً كلما اتّجهنا شرقاً حيث يسود مناخ شبه صحراوي في بادية الشام.

أما الرياح التي يتعرّض لها، فهي بشكل عام رياح غربية، وجنوبية غربية، وشمالية غربية، وتعرّض الأجزاء الداخلية منه للعواصف الرملية أحياناً^(٤).

أما الحرارة فهي معتدلة صيفاً وشتاءً في الأجزاء الغربية، ومرتفعة صيفاً وباردة شتاءً في الأجزاء الداخلية لبعدها عن المؤثرات البحرية، وقربها من الصحاري العربية، وتأثرها بمناخها^(٥).

(١) عبد السلام، م.ن، ج ١، ص ١٣٩-١٤٣.
(٢) عبد السلام، جغرافية سورية، ج ١، ص ٢١٠-٢١١؛ الروسان وآخرون، جغرافية الأردن، ص ٢٨-٣٠.

(٣) خير، صفوح، مدينة دمشق، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، ١٩٦٩م، ص ٤٨.

(٤) خير، م.ن، ص ٥٨-٦١.

(٥) خير، م.ن، ص ٥٣-٥٤.

أما الأمطار فهي أمطار شتوية غزيرة على الساحل وفوق الجبال، وتتناقص كلما اتجهنا شرقاً، فمعدّل الأمطار في دمشق لا يزيد على ٢١٥ ميلمتراً سنوياً^(١)، وقد يكون بعض التّهطال ثلجياً، ولا سيّما فوق المرتفعات الجبلية.

وتشتهر منطقة جند دمشق بوفرة مياهها التي ساعدت على استقرار الإنسان فيها منذ القديم، وتأتي هذه المياه من مصادر عديدة هي: الأنهار، العيون والينابيع، والبحيرات، أما الأنهار فتقسم إلى قسمين:

- الأنهار الساحلية: وهي التي تنبع من الجبال الغربية، وتصبُّ في البحر، وتصفّ بشدّة الانحدار وسرعة الجريان، ومنها: الكبير الجنوبي، البارد، قاديشا، إبراهيم، الكلب، بيروت، الدامور، الأولى^(٢).

- الأنهار الداخلية: وهي التي تجري في داخل البلاد، وتصبُّ في بحيرات داخلية أو في البحر المتوسط، وهي ذات فائدة اقتصادية كبيرة للزراعة، وأهمها:

- نهر بردى: تدين دمشق بوجودها إليه، فهو يزودها ويزود سكانها وزراعتها بالماء منذ القديم إلى الآن، وهو ينبع من سهل الزبداني، ثم ترفده مياه عين الفيحة، وينقسم عند خانق الربوة إلى سبعة فروع تتوزّع في أنحاء المدينة، وهذه الفروع هي: يزيد وتورا على ضفّته اليسرى، والمزاوي والداراني والقنواقي والباياصي على ضفّته اليمنى، أما الفرع السابع فهو مجرى النهر الأصلي

(١) خير، م.ن، ص ٤٩.

(٢) جوده، جغرافية لبنان، م.س، ص ٨٢-٨٦.

الذي يمتد بين الفروع الغربية والشرقية، وتتوزع مياه هذه الفروع، فتروي دمشق وغوطتها، وتنتشر على ضفافها القصور والأبنية^(١).

- نهر الليطاني: ينبع من هضبة بعلبك، ثم يتجه جنوباً فيروي قري البقاع، ثم ينحرف في مجراه الأسفل غرباً لينفذ إلى السهل الساحلي، ويصب في البحر المتوسط عند بلدة القاسمية شمال مدينة صور^(٢).

- نهر الأعوج: ينبع من قرية عرنة في السفح الشرقي لجبل الشيخ، ثم يتجه نحو الشمال الشرقي، فيروي مرج دمشق، وينتهي مجراه في بحيرة الهيجانة شرقي دمشق^(٣).

- نهر الأردن: ينبع من جبل الشيخ، ويتشكل من التقاء روافد ثلاثة هي بانياس والحاصباني والداني، وهذه الروافد تتجمع مكونة نهر الأردن الذي يتجه جنوباً، فيصب في بحيرة طبرية، وبعد أن يخرج منها يرفده نهر اليرموك الذي ينبع من جبل طابور^(٤)، ويرفده إلى الجنوب منه نهر الزرقاء

(١) لإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٥؛ ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى (ت، ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: دوروتيا كرافولسكي، بيروت، المركز الإسلامي للبحوث، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، ص ١٨٣ - ١٨٦؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٦١ - ٢٦٥؛ القلقشندي، أحمد بن علي (ت، ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ج ٤، ص ٩٨ - ٩٩.

(٢) جوده، جغرافية لبنان، ص ٨٧.

(٣) عطوان، الجغرافية التاريخية، ص ٤٦.

(٤) الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٩٧.

الذي ينبع من نواحي معان^(١)، ويتابع نهر الأردن جنوباً حتى يصبّ في البحر الميت، وبذلك فهو يروي سهول الحولة، وضياع الغور، هذا وقد جعل ياقوت الحموي نهر الأردن أردنين، إذ سُمى القسم الممتدّ من المنبع إلى بحيرة طبرية الأردن الكبير، وسُمى القسم الممتدّ من بحيرة طبرية نحو الجنوب حتى البحر الميت باسم الأردن الصغير^(٢).

وشكّلت العيون والينابيع مصدراً مهمّاً من مصادر المياه للشرب والري، وقامت في ظلّها زراعات كثيرة، إضافة إلى أن هذه العيون والينابيع كانت تغذي الأنهار دائمة الجريان، فقد اشتهرت غوطة دمشق بينابيعها، فلا توجد قرية من قرأها خالية من نبع أو عين، وتوزّع مياه هذه العيون وفق نظام دقيق بحيث تأخذ كلُّ أرضٍ حقّها^(٣)، واشتهر جبل لبنان بعيون الماء العذبة الكثيرة، ومنها: نبع رأس العين الكبير في ظاهر مدينة بعلبك، وهو ينبع من سطح سلسلة لبنان الشرقية، ويتّصف بصفاء مائه، ويزوّد بعلبك، ويروي بساكنها ومروجها، وهناك عين اللجوج التي تروي الجانب الشمالي من بعلبك^(٤)، وهناك عين الجر جنوب بعلبك، وهي تسقي ضياع البقاع ومزرعاتها^(٥)، وهناك ينابيع نهر العاصي (اللبوة والهرمل) في شمال بعلبك،

(١) الحموي، م.ن، ج ٣، ص ١٥٤.

(٢) الحموي، م.ن، ج ١، ص ١٧٧.

(٣) كرد علي، محمد، غوطة دمشق، دمشق، المجمع العلمي العربي، ط ٢، ١٩٥٢م، ص ١١٨.

(٤) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٩٢ - ١٩٣؛ القلقشندي، صبح الأعشى،

ج ٤، ص ١١٣ - ١١٤.

(٥) الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٥٥٧.

ثم يتجه شمالاً فيروي سهول حمص وحماة، وهو يعرف في المصادر باسم نهر الأردن^(١)، وهناك عدّة عيون ماء في دومة الجندل تسقي ما بها من النخيل والزرع^(٢)، كما اشتهر غور الأردن بالعيون والأنهار^(٣).

ووجد في جند دمشق بحيرات عدّة استفيد منها في الشرب والري، منها: بحيرة بانياس "الحولة"، وبحيرة البقاع، وبحيرة العتبية وفيها يصب نهر بردى، وهناك بحيرة طبرية وهي تقع في جند الأردن، وقرب جند دمشق^(٤)، وهناك البحر الميت في الغور قرب زغر، ويعرف أيضاً بالبحيرة المتنة^(٥).

وتميز جند دمشق بسهوله الزراعية الخصبة، كما تميز بموقعه المتميز بالنسبة للتجارة العالمية إذ كانت تمرّ فيه منذ القديم أبرز طرق التجارة العالمية الواصلة بين قارات العالم القديم آسيا وأفريقيا وأوروبا، كما اشتهرت موانئه صيدا وبيروت وطرابلس وصور بنشاطها التجاري الكبير منذ القديم^(٦).

الهيئة العامة

البيروتية للكتاب

- (١) ابن خُرْداذبَه، المسالك والممالك، ص ٢٣٦.
- (٢) الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٥٤.
- (٣) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٥.
- (٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨٦ - ٨٧.
- (٥) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٧؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٩.
- (٦) سيرد تفصيل ذلك في الفصل الثالث.

الفصل الأول

الوضع السياسي والإداري في جند دمشق

أ - الوضع السياسي:

- ١ - المدّة العباسية الأولى ١٣٢ - ٢٦٤هـ / ٧٥٠ - ٨٧٧م.
- ٢ - العصر الطولوني ٢٦٤ - ٢٩٢هـ / ٨٧٧ - ٩٠٤م.
- ٣ - المدّة العباسية الثانية ٢٩٢ - ٣٢٣هـ / ٩٠٤ - ٩٣٤م.
- ٤ - العصر الإخشيدي ٣٢٣ - ٣٥٩هـ / ٩٣٤ - ٩٦٩م.

ب - الوضع الإداري:

- ١ - الوالي.
- ٢ - الكاتب.
- ٣ - الحاجب.
- ٤ - صاحب الخراج.
- ٥ - صاحب البريد.
- ٦ - صاحب المعونة.
- ٧ - صاحب الشرطة.
- ٨ - القاضي.
- ٩ - صاحب المظالم.



الهيئة العامة
السنورية للكتاب

الوضع السياسي والإداري في جند دمشق

أ- الوضع السياسي:

توزع ارتباط جند دمشق في المدة ١٣٢ - ٣٥٩هـ / ٧٥٠ - ٩٦٩م ما بين الخلافة العباسية والدول التي استقلت عنها في مصر والشام، فكان يتبع الخلافة العباسية من ١٣٢هـ / ٧٥٠م إلى ٢٦٤هـ / ٨٧٧م، ثم ارتبط بالدولة الطولونية من ٢٦٤هـ / ٨٧٧م إلى ٢٩٢هـ / ٩٠٤م، ثم عاد يتبع الخلافة العباسية من ٢٩٢هـ / ٩٠٤م إلى ٣٢٣هـ / ٩٣٤م، ثم ارتبط بالدولة الإخشيدية من ٣٢٣هـ / ٩٣٤م إلى ٣٥٩هـ / ٩٦٩م.

وعليه يمكن تقسيم الوضع السياسي إلى أربع مُدَدٍ هي:

١- المدة العباسية الأولى ١٣٢ - ٢٦٤هـ / ٧٥٠ - ٨٧٧م.

٢- العصر الطولوني ٢٦٤ - ٢٩٢هـ / ٨٧٧ - ٩٠٤م.

٣- المدة العباسية الثانية ٢٩٢ - ٣٢٣هـ / ٩٠٤ - ٩٣٤م.

٤- العصر الإخشيدي ٣٢٣ - ٣٥٩هـ / ٩٣٤ - ٩٦٩م.

١- المدة العباسية الأولى ١٣٢ - ٢٦٤هـ / ٧٥٠ - ٨٧٧م:

بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ / ٧٤٢م، وصل إلى عرش الخلافة الأموية خلفاء ضعاف، عُرف عنهم إهمال شؤون الحكم، والانغماس

في اللهو والترف، وممارسة سياسة التعصب القبلي، فذبّ الضعف في جسد الدولة الأموية، وزاد ذلك الصراعات بين أفراد البيت الأموي الطامحين في الوصول إلى عرش الخلافة، وانتهى آخرها بسيطرة مروان بن محمد على الحكم، وفي عهده بدأت الثورة العباسية^(١).

استفاد العباسيون الذين ورثوا الدعوة الهاشمية العلوية من ضعف الدولة الأموية، واستغلوا التذمر الذي كان يعم خراسان، فشرخوا دعوتهم فيها تمهيداً للثورة التي أعلنوها في شوال سنة ١٢٩هـ / حزيران ٧٤٧م^(٢)، فسيطرت قوات الثورة على خراسان، واتجهت نحو العراق، فاستولت على الكوفة التي أعلن فيها قيام الخلافة العباسية، وبُويع أبو العباس خليفةً في ربيع الأول سنة ١٣٢هـ / تشرين الأول ٧٤٩م.

في إثر ذلك اتجه الخليفة الأموي مروان بن محمد على رأس جيشه لمحاربة القوات العباسية، فالتقاهما قرب نهر الزاب في معركة دامت عدة أيام كانت نتيجتها هزيمة الجيش الأموي، وانتصار القوات العباسية التي

(١) للمزيد حول وضع الخلافة الأموية في أواخر عهدها، انظر: المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت، ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ج ٣، ص ٢٢٤ - ٢٤١.

(٢) العصفري، خليفة بن خياط (ت، ٢٤٠هـ / ٨٥٤م)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ص ٣٢٣؛ اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن واضح، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م، مج ٢، ص ٣٤٩.

كان يقودها عبد الله بن علي^(١)، وذلك في يوم السبت ١١ جمادى الثانية سنة ١٣٢هـ / ٢٦ كانون الثاني ٧٥٠م^(٢).

تابعت القوات العباسية زحفها نحو بلاد الشام، فسيطرت على مدن: حران، ومنبج، وقنسرين، وحلب، وحمص، دون مقاومة تذكر، بينما تراجع مروان بن محمد دون أن يلقي مساعدة من أهل الشام الذين سبوا له الكثير من المتاعب، حتى في دمشق نفسها فقد وثبت عليه القبائل القيسية، فاضطر لمغادرتها بعد أن جعل عليها الوليد بن معاوية بن عبد الملك.

وتابع الجيش العباسي بقيادة عبد الله بن علي زحفه بعد سيطرته على شمال بلاد الشام إلى أواسطها، فسيطر على بعلبك وعين الجر^(٣) "عنجر"، ثم اتجه إلى دمشق، فنزل المزة^(٤)، وأثناء ذلك وصل مدد جديد من أبي

(١) عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس (ت، ١٤٨هـ / ٧٦٥م): عم السفاح والمنصور، وهو الذي تولى قيادة الجيش العباسي الذي فتح دمشق، قام بثورة بعد وفاة السفاح، ودعا لنفسه بالخلافة، فأرسل إليه المنصور جيشاً بقيادة أبي مسلم الخراساني فهزمه؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣١، ص ٥٤.

(٢) الطبري، محمد بن جرير (ت، ٣١٠هـ / ٩٢٢م)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار سويدان، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، ج ٧، ص ٤٣٢؛ ابن كثير، إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت، ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)، البداية والنهاية، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد بن الموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ج ١٠، ص ٣٦.

(٣) عين الجر: موضع معروف بالبقيع بين بعلبك ودمشق؛ الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٠٠.

(٤) المزة: قرية تقع إلى الجنوب الغربي القريب من مدينة دمشق؛ الشهابي، قتيبة، معجم دمشق التاريخي، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٩م، ج ٢، ص ٢١٧.

العباس بقيادة صالح بن علي^(١) الذي نزل مرج عذراء^(٢) في ثمانية آلاف جندي، فتوزع قواد الجيش العباسي على أبواب دمشق كما يلي: عبد الله بن علي على الباب الشرقي، وصالح بن علي على باب الجابية، وأبو عون على باب كيسان، وبسام بن إبراهيم على باب الصغير، وحميد بن قحطبة على باب توما، وعبد الصمد، ويحيى بن صفوان، والعباس بن يزيد على باب الفراديس^(٣).

كان الوليد بن معاوية بن عبد الملك قد اتخذ كل التدابير اللازمة لمقاومة الجيش العباسي، مما أطال الحصار العباسي، إذ استمر شهراً ونصفاً، وقيل مئة يوم، وقيل خمسة أشهر، وقد دفعت مقاومة دمشق القوية العباسيين إلى اتباع تكتيك جديد؛ إذ بنوا برجاً على وجه السرعة مقابل المدينة، وصعد إلى أعلاه رجل صيِّت "ذو صوت عال"، وأخذ يؤلب سكان المدينة ضد الأمويين، ويثير العصبية القبلية، ومن أقواله "يا أهل دمشق ويلكم يا بني فلان، عمن

(١) صالح بن علي بن عبد الله بن عباس (ت، ١٥١هـ / ٨٦٨م): عم السفاح والمنصور، كان من قواد الجيش العباسي الذي فتح دمشق، وهو الذي لاحق مروان بن محمد، ثم ولي مصر وفلسطين، ثم مصر والشام؛ الصفدي، خليل بن أيبك (ت، ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)، =تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، تحقيق: إحسان بنت سعيد خلوصي وزهير حميدان، دمشق، دار البشائر، ط٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ص ١٦٠-١٦١.

(٢) مرج عذراء: من المروج في غوطة دمشق، ينسب إلى قرية عذراء من إقليم خولان؛ الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ١٠٣، ج٥، ص ١١٩.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص ٤٤٠؛ ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت، ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، مج٥، ص ٤٢٥؛ الشهابي، قتيبة، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٦م، ص ٤٥.

تقاتلون؟ عن مروان الذي قتل منكم فلاناً، وكان سيدكم، وفلاناً، وفعل بكم كذا، وقال فيكم كذا، وشتمكم بكذا؟"^(١).

أدت مثل هذه الأقوال إلى تشييط همم المدافعين عن دمشق، وإثارة العصبية القبلية بين اليمانية والقيسية^(٢)، فحصل صدام بين الفريقين حتى إنهم تشاتموا وتضاربوا في المسجد الجامع، فراسلت القبائل اليمانية عبد الله بن علي، ووعدته بفتح الباب الشرقي مقابل أن يمنحها الأمان، وأن ينتقم من أعدائها القيسية، واتفقت معه على لبس العمام الصفرة للتمييز من غيرها، لذلك لما دخل الجيش العباسي دمشق، أمر عبد الله بن علي أفرادَه بقتل كل من يلتقونه إلا من أعلم بصفرة^(٣).

ذكرت بعض المصادر أن طول مدة الحصار أجهد الناس داخل المدينة، ما دفعهم إلى إرسال يحيى بن بحر إلى عبد الله بن علي لطلب الأمان، فأجابه عبد الله إلى طلبه، فدخل يحيى دمشق، ونادى في الناس بالأمان، ثم طلب من عبد الله أن يكتب كتاب الأمان، فدعا عبد الله بدواة وقرطاس، ثم ضرب ببصره نحو المدينة، وإذا بالسور قد سيطر عليه الجيش العباسي، فقال ليحيى: قد دخلتها قسراً، فأجابه: لا والله ولكن غدراً، فقال عبد الله: "لولا ما أعرف من مودتك لنا أهل البيت لضربت عنقك"، ثم أمر أحد غلمانه بقوله: "خذ هذا العلم فاركزه في داره، وناد من دخل دار يحيى بن

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٧، ص ٤٢٤.
- (٢) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، تحقيق: محمود الفردوس العظم، دمشق، دار اليقظة العربية، ٢٠٠٠م، ج ٧، ص ٦٥٤؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٤٤٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٣٧.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٧، ص ٤٢٤.

بحر فهو آمن"، فدخلها كثير من الناس فلم يقتل فيها ولا في المنازل التي بعدها أحد، ونادى المنادي بعد أن قُتِلَ خلق كثير: الناس آمنون إلا خمسة هم: الوليد بن معاوية، ويزيد بن معاوية، وأبان بن عبد العزيز، وصالح بن محمد، ومحمد بن زكريا، ثم سار عبد الله بن علي إلى المسجد الجامع، فألقى خطبة، ذكر فيها بني أمية وجورهم، وما استحلوا من المحارم^(١).

كان دخول عبد الله دمشق في يوم الأربعاء ١٠ رمضان سنة ١٣٢هـ / نيسان ٧٥٠م^(٢)، فأباح المدينة لجنده ثلاث ساعات، وأباح نهبها ثلاثة أيام، وقتل الوليد بن معاوية وصلبه، وأمر بقتل كل مبيّض فيها، وأقدموا على هدم سور دمشق^(٣)، أو جزء منه، وقيل إن عدد القتلى بدمشق يوم دخول الجيش العباسي إليها وصل إلى خمسين ألفاً^(٤).

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٣٥٦؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٥، ص ٦٠-٦١، (ويرد عنده يحيى بن بحر باسم يحيى بن يحيى بن قيس الغساني (ت، ١٣٣هـ أو ١٣٥هـ / ٧٥٠م، ٧٥٢م)؛ كرد علي، محمد، خطط الشام، دمشق، مكتبة النوري، ط ٣، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ج ١، ص ١٤٥.

(٢) العصفري، تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٢٥؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٤٤٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٤٢٥، "جعل دخول العباسيين دمشق الأربعاء ٥ رمضان ١٣٢هـ".

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٣، ص ١١٦؛ ج ٧، ص ٦٥٤؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٤٣٨؛ ابن العبري، غريغوريوس الملطي (ت، ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)، تاريخ مختصر الدول، القاهرة، دار الآفاق، ط ١، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، ص ١٢٠.

(٤) المزني، يوسف (ت، ٧٤٢هـ / ١٣٤١م)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، مج ٢٠، ص ١٠١.

أقام عبد الله بن علي في دمشق خمسة عشر يوماً، أو خمسة وعشرين يوماً، ثم اتجه إلى فلسطين لملاحقة مروان بن محمد، وقد تمكنت القوات العباسية من اللحاق به، وأقدمت على قتله في قرية بُوَصير في صعيد مصر، وذلك في ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٣٢هـ / تموز ٧٥٠م^(١)، وأرسلت شارات الخلافة إلى أبي العباس، وبمقتل مروان بن محمد خسرت دمشق زعامتها في العالم الإسلامي، وتحول الدور الريادي إلى العراق الذي بات يحوي مركز الدولة العباسية.

ولم تقتصر ملاحقة العباسيين للأمويين على ما قاموا به في دمشق، بل لاحقوهم وأنصارهم أنى وجدوهم في كل المناطق التي سيطروا عليها، ومن ذلك المجزرة التي أقدم عليها عبد الله بن علي في فلسطين على نهر أبي فطرس، وفيها قتل أكثر من ثمانين رجلاً من الأمويين^(٢).

- (١) العصفري، تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٢٥-٣٢٦؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٤٣٨؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٦١؛ الأصفهاني، علي بن الحسين (ت، ٣٥٦هـ / ٩٦٧م)، الأغاني، تحقيق: لجنة من الأدباء بإشراف عبد الستار أحمد الفراج، بيروت، دار الثقافة، ط ٨، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، مج ٤، ص ٣٤٥.
- (٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٣، ص ١١٦، ج ٧، ص ٢٢٦؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٣٥٥؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٦١؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣١، ص ٤٥؛ روى الأوزاعي أن عبد الله بن علي "لما قدم الشام وقتل بني أمية، جلس يوماً على سريره، وعبيّ أصحابه أربعة أصناف: صنف بالسيوف المسلّة، وصنف معهم الجزرة، وصنف معهم الأعمدة، وصنف معهم الكافر كوب"؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)، كتاب تذكرة الحفاظ، وضع حواشيه: زكريا عميرات، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ج ١، ص ١٣٦.

أدت سياسة العنف والبطش التي اتبعتها العباسيون ضد الأمويين وأنصارهم إلى انتشار الرعب والذعر، لكنها لم تفلح في نزع ولاء أهل الشام للأمويين، فنشأت حركة السفيناني "ملحمة السفيناني" التي كانت ترغب في إحياء الدولة الأموية^(١)، وكانت تعبر عن هذا الولاء بثورة بين الحين والآخر، ومن جهة أخرى أدت هذه السياسة إلى ردّات عنيفة عند أهل الشام الذين خسروا الامتيازات التي كانت لهم في العصر الأموي، وتمثلت هذه الردّات في ثورات عنيفة بدأت منذ مطلع العصر العباسي، ففي سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م ثار حبيب بن مرة المري أحد قواد مروان بن محمد في حوران والبثنية، بسبب استيائه من سياسة العباسيين المتحيزة لليمانية، وخشيته على نفسه وقومه من غدر العباسيين، وجرت بينه وبين عبد الله بن علي صدامات متعددة غير حاسمة، لكن عبد الله اضطر إلى مصالحته بعد أن بلغه خبر ثورة قنّسرين، فاتجه للقضاء عليها بعد أن استخلف على دمشق أبا غانم عبد الحميد بن ربيعي الطائي في أربعة آلاف مقاتل^(٢).

نقض حبيب بن مرة الصلح بعد مغادرة عبد الله بن علي دمشق، واتجه نحوها، وكان أهلها قد ثاروا بقيادة عثمان بن عبد الأعلى بن سراقبة الأزدي^(٣)،

(١) بيضون، إبراهيم، الشام والدعوة العباسية، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ٤٥؛ كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ١٤٨.

Salibi, Syria, - p.38

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٤٤٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٤، ص ٦٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٥، ص ٤٣٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٤٣.

(٣) لبلاذري، أنساب الأشراف، ج ٧، ص ٦٦٦ - ٦٦٧؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٤٤٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٨، ص ٤٢٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٥، ص ٤٣٣؛ بيضون، الشام والدعوة العباسية، ص ٤٦.

وخلعوا طاعة العباسيين، وهاجموا الجيش المرابط فيها، ونهبوا أحمال عبد الله بن علي، وأسرته، وأمواله، وطردهوا عامل العباسيين، ما اضطر عبد الله للعودة مسرعاً إلى دمشق بعد أن قضى على ثورة قنسرين.

ذكر البلاذري أن ثمانين ألفاً من سكان دمشق خرجوا لقتال عبد الله بن علي، فاضطر إلى إثارة العصية القبلية لتشتت جمعهم، فقد خاطب القبائل اليمانية مذكراً إياها بالدور الذي قامت به في نشر الدعوة، وفتح دمشق، فانسحبت وتبعتها قبائل ربيعة، مما أوقع الرعب في قبائل مضر التي انسحبت لتنضم إلى حبيب بن مرة في حوران، فدخل عبد الله دمشق دون حرب، وأمن أهلها، ثم اتجه إلى حوران، فقضى على ثورتها، في صفر سنة ١٣٣هـ / ٧٥٠م، وهرب حبيب بن مرة إلى البادية^(١).

وفي سنة ١٣٥هـ / ٧٥٢م ثار الجراجمة^(٢) في لبنان والبقاع بقيادة المقدم إلياس الذي نهب البقاع وقراه، فأرسل إليه عبد الله بن علي رسلاً للتفاهم

(١) أنساب الأشراف، ج٧، ص٦٦٧.

(٢) الجراجمة: لقبوا بالمردة أي العصاة لعصيانهم أمر ملك الروم في عدم التعرض للعرب، وعرفوا باسم الجراجمة نسبة إلى مدينة جرجومة على جبل اللكام بالثغر الشامي، وقد صالح الجراجمة المسلمين على أن يكونوا أعواناً لهم، وعيوناً في جبال اللكام، ودخل معهم من كان معهم في مدينتهم... وكانوا يستقيمون للولاة مرة، ويعوجون أخرى على المسلمين، وقد خرج قوم منهم في حرب مصعب بن الزبير إلى الشام مع قائد الروم، فتفرقوا في نواحي الشام، لا سيما لبنان، فصالحهم عبد الملك بن مروان على ألف دينار كل جمعة...؛ للمزيد حول الجراجمة ودورهم، انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص١٨٣-١٨٥؛ كرد علي، خطط الشام، ج١، ص١١٨-١٢١.

وعقد الصلح، ولكن دون جدوى، فاضطر الوالي إلى مهاجمته وقتله، غير أن قتل قائد الثورة لم يمه الثورة التي ما لبثت أن تجددت بقيادة سمعان ابن أخت إلياس الذي هزم عساكر الشام في قرية الشوير، فأخذوا يهددون المناطق المجاورة حتى حمص وحماه، ويقطعون الطرق، ولم يستطع المسلمون السيطرة عليهم لتحصنهم في الجبال المرتفعة^(١).

وفي سنة ١٣٦هـ / ٧٥٣م استغل أهل دمشق ثورة عبد الله بن علي ومطالبته بالخلافة^(٢)، فأعلنوا الثورة، وبايعوا هاشم بن يزيد بن خالد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان القائم بأمره عثمان بن عبد الأعلى بن سراقه الأزدي الذي شتم بني العباس على منبر دمشق^(٣)، فتحرك صالح بن علي (والي مصر) من فلسطين إلى دمشق، وقضى على ثورتها، وهرب كل من ابن سراقه وهاشم^(٤).

- (١) الشدياق، طنوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان، وقف عليه وناظر طبعه: المعلم بطرس البستاني، بيروت، ١٨٥٩ م، ص ٦٤٧؛ تدمري، عمر عبد السلام، لبنان من قيام الدولة العباسية حتى سقوط الدولة الإخشيدية (١٣٢ - ٣٥٨هـ / ٧٥٠ - ٩٦٩م)، طرابلس، جروس برس، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ص ١٧ - ١٨.
- (٢) حول ثورة عبد الله بن علي، انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٣، ص ١١٧ - ١٢٢؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٤٧٤ - ٤٧٨.
- (٣) الصفدي، خليل بن أبيك، أمراء دمشق في الإسلام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط ٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ١٠٨.
- (٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٧، ص ٦٥٦؛ الكندي، محمد بن يوسف (ت)، ٣٥٠هـ / ٩٦١م، كتاب ولاة مصر، ويليه تسمية قضاتها، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ٨٥؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣١، ص ٦٢.

وفي سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧م هاجم البيزنطيون طرابلس^(١)، ودخلوها، لكن إقامتهم فيها كانت قصيرة، إذ اضطر أسطولهم إلى التراجع نحو قبرص، ودفعت هذه الغزوة الخليفة أبا جعفر المنصور للتوجه إلى دمشق في سنة ١٤١هـ / ٧٥٨م، واتخذ بعض الإجراءات لحماية السواحل، فحصّن المدن الساحلية، وشحنها بالرجال^(٢)، وأنزل الأميرين التنوخيين "المنذر بن مالك" و"أرسلان" - اللذين كانا في معرة النعمان - مع عشيرتهما الجبال القريبة من بيروت لما عرف عنهما من شجاعة وقوة، ومنحهما إقطاعات وامتيازات كبيرة في لبنان^(٣).

وفي سنة ١٤٢ - ١٤٣هـ / ٧٥٩ - ٧٦٠م قامت ثورة في المنيطرة^(٤) بسبب ظلم عامل خراج بعلبك وجوره في فرض الضرائب، مما دفع أنباط جبل لبنان للقيام بالثورة معتمدين على دعم الأسطول البيزنطي الذي كان قرب سواحل طرابلس، وقد قاد الثورة شاب من أهل المنيطرة يقال له "بندار"، تسمى بالملك، فالتف حوله عدد كبير من الناس، وهاجم قرى

(١) ابن عساكر، م.ن، ج ١٨، ص ٢٦٧؛ ابن بدران، عبد القادر بن أحمد الدومي الحنبلي (ت، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م)، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، مطبعة روضة الشام، ١٣٣٢هـ، مج ٥، ص ٣٤١.

(٢) البلاذريّ، فتوح البلدان، ص ١٩١.

(٣) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٦٤٧؛ تدمري، لبنان، ص ٢١؛ شبارو، عصام محمد، تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، بيروت، دار مصباح الفكر، ١٩٨٧م، ص ٤٩ - ٥٠.

(٤) المنيطرة: حصن ساحلي بالشام قريب من طرابلس، يقع إلى الشرق من جبيل؛ الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٥١؛ الخلو، تحقيقات تاريخية لغوية، ص ٥٣٢.

البقاع ونهبها، وقتل المسلمين فيها، فنصبت له قوات بعلبك كميناً قتل عدداً كبيراً من أتباعه، فتحصن الناجون منهم في المنيطرة.

في إثر ذلك استنفر صالح بن علي (والي الشام ومصر) قوات دمشق والساحل وبعلبك، فاقتحمت هذه القوات المنيطرة، بينما هرب بندار وجماعة من أتباعه إلى بيزنطة^(١)، وأمر صالح بن علي ليضعف الأنباط في جبل لبنان بإخراجهم منه، وتوزيعهم في بلاد الشام وقراها^(٢).

ساد الهدوء جند دمشق في العقدين التاليين لوفاة الخليفة أبي جعفر المنصور سنة ١٥٨هـ / ٧٧٤م، ويظهر أن ذلك يعود إلى سياسة الشدة والحزم التي عرف بها^(٣)، ومراقبته عماله ومحاسبتهم إذا أساءوا التصرف كما فعل مع عبد الوهاب بن إبراهيم والي دمشق وفلسطين إذ عاقبه على تعصبه، ثم عزله^(٤).

قامت مع مطلع سنة ١٧٦هـ / ٧٩٢م فتنة بين القيسية واليمانية في دمشق، عرفت باسم فتنة أبي الهيثم نسبة إلى أبي الهيثم عامر بن عمارة بن خريم المري

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٨، ص ٢٦٧-٢٦٨؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٥، ص ٣٤١؛ حتي، فيليب، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة: أنيس فريجة، بيروت، دار الثقافة، ط ٣، ١٩٧٨م، ص ٣٢٧ - Salibi, Syria, p33-34.

(٢) ابن زنجويه، حميد (ت، ٢٥١هـ / ٨٦٥م)، كتاب الأموال، تحقيق: شاكر فياض، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ج ١، ص ٤١٩-٤٢٠؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٨٦؛ الملاح، حسين، الإمام الأوزاعي محدثاً وحافظاً، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص ٥٥.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٩٧.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٨، ص ٣٠١-٣٠٢.

الذي كان قائداً للقوات القيسية في هذه الفتنة، واختُلف في سبب هذه الفتنة، فقليل إن خروج أبي الهيثم يعود إلى أن عامل الرشيد في سجستان^(١) قتل أخاً له، فخرج أبو الهيثم في الشام، وجمع جمعاً كبيراً من الأتباع، وأعلن ثورته فاحتال الرشيد بأخ له ألقى القبض عليه، وأتى به إلى الرشيد، فعفا عنه وأطلقه^(٢)، في حين تعزو رواية أخرى سبب هذه الفتنة إلى نزاع فردي قام بين رجل يمني وآخر قيسي لأن القيسي أخذ بطيخة من مزرعة اليماني، وتطور النزاع بينهما إلى نزاع بين القبائل اليمانية والقيسية^(٣).

كانت بداية المشاحنات بينهما على الطريق الواصل إلى منطقة البلقاء، وامتدت المواجهات بينهما إلى غوطة دمشق، واستمرت مدة طويلة، وفي إثرها ألحقت القوات القيسية كثيراً من النهب والخراب والدمار بالقرى اليمانية في الغوطة، ومن القرى التي أصابها الخراب: داريا، بيت الآبار، عين ترما، بيت لهيا، ربض الفراديس، الأوزاع، مُقرى، حرلان، داعية، بيت سوا، حمورية، حجراء، زملكا، جواره، عربين، أرزونا، دقانية، بيت قوفا،

(١) سجستان (سيستان): هي البلاد السهلية حول بحيرة زره وفي شرقها، وهي تقع في جنوب خراسان، وكانت قاعدتها مدينة زرنج العظيمة؛ لسترانج، كي، بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية ووضع فهارسه: بشير فرنسيس - كوركيس عواد، بغداد، المجمع العلمي العراقي، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٢ - ٦٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ١٢٧؛ ابن تغري بردي، يوسف (ت، ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلّق عليه: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ج ٢، ص ٨٥.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٤؛ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٦٥.

بيت أبيات، قرى كثيرة^(١)، ويظهر من مجريات أحداث الفتنة^(٢) أنها تحولت إلى ثورة ضد الخلافة العباسية، إذ تمكن أبو الهيثام من السيطرة على دمشق، وطرد واليها، وإخراج من في السجن^(٣).

وجرت محاولات عديدة لإنهاء النزاع بالمصالحة بين القيسية واليمانية، غير أن هذه المحاولات لم تكمل بالنجاح، بسبب قدوم يمانية البقاع والأردن، ثم يمانية حمص للاشتراك بالثورة، ومساندة يمانية دمشق^(٤)، كما جرت محاولات عديدة من قبل بعض ولاة جند دمشق^(٥) لإنهاء الثورة، غير أن هذه المحاولات لم تجد نفعاً، إذ لم تنته الثورة حتى قدوم قوات كبيرة من بغداد بقيادة السندي بن شاهك، فأقنع أبا الهيثام بمغادرة دمشق إلى حوران، وأنهى الفتنة^(٦)، هذا وتذكر بعض المصادر أن الفتنة بين القيسية واليمانية استمرت فيما بعد، ما دفع الرشيد إلى إرسال موسى بن يحيى بن خالد -

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٧٢، ٧٥؛ وحول مواقع تلك القرى يمكن الرجوع إلى: كرد علي، غوطة دمشق، ص ٢١-٢٤؛ ٢١٨-٢٥٠.
- (٢) لمزيد من التفاصيل عن أحداث ثورة أبي الهيثام؛ انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٤-٨٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ١٢٧-١٣٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٨٥-٨٦.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ١٢٩.
- (٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٨، ٧٠، ٧٣.
- (٥) وهم: عبد الصمد بن علي، وإبراهيم بن صالح، إسحاق بن إبراهيم بن صالح؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٤-٦٦.
- (٦) ابن عساكر، م.ن، ج ٢٦، ص ٧٦-٧٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ١٣٢؛ يعقوبي، تاريخ يعقوبي، مج ٢، ص ٤١٠.

الذي ولاه الشام - وضم إليه القواد والأجناد والكتاب، فجاء دمشق في سنة ١٧٦هـ / ٧٩٢م، وقضى على الفتنة، وأصلح بين أهلها^(١).

وعلى الرغم من الاهتمام الذي أبداه الرشيد لتهدئة الأوضاع في دمشق، وإرساله خيرة قواده للقضاء على الفتن والاضطرابات، لم تلبث أن تجددت العصبية القبلية في سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦م، فأرسل حلها وزيره جعفر بن يحيى البرمكي، وخرج يودعه، ويوصيه بحل الأزمة، وأرسل معه قوات كثيرة، فجاء جعفر دمشق، وقضى على الفتنة، وأصلح بين أهلها، وجرّد السكان من السلاح، وعاد إلى بغداد بعد أن استخلف على دمشق عيسى بن العكي^(٢).

عرف جند دمشق حالة من الهدوء والاستقرار امتدت عدة سنوات (١٨٠ - ١٨٧هـ / ٧٩٦ - ٨٠٢م)، بفضل سياسة الوالي إبراهيم بن المهدي أخي الرشيد القائمة على تحقيق التوازن القبلي، وملاحقة الخارجين على سلطة الدولة^(٣)، ولكن ما إن عزل حتى اضطرت الأوضاع، فقد قامت

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٢٥١؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦١، ص ١٩٠، ٢٣٣ - ٢٣٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١٣٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ١٠٤.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٢٦٢ - ٢٦٣؛ الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت، ٣٢١هـ / ٩٣٣م)، الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٨هـ - ١٩٣٨م، ص ٢٠٨؛ الصولي، محمد بن يحيى (ت، ٣٣٥هـ / ٩٤٦م)، أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق، عني بنشره: ج. هيورث. دن، لبنان، دار الميسرة، ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨٢م، ص ١٠١، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٩، ١١٤.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧، ص ١٥٥ - ١٦١؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ٢٦٣ - ٢٦٨.

فتنة بين القيسية واليمنية في سنة ١٨٧هـ / ٨٠٢م بسبب تعصب الوالي شعيب بن خازم بن خزيمة، فأرسل الرشيد أحد القواد البارزين، وهو محمد بن منصور بن زياد لإصلاح الأمور، فدعا طرفي النزاع إلى الصلح، وحمل من بيت مال الرشيد ما كان بينهم من القتلى، وعفا عنهم^(١).

ساد جند دمشق حالة من الهدوء الظاهري في أواخر عهد الرشيد، ومطلع عهد الأمين، ولكن مع اضطراب الأوضاع في حاضرة الخلافة نتيجة الصراع بين الأمين والمأمون، اضطربت الأوضاع في دمشق، ولا سيما بعد أن أقدم الوالي منصور بن محمد المهدي - الذي ولي من قبل الأمين سنة ١٩٣هـ / ٨٠٨م - على سرق قلة الجامع الأموي، وبخصوص ذلك تذكر المصادر أن الأمين كان معجباً بالبلور (القلة) الموجود في الجامع الأموي، فطلب من منصور بن المهدي إرساله إليه، فأوعز منصور إلى داود بن عيسى صاحب شرطته بأخذ القلة، وإرسالها إلى الأمين، فلما بلغ الأمر إلى سكان دمشق غضبوا، وهاجموا الوالي وصاحب شرطته، فاضطرا للهروب من دمشق ليلاً^(٢)، وبلغ من اضطراب الأوضاع في دمشق أن اضطرت الخلافة إلى نقل الأموال من مصر إلى العراق عبر طريق الحجاز لفساد طريق دمشق^(٣).

- (١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٣٠٢؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٣، ص ٨٨-٨٩؛ ج ٥٦، ص ٣٤-٣٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ١٨٩.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٢٧٨، ج ٦٠، ص ٣٥٢-٣٥٤، (ذكر أن المأمون عندما استلم الخلافة ووجه عبد الله بن طاهر إلى دمشق أرسل القلة معه)؛ الصفدي، أمراء دمشق، ص ١٠٤؛ كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ١٦٣.
- (٣) بيطار، أمينة، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ١٣٢-٣٥٨هـ / ٧٥٠-٩٦٩م، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٠م، ص ٦٤.

ولم تمض مدة طويلة حتى قامت ثورة جديدة في دمشق سنة ١٩٥هـ / ٨١٠م، وامتد أثرها إلى السواحل والبقاع وحران، وهي ثورة أبي العميطة علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، الذي دعا لنفسه بالخلافة في ذي الحجة من السنة نفسها، وكان عمره آنذاك تسعين سنة، فرأى فيه بنو أمية السفيفاني المنتظر، وباعه عدد كبير من سكان دمشق، فحاصر الوالي سليمان بن أبي جعفر المنصور الذي اضطر للهروب من دمشق، فأرسل الأمين إليها الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان الذي أقام في الرقة، ولم يتابع طريقه^(١)، وفي هذا ما يشير إلى قوة أبي العميطة، وكثرة أتباعه.

اتخذ أبو العميطة الخضر^(٢) مقرّاً له، إذ كان يخرج منها راكباً يحيط به الحراس، وهم يرتدون القلانس الشاميات، وفي أيديهم المقارع^(٣)، وقد لاقت ثورته استجابة عدد كبير من سكان جند دمشق حيث بايعه أهل الساحل، ومنهم الخطاب بن وجه الفلس الذي خرج بصيدا^(٤)، وانفردت

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٤١٥؛ ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٣، ص ٢٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ٢٤٩؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، (ج. و) ١٩١ - ٢٠٠هـ، ص ٥٠٢.

(٢) الخضراء: هو القصر الذي بناه معاوية بن أبي سفيان، وكان يقع إلى الجنوب من الجامع الأموي؛ رجاوي، عبد القادر، قصور الحكام بدمشق، الحوليات الأثرية السورية، مج ٢٢، ج ١ - ٢، ١٩٧٣م، ص ٣٤.

(٣) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٣، ص ٣٢؛ ج ٦٥، ص ١٧٠.

(٤) ابن عساکر، م. ن، ج ٤٣، ص ٢٧ - ٢٨.

طرابلس من بين مدن الساحل برفض البيعة له، حتى إنه لما جاء إليها رسوله طرده أهلها^(١).

وجد أبو العميصر أن أموره لا تتم إلا بدعم اليمانية لذلك انحاز إليها، واعتمد عليها، وحاول كسب القيسية إلى جانبه، فكتب إلى زعيمها محمد بن صالح بن بيهس يدعوه إلى متابعتة، ولما لم يجبه أقدم على ملاحقة القيسية وقتلها، وسبي نساءها، فاستنجدت القيسية بزعيمها محمد بن صالح بن بيهس، فواقع قوات أبي العميصر عدة وقعات، وهزمها، وقتل عدداً كبيراً منها، وحاصر أبا العميصر في دمشق، فضعف أمره^(٢).

استغل ابن بيهس ذلك، فحرّض رؤساء بني نمير^(٣) على مبايعة مسلمة بن يعقوب بن علي بن محمد بن سعيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان، ويبدو أن قصده من ذلك ضرب الرجلين الواحد بالآخر، ثم غادر ابن بيهس إلى حوران، وقد نجحت خطته، فبذل بنو نمير البيعة لمسلمة بن يعقوب، فدخل الخضراء، وشدّ أبا العميصر بالحديد، وبدأ بأخذ البيعة لنفسه، فسنحت بذلك الفرصة لابن بيهس، بالعودة إلى دمشق، والسيطرة عليها في ١٠ محرم سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م، وهرب أبو العميصر ومسلمة بن يعقوب منها، فوجه المأمون - وكان قد تسلم الخلافة في المحرم من السنة

(١) ابن عساكر، م.ن، ج٤٣، ص٣١.

(٢) ابن عساكر، م.ن، ج٥٣، ص٢٥٨-٢٦٣.

(٣) بنو نمير: بطن من عامر بن صعصعة، من العدنانية؛ كحالة، عمر رضا، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ج٣، ص١١٩٥.

نفسها - إلى ابن بيهس كتاباً بولاية دمشق، فبقي متغلباً عليها إلى أن قدم عبد الله بن طاهر دمشق سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥م، فأخذ معه ابن بيهس إلى العراق، فمات فيها^(١).

ولم تنته محاولات أهل جند دمشق للخلاص من الحكم العباسي بعد إخفاق ثورة أبي العميطر، فلم تلبث أن ظهرت حركة جديدة بقيادة سعيد بن خالد بن محمد الفديني في منطقة البلقاء الذي ادعى الخلافة في أيام المأمون الأولى، واعتمد على اليمانية، وأخذ يلاحق القيسية، فوجه إليه محمد بن صالح بن بيهس جيشاً بقيادة أخيه يحيى بن صالح، هزم الفديني الذي اضطر إلى اللجوء إلى أحد الحصون في المنطقة، فتركه أصحابه، وانتهت ثورته^(٢).

ازداد الإهمال العباسي للشام مع وصول المأمون إلى الخلافة بمساعدة الفرس، فاستاء أهلها، وأخذوا يطالبون المأمون بالمساواة بين عرب الشام وعجم خراسان، فردّ المأمون: "... والله ما أنزلت قيساً من ظهور الخيل إلا وأرى أنه لم يبق من مالي درهم واحد، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحببني قط، وأما قضاة فسادتها تنتظر السفيناني وخروجه، فتكون من أشياعه، وأما ربيعة فساخطة على الله مذ بعث نبيه من مضر، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما ثائراً، اعزب فعل الله بك"^(٣).

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٢٦٠ - ٢٦٥؛ ج ٥٨، ص ٦٨ - ٧٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ٢٥٠.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢١، ص ٥٦ - ٥٧؛ ج ٦٣، ص ٢٧٢؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦، (مطبعة الرقي، ١٣٤٩هـ)، ص ١٢٥ - ١٢٦.
- (٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٦٥٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ٤٣٢ - ٤٣٣.

ولم تنقطع ثورات أهل دمشق مع عهد الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤١م)، ففي سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م ثارت القبائل القيسية في الغوطة والمرج ضد الوالي موسى بن إبراهيم بن سابق الراققي، وهزمت جيشه، وحاصرتة داخل دمشق، واستمر هذا الوضع إلى ما بعد وفاة المعتصم^(١).

ومما هو جدير بالذكر أنه في أواخر عهد المعتصم قامت ثورة أبي حرب المبرقع اليماني في فلسطين، إذ لجأ إلى جبال الأردن، وادّعى أنه من بني أمية، فدعي بالسفياني، واستجاب له أتباع كثير في الأردن ودمشق، فأرسلت الخلافة العباسية جيشاً بقيادة رجاء بن أيوب الحضاري قضى على ثورة المناطق الثائرة في دمشق، ثم قضى على ثورة المبرقع اليماني^(٢).

وفي سنة ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م امتدت الثورات إلى جبل لبنان، إذ قام المردة بثورة، فتصدى لهم الأمير التنوخي هانئ بن مسعود بن أرسلان، وانتصر عليهم، فلقب بالغضنفر أبي الأهوال، ووصلت أخبار انتصاراته إلى

(١) ابن الأثير، م.ن، مج ٦، ص ٥٢٨؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٤٨٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ١١٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٨، ص ٩٤؛ ج ٦٠، ص ٣٨٨؛ السرياني، مارميخائيل (ت، ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م)، تاريخ ميخائيل السرياني الكبير، ترجمة: مارغريغوريوس صليبا شمعون، حلب، دار ماردين، ط ١، ١٩٩٦م، ج ٣، ص ٧٤.

(٢) الفسوي، يعقوب بن سفيان (ت، ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م)، المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، مج ١، ص ٢٠٧؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٤٨٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ١١٦-١١٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٨، ص ٩٤؛ ج ٦٦، ص ١٣٥-١٣٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ٥٢٥.

الأمير خاقان التركي، فأرسل يشكره عليها، ويحثه على مواصلتها، ويخبره أنه بلغ الخليفة الواثق انتصاراته^(١).

وئارت دمشق في سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م ضد الوالي سالم بن حامد، وكان قد تولاهما من قبيل المتوكل، فدخلها في أربعة آلاف من قومه، فأذل كثيراً من أهلها تشفياً لخصومات ودماء كانت بينهما، مما أثار أهل دمشق، فقتلوه على باب الخضراء، مع كثير من أتباعه، ولما بلغ المتوكل خبر ذلك غضب، وأراد أن يثار لقاتده، وسأل عمه يتولى دمشق، ويكون في صولة الحجاج، فأشير عليه بأفريدون التركي، فوجهه إليها على رأس جيش قوامه عشرة آلاف جندي، وأطلق له القتل والنهب ثلاثة أيام، ولكن شاءت الأقدار أن تنجو دمشق من تهديدات أفريدون، إذ توفي قبل دخولها، فعاد العسكر إلى العراق دون أن يدخلها^(٢).

سار المتوكل في ذي القعدة سنة ٢٤٣هـ / ٨٥٧م من سامراء إلى دمشق، عازماً على جعلها مقر الخلافة، وإقدام المتوكل هذا يثير تساؤلات متعددة منها: لماذا فعل ذلك؟ لم اختار دمشق مع أنها مؤيدة للأمويين، وأهلها معروفون بكرهم للحكم العباسي، وثوراتهم لم تنقطع ضده، والمتعارف أنهم ينتظرون السفيناني؟.

- (١) كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ١٦٥؛ تدمري، لبنان، ص ٥٤.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٠، ص ٣٨ - ٣٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٤٣؛ الصفدي، خليل بن أيك، الوافي بالوفيات، باعتناء: جاكين سوبله وعلي عمارة، فيسبادن، فرانز شتاينر، ١٩٨٢م، ج ١٠، ص ٧٨ - ٧٩.

-Elisseeff, N, Dimashk, The encyclopaedia of islam, leiden, 1983, volume II, p. 281.

والواقع أن هناك أسباباً عميقة دفعت المتوكل لاتخاذ هذا القرار لم تفسح عنها المصادر، وتتعلق هذه الأسباب بالصراع على السلطة بين الخلفاء العباسيين وقادة جندهم من الأتراك، ذلك الصراع الذي برز منذ عهد المعتصم، وأدى إلى ضعف هيبة الخليفة، واستئثار الأتراك بمقدرات الدولة، لذلك عزم المتوكل على نقل مقر الخلافة إلى دمشق ذات الطابع العربي أملاً في التخلص من سيطرة الأتراك، وأضاف كرد علي أن المتوكل فعل ذلك "هرباً مما كان يحاذره من شدته على العراقيين"^(١)، ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما قيل عن مناخ دمشق، وصفاء جوها، وهوائها العليل، وإنما من أفضل مدائن الأرض، وأحسنها للسكنى^(٢).

دخل المتوكل دمشق في صفر سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م^(٣) عازماً على جعلها مقراً للخلافة، ونقل إليها دواوين الملك، وكان قد أمر المهندسين باتخاذ القصور له، فاختروا له قصرًا بين داريا ودمشق في موقع يشرف

(١) خطط الشام، ج ١، ص ١٦٦.

(٢) حول محاسن دمشق وفضائلها، انظر: الربيعي، علي بن محمد (ت، ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م) فضائل الشام ودمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، مطبعة الترقى، ١٩٥٠م؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٤٩١؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢١٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣١، ص ٢٣٤؛ ج ٣٨، ص ٢٢٦؛ ج ٤٨، ص ٢٢٢؛ ج ٦٣، ص ١٨٨؛ ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت، ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ج ١١، ص ٣٢٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٨٩ -

Elisseeff, Dimashk, vol II, p. 281

على المدينة وأكثر الغوطة، وكان يعرف بقصر المأمون؛ ولكن إقامة المتوكل بدمشق لم تطل مدتها، فقد غادرها بعد أن أقام بها شهرين وبضعة أيام راجعاً إلى سامراء، بسبب شغب الجند التركي عليه، ومحاولتهم اغتياله، وإيقاعهم العدا بينه وبين القائد التركي بغا الكبير الذي كان من أخلص أعوانه، لذلك لما قرّر المتوكل مغادرة دمشق، أرسل بغا الكبير لغزو الروم تجنّباً له^(١).

وتضيف المصادر أن المتوكل استوبأً البلد لعدد من العوامل الطبيعية منها: البراغيث كثيرة، والماء ثقيل، والهواء ندي، والرياح تهب مع العصر ولا تزال تشتد طوال الليل، وغزارة الثلج مما حال بين السابلة والميرة، وأدى إلى ضائقة في المؤن والنفقات عانى منها أتباع المتوكل وجيشه^(٢).

كل هذه الأسباب دفعت المتوكل إلى مغادرة دمشق بعد أن عين عليها الفتح بن خاقان التركي، فاستخلف عليها كلياتلين^(٣).

ساد دمشق حالة من الهدوء الظاهري بعد مغادرة المتوكل لها، ولكن مع تأزم الأوضاع في حاضرة الخلافة بعد مقتل المتوكل في سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م^(٤)، وسيطرة القادة الأتراك على مقاليد الأمور فيها، وقيام

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١١٥-١١٧.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢١٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٨٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٩٠؛ الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت، ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، بيروت، دار الكتاب العربي، (د.ت)، مج ٧، ص ١٦٨.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٠، ص ٢٢٦.

(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٤٩٢.

التنافس بينهم على المناصب، اضطرت الأوضاع في بلاد الشام^(١)، وهذا مما دفع عيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني الذي كان يلي الرملة منذ ٢٥٢هـ / ٨٦٦م، للقيام بتوسيع مناطق نفوذه، فسيطر على الأردن وفلسطين ودمشق في سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م، وأخذ مال الشام، وصادر المال الموجه من مصر إلى حاضرة الخلافة، وفرّقه على أصحابه، وبدأ يتطلع للسيطرة على كامل بلاد الشام، وحاول مدّ سيطرته إلى مصر^(٢).

حاول الخليفة المهدي (٢٥٥ - ٢٥٦هـ / ٨٦٨ - ٨٦٩م) استرداد المال بالطرق السلمية عن طريق إرسال الرسل إلى ابن الشيخ، إلا أن ابن الشيخ احتج بأن المال قد استهلك على الرجال، ولما توفي الخليفة المهدي وبويع المعتمد بالخلافة امتنع ابن الشيخ عن أخذ البيعة له، وترك لبس السواد، فاضطر المعتمد إلى مداراته، فراسله وعرض عليه ولاية أرمينية إضافة إلى ما في يده حتى أقام الدعوة له.

كان المعتمد يشك في ولاء ابن الشيخ؛ لذلك كتب إلى أحمد بن طولون في مصر يأمره بالاستعداد لتأديبه، ولكن لما بدأ ابن طولون مسيره، عدلت

(١) حول اضطراب الأوضاع في بلاد الشام، انظر: يعقوبي، تاريخ يعقوبي، مج ٢، ص ٤٩٥-٤٩٧.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٧، ص ٣١١-٣١٢؛ الكندي، كتاب ولاية مصر، ص ١٦٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ١٧٦؛ ابن شداد، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ١٢٤؛ ابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى (ت، ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)، المغرب في حُلَى المغرب، عني بنشره وتحقيقه والتعليق عليه: زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، عدد ٨٩/، م ٢٠٠٣. الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، ص ٨٠.

الخلافة عن تكليفه، وأرسلت جيشاً من حاضرة الخلافة بقيادة أماجور التقى قوات ابن الشيخ على أبواب دمشق وهزمها، فرحل ابن الشيخ عن طريق الساحل إلى أرمينية، وتسلم أماجور دمشق في سنة ٢٥٧هـ / ٨٧٠م^(١).

ساد جند دمشق في عهد أماجور الهدوء والأمن، ويعود ذلك لما اتصف به من الشدة والحزم^(٢)، وقد ولى النعمان بن عامر بن مسعود على بيروت وصيدا مكافأة له على مشاركته في محاربة ابن الشيخ، فكون الإمارة التنوخية، ولقب بأمر الدولة، واتخذ بيروت مركزاً له، وكلّفه الخليفة التصدي للبيزنطيين، إذ أقرّه على ولايته له ولذريته، كما أرسل له هدايا، وكتب له الموفق أخو الخليفة وكبار قواد الدولة يشكرونه على انتصاراته، فاشتد أمر النعمان، وعظم شأنه في البلاد^(٣).

٢- العصر الطولوني ٢٦٤ - ٢٩٢هـ / ٨٧٧ - ٩٠٤م:

بدأت بوادر توجه أحمد بن طولون للسيطرة على بلاد الشام منذ أن كلفته الخلافة العباسية بالاستعداد للقضاء على عصيان عيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني فيها، فاستغل ذلك لتكوين جيش قوي، وفيما بعد ازداد

(١) البلوي، عبد الله بن محمد المدني، (ت، بعد ٣٣٠هـ / ٩٤٢م) سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد علي، دمشق، المكتبة العربية، ١٣٥٨هـ، ص ٥٠ - ٥٢؛ الكندي، كتاب ولاية مصر، ص ١٦٨ - ١٦٩؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٧، ص ٣١٢؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٤٧٤؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٥٠٧؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج ١، ص ٨٠ - ٨١.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٩، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٣) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٦٥٣، (ذكر أن الخليفة الذي كتب للنعمان هو "المتوكل" وهذا خطأ، ثم ذكر اسم أخي الخليفة الموفق)؛ كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ١٧٥.

هذا التطلع بعد استقلاله في مصر سنة ٢٥٨هـ / ٨٧١م، واتساع الخلاف بينه وبين الموفق أخي الخليفة، وعجز قوى الخلافة عن تأديبه^(١)، ويظهر أن أحمد بن طولون كان يرى في الشام متمماً لولايته، "وفيها التجارة للريح، والثغور للجهاد، وخط الدفاع الأمامي عن قاعدة الحكم في مصر ضد الطامعين من قواد الخلافة"^(٢).

كان ابن طولون يتطلع لتحقيق هدفه في الوقت الذي كانت فيه الخلافة مشغولة بثورة صاحب الزنج^(٣)، وجاءت الفرصة لتحقيق هدفه في سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧م حين توفي أماجور منافسه في بلاد الشام وخلفه ابنه

(١) كان الموفق قد طلب من أحمد بن طولون إرسال الأموال للاستعانة بها في محاربة ثورة الزنج، فأرسل إليه مليوناً ومئتي ألف دينار، ولما وصل المال إلى الموفق كتب إلى ابن طولون كتاباً يستصغر فيه المال الذي أرسله، فردّ عليه أحمد بن طولون ردّاً قاسياً، مما دفع الموفق إلى تكليف موسى بن بغا، وكان من أشد رجال الدولة بأساً أن يكتب إلى أماجور بالتوجه إلى مصر، وصرف أحمد بن طولون عنها، فاعتذر أماجور بعجزه عن محاربته، فقاد موسى بن بغا جيشاً متوجهاً إلى مصر، وصل الرقة، وأقام فيها عشرة أشهر، ثم اضطر للعودة بسبب نقص المؤن؛ البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٨٠؛ الكندي، كتاب ولاية مصر، ص ١٧١؛ المقرئ، أحمد بن علي (ت، ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ج ١، ص ٤٢٢، ٤٣٤ - ٤٣٦.

(٢) مصطفى، شاعر، جنوب بلاد الشام في العصر العباسي ١٣٢ - ٣٥٨هـ / ٧٥٠ - ٩٦٩م، عمّان، ١٩٩٢م، ص ٢٣.

(٣) صاحب الزنج: هو علي بن محمد، ثار في جنوب العراق في سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م، فسيطر على البصرة والأهواز وبعض مناطق فارس وواسط والكوفة وغيرها، واستمرت ثورته حتى قتل في سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٣م؛ المسعودي، علي بن الحسين بن علي، التنبيه والإشراف، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩٣م، ص ٣٦٨؛ ولزبد من التفاصيل عن ثورة الزنج، انظر: السامر، فيصل، ثورة الزنج، دمشق، دار المدى، ط ٢، ٢٠٠٠م.

علي الذي كان صبيّاً أقامه قواد أبيه مكانه، فكتب إليه يعزيه بوفاة والده، ويذكر أن الخليفة قلده الشام والثغور، وهو متجه لاستلامهما، وطلب إليه أن يعد العلوقة والميرة لجيشه، فاستجاب له، وردّ رداً حسناً.

تحرك أحمد بن طولون نحو الشام، فاستولى على الرملة، ثم تابع طريقه نحو دمشق، فاستقبله علي بن أماجور وجميع قواد أبيه، وكانوا قد أعدوا الميرة والعلوفة، فأقام فيها عدة أيام، عمل خلالها على تسوية أمورهما، واستولى على الأموال والخزائن فيها، ودعي له على منبرها، واستخلف عليها أحمد بن دغباش^(١)، ثم تابع طريقه إلى حمص، وبعد أن سيطر عليها وجه قسماً من جيشه إلى بيروت وعكا وطرابلس^(٢)، ثم تابع طريقه إلى شمال بلاد الشام حتى أنطاكية وحران والرقّة التي ضمها إلى ولايته.

هكذا مع دخول أحمد بن طولون دمشق صار كامل جند دمشق تحت سيطرته، وأصبحت مدن الجند الساحلية تابعة للحكم الطولوني بحكم تبعيتها لوالي دمشق^(٣).

(١) البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٩٢-٩٣؛ الكندي، كتاب ولاية مصر، ص ١٧١-١٧٢؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٢، ص ٨٢٧-٨٢٨؛ مج ٣، ص ١٢٤١-١٢٤٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٣١٦؛ ابن سعيد، المغرب في حُلّ المغرب، ج ١، ص ١١٥-١١٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٢؛ المقرئ، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، مج ٢، ص ٨٧.

(٢) بيطار، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، ص ١٠٦.

(٣) شبارو، تاريخ بيروت، ص ٥٤.

قامت سياسة أحمد بن طولون في دمشق على التقرب من الأهالي، وتوزيع الأموال على الفقراء فيها وفي الغوطة^(١)، وقد نظم شؤون بلاد الشام ورتب الحاميات في دمشق وحرّان والرقّة^(٢)، ثم غادر إلى مصر لتأديب ابنه الثائر فيها، وقد سجّنه في سنة ٢٦٨هـ / ٨٨١م، ومع مطلع سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٢م وصل أحمد بن طولون إلى أوج قوته، وكانت خصومته مع الموفق أخي الخليفة المعتمد وولي عهده، قد بلغت أقصى حدتها ولا سيّما بعد أن نجح الموفق في إثارة الفتن والقلال ضد الطولونيين في مصر والشام، وفي المقابل كان ابن طولون قد نجح في إغراء الخليفة المعتمد في الخروج من العراق لاجئاً إليه^(٣).

أسرع ابن طولون إلى الشام لحل الأوضاع المضطربة في الثغور، ولتثبيت حكمه فيها، وعندما بلغ دمشق وصله كتاب الخليفة المعتمد يعلمه فيه أنه خارج إليه، وكان قد خرج من العراق نحو الرقة، لكن الموفق استطاع إعادة المعتمد إلى سامراء بوساطة إسحاق بن كنداج عامل الموصل وعامة الجزيرة^(٤)، ولما بلغ أحمد بن طولون ذلك، وكان قد خرج من دمشق نحو الشمال لتلقي الخليفة وإخماد الاضطرابات في الثغور، عاد إلى دمشق،

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٢٦١ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٨٠هـ، ص ٤٨ - ٤٩؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ١، ص ٤٣٠.

(٢) بيطار، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٣) ابن سعيد، المغرب في حُلّ المغرب، ج ١، ص ١٢٦ - ١٢٧؛ مصطفى، جنود بلاد الشام، ص ٢٩ - ٣٠.

(٤) البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٨٦ - ٢٩٣؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢٦٠؛ الكندي، كتاب ولاة مصر، ص ١٧٥ - ١٧٦؛ المقرئ، الخطط، مج ٢، ص ٩٩؛ المقفى الكبير، ج ٢، ص ٤٤٦ - ٤٤٨.

وأمر عامله فيها بإحضار القضاة والفقهاء والأشراف في مصر والشام، فعقد اجتماعه الشهر في ١٢ من ذي القعدة، سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٢م، وفيه استعرض ما فعله الموفق، وأنه أساء التصرف، ونكث بيعة المعتمد وأسره وسجنه، فصار الخليفة في وضع سيئ، فأفتى الحاضرون بخلع الموفق من ولاية العهد، وأنه بريء الذمة، ويجب على الأمة جهاده، وكُتِبَ كتاب الخلع نسخاً متعددة، وزعت على الأمصار والمناطق التي يسيطر عليها أحمد بن طولون لتقرأ على المنابر^(١).

ولم يكتفِ أحمد بن طولون بذلك، بل قطع كل الطرق الواصلة إلى بغداد، وحال بين التجار والوصول من مصر والشام إلى بغداد، ووكل حاميات بالطرق لتحقيق ذلك المنع^(٢)، ولما بلغ الموفق ما فعله ابن طولون، استصدر كتاباً باسم الخليفة المعتمد إلى عماله يأمرهم بلعن أحمد بن طولون، وعقد لإسحاق بن كنداج على أعمال ابن طولون^(٣).

القوات الطولونية على دمشق، ومناطق بلاد الشام حتى وصلت إلى شيزر^(٤)، وفيها حصل صدام غير حاسم بينها وبين قوات ابن كنداج وابن أبي الساج، ولكنها انهزمت فيما بعد بسبب وصول قوات عباسية بقيادة أبي

(١) البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٩٤-٢٩٦؛ الكندي، كتاب ولاية مصر، ص ١٧٦ -

١٧٧؛ المقرئزي، المفقى الكبير، ج ٢، ص ٤٤٤-٤٤٩.

(٢) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٢، ص ٨٢٧.

(٣) ابن العديم، م.ن، مج ٢، ص ٨٢٩، ٨٣٤؛ البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٩٩؛

الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٦٢٧؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق،

ج ٥٤، ص ١٩١.

(٤) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم؛ الحموي، معجم

البلدان، ج ٣، ص ٤٣٤.

العباس بن الموفق، فتقهقرت إلى دمشق ثم إلى الرملة بسبب ملاحقة القوات العباسية التي سيطرت على دمشق في شعبان سنة ٢٧١هـ / ٨٨٤م^(١).

أبلغت القوات الطولونية خمارويه بما حصل، فخرج على رأس جيشه إلى الرملة، فالتقى الجيش العباسي قرب ماء يعرف بالطواحين^(٢) في معركة هُزم فيها خمارويه، وفرَّ هارباً إلى مصر، وبينما كان أفراد الجيش العباسي يعيشون نشوة النصر ويجمعون الغنائم، باغتهم كمين - كان قد نصبه خمارويه - بقيادة سعد الأيسر، ولم يكن يدري أن خمارويه انهزم، وهرب إلى مصر، وانضم إلى الكمين من بقي من قوات خمارويه، فأوقع القتل في صفوف الجيش العباسي، فولى منهزماً في ١٦ شوال سنة ٢٧١هـ / ٨٨٤م إلى دمشق، ولما لم تفتح له أبوابها تراجع باتجاه طرسوس، في الوقت الذي تابع فيه سعد الأيسر ملاحقة هذا الجيش، وسيطر على دمشق، وأقام الدعوة لخمارويه، وأرسل بالبشائر إلى مصر، فسرَّ خمارويه كثيراً، وأقيمت الاحتفالات^(٣).

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٤١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٦٣؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ٣، ص ٨١٣ - ٨١٤.

(٢) الطواحين: موضع قرب الرملة من أرض فلسطين بالشام؛ الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٥١.

(٣) الكندي، كتاب ولاة مصر، ص ١٨٢ - ١٨٣؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، ص ٨؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٤١٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٠، ص ٤٠٧؛ ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ج ١، ص ٨٨؛ بغية الطلب، مج ٢، ص ٨٠٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٤١٤ - ٤١٥.

وتعود خسارة الجيش العباسي في معركة الطواحين إلى عدم مشاركة قوات ابن كنداج، وابن أبي الساج، وأحمد بن دغباش بسبب نزاع قام بينهم وبين أبي العباس بن الموفق في دمشق، إذ رماهم بالجبن والتخاذل، لأنهم انتظروا قدومه^(١)، أما أهم نتائجها فهي إعادة السيطرة الطولونية على بلاد الشام، وتقدير مصيرها لمدة عشرين سنة قادمة كانت تابعة خلالها للدولة الطولونية.

ساد جند دمشق الهدوء والاستقرار في عهد سعد الأيسر، إذ اتبع سياسة التودد والتقرب إلى الأهالي، وفتح طريق الحج، وجعله آمناً من الأعراب، ويظهر أنه فيما بعد غلبت عليه النزعة الاستقلالية، وصار يتحدث عن خمارويه بالجبن والتخاذل منقصاً من شأنه، لذلك أقدم خمارويه على قتله في الرملة سنة ٢٧٢هـ / ٨٨٥م، فغضبت دمشق وثار أهلها لمقتله، وظل الاضطراب يسودها حتى وصلها خمارويه، وتقرب إلى أهلها، إذ وزع عليهم مالاً كثيراً، وساعد الفقراء والمساكين وأهل العلم، واهتم بطريق الحاج، وأمنه من الأعراب، فركن البلد للهدوء^(٢)، وخرج خمارويه من دمشق في المحرم سنة ٢٧٣هـ / ٨٨٦م إلى شمال بلاد الشام للتصدي لابن كنداج وابن أبي الساج، وكان قد خرجا ضده، فصالح ابن أبي الساج، بينما ألحق هزيمة منكرة بابن كنداج رغم دعم الموفق له، واضطره للتقهقر باتجاه سامراء، ويظهر أن هذا النصر جعل الموفق يقبل الصلح بعد أن كاتبه

(١) ابن الأثير، م.ن، مج ٧، ص ٤١٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦، ص ٩٣؛ ابن

القديم، بغية الطلب، مج ٣، ص ١٢٤٢.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٠، ص ٤٠٧؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب،

ص ٢٦٠-٢٦١.

خمارويه، فكتب لخمارويه في سنة ٢٧٣هـ / ٨٨٦م كتاباً بتوليته وولده على الشامات^(١) ومصر والشغور لمدة ثلاثين سنة، ووقع هذا الكتاب الخليفة المعتمد، وأخوه الموفق، وأبو العباس بن الموفق، فحصل بذلك على اعتراف رسمي بولايته على الشام ومصر، فأمر بالدعاء لأبي أحمد الموفق^(٢).

ظن خمارويه أن أمور الشام قد استقرت، فغادرها إلى مصر، ولم يكدها يصلها حتى بلغه خروج ابن أبي الساج، فخرج إليه، والتقاء عدة مرات، كان أولها في ثنية العقاب^(٣) على مشارف الشام، فهزمه، وأعاد السيطرة على بلاد الشام^(٤).

استقرت الأوضاع بعدئذ في جند دمشق بقية العقد الثامن من القرن الثالث الهجري، إذ لم يشهد أي تغيرات أو تطورات أثرت في وضعه، ولكن مما هو جدير بالذكر أن تغيرات حصلت بالنسبة للخلافة العباسية أدت إلى تحسن العلاقات الطولونية، ففي سنة ٢٧٨هـ / ٨٩١م توفي الموفق

(١) الشامات: جمع شامة، وهي علامة مخالفة لسائر الألوان، وقد تسمى بلاد الشام بذلك؛ الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٥٣.

(٢) الكندي، كتاب ولاية مصر، ص ١٨٣ - ١٨٤؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٧، ص ٣٣٨٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٦٤؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ٣، ص ٨١٧ - ٨١٨؛ الخطط، مج ٢، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٣) ثنية العقاب: تشرف على غوطة دمشق، وتقع على الطريق من دمشق إلى حمص؛ الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٩٩.

(٤) الكندي، كتاب ولاية مصر، ص ١٨٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٤٢٩؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٥٥؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ٨٩؛ ربحاوي، عبد القادر، مدينة دمشق تراثها ومعالمها التاريخية، دمشق، ١٩٦٩م، ص ٣٨.

(ألد خصوم الطولونيين)، وكان قد عقد العهد لابنه أبي العباس، ثم توفي الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢م، فبويع أبو العباس بن الموفق بالخلافة بلقب (المعتضد)، فبعث إليه خمارويه بالتهاني والهدايا، فأرسل إليه الخليفة في سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٣م كتاباً "بولايته هو وولده على المنطقة الممتدة من الفرات إلى برقة، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يحمل في كل عام من المال مئتي ألف دينار عن ما مضى، وثلاثمئة ألف عن كل عام للمستقبل"^(١)، وتوج الصلح العباسي - الطولوني بزواج الخليفة المعتضد قطر الندى ابنة خمارويه في سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤م^(٢).

كان خمارويه قد عين على دمشق طُغج بن جُفّ الذي بسط الأمن والاستقرار، واقتصرت الأحداث آنذاك على خلاف في الأسرة التنوخية بين الأمير النعمان من جهة، والأميرين محبوب وهلال ابني الأمير إبراهيم بن إسحاق الأرسلائي من جهة أخرى في سنة ٢٨١ - ٢٨٢هـ / ٨٩٥م، فذهب الأميران إلى دمشق، وقدموا شكوى لواليتها طُغج بن جُفّ ضد النعمان، ورداً على ذلك نصب النعمان كميناً لهما في طريق عودتهما في وادي عين الجر (وادي الحرير)، وقتلها، وقتل جميع أولادهما، وأعطى مكانهما في الفيحينة للأمير إياس بن غانم بن عيسى بن مسعود الأرسلائي^(٣)، ولم يقيم طُغج بن جُفّ بأي رد على هذه الحادثة، ويبدو أنه لم يكن يريد التدخل في شؤون الإمارة التنوخية الداخلية.

(١) الكندي، كتاب ولاة مصر، ص ١٨٦.

(٢) الكندي، م.ن، ص ١٨٦؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، ص ٣٠؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ٩١.

(٣) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٦٥٤؛ تدمري، لبنان، ص ٧٠.

ذكرت المصادر أن خمارويه كان كثير الإقامة في دمشق، فكان يقضي وقتاً طويلاً في التنزه والصيد، ويقيم مجالس للغناء والطرب، وفيها قتله خدمه في ذي الحجة سنة ٢٨٢هـ / ٨٩٥م، ويبدو أنهم أقدموا على فعلتهم بإيعاز من طُغج بن جُفّ، وإن كان هذا الأخير أقدم على معاينة الخدم في اليوم التالي، فلم يكن ذلك إلا بدافع إبعاد الشبهة عن نفسه^(١).

اجتمع كبار رجال الدولة الطولونية في دمشق بُعيد مقتل خمارويه، وأجلسوا ابنه جيشاً، وكان صبيّاً لمَّا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، فتولى طُغج أخذ البيعة له من القواد، ثم غادر جيش دمشق بعد أن استخلف عليها طُغج، ولم يمضِ وقت طويل من الزمن حتى اضطربت أوضاع الدولة الطولونية بسبب صغر سنّ جيش، وعكوفه على اللهو واللذات، وتنكره لقواده وأصحابه، ومحاولته عزلهم ومصادرتهم، ورداً على ذلك أقدم الجيش الطولوني على قتله، وأجلس مكانه أخاه هارون^(٢).

انعكست الأوضاع المضطربة في مركز الدولة الطولونية على المناطق التابعة لها، ففي جند دمشق خلع طُغج الطاعة لجيش بن خمارويه، فصار يحكمه مستقلاً حتى تولى هارون بن خمارويه الحكم، فتوجه في عهده جيش

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج١٧، ص٤٥-٤٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٧، ص٤٧٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٦١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٣، ص٧٥؛ بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أحمد فارس، منير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٦٨م، ص٢٢٤.

- Elisseeff, Dimashk, vol II, p. 281.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٧، ص٤٧٧-٤٧٨؛ ابن سعيد، المغرب في حُلّى المغرب، ج١، ص١٤٣-١٤٤.

من مصر إلى الشام بقيادة بدر الحمامي والحسين بن أحمد الماذرائي اللذين أصلحا أمور الشام، والعلاقات مع طُغج، واستعملاه على دمشق^(١)، وفي عهده برز نشاط القرامطة بقيادة آل زكرويه، وقيل إن اسم القرامطة جاء من لقب أحد دعائها في سواد الكوفة، وهو حمدان بن الأشعث الذي كان يلقب بقرمط لقصر قامته وخطواته المتقاربة^(٢)، وقيل غير ذلك، وقد دخلت الدعوة في عهده مرحلة جديدة بمساعدة بعض الدعاة النشيطين، وأبرزهم عبدان، وعنه أخذ أبو سعيد الجنابي مؤسس القرامطة في البحرين، وزكرويه بن مهرويه الذي تزعم القرامطة في مناطق العراق الشمالية والغربية، وبعض مناطق الشام^(٣). وتجدر الإشارة إلى أن موضوع القرامطة موضوع كبير وواسع، وقد تناولته دراسات عديدة بحثت في نشأة القرامطة وتسميتهم ودورهم وعقائدهم، ويمكن لمن يرغب في المزيد عنهم الرجوع إلى هذه الدراسات^(٤).

- (١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٤٨٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١١٥؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ٢، ص ٤٠٢ - ٤٠٣.
- (٢) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٢، ص ٩٢٨ - ٩٢٩.
- (٣) بيطار، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، ص ١٤١.
- (٤) زكار، سهيل، أخبار القرامطة في (الإحساء - الشام - العراق - اليمن)، الرياض، دار الكوثر، ١٤٢٠هـ - ١٩٨٩م؛ تامر، عارف، القرامطة، أصلهم - نشأتهم - تاريخهم - حروبهم، بيروت، دار الكاتب العربي، بغداد، مكتبة النهضة، (د.ت)؛ دي خويه، ميكال يان، القرامطة (نشأتهم، دولتهم، وعلاقتهم بالفاطميين)، ترجمة وتحقيق: حسني زينه، بيروت، دار ابن خلدون، ط ٢، ١٩٨٠م؛ لويس، برنارد، أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية، راجعه وقدم له: خليل أحمد خليل، بيروت، دار الحداثة، ط ٣، ١٩٩٣م.

ويظهر أن ظروف بلاد الشام كانت مشجعة لنشاط القرامطة، ومن أبرز الأسباب التي دفعت زكرويه بن مهرويه إلى نقل نشاطه من العراق إليها، إذ كانت تتبع الدولة الطولونية، وكانت هذه الدولة قد وصلت إلى درجة عالية من الضعف والتفكك السياسي، وانعكس هذا الضعف والتفكك على المناطق التابعة لها، ففي دمشق كان طُغج بن جُفّ قد طغى وظلم، وترك أمور الحكم منصرفاً إلى الاهتمام بالصيد^(١).

أمام هذه الأوضاع اتجه آل زكرويه إلى بلاد الشام، وبدؤوا بنشر دعوتهم بين الأعراب المقيمين في بادية الشام والسماءة، فاستجاب لهم أفراد من بني العُلَيْص - وهم فخذ من قبيلة كلب - وبايعوا يحيى بن زكرويه في سنة ٢٨٩هـ / ٩٠١م، ولقبوه بالشيخ، وعرف بصاحب الناقة أو الجمل^(٢)، كما تبعه جماعة من بني الأصبغ^(٣)، وقاد يحيى بن زكرويه أتباعه، فهاجم ناحية الرقة على الفرات، ثم سار نحو الشام، حتى وصل أطراف نواحي دمشق، فخرج طُغج بن جُفّ للتصدي للقرمطي وأتباعه بغير عدة واستعداد، فهزمه وحاصروه في دمشق^(٤)، وتعددت الوقعات بين طُغج والقرامطة، وكان الانتصار حليف القرامطة، واعتنق معظم أهالي القرى المجاورة لدمشق آراء القرامطة،

(١) زكار، أخبار القرامطة، ص ٦٣، ١٣٧.

(٢) عرف بصاحب الناقة أو الجمل، لأنه ادعى أن ناقته التي يركبها مأموره، وإذا تتبعوها في مسيرهم نصرُوا؛ زكار، أخبار القرامطة، ص ١٣٧.

(٣) ابن سنان، ثابت (ت، ٣٦٥هـ / ٩٧٥م)، وابن العديم، تاريخ أخبار القرامطة، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الأمانة، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م، ص ١٨؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، ص ٩٥.

(٤) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٣٧١. - Salibi, Syria, p.49.

وانضموا إلى القرمطي، وحين وصلت النجدات المصرية بقيادة بدر الحماني تمكنت من قتل يحيى بن زكرويه صاحب الناقة في شعبان سنة ٢٩٠هـ / ٩٠٢م^(١)، فترجع أصحابه لإعادة التنظيم، وبايعوا أخاه الحسين بن زكرويه الذي عرف بصاحب الخال أو صاحب الشامة^(٢)، فقاد أتباعه، وهاجم دمشق والمناطق المحيطة بها، ما دفع أهلها لمفاوضته، واتفقوا معه على مبلغ من المال أعطوه إياه، فانصرف عنها إلى حمص فملكها، ثم هاجم حماة، ومعة النعمان، وبعلبك^(٣)، ثم سلمية وحماة وحلب.

في إثر ذلك وجهت الخلافة العباسية جيشاً بقيادة محمد بن سليمان الكاتب، التقى القرامطة في معركة فاصلة شمال حماة سنة ٢٩١هـ / ٩٠٣م، وهزمهم وشتت شملهم، وأسر كثيراً منهم، وألقي القبض على صاحب الخال أثناء هربه في البادية، وأعدم مع أسرى القرامطة في بغداد^(٤).

- (١) ابن سنان وابن العديم، تاريخ أخبار القرامطة، ص ١٨-١٩، ٢٧؛ المسعودي، والتنبيه والإشراف، ص ٣٧٢؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٦٦-٢٦٧.
- (٢) عرف بصاحب الخال أو صاحب الشامة، لأنه جعل علامته خالاً أو شامة كانت في وجهه؛ زكار، أخبار القرامطة، ص ١٣٨.
- (٣) ابن سنان وابن العديم، تاريخ أخبار القرامطة، ص ٢٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، ص ٩٦، ١٠٠؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٢، ص ٩٣٢؛ المقرئ، أحمد بن علي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، ج ١، ص ٢٣٠-٢٣٢؛ البعلبكي، ميخائيل ألوف، تاريخ بعلبك، بيروت، المطبعة الأدبية، ١٨٨٩م، ص ٢٣.
- (٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، ص ١٠٨-١١٤؛ القرطبي، عريب بن سعد (ت، ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م)، صلة تاريخ الطبري، ملحق بالجزء (١١) من تاريخ الطبري، ص ١١-١٣؛ ابن سنان وابن العديم، تاريخ أخبار القرامطة، ص ٢٤-٢٥؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٣٧٢-٣٧٣.

ويظهر أن الضعف الذي ظهرت عليه الدولة الطولونية في التصدي لهجمات القرامطة كان من أبرز الأسباب التي دفعت الخلافة العباسية إلى اتخاذ قرارها بالقضاء على هذه الدولة، واستعادة السيطرة على بلاد الشام ومصر^(١)، لذلك وجهت جيشاً بقيادة محمد بن سليمان الكاتب بدأ يسيطر على مدن الشام دون مقاومة، وعندما وصل حمص أرسل إليه بدر الحمامي والي دمشق يحثه على المتابعة، ولما وصل دمشق استقبله بدر وعامل الخراج الحسين بن أحمد الماذرائي، وانضم إليه بالقوات التي معها^(٢)، ثم تابع طريقه إلى مصر، وقضى على الدولة الطولونية في ربيع الأول سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٤م، وأحرق عاصمتها القطائع، وأسر أفراد الأسرة الطولونية، وخرج بهم إلى بغداد، وفي طريق عودته عين على دمشق بدراناً الحمامي^(٣).

٣ - المدة العباسية الثانية ٢٩٢ - ٣٢٣هـ / ٩٠٤ - ٩٣٤م:

حين وصل ركب محمد بن سليمان الكاتب دمشق في طريق عودته بعد القضاء على الدولة الطولونية، انفصل عنه أحد قواد هذه الدولة، وهو ابن الخليجي، وعاد إلى مصر، وأعلن الثورة في محاولة لإحياء الدولة الطولونية، غير أن ثورته أخفقت بعد نحو ثمانية أشهر، وانتهت حياته بالأسر ثم أعدم في بغداد^(٤).

(١) المسعودي، م.ن، ص ٣٧٣.

(٢) الكندي، كتاب ولاة مصر، ص ١٨٩.

(٣) الكندي، م.ن، ص ١٩١؛ المقرئ، المفدى الكبير، ج ٢، ص ٤٠٤.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، ص ١١٩ - ١٢٠، ١٢٨ - ١٢٩؛ الكندي، كتاب ولاة مصر، ص ١٩٦ - ١٩٧.

استغل القرامطة خروج ثورة ابن الخليجي في مصر، ومشاركة والي دمشق أحمد بن كيغلق في التصدي لها، فجددوا نشاطهم، إذ قصدوا مناطق جند دمشق بقيادة أبي غانم عبد الله بن سعيد الذي أنفذه زكرويه بن مهرويه بعد مقتل ابنه الحسين صاحب الشامة، فانضم إليه طوائف من الأصبغيين وصعاليك من بطون كلب، فقصدهم ناحية الشام، فحارب أهل بصرى وأذرعات والبثينة وهوران، ثم اتجه نحو دمشق، وهزم جيشها، وقتل قائده صالح بن الفضل نائب أحمد بن كيغلق، وحاول دخول دمشق، فدافعه أهلها، فاتجه إلى طبرية، وفي إثر ذلك كلف الخليفة المكتفي الحسين بن حمدان بن حمدون على رأس جيش بالتصدي لهم، فهزمهم، فانسحبوا نحو السماوة^(١)، فتبعهم هناك^(٢).

وفي سنة ٢٩٤هـ / ٩٠٦م ظهر آخر سفياي، وقاد محاولة للاستقلال عن الخلافة العباسية، لكن أتباعه كانوا قلائل، فلم يشكل أية خطورة، وألقي القبض عليه، وأرسل إلى بغداد، وفيها تظاهر بالجنون حتى أفرج عنه^(٣).

(١) السماوة: هي البادية التي تقع بين الكوفة والشام؛ الحموي، معجم البلدان، (طبعة دار صادر)، مج ٣، ص ٢٤٥.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، ص ١٢٢ - ١٢٣؛ ابن سنان وابن العديم، تاريخ أخبار القرامطة، ص ٢٦ - ٢٧؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٣٧٣؛ القرطبي، صلة تاريخ الطبري، (ج ١١ من تاريخ الطبري)، ص ١٨ - ١٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٥٤١؛ أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب (ت، ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، (د.ت)، ج ٣، ص ٧٧؛ المقرئ، اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٨٥؛ حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٩٠. - Salibi, Syria, p. 42.

تأثر جند دمشق بالأوضاع المضطربة التي سادت الخلافة العباسية في عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٧ - ٩٣٢م)، وكان صغير السن، وترك أمور الخلافة، وانشغل باللهو واللعب، وغلب على أمره أمه التي كانت تولي وت عزل، وازداد نفوذ الأتراك^(١)، وقد خلع المقتدر من الخلافة مرتين الأولى بعد استخلافه بأربعة شهور وعدة أيام، والثانية في سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، وانتهت حياته قتلاً سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م^(٢).

ظهر اضطراب أوضاع جند دمشق في عهد الخليفة المقتدر من خلال كثرة تبديل الولاة، فقد حكمه ما بين سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م و ٣١٨هـ/٩٣٠م أكثر من ثمانية ولاة تناوبوا الحكم فيه أكثر من عشر مرات، إذ حكم بعضهم مرتين، وكانت مدد حكمهم - بشكل عام - قصيرة، ولم تتجاوز عند بعضهم شهوراً كما هو الحال مع عمر الراشدي سنة ٣١١هـ/٩٢٣م^(٣).

ولم تقتصر آثار الأوضاع المضطربة على كثرة تبديل الولاة، بل استتبع ذلك أحداثٌ عديدة، منها:

- قيام ثورة شعبية في أعمال دمشق سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م، فتصدى لها أحمد بن كيغلق والي دمشق، وقضى عليها^(٤).

- هجوم سفن فرنجية في سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م على منطقة رأس بيروت، فتصدى لها الأمير التنوخي النعمان بن عامر بن مسعود،

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٣٧٧.

(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٧، ص ٢١٤.

(٣) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٧١-٢٧٧؛ وانظر: ملحق الولاة في آخر البحث.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٣٧٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٩٩.

فقتل ستة من رجالها، وأسر ثمانية، فتوجهت هذه السفن إلى الميناء، فبادل النعمان أسراه بما أسروه من المسلمين، ثم أرسل إلى تكين والي دمشق يخبره بما حدث، فاستدعاه وشكره وأكرمه^(١).

- حدوث أزمة اقتصادية خانقة في أيام الوالي نازوك (٣٠٧ - ٣٠٩هـ / ٩١٩ - ٩٢١م) مما أدى إلى ارتفاع الأسعار في دمشق^(٢).

- قيام ثورة في دمشق في سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م ضد الوالي وصيف المكتمري؛ لأنه رفض تجديد البيعة للمقتدر بعد خلع له للمرة الثانية من الخلافة وإرجاعه إليها، فهاجم أهلها دار الإمارة على نهر باناس^(٣) بالسلاح والمعدات فأحرقوها وهدموها^(٤).

ولما كانت سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠م حصل محمد بن طُغج بن جُفّ على تقليد من الخلافة بولاية دمشق^(٥)، وقبل ذلك كان يلي الرملة منذ سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨م، فانتقل إلى دمشق، وحظي بتأييد أهلها، وهذا ما ساعده

(١) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٦٥٤.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦١، ص ٣٧٩؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٣) نهر باناس (بانياس): من فروع نهر بردى؛ الشهابي، معجم دمشق التاريخي، ج ٢، ص ٣٢٥-٣٢٦.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٣، ص ٤٠؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٧٥.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٢٨٥؛ ابن خلكان، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت، ٦٨١هـ / ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (د.ت)، مج ٥، ص ٥٨.

على التخلص من منافسه بشرى الخادم الذي كان قد حصل على تقليد من الخلافة بولاية دمشق، وفيها قام ابن طُغج بتشكيل قوة عسكرية كبيرة، وبدأ يتطلع إلى السيطرة على مصر، وتحقق له ذلك في سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٤م حين ولّاه الخليفة الراضي عليها مكافأة على مشاركته في صد الهجمات الفاطمية عنها، فأسس في المناطق التي سيطر عليها دولة مستقلة على شاكلة الدولة الطولونية من قبل^(١).

٤ - العصر الإخشيدي^(٢) ٣٢٣ - ٣٥٩هـ / ٩٣٤ - ٩٦٩م:

ساد جند دمشق حالة شبه مستقرة في مطلع العصر الإخشيدي تحت سلطة نواب الإخشيد، واستمر الوضع هكذا حتى برزت أطماع المنافسين للإخشيد في بلاد الشام، وأولها: أطماع محمد بن رائق الذي كان يلي إمرة الأمراء في حاضرة الخلافة، غير أن ظهور منافسين له واضمحلال نفوذه ولا سيما بعد عزله عن إمرة الأمراء، دفعه إلى التفكير بولاية يحكمها، فعرض

(١) الكندي، كتاب ولاة مصر، ص ٢١٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٣٢٨؛ (ذكر ذلك في سنة ٣٢٤هـ)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٨٨؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٠٤.

-Bianquis, Thierry, Damas et la Syrie sous la Domination Fatimide (359 - 468/ 969-1076)

Damas, 1986, p. 16.

(٢) الإخشيد: لقب تركي معناه ملك الملوك، كان يتلقب به ملوك فرغانة، ويقال إن نسب محمد بن طُغج يعود إلى هؤلاء الملوك، وقد طلب من الخليفة الراضي تشريفه بهذا اللقب، فمنحه إياه في سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٨م، ويلاحظ أن هذا اللقب غلب على صاحبه، وعلى دولته التي عرفت بالإخشيدية نسبة إليه؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٥، ص ٥٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٨٨.

عليه الخليفة أحد البلدين: واسط أو حلب وأعمالها، فاختر حلب وأعمالها
للابتعاد عن خطر بجكم^(١) الذي تولى إمرة الأمراء^(٢).

توجه ابن رائق نحو حلب فسيطر عليها، ثم تابع طريقه جنوباً،
فسيطر على دمشق وطرد واليها بدر بن عبد الله الإخشيدي، وكان ذلك
في ذي الحجة سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٨م،^(٣) أو في أوائل سنة ٣٢٨هـ / ٩٣٩م^(٤)،
ثم تابع جنوباً فسيطر على الرملة، ثم اتجه نحو مصر، فتصدى له محمد بن
طُغج في منطقة العريش المصرية وهزمه، فترجع ابن رائق إلى دمشق،
فأرسل الإخشيد جيشاً بقيادة أخيه أبي نصر الحسين بن طُغج لمطاردته،
ولكن هذا الجيش هُزم أمام قوات ابن رائق، وقُتل قائده أبو نصر، فأرسل
ابن رائق جثة أبي نصر إلى الإخشيد مع ابنه مزاحم، وحمله كتاباً إلى الإخشيد
يعزیه ويعرض عليه أن يفدي أبا نصر بابنه مزاحم، فاستحسن الإخشيد

(١) بجكم: قائد تركي من أبرز قواد محمد بن رائق أمير الأمراء ثم انقلب على سيده، وتولى
مكانه منصب إمرة الأمراء في سنة ٣٢٦هـ / ٩٣٨م، واستمر يتولاه حتى مقتله سنة
٣٢٩هـ / ٩٤١م، وقد عاصر خليفتيهما الراضي والمتقي؛ الدوري، تقي الدين عارف، عصر
إمارة الأمراء في العراق، بغداد، مطبعة أسعد، ط١، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ص ٨٢-٩٣.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ١٠٣. - Salibi, Syria, p. 56.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٥٣، ص ١٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٥،
ص ١١٨. - Bianquis, Damas, P. 17.

(٤) الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى (ت، ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م)، تاريخ الأنطاكي المعروف
بصلة تاريخ أوتبخا، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، جروس برس،
١٩٩٠م، ص ٢٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٧، ص ٣٦٣؛ ابن كثير، البداية
والنهاية، ج١١، ص ١٦٢.

مبادرة ابن رائق، واستقبل مزاحماً أحسن استقبال، وأكرمه وردّه إلى أبيه بعد أن خلع عليه، وزوّده بالكثير من المال^(١)، فنتج عن ذلك صلح بين الإخشيد وابن رائق؛ إذ اتفقا على أن يكون للإخشيد الرملة وما وراءها باتجاه مصر، ويكون لابن رائق باقي بلاد الشام على أن يحمل الإخشيد عن الرملة في كل عام / ١٤٠ / ألف دينار تعطى لابن رائق^(٢).

استقر ابن رائق بعد هذا الصلح في دمشق بعض الوقت، ثم غادرها إلى بغداد بناء على طلب الخليفة المتقي الذي استدعاه، وكلفه بإمرة الأمراء، ولكن أيام ابن رائق لم تطل، إذ قتله ناصر الدولة الحمداني في الموصل سنة ٣٣٠هـ / ٩٤١م^(٣)، ولما بلغ الإخشيد خبر مقتله خرج على رأس جيش لاستعادة السيطرة على بلاد الشام، ولما وصل دمشق استأمن إليه محمد بن يزيد الشهرزوري الذي كان يليها من قبل محمد بن رائق، فأمنه الإخشيد، وأقره على إمرتها^(٤)، ثم تابع إعادة سيطرته على بلاد الشام، لكن لم تمضِ مدة طويلة من الزمن على إعادة الإخشيد سيطرته عليها، حتى برز منافس

(١) الكندي، كتاب ولاة مصر، ص ٢١٨؛ الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص ٢٩؛ المقرئ، الخطط، مج ٢، ص ١٢٠.

(٢) الهمداني، محمد بن عبد الملك (ت، ٥٢١هـ / ١١٢٧م)، تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: ألبرت يوسف كنعان، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ط ٢، ١٩٦١م، ج ١، ص ١١٦-١١٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٣٦٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٩٠.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٥، ص ١١٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٢١-٣٣٠هـ، ص ٢٩٠.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ١٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٣٨٣؛ الصفدي، أمراء دمشق، ص ٩٨.

جديد للسيطرة الإخشيدية فيها، تمثل بسيف الدولة الحمداني، ويعود توجه الحمدانيين^(١) إلى بلاد الشام لأنهم عدوها ملكاً لهم ولا سيما بعد اغتيالهم ابن رائق في سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م، وزاد في تطلعهم إليها انزعاجهم من حصول الإخشيد على تقليد من الخليفة المتقي بولاية الشام ومصر له ولابنه لمدة ثلاثين سنة^(٢).

توجه سيف الدولة نحو حلب في سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م، فسيطر عليها وعلى جميع المناطق في شمال بلاد الشام، ثم اتجه جنوباً نحو حمص، فجرّد الإخشيديون جيشاً للتصدي له بقيادة كافور ويأنس المؤنسي، والتقى سيف الدولة هذا الجيش بالرستن قرب حمص، وهزمه^(٣)، فراجع الجيش الإخشيدي

(١) ينتسب الحمدانيون إلى قبيلة بني تغلب العربية التي كانت تسكن منطقة الجزيرة الفراتية، برزوا على المسرح السياسي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، ومن رجالتهم الحسين بن حمدان بن حمدون الذي اشتهر بجرأته في محاربة القرامطة، وأبو الهيجاء عبد الله بن حمدان الذي كان يلي الموصل، وفيما بعد ارتبطت شهرة الحمدانيين بولديه الحسن وعلي اللذين خلع عليهما الخليفة المتقي، فلُقّب الحسن بناصر الدولة، ولُقّب علياً بسيف الدولة، مكافأة على جهودهما في محاربة البريديين؛ الأزدي، علي بن ظافر (ت، ٦٢٣هـ/١٢٢٦م)، أخبار الدولة الحمدانية بالموصل وحلب وديار بكر والثغور، حققته وقدمت له: تيممة الرواف، دمشق، دار حسان، ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م، ص ١١-١٧؛ الشكعة، مصطفى، سيف الدولة الحمداني، بيروت، الدار المصرية، ط٢، ١٩٧١م، ص ١٧-٣٧.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ١١٠.

(٣) ابن العديم، م.ن، ج١، ص ١١٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٨، ص ٤٤٥؛ كانار، ماريوس، نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار سيف الدولة الحمداني المتوفى سنة ٣٥٦هـ، الجزائر، ١٩٣٤م، ص ٢٧، ٣٦٨؛ الكيالي، سامي، سيف الدولة وعصر الحمدانيين، حلب، المطبعة الحديثة، ١٩٣٩م، ص ٧٢.

باتجاه دمشق، في الوقت الذي تابع فيه سيف الدولة تقدمه نحو دمشق، فسيطر على بعلبك، وعين الجر، ومنها وجه كتاباً لأهالي دمشق قرئ على منبر الجامع الأموي، وقد تضمن تطمين الأهالي، والمحافظة على أرواحهم وأموالهم، وتعيين وإلٍ من قبله على دمشق^(١).

دخل سيف الدولة دمشق في رمضان سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م، فأرسل إليه الإخشيد، وعرض عليه الصلح، وطالبه بالاكْتفاء بما أخذه، ولما لم يرض، عمد الإخشيد إلى مراسلة أحد أتباعه في دمشق ويعرف بـ (عيسى كيل) - وكان قد انضم إلى سيف الدولة - فأغراه بالمال، وطلب منه إظهار الدعوة له، فاستغل خروج سيف الدولة إلى الأعراب خارج دمشق لكسب ودهم، وأظهر الدعوة للإخشيد، فثارت دمشق ضد سيف الدولة، وأغلق أهلها الأبواب، فترجع إلى حمص، في الوقت نفسه تحرك الإخشيد الذي كان معسكراً في طبرية، فدخل دمشق، ثم توجه شمالاً لملاحقة سيف الدولة، فالتقاه في قنّسرين وهزمه، ودخل حلب، بينما تراجع سيف الدولة إلى الرقة^(٢)، وهنا ذكرت المصادر أن الإخشيد أرسل إلى سيف الدولة عارضاً الصلح، فترددت الرسل بينهما، وجرى الاتفاق في شهر ربيع الأول سنة

(١) ابن سعيد، المغرب في حُلّ المغرب، ج ١، ص ١٩٣؛ كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ١٨٨؛ كانار، نخب تاريخية وأدبية، ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١١٣ - ١١٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٤٤٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٩٣؛ الهمداني، تكملة تاريخ الطبري، ج ١، ص ١٤٦؛ الشكعة، سيف الدولة الحمداني، ص ٦٣؛ كانار، نخب تاريخية وأدبية، ص ٣٦٩.

٣٣٤هـ / ٩٤٥م على أن تكون المناطق من جوسية^(١) إلى حمص وما وراءها شمالاً لسيف الدولة، وتكون دمشق للإخشيدي على أن يحمل عنها في كل عام مبلغاً من المال لسيف الدولة، وأسفر هذا الاتفاق عن مصاهرة بينهما إذ تزوج سيف الدولة ابنة أخي الإخشيدي عبيد الله بن طُغج^(٢).

رجع الإخشيدي بعد هذا الصلح إلى دمشق، وفيها توفي في ذي الحجة سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور الذي كان صغير السن، فتولى الوصاية عليه أبو المسك كافور بناء على وصية الإخشيدي^(٣)، ومما هو جدير بالذكر أن دمشق شهدت فتنة كبيرة عقب موت الإخشيدي، ونهب العام خزائنه مما أضر دفته ثلاثة أيام^(٤).

استغل سيف الدولة موت الإخشيدي، ورجوع القوات الإخشيديّة من دمشق إلى مصر بقيادة كافور ويرافقه أنوجور، فاتجه نحو دمشق، وسيطر

(١) جوسية: قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق؛ الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٥.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١١٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٩٣؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ٥، ص ٧٥١.

vol II, p. 281. – Elisseeff, Dimashk,

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٤، ص ٩٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٤٥٧؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ٢، ص ٣١٣-٣١٤؛ الخطط، مج ٢، ص ١٢١.

(٤) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج ١، ص ١٩٦؛ كاشف، سيده إسماعيل، مصر في عصر الإخشيديين، القاهرة، جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٠م، ص ١٢٢-١٢٣؛ زيود، محمد أحمد، العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والإخشيدي، ٢٥٤ - ٣٥٨هـ / ٨٦٨ - ٩٦٨م، دمشق، دار حسان، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ٣١٥.

عليها^(١)، فاستأمن إليه واليها الإخشيدى يأنس المؤنسي، ولكن سيطرته عليها لم تدم طويلاً، إذ كاتب سكان دمشق - بسبب غضبهم من تصرفات سيف الدولة، ومطالبته بدائع الإخشيد وأمواله - كافوراً يستدعونه، ووعدوه المساعدة^(٢)، فخرج كافور يرافقه أنوجور على رأس جيش إلى بلاد الشام، وخرج سيف الدولة بجيشه من دمشق، واتجه جنوباً، وعسكر في منطقة اللجون^(٣)، وبعد عدة أيام من إقامته هناك داهمته القوات الإخشيدية أثناء تفرق قواته لطلب العلوقة، فانهمز إلى دمشق وأخذ أهله وأتباعه منها، وذلك في جمادى الآخرة سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦م^(٤)، وتراجع إلى حمص، وفيها جمع قوات من قبائل عقيل ونمير وكلب وكلاب، وسار بها في محاولة لاسترجاع السيطرة على دمشق، غير أنه انهزم في مرج عذراء شمال شرقي دمشق أمام القوات الإخشيدية التي لاحقته إلى حلب ثم إلى الرقة، وجرت مراسلات بين الطرفين أسفرت عن تجديد الاتفاق الذي وقع في عهد

(١) لثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إساعيل (ت، ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، ط ٢، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م، ج ١، ص ٣٦؛ المقرئ، المفدى الكبير، ج ٢، ص ٣١٥.
- Bianquis, Damas, p. 17.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١١٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٨٠؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٢٠؛ الكيالي، سيف الدولة، ص ٧٣-٧٤.

(٣) اللجون: بلد بالأردن، بينه وبين طبرية عشرون ميلاً وبينه وبين الرملة أربعون ميلاً؛ الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ١٥.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١١٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٤٥٨. ذكر ذلك في سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٧م.

الإخشيدي من دون المال الذي تعهد الإخشيدي سابقاً بتقديمه عن دمشق^(١)، وبعد ذلك أقام كافور مدة يسيرة في دمشق ثم غادرها إلى مصر بعد أن ولى عليها بديراً الإخشيدي^(٢).

وفي السنوات التالية التي ظل فيها جند دمشق تابعاً للدولة الإخشيديّة (أي حتى سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م)، لم ينعم بالاستقرار والهدوء، فقد شهد أحداثاً متعددة أدت إلى اضطراب أوضاعه، منها:

- حدوث أزمة اقتصادية، وارتفاع في الأسعار في عهد الوالي شعله بن بدر (٣٣٨ - ٣٤٥ هـ / ٩٤٩ - ٩٥٦ م)، بسبب سياسة الاحتكار التي مارسها^(٣).

- تحركات متعددة للبدو والأعراب يأتي الحديث عنها في الفصل الثاني عند الحديث عن دور البدو.

- هجمات قرامطة البحرين^(٤)، إذ هاجموا طبرية في سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م، وعمّان في سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م^(٥)، ودمشق في سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م، وقد هاجموا بقيادة الحسن بن أحمد بن أبي سعيد

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١١٨ - ١١٩؛ كانار، نخب تاريخية وأدبية، ص ٣٧٢ - ٣٧٤.

(٢) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٨٥.

(٣) الصفدي، م. ن، ص ٢٨٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٤١ - ٣٥٠ هـ، ص ٣٢٨.

(٤) حول قرامطة البحرين ودورهم، انظر: زكار، القرامطة، ص ١٤٦ - ١٥٧.

(٥) زيود، العلاقات بين الشام ومصر، ص ٣٣٧.

الجنابي المعروف بالأعصم لقصره، فسيطر عليها، وولى عليها وشاحاً السلمى^(١)، ومنها سار إلى الرملة، ودخلها، فاضطر واليها الحسن بن عبيد الله بن طُغج إلى مصالحته، وتعهد بدفع ثلاثمئة ألف دينار سنوياً للقرامطة اعترافاً بنفوذهم وسلطتهم^(٢).

- حدوث مناوشات بين الأهالي والولاة، ففي سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٧م حدثت مناوشات بين والي دمشق فنك بن عبد الله الخادم الكافوري وأهلها، فانتشرت عمليات النهب والسلب والحرائق، فأعلن فنك النفير للجهاد، ودعا الناس للتوجه إلى ثنية العقاب لتجهز هناك لمحاربة البيزنطيين، ولما خرجوا إلى ضواحي دمشق الشمالية، انتهز الفرصة وخرج من دمشق باتجاه الساحل في ذي الحجة سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٧م، ورداً على ذلك هاجم أهل دمشق بعض أثقاله، وقتلوا من بقي من رجاله^(٣).

وفي السنة نفسها ثار أهالي طرابلس ضد واليها أحمد بن نحرير الأرغلي - ولاءه والي دمشق الإخشيدى - لظلمه وجوره، فهرب إلى عرقة، وتحصن في إحدى قلاعها، في هذا الوقت كان الإمبراطور البيزنطي نقفور الذي

(١) ابن ثابت وابن العديم، تاريخ أخبار القرامطة، ص ١٠٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٣، ص ٦؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ٣، ص ٢٩٥.

(٢) الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص ١٢٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٥١ - ٣٨٠هـ، ص ٤١٠.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٨، ص ٤٥٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و)

- ٣٥١ - ٣٨٠هـ، ص ١٦٦. - Bianquis, - Damas, p. 20.

اجتاح بلاد الشام، قد وصل إلى طرابلس، وسيطر عليها في ذي الحجة سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٧م، وأحرق ربضها، ثم توجه إلى عَرَقة وحاصرها وسيطر عليها، وأخذ مالا كثيراً منها، وألقى القبض على أحمد بن نحرير الأرعلي، وأخذ ماله وأسرته، وفي طريق عودته سيطر على مدن الساحل^(١).

ولما كانت سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨م سيطر الفاطميون على مصر^(٢)، وقضوا على الدولة الإخشيدية، ومنها وجهوا جيشاً بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي إلى دمشق، فسيطر عليها في سنة ٣٥٩هـ / ٩٦٩م^(٣)، فانتهت بذلك السيادة الإخشيدية، وبدأ عصر جديد في المنطقة هو العصر الفاطمي.

أما بالنسبة للإمارة التنوخية في بيروت، فكان يليها آنذاك المنذر بن النعمان بن عامر الملقب بسيف الدولة، وقد راسله جعفر بن فلاح بعد أن سيطر على طبرية، فجمع المنذر عشيرته واستشارها، وكتب إليه جواباً لطيفاً، ولما دخل جعفر بن فلاح دمشق، سار إليه المنذر، فخلع عليه جعفر،

(١) الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص ١٢٥-١٢٧؛ الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ج ١، ص ٢٠١، (ذكر ذلك في سنة ٣٥٨هـ)؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١٤٩؛ ابن العبري، غريغوريوس الملطي (ت، ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)، تاريخ الزمان، نقله إلى العربية: إسحق أرملة، بيروت، دار المشرق، ١٢٨٦هـ - ١٩٨٦م، ص ٦٦، (ذكر أن نقفور وصل إلى فلسطين).

(٢) الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص ١٣٢؛ المقرئ، اتعاظ الحنفا، ج ١، ص ١٧٣.

(٣) المقرئ، م.ن، ج ١، ص ١٩٥؛ الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص ١٤٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٥٩١؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٣٨.

- Elisseff, Dimashk, vol II, p. 281.

وأقرّه على المناطق التي يسيطر عليها^(١)، وبذلك يكون كامل جند دمشق قد صار تحت السيادة الفاطمية.

ونظرة سريعة في الوضع السياسي تبين أن الأوضاع في جند دمشق لم تستقر لمدة طويلة بعد انتهاء العصر الأموي، فقد بالغ العباسيون في التشفي من الأمويين، وفي قسوتهم على أهالي الشام عامة، وقد أدى هذا إلى قيام ثورات عدّة، ومن خلالها عبر الشاميون عن كرههم للحكم العباسي، ورغبتهم في إحياء الدولة الأموية، كما شهد جند دمشق قيام فتن واضطرابات متعددة أربكت الخلافة العباسية أحياناً، وراح ضحيتها عدد كبير من الناس.

وقد عرف جند دمشق بعض الهدوء والاستقرار في مطلع العصر الطولوني، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد انتهى بوفاة مؤسس الدولة الطولونية، وقيام الحروب العباسية - الطولونية، وقيام البدو بكثير من الهجمات التي سببت مزيداً من الاضطراب، وأدت إلى تعطل الحياة الاقتصادية، وكثير من الخسائر البشرية.

ولم يك الأمر أفضل عندما عاد جند دمشق يتبع الخلافة العباسية في المدة ٢٩٢ - ٣٢٣هـ / ٩٠٤ - ٩٣٤م، إذ استمر يعاني هجمات القرامطة والبدو، كما شهد أحداثاً متعددة أدت إلى سوء أوضاعه.

أما في العصر الإخشيدى فلم يدم الاستقرار والهدوء مدة طويلة، فقد انتهى مع بروز المنافسين للسيطرة الإخشيدية في الشام، إذ خضع جند دمشق لسيطرة كل من محمد بن رائق وسيف الدولة الحمداني اللذين سيطرا

(١) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٦٥٥ - ٦٥٦.

عليه لمدة محدودة من الزمن، كما تعرض لهجمات البدو والقرامطة ولا سيَّما قرامطة البحرين، وشهد أيضاً قيام ثورات واضطرابات عديدة، وزاد من اضطراب الأوضاع فيه، وفي الشام عامة ظهور الخطر البيزنطي الذي حاول أن يستفيد من الظروف التي تمر بها بلاد الشام في ظل ضعف الخلافة العباسية، وضعف الدول المستقلة عنها في بلاد الشام، فنشط في هجماته، وقد استمرت الأوضاع مضطربة حتى نهاية العصر الإخشيدي، وانتقال السلطة إلى الفاطميين الذين أضافوا حكم جند دمشق إلى حكمهم في مصر.

ب - الوضع الإداري:

ارتبط التنظيم الإداري في جند دمشق بالتنظيم الذي اتبعه العباسيون في بلاد الشام بعد وصولهم إلى السلطة، إذ أصبحت الشام ولاية من الولايات التابعة لمركز الخلافة الذي انتقل من الشام إلى العراق، وقد اتبعوا المركزية في الإدارة، فتقلص نفوذ الولاية في العصر العباسي، وتحولوا إلى مجرد عمال^(١)، بعد أن كانوا مطلقي الصلاحية في عهد بني أمية^(٢).

وظهرت المركزية في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل من خلال صدور كل التعيينات عن حاضرة الخلافة سواء من قبل الخليفة أم الوزير أم من

(١) حسن، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، بيروت،

دار الجليل، ط ١٥، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ج ٢، ص ٢٣٦، ج ٣، ص ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٢) خمّاش، نجدت، الإدارة في العصر الأموي، دمشق، دار الفكر، ط ١، ١٤٠٠هـ -

١٩٨٠م، ص ١٠٦.

ينوب عن الخليفة في المجالات الإدارية، كما ظهرت المركزية من خلال إيجاد ديوان - في بغداد - لكل ولاية للإشراف على شؤونها المالية والعسكرية^(١)، وقد تم هذا بالنسبة للشام في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور، إذ أحدث ديواناً لخراج الشام وجند الشام^(٢)، ولما كان عهد المهدي قلد ديوان النفقات وبيوت الأموال والخزائن والرقيق وديوان الشام لأيوب مولى بني فهر من أهل الشام^(٣)، وفي عهد الهادي تقلد عبید الله بن زياد بن أبي ليل ديوان خراج الشام وما يليها، ثم ولي بعده محمد بن جميل سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م^(٤)، وفي مطلع عهد الرشيد كان ثابت بن موسى يتقلد ديوان العراق وخراج الشام^(٥)، ثم ولي الرشيد علي بن صالح ديوان خراج الشام ومصر وإفريقيا والموصل وأرمينيا وأذربيجان والمدينة ومكة واليمن^(٦)، وما حدث في عهد الرشيد يشبه إلى حد كبير التقسيم الذي تمَّ في عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ / ٨٩٢ - ٩٠١م)، إذ جمعت دواوين الدولة في ديوان واحد عرف بـ "ديوان الدار"، وقسم هذا الديوان إلى ثلاثة أقسام هي: ديوان الشرق، وديوان الغرب، وديوان السواد "العراق"^(٧).

- (١) خماش، نجدت، التنظيم الإداري في الشام، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ١٠٤.
- (٢) العصفري، تاريخ خليفة بن خياط، ص ٣٥٤.
- (٣) العصفري، م. ن، ص ٣٦٠.
- (٤) الجهشيار، الوزراء والكتاب، ص ١٦٧.
- (٥) الجهشيار، م. ن، ص ١٧٧.
- (٦) الجهشيار، م. ن، ص ٢٧٧.
- (٧) الصايغ، هلال بن المحسن (ت، ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦م)، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: خليل منصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

أما بالنسبة للولايات فكان فيها صورة مصغرة عن الدواوين الموجودة في حاضرة الخلافة، أو موظف يمثل تلك الدواوين^(١)، ويمكن أخذ صورة عن الأجهزة الإدارية في الولايات من خلال كتاب العهد الذي أخذه المتوكل على ولي عهده محمد المنتصر تجاه أخويه المعتز بالله، وإبراهيم المؤيد بالله بـ "ألا يخلعهما... ولا ينقصهما ولا واحد منهما شيئاً من أعمالهما التي ولاهما عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين، وكل واحد منهما، من الصلاة والمعاون والقضاء والمظالم والخراج والضياح والغنمة والصدقات، وغير ذلك من حقوق أعمالهما، وما في عمل كل واحد منهما من البريد والطراز وخزن بيوت الأموال والمعاون ودور الضرب وجميع الأعمال التي جعلها أمير المؤمنين، ويجعلها إلى كل واحد منهما"^(٢).

وعلى أنه لم يرد في المصادر ما يشير إلى وجود ممثلين في جند دمشق لكل الوظائف التي وردت في عهد المتوكل السابق الذكر، من المؤكد أن كان فيه ممثلون لأكثر هذه الوظائف، وقد شكل هؤلاء الموظفون الجهاز الإداري في جند دمشق، ومنهم:

ص ١٠٠-١٠٢؛ خمّاش، التنظيم الإداري في الشام، ص ١٠٤؛ السامرائي، حسام قوام، المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية خلال الفترة ٢٤٧ - ٣٣٤هـ / ٨٦١ - ٩٤٥م، دمشق، مكتبة دار الفتح، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م، ص ٢٠٠؛ حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٢٧٧؛ خزنة كاتب، الخراج، ص ٢٦١.

(١) زركلي، رياض، بلاد الشام منذ سقوط الدولة الأموية حتى قيام الدولة الطولونية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ص ٢٨٤؛ خزنة كاتب، الخراج، ص ٢٦١.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ١٧٧-١٧٨.

١ - الوالي:

يقسم تقليد الإمارة على الأقاليم والبلدان إلى ثلاثة أنواع، هي: إمارة استكفاء: والتقليد فيها أن يفوض الخليفة إلى أمير إمارة بلد أو إقليم ولاية على جميع أهله، فينظر في المعهود من سائر أعماله، وهناك الإمارة الخاصة، وفيها يقصر الخليفة عمل الوالي على تدبير الجيش وسياسة الرعية، دون التعرض للقضاء والأحكام وجباية الخراج والصدقات، أما النوع الثالث فهو إمارة الاستيلاء، وهي أن يستولي أحد الأمراء قسراً على ولاية من الولايات، فيضطر الخليفة إلى إقراره عليها، ويفوض إليه تدبيرها وسياستها^(١).

تمتع الولاية في بادئ الأمر بصلاحيات واسعة، فكانت تجمع إليهم الصلاة والخراج، وجمع لبعضهم المعاون^(٢) أحياناً، كما فعل الرشيد عندما جمع لأخيه إبراهيم بن المهدي والي دمشق الصلاة والخراج والمعاون^(٣)، وعندما صار تعيين الولاية يصدر عن نواب الخلفاء الذين أسندت إليهم إدارة القسم الغربي في الدولة أو إقليمي الشام ومصر صار هناك فصل بين الصلاة والخراج، ومنذ عهد المعتصم صار يطلق على الوالي اسم صاحب المعونة^(٤).

(١) الماوردي، علي بن محمد بن حبيب (ت، ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص ٣٥-٣٩.

(٢) المعاون: هي الأموال التي تجبى إضافة إلى أموال الزكاة والخراج؛ المقرضي، الخطط، مج ١، ص ٢٨٧-٢٨٨، (وهي ترد باسم الأموال الهلالية).

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧، ص ١٥٥؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ٢٧٠.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ١١١؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤١، ص ٢٥٤-٢٥٥؛ خماش، التنظيم الإداري في الشام، ص ١١٨.

أما جنسية الولاية فكانت تتبع سياسة الدولة العامة، ففي عهد الخلفاء العباسيين الأوائل كان معظم الولاية شخصيات مرموقة من الأسرة العباسية، واستمر ذلك حتى نهاية عهد الأمين^(١)، ولما وصل المأمون إلى الخلافة سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م بمساعدة الفرس، انحاز إليهم، وبدأ يعتمد عليهم في إدارة الولايات، ومنذ ذلك الوقت بدأ يتولى جند دمشق ولاية من أصول غير عربية^(٢)، ومع عهد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣ - ٨٤١م) الذي اهتم باقتناء الأتراك، وشكل جيشاً منهم، بدأ يتولى جند دمشق ولاية منهم، ومع عهد المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ / ٨٤٦ - ٨٦١م) وسيطرة الأتراك على شؤون الخلافة في العاصمة والولايات، أصبح معظم الولاية منهم^(٣).

وعندما دخل أحمد بن طولون التركي الشام سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧م اعتمد على الولاية الأتراك في إدارة جند دمشق، واستمر الولاية - في معظمهم - أتراكاً حتى نهاية العصر الإخشيدي^(٤).

كان تعيين الولاية في المدة العباسية الأولى ١٣٢ - ٢٦٤هـ / ٧٥٠ - ٨٧٧م يُجرىه الخلفاء أو ولايتهم على الشام ومصر، أو نواب الخلفاء على الجناح الغربي

(١) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ١٥٩ - ٢٠١؛ وانظر أيضاً: ملحق الولاية في آخر البحث.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٦٤٦؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٨، ص ٣٠٢، ج ٢٩، ص ٢١٦، ج ٦٢، ص ٣٣؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢١٧ - ٢٢١؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ٤٥٥.

(٣) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٢١ - ٢٥٠؛ وانظر أيضاً: ملحق الولاية في آخر البحث.

(٤) الصفدي، م. ن، ص ٢٥١ - ٢٩٧؛ وانظر أيضاً: ملحق الولاية في آخر البحث.

من الدولة^(١)، وفي العصر الطولوني ٢٦٤ - ٢٩٢هـ / ٨٧٧ - ٩٠٤م صار تعيين الولاية يُجرىه حكام الدولة الطولونية، ولما سقطت هذه الدولة، عاد تعيين ولاية جند دمشق من الخلفاء العباسيين أو نوابهم على القسم الغربي من الدولة، وفي العصر الإخشيدى ٣٢٣ - ٣٥٩هـ / ٩٣٤ - ٩٦٩م صار تعيين الولاية من حكام الدولة الإخشيدية^(٢).

ومما هو جدير بالذكر أن والي جند دمشق كثيراً ما كان يمنح ولاية أجناد أخرى إضافة لجند دمشق، وهذه الأجناد هي فلسطين أو الأردن أو حمص، وأحياناً كان يمنح ولاية مناطق أخرى^(٣)، أما بالنسبة لمدة حكم الولاية فكانت - بشكل عام - قصيرة، وكان هناك تبادل شبه مستمر للولاية، وفي هذا ما يشير إلى كثرة الأزمات واضطراب الأوضاع، وهذا ما تبين سابقاً

(١) كان هناك منذ مطلع العصر العباسي اتجاه إداري لتقسيم الدولة إلى قسمين غربي وشرقي، وكثيراً ما كان يمنح كل قسم لأحد القادة المتنفذين أو أولياء العهد، وهؤلاء كانوا يستخلفون على ولاياتهم، ففي سنة ١٧٦هـ / ٧٩٢م عقد الرشيد لجعفر بن يحيى البرمكي على المغرب كله من الأنبار حتى إفريقيا، وفي سنة ٢٠٦هـ / ٨٢١م عقد المأمون لعبد الله بن طاهر على الشام والجزيرة ومصر، وفي سنة ٢١٣هـ / ٨٢٨م وليّ المأمون أخاه المعتصم على الشام ومصر، وفي سنة ٢٢٥هـ / ٨٣٩م وليّ المعتصم أشناس التركي الشام جميعه والجزيرة ومصر، وغير ذلك؛

للمزيد انظر: خمّاش، التنظيم الإداري في الشام، ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) أوضحت من قبل من تولى الولاية في الملحق الخاص بهم في آخر البحث.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٢، ص ٣٣٥؛ ج ٣٧، ص ٢٩٩؛ ج ٥١، ص ٢٢٧؛ ج ٥٦، ص ٤٦٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ١٢٨ - ١٢٩؛ مج ٧، ص ٥٤٢؛ المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٣٧١؛ وللمزيد حول المناطق التي كان يتولاها ولاية جند دمشق، انظر: ملحق الولاية في آخر البحث.

عند الحديث عن الوضع السياسي، أما بالنسبة لقصر الإمارة في دمشق، فقد نزل الولاة قصوراً عديدة، فبعضهم كان ينزل قصرًا يسمى الخضراء^(١)، وأقام بعضهم في قصرٍ يسمى قصر حجاج^(٢)، وهناك من كان ينزل دار إمارة تعرف بالقصر^(٣)، أما فيما يخص سياسة الولاة، فقد تميز بعضهم بإصلاحاته، وسياسته الناجحة في تحقيق الأمن والاستقرار، ومن ذلك: قام الفضل بن علي الذي تولى دمشق في عهد المنصور بعمل الأبواب للجامع الأموي والقبة في الصحن وتعرف بقبة المال^(٤)، وتميز إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة الهاشمي الذي ولي دمشق مرتين من قبل أخيه الرشيد بسياسته الناجحة في تحقيق التوازن القبلي بين القيسية واليمانية، فساوى بينهم، وجعل

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٠، ص ٣٨؛ ج ٢٣، ص ٤٠٥؛ ج ٥٦، ص ٤٦٤؛ ج ٥٩، ص ٤٤٦؛ ج ٥٣، ص ٢٦٤-٢٦٥؛ ج ٧٠، ص ٧١؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٧، ص ٦٦٠؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٢٣١-٢٤٠ هـ، ص ١٦٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٤٣.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٧٦، ٨٠؛ ج ٤٣، ص ٣٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ١٣١؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٠٠؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، ص ١٨٩؛ قصر حجاج: هو القصر الذي بناه الحجاج بن عبد الملك بن مروان عندما كان أميراً على دمشق في العصر الأموي، ويقع هذا القصر إلى الجنوب الشرقي من باب الجابية؛ ربحاوي، قصور الحكام بدمشق، مج ٢٢، ج ١ - ٢، ص ٣٦.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٣، ص ٤٠؛ ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، قسم مدينة دمشق، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م، ص ٣٧؛ ربحاوي، قصور الحكام بدمشق، مج ٢٢، ج ١ - ٢، ص ٣٩ - ٤١.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٨، ص ٣١٨.

جلوسهم في مجلسه بحسب منازلهم، وكان يجلسهم بالتناوب يوماً عن يمينه ويوماً عن شماله، وعندما كانت تعرض إليه حاجة لأحد الحيين كان يسأل قبل أن يقضيها هل لأحد من أفراد الحي الآخر حاجة تشبهها فيقضيها معاً، كما عرف عنه ملاحقة المتمردين وقطاع الطرق وإخضاعهم لطاعة الدولة، فلم يجرؤ أحد على قطع الطريق طوال مدة حكمه^(١).

وعرف عن الوالي مالك بن طوق التغلبي الذي ولي إمرة دمشق والأردن من قبل الواثق، واستمر عليها حتى مطلع عهد المتوكل، حسن الإدارة والتصرف، وقد وصف بأنه من أجواد العرب ومدوحيهم، وعرف عنه الكرم والإحسان الكبير لأهالي دمشق، ففي شهر رمضان كان يأمر بتجهيز موائد الطعام في الخضراء، وعندما يحين موعد الإفطار كان يأمر بفتح الأبواب، ويأمر مناديه بدعوة الناس للإفطار، فكان كل من يريد يدخل ويأكل بلا إذن، وتشير المصادر إلى أنه دخل دمشق ومعه أموال كثيرة صرفها كلها في سخائه وكرمه حتى إنه لما عزل عنها، كان لتجارها ديون كبيرة عليه، تصل إلى ثلاثين ألف دينار، فاجتمع مع الدائنين في الجامع، وعرض عليهم أن يخرجوا معه فيكرمهم ويوفيهم حقهم أو أن يبقوا فيرسل لهم حقهم، وقد وفي للجميع بما وعد^(٢).

كما عرف عن الوالي أماجور - ولي سنة ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م - حسن الإدارة والتدبير، ونشر الأمن والاستقرار، وكان قد قضى على عصيان عيسى

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٧، ص ١٥٩ - ١٦٣؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ٢٦٣ - ٢٦٩.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٥٦، ص ٤٦٠ - ٤٦٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح.و) ٢٥١ - ٢٦٠هـ، ص ٣٤٧.

بن الشيخ بن السليل الشيباني، وضبط الأمور، فلم يتجاسر أحد على قطع الطريق في جميع أعماله، كما جعل طريق الحج آمناً من الأعراب^(١).

ومن الولاة الذين تركوا آثاراً إيجابية في العصر الطولوني، سعد الأيسر الذي حول هزيمة الجيش الطولوني في معركة الطواحين إلى نصر، ولاحق الجيش العباسي المنهزم، فولاه خمارويه إمرة دمشق، وقد عرف عنه الشدة والحزم وضبط الأمور، وفتح طريق الحج الشامي وجعله آمناً من الأعراب^(٢).

وفي مقابل الولاة الذين عرفوا بحسن الإدارة والتصرف كان هناك ولاية اتصفوا بسوء الإدارة والتدبير، وقاموا بأعمال أدت إلى تأجيج الفتن والاضطرابات، ومن هؤلاء الولاة: منصور بن محمد المهدي في عهد الأمين، وموسى بن إبراهيم بن سابق الرافقي في عهد المعتصم، وسالم بن حامد في عهد المتوكل، وفنك بن عبد الله الخادم الكافوري في سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٧م، وقد تقدمت الإشارة إلى أعمال هؤلاء الولاة في الوضع السياسي.

كما أن سياسة بعض الولاة كانت سبباً في تجدد الصراع القبلي بين القيسية واليمانية، فقد اتبع الوالي إسحاق بن إبراهيم بن صالح أثناء فتنة أبي الهيثم سنة ١٧٦هـ / ٧٩٢م سياسة الانحياز القبلي لليمانية، وكان

-
- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٩، ص٢١٨ - ٢١٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٢٦٠ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٨٠هـ، ص٦٩.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢٠، ص٤٠٧.

كلما هدأت الصدامات بين القيسية واليمانية حرّض اليمانية على الانتقام والثأر، وقدّم لها كل دعم ضد القيسية^(١)، واتبع سياسة التعصب القبلي أيضاً الوالي شعيب بن خازم بن خزيمة سنة ١٨٧هـ/٨٠٢م ما أدى إلى تجدد الصراع بين القيسية واليمانية^(٢)، وكذلك اتبع الوالي عبد الرحمن بن حبيب القرشي في عهد الواثق سياسة التعصب، فعزل مغضوباً عليه سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦م^(٣).

ولم تقتصر آثار سوء إدارة بعض الولاة على الاضطرابات وتجدد الصراع القبلي القيسي اليماني، بل كانت سبباً في حدوث أزمات اقتصادية خانقة وارتفاع في الأسعار، وهذا ما حدث في عهد معيوف بن يحيى بن معيوف الذي تولى دمشق في عهد المأمون^(٤)، وفي أيام الوالي نازوك (٣٠٧ - ٣٠٩هـ/٩١٩ - ٩٢١م)^(٥)، وفي عهد شعلة بن بدر الإخشيدي (٣٣٨ - ٣٤٥هـ/٩٤٩ - ٩٥٦م) الذي مارس سياسة الظلم والاحتكار^(٦).

- (١) ابن عساکر، تاریخ مدينة دمشق، ج ٨، ص ١٠٦-١٠٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ١٢٩؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٣، ص ١٣٧٥.
- (٢) الطبري، تاریخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٣٠٢؛ ابن عساکر، تاریخ مدينة دمشق، ج ٢٣، ص ٨٨-٨٩.
- (٣) ابن عساکر، م.ن، ج ٣٤، ص ٢٨٧؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٣٠؛ أمراء دمشق، ص ٧٢.
- (٤) ابن عساکر، تاریخ مدينة دمشق، ج ٥٩، ص ٤٤٦-٤٤٧.
- (٥) ابن عساکر، م.ن، ج ٦١، ص ٣٧٩؛ الذهبي، تاریخ الإسلام، (ح. و) ٣٠١-٣١٠-٣١١، ص ٢٨.
- (٦) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٦، باعتناء: وداد القاضي، فيسبادن، فرانز شتاينز، ١٩٨٢م، ص ١٥٩.

ومما هو جدير بالذكر أنه كان لوالي جند دمشق نواب يتبعون له في مدن الجند^(١)، ومنهم:

يزيد بن روح اللخمي الذي كان يلي بعلبك من قبل صالح بن علي ثم ولي إمرة دمشق^(٢).

عبد الله بن سليمان بن محمد الهاشمي والي البلقاء من قبل الخليفة المنصور^(٣).

صالح بن سليمان والي البلقاء من قبل جعفر بن يحيى البرمكي^(٤).

إبراهيم بن حميد المروزي ولآه حوران إسحاق بن إبراهيم بن صالح ثم تولى بعده سعد الطلائع، ثم تلاه أبو الورد بن رياح بن عثمان المري^(٥).

وولي الأمير النعمان بن عامر بن هانئ الأرسلافي بيروت وصيدا وجبلها من قبل أماجور، فاتخذ بيروت مركزاً له، وأقام الإمارة التنوخية، واستمر عليها حتى توفي سنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م، وخلفه عليها ابنه المنذر الذي استمر عليها إلى ما بعد سيطرة الفاطميين على دمشق، فأقروه عليها^(٦).

(١) حول ولاية مدن جند دمشق الساحلية وفي البقاع، انظر: تدمري، لبنان، ص ١٩٥-٢٠٢، ٢٥١-٢٥٦، ٢٨٦-٢٨٧.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٣، ص ١٨٩؛ الصفدي، أمراء دمشق، ص ١١٤.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٩، ص ٩٢.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٢٦٣؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ١٨٥.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٦، ٧١، ٧٧.

(٦) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٦٥٣-٦٥٦؛ الخوري، منير، صيداء عبر حقب التاريخ، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٦٦م، ص ١٤١؛ شبارو، تاريخ بيروت، ص ٥٣-٥٤.

وكان أحمد بن نحرير الأرعلي يلي طرابلس في سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م من قبل والي دمشق الإخشيدي^(١).

٢- الكاتب :

كان يساعد الوالي كاتب يقوم بتحرير الرسائل التي يبعث بها الأمير إلى غيره من الأمراء أو إلى الخليفة، وللكتاب أهمية كبيرة أشار إليها عبد الحميد الكاتب (ت، ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م)، في رسالته إلى الكتاب بقوله: "فموقعكم من الملوك موقع الأسعاع التي بها يسمعون، والأبصار التي بها يبصرون، والألسنة التي بها ينطقون، والأيدي التي بها يبطشون"^(٢).

وللكتاب أصناف: فهناك كاتب رسائل، وكاتب جند، وكاتب خراج، وكاتب قاضي، وكاتب شرطة^(٣)، ولعل أبرزهم كاتب الرسائل. وبشكل عام كان الكتاب يعاملون معاملة حسنة وكان مركزهم الاجتماعي عالياً ومحترماً^(٤)، وكان من صفات الكاتب الناجح أن يكون حليماً، مقداماً، كتوماً للأسرار، وفيماً عند الشدائد، ذا ثقافة واسعة، وأن يكون فصيحاً بليغاً

- (١) الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص ١٢٦.
- (٢) ابن خلدون، عبد الرحمن (ت، ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م)، مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، ص ٢٣٩.
- (٣) ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد (ت، ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م)، العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وآخرين، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ج ٤، ص ١٧٦-١٧٧.
- (٤) الخطيب، نشأت نور الدين، المجتمع العباسي، الشمس للطباعة والتجارة، ط ١، ١٩٩٦ م، ص ١٦٦.

أديباً، حسن الألفاظ^(١)، وأفضل الكتاب ما كان في أول كتابه دليلٌ على حاجته^(٢).

كان كتاب الولاية يعينون من قبل الولاية بشكل عام، فعبد الله بن علي اتخذ يوسف بن صبيح مولى بني عجل من ساكني سواد الكوفة كاتباً له، وقبل أن يكتب له، كان كاتباً في ديوان الكوفة لبني أمية، ولما استتر عبد الله بن علي صار كاتباً في ديوان أبي جعفر المنصور بأجرٍ شهري قدره عشرة دراهم^(٣)، ومن كتاب عبد الله بن علي أبو غالب، وهو أول من قتل أثناء الصراع بين عبد الله وأبي مسلم الخراساني^(٤).

كانت العلاقة جيدة بشكل عام بين الوالي و الكاتب، وكان الكاتب ينفذ أوامر الوالي، فعندما عاد إبراهيم بن صالح والي دمشق أثناء الفتنة بين القيسية و اليمانية سنة ١٧٦هـ / ٧٩٢م، ومعه ١٢٠ رجلاً من طرفي النزاع إلى العراق، أوقع كاتبه أيوب بن سليمان مولى بني سليم بالقيسية عند الرشيد بناء على توجيهاته^(٥). وكان الولاية يتساهلون مع كتابهم إذا أخذوا أي هدية أو رشوة، فقد ذكرت المصادر أن أحمد بن نهيك كاتب عبد الله بن طاهر بن الحسين الذي كان يرافقه في توجهه نحو الغرب، أهديت

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٣٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ١٠٠.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ١٧٤.

(٣) الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٤) الجهشيارى، م.ن، ص ١٠٣.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٥.

له هدايا كثيرة في الطريق وفي دمشق، وعندما اطلع عبد الله بن طاهر في دمشق على سجل كاتبه ابن نهيك الذي يثبت فيه الهدايا لم يعاقبه، بل أرسل يخبره أنه وجد في السجل سبعين ألف دينار، وأنه علم أن ما حصل عليه لا يكفي لأن معه زواراً كثيراً، ويلزمه مؤونة كثيرة، لذلك أرسل إليه مئة ألف دينار^(١).

وأدت أعمال بعض الكتّاب إلى تأجيج نار العصبية القبلية، وهذا ينطبق على الهيثم بن عوف كاتب إسحاق بن إبراهيم بن صالح (والي دمشق في عهد الرشيد)، إذ أخذ أربعين رجلاً من القيسية، وضرهم وحلق رؤوسهم، وحسبهم مما أدى إلى تأجيج نار العصبية بين القيسية واليمانية، ورداً عليه طالب أبو الهيثم زعيم القيسية بعزل ابن عوف لقسوته وجفائه، وقد اضطر الوالي إلى تلبية طلبه^(٢).

وكان الكتّاب يتعرضون لما يتعرض له من يكتبون له سواء الوالي أم عامل الخراج، ولما وثب علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ عامل المعونة في دمشق على رجاء بن أبي الضحاك عامل الخراج، وقتله في خلافة المعتصم، سجن كاتبه علي بن يونس، وظل محبوساً إلى أن قام الجند بالإفراج

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٦، ص ٤٨٤ - ٤٨٥؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦، ص ٦٠؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٣، ص ١١٨٧ - ١١٨٨؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ١٢٩؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٣، ص ١٤٧٦.

عنه بعد أن ألقوا القبض على علي بن إسحاق وسجنوه^(١)، وعندما ثار الجند ضد جيش بن خمارويه في مصر وقتلوه، قتلوا معه كاتبه علي بن أحمد الماذرائي^(٢).

ومما هو جدير بالذكر أن الكاتب كثيراً ما كان يكلف مهام سياسية أو عسكرية إضافة إلى مهمة الكتابة، فأحمد بن محمد الواسطي كاتب أحمد بن طولون، أرسله خمارويه - لما تولى الدولة الطولونية - على رأس جيش إلى الشام^(٣)، وكلف محمد بن طُغج الإخشيدي لما كان في دمشق قبل قدومه مصر، كاتبه علي بن محمد بن كلا بالسفر إلى بغداد ليطلب من الخليفة القاهر ولاية مصر، فردّ عليه بأنه قد ولى عليها تكين، فبادر ابن كلا إلى رشوة أحد كتّاب القاهر بعد خلعه، "واشترى تقليداً مزوراً على القاهر بولاية مصر للإخشيدي، ثم أرسل هذا التقليد إلى سيده في دمشق"^(٤)، وفيما بعد أثناء الصراع بين الإخشيدي و محمد بن رائق أرسله الإخشيدي إلى الرملة ليفاوض على شروط الصلح، ولما قتل ابن رائق أرسله على رأس جيش لاستعادة الشام^(٥).

(١) التنوخي، المحسن بن علي (ت، ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م)، الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالجي، بيروت، دار صادر، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م، ج ٢، ص ٢٩٤؛ ابن عساكر، تاريخ

مدينة دمشق، ج ٤١، ص ٢٥٦.

(٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٤١، ص ٢٤٠.

(٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٥، ص ٤٧٩؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٣، ص ١١١١ - ١١١٥؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ٨٣.

(٤) كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٦٩.

(٥) كاشف، م.ن، ص ١٦٦؛ مصطفى، جنوب بلاد الشام، ص ٥٣.

وكان أقل شك من جانب الوالي تجاه كاتبه يدفعه إلى مصادرة أمواله وسجنه أحياناً، وهذا ما فعله خمارويه مع كاتب أبيه الحسن بن محمد بن أبي المهاجر^(١)، وما فعله الإخشيد مع كاتبه ابن كلا^(٢). ومن الكتاب الذين تولوا الكتابة للولادة أيضاً، أبو نصر حمد بن محمد كاتب طُغج بن جُفّ أثناء محاربتة القرمطي صاحب الناقة^(٣)، والكاتب أحمد بن العباس بن علي بن نوبخت الذي كان يكتب لمحمد بن رائق عندما قدم الشام^(٤).

٣- الحاجب :

أول من وضع الحجابة في الإسلام معاوية بن أبي سفيان، وكانت مهمة الحاجب تنظيم دخول الناس إلى مجلس الخليفة تلافياً لآزدحامهم على أبوابه، وشغله عن النظر في مهام الدولة، وقد اقتدى العباسيون ببني أمية، فاتخذوا الحجاب، وزادوا في منع الناس من ملاقاتهم إلا في الأمور المهمة، وقد علت مرتبة الحاجب فيما بعد، وأصبح يستشار في كثير من أمور الدولة^(٥). ويشترط في اختيار الحاجب أن يكون متوسط العمر أو كاهلاً "قد أحكمته الأمور وحنكته، أو شيخاً متماسكاً قد عجمته الدهور وعركته، وله عقل وحزم يدلانه على صواب ما يأتي"، وينبغي له أن يكون صبيح الوجه،

(١) الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص ٨٢-٨٣.

(٢) كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ١٦٦.

(٣) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٢، ص ٩٢٩-٩٣٠.

(٤) ابن العديم، م.ن، مج ٢، ص ٨٥٤-٨٥٥.

(٥) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٧٦؛ حسن، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٢١٥؛

ج ٣، ص ٢٧٣.

"ومداومة الخدمة من غير إخلال، وملازمة الحشمة من غير استرسال"^(١)، وكان يساعد الوالي في إدارة جند دمشق حاجب، يمثل لأوامره، ويساعده في تصريف الأمور، وينظم مجلس الوالي، ويدعو وجوه القوم لحضوره^(٢).

٤ - صاحب الخراج^(٣):

كانت مهمة عامل الخراج جمع مال الخراج، والإنفاق على الولاية، وحمل خراج الولاية إلى بيت المال في حاضرة الخلافة، وكانت منزلته توازي منزلة الوالي، وكان يخاطب في المراسلات بما يخاطب به الوالي، ولكن الوالي تميز عنه بإمامة المسلمين في الصلاة، وهذا ما جعله رئيس جميع المسلمين في ولايته^(٤).

(١) الصابغ، هلال بن المحسن (ت، ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م)، رسوم دار الخلافة، عني بتحقيقه

والتعليق عليه: ميخائيل عواد، بيروت، دار الرائد العربي، (د.ت)، ص ٧١.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧، ص ١٥٩، ١٦١ - ١٦٣؛ ج ٥٦، ص ٤٦٤؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ٢٦٦ - ٢٦٩.

(٣) استخدمت كلمة "الخراج" في البداية لتشير بصفة عامة إلى الضريبة التي فرضت على غير المسلمين في دار الإسلام، وهي في هذا تماثل الجزية، ولكن ما إن استهل القرن الأول الهجري حتى أصبحت تدل على الضريبة التي تجبى على الأرض المملوكة في مقابل الجزية التي باتت لا تستعمل إلا بمعنى خراج الرأس، ففي أيام الفتوحات الإسلامية ترك سكان البلاد المفتوحة وشأنهم في الأراضي التي يملكونها، فتقرر أن تخضع الأرض لنظام الضرائب، ومن ثم كان على الأهلين أن يدفعوا نصاباً محدداً من خراج أرضهم جزية لبيت المال؛ جوينيل، الخراج، دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة عن الأصيلين الإنكليزي والفرنسي، أصدرها باللغة العربية: أحمد الششتاوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣٣م، مج ٨، ص ٢٨٠.

(٤) متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريذة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٩م، ج ١، ص ١١١؛ حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٢٧٤؛ السامرائي، المؤسسات الإدارية، ص ١٥٩.

أما تعيين عامل الخراج، فكان من قبل الخليفة أو من ينوب عنه، وقد يُعيّنه الوالي إذا كانت ولايته على الصلاة والخراج، فإذا كان معيناً من قبل حاضرة الخلافة، فإنه يقوم بحمل المال، أو يرسل المال إلى حاضرة الخلافة، فعندما جمعت لأحمد بن طولون ولاية الخراج والصلاة في مصر، وجاءه كتاب الموفق ثم كتاب الخليفة المعتمد يطالبه بإرسال الأموال، خرج بنفسه مع تحرير خادم الموفق ليسلم المال إلى والي العريش^(١).

كانت الخلافة العباسية تختار أشخاصاً عرفوا بالنزاهة والأمانة للإشراف على أعمال الخراج، وكثيراً ما كانت تمنح أعمال الخراج في الشام لأبناء الشام نفسها، فقد ولي محمد بن إبراهيم الإمام خراج دمشق لمحمد بن مهاجر (ت، ١٧٠هـ/٧٨٦م)، علماً أنه كان يلي قبل ذلك بيت المال^(٢)، وعين الرشيد إسحاق بن ثعلبة الحميري الحمصي خراج دمشق^(٣)، وقد المأمون محمد بن عائذ بن أحمد الدمشقي الكاتب خراج الغوطة، وكان حافظاً محدثاً (ت، ٢٣٣ أو ٢٣٤هـ/٨٤٧ أو ٨٤٨م)^(٤).

- (١) البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٧٩؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج ١، ص ٨٧؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ١، ص ٤٣٤؛ خمّاش، التنظيم الإداري في الشام، ص ١١٩.
- (٢) أبو زرعة الدمشقي، عبد الرحمن بن عمرو النصري (ت، ٢٨١هـ/٨٩٤م)، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، تحقيق: شكر الله القوجاني، دمشق، مجمع اللغة العربية، (د. ت)، ج ١، ص ٣٩٧؛ ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٦، ص ٩٠.
- (٣) ابن عساکر، م. ن، ج ٨، ص ١٩٤؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ٤٣٣.
- (٤) المزني، تهذيب الكمال، مج ٢٥، ص ٤٢٧؛ العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت، ٨٥هـ/١٤٤٨م)، تهذيب التهذيب، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ج ٩، ص ٢٠٨.

كان عامل الخراج مسؤولاً عن التعديل^(١) الذي يتم بين الحين والآخر، وكان المعينون لإجراء ذلك المسح من الفقهاء، ويظهر أن تكليفهم تلك المهمة يعود إلى مقدرتهم على التمييز بين الأراضي الخراجية والعشرية في وقت أصبح التمييز بينهما أمراً صعباً، ولإضفاء مزيد من الشرعية على إجراء التعديل، ومنعاً من حصول تجاوزات قد تثير المشاكل^(٢)، فقد بعث الخليفة المنصور المعدل إلى أجناد الشام سنة ١٤٠ هـ أو ١٤١ هـ / ٧٥٧-٧٥٨ م، فعدّلوا الأراضي التي في أيدي المسلمين والأنباط على تعديل مسمى. ولم تعدّل الغوطة في تلك السنة، فبعث المنصور هضاب بن طوق اللخمي الكاتب، ومحرز بن رزيق الفزاري اللذين ولّاهما خراج دمشق وكلفهما بتعديل الغوطة، فأمضوها عشرية لأهلها باستثناء الأراضي التي بقيت بيد الأنباط والأشورية المحدثّة بعد سنة مئة^(٣)، وشاركهم في عملها بقیة بن الوليد الكلاعي الحمصي^(٤).

وولّي المتوكل سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م أحمد بن محمد بن عبید الله بن المدبر، خراج جندي دمشق والأردن، وكلفه تعديلها وتحميل كل أرض

(١) التعديل: لغة من عدل الشيء يعدله عدلاً وعادله: وازنه، وتعديل الشيء: تقويمه، وقيل: العدل تقويمك الشيء بالشيء من غير جنسه حتى تجعله له مثلاً؛ ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٨٤، مادة "عدل"؛ والتعديل: اصطلاحاً هو إجراء إداري كانت تلجأ إليه الخلافة العباسية كل مدة من الزمن لمسح الأرض والتمييز بين أرض الخراج وأرض العشر، في محاولة لوضع حد للتجاوزات على حقوق بيت المال؛ خزنة كاتب، الخراج، ص ٢٠٢.

(٢) خزنة كاتب، م. ن، ص ٢٠٢.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٢٠٨؛ ج ٥٧، ص ٨٠؛ ج ٧٤، ص ٤٤.

(٤) ابن عساكر، م. ن، ج ١٠، ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

ما تستحقه^(١)، وظل ابن مدبر على خراجها حتى قدم المتوكل دمشق سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م، فاشتكى إليه أهلها من ظلمه، ومحاباته لأصحابه، فأمر المتوكل بعزله، وولّى مكانه أبا القاسم عيسى بن داود بن الجراح^(٢)، وفي سنة ٢٥٧هـ / ٨٧٠م أعاد الخليفة المعتمد ابن مدبر إلى خراج دمشق والأردن وفلسطين بعد عزله عن خراج مصر^(٣).

كان يحدث نزاع بين صاحب الخراج وصاحب المعونة أحياناً، ففي أواخر عهد المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤١م) حصل خلاف بين رجاء بن أبي الضحاك صاحب خراج جندي دمشق والأردن، وعلي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ صاحب معونة جندي دمشق والأردن، فقتل صاحب المعونة صاحب الخراج وأولاده، واستولى على ممتلكاته، وأموال الخراج، ورداً على ذلك ألقى صاحب الشرطة وكبار قواده القبض على علي بن إسحاق، وأرسلوه إلى حاضرة الخلافة، وفيها أظهر الجنون، فحكم عليه بالسجن^(٤).

وصار تعيين عامل الخراج بعد سيطرة أحمد بن طولون على الشام من قبله، ففي سنة ٢٦٥هـ / ٨٧٨م أمر بحمل أحمد بن مدبر إلى مصر، فسجنه

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٤٩٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥، ص ٣٩٠؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٢، ص ٥٩-٦٠.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٥، ص ١٩-٢٠.

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٥٠٩؛ ابن سعيد المغرب في حلى المغرب، ج ١، ص ٨٤.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ١١١؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤١، ص ٢٥٥-٢٥٧؛ السرياني، تاريخ ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٧٦-٧٧؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٤، ص ١٧٢، مج ٥، ص ٣١٦-٣١٧.

وصادر أمواله^(١)، وولى الحسين بن أحمد الماذرائي المعروف بأبي زنبور على خراج الشام، فاستمر يقوم بذلك حتى سقوط الدولة الطولونية، بيد أن أبا زنبور شغل دوراً كبيراً في كثير من الأحداث التي شهدتها الدولة الطولونية، فهو من الذين شهدوا مقتل خمارويه في دمشق، فعقد البيعة لجيش بن خمارويه في دمشق ثم في مصر^(٢)، وعندما اضطرت أوضاع الشام في سنة ٢٨٣هـ / ٨٩١م، خرج أبو زنبور مع بدر القائد الطولوني إليها في عهد هارون بن خمارويه، فأصلحها الحال فيها، واستعملا على دمشق طُغج بن جُفَّ^(٣)، وكان لأبي زنبور شأن كبير في سقوط الدولة الطولونية، إذ انضم إلى الجيش العباسي ومعه بدر الحمامي بالقوات التي معها على أبواب دمشق^(٤).

وعاد تعيين عمال الخراج في المدة العباسية الثانية من قبل الخلافة العباسية، وكانوا يعينون لجنوب بلاد الشام كله في الغالب، فكان منهم أحمد بن محمد بن بسطام الذي كان عامل الشام في سنة ٢٩٣هـ / ٩٠٥م، واستمر في عمله حتى نقل إلى خراج مصر في سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م، ثم توفي في العام التالي، فخلفه ابنه أبو القاسم علي بن أحمد بن بسطام^(٥).

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥، ص ٣٩٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٧، ص ٥٦؛ ابن سعيد، المغرب في حُلَى المغرب، ج ١، ص ١٢٣ - ١٢٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٥٣ (ذكر ذلك في سنة ٢٦٧هـ).

(٢) المقرئ، المقفى الكبير، ج ٣، ص ٤٦٦ - ٤٦٧.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٤٨٨.

(٤) الكندي، كتاب ولاة مصر، ص ١٨٩.

(٥) الصايغ، تحفة الأمراء، ص ٣٧؛ مسكويه، أحمد بن محمد (ت، ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)، تجارب الأمم، تحقيق: أمدروز، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، (د. ت)، ج ١، ص ٦١؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج ١، ص ١٥٢؛ مصطفى، جنوب بلاد الشام، ص ٤٦.

وقلد في سنة ٣٠١هـ / ٩١٣م أبو بكر محمد بن علي الماذرائي الإشراف على أعمال الشام، وتدبير الجيوش^(١)، وصار في سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م محمد بن الحسين بن عبد الوهاب الماذرائي عامل الشام، وأعطى في سنة ٣١٩هـ / ٩٣١م محمد بن جعفر القرطي خراج الشام ومصر، غير أنه توفي في طريق قدومه لتولي ذلك^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن الخلافة أظهرت في هذه الفترة اهتماماً كبيراً بأعمال الجباية والخراج في الشام، وظهر ذلك من خلال إرسالها مشرفين من كبار رجال الدولة عرفوا بالمكشفين لمراقبة أعمال الجباية، وإيصال حصة الخلافة، وعرف من هؤلاء المكشفين الوزير علي بن عيسى بن الجراح الذي قُلد الإشراف على الشام ومصر في سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م، فبقي يقوم بذلك حتى استدعي للوزارة مرة أخرى سنة ٣١٤هـ / ٩٢٦م^(٣)، وعرف منهم أيضاً الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات الذي عين مكشفاً على الشام ومصر في سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٣م، وشغل دوراً كبيراً في تسليم مصر لمحمد بن طُنج، واستمر يقوم بالإشراف على الخراج حتى توفي في الرملة سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٨م^(٤)، فسُنحت الفرصة للإخشيديين للجمع بين ولاية الصلاة

- (١) القرطبي، صلة تاريخ الطبري، (ج ١١ من تاريخ الطبري)، ص ٤٥.
- (٢) ابن سعيد، المغرب في حلّ المغرب، ج ١، ص ١٥٥؛ مصطفى، جنوب بلاد الشام، ص ٤٦ - ٤٧؛ كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٤١ - ٤٢.
- (٣) مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ١٤٦؛ الصابئ، تحفة الأمراء، ص ٢٣٤، ٢٣٦؛ مصطفى، جنوب بلاد الشام، ص ٤٧. ابن سعيد، المغرب في حلّ المغرب، ج ١، ص ١٥٧، ١٧٣؛ مصطفى، جنوب بلاد الشام، ص ٤٧.
- (٤) ابن سعيد، المغرب في حلّ المغرب، ج ١، ص ١٥٧، ١٧٣؛ مصطفى، جنوب بلاد الشام، ص ٤٧.

والحرب وولاية الخراج، فلم يعد للخلافة عمال خراج، بل صاروا من قبل الإخشيد ثم من قبل أولاده وكافور^(١)، ومما يؤسف له أن المصادر المتوافرة لم تأت على ذكر هؤلاء العمال.

وكان لصاحب الخراج أعوان في سائر المدن التابعة لولايته، ومهمتهم المطالبة بالخراج ووجوه المال، ويسمى صاحب هذه الوظيفة صاحب السلعة، ويعرف بالبندار^(٢).

أما الأسلوب المتبع في جباية الخراج في جند دمشق أو الشام عامة، فليس في المصادر المتوافرة ما يبينه، ولكن تجدر الإشارة إلى أن نظام تضمين الأراضي^(٣) كان متبعاً في مصر منذ أواخر العصر الأموي^(٤)، كما كان معروفاً في العراق منذ مطلع العصر العباسي^(٥)، لذلك من المرجح أن يكون هو الأسلوب المتبع في الشام، ولا سيما أن العباسيين حاولوا تطبيق إجراءات موحدة في كل أقاليم الدولة، كما أن نظام تضمين الأراضي يسهم في تسهيل مهمة عمال الخراج، وهو أيسر من أسلوب جمع الخراج من الأهالي في القرى

(١) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج ١، ص ١٦٣؛ مصطفى، جنوب بلاد الشام، ص ٤٧، ٥٨.

(٢) متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١١٢.

(٣) الضمان هو تعهد الضامن بدفع مبلغ معين للخبزينة مقابل السماح له بجباية ما يمكن جبايته من أهل الولاية التي تضمنها، إذ كان ما يجنيه ملكاً له، وكان بعض الضامنين يتعهد بدفع مبلغ الضمان للسنة الأولى مقدماً عند إصدار أمر تعيينه، ثم يوالي إرسال المبلغ الذي قوطع عليه سنوياً من ولايته؛ السامرائي، المؤسسات الإدارية، ص ١٦٧.

(٤) المقرئزي، الخطط، مج ١، ص ٢١٩.

(٥) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت، ١٨٢هـ / ٧٩٨م)، كتاب الخراج، بيروت، دار المعرفة، (د.ت)، ص ١٠٥.

والنواحي، الذي كان متبعاً في العهدين الراشدي والأموي، لأن عدد الذين يتقبلون الأراضي يكون محدوداً، وتكون أساؤهم مسجلة لدى كتاب الخراج مما يسهل مطالبتهم بالمبالغ التي فرضت عليهم في حال التأخر عن الدفع^(١)، وقد ذكر المقرئ أن الجوالي "جزية الرؤوس" كانت تجبى بسر من رأى، وقصب المدن المشهورة على شهور الأهلة، وما كان من جماجم أهل القرى في الخراج والضياح والمستغلات على شهور الشمس، لهذا فإن أصحاب الدواوين لما نقل المتوكل سنة ٢٤١هـ / ٨٥٥م إلى سنة ٢٤٢هـ / ٨٥٦م، جبا الخراج لهاتين السنتين في وقت واحد^(٢).

وقد حصلت في عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢م) تبدلات بالنسبة لأعمال الخراج والضياح في الشام، فبعد أن كان عامل الخراج لكل جند مرتباً بالمركز أو مسؤولاً تجاه الوالي، صارت أعمال الخراج والضياح تقلد لشخص واحد أو اثنين، فقد عقد علي بن عيسى الوزير سنة ٣٠٦هـ / ٩١٨م للحسين بن أحمد الماذرائي ضمان الخراج والضياح في الشام ومصر بعد حسم النفقات الراتبية، وإعطاء الجيش في تلك النواحي^(٣)، ويظهر أن الحسين بن أحمد الماذرائي استمر ضامناً لذلك وإلى جانبه محمد بن علي الماذرائي عدة سنوات، ففي سنة ٣١١هـ / ٩٢٣م كتب

(١) خماش، التنظيم الإداري في الشام، ص ١٢٠.

(٢) الخطط، مج ١، ص ٧٤٩.

(٣) مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ١٠٧؛ الهمداني، تكملة تاريخ الطبري، ج ١، ص ٢١؛ الصابئ، تحفة الأمراء، ص ٣٨، (ذكر أن أبا زنبور الحسين بن أحمد الماذرائي كان ضامناً للشام ومصر في أيام حامد بن العباس، فتنكر له علي بن عيسى، وصرفه بأبي الحسين محمد بن الحسن بن عبد الوهاب كاتبه).

ابن الفرات في وزارته الثالثة باستحضار محمد بن علي الماذرائي، فناظره حول المال الباقي عليه وعلى الحسين بن أحمد الماذرائي من ضمان أجناد الشام ومصر، وعن حق بيت المال في ضمانه^(١).

واستمر الضمان متبعاً في جباية الخراج في العصر الإخشيدي فقد ذكر ابن حوقل أنه أدرك عقود فلسطين والأردن ودمشق أيام أبي المسك كافور من سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨ م الى سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠ م، وذكر أسماء الذين عقد عليهم الضمان بقوله: عقدت فلسطين والأردن على خزرون حيناً بخمسمئة ألف دينار، وكذلك عقد جند دمشق "على خزرون وعلى أبي الحسن علي بن محمد بن جاني وعلي بن مالك، فكانت تكون في يد كل واحد منهم سنين بخمسمئة ألف دينار"، وكان كافور يطالب عماله قبل وجوب المال على سبيل القرض، ولم يعقد أي عقد في وقته على أحد من أوليائه إلا ربح فيه مثله من حيث يعلمه ويتقرره، وكان يقول "إذا لم يُحتص الأولياء بالنعم صارت إلى الأعداء عند الأخذ بالكظم فهم صنائعي وأولادي"^(٢)، وهذا مما يشير إلى أن الضامنين كانوا يربحون أكثر مما يدفعون، وأن كافوراً لم يكن يحاسبهم على ذلك.

٥ - صاحب البريد :

البريد هو جعل "خيل مضمرة في عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها، وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً، وكذلك

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ١١٤ - ١١٥.

(٢) صورة الأرض، ص ١٥٩ - ١٦٠.

يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة"، ويهدف تنظيم البريد إلى سرعة وصول الأخبار، وحفظ الأموال والوقوف على متغيرات الأحوال^(١). ويمثل صاحب البريد صاحب الأخبار الرسمي في الدولة، ومهمته نقل أوامر الخليفة إلى عماله وولاته، وإبقاء الخليفة على اطلاع دائم بمسالك عماله^(٢)، ويساعد صاحب البريد عيونٌ يوافونه بكل جديد^(٣).

ويعين الخلفاء العباسيون صاحب البريد في الأقاليم، وكانوا يأخذون عليه عند توليته عهداً يوضحون فيه ما يجب عليه من المهام، ومنها: أن يعرف حال عمال الخراج والضياح، وحال عمارة البلد، وسلوك الولاة تجاه الرعية، وأحكام القضاة، ومذاهبهم وطرائقهم في الحكم، وحال دار الضرب، وأن يعرض المرتبين لحمل الخرائط^(٤) في عمله، وأن يفرد لكل ما يكتب فيه من أصناف الأخبار كتباً خاصة^(٥).

- (١) ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت، ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، حلب، دار القلم العربي، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ص ١١٢.
- (٢) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ١٨٠؛ حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٢٧٩؛ حسن، حسن إبراهيم، وعلي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ٤، ١٩٧٠م، ص ٢٢٧؛ السامرائي، المؤسسات الإدارية، ص ٢٦٨.
- (٣) متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١٠٨.
- (٤) الخريطة: وعاء من جلد أو ما شابهه يُحکم ربطه على ما فيه؛ اللجمي، أديب، وآخرون، المحيط معجم اللغة العربية، بيروت، دار المحيط، ط ٢، ١٩٩٤م، مج ٢، ص ٥٠٨.
- (٥) قدامة بن جعفر، قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت، ٣٣٧هـ / ٩٤٨م)، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق: محمد حسين الزبيدي، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨١م، ص ٥٠ - ٥٢.

وكان الخلفاء يرسمون لصاحب البريد عند توليته السكك^(١) التي يجب أن يسير عليها، وكانوا يوقعون أشد العقوبات على من يتوانى في أداء واجبه من موظفي البريد^(٢). وكان الخليفة إذا غضب على أحد من عماله يأمر بحمله إلى حاضرة الخلافة على البريد، فلما غضب الخليفة المنصور على سليمان بن محمد بن عبد المطلب الذي كان يلي البلقاء من كور دمشق حمل إليه على البريد مع ثقله وماله^(٣).

وكان صاحب البريد يُوصل كل أخبار الولاية والعمال إلى الخليفة، فقد ذكرت المصادر أن صرف إبراهيم بن المهدي عن ولاية دمشق مرتين يعود إلى صاحب البريد، ففي المرة الأولى كتب صاحب البريد إلى الرشيد أن الناس ينتظرون على باب إبراهيم لحل مشاكلهم، وهو غير مهتم بذلك، فوقع الرشيد بعزله، وفي المرة الثانية كتب إلى الرشيد بأن إبراهيم بن المهدي الذي كان يتولى إمرة الموسم، قد عبر بسرعة على سفح جبل في طريق الحج، وكان هناك صخرة كبيرة لا يأمن العابر سقوطها عليه، ولما بلغ خبر ذلك إلى الرشيد غضب، ووقع بعزله عن دمشق، ولكن فيما بعد لما سقطت الصخرة على عدد من العابرين تحتها، وكتب صاحب البريد بذلك، استصوب الرشيد فعل إبراهيم، ووصله بثلاثين ألف دينار من مال دمشق، وأعادته إلى ولايتها^(٤).

(١) السكة: هي الطريق المسكوكة التي تمر فيها القوافل من بلد إلى آخر، فإذا قيل من بغداد إلى الموصل خمس سكك، فإن هذا يعني أن القاصد من بغداد إلى الموصل يمكنه أن يأتيها من خمس طرق؛ الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٥٦.

(٢) حسن، تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٩، ص ٩٢ - ٩٣.

(٤) ابن عساكر، م. ن، ج ٧، ص ١٦٣؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

ولم يك صاحب البريد يُعنى بالأخبار السياسية فقط، بل كان يبلغ كل الأخبار والأحداث التي تحصل في منطقة عمله، ففي عهد المتوكل كتب صاحب البريد بدمشق عبد الله بن صالح بخبر الزلزلة التي حدثت فيها في ربيع الآخر سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م^(١)، وقد اشترط في صاحب البريد أن يكون أديباً حسن الكتابة، فقد ولى المتوكل في أواخر أيامه الحسن بن وهب بن سعيد الكاتب بريد دمشق، وكان من الكتاب البارزين، واستمر في عمله حتى توفي^(٢).

كان البريد من أهم الوسائل التي ساعدت أحمد بن طولون في مناوأة الخلافة العباسية، إذ استطاع أن يعين أحد المقرين إليه عاملاً للبريد في حاضرة الخلافة، ومن خلاله تعرّف ابن طولون إلى منافسيه، وتخلص منهم، ومن خلاله أيضاً أحبط مؤامرة عزله عن مصر ولا سيّما بعد خلافه مع الموفق^(٣).

وممن تولى البريد أيضاً محمد بن عبد الله أبو جعفر الكاتب المعروف بابن عبدكان، وكان يلي البريد بجندى دمشق وحمص، ثم صار كاتباً لأبي الجيش خمارويه^(٤).

وإضافة إلى الطرق البرية، استخدمت الطيور للقيام بالمهام البريدية وإيصال الأخبار، ذكر ابن عساكر أنه عندما اعتدى أعرابي في أذرعات على

-
- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٩، ص ٢٠١.
 - (٢) الكتبي، محمد بن شاعر (ت، ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣م، مج ١، ص ٣٦٧.
 - (٣) البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ١٧٥-١٧٨؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج ١، ص ١١٠-١١١؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ١، ص ٤٣٩، ٤٤٥.
 - (٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٤، ص ٦١.

أحد جنود أماجور، أرسل أماجور معلماً للصبيان إلى المنطقة، وزوّده بطيور وكتاب، فأقام المعلم في القرية يراقبها حتى إذا وافى الأعرابي المنطقة، أرسل الطيور مع الكتاب إلى أماجور، فخرج إليها، وألقى القبض على الأعرابي^(١).

واستمر استخدام الطيور "الحمام الزاجل" للقيام بالمهام البريدية، في عهد الإخشيديين، ففي أحد الأيام، وبينما كان الإخشيد يقوم بالصيد في ضواحي دمشق رأى حماماً، فأرسل طائر الصيد الذي معه، فوجد مع الحمام كتاباً من الراشدي إلى أحد أتباعه في دمشق، يذكر فيه أن ما بقي لديه ثمانون ألف دينار^(٢).

٦ - صاحب المَعُونَة :

تشير بعض المصادر إلى أن الوالي أطلق عليه منذ عهد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ / ٨٣٣ - ٨٤١ م) اسم صاحب المَعُونَة^(٣)، والكلمة مأخوذة من العون أي الظهير على الأمر، والاسم منه عَوْنٌ وَمَعُونَةٌ^(٤)، وتعود وظيفة صاحب المعونة إلى العصر الأموي، فقد ذكر الجهشيارى أن معاوية بن عبيد الله بن

(١) ابن عساكر، م.ن، ج٩، ص٢١٩-٢٢٠؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج٣، ص١٠١-١٠٢.

(٢) ابن سعيد، المغرب في حُلَى المغرب، ج١، ص١٥٥؛ كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص٦٥؛ بيطار، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، ص٣١٩؛ زيود، العلاقات بين الشام ومصر، ص٢٨٩.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٤١، ص٢٥٥-٢٥٦؛ التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج٢، ص٢٩٤؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص١١١؛ السرياني، تاريخ ميخائيل السرياني، ج٣، ص٧٦.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص٤٨٤-٤٨٥، مادة "عون".

يسار من أهل فلسطين الذي صار كاتباً ووزيراً للخليفة المهدي، كان يكتب لصاحب المعونة بالأردن أيام بني أمية^(١).

وترجح الدراسات أن ازدياد الفتن والاضطرابات في عهد المعتصم بعد اتخاذه الأتراك جنداً له، وإسقاطه العرب من ديوان العطاء، وإخفاق صاحب الشرطة في تهدئة هذه الفتن، هي الأسباب التي دفعت لإبقاء قوة عسكرية إلى جانب الوالي يستطيع بها إخماد الفتن، فصار يطلق عليه اسم صاحب المعونة^(٢)، واستمر هذا الاسم يطلق على الوالي حتى عهد الخليفة الراضي (٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٣م - ٩٤٠م)^(٣).

٧- صاحب الشرطة :

الشرطة: هم فئة من الجنود يعاونون الخليفة أو ولاية الأقاليم في حفظ الأمن وإقرار النظام^(٤)، ولهم سلطان واسع مستمد من الخليفة أو الوالي، ومن أبرز مهامهم: القبض على الجناة والمفسدين، وتنفيذ أحكام القضاة والمحتسبين^(٥).

(١) الوزراء والكتاب، ص ١٢٩.

(٢) خماش، التنظيم الإداري في الشام، ص ١١٨.

(٣) مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ٣٦٧، (أشار إلى ذلك عندما تحدث عن بدر الخرشني الذي تولى الحرب في ديار مصر، ثم غادرها إلى الحضرة، إذ قال: فلما خلت من صاحب معونة قصدها علي بن حمدان فغلب عليها).

(٤) تسترثين، الشرطة، دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة عن الأصلين الإنكليزي والفرنسي، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتاوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣٣م، مج ١٣، ص ١٩٣.

(٥) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤١-٢٤٢؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٦٥؛ شبارو، عصام محمد، القضاء والقضاة في الإسلام، العصر العباسي، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٣م، ص ٢٧، ٣٧.

كان تعيين صاحب الشرطة وعزله يتولاه الوالي، فقد جعل عبد الله بن علي شرطته حياش بن حبيب الطائي، وهو الذي عاقب بني أمية لما استدعاهم عبد الله على نهر أبي فطرس^(١)، ولما أعلن عبد الله ثورته جعل علي شرطته أبان بن حوي الدمشقي^(٢)، وعندما اتجه جعفر بن يحيى البرمكي إلى الشام سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦م لتهدئة الاضطرابات فيها، جعل علي شرطته العباس بن محمد بن المسيب بن زهير^(٣).

هذا وقد أساء بعض أصحاب الشرطة التصرف، وبدلاً من القيام بواجباتهم في حفظ النظام وإقرار الأمن، قاموا بأعمال أدت إلى انتشار الفوضى والاضطراب، وهذا ينطبق على داود بن عيسى صاحب شرطة دمشق للوالي منصور بن محمد المهدي في أيام الخليفة الأمين (١٩٣-١٩٨هـ / ٨٠٩-٨١٣م)، الذي سرق قلة الجامع الأموي، ووجه بها إلى الخليفة الأمين، الأمر أثار غضب سكان دمشق واستياءهم، فهاجموا صاحب الشرطة، وهاجموا في الوقت نفسه الوالي، مما دفعه للهرب من دمشق ليلاً مع صاحب شرطته^(٤).

ولم يقتصر عمل صاحب الشرطة على ملاحقة المجرمين والمفسدين، بل كان يقوم بإلقاء القبض، ومعاقبة أي شخص يرتكب جنایات وجرائم تستحق العقوبة، حتى ولو كان من المسؤولين في الولاية كالوالي أو صاحب المعونة أو أي مسؤول آخر، فعندما أقدم علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ

-
- (١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٧، ص ٦٦٢.
 - (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣١، ص ٦٤.
 - (٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٧، ص ٢٦٢.
 - (٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص ٢٧٨؛ ج٦٠، ص ٣٥٢-٣٥٤؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٠٢-٢٠٣.

صاحب المعونة بجندي دمشق والأردن على قتل عامل الخراج فيهما، قام صاحب الشرطة عيسى بن سابق بالتعاون مع جماعة من قواده بإلقاء القبض على صاحب المعونة، وأرسله إلى الخليفة الواثق لينال جزاءه، وحلّ مكانه^(١).

٨- القاضي :

يعرّف القاضي بأنه بمنزلة "حكم يحل الخلافات بين المتخاصمين الذين يقصدونه، فيعطي حكمه حسب الشريعة الإسلامية، وهو شخصياً لا يملك سلطة تنفيذ الحكم، إلا أنه مخوّل بسلطة يشرف بموجبها على جميع القضايا التي تؤثر في حياة الجماعة والتي نظمتها الشريعة كالزواج والطلاق والعناية بالأيتام والمواريث وغيرها"^(٢)، ويعرّف القضاء بأنه فصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع^(٣)، أما الشروط الواجب توافرها في القاضي فهي: الذكورية، والبلوغ، والعقل، والحرية، والإسلام، والعدالة، وسلامة السمع والبصر والحواس، وأن يكون عالماً بالأحكام الشرعية^(٤).

كان تعيين القضاة في العصر الأموي كثيراً ما يُجرىه الولاة، لكن في العصر العباسي لم يطبق هذا إلا في السنوات الأولى أو خلال الفتنة بين الأمين والمأمون، فالقاضيان سالم بن عبد الله المحاربي، ومحمد بن عبد الله بن لبيد الأسدي، عينا من قبل عبد الله بن علي^(٥)، والقاضي ثمامة بن يزيد الأزدي

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤١، ص ٢٥٥ - ٢٥٧.
- (٢) شبارو، القضاء والقضاة في الإسلام، ص ٣٧.
- (٣) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢١٥.
- (٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٨٣ - ٨٤.
- (٥) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ٢٠٣ - ٢٠٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

عين من قبل صالح بن علي^(١)، والقاضي مسافر (مساور) الخراساني عين من قبل محمد بن الأشعث الخراساني سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧م^(٢)، والقاضي سلمة بن عمرو من قبل الفضل بن صالح بن علي^(٣)، وبعد ذلك صار تعيين القضاة من قبل الخليفة أو قاضي قضاة، وأول قاضي عين من قبل الخلفاء هو القاضي يحيى بن حمزة البتليهي (نسبة إلى بيت لهيا) الذي عينه أبو جعفر المنصور عندما زار دمشق سنة ١٥٣هـ / ٧٧٠م، وقال له: "يا شاب إني أرى أهل بلدك أجمعوا عليك فإياك والهدية"، فاستمر على قضاةها - بشكل يكاد يكون مستمراً - حتى تُوِّفِّي في عهد الخليفة الرشيد سنة ١٨٣هـ / ٧٩٩م^(٤)، فولى الرشيد بعده عمرو بن يزيد بن محمد المؤملي، واستمر قاضيها حتى توفي أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون^(٥)، وعندما أعلن أبو العميطر ثورته عين أبا مسهر عبد الأعلى بن مسهر الدمشقي قاضياً على دمشق، إلا أن أبا مسهر ما لبث أن تنحى عن القضاء عندما خلع أبو العميطر، فلم يل قضاء دمشق أي قاضٍ حتى قدم المأمون إليها^(٦).

- (١) وكيع، محمد بن خلف بن حيان (ت، ٣٠٦هـ / ٩١٨م)، أخبار القضاة، بيروت، عالم الكتب، (د.ت)، ج ٣، ص ٢٠٨.
- (٢) وكيع، م.ن، ج ٣، ص ٢٠٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ١٣٤؛ ج ٥٧، ص ٣٧٩؛ ابن طولون، محمد بن علي (ت، ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م)، الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٦م، ص ١٢.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٢، ص ١٠٥؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ١٢.
- (٤) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت، ٢٣٠هـ / ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ج ٧، ص ٣٢٥؛ أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ٢٠٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٤، ص ١٣١.
- (٥) ابن عساكر، م.ن، ج ٤٥، ص ٤٤٨ - ٤٤٩؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ١٤.
- (٦) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١١، ص ٧٢ - ٧٣؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، م.س، ج ٥، ص ٩٠ - ٩٢.

فاستخدم على قضائها محمد بن بكار بن بلال العاملي (ت، ٢١٦هـ / ٨٣١م)^(١)، ثم تولى بعده محمد بن يحيى بن حمزة (ت، ٢٣٢هـ / ٨٤٦م)، فاستمر في منصبه حتى عزله قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد في مطلع عهد المعتصم^(٢)، فلم يل أحد قضاء دمشق حتى عهد المتوكل، عندما عين أحمد بن أبي دؤاد في مطلع سنة ٢٣٣هـ / ٨٤٧م إسماعيل بن عبد الله السكري (اليشكري)، فاستمر حتى عزله يحيى بن أكثم، وولى القاضي محمد بن هاشم بن ميسرة^(٣)، ثم تولى بعده القاضي محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الأسدري المعروف بابن عليّة من قبل جعفر بن عبد الواحد، وبقي في منصبه حتى توفي سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧م^(٤).

ولما دخل أحمد بن طولون دمشق سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧م استبقى قاضيها عبد الحميد بن عبد العزيز السكوني^(٥)، ولكن القضاة في عهده في الشام ومصر صاروا خاضعين لسلطته، ويدل على ذلك الاجتماع الذي عقده في دمشق سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٢م، وفيه أشهد القضاة على خلع الموفق من ولاية العهد^(٦) وفي عهد خمارويه صار تعيين القضاة من قبله ولا سيّما

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ١٥٤؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ١٨.
- (٢) ابن طولون، م.ن، ص ١٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٧، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.
- (٣) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٤، ص ١٦٥٨؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٢٧٧؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ١٩.
- (٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ٤٧.
- (٥) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٤، ص ٧٨؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١١، ص ٦٢.
- (٦) عن هذا الاجتماع، انظر: الوضع السياسي.

بعد حصوله على كتاب الخليفة المعتضد بولايته على الشامات ومصر والشغور مدة ثلاثين عاماً، فاستخدم على قضاء دمشق أبا زُرعة محمد بن عثمان الدمشقي، وجمع له قضاء مصر، فاستمر في منصبه حتى سقوط الدولة الطولونية^(١)، وعودة بلاد الشام إلى السيادة العباسية، فعاد تعيين القضاة آنذاك في المدة العباسية الثانية - في معظمهم - من قبل الخلفاء، وكذلك كان الأمر في العصر الإخشيدي^(٢).

ومما هو جدير بالذكر أن معظم القضاة كانوا شاميين حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ولكن بدءاً من ذلك الوقت صار من قضاة دمشق الفرغاني والقزويني والكوفي والبغدادى والخراساني^(٣).

كان القضاة يصدرن أحكامهم وفق المذهب الأوزاعي حتى تولى القضاء أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي في العقد الثامن من القرن الثالث

(١) الكندي، كتاب ولاية مصر، ص ٣٦٣؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٤، ص ١٩٠؛ ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد الدمشقي (ت، ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دمشق، دار ابن كثير، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، مج ٤، ص ١٣.

(٢) انظر ملحق القضاة في آخر البحث.

(٣) انظر ملحق القضاة في آخر البحث؛ الفرغاني: نسبة إلى فرغانة، وهي ولاية وراء الشاش من بلاد المشرق وراء نهر جيحون وسيحون؛ السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت، ٥٦٢هـ / ١١٦٦م)، الأنساب، وضع حواشيه: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، مج ٤، ص ٣٤٣.

- القزويني: نسبة إلى قزوين، وهي إحدى المدائن المعروفة بأصبهان؛ السمعاني، الأنساب، مج ٤، ص ٤٧٢.

المهجري، فأدخل المذهب الشافعي^(١)، وفيما بعد صار القضاة يحكمون وفق المذهب الذي ينتمون إليه، فكان منهم المالكي كالقاضي محمد بن أحمد ابن إسماعيل البركاني (التوكاني) (ت، ٣١٠هـ/٩٢٢م)^(٢)، والحنفي كعلي بن محمد بن الحسن النخعي الكوفي (ت، ٣٢٤هـ/٩٣٥م)^(٣)، والشافعي كزكريا بن أحمد بن يحيى البلخي (ت، ٣٣٠هـ/٩٤١م)^(٤)، والأوزاعي كأحمد بن سليمان بن حذلم (ت، ٣٤٧هـ/٩٥٨م)^(٥).

تمتع القضاة بوضع اجتماعي عال ومحترم، ودفعتهم كثرة الأعباء الملقاة على عاتقهم إلى اتخاذ نواب لهم ولا سيّما حين صار القاضي يجمع قضاء جندي الأردن وفلسطين إلى قضاء جند دمشق^(٦)، أو عندما صار القاضي يعين على الشام ومصر^(٧).

ويساعد الكتّاب والحجّاب القاضي في إنجاز الواجبات المنوطة به، فيأخذ الكاتب رقاع المتحاكمين عند باب المسجد قبل مجيء القاضي، وتُعد

- (١) المقرئزي، المفقى الكبير، ج٦، ص١٨٩ - ١٩٠.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٥١، ص٤٦؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص٢٥.
- (٣) ابن طولون، م.ن، ص٢٧؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٤٣، ص١٥٩.
- (٤) ابن عساكر، م.ن، ج١٩، ص٥٧؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص٢٨؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج٥، ص٣٨١.
- (٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٧١، ص١٥١؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ج١٥، ص٥١٤؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٦، باعتناء: س. ديدرينغ، فيسبادن، فرانز شتاينز، ١٩٧٢م، ص٤٠٥.
- (٦) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٤٣، ص٧٨.
- (٧) ابن عساكر، م.ن، ج٥٤، ص١٩٣ - ١٩٤.

جلسات القضاء علنية في المسجد أو دار القاضي أو السوق^(١)، ويلبس القاضي خلالها السواد على هيئة عمال بني العباس^(٢)، وتعلق الأحكام التي يصدرها على جدران الجوامع بعد كتابتها على قماش كبير^(٣).

ومما هو جدير بالذكر أنه كان يؤخذ على القاضي عند تعيينه عهداً بالنزاهة وتحقيق العدالة وإحقاق الحق، والاهتمام بالشهود، والتثبت من صحة شهادتهم وعدالتهم^(٤)، ولكن رغم ذلك فإن بعض القضاة لم يكونوا على مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقهم، واتخذوا مناصبهم للحصول على الرشوة وابتزاز أصحاب الدعاوى متجاهلين تحقيق العدالة، ومن القضاة الذين عرف عنهم ذلك: القاضي عمرو بن يزيد بن محمد القرشي العدوي الذي تولى قضاء دمشق سنة ١٨٣هـ/ ٧٩٩م، واستمر حتى توفي سنة ١٩٤هـ/ ٨٠٩م، فقد عرف عنه

الجور والرشوة، فقال فيه شاعر دمشق آنذاك أعنس بن عثمان الهمداني:

قُلْ لِعَمْرٍو قَاضِي دِمَشقَ أَبِي بَكٍ — رِ فَكَنْ فِي طَلابِ غَيرِ القِضائِ
كَم قِضايا قَد بَعثَها بِارتِشاءِ — ثَمَّ أَبطَلتَها بِفِضْلِ ارتِشاءِ^(٥)

(١) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٠؛ متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٢٩٨؛ خماش، الشام في صدر الإسلام، ص ٢٥٧.

(٢) متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٣٠١.

(٣) الخطيب، المجتمع العباسي، ص ١٧٣.

(٤) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٠ - ٤١.

(٥) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٣، ص ٨٤؛ فرفور، حسام الدين، معجم الشعراء من تاريخ مدينة دمشق للإمام الحافظ أبي القاسم علي ابن الحسن بن هبة الله الشافعي الدمشقي المعروف بابن عساكر، دمشق، دار الفكر، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩١م، ج ١، ص ٣١١.

واتصف القاضي الحسين بن عيسى بن هارون (ت، ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) بأنه لم يكن يصلح لتقلد الحكم لخلوه من علم الأحكام، وإنما كان يتقلد ذلك طلباً للجاه، وصيانة نعمته^(١).

كذلك عرف عن القاضي عبد الله بن أحمد بن راشد بن شعيب (ت، ٣٦٩هـ / ٩٧٩م)، الذي تولى قضاء دمشق سنة ٣٤٨هـ / ٩٥٩م بأنه كان سخيلاً خليعاً مستهتراً بالقضاء حتى إنّه كان يلعب في مجلس القضاء ويهزل، بيد أن هذا القاضي كان قد تولى قضاء مصر من قبل عدة مرات، وكان مشهوراً بالرشوة والاستخفاف مما ترك أكبر الأسي في نفوس المصريين، فهجاه بعضهم قائلاً:

يا أَوْضَعَ النَّاسِ أَحْسَاباً وَأَنْذَلَهُمْ فِعْلاً وَأَكْثَرَهُمْ عِنْدَ الْجَمِيلِ عَمّاً^(٢)

وتجدر الإشارة إلى أن المصادر أوردت - إضافة إلى قضاة دمشق - أسماء قضاة كانوا يقضون في مدن جند دمشق وقراها، ولم تورث هذه المصادر كثيراً من المعلومات حول العلاقة بين هؤلاء القضاة وقضاة دمشق، ولكن ما يستفاد من ترجمة محمد بن إسماعيل المرثدي (ت، ٣٤٩هـ / ٩٦٠م) قاضي صيدا، أن خلفه ابن عيسى عيّنه قاضي دمشق^(٣)، وفي هذا ما يفيد أن

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٤، ص ٢٨٦؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٤، ص ٣٤٩.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٧، ص ٢٣؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٢٨٠-٢٨١.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ١١٥-١١٦.

بعض قضاة المدن والقرى كانوا يعينهم قاضي دمشق، وفيما يلي أسماء بعض القضاة الذين كانوا يقضون في بعض المدن أو القرى^(١):

- خالد بن يزيد بن صالح بن صبيح المري (ت، ١٦٦هـ / ٧٨٢م) قاضي البلقاء^(٢).

- سويد بن عبد العزيز (ت، ١٩٤هـ / ٨٠٩م) قاضي بعلبك^(٣).

- محمد بن خالد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن حمزة البتليهي (ت، ٣٢٤ أو ٣٢٧هـ / ٩٣٥، ٩٣٨م) قاضي بيت لهيا^(٤).

- عمار بن الخزر بن عمار الجسريني (نسبة إلى قرية جسرين) (ت، ٣٢٩هـ / ٩٤٠م) قاضي الغوطة، كان يقضي بين أهل القرى فيها^(٥).

- الحسن بن محمد بن أحمد بن حيدرة أبو عبد الله (ت، ٣٣٠هـ / ٩٤١م) قاضي أطرابلس^(٦).

(١) عن القضاة الذين برزوا في مدن البقاع والساحل انظر: تدمري، لبنان، ص ٢٠٣، ٢٢٠ - ٢٢٣، ٢٥٦، ٢٧٢، ٢٨٧ - ٢٨٩.

(٢) العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٣، ص ١١٤.

(٣) ابن عدي، عبد الله بن عدي الجرجاني (ت، ٣٦٥هـ / ٩٧٥م)، الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ج ٤، ص ٤٩٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٢، ص ٣٤٥.

(٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٥٢، ص ٣٧٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٢١ - ٣٣٠هـ، ص ٣١٥.

(٥) الذهبي، م.ن، (ح. و) ٣٢١ - ٣٣٠هـ، ص ٢٦٥؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٣، ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

(٦) ابن عساكر، م.ن، ج ١٤، ص ١٩٥.

- عبد العزيز بن هاشم بن شقيق الباهلي الجوبري (ت، ٣٣٠هـ / ٩٤١م) قاضي جوبر^(١).

- محمد بن بكار بن يزيد بن بكار السكسكي (ت، ٣٣٢هـ / ٩٤٣م) قاضي بيت لهيا^(٢).

- حكيم بن محمد أبو الفضل المالكي الفقيه (ت، ٣٥٠هـ / ٩٦١م) قاضي الغوطة، اختاره أهل دمشق للنظر في الحكم بعد موت قاضيها عبد الله بن محمد الخصيبي، واعتزال نائبه محمد بن إسماعيل المرثدي، فنظر في القضاء مدة يسيرة^(٣).

٩ - صاحب المظالم:

نظر المظالم "هو قوَدُ المتظالمين إلى التناصف بالرهبة، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة"، ومن شروط صاحب المظالم "أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر، عظيم الهيبة، ظاهر العفة، قليل الطمع، كثير الورع"^(٤)، ويجمع في نظره بين سطوة الحماة، وثبت القضاة، وهو أقوى يداً من القاضي، وينظر في كل حكم يعجز القاضي عنه^(٥).

(١) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٦، ص ٣٧٥؛ جوبر: من قرى غوطة دمشق؛ كرد علي، غوطة دمشق، ص ٢٣.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ١٥٧.

(٣) ابن عساكر، م.ن، ج ١٥، ص ١٣٥-١٣٦؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٤، ص ٤٢٣.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٩٧؛ أبو يعلى، محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت، ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م)، الأحكام السلطانية، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتب

العلمية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ٧٣.

(٥) متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٣٠٧.

وتذكر المصادر أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كان أول من أفرد يوماً للاطلاع على قضايا المتظلمين، ثم نظر فيها الخليفة عمر بن عبد العزيز، وفي العصر العباسي جلس لها عددٌ من الخلفاء، أولهم الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٤ - ٧٨٥ م)^(١).

ويعين أصحاب المظالم في الولايات الوزراء^(٢) أو قاضي القضاة^(٣)، وتعد محكمة المظالم في المسجد، وتصدر الأحكام مكتوبة، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا يتم مجلسه إلا بحضورهم، وهم: الحماة والأعوان، والحكام والقضاة، والفقهاء، والكتّاب، والشهود^(٤).

ومن اختصاصات صاحب المظالم: النظر في تعدي الولاة على الرعية، وجور عمال الخراج إذا اشتطوا في جمع الضرائب، والنظر في أعمال كتّاب الدواوين، وتصفح أحوال ما وكل إليهم، والنظر في تظلم المسترزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها إليهم، والنظر فيما يعجز عنه القاضي والمحاسب، وتنفيذ الأحكام التي عجزوا عن تنفيذها، كما كان من اختصاصاته مراعاة إقامة العبادات كالجمع والحج والأعياد والجهاد^(٥).

أما بالنسبة لولاة المظالم في جند دمشق خلال هذه المدّة، فيرد في المصادر اسم واليين منهم، وقد ولّاهما قاضي القضاة في بغداد أحمد بن أبي دؤاد،

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٩٨؛ أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص ٧٥.

(٢) متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٣٠٧.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٤، ص ١١٧ - ١١٨؛ ج ٦٧، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٠٠؛ أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص ٧٦.

(٥) أبو يعلى، م. ن، ص ٧٦ - ٧٩؛ الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٠١ - ١٠٤.

الذي ما إن تولى منصبه حتى عزل محمد بن يحيى بن حمزة عن قضاء دمشق، وولى عليها صاحب مظالم يعرف بأبي مسلم النطعي، ثم عزله، وولى يحيى بن الحسن الطبراني صاحب مظالم عوضاً من القاضي^(١).

هذا وتذكر المصادر أن عمال المظالم إما أن يكونوا مندوبين للنظر فيها فيحددوا يوماً أو يومين للنظر فيها، بينما ينصرفون في بقية الأيام إلى الأعمال الموكلة إليهم، وإما أن يكونوا عمالاً منفردين للمظالم فيجلسوا للنظر فيها في كل الأيام^(٢)، غير أن ابن عساكر الذي ذكر اسمي صاحب المظالم اللذين عيننا في دمشق، لم يوضح من أي الصنفين السالفين كانا، ولكن من المرجح أنهما من الصنف الثاني (أي العمال المنفردين)، أي إنهم كانوا يجلسون للمظالم في كل الأيام، وبما أن من اختصاصات صاحب المظالم النظر في تظلم الرعية تجاه الولاية، يمكن القول إن الأوضاع المضطربة في جند دمشق في تلك الآونة - ولا سيما قيام ثورة ضد الوالي أبي المغيث الرافقي، وقيام ثورة المبرقع في فلسطين، وامتداد أثرها إلى مناطق جند دمشق - هي التي دفعت إلى تعيين ولاية مظالم بديلاً عن القضاة.

يضاف إلى ما سبق عرف عن أحمد بن طولون الاهتمام بالمظالم والنظر فيها يومين في الأسبوع^(٣)، ونظر الإخشيد في المظالم كل يوم أربعاء، ونظر فيها كافور كل يوم سبت^(٤).

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٤، ص ١١٧ - ١١٨؛ ج ٦٧، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٠٠؛ أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص ٧٦.

(٣) متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٣٠٩.

(٤) متز، م.ن، ج ١، ص ٣٠٩؛ كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٢٨٨.

وكان من موظفي الجهاز الإداري في جند دمشق أيضاً: المحتسب الذي كانت مهمته مراقبة الأسواق باستمرار، وكل ماجري فيها، والإشراف على تنظيم المدن^(١)، وعرف من محتسبي دمشق: إبراهيم بن محمد بن إبراهيم أبو إسحاق الأسدي المعروف بابن خريطة (ت، ٣١٧هـ / ٩٢٩م)^(٢).

ومن خلال ما سبق يتبين أن وضع جند دمشق الإداري تغير مع سيطرة العباسيين على دمشق وسقوط الخلافة الأموية، إذ تحولت دمشق من مركز للخلافة إلى ولاية شبه مهمة تابعة للخلافة العباسية التي بات مركزها في العراق، فارتبط التنظيم الإداري في جند دمشق بالتنظيم الذي اتبعه العباسيون في بلاد الشام، وصار أبرز موظفي الجهاز الإداري فيه تابعين للإدارة المركزية في حاضرة الخلافة، ويعينون من قبلها سواء من قبل الخليفة أو الوزير أو من ينوب عن الخليفة في المجالات الإدارية.

وقد مثل الجهاز الإداري في جند دمشق عمال عديدون: كالوالي والكاتب والحاجب وصاحب الخراج وصاحب الشرطة وصاحب البريد والقاضي وصاحب المظالم وغيرهم، وكان لكل منهم اختصاصه، وبينما كان بعضهم يستمد تفويض سلطاته من حاضرة الخلافة، كانت سلطات بعضهم الآخر مستمدة من الوالي الذي شكل أعلى سلطة في جند دمشق.

ولم يحصل أي تبديل أو تغيير إداري عندما خضع جند دمشق للدولة الطولونية، بل استمرت الأعمال الإدارية نفسها التي كانت موجودة من قبل، غير أن القائمين على هذه الأعمال صاروا خاضعين للسلطة الطولونية

(١) عن مهام المحتسب ودوره، انظر: الفصل الثالث - الرقابة على الأسواق.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٧، ص ١١٣.

أو معينين من قبلها، وكذلك كان الأمر عندما خضع جند دمشق للدولة الإخشيدية.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض ممثلي الجهاز الإداري ترك آثاراً إيجابية، وتميز بإدارته الناجحة التي أدت إلى تحقيق الهدوء والاستقرار، بينما تميز بعضهم الآخر بسوء التصرف والإدارة، والقيام بأعمال أدت إلى انتشار القلاقل والاضطرابات، وحدوث الأزمات.



الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية في جند دمشق

أ - البنية الاجتماعية:

١ - سكان المدن:

أولاً - لمحة إلى تخطيط المدن والواقع الاجتماعي في الأحياء والأسواق.

ثانياً - القصور والمنازل.

ثالثاً - تغذية المدن بالماء.

رابعاً - الحمامات ودورها الاجتماعي.

خامساً - الاهتمام بالنواحي الصحية.

سادساً - اللباس والاهتمام بالمظهر الخارجي.

سابعاً - المطبخ الشامي (الطعام، أنواعه، طرائق تحضيره، آداب تناوله...).

ثامناً - الأعياد.

تاسعاً - مظاهر آخر من الحياة الاجتماعية (عادات وتقاليد).

٢ - سكان الأرياف.

٣ - سكان البادية:

أولاً - دور البدو.

ثانياً - مظاهر الحياة الاجتماعية عند البدو.

ب - الأحوال الدينية:

١ - المسلمون:

أولاً - المرجئة.

ثانياً - الجبرية.

ثالثاً - القدرية.

رابعاً - المعتزلة.

خامساً - الشيعة.

سادساً - الزهد والتصوف.

٢ - المسيحيون.

٣ - اليهود.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الحياة الاجتماعية في جند دمشق

أ - البنية الاجتماعية:

تشمل البنية الاجتماعية الحديث عن سكان جند دمشق حسب أماكن سكنهم، فهناك سكان في المدن، وسكان في الأرياف، وسكان في البادية، وكان لكل منهم نشاطاته واهتماماته وعاداته وتقاليده المختلفة التي طبعت حياته بطابع خاص.

١ - سكان المدن:

تقدمت الإشارة إلى معاناة سكان جند دمشق من اضطرابات وقلق كثيرة، ما شكّل تربة خصبة لنمو الشائعات، وانتشار الأخبار عن الأوضاع المعيشية السيئة، فكان الحديث عن هذه الأوضاع وعن الظروف السياسية محور كلام الناس عند لقاءهم في الساحات والأسواق والمتاجر والحمامات ودكاكين الحلاقين وغيرها، وفي المساء كان الناس يذهبون إلى المساجد لحضور حلقات العلم التي يعقدها رجال الأدب وشيوخ الحديث، وفيها كان يتم الحديث أحياناً عن شؤون الساعة وأخبارها، وقد يحمل هذا الحديث في طياته نقداً صريحاً للسلطة^(١)، فلما وافى المأمون دمشق سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م، ونزل دير مران، كان يأمر بمجامر عظيمة توقد ليلاً، وتجعل في طساس كبار لتضيء له الغوطة، فيصرها ليلاً، وكان لأبي مسهر حلقة في جامع دمشق بين

(١) زركلي، بلاد الشام، ص ٨٦.

العشاء والعتمة، وبينما كان في مجلسه ليلةً، دخل المسجد ضوء عظيم، فلما سأل ما هذا؟. وأخبر أنها النار التي يأمر بها أمير المؤمنين لتضيء له الغوطة، استنكر ذلك، وشبهه بعمل قوم عاد، وكان في الحلقة من أخبر المأمون بما قال أبو مسهر، فحقد عليه، لذلك لما أقبل على امتحان الناس في مسألة خلق القرآن، أمر بحمل أبي مسهر إليه ليمتحنه بنفسه^(١).

كما أن اضطراب الأوضاع وانعدام الأمن وضعف السلطة وسوء إدارتها وعجزها عن تحقيق الاستقرار دفع سكان دمشق إلى الدفاع الذاتي المحلي، فكونوا تنظيمات شعبية شبه عسكرية عرفت باسم الأحداث^(٢)، والأحداث في الأصل تنظيمات اجتماعية قامت على تكتل أصحاب كل مهنة أو حرفة أو حي من الأحياء، ويكون له رئيس خاص به، ومسجد، وشرطة، وجيش يتألف من الأحداث^(٣)، وجاء اسم الأحداث من الحداثة في السن، والحداثة في حمل السلاح واستعماله، ويسمى رئيسهم: القائد أو المقدم أو النقيب أو الرئيس... إلخ^(٤).

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٣، ص ٤٣٨.

(٢) حول الأحداث ودورهم، انظر: مصطفى، شاعر، الحركات الشعبية وزعمائها في دمشق، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العددان ٣-٤، ١٩٧٣م، ص ١٧٤-٢٢٣؛ كاهن، كلود، الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الإسلامية خلال القرون الوسطى، ترجمة: علي مقلد، مجلة الاجتهاد، بيروت، دار الاجتهاد، العدد السادس، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ص ١٠٥-٢٠٦؛ Bianquis, Damas, P. 20-23.

(٣) سوفاجيه، جان، دمشق الشام، ترجمة: فؤاد أفرام البستاني، تحقيق: أكرم حسن العليبي، ط ١، ١٩٨٩م، ص ٦٤-٦٥؛ ريجاي، عبد القادر، تاريخ دمشق العمراني، الحوليات الأثرية السورية، دمشق، مج ١٤، ١٩٦٤م، ص ٣٧؛ مدينة دمشق وتراثها ومعالمها التاريخية، ص ٦٣-٦٤؛ خير، مدينة دمشق، ص ١٥٨.

(٤) كاهن، الحركات الشعبية، ص ١٣٢؛ مصطفى، الحركات الشعبية، ص ١٨٠.

عاش أهل جند دمشق بمختلف طوائفهم في جو منسجم ومتعاون، وبعيداً عن التعصب الديني أو التمييز الطائفي، لا بل كثيراً ما تعاون المسلمون وأهل الذمة في مواجهة الأزمات التي واجهتهم، فلما دخل أحد بن طولون دمشق سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧م، ووقع حريق في كنيسة مريم اتجه مباشرة إلى مكان الحريق للمشاركة في إطفائه، ووزع سبعين ألف دينار على الذين تضرروا منه^(١). وكان النصارى المجاورون لجبل لبنان يقدمون الأوقات للمسلمين المنقطعين به، ويحسنون إليهم، ويقولون: "هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل، فتجب مشاركتهم"^(٢).

ولم يتأثر مجتمع جند دمشق بالزندقة^(٣)، التي انتشرت في العصر العباسي، وشغلت بال كثيرين، حتى على صعيد الأفراد لم يكن للزندقة أي تأثير ظاهر، فلم يعرف جند دمشق من أتباعها إلا اسم واحد هو صالح بن عبد القدوس الأزدي البصري الذي كان شاعراً متكلماً اتهم بالزندقة، وأنه قال أبياتاً يعرض فيها بالنبي عليه السلام، فأمر المهدي بحمله إليه، فلما التقاه أعجب بغزارة علمه وأدبه، فأخلى سبيله، فجاء صالح إلى دمشق،

(١) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧١، ص ٢١٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٢٦١ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٨٠هـ، ص ٤٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٩.

(٢) ابن جبير، محمد (ت، ٦١٤هـ / ١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، بيروت، دار الشرق العربي، (د.ت)، ص ٢٢٣.

(٣) الزندقة: هي الشك والإلحاد، واعتناق الإسلام ظاهراً والتدين بدين المانوية باطناً خاصة، وفيما بعد اتسع معناها حتى شمل كل صاحب بدعة وكل ملحد؛ أمين، أحمد، ضحى الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١٠، ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م، ج ١، ص ١٣٨؛ قدورة، زاهية، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٧٢م، ص ١٢٩ - ١٣٠.

وصار يكثر الجلوس فيها إلى حانوت قطان أو عطار، وعاد للدعوة إلى مذهبه، والجدال عنه، فأرسل المهدي أحد عماله على البريد، فقبض عليه وحمله إلى بغداد، وفيها قتل وصلب على الجسر ستة ١٦٧هـ / ٧٨٣م^(١). وعدم ورود أيّ حادثة أخرى يدفع إلى القول إن الزندقة لم تنتشر في جند دمشق، ولم يكن لها أي أثر اجتماعي أو فكري على مجتمعه.

والواقع أن المواد التي وردت في المصادر الجغرافية المعاصرة للمدة المدروسة، وكذلك المواد التي وردت في تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر - على أهميتها - لا تكفي لإعطاء صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية في المدن، لذلك كان لا بد من الرجوع إلى كتب الحسبة، وكتب الرحلات، ومع أنها مصادر متأخرة، غير أنها عرضت لجوانب مهمة من الحياة الاجتماعية، ولا مانع من عد هذه الجوانب قائمة منذ وقت المدة المدروسة.

هذا ومن المعروف أن وصف الحياة الاجتماعية في المدن يتطلب الإشارة إلى تخطيط المدن ومبانيها، والنشاط الاجتماعي في شوارعها وأسواقها، هذا مع العلم أن البحث في النشاط الحرفي والتجاري لن يكون في هذا الفصل، وإنما في الفصل القادم، كما أن وصف الحياة الاجتماعية يتطلب الحديث عن مرافق المدن، والحمامات ودورها، ووصف حياة السكان في المدن من حيث اهتماماتهم الصحية ولباسهم وطعامهم وأعيادهم وتقاليدهم... وغير ذلك.

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٣، ص ٣٤٥-٣٤٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٢، ص ٤٩٢-٤٩٣؛ الكتبي، فوات الوفيات، مج ٢، ص ١١٦-١١٧.

أولاً - لمحة إلى تخطيط المدن والواقع الاجتماعي في الأحياء والأسواق:

كان الاهتمام خلال هذه المدة بمدن جند دمشق ضعيفاً، فالعباسيون أقاموا مركز دولتهم في العراق، وإليه توجه اهتمامهم، وجعل كل من الطولونيين والإخشيديين مركز دولتهم في مصر، فكانت مركز اهتمامهم، ولكن ذلك لم يمنع من بعض الاهتمام بالمدن الساحلية سواء من قبل العباسيين أو الطولونيين أو الإخشيديين، وذلك بتحسين هذه المدن وتعميرها وشحنها بالمقاتلين في وجه الغزوات البيزنطية المتكررة^(١).

كانت المدن تتألف من المسجد الجامع الذي يقع في الوسط، وتتوزع على جوانبه الشوارع والأسواق والأحياء السكنية، ويكون أفضلها ما قرب منه^(٢)، وكانت هذه المدن محاطة بأسوار لرد الهجمات التي قد تتعرض لها^(٣)، وطراً في هذه المدة بعض التغير على معالم المدن، وذلك بسبب اضطراب الأوضاع وكثرة القلاقل، وبسبب ازدياد سكان المدن وما رافقه من توسع في البناء، فأثر ذلك في مخطط المدن، إذ تفرعت عن الشوارع الرئيسة أزقة فرعية

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٨٦-١٨٧؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ١، ص ٤٩؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٢.

(٢) ناصر خسرو، ناصر خسرو القبادياني المروزي (ت، ٤٨١هـ / ١٠٨٨م)، سفرنامه، ترجمة وتقديم: أحمد خالد البديلي، الرياض، جامعة الملك سعود، ط ١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص ٤٣؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٧٩؛ هينسي، عفيف، المدينة العربية الإسلامية ونموذجها دمشق القديمة، الحوليات الأثرية السورية، مج ٢٦، ج ١-٢، ١٩٧٦م، ص ١٧.

(٣) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٣-٤٥؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٢؛ سوفاجيه، دمشق الشام، ص ٦٦.

متعرجة، انتشرت على جوانبها الأحياء السكنية، وهذا ما جعل شوارع المدينة ضيقة ومظلمة^(١).

شكلت الشوارع شرابين اتصال وحركة بين تكوينات المدن المعمارية، وكانت محور النشاط الاجتماعي والحرفي والتجاري، فقد انتشرت على أطراف الشوارع الرئيسية الحوانيت، وروعي في توزيعها ألا يتأذى أهل حرفة أو تجارة بما جاورهم من حرف أو تجارات أحر، لذلك كانت الحرف التي تحتاج إلى نيران أو يصدر عنها ضجيج ودخان كحرف الخبازين والطباخين والحدادين، تبعد عن الحرف التي تتأذى من ذلك كالعطارين والبزارين وغيرهما، فتجعل عادة في أطراف المدن^(٢)، ووضعت الحوانيت التي تبيع مواد ثقيلة الوزن وكبيرة الحجم وأسواق الحبوب وغيرها من أسواق الجملة في أطراف المدن، كذلك وضعت أسواق اللحم قرب أبواب المدن الخارجية لتسهيل نقل اللحم من المذابح التي تكون خارج المدن إلى حوانيت القصابين دون المرور في شوارع المدن إلى المركز^(٣)، أما حوانيت

(١) رجاوي، تاريخ دمشق العمراني، مج ١٤، ص ٣٧؛ مدينة دمشق تراثها ومعالمها التاريخية، ص ٦٤.

(٢) الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت، ٥٨٩هـ / ١١٩٣م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: السيد الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ١١-١٣؛ ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت، ٧٢٩هـ / ١٣٢٩م)، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق: روبن ليوي، القاهرة، مكتبة المتنبّي، (د. ت)، ص ٧٨ - ٧٩؛ ابن بسام، محمد بن أحمد بن بسام المحتسب، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام الدين السامرائي، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٦٨م، ص ١٧.

(٣) عثمان، محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، الكويت، عالم المعرفة، العدد / ١٢٨، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

المواد الغذائية الضرورية، فكانت تنتشر في معظم أنحاء المدينة حتى داخل الأحياء السكنية^(١).

واختلفت مساحات الحوانيت، وتحكم في ذلك ظروف إنشائها وأغراض العمل فيها سواء تجارياً أم حرفياً، ولكن اشترط في بعضها أن تكون بمواصفات بنائية معينة، فحوانيت القصابين اشترط فيها أن يكون لها في مقدمتها مصاطب، ولا يجوز إخراج اللحم عن حد هذه المصاطب حتى لا تلحق الضرر بثياب الناس أثناء قدومهم لشراء اللحم أو مرورهم في الشوارع^(٢)، واشترط في حوانيت الخبازين رفع السقائف وفتح الأبواب، وجعل منافس واسعة في سقوف الأفران لتصريف الدخان^(٣).

ولم تقتصر الأسواق على حوانيت الحرفيين والتجار، بل وجد فيها مواقف للحمالين الذين ينقلون البضائع، وتعرف هذه المواقف بالعراص، وتوجد عادة في أطراف الأسواق^(٤)، كما عرفت الأسواق منشآت تجارية لخدمة التجار والغرباء كالفنادق والخانات والقيساريات^(٥) وغيرها.

كانت الأسواق - في معظمها - مسقوفة بالخشب والمعدن لحماية السلع المباعة فيها من تأثير العوامل الجوية، ولوقاية مرتاديها والمارين فيها

(١) كاهن، كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية: بدر الدين القاسم،

بيروت، دار الحقيقة، ط ١، ١٩٧٢م، ص ٢٠٢.

(٢) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٢٨؛ ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٩٩؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ٣٥.

(٣) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٢٢؛ ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٩١.

(٤) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٣؛ ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٧٩.

(٥) حول هذه المنشآت التجارية، انظر: الفصل الثالث.

من حر الصيف، وقرّ الشتاء، وكانت عادة مبلطة، أو لها رصيفان على جانبيها لمشي الناس تجنباً للطين والوحل، وروعي في الأسواق النظافة، فكانت ترش بالماء صيفاً منعاً للغبار، وتنظف شتاءً من الطين والأوساخ، وكان يمنع من دخولها أحمال الحطب وأعدال التبن وروايا الماء وشرائح الزبل والحلفاء والشوك حتى لا تلحق أي أذى بثياب الناس وللمحافظة على نظافة الأسواق^(١).

وشهدت الأسواق نشاطاً اجتماعياً كبيراً، فهي تفتح في الصباح الباكر، ويستمر العمل فيها حتى غروب الشمس^(٢)، وكانت تسمع فيها أصوات المنادين والدالين والسماسرة والعاملين في الوزن وحمل البضائع وأصوات السقائين^(٣) وغيرهم، ومن الطبيعي أن يولد هذا النشاط تفاعلاً اجتماعياً كبيراً بين أصحاب الحوانيت والمحلات، وأن تقوم بينهم علاقات اجتماعية وأسرية، فكانوا في أوقات الاستراحة يجتمعون لتبادل الأخبار والتحدث في شؤون حياتهم، وممارسة بعض الأعمال المسلية كالنرد والشطرنج^(٤) وغيرها، وعرفت الأسواق أيضاً نشاط البائعين الجائلين الذين يدورون في الأسواق والطرقات والدروب، ويقرعون أبواب البيوت لتصريف البضائع التي يحملونها

(١) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١١-١٤؛ ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٧٨-٧٩؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ١٤٧.

(٢) زعرور، إبراهيم، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، دمشق، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص ١٤٣.

(٣) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٣-١٤، ٦٤؛ ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٧٩، ١٣٥؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ٢٥.

(٤) زعرور، الحياة الاجتماعية، ص ١٤٣.

على ظهورهم أو على دوابهم^(١)، كما شهدت أسواق المدن وشوارعها نشاط فئات اجتماعية أحر كالحلاقين والقصاصين والمغنين وأصحاب الألعاب المسلية وغيرهم من المُكَدِّين^(٢).

ومما هو جدير بالذكر أن حركة المرور في الأسواق والشوارع تأثرت بالأحوال السياسية والأوضاع في المدن، بيد أن الناس كانوا يخرجون أحياناً إلى شوارع المدن وأسواقها للنزهة والتسلية فقط^(٣)، كما كانت الشوارع الرئيسية تشهد مواكب متعددة تتضمن في الغالب ألعاباً مسلية واستعراضات مختلفة، لذلك كان الناس يخرجون إلى هذه الشوارع أو يتجمعون في المباني المطلة عليه للاستمتاع برؤية هذه المواكب^(٤).

ثانياً - القصور والنازل:

اشتهر سكان الشام منذ العصر الأموي بهندسة العمارة والفن المعماري والزخرفة، إذ أشادوا كثيراً من الأبنية الفخمة والكبيرة، كالقصور الأموية والجامع الأموي، وقد بلغ من فخامة هذا الجامع أن أبدى الخليفة العباسي المأمون إعجابه تجاه حسن بنائه، وأنه بني على غير مثال متقدم^(٥).

وفي العصر العباسي تأثرت العمارة في جند دمشق بالأوضاع السياسية المضطربة وحالة عدم الاستقرار، ويبدو أنها تأثرت أيضاً بما فعله بعض

(١) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٥٥.

(٢) عثمان، المدينة الإسلامية، ص ٢٠٢.

(٣) عثمان، م.ن، ص ٢٦٦.

(٤) عثمان، م.ن، ص ١٩٥.

(٥) الربيعي، فضائل الشام، ص ٤٣؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٢٤٧.

الخلفاء العباسيين من استدعاء البنائين وأهل المهن وسائر الحرف في الشام للمشاركة في بناء المدن التي أشادوها، وتمَّ هذا الأمر عند بناء المنصور بغداد، وبناء المعتمصم سامراء^(١).

وعلى الرغم من أن جند دمشق لم يحظ بالاهتمام الكبير من جانب العباسيين أو الطولونيين أو الإخشيديين، غير أن ذلك لم يمنع الخلفاء أو الحكام الذين زاروا جند دمشق، أو الأمراء الذين تولوا إدارته أو برزوا فيه من بناء قصور وأبنية فخمة فيه، فكان منها: بناء العباسيين دار إمارة تعرف بالقصر في دمشق^(٢)، وتعمير دير مُرَّان بسفح جبل قاسيون للخليفة المأمون سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م، وإسالة الماء إليه في قناة من نهر منين^(٣)، وبناء القصور للخليفة المتوكل عندما أراد اتخاذ دمشق عاصمة للخلافة العباسية، وهذه القصور بنيت بطريق داريا في موقع يشرف على المدينة وأكثر الغوطة^(٤)، ومنها أيضاً بناء الأمير النعمان الأرسلاني في سنة ٢٦٢هـ/٨٧٥م داراً كبيرة في بيروت، وتحصين سور المدينة وقلعتها^(٥)، وبناء خمارويه بن أحمد بن طولون قصرأ بسفح جبل قاسيون في دمشق، وفيه كان مقتله سنة ٢٨٢هـ/٨٦٥م^(٦).

(١) اليقوي، البلدان، ص ٢٩، ٣٤؛ ديانند، م. س، الفنون الإسلامية، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مصر، دار المعارف، ١٩٥٤م، ص ٩٤.

(٢) ابن شداد، قسم دمشق، ص ٣٧.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٩١؛ ريجاوي، قصور الحكام بدمشق، مج ٢٢، ج ١-٢، ص ٣٧.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١١٥؛ ريجاوي، قصور الحكام بدمشق، مج ٢٢، ج ١-٢، ص ٣٧.

(٥) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٦٥٣؛ كرد علي، خطط الشام، ج ٥، ص ٢٦٧.

(٦) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٢٤٦؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٧٥.

أما فيما يخص البيوت في المدن، فقد تألف بعضها من طابقين منذ أيام الفتح الإسلامي^(١)، وفيما بعد صار معظم البيوت يتألف من ثلاث طبقات، وبرز هذا الأمر خصوصاً في دمشق مما جعلها تحوي من الخلق أكثر مما تحويه ثلاث مدن^(٢).

أما مواد البناء التي استخدمها الناس لبناء البيوت، فكانت تتألف من الحجر والطين والقصب والخشب^(٣)، وتشير الدراسات إلى أن تخطيط البيوت الشامية كان يقوم بشكل عام على بهو مستطيل في الوسط تتوزع على جوانبه أروقة من الأعمدة، وتفرش أرض الدار بالحجارة أو الرخام، وكان في البهو نافورة ماء تحيط بها الأزهار، وقد تظللها شجرة نارنج أو برتقال، ويقوم على جانب الفناء الإيوان، وهو صالة فرشت بالرخام والبلاط الملون، كانت تستخدم قاعة استقبال وقت الحر، وتقوم قبالة الباب كوة غير نافذة مزخرفة بالأعمدة الرخامية، ويوجد فيها الإبريق والطست للوضوء، وكانت السقوف تزين بنقوش على الطراز العربي^(٤)، وكانت أبواب البيوت تصنع من الخشب المحلى بالنقوش، ويوضع عليها حلقة تدور بلولب لطرق الباب^(٥).

- (١) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٦٢؛ كرد علي، غوطة دمشق، ص ١٣١.
- (٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢١٩.
- (٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٣٧؛ الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٥-٤٦؛ ابن شداد، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ٤٢، ٩٢؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ٤٥-٤٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩٦-٩٧، ١١١، ١٤٨.
- (٤) حسن، تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٤٤٠؛ هنسي، المدينة العربية الإسلامية، مج ٢٦، ج ١-٢، ص ١٦-١٧؛ علي، سيد أمير، مختصر تاريخ العرب، ترجمة: عفيف البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٨١م، ص ٣٧٨.
- (٥) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ١٤٩.

هكذا فإن اعتماد الفناء الداخلي في المنزل كان عنصراً رئيساً، وذلك بما يتناسب مع إنشاء النوافذ وفتحها دون الإطلال على بيوت الجيران والشوارع، وتوفير نسبة جيدة من الإضاءة والتهوية، كما كان يستخدم في الأغراض المعيشية، كما عرف الناس استخدام السلم للصعود إلى الطوابق العليا أو إلى السطح، وكانوا يسترون هذا السلم بسترة معمارية تجنباً للكشف والتطلع على الجيران^(١)، كما كانوا يحفرون في الجدران ميازيب لتصريف مياه الأمطار من أسطح المنازل إلى المجاري المخصصة لذلك^(٢)، وكانوا يستغلون الأسطح في الأغراض المعيشية خصوصاً في فصل الصيف، حيث يتحول السطح ليلاً إلى مكان للنوم هرباً من ارتفاع درجة الحرارة^(٣).

وكانت قاعات الاستقبال تصمم تصميمياً خاصاً، وتوضع غالباً في الطابق الرئيس بعيداً عن غرف النوم والمعيشة التي وضعت في الطوابق العليا^(٤)، أما أثاث المنازل فيختلف حسب قدرة المالك وثروته، ولم يكن يملأ كل فراغ الحجرات بالأثاث حيث يترك فيها مجالاً لظهور الناس وحركاتهم، وفراغاً للسط والستور التي تعلق على الحيطان، وكان من أثاث المنازل التخوت لحفظ الثياب^(٥)، والفرش المحشية بالقطن والمخدات الموشاة بالذهب والموزعة حول الفرش، والسجاجيد وغيرها^(٦)، وبينما نام الأغنياء

(١) عثمان، المدينة الإسلامية، ص ٣٣٤-٣٣٨، ٣٤٠.

(٢) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٤.

(٣) عثمان، المدينة الإسلامية، ص ٣٣٧.

(٤) عثمان، م.ن، ص ٣٤٣.

(٥) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ١٤٩.

(٦) الخطيب، المجتمع العباسي، ص ٢٢٤.

على الأسرة كان الفقراء ينامون على الأرض^(١)، أما إنارة البيوت فكانت تتم بالشموع أو القناديل أو الأسرجة^(٢).

ثالثاً: تغذية المدن بالماء:

شكلت الأنهار والعيون والآبار أبرز مصادر المياه التي تزود المدن بالماء، وقد استخدم الناس وسائل متعددة في توصيل المياه من مصادرها إلى تكوينات المدن المختلفة سواء بالقنوات أو الأنابيب أو بحفر الجداول والبرك أو بنقل الماء على ظهور الدواب^(٣) أو غير ذلك، وكان ذلك مرتبطاً بنوعية مصدر الماء، وقربه أو بعده، ومنسوب ارتفاعه أو انخفاضه عن مستوى الأرض في المدينة، فشقت الأنهار الصغيرة والقنوات الموصلة للماء إذا كان منسوب المأخذ في مستوى موضع المدينة أو مرتفعاً عنه قليلاً بحيث يسهل شق مثل هذه القنوات لتوصيل الماء إلى أنحاء المدينة المختلفة، ففي مدينة دمشق كان أحد فروع نهر بردى، ولا يزال يحمل اسم يزيد نسبة إلى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي أمر بشقه لتوفير الماء لأراضٍ واسعة في غوطة دمشق^(٤).

واشتهرت دمشق منذ العصر الأموي بالبرك والنوافير، وكانت هذه البرك مفروشة بالرخام، والماء جار فيها باستمرار، وكثيراً ما كانت توجد

(١) آشتور، آ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الهادي عبلة، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨٥م، ص ٢٩.

(٢) الفسوي، المعرفة والتاريخ، ج ١، ص ٥٧٧ - ٥٧٩؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٣، ص ٢٧٣.

(٣) عثمان، المدينة الإسلامية، ص ١١٢.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٦٩.

قربها الأشجار، مما أعطها منظراً جميلاً وجذاباً، وقد عبر الخلفاء العباسيون الذين زاروا دمشق عن إعجابهم بهذه البرك، واستحسانهم لمنظرها حتى إنهم كانوا يجلسون للأكل على ضفافها وحوافها^(١)، كما اشتهرت دمشق بقنواتها التي توصل الماء إلى عامة الدور والسكك والحمامات فيها^(٢)، إذ كان فرعان من فروع نهر بردى، وهما: باناس (بانياس)، وقنوات مخصصين لري المدينة وديارها، فنهر بانياس قسّم إلى قسمين: قسم إلى القلعة، وقسم إلى الجامع، وينقسم كل قسم إلى أقسام متعددة في أنحاء المدينة، أما نهر قنوات فكان مخصصاً لتزويد المدينة بالماء عبر قنوات مدفونة في الأرض إلى الدور والأماكن المخصصة، وإضافة إلى قنوات تزويد الماء كان هناك قنوات ومجارٍ لتصريف فضلات الماء والبرك والميضآت^(٣) إلى ظاهر المدينة لري البساتين والغيطان^(٤).

وذكر المقدسي أن الجامع الأموي يتزود بالماء عبر قنوات، وعلى كل باب من أبوابه "ميضأة مرخمة بيوت ينبع فيها الماء، وفوارات خارجة في قساع عظيمة من رخام"^(٥).

(١) الأصفهاني، الأغاني، مج ٤، ص ٣٥٥ - ٣٥٦؛ مج ١١، ص ٣٣٥ - ٣٣٦؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٦٥٧.

(٢) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٣٥-٣٦؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٦١؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٧٦.

(٣) الميضأة {وضاً}: الموضع الذي يُتوضأ فيه؛ اللجمي، وآخرون، المحيط، مج ٣، ص ١٢١٨.

(٤) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩٨-٩٩؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٨٥.

(٥) أحسن التقاسيم، ص ١٣٩.

ولم يقتصر وجود القنوات لتوصيل الماء على مدينة دمشق، فمدينة بعلبك كانت تزود بالماء من نبع رأس العين الذي ينبع من سلسلة لبنان الشرقية، ومن عين اللجوج التي تنبثق في طرف بساتينها، وتتصف بصفاء مائها وطيبته، أما توصيل الماء فيتم عبر قنوات توصله إلى المدينة والقلعة، فكان الماء جارياً في عامة ديارها وأسواقها^(١).

وكانت مدينة طرابلس تزود بالماء من نهر مجاور لها بواسطة قنوات توصل الماء إلى مواقع مرتفعة وعالية لا يصلها الإنسان إلا بالدرج العلية^(٢)، وذكر ناصر خسرو عندما زارها في القرن الخامس الهجري أنه رأى في سوقها حوضاً له خمسة مجارٍ يخرج منه الماء الكثير شراباً للسَّابلة^(٣).

وكانت مدينة صيدا تزود بالماء بواسطة قناة من عينها المعروفة^(٤)، كذلك كانت بيروت تزود بالماء عبر قنوات، ويشرب أهلها من الآبار^(٥)،

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١٣-١١٤؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٩٢-١٩٣؛ ابن شداد، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ٤٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٤٨-١٤٩؛ ابن فضل الله العمري، مسلك الأبصار، ص ٢٠٣.

(٣) سفرنامه، ص ٤٣.

(٤) الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي (ت، ٥٦٠هـ/١١٦٤م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، مج ١، ص ٣٧٠؛ ابن شداد، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ٩٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١٥؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٩١.

(٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٧١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١٤؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٩١.

ويشرب أهل عرقة من نهر ملاصق لهم^(١)، أما شرب أهل جبيل، فكان من الآبار^(٢).

رابعاً - الحمامات ودورها الاجتماعي:

انتشرت الحمامات في المدن، وشجع على بنائها دعوة الإسلام إلى النظافة والتطهر، وعدم قدرة جميع الناس على بنائها في منازلهم، إذ اقتصر وجود الحمامات الخاصة على قصور الأمراء والحكام، ويبدو أن الحمامات كانت تقدم خدمات جيدة وبأسعار زهيدة ما دفع كثيراً من الناس للاستغناء عن بناء الحمامات في بيوتهم، والاعتماد على حمامات السوق، ويضاف إلى ذلك رغبة القادرين على إنشاء الحمامات في استثمار أموالهم بإنشائها لما تدره من أرباح كبيرة.

افتخر أهل دمشق بحماماتهم منذ العصر الأموي، فقد قال الخليفة الوليد بن عبد الملك لما بنى الجامع الأموي: "رأيتكم يا أهل دمشق تفخرون على الناس بأربع خصال: تفخرون بهائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم، فأحببت أن يكون مسجدكم الخامس"^(٣)، هذا وقد وصف المقدسي في القرن الرابع الهجري حمامات دمشق بأنها من أحسن الحمامات^(٤)، ومن حماماتها في

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٧٣؛ ابن شداد، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ٩٢.

(٢) ابن شداد، م.ن، ص ٩٦؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٧٢.

(٣) المنجد، صلاح الدين، خطط دمشق، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٤٩م، ص ٢.

(٤) أحسن التقاسيم، ص ١٣٧.

هذه المدة: حمام ضحاك، وحمام العصمي، وحمام قاسم^(١)، وفيما بعد ازدادت الحمامات في دمشق حتى وصل عددها في القرن السادس الهجري إلى سبعة وخمسين حماماً سوى حمامات القرى^(٢)، وقيل مئة حمام^(٣).

ونسب كل حمام إلى منشئه أو إلى الحي الذي أقيم فيه، وبني بعض الحمامات على الآبار في حين أقيم بعضها الآخر على المجاري المائية، وضاعفت شهرة دمشق بصناعة الصابون الممتاز والعطور الطيبة من جودة الخدمة في حماماتها، كما أحدثت كثرة الحمامات نوعاً من التنافس بين أصحابها، فحرص كل حمامي على إبراز محاسن حمامه^(٤).

ويقسم الحمام إلى أربعة أقسام هي: البراني، والوسطاني، والجواني، والقميم، فالبراني مخصص لاستقبال الزبائن، وبه يخلعون ويرتدون ملابسهم قبل الاستحمام وبعده، أما الوسطاني فهو حجرة باردة رطبة، فيها مصطبة يستريح الزبائن عليها خلال الاستحمام وبعد الانتهاء منه استعداداً للخروج إلى القسم البراني، أما القسم الجواني فهو الحجرة الدافئة الساخنة،

(١) ابن القلانسي، حمزة (ت، ٥٥٥هـ / ١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨م، ص ٦-٧. حمام ضحاك: كان قرب رحبة السّماكين وشمال محلة قبر عاتكة اليوم؛ حمام العصمي: كان بجوار درب السّماقي قرب مسجد معاوية، مجهول الموقع، دُرس؛ حمام قاسم: كان عند باب الفراديس من داخله؛ الشهابي، معجم دمشق التاريخي، ج ١، ص ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٦.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٨٦-٣٨٩.

(٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٢٤.

(٤) عاشور، سعيد عبد الفتاح وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، الكويت، دار السلاسل، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

وفيها يتم الاستحمام، ويشكل القسم الرابع (القميم) الجناح الخارجي من الحمام، ويشتمل على الموقد وسكن القممي (وهو القيم على دفع مواد الوقود إلى بيت النار)^(١)، ذكر ابن عساكر أن هشام بن خالد بن يزيد مولى بني أمية (ت، ٢٩٤هـ / ٨٦٣م) كان يحرك الزبل في حمام ابن قنان بأربعة دوايق كل يوم، ثم يمر ويشتري بها ورقاً، ويكتب الحديث^(٢).

بنيت الحمامات في الغالب من مواد تتحمل الماء والحرارة كالأجر والحجر والرخام، وزينت بصورة طائر العنقاء^(٣)، وزودت بالماء بواسطة شبكة خاصة من المجاري الفخارية، أما تسخين الماء، فكان يتم ضمن قدور نحاسية كبيرة، ثم يمر الماء والبخار عبر أنابيب فخارية إلى وحدات الحمام المختلفة^(٤).

ويعمل في الحمام عمال عدة، اختص كل منهم بعمل محدد، فهناك من اختص بتقديم المآزر التي استخدمت وقت الاستحمام، وهناك من كانت مهمته تنظيف الحمام وتكليسها وتعطيره، وعرف الحمام المزين ومهمته إزالة الشعر للمستحمين، والبلان ومهمته تدليك جسم المستحمين، وهو عادة يدلك يديه بقشور الرمان حتى تحشن وتزيل الأوساخ، ونظراً للدور الاجتماعي الكبير للحمامات وحفاظاً على نظافتها، كان المحتسب^(٥) يراقب نظافتها يومياً، ويمنع الناس دخولها بدون مآزر، ويمنع الأشخاص ذوي الأمراض المعدية كالمجدومين والمصابين بالبرص من دخولها، ويأمر المدلك

(١) كيال، منير، الحمامات الدمشقية، دمشق، مطابع ابن خلدون، ١٩٨٦م، ص ٢١٧-٢١٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٤، ص ٨-٩.

(٣) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ١٥١.

(٤) كيال، الحمامات الدمشقية، ص ٢٨٤؛ عثمان، المدينة الإسلامية، ص ٢٤٧.

(٥) عن المحتسب ومهامه ودوره، انظر: الفصل الثالث - الرقابة على الأسواق.

ألا ينظر إلى عورة من يغسل، ويأمر الناطور بحفظ ثياب الناس، ويلزم أصحاب الحمامات بفتحها وقت السحر لحاجة الناس للتطهر قبل وقت الصلاة^(١).

كان العمل في الحمام مستمراً في الليل والنهار، ومقسماً بين الرجال والنساء، فلرجال من طلوع الفجر حتى قبيل صلاة الظهر، وللنساء من العصر حتى العشاء، وقد اعتاد الناس في الحمام التحدث في شؤون حياتهم ومشاكلهم الخاصة والعامة، يضاف إلى ذلك أن الحمام شغل أدواراً اجتماعية أخرى، فدخول المريض إليه كان بمنزلة إعلان عن شفائه، وكان العريس يدخله قبل ذهابه إلى حفل الزفاف^(٢).

شغلت الحمامات دوراً اجتماعياً نسائياً أكبر، وفيها تتم لقاءات بين نساء المدينة الواحدة، فيتبادلن الأخبار والأحاديث، وتتباهى كل منهن بما أوتيت من جمال وما توافر لها من حلي، فدخول المرأة الحمام كان بمعنى التجميل والتزين^(٣)، واعتادت نساء كل أسرة من الأسر أو زقاق أو حي من الأحياء الذهاب إلى الحمام في موعد متفق، وكنّ يأخذن معهن الطعام وآلات الطرب والغناء، فكانت تتحول ساحة الحمام - في أحيان كثيرة - إلى حلبة للرقص وعرض الجمال، لذلك اعتاد الرجال الذين رغبوا في الزواج إرسال نساء تخصصن في أعمال الوصف والتعرف إلى الحمامات لاختيار

(١) الشيرزي، نهاية الرتبة، ص ٨٦ - ٨٨؛ ابن الأخوة، معالم القرية، ص ١٥٤ - ١٥٧؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ٦٧ - ٧٢.

(٢) زعرور، الحياة الاجتماعية، ص ١٥١؛ عثمان، المدينة الإسلامية، ص ٣٥٤.

(٣) الشيباني، محمد بن الحسن (ت، ١٨٩هـ / ٨٠٤م)، شرح كتاب السير الكبير، تحقيق: أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل الشافعي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ج ١، ص ٩٧.

عرائس لهم، وكثيراً ما كانت الأم تذهب إلى الحمام لتختار عروساً لابنها من الفتيات اللواتي يأتين مع أمهاتهن بغية الاستحمام، يضاف إلى ذلك أن العروس كانت تتجهز قبل ليلة زفافها بالذهاب إلى الحمام، ويعرف حمامها هذا باسم حمام العرس، ويترافق عادة مع الفرح والطرب والزغاريد والرقص والدبكة، كذلك كانت المرأة تحتفل بعد ولادتها بأربعين يوماً بالذهاب إلى الحمام^(١).

هكذا فقد شكل الحمام البقعة التي شهدت أعظم النشاطات الاجتماعية، وشغل دوراً مهماً في حياة الناس، لذلك لم يقتصر عمل المحتسب على تفقد نظافته، بل كان يمنع العاملين بالدباغة والجلود من العمل فيه أو على مقربة منه حتى لا يتضرر الناس برائحة الدباغة^(٢).

خامساً - الاهتمام بالنواحي الصحية:

اهتم أهل الشام بالطب، في زمن مبكر من العصور الإسلامية، فقد أنشأ الخليفة الوليد بن عبد الملك أول البيمارستانات^(٣) للمرضى ومعالجة الأمراض، وخصص لها الأطباء، وحدد لهم الأرزاق^(٤)، واستمر وجود هذه البيمارستانات في

(١) كيال، الحمامات الدمشقية، ص ٣٠٩ - ٣١٩؛ عثمان، المدينة الإسلامية، ص ٣٥٤؛ زعرور، الحياة الاجتماعية، ص ١٥١.

(٢) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٨٨؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ٧٠.

(٣) البيمارستان: كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض، و (ستان) بمعنى مكان أو دار فهي إذاً دار المرضى؛ عيسى بك، أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، بيروت، دار الرائد العربي، ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ٤.

(٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٢٩٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٤٩١؛ عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص ١٠، ٢٠٣؛ فروخ، عمر، العرب في حضارتهم وثقافتهم إلى آخر العصر الأموي، بيروت، دار العلم للملايين، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، ص ١٩٩.

العصور اللاحقة، فكان ممن أقام في البيمارستان في دمشق المحدث عميد الله بن جعفر بن أحمد بن عاصم (من أبناء القرن ٤هـ / ١٠م)^(١)، وكان من المرضى الذين تعالجوا فيه أبو الفضل الموسوس (القرن ٤هـ / ١٠م)، وهو من أصحاب النعم والفضل بدمشق، كان قد خولط في عقله عند موت أليفة له، فنقل إلى البيمارستان، إذ قيد فيه، وأقام على خدمته خدم، وكان المعالجين له يداوونه بأرفه الأدوية، وذلك "بمواصلة دهن البنفسج على رأسه، وإصلاح أغذيته، والاستكثار من الروائح الطيبة"^(٢).

وكانت البيمارستانات تقدم العلاج بطريقتين: خارجية وفيها يأخذ المريض الدواء من البيمارستان، وينصرف ليتناوله في منزله، وداخلية، وأثناءها يقيم المريض في البيمارستان حتى يبرأ من مرضه، وإضافة إلى دور البيمارستان الصحي كان له دور علمي يتمثل في تدريس الطب، وتدريب الراغبين بالاشتغال في هذه المهنة^(٣)، وعموماً شهدت منازل الأطباء وأماكن وجودهم نشاطاً اجتماعياً كبيراً، وتوافد إليها المرضى، والراغبون بتعلم مهنة الطب، وقد تمتع الأطباء بامتزجة اجتماعية رفيعة عند الأمراء والقادة والولاة وعامة الناس، وعلى سبيل المثال كان سيف الدولة الحمداني يقرب الأطباء ويغدق الأرزاق عليهم، ولا يتناول الطعام إلا إذا حَضَرَ أربعة وعشرون طبيباً على مائدته^(٤).

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٧، ص ٤٠٨.

(٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٦٧، ص ١٣٢ - ١٣٤.

(٣) عيسى بك، تاريخ البيمارستانات، ص ٣١ - ٤٢.

(٤) ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (ت، ٦٦٨هـ /

١٢٦٩م) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، بيروت، دار مكتبة

الحياة، (د.ت)، ص ٦١٠.

وقد عانى المجتمع وجود أوبئة كثيرة وانتشار أمراض عديدة، منها: الجرب، والقولنج، والاستسقاء، وفقر الدم، والحمى، وانتفاخ البطن، والحصبة، والرشح، وأمراض العيون وغيرها^(١)، وعالج الأطباء هذه الأمراض بعقاقير وأدوية مختلفة حصلوا عليها من نباتات طبية كانت تُجلب من مناطق مختلفة، منها: الأفيون المصري، الراوند الصيني، العود الهندي، السنبل وهو شجر طيب الرائحة يجلب من الهند، الأفريون ويجلب من إفريقيا والهند، المقل وهو صمغ شجر ينبت في اليمن وعمان، الإهليلج ويجلب من الهند وأفغانستان، وقشر البان والرياحين... كما استخدموا الأدهان الطبية كالبلسان والمسك والعنبر وجوزة الطيب والكافور... وغيرها^(٢)، واستخدموا نبات الهليون، - وهو "قضببان بريه ينبت بنفسه في المواضع الندية التي تجمع فيها مياه الأمطار" - من أجل إدرار البول، وتلين البطن، وطرده البلغم، ومعالجة السدد في الكبد والكلى، ووجع الظهر والخرس، والقولنج، وعرق النساء، ووجع الأمعاء وغيرها^(٣).

راقب المحتسب أعمال الأطباء ومعالجتهم الأمراض، وكان يخلصهم ألا يعطوا أحداً دواءً مضرًا، وألا يركبوا سماً، وإلى جانب الأطباء كان هناك كحالون مهمتهم معالجة أمراض العيون، وبعض الكحالين كانوا يتجولون في الطرقات، وهؤلاء لا يوثق بهم، إذ إن معظمهم لا دين لهم، وليس لهم علم وخبرة بالأمراض وعللها، وأكحالهم مغشوشة ولا يوثق بها، لذلك

(١) الخطيب، المجتمع العباسي، ص ٢١٥-٢١٦.

(٢) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٤٢-٥١.

(٣) البدرى، أبو البقاء عبد الله البدرى (ت، ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م)، نزهة الأنام في محاسن

الشام، بيروت، دار الرائد العربي، ط ١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ص ١٦٥-١٦٦.

كان المحتسب يتشدد في ملاحظتهم ومحاسبتهم ومنعهم من الاعتداء على أعين الناس^(١).

وكان من عادة الناس الإقبال على الفصد والحجامة خصوصاً في الصيف، وعالجوا بهما أمراضاً كثيرة، فالفصد وسيلة للتخلص من ضغط الدم بإخراج كميات منه عن طريق فتح ثغرة في أحد الأوردة أو العروق، ولجأ الناس إليه لمعالجة أمراض متعددة منها: أمراض ثقل الحاجبين، الصداع الدائم، الشقيقة، قروح الرأس، الرمذ، الدمعة، جرب الأجنان، قروح الفم، القلاع، أوجاع اللثة وأورامها، أورام اللوزتين، أورام الحنجرة، ضيق التنفس، انتفاخ البطن، عرق النسا، النقرس، الدوالي، أورام الساقين، والبواسير... إلخ.

أما الحجامة فهي امتصاص الدم الفاسد، ولها منافع كثيرة: فهي تنفع في ثقل الحاجبين وجرب العينين، والبخر في الفم، ووجع المنكب، والحلق، وتنفع في الوجه والأسنان والأضراس والأذنين، والأنف، ورعشة الرأس... وغيرها^(٢).

توزعت حوانيت الفصادين والحجامين في شوارع المدن، وارتادها كثير من الناس، وعرفت تجمهر الناس على أبوابها ولا سيّما إذا أخطأ الحجام أو الفصّاد في فصد من يعالجه، فيضطر إلى الاستعانة برأي طبيب متخصص حتى يقطع دم المريض^(٣)، كما حدث عندما ضرب أحد الفصادين في دمشق

(١) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٩٧-١٠١؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ١١٩.

(٢) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٨٩-٩٦؛ ابن الأخوة، معالم القرية، ص ١٥٩-١٦٣؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ١١٠-١١٨.

(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٧٦، ٦١٠-٦١٢.

أحد شرايين المريض، فاستعان بالطبيب عيسى بن حكم الدمشقي (ت، ٢٢هـ/ ٨٣٩م) - الذي كان طبيباً مشهوراً - فأنقذ المريض^(١).

واعتاد الناس أيضاً منذ القديم الاستفادة من ينابيع المياه الحارة في النواحي الصحية، ومعالجة الأمراض الجلدية، فقد قال المقدسي عن نبع الحُمَّة الحار: "وفي هذه الكورة ماء مسخن يسمّى الحُمَّة حارٌّ من اغتسل فيه ثلاثة أيام ثم اغتسل في ماءٍ آخر بارد وبه جرب أو قروح أو ناسور أو أيُّ علة تكون براً بإذن الله"، وقال عن البحر الميت: "وبحيرة صُغَر أعجوبة يقلب فيها نهر الأردن ونهر الشّراة فلا يجيل فيها، ويقال إنها لا تغرق سريعاً ومن احتقن بمائها أشفى من عللٍ كثيرة، ولها موسم في شهر آب يذهب إليها الأحداث وأصحاب العلل"^(٢).

سادساً - اللباس والاهتمام بالمظهر الخارجي:

اهتم المجتمع بالمظهر الخارجي واللباس، وفي هذه المدة تأثر اللباس بالأزياء الفارسية، وبما اتخذه بعض الخلفاء العباسيين من قرارات في هذا الميدان، ففي سنة ١٥٣هـ/ ٧٧٠م أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بلبس القلانيس المفرطة في الطول^(٣)، واستمر لبسها حتى كانت خلافة المستعين

(١) ابن أبي أصيبعة، م.ن، ص ١٧٧ - ١٧٨.

(٢) أحسن التقاسيم، ص ١٥٩.

(٣) الأصفهاني، الأغاني، مج ١٠، ص ٢٤٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٥، ص ٦١٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٢٧؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر الخضير (ت، ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق: رحاب خضر عكاوي، بيروت مؤسسة عز الدين، ط ١، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(٢٤٨-٢٥٢هـ / ٨٦٠-٨٦٦م) فصغر القلانيس، وأحدث لبس الأكمام الواسعة، وجعل عرضها ثلاثة أشبار أو نحو ذلك، فصارت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب حيث حفظ الإنسان فيها كل ما يريد حفظه كالدنابير والكتب^(١).

كانت الأزياء تختلف في أشكالها وأنواعها وطرق صنعها تبعاً لثروة الناس ومركزهم الاجتماعي، وتبعاً للوظائف والأديان، فكان للقضاة زي، وللشرطة زي، وللكتاب زي، وللكتاب الجند زي^(٢).

كان لباس الرجل يتألف من سروال فضفاض وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقلنسوة وقباء وعباءة أو جبة^(٣)، وكانت الجوارب معروفة، ولكن استخدامها اقتصر على الأغنياء، واختلفت ملابس الرجل في السفر عن تلك التي يرتديها في المنزل، وكان لباس النوم يسمى قماش النوم، أما لباس العامة فكان يتألف من إزار (بنطال) وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى (قمر بند)^(٤)، وكان الرجال ينتعلون النعال والخفاف^(٥).

- (١) المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص١٨٠؛ متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص١٥٢.
- (٢) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت، ٢٥٥هـ / ٨٦٩م)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ط١، ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م، ج٣، ص١١٤.
- (٣) علي، مختصر تاريخ العرب، ص٣٧٩-٣٨٠؛ سالم، السيد عبد العزيز، العصر العباسي الأول، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٣٩٨هـ، ص٣٢٩؛ زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، مصر، مطبعة الهلال، ١٩٢٢م، ج٥، ص٨٠.
- (٤) علي، مختصر تاريخ العرب، ص٣٧٩-٣٨٠.
- (٥) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٣، ص١١٤.

وأفضل أنواع اللباس، اللباس ذو اللون الأبيض^(١)، ولكن الأسود هو الذي كان سائداً تيمناً بالسواد شعار الخلافة العباسية^(٢)، وهو اللباس الرسمي للولاية وموظفي الجهاز الإداري^(٣)، وعرف عن سكان جند دمشق رفض لبس السواد واستنكاره، فقد نقل ابن عساكر أن أهل دمشق استهجنوا لبس عبد الله بن علي السواد، وأن النساء والصبيان كانوا ينظرون إليه ويقولون بتعجب "أمير عليه ثياب سوداء"، وأن الناس في الصلاة كانوا يستفظعون لبسه ويستكرونه^(٤)، وكان لبعض العلماء والفقهاء موقف رافض للباس السواد مثل ذلك الإمام الأوزاعي الذي رفض لبسه، وطلب من الخليفة المنصور إعفاءه من لبسه، ولما سئل عن سبب تحريمه أجاب: "لم يحرم فيه محرم قط، ولا يكفن فيه ميت قط، ولم تُزين فيه عروس قط، فما أصنع بلبسه"^(٥).

كان العلماء يلبسون اللباس ذا اللون الأبيض، ويعتَمون عمام شامية طويلة ذات لون أسود^(٦)، فقد كان الإمام الأوزاعي "يعتم فلا يرخي لها شيئاً"، ويشجع على لبس العمام بقوله: "العمام تيجان العرب"، و"اعتموا تزدادوا حلماً"^(٧)، أما الشعراء فكانوا يلبسون الوشي والمقطعات والأردية

- (١) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ١٥٣.
- (٢) الخطيب، المجتمع العباسي، ص ٢١٠؛ سالم، العصر العباسي الأول، ص ٣٢٥.
- (٣) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٢٠.
- (٤) تاريخ مدينة دمشق، ج ٣١، ص ٥٦.
- (٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ٢١٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٩٧؛ الملاح، الإمام الأوزاعي، ص ٥٦.
- (٦) المزني، تهذيب الكمال، مج ١٦، ص ٣٧٥.
- (٧) الذهبي، كتاب تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ١٣٧.

السود وكل ثوب مشهّر^(١)، لكن الشاعر المتنبي كان يلبس عِمَامَةً ويتزيّياً زياً عجيباً يتألف من طرطور وبقاء، ويعمل له عَدْبَةٌ طويلة تشبهاً بالأعراب^(٢). وكان من جملة ملابس أدباء الشام الخفتان^(٣) الذي شاع لبسه في القرن ٤هـ / ١٠م، وحلّ محلّ الملابس العربية، وكان من عادة الظرفاء اجتناب لبس الثياب ذات الألوان لأنهم كانوا يعدونها من شأن النساء والإماء^(٤).

كان اهتمام المرأة باللباس أكثر من الرجل، وتألف لباسها من ملاءة فضفاضة وقميص مفتوح عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق، يلبس عادة في البرد، وكانت المرأة عندما تخرج من بيتها ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسمها، وتقي ملابسها من التراب، وتغطي رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة^(٥). ومن ألبسة النساء أيضاً المناديل والألبسة الموشاة بالذهب، والأثواب السود المصنوعة من الحرير^(٦)، والسراويل والأقمصة والأردية والملاحف والجوارب الحريرية أو الصوفية^(٧)، والجباب الخنز^(٨).

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ص ١١٥.

(٢) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٢، ص ٦٦١، ٦٦٦.

(٣) الخفتان أو القفطان: رداء مصنوع من الحرير، ومفتوح من الجهة الأمامية، له كمان قصيران، يصلان إلى المرفقين، وقد يتدل حتى يبلغ منتصف الساقين، وهو على ألوان شتى؛ دوزي، رينهارت، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، مجلة اللسان العربي، مج ٨، ج ٣، الرباط، المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي، (د.ت)، ص ٣٧.

(٤) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ١٥٣ - ١٥٥.

(٥) حسن، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٣٥٠.

(٦) الخطيب، المجتمع العباسي، ص ٢٠٩.

(٧) سالم، العصر العباسي الأول، ص ٣٣١.

(٨) ابن عساكر، تراجم النساء، تحقيق: سكينه الشهابي، دمشق، ط ١، ١٩٨٢م، ص ٣٥.

أما لباس أهل الذمة، فكان مختلفاً بعض الشيء، ويبدو أنه تأثر بما اتخذته بعض الخلفاء من قرارات بهذا الشأن، إذ فرضوا عليهم أن يتميزوا من المسلمين في لباسهم وعمائمهم وثيابهم وركوبهم، وحصل هذا في عهود الخلفاء الرشيد والمتوكل والمقتدر^(١). وذكر متز أن اليهود في القرن الثاني الهجري كانوا يلبسون براطيل طويلة، بينما كان النصارى يلبسون البرانس، ولما صارت القلانس الطوال لباساً قديماً عند المسلمين لبسها النصارى وصارت خاصة بهم^(٢).

ويرتبط بالحديث عن الملابس والمظهر الخارجي الإقبال على حوانيت العطارين، فالنساء كنَّ يترددنَّ إليها لشراء العطور والروائح الطيبة كالمسك والعنبر والكافور المستورد من الهند والصين، والزعفران والغالية وماء الورد الدمشقي، والعود الهندي والصندل والبان، وغشوش هذه العطور كانت كثيرة خصوصاً من قبل التجار الغرباء الأعاجم الذين يدورون في الدروب، لذلك كان المحتسب يتشدد في ملاحظتهم ومحاسبتهم^(٣).

(١) البعقوي، تاريخ البعقوي، مج ٢، ص ٤٨٧؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٣٢٤؛ ج ٩، ص ١٧١؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ١١، ص ٢٢٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٧١؛ ابن = العبري، تاريخ الزمان، ص ٣٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٦٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٨٤؛ فيه، موريس، أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ترجمة: حسني زينة، بيروت، دار المشرق، ١٩٩٠م، ص ٨٧، ١٤٥-١٤٦، ١٩٢؛ زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٤، ص ١٣١.

(٢) الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٧٣.

(٣) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٤٨-٥٥؛ ابن الأخوة، معالم القرية، ص ١٢١-١٢٧؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ٩٦-١٠٤.

ومن مظاهر الاهتمام بالمظهر الخارجي أيضاً الذهاب إلى أسواق الصاغة والحلي والمجوهرات، إذ كانت ترتادها النساء لشراء ما تتزين به من الأساور والحلي والخلاخل والمجوهرات^(١).

سابعاً- المطبخ الشامي (الطعام، أنواعه، طرائق تحضيره، آداب تناوله...):

كان المطبخ الشامي غنياً بأنواع الأطعمة وطرائق تحضيرها، وفي هذا المجال يمكن إيراد وصف ناصر خسرو للطعام في طرابلس، إذ قال: "رأيت فيها من أجناس الطعام والمشمومات والمرطبات ما لم أر مثله في أرض العجم، بل هي تفوق ما بأرض العجم مئة مرة"^(٢).

كان اللحم مادة رئيسة في تحضير وجبات الطعام، أما أنواع اللحوم التي أكلها الناس فهي لحوم الأغنام والماعز والإبل والبقر، وكان من واجب اللحام أن يميز بين لحوم المعز ولحوم الغنم، وأن يفردهما بعضهما عن بعض، لذلك كانت لحوم المعز تنقط بالزعفران، وتترك أذنان المعز معلقة على لحومها إلى آخر البيع لتمييزها من غيرها^(٣).

وأكل الناس لحوم الطيور والعصافير كالنعامة، والديك، والدجاج، والبط، والأوز، والحمام، والعصفور، ويميز عند بيعها بين المذبوحة منها والميتة^(٤)، كما أكل الناس السمك، وكان يباع نياً ومطبوخاً^(٥).

(١) ابن بسام، م.ن، ص ١٠٦-١٠٧؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٧٧-٧٨؛ ابن الأخوة، معالم القربة، ص ١٤٤.

(٢) سفرنامه، ص ٤٣.

(٣) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٢٨؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ٣٥-٣٦.

(٤) ابن بسام، م.ن، ص ٥٨؛ ابن الأخوة، معالم القربة، ص ١٠٤؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٢٩.

(٥) الشيزري، م.ن، ص ٣٣؛ ابن الأخوة، معالم القربة، ص ١١٠-١١١.

تناول الناس الطعام على ثلاث وجبات في النهار، فتناولوا في طعام الإفطار الحليب الممزوج بالعسل، أو الحليب والسكر أو الجبن الأبيض المعروف بالقريشا^(١)، أما طعام الغداء فكان عند الظهر، ويعد الوجبة الرئيسة، ويتألف عادة من أطعمة دسمة مطبوخة، منها: المضيرة والكشكية^(٢)، فالمضيرة مرقة تطبخ باللبن الحامض تشبه الشاكرية اليوم، أما الكشكية: فهي طعام يصنع من جريش القمح مع اللبن، ويترك في الشمس ليجف، ويعمل منه حساء، وقد يطبخ بالزيت واللحم^(٣)، ومن أنواع الأطعمة التي عرفت: أكلة هليون التي اشتهرت دمشق بزراعتها، فكان يؤكل مطبوخاً باللحم، أو مسلوقاً بالزيت والتوابل، وكانت له منافع طبية كثيرة^(٤)، لذلك لم تكن تخلو وليمة فاخرة من أكلة هليون، وكثيراً ما كان يحمل إلى الخلفاء العباسيين من دمشق، فقد حمل للخليفة المعتصم^(٥)، وتحدث عن طيبة تلك الأكلة وجودتها في مجلس الخليفة العباسي المستكفي (٣٣٣ - ٣٣٤هـ/ ٩٤٤ - ٩٤٥م) أحد الحضور - وكان قد أكلها في دمشق - بإلقائه قصيدة في وصفها للشاعر محمود بن الحسين بن السندي كشاجم، وعندما فرغ من إلقاء القصيدة، أمر الخليفة أن يكتب إلى محمد بن طُغج بحمل أكلة هليون من دمشق^(٦)

(١) محاسنة، محمد حسين، تاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفاطمي، دمشق، الأوائل، ط ١، ٢٠٠١م، ص ٢٤٥.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ١، ص ٣٦٠؛ الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي (ت، ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: عمر فاروق الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، مج ٣، ص ٤٣٦.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٦، ص ٢٩١.

(٤) البدري، نزهة الأنام، ص ١٦٥.

(٥) الصايغ، رسوم دار الخلافة، ص ١٧ - ١٨.

(٦) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

وأكل الناس أنواعاً متعددة من الأطحمة، منها: الوشيقة: تصنع من اللحم، الريكة: تطبخ من بر وتمر، البسيصة: وهي الدقيق أو السويق يُلْتُّ بالسمن أو الزبد، البغيث والعليث: الطعام المخلوط بالشعير، البكيلة: تصنع من الدقيق يخلط بالسويق ثم يبل بالماء أو السمن أو الزيت، الفريقة: تصنع من اللبن، الحريرة: تصنع من الدسم والدقيق، الرغيدة: تصنع من اللبن والدقيق^(١)، الفرمية: تصنع من الخبز المحلّى والمجبول بالحليب، الهريسة: تطبخ من اللحم والقمح المقشور^(٢)، النقائق: وهي المصارين المحشوة باللحم والتوابل والبصل^(٣)، الثريد: طعام يطبخ من الخبز يفت، ويبل بالمرق، ويوضع فوقه اللحم^(٤).

وأكل الناس أيضاً: العدس المطبوخ، والبيسار: وهو طعام يصنع من الفول المجروش والفول المسلوق والمقلي بالزيت، والزلابية^(٥)، والبيض واللبن والخل، وعرفوا تناول الفواكه بعد الطعام كالتفاح والسفرجل والرمان والجوز واللوز^(٦)، واهتموا بأكل الحلوى وعرفوا أنواعاً متعددة، منها: الأرزة التي قال فيها محمد بن الوزير المعروف بالحافظ الدمشقي^(٧):

- (١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٦، ص ٢٩٠-٢٩٢.
- (٢) الخطيب، المجتمع العباسي، ص ٢١٣-٢١٤.
- (٣) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٣٨-٣٩.
- (٤) حسن، تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٤٤٢.
- (٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٧.
- (٦) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ١، ص ٣٦٠؛ الحموي، معجم الأدباء، ج ٣، ص ٤٣٦.
- (٧) محمد بن الوزير بن الحكم السلمي الدمشقي: محدث من أهل دمشق وصف بالصدق والثقة، توفي سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤م؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٩، ص ٤٣١-٤٣٢.

لله دَرُّ أَرْزَةٍ وَافِي بِهَا طَاهٍ كَحُسْنِ الْبَدْرِ وَسَطَ سَمَاءٍ
 أَنْقَى مِنَ الثَّلْجِ الْمُضَاعَفِ نَسِجُهُ مِنْ صَنْعَةِ الْأَهْوَاءِ وَالْأَنْدَاءِ
 وَكَأَنَّهَا فِي صَخْفَةٍ مَقْدُودَةٍ بِيضَاءُ مِثْلُ الدَّرَّةِ الْبَيْضَاءِ
 بَهَّرَتْ عُيُونَ النَّاطِرِينَ بِضَوْئِهَا وَتُرَيْكَ ضَوْءَ الْبَدْرِ قَبْلَ مَسَاءِ
 وَكَأَنَّ سُكْرَهَا عَلَى أَكْنَافِهَا نَوْزٌ تَجَسَّدَ فَوْقَهَا بِضِيَاءِ^(١)

ومن الحلويات أيضاً، القطائف: وتصنع من خبز يوضع عليه الفستق
 أو اللوز المدقوق مع السكر، الفطائر: وهي عجين يعمل رقائق تقلي
 بالزيت، ثم يذر عليها السكر^(٢)، الخبائض الناعمة والرطبة والصابونية:
 وتصنع من السميد والطحين والعسل والسكر والسمن، والناطف: يصنع
 من العسل والسكر والفستق والبندق^(٣).

واعتاد الناس إعداد الحلوى لأيام الأعياد، فكانت تصنع بأكبر مهارة
 بلغها فن المطبخ، وكانت عادة تصنع أبراج من السكر وتوضع وسط المائدة،
 ويستخدم في صنعها ماء الورد والعنبر والكافور^(٤).

كان الناس يصنعون الخبز بواسطة تنانير وضعت في الأرض، وفرشت
 بالحصى، وفيها يوقد الزبل أو الشيح أو أي من مواد الوقود، فإذا احمرت
 طرحت الأرغفة على الحصى^(٥)، ورغم وجود تنانير وأفران في كثير من البيوت

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٣٦٧.

(٢) المسعودي، م. ن، ج ٤، ص ٣٦٩؛ محاسنة، تاريخ مدينة دمشق، ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٣) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٤٠-٤١.

(٤) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ١٦٣.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٧.

لإنتاج الخبز وصنع الحلويات، إلا أن كثيراً من الناس كانوا يشترون الخبز من الأسواق، أو يحصلون عليه بتحضير العجين في بيوتهم ثم إرساله إلى الأفران للخبز^(١)، ورغم اهتمام كل أسرة بإعداد الطعام وتجهيزه في بيتها، إلا أنه كان يتم أحياناً شراء الطعام جاهزاً من السوق، فقد انتشرت المطاعم التي اقتص كل منها بإعداد نوع من الأطعمة، فكان هناك حوانيت لكل من صناع الزلابية، والجزارين، والقصابين، والشوائين، والرواسين، وقلائي السمك، والطباخين، والهراثيين، والنقائين، والحوانيين^(٢).

كان الناس يقيمون بمناسبة الاحتفالات ولائم كبيرة تضم الخبز المرقوق وكثير من الأطعمة الحلوة والحامضة، والباردة والحارة، والمعجنات من الحلويات وغيرها من المأكّل^(٣)، وكانوا يعدون أطعمة خاصة بالمناسبات تسمى بأسماء مختلفة: فالوليمة: طعام العرس، والنقعة: طعام الرجوع من السفر، والخرس: طعام الولادة، والعقيقة: طعام سابع الولادة، والإعذار: طعام الختان، والوكيرة: طعام يصنع عند البناء بينه الرجل في داره، والمأدبة: هي كل طعام يصنع لدعوة^(٤).

اعتمد الناس مبدأ التغميس في طعامهم^(٥)، وعرفوا استخدام المناديل والملاعق، وتناول الأغنياء طعامهم على الكراسي التي صفت حول الموائد

(١) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٢٢-٢٤؛ ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٩١-٩٢؛ ابن بسام،

نهاية الرتبة، ص ٦١-٦٢.

(٢) ابن بسام، م.ن، ص ٣٤-٥٣؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٢٥-٤١؛ ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٩٢-١١٥.

(٣) الخطيب، المجتمع العباسي، ص ٢٠١.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٦، ص ٢٩٢.

(٥) زعرور، الحياة الاجتماعية، ص ١٤٥.

المفروشة بأغطية من قماش، بينما تناول الفقراء طعامهم في الصحون الموضوعة على الموائد البدوية الجلدية^(١).

وقدم الناس طعامهم في أطباق واسعة من نحاس، واعتادوا أن يغسلوا أيديهم قبل الطعام، وبعد الانتهاء من تناوله^(٢)، واستخدموا أدوات متعددة لتحضير الطعام وتقديمه، منها: القدور والصواني^(٣)، والأواني الفضية، والأقداح المفضّضة^(٤)، والطناجر من الفخار المشوي، والأباريق من الزجاج والبلور، والسكاكين، والملاعق، والسفايد وهي أسياخ الحديد لشوي اللحم، والزنايل وهي سلال النخيل، والجرار الفخارية، أما مواد الوقود لتحضير الطعام، فكانت الحطب والفحم والخشب والزبل^(٥).

كان الناس يخزنون الأطعمة لفصل الشتاء، ويعدون لهذا التخزين الخوابي والصهاريج لحفظ الزيت، والمخازن التي تؤمن الحفاظ على الأطعمة دون أن تتأثر بطول الزمن وعوامل المناخ، وكانوا عادة يخزنون الحبوب والدقيق والزيت والسُّمُون والأدهان والعسل والربوب والسكر والفواكه

- (١) آشور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٢٩.
- (٢) مكّي، محمد كاظم، المدخل إلى حضارة العصر العباسي، بيروت، دار الزهراء، ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ص ١٦٩-١٧٢؛ متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ١٥٩، ١٦٠.
- (٣) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ١، ص ٣٠٣-٣٠٤.
- (٤) القاسمي، ظافر، الحياة الاجتماعية عند العرب، بيروت، دار النفائس، ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ١٦٠.
- (٥) مكّي، المدخل إلى حضارة العصر العباسي، ص ١٦٦-١٦٨.

اليابسة كالتين والزبيب والعنب والجوز والفسق واللوز والبندق، كما كانوا يخزنون الحطب والفحم لاستخدامهما في طهي الطعام وفي التدفئة شتاءً^(١).

ثامناً - الأعياد:

احتفل المسلمون بعدد من الأعياد كعيد الفطر السعيد، وعيد الأضحى، وعيد المولد النبوي الشريف، وبمناسبات عدة كيوم الغدير، ويوم عاشوراء، وعيد رأس السنة الهجرية^(٢)، وقبل موعد الأعياد يعد الناس الألبسة الجديدة ويصبغون القديم منها، ويحضرون الكعك والحلويات، وفي أيام الأعياد يخرجون إلى المنتزهات وشطوط الأنهار، وهناك كانت تقام الاحتفالات وحلقات الرقص والدبكة، وتستمر هذه الاحتفالات حتى انقضاء مدة العيد^(٣)، واحتفل المسلمون أيضاً بليلة القدر، وليلة النصف من شعبان، واحتفالهم بها كان أكثر من احتفالهم بليلة القدر في السابع والعشرين من رمضان^(٤) إضافة إلى ذلك احتفلوا بالأعياد الفارسية كعيدي النيروز والمهرجان^(٥).

- (١) الدمشقي، جعفر بن علي (القرن ٦هـ / ١٢م)، الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، اعتنى به وقدم له وعلق عليه: محمود الأرنؤوط، بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٩٩م، ص ٤٣-٤٧؛ البدري، نزهة الأنام، ص ٢٢٠.
- (٢) ماجد، عبد المنعم، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، ١٩٨٦م، ص ١٣١؛ مكّي، المدخل إلى حضارة العصر العباسي، ص ١٨٧-١٩٠.
- (٣) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٣٦٧-٣٦٨.
- (٤) شيخ الربوة، م.ن، ص ٢٥٩؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢١٠.
- (٥) قدورة، الشعوبية، ص ١٨٩؛ ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، مصر، دار المعارف، ط٦، (د.ت)، ص ٧٠. النيروز أو النوروز: بمعنى "اليوم الجديد"، من أهم أعياد الفرس، ويكون في أول يوم من السنة عند الفرس، ويستمر ستة أيام؛ أما المهرجان: فكان في اليوم السادس عشر

أما أعياد النصارى، فهي: عيد الشعانين^(١)، الذي كان عيداً قديماً من أعياد الأشجار ولا سيما أشجار الزيتون، وفيه تزين الكنائس بأغصان الزيتون وقلوب النخيل، ويفرق منها على الناس على سبيل التبرك^(٢)، واحتفلوا بعيد القَلَنْدَس (القلنداس)، وموعده اليوم الأول من كانون الثاني، أي اليوم الأول من العام، "وتفسير قلندس: خيراً كان، وفيه يجتمع صبيان النصارى ويطوفون في بيوتهم، ويخرجون من دار إلى أخرى"، وهم يرددون "قلندس قلندس بصوت عال وحن، فيُطعمون في كل دار، ويُسقون أقداحاً من الشراب"^(٣)، ومن أعيادهم أيضاً: عيد الفِصْح، وعيد القيامة، وعيد البربارة، وعيد الصليب، وعيد الميلاد^(٤)، وعرف عنهم الاحتفال بليلة الميلاد ٢٥ كانون الأول، وعيد الشمس بإيقاد النيران^(٥).

ذكر المقدسي أن المسلمين اتخذوا أعياد النصارى التي يتعارفونها لتقدير الفصول، وتحديد موعد سقوط الأمطار: ف"الفصح وقت النيروز،

من شهر مهر ماه، (أي تشرين الأول)؛ البيروني، محمد بن أحمد (ت، ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م)، الآثار الباقية عن القرون الخالية، وضع حواشيه: خليل منصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ص ١٨٤ - ١٩١.

(١) الشابشتي، علي بن محمد (ت، ٣٨٨هـ / ٩٩٨م)، الديارات، تحقيق: كوركيس عواد، بغداد، مطبعة المعارف، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، ص ١٧٧.

(٢) المقرئزي، الخطط، مج ١، ص ٧١٦؛ متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٣) البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٦٠.

(٤) المقدسي، المطهر بن طاهر (ت، ٣٥٥هـ / ٩٦٦م)، كتاب البدء والتأريخ، المنسوب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، باريز، ١٩٠٧م، ج ٤، ص ٤٧؛ ضيف، العصر العباسي الأول، ص ٧٠؛ مكي، المدخل إلى حضارة العصر العباسي، ص ١٩٣ - ١٩٥.

(٥) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ١٩٤.

والعنصرة^(١) وقت الحر، والميلاد وقت البرد، وعيد بربرة وقت الأمطار، ومن أمثال الناس إذا جاء عيد بربرة، فليتخذ البناء زماره، يعني فليجلس في البيت والقلندس، ومن أمثالهم إذا جاء القلندس فتدفاً واحتبس، وعيد الصليب وقت قطاف العنب، وعيد لُدَّ^(٢) وقت الزرع^(٣).

واحتفل اليهود بخمسة أعياد هي: عيد الفطر في الخامس عشر من نيسان، وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير، وعيد الأسابيع وهو سبعة أسابيع بعد عيد الفطر، وعيد رأس الشهر وهو أول يوم من تشرين، وعيد صومارياً (أي الصوم العظيم)، وعيد مظليّ وفيه يستظلون سبعة أيام بقضبان الآس والخلاف^(٤).

تاسعاً - مظاهر آخر من الحياة الاجتماعية (عادات وتقاليد):

احتل شهر رمضان مكانة كبيرة في نفوس المسلمين، وكانوا - عادة - يعدون له الأطعمة قبل قدومه، وفي أيامه يجهبون موائد الإفطار، ويدعون إليها الأصدقاء والفقراء، وكان يتم الإفطار في الجامع أحياناً، حيث يحضر كل شخص ما لديه من طعام، وكانوا لا يفطرون - عادة - إلا بحضور بعض الضيوف والغرباء^(٥).

(١) ذكر ابن خلكان أن عيد العنصرة يصادف في اليوم الرابع والعشرين من حزيران، وهو

ميلاد النبي يحيى بن زكريا عليها السلام؛ وفيات الأعيان، مج ٧، ص ٢٢٧.

(٢) لُدَّ: قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين؛ الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، (د.ت)، مج ٥، ص ١٥.

(٣) أحسن التقاسيم، ص ١٥٧.

(٤) المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٤، ص ٣٧-٣٨.

(٥) Bahnassi, Afif, Damascus, the Capital of the Umayyad dynasty, Damcus, Dar

Tlass, First print, 2002, p.69.

كانت المدن الإسلامية تشهد نشاطاً موسمياً أيام الاستعداد للذهاب إلى الحج، ويجري توديع موكب الحج باحتفال كبير، ففي دمشق كان لموسم الحج أهمية كبيرة، إذ أسهم في نشاط التجارة مع الأماكن المقدسة، وكان يجري عادة توديع الحجاج باحتفال كبير، واستقبالهم باحتفال كبير إذ يخرج الناس لملاقاتهم واستقبالهم، ويقومون بتزويدهم بالمال والطعام^(١).

وكان من عادة أهل دمشق وسائر القرى المجاورة لها أن يقفوا في جوامعهم يوم عرفة بعد صلاة العصر، ويقف بهم أئمتهم كاشفي الرؤوس داعين إلى الله ملتسبين بركة الساعة التي يقف فيها الحجاج بعرفات، وييقون واقفين إلى أن تغيب الشمس، فيتفرقون باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف داعين إلى الله أن يوصلهم إليها، ولا يخليهم من بركة القبول فيما يفعلونه^(٢).

اتصف أهل جند دمشق عامة بالكرم والمروءة، وعرف عنهم العناية بالأيتام والفقراء، وتزويد الغرباء والمنقطعين بالطعام والمال^(٣)، واعتاد أهل دمشق ومعظم القرى المجاورة لها الاجتماع لحضور صلاة الجمعة في الجامع الأموي^(٤)،

(١) هنسي، المدينة العربية الإسلامية، مج ٢٦، ج ١ - ٢، ص ١٧؛ عثمان، المدينة الإسلامية، ص ٢٠٢، ٢٠٥.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٢٧؛ ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت، ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المسماة رحلة ابن بطوطة، تحقيق: عبد الهادي التازي، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، مج ١، ص ٣٣٣.

(٣) ابن بطوطة، م. ن، مج ١، ص ٣٣١؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، مج ١، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٣٧١هـ - ١٩٥١م، ص ٣٥٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، م. س، (ح. و) ٢٤١ - ٢٥٠هـ، ص ٥٢٦.

كما اعتادوا الخروج إلى المنتزهات وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار والبساتين والمروج، وكانت أكثر تنزهاتهم في دمشق على ضفاف نهر ثورا الذي وصف بالزمردة الخضراء^(١).

ومارس الناس تسلية أحر غير التنزه كالصيد، واللعب بالشطرنج والنرد، والنظر في الدفاتر، ومجالس الغناء والطرب^(٢).

واعتاد بعض الشباب والأثرياء والأمراء الذهاب إلى أسواق النخاسة للتمتع بجمال الجواري والغلمان أو بقصد البيع والشراء^(٣)، كما اعتاد بعض الأثرياء والأمراء اقتناء الجواري والمغنيات والغلمان والخدم من السود والبيض، وكانت الجواري تتمتع بجمال جذاب، وتتقن إلقاء الشعر والغناء، واستخدام آلات الطرب، فكان "منهن عوادة وطنبورية وكراعة وربابية وصناجة ورقاصة وزفانة بثياب فاخرة وحلي"، وكان أصحاب الجواري عندما يستقبلون ضيوفهم أو من ينزل عندهم يقيمون مجالس غناء وطرب تحييها الجواري، بينما يقوم الغلمان بخدمة الضيوف وتقديم الطعام والشراب^(٤).

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩٩.

(٢) التنوخي، المحسن بن علي، كتاب جامع التواريخ المسمى بكتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، اعتنى بتصحيحه: ر. س. مرجليوث، مصر، مطبعة أمين هندية، ١٩٢١م، ج ١، ص ١٩٣-١٩٤؛ الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٥٣-٢٦٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٧، ص ٤٥-٤٧.

(٣) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٨٤-٨٥؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ١٤٩-١٥٢.

(٤) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج ١، ص ١٩٣-١٩٤؛ روى الصفدي (أن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام والي دمشق وفلسطين في عهد المنصور عندما توفي بدمشق سنة ١٥٧هـ / ٧٧٣م، ترك ما لا يحصى كثرة من العبيد والإماء والخيل وغير ذلك)، تحفة ذوي الألباب، ص ١٧٦.

واهتم الناس باقتناء الخيول، وأطلقوا عليها أسماء متعددة، وعرفوا كثيراً من صفاتها، وعدّوا أفضلها للمشاركة بسباق الخيول الذي شغل حيزاً كبيراً من اهتمامهم، كما عدوا الميادين لسباق الخيل والفروسية، وأطلقوا على العشرة الذين يأتون في نهاية السباق أولاً أسماء مختلفة، فكان الذي يأتي في نهاية السباق أولاً يسمى المجلي، والثاني المصلي، والثالث المسلي، و... والعاشر السكيت، وسمّوا الذي يأتي في آخر حلبة السباق الفسكل^(١).

ومما هو جدير بالذكر أنه شاع في العصر العباسي الإيمان بالغيبيات والأساطير والأوهام، والاعتماد على قول الكاهن والمنجم لمعرفة ما سيحصل^(٢)، فاستغل ذلك بعض المنجمين وكتاب الرسائل، واتخذوا من ذلك صنعة لهم، وصاروا يجلسون على قارعة الطريق، ويكتبون للنسوان، ويكشفون لهن الغيبيات، وكثيراً ما كان ينضم إليهم بعض الشباب الذين لا عمل لهم، وكانوا عادة يكتبون في الروحانيات مثل كشف الأخبار والمحبة والتهيج والرمد، وعقد اللسان، وغير ذلك^(٣).

اعتاد الناس مسلمين وغير مسلمين زيارة الأماكن المقدسة والمزارات وقبور الأولياء والصالحين، للتبرك وتقديم الأضحيات والندور، وهي عادة قديمة، وقد نسبوا إلى بعض هذه الأماكن كرامات متعددة كالشفاء من

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٣٤٧-٣٤٨؛ ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٤٤؛ الفسكل الفسكل والفسكول والفسكول: الذي يجي في آخر الحلبة آخر الخيل، وهو بالفارسية فشكل؛ ابن منظور، لسان العرب، "مادة فسل".

(٢) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، تليس إبليس، تحقيق: محمد علي أبي العباس، القاهرة، مكتبة القرآن، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، ص ٣٥٩.

(٣) ابن الأخوة، معالم القرية، ص ١٨٢-١٨٤.

الأمراض، ومحو الذنوب، وتفريج هموم الإنسان، وفك العسر...، وانتشرت هذه الأماكن في دمشق وحووران وبُصرى والبلقاء والحميمة ومآب... وغيرها من مناطق جند دمشق^(١).

كان الناس يزورون مسجد إبراهيم عليه السلام في قرية برزة من قرى غوطة دمشق، ونسبوا إليه أن الصلاة فيه أربع ركعات تخرج الإنسان من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وأن المصلي فيه يسأل الله تعالى ما شاء فإنه لا يردّه خائباً^(٢)، كما كانوا يزورون الجبل الذي قرب هذا المسجد، ونسبوا إليه أن النبي لوطاً عليه السلام كان فيه، وأن جماعة من الأنبياء كانوا فيه وآثارهم ما تزال هناك، وذكروا أن زيارة هذا الموضع نافعة لقوة القلب وكثرة الذنوب، وأن الدعاء فيه مستجاب^(٣).

وكان من عادة الناس زيارة مغارة الدم^(٤)، إذ نسبوها إلى ابن آدم الذي قتل أخاه، وذكروا أن في أسفلها ولد إبراهيم عليه السلام، وفيها آوى الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام، ونسبوا إليها كرامات متعددة حتى وصفت من قبل علماء الشام ومحدثيها بأنها موضع الحوائج، والدعاء فيها مستجاب، وقد اعتاد الناس الخروج إليها إذا احتبس المطر أو جار سلطان أو غلا سعر، فيعطيه الله ما سألوا، وكثيراً ما زارها الناس في حالة انقطاع المطر،

- (١) حول هذه المزارات، انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٢٣-٣٥٠؛ ابن شداد، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ٢٦٩-٢٧٧؛ قسم دمشق، ص ١٦٩-١٨٦.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٢٦-٣٢٧؛ ابن شداد، قسم دمشق، ص ١٧٣.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٢٦.
- (٤) مغارة الدم: من مغاير جبل قاسيون، وسميت بمغارة الدم لأن فوقها في الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل، وتعرف أيضاً بموضع الدم، ومغارة الأمراء، ومغارة الأربعين وغير ذلك؛ الشهابي، معجم دمشق التاريخي، ج ٢، ص ٣١٠.

فيجيئهم الله إلى ما طلبوا^(١)، ذكر ابن عساكر أن هشام بن عمار محدث الشام (ت، ٢٤٥هـ/١٨٥٩م)، صعد مع أبيه وجماعة من أهل الشام إلى مغارة الدم، يسألون الله تعالى سقياهم، فأجابهم الله، وأرسل مطراً غزيراً حتى اضطروا للإقامة في الغار تحت الدم، فدعوا الله تعالى، فارتفع المطر، وقد رويت الأرض^(٢).

وكان من عادة بعض أهالي غوطة دمشق أن يخلعوا ثوب القداسة على بعض الأشجار للحفاظ عليها، وليجعلوا ثمرها طعمة لأبناء السبيل، لذلك نسبوا الشجرة المراد حفظها إلى أحد الأولياء أو المشايخ أو الصحابة، فحفظوا بذلك أشجاراً كثيرة من الزيتون والتين والجوز والتوت وغيرها من فؤوس المحتطين^(٣).

شكلت الأسرة الخلية الأولى في المجتمع، ولها عادات وتقاليد مختلفة في أفراحها وأتراحها، فقد اعتادت المرأة متى علمت بالحمل أن تتحرز على نفسها، وتتجنب الأعمال المجهدة، وتقوم بتحضير لوازم المولود من اللفائف والكسوة والقماط التي تعرف بالديارة، ومتى ولدت تعم الاحتفالات، فإذا كان المولود ذكراً صلت القابلة على النبي ﷺ، وإن كان أنثى ترضت عن فاطمة الزهراء، ويقابل ذلك بالزغاريد من قبل النساء، ثم تقوم القابلة بدفع المولود إلى أحد أقاربه ليؤذن في أذنيه^(٤).

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٢٩-٣٣٥؛ ابن شداد، قسم دمشق، ص ١٧٦-١٧٧.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٣٣-٣٣٥.

(٣) كرد علي، غوطة دمشق، ص ١٩٨.

(٤) الغزي، كامل، نهر الذهب في تاريخ حلب، تحقيق: شوقي شعث، محمود فاخوري، حلب، دار القلم، ط ٢، ١٤١٢هـ-١٩٩١م، ج ١، ص ١٩٢.

كانت أفرح الولادة تستمر سبعة أيام لا تنقطع خلالها وفود المهنيين والمهنتات^(١)، وفي مساء اليوم السابع يولم أهل المولود وليمة كبيرة من الطعام، يدعون إليها الأقارب والأصدقاء، وتعم الأفرح، وكثيراً ما كانت النساء - أثناء الأفرح - يتبادلن الهدايا بأنواع الحلوى والأقمشة أو بعض النقود، وكانت النساء تذهب إلى الحمام مع قريباتها من النساء بعد أربعين يوماً من ولادتها.

كانت الأسرة تهتم بتربية المولود أحسن تربية، وتبذل كل غالٍ ونفيس في سبيله، واعتادت أن تسلق للطفل عندما تخرج أسنانه قمحاً يخلط مع السكر، ويطعم منه، ويوزع الباقي، وعند بلوغ الطفل سن الرابعة أو الخامسة ترسله إلى إحدى الكتاتيب لتعلم القرآن الكريم، وعندما يتم قراءة القرآن كانت تقيم احتفالاً كبيراً.

كان ختان الطفل في الغالب يتم في اليوم السابع من ولادته، وتترافق عملية الاختتان باحتفال كبير يدعى إليه سائر الأهل والأصدقاء، وتقام فيه وليمة طعام، وعندما يصوم الولد أول مرة تعمل له الأسرة في أول يوم صيام طبق حلوى ليفطر عليه في مساء ذلك اليوم، وعندما يبلغ الولد سن الشباب تبحث الأسرة عن عروس لابنها^(٢).

والواقع أنه كان للزواج واحتفالات الزفاف عادات وتقاليد مختلفة عند كل من المسلمين والنصارى واليهود، فعند المسلمين كان اختيار العروس تتولاه أم العريس، أو إحدى النساء القريبات، فإذا اتفق رأيهن على بنت، ذهب أقرب رجل إلى العريس ومعه بعض أهل بيته، وخطبوها من

(١) عاشور وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، ص ٢٧٤.

(٢) الغزي، نهر الذهب، ج ١، ص ١٩٣-١٩٦.

وليها أو أقرب رجل إليها، واتفقوا معه على المهر، ولا يرى العريس عروسه إلا ليلة الزفاف، وتتلقى العروس أثناء مدة الخطبة هدايا كثيرة من العريس وأهله، ومن الأصدقاء والأقرباء والجيران، وقبيل ليلة الزفاف يجتمع معظم أهل حي العريس، ويتوجهون إلى حي العروس، ومعهم الحمالون لنقل جهازها، وعندما يصلون إلى حي العروس تصف الموائد، وتقدم الأطعمة، وتنتشر الأفراح، ووسط هذه الأجواء يتم تحميل جهاز العروس، المتاع على الدواب، والحلي على رؤوس الحمالين، ثم يتحرك موكب نقل الجهاز، وأمامه مجموعة من لاعبي السيوف والعصي، ومعهم طبول وزمور^(١).

وتقام احتفالات الأعراس أحياناً في بيوت من القصب شيدت خصيصاً للاحتفال ببعض المناسبات كالزواج^(٢)، وكان من عادة أهل دمشق، ومعظم المناطق المجاورة لها أن يجهز الأب ابنته وقت الزواج، ويكون جهازها في معظمه أوانٍ من النحاس^(٣). ويستهل عقد الزواج بتلاوة آيات من القرآن الكريم، ويعد الأطعمة في ليلة الزفاف أهل العريس وأقرباؤه وجيرانه، وتقدم للمدعوين، ويكون احتفال الرجال وحدهم، وتحتفل النساء بمفردهن، ويتم فيها تناول الأطعمة، ويرافق ذلك مع الغناء والرقص، وتقديم الهدايا للعروس، وبعد انقضاء حفلة العرس يتوجه العريس برفقة الجميع

(١) علوان، علي بن عطية بن حسن (ت، ٩٣٦هـ / ١٥٢٩م)، نسبات الأسحار في كرامات الأولياء الأخيار (أعراس الشام في أواخر القرن التاسع الهجري)، نشر: عبد الهادي هاشم، دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، مج ٣٢، ج ٢، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، ص ٣٣١-٣٣٢.

(٢) الخطيب، المجتمع العباسي، ص ٢٠١.

(٣) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، مج ١، ص ٢٦٤.

إلى الحمام، وبعد الاستحمام يلبس أجمل الثياب، ويضع العطور والطيب، ثم يتوجه إلى مكان احتفال النساء لينضم إلى عروسه.

كانت العروس تتزين بأجمل زينة، وتلبس أفخر الثياب، وبعد انضمام العريس إلى عروسه يرافقها إلى بيته حيث الاحتفالات جارية فيه^(١)، وفي صباح ليلة العرس يقدم العريس هدية لعروسه تسمى الصباحية^(٢).

كانت أجواء العرس وسهراته تنار بالقناديل التي تسرج بالزيت، وقد تسرج بالغالية (أي مسك وعنبر يمزجان مع البان) بدل الزيت ولا سيّما إذا كان العرس لأحد الأمراء^(٣)، هذا ويعد موكب العريس والعروس احتفالاً بالزفاف من المواكب التي

تكررت كثيراً في شوارع المدن الإسلامية، وشارك فيها الأهل والأصدقاء والعامّة^(٤).

ومن مواكب الأعراس التي تعد أمثلةً عن نماذج أعراس الأمراء والأغنياء، موكب زفاف قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون للخليفة المعتضد، حيث انتقل موكبها من مصر إلى العراق، فجعل أبوها في كل مرحلة من مراحل الانتقال قصرًا كاستراحة لموكبها، وجعل بكل من

(١) علوان، نسبات الأسحار، مج ٣٢، ج ٢، ص ٣٣٣-٣٣٦؛ الغزي، نهر الذهب، ج ١، ص ١٩٨-١٩٩؛ قساطلي، نعمان، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت، دار الرائد العربي، ط ٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص ١٢٧.

(٢) قساطلي، م.ن، ص ١٢٧؛ الغزي، نهر الذهب، ج ١، ص ٢٠٠.

(٣) ابن عساكر، تراجم النساء، ص ٢٩١.

(٤) عثمان، المدينة الإسلامية، ص ٢٠٤.

هذه القصور ما كان بقصره حتى قيل أفنى خزائنه في جهازها، ودخل في جهازها مئة هاون ذهب، وكثيرٌ من المنائر والأباريق والطاسات وغيرها من الأواني الذهبية^(١) وتغنى الناس في الحديث عن حفلة زواج الحسين بن القاضي أبي زرعة الدمشقي بابنة الحسين بن أحمد الماذرائي المعروف بأبي زنبور في دمشق، وفيها كلف أبو زنبور مائة غلام بخدمة الحضور، فقدموا لهم الغالية وماء الورد والمشوط والمرايا ثم فرشوا لهم موائد الطعام، وفي نهاية الحفل أخرجوا مائة صينية من الدنانير والدراهم، وتمائيل الند والعنبر فألقوها في أكمام الناس^(٢).

ومن الأعراس التي اشتهرت أيضاً عرس سيف الدولة الحمداني بابنة أخي الإخشيد عبيد الله بن طُغج، وفيه نثر سيف الدولة ثلاثين ألف دينار على الحاضرين في البيت، ونثر خارجه أربعمئة ألف درهم^(٣).

أما بالنسبة لتقاليد الخطبة والزواج عند النصارى واليهود، فهي كما يلي:

اعتاد الشاب المسيحي متى أراد الزواج أن يختار شريكة حياته بتصفح وجوه البنات أثناء خروجهن من الكنيسة، وإذا ما أعجبه فتاة سعى للتحديث معها ويعرفها أنه يريد لها زوجة، فإذا ما وافقت أرسل الشاب

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، ص ٣٠؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٢، ص ٨١٧؛ زبدة الحلب، ج ١، ص ٩١؛ الكندي، كتاب ولاية مصر، ص ١٨٦؛ التنوخي، نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٢٦٢.

(٢) المقرئزي، المقفى الكبير، ج ٣، ص ٤٧٠.

(٣) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٥، ص ٢٤١٢.

كاهناً مع وليه وبعض أقاربه إلى وليها لخطبتها، وبعدها يقوم الخطيب بزيارة خطيبته، وتحديد موعد الزواج.

كانت الدعوة لحضور حفلة الزفاف توجه إلى الأقارب والأصدقاء قبل عدة أيام من موعدها، وتقام عادة في بيت العريس، وفي ليلة العرس يتوجه ولي العريس وبعض أقاربه إلى بيت العروس لنقل جهازها، ومرافقتها إلى حفلة العرس.

كانت أجواء الفرح تعم بلدة العروس، حيث يجتمع الناس فيها، ويصطفون على طرفي منزل العروس، وتتقدمهم فرقة موسيقية تقوم بعزف الموسيقى، ووسط هذه الأجواء تخرج العروس من منزل والدها في أبهى زي بين رجلين من أقاربها، وتسحب أذيال الحرير سحباً، وعلى رأسها عصابة ذهب قد صفت بشبكة ذهب منسوجة، وهي تمشي بخطوات بطيئة، وأمامها الرجال النصارى وخلفها النساء، ويستمر سير هذا الموكب حتى تصل العروس إلى دار عريسها، فتتضم إليه أثناء حفلة الزفاف، وتترافق حفلة العرس مع تقديم الطعام والشراب والحلوى، والغناء والرقص والطرب، وتستمر هذه الأجواء حتى الصباح، وفي صباح ليلة العرس يقدم العريس هدية لعروسه^(١).

كان الشاب اليهودي عندما يختار عروسه يسأل عما تملك من الحلي والمجوهرات والملابس، فإذا أعجبه ذلك، وجرى بينه وبينها تحالف على الرضا، اتفقا على الزواج، ولا يتم عقد الزواج إلا بولي وخطبة وثلاثة شهود ومهر محدد للعروس، وهو يتم وفق مراسيم معينة، إذ يحضر كأس خمر ودستجة من ريحان، فيأخذ الحاخام الكأس فيتبرك عليه، ويخطب خطبة

(١) الغزي، نهر الذهب، ج ١، ص ٢٠٣-٢٠٥؛ قساطلي، الروضة الغناء، ص ١٢٨-١٢٩.

النكاح ثم يدفعه إلى الشاب ويقول قد تزوجت فلانة بهذه الفضة أو الذهب وهو خاتم في يده، وبهذه الكأس من الخمر وبمهر كذا، فيشرب جرعة منها، ثم يذهبون إلى منزل الشابة، فيطلبون منها أن تأخذ الخاتم والريحان والكأس من يد الشاب، فإذا أخذت وشربت منها يعقد النكاح^(١).

كان يحضر حفلة العرس أحباب العروسين وأصحابهما، ويقدم فيها الأطعمة والمشروبات، وفي اليوم الثاني بعد الزواج يدعو العريس عشرة من رجال الدين، ويعد لهم وليمة طعام وشراب، ليباركوا له الزواج ثم يأكلون وينصرفون^(٢).

ومما هو جدير بالذكر أنه لم يكن هناك تزواج بين المسلمين وغير المسلمين، فزواج المسيحي من مسلمة كان مستحيلاً، وزواج المرأة النصرانية بغير نصراني لم يكن مسموحاً لئلا تنتقل هي وأولادها إلى غير دينها، كما أنه لم يكن مسموحاً للنصراني - بحسب قانون الكنيسة - التزوج بغير نصرانية إلا رجاء إدخالها هي وأولادها في النصرانية^(٣).

كانت هذه تقاليد الأفراح والزواج، أما تقاليد الأحزان والأتراح، فهي مختلفة أيضاً عند كل من المسلمين والنصارى واليهود، فالمسلمون كانوا متى احتضر المريض يحضرون أحد حفظة القرآن الكريم، فيجلس إلى جانبه ويتلو سورة من سور القرآن، وتكون عادة سورة الرعد أو سورة يس حتى يقضي المريض نحبه، فيعم الحزن، وتشرع النساء بالنواح، ويلبسن السواد

(١) المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٤، ص ٣٩.

(٢) الغزي، م.ن، ج ١، ص ٢٠٨؛ قساطلي، الروضة الغناء، ص ١٢٩.

(٣) متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٥٦.

ثم يغسل الميت بالماء والكافور والطيب، ويكفن ثم يحمل إلى الجامع للصلاة عليه^(١).

وكان من عادة الرجال في دمشق المشي خلف الجناز، ويتقدمها قراء يقرؤون القرآن بأصوات شجية، حتى تصل الجنازة إلى الجامع للصلاة عليها، فيقطعون القراءة، وبعد الصلاة عليها يجلسون ومعهم ربعات من القرآن الكريم يقرؤونها، وأثناء ذلك يستقبل نقيب الجناز كل من يصل إلى العزاء، فإذا ما استكملوا مجلسهم وفرغوا من القراءة، قام الوعاظ واحداً واحداً، ووعظوا وحذروا من خداع الدنيا، وقدموا التعازي إلى صاحب المصاب^(٢)، وبعد ذلك يتم حمل النعش إلى القبر لدفنه، وأثناء الدفن يقوم القراء بقراءة سورة الدخان^(٣)، وفي مساء يوم الدفن يرسل أحد أصدقاء الميت طعاماً يسمى حمولاً يتعشى منه أهل الميت، ومن يكون عندهم^(٤).

اعتاد الناس أن يخرجوا إلى القبر ثلاثة أيام بعد الدفن لختم القرآن^(٥)، واعتادوا أن يدعوا جماعة من حفظة القرآن في اليوم السابع للوفاة فيختمون القرآن، وفي المساء تبسط الموائد، وهذا اليوم يسمى الأسبوع، وما يتم فيه يجري في يوم الأربعاء، ويوم تمام السنة على الوفاة^(٦).

(١) ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٤٦-٤٩؛ الغزي، نهر الذهب، ج ١، ص ٢٠١.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٢٤٨.

(٤) الغزي، نهر الذهب، ج ١، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٧.

(٦) الغزي، نهر الذهب، ج ١، ص ٢٠٢-٢٠٣.

كان الناس يتبادلون الزيارات لتقديم التعازي، وكان الندب والبكاء من العادات المعروفة^(١) ولا سيَّما النساء إذ كان من عاداتهن النواح عند وفاة أي قريب^(٢). وكانت البلد عند وفاة أحد الفقهاء أو الأشراف تغلق أسواقها وحوانيتها باستثناء المحلات الضرورية كحوانيت الأغذية والأفران حداً على المتوفى، ويشترك المسلمون وغيرهم في التشييع، ففي وفاة الإمام الأوزاعي في بيروت سنة ١٥٧هـ / ٧٧٣م شيَّعه، وحضر جنازته أهل أربعة أديان هم: المسلمون والنصارى والقبط واليهود^(٣)، وفي وفاة الشريف العقيقي في دمشق في الرابع من جمادى الأولى سنة ٣٧٨هـ / ٩٨٨م أغلقت حوانيت البلد كلها إلا خبازاً أو قصاباً، وخرج جميع الأشراف، وعدد كبير من الناس في جنازته^(٤).

كانت النساء تمنع من زيارة القبور^(٥)، ولم يكن يسمح لهن بالخروج خلف الجنازات إلا إذا كانت لامرأة نفساء أو مبطونة حيث تخرج معها امرأة من ثقافتها حتى تصل الجنازة إلى المصلى، فتعود المرأة، ثم تتابع مراسيم التشييع^(٦).

كان النصارى متى حصلت الوفاة يرسلون إلى أقارب المتوفى وأصدقائه بخبر وفاته، ومتى سيكون تشييعه، ويقوم بعض الكهنة بوضع المتوفى في صندوق عمل له ليدفن معه، ثم يحمله الحملون إلى الكنيسة للصلاة عليه

(١) الخطيب، المجتمع العباسي، ص ٢٠٤.

(٢) ابن عساكر، تراجم النساء، ص ٢٥٢.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ٢٢٨؛ ج ٢٠، ص ٨١.

(٤) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٢، ص ٦٣٧.

(٥) ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٥١.

(٦) ابن عساكر، تراجم النساء، ص ١٠٧.

فيها، وبعد الصلاة يحمله أربعة رجال إلى القبر لدفنه، وفي اليوم الثالث للوفاة يعملون لروح الميت صلاة في الكنيسة تسمى الجُنَّاز، ويلبسون السواد طوال مدة الحزن.

كان اليهود متى توفي شخص يضعونه في تابوت ثم يحمله ثلاثة أشخاص إلى الكنيس للصلاة عليه، وبعدها يؤخذ إلى المدفن، وبعد العودة من المدفن يحضر أحد الحاضرين مائدة طعام، ويطعم أسرة الميت، وكان ورثة الميت عادة يجلسون في بيوتهم مدة سبعة أيام حداداً على المتوفى، وفي اليوم السابع يصنعون طعاماً لروح الميت، ويعمل الشيء نفسه عند مرور ثلاثين يوماً على الوفاة، وتسعة أشهر، وسنة^(١).

ومما هو جدير بالذكر أن موتى المسلمين وأهل الذمة كانوا يُدفنون كل على حدة، ولكن في أوقات الكوارث الطبيعية كانوا يُدفنون مجتمعين لا يفرق بعضهم عن بعض^(٢).

٢- سكان الأرياف:

كان الريف عامراً بالقرى ومأهولاً بالسكان، فقد ذكر المقدسي أن بإقليم الشام "قرى أجل وأكبر من أكثر مدن الجزيرة مثل: داريا^(٣) وبيت لهما^(٤)...، غير أنها على رسوم القرى معدودة"، وأضاف أن سكان الأرياف والقرى شكلوا

- (١) الغزي، نهر الذهب، ج٢، ص ٢٠٥-٢٠٦، ٢٠٩.
- (٢) متز، الحضارة الإسلامية، ج١، ص ٦٧.
- (٣) داريا: قرية من قرى غوطة دمشق؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج١، ص ٤٩١.
- (٤) بيت لهما: من قرى غوطة دمشق؛ كرد علي، غوطة دمشق، ص ٢٢٤.

تجمعات سكانية كبيرة في المناطق الزراعية الخصبة عرفت باسم الرساتيق^(١)، ورساتيق جند دمشق هي: الغوطة وهوران والبثينة والجولان والبقاع والحولة^(٢)، ويبدو أن كل رستاق كان يضم قرية أو عدة قرى تتميز بالبساتين والأشجار المثمرة والزراعات المختلفة^(٣).

وعلى الرغم من أن الريف شكل المساحة الأرضية الأوسع، وكان المورد الاقتصادي الأول، وضم عدد السكان الأوفر، الحياة الريفية غير معروفة، ولم تأت المصادر المتوافرة على ذكرها، وما ورد فيها عن سكان الريف يقتصر على إشارات عابرة عن معاناة الفلاحين والظلم الذي يتعرضون له، وفيما يلي عرض لبعض مشاكل الفلاحين ومعاناتهم.

كانت أوضاع أهل القرى والأرياف العاملين بالزراعة واستثمار الأرض بشكل عام سيئة، وتأثرت بسوء الأوضاع المعيشية، واضطراب الأحوال السياسية، وكثيراً ما أدت الحروب والصراعات، وهجمات البدو إلى تدمير محاصيلهم وموارد رزقهم وقراهم، ومقتل كثير من الفلاحين، وأحياناً إلى تهجيرهم، وعانوا أيضاً من إهمال الدولة لشؤونهم، وعدم اهتمامها بتحسين أوضاعهم، وعانوا ظلم عمال الدولة وتعددهم، وإرهاقهم بالضرائب الباهظة مما أدى إلى تأخر الزراعة، فمن المعروف أن "عدل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان"^(٤).

(١) الرزداق والرستاق واحد، فارسي معرب، والجمع رساتيق، وهي السواد؛ ابن منظور، لسان العرب، ج ٥، ص ٢٠٨، مادة "رستق". والرساتيق: هي القرى التي تحيط بها الأراضي الزراعية.

(٢) أحسن التقاسيم، ص ١٣٦.

(٣) مكّي، المدخل إلى حضارة العصر العباسي، ص ١٠٥.

(٤) كرد علي، غوطة دمشق، ص ١٣٠.

وأوردت المصادر حوادث متعددة تشير إلى ظلم الولاة وتعذيبهم، فعندما عدل المنصور غوطة دمشق كل ثلاثين مداً بدينار، "كان أداء الناس على ذلك، ثم قال بعض الولاة نجعل على الدينار نصف دانق للكتب والرسل، ثم قال غيره بعده: نجعل على الدينار دانقاً... فكان ذلك كذلك إلى أن تعدى من تعدى"^(١).

وبلغ من جشع بعض الولاة اتباع أشجع الأساليب لابتزاز الناس، وأخذ أموالهم، وفي هذا الأمر ذكر السرياني أن علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ والي دمشق في عهد المعتصم، كان جشعاً، فرض زيادة في الضرائب، وعندما بلغه أن ثرياً توفي استدعى أولاده واتهمهم بقتل والدهم، وجلدهم على مرأى من الناس وصادر ثروتهم، وبلغ من تعدي هذا الوالي أنه "كان يشتري جمالاً هزيلة، ويفرض على القرى تسمينها في الشتاء، ولشدة ضعفها كانت تموت، فكان يدّعي بأنها جمال الخليفة، فيأخذ ثلاثين ديناراً ثمناً لكل واحد"^(٢).

وعانى الفلاحون عسف عمال الخراج وتعذيبهم، إذ كانوا يسومونهم صنوفاً "من العذاب من السباع والزنابير والسنانير"، فاشتكى بعض الناس إلى المهدي، فكتب إلى عماله يأمرهم برفع العذاب عن أهل الخراج^(٣)، ولكن ظلم عمال الخراج استمر فيما بعد، وهذا ما أشار إليه أبو يوسف إذ كانوا يبتزون أهل الخراج ويكلفونهم المغارم بحجج مختلفة كأجور العمال وحمولة

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٧، ص٢٢٤؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج٢، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٢) تاريخ ميخائيل السرياني، ج٣، ص٦٨-٦٩.

(٣) الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص١٤٢.

طعام السلطان، وثمان صحف وقراطيس، وأجور الكياليين والمؤنة لعمال الخراج، ويستخدمون أساليب تعسفيه في سبيل تحصيل تلك المغارم، لذلك أوصى أبو يوسف برفع العذاب عن أهل الخراج، قال: "ولا يُضْرَبَنَّ رجل في درهم خراج ولا يقام على رجله، فإنه بلغني أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس، ويضربونهم الضرب الشديد، ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم"^(١).

وقال أيضاً: "وقد بلغني أن عمال الخراج يبعثون رجالاً من قبلهم في الصدقات، فيظلمون ويعسفون ويأتون ما لا يحل ولا يسع"، واقترح تعيين موظفين أمناء للإشراف على جباية الزكاة والصدقات^(٢)

وبلغ من ظلم عمال الخراج وعسفهم أنهم كانوا ينازعون الناس أملاكهم، ويحاولون الاستيلاء عليها، فعامل خراج دمشق في عهد الرشيد إسحاق بن ثعلبة حاول أن يستولي على الدار التي ورثها عبد الله بن محرز بن رزيق الفزاري عن أزواجه^(٣).

ودفع ظلم عمال الخراج وتعديهم فلاحين كثيراً إلى هجرة أراضيهم، وترك زراعتها، فالخليفة هارون الرشيد عاقب الحسين بن عمار عامل خراج دمشق لسوء تصرفه فيها، ما أدى إلى تحولها إلى منطقة جرداء، ومما قاله له: "وليتك دمشق، وهي جنة تحيط بها غدر تتكفأ أمواجها على رياض كالدراري، فما برح بك التعدي... أن جعلتها أجرد من الصخر، وأوحش من القفر"^(٤).

(١) الخراج، ص ١٠٩.

(٢) أبو يوسف، م.ن، ص ٨٠.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٣، ص ٣-٤.

(٤) ابن الفقيه، البلدان، ص ١٥٥.

واستمر ظلم الولاة وعمال الخراج فيما بعد، ويدل على ذلك أن المأمون كتب في سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م إلى عامله على دمشق إسحاق بن يحيى بن معاذ، كتاباً يأمر فيه، التقدم إلى عماله في حسن السيرة، وتخفيف المؤونة، وكف الأذى عن الرعية، وأن يكتب إلى عمال الخراج بمثل ذلك^(١).

وازدادت أوضاع الفلاحين سوءاً مع شيوع نظام الضمان والقبالة في العصر العباسي، فالضامن أو المتقبل لا يهتم إلا جمع المال باستخدام أشنع الأساليب، مما ألحق الخراب بالزراعة، والضرر بالرعية، وقد انتقد أبو يوسف نظام الضمان والقبالة بقوله: "فإن المتقبل إذا كان في قبالته فضل

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٦٤٦؛ تجدر الإشارة إلى أن الشاعر ابن المعتز صور في أرجوزته التي أرخ فيها خلافة المعتضد وأعماله كيف كانت تجبي أموال الخراج قبله، وكيف كان يعذب الفلاح بصنوف العذاب، ومما قاله في ذلك:

فكَمْ وَكَمْ مِنْ رَجُلٍ نَبِيلٍ	ذِي هَيْبَةٍ وَمَرْكَبٍ جَلِيلٍ
رَأَيْتُهُ يُعْتَلُّ بِالْأَعْوَانِ	إِلَى الْجُبُوسِ وَإِلَى السِّدْيَانِ
وَجَعَلُوا فِي يَدِهِ حَبَالاً	مَنْ قَنْبٍ يُقَطِّعُ الْأَوْصَالَ
وَعَلَّقُوهُ فِي عُرَى الْجِدَارِ	كَأَنَّهُ بِرَأْدَةٍ فِي السِّدَارِ
وَصَفَّقُوا قَفَاهُ صَفْقَ الطَّبَلِ	نَصَباً بَعَيْنِ شَامِتٍ وَخِلِّ
إِذَا اسْتَعَاثَ مِنْ سَعِيرِ الشَّمْسِ	أَجَابَهُ مُسْتَخْرَجٌ بِرَفْسِ
وَصَبَّ سَجَانٌ عَلَيْهِ الزَّيْتَا	فَصَارَ بَعْدَ بَرْزَةِ كُمَيْتَا

- ابن المعتز، عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد (ت، ٢٩٦هـ / ٩٠٨م)، ديوان ابن المعتز، شرحه: مجيد طراد، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ج ١، ص ٤١٥.

عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لا يجب عليهم وظلمهم، وأخذهم بما يححف بهم ليسلم مما دخل فيه، وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية، والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره في قبالتة، ولعله أن يستفضل بعدما يتقبل به فضلاً كثيراً، وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية، وضرب لهم شديد، وإقامته لهم في الشمس، وتعليق الحجارة في الأعناق، وعذاب شديد ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذي نهى الله عنه، إنما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو، وليس محل أن يكلفوا فوق طاقتهم، وإنما أكره القبالة لأني لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم، فيعاملهم بما وصفت لك، فيضر ذلك بهم، فيخربون ما عمروا ويدعون، فينكسر الخراج، وليس يبقى على الفساد شيء، ولن يقل مع الصلاح شيء^(١).

وازداد شيوع الضمان والقبالة مع ضعف الدولة العباسية، وكثيراً ما كان الضامن يجمع مالاً كثيراً، ولا يقدم كل ما يجمعه إلى بيت المال في حاضرة الخلافة، وهذا أدى إلى إضعاف موارد بيت المال، وازدياد فقر الرعية، فقد ضمن الماذرائيون^(٢) في عهد الخليفة المقتدر خراج الشام ومصر، وتعهدوا بحمل مبلغ معين من المال إلى بيت مال الخلافة مقابل أن يقوموا بجباية خراج هذين الإقليمين، فجمعوا أموالاً طائلة، ولم يدفعوا ما تعهدوا

(١) الخراج، ص ١٠٥.

(٢) الماذرائيون: أسرة فارسية تنسب إلى مازرايا أو مادرايا وهي قرية من أعمال البصرة، برزت هذه الأسرة مع نزوح أفرادها إلى مصر في أواسط القرن الثالث الهجري، ومن أبرزهم: الحسين بن أحمد، وعلي بن أحمد، ومحمد بن علي؛ كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٣٧-٤٠.

به إلى بغداد^(١)، وعقد أبو المسك كافور ضمان جند دمشق في السنوات من ٣٣٧هـ / ٩٤٨م إلى ٣٤٩هـ / ٩٦٠م على خزرون، وعلي بن محمد بن جاني، وعلي بن مالك، فكان في يد كل واحد منهم سنون مقابل مبلغ معين من المال، وكان كل ضامن منهم يربح أكثر مما تعهد بدفعه^(٢).

وعانى الفلاحون في مطلع العصر العباسي مصادرة الدولة أراضيهم، فقد صادر العباسيون أملاك بني أمية، ومنحوا بعضها لأتباعهم^(٣)، وفرضوا ضرائب باهظة حتى إن الناس في عهد المنصور لجؤوا من شدة الفقر إلى نبش القبور عليهم يعثرون فيها على أي مادة ثمينة دفنت مع الموتى لتأمين عيشهم، ودفع الضرائب^(٤).

ويظهر أن هذه الأوضاع المتردية كانت من أسباب ثورات عديدة قامت في هذه المنطقة، فالضرائب الباهظة في عهد المنصور هي التي دفعت نصارى جبل لبنان للقيام بالثورة في سنتي ١٤٢ و١٤٣هـ / ٧٥٩-٧٦٠م ضد إسماعيل بن الأزرق الجزري عامل خراج بعلبك، فأرسل صالح بن علي من قتل مقاتليهم، وفرق بعضهم في قرى الشام، وأقر من بقي منهم في قراهم^(٥).

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ج ١، ص ١٠٧؛ الصابغ، تحفة الأمراء، ص ٢١٣-٢١٤؛ كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٥١-٥٢.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٥٩-١٦٠.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥٣، ١٦٨؛ الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص ٩٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣١، ص ٢٣٧؛ ج ٣٣، ص ٤؛ الحموي، معجم البلدان، ط، دار الكتب العلمية، ج ١، ص ٥٥٩.

(٤) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٩؛ السرياني، تاريخ ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٤٢٠-٤٢١.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٨، ص ٢٦٧-٢٦٨؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٥، ص ٣٤١.

وفرضت الدولة في عهد الرشيد خراجاً محجفاً على أهل الضياع في فلسطين، دفعهم إلى ترك ضياعهم وهجرتها، فأرسل الرشيد لعمارها هرثمة بن أعين الذي دعا قوماً من أكرتها (أي العمال الزراعيين) ومزارعيها للعودة مقابل تخفيف الخراج عنهم، فعادوا وعرفوا باسم أصحاب التخفيف، وعرف الذين رجعوا بعدهم باسم أصحاب الردود^(١)، وقد عبّر اليعقوبي عن هذا الوضع في قائمة الخراج التي قدمها لأجناد الشام، إذ يذكر خراج فلسطين مع الضياع من بين أجناد الشام^(٢)، ويبدو أن استثناء بقية الأجناد من إجراءات التخفيف كان السبب في إثارة جماعة من القيسيين في دمشق، فعبروا عن استيائهم بثورة هاجموا خلالها ضياع اليمانيين - وهم أتباع الدولة - في الغوطة ونهبوها وأحرقوها^(٣)، وقد عرفت هذه الثورة باسم قائد القبائل القيسية أبي الهيثم المرّي، واستمرت مدة طويلة مما ألحق أضراراً بالغة بالزراعة، وأدى إلى تدمير كثير من القرى والمزارع والبساتين، وتشير الدراسات إلى أن تركيز الروايتين اللتين رواهما ابن عساكر^(٤) عن الثورة، على القرى اليمانية والاعتداء عليها، يشير إلى أصول المشكلة، وأن بدايتها مرتبطة بالأرض وملكيته، وأدى تضارب المصالح إلى تطور النزاع، فحوّلت القبائل اليمانية في المزة الماء إلى الصحراء، ومنعته عن دمشق، غير أن التهديدات التي تلقتها أجبرتها على إعادة تسييره كالسابق^(٥).

- (١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٨-١٦٩.
- (٢) البلدان، م.ن، ص ٨٦، ٨٨-٩٠؛ وقد ذكر (خراج دمشق سوى الضياع ٣٠٠٠٠٠٠، وحصص سوى الضياع ٢٢٠٠٠٠٠، والأردن سوى الضياع ١٠٠٠٠٠٠، بينما يذكر فلسطين مع الضياع ٣٠٠٠٠٠٠).
- (٣) خزنة كاتبي، الخراج، ص ٢٠٦-٢٠٧.
- (٤) تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٢-٨٧.
- (٥) خزنة كاتبي، الخراج، ص ٢١١؛ كرد علي، غوطة دمشق، ص ١٥٢-١٥٣.

وشهدت الشام قيام اضطرابات كثيرة في إثر الصراع بين الأمين والمأمون، واستمرت في مطلع عهد المأمون، ولعل الأوضاع الاقتصادية السيئة والضرائب الباهظة من أسباب هذه الاضطرابات، ويدل على ذلك قيام عبد الله بن طاهر - عندما توجه إلى الشام لتهدئة أمورها- بتخفيف الخراج عن المناطق التي مرَّ بها، ويشكل هذا بمنزلة إقرار بالمشكلة ومحاولة لمعالجتها^(١).

وقام في عهد المعتصم الوالي أبو المغيث الرافقي بإجلاء لبعض فلاحي المريج والغوطة، مما دفعهم للقيام بالثورة، ومحاصرة دمشق، فأرسلت الخلافة جيشاً بقيادة رجاء بن أيوب الحضاري، فهاجم القرى الثائرة وأخذ ثورتها^(٢).

ويمكن إدراك مدى سوء أوضاع الفلاحين من خلال ما ذكرته المصادر عن ثورة المبرقع اليماني في فلسطين، إذ كان معظم مؤيديه من الحراثين والفلاحين الذين عجزوا عن دفع الضرائب الباهظة التي كلفتهم بها الدولة، حتى إن رجاء بن أيوب الحضاري - الذي كلفته الدولة القضاء على الثورة - قال عندما نظر إلى جيش المبرقع "ما أرى في عسكره رجلاً له فروسية غيره"^(٣)، فأقام مقابل المبرقع حتى كان وقت زراعة الأرض وحرثتها،

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٤٦٠.

(٢) اليعقوبي، م.ن، ص ٤٨٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ١١٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٨، ص ٩٤ - ٩٥؛ ج ٦٠، ص ٣٨٨؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٥، ص ٣١١ - ٣١٢.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ١١٧.

فانصرف معظم أتباع المبرقع لحراثة أراضيهم وزراعتها، وبقي في نفر قليل،
فهاجمه رجاء، وألقى القبض عليه، وأخذه أسيراً^(١).

وعانى الفلاحون من الزيادات في الضرائب بعد كل مسح للأراضي
الذي عرف بالتعديل، وأجريت هذه العملية ثلاث مرات في الشام،
ففي سنتي ١٤٠ و ١٤١هـ / ٧٥٧-٧٥٨م أرسل المنصور المعدلين إلى
أرض الشام، ومنهم عبد الله بن يزيد إلى حمص، وإسماعيل بن عياش إلى
بعلبك، فعدلوا ما بقي من الأراضي بيد الأنباط، ولم تعدل الغوطة في تلك
السنة، ثم أرسل المنصور بقیة بن الوليد الكلاعي الحمصي، وهضاب بن
طوق، ومحرز بن رزيق إلى الغوطة، فعدلوا الأشرية، وأمرهم أن يمضوها
لأهلها عشرية، ويضعوا الخراج على الأشرية المحدثه بعد سنة مئة، وعلى
ما بقي منها بيد الأنباط^(٢).

وفي سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩م قدم المأمون دمشق، واستقدم مساحاً من
العراق لإجراء التعديل، وبقي في دمشق طيلة فصل الشتاء يراقب التعديل^(٣).

(١) الطبري، م.ن، ج ٩، ص ١١٦-١١٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ٥٢٣-٥٢٥؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٠٣.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٢٠٨؛ ج ١٠، ص ٣٢٨-٣٢٩؛ ج ٥٧، ص ٨٠؛ ج ٧٤، ص ٤٤؛ مج ١، (تحقيق: صلاح الدين المنجد)، ص ٥٩٦-٥٩٧؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٤، ص ١٧٢٢-١٧٤١؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٣، ص ٣٩؛ وانظر: ما كتب عن ذلك في الفصل الأول - صاحب الخراج.

(٣) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٥، ص ٢١٨٣-٢١٨٥؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٤، ص ١٠٧-١٠٨؛ الخوري، صيداء عبر حقب التاريخ، ص ١٤٦.

وفي سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م ولى المتوكل أحمد بن محمد بن عبيد الله بن المدبر على خراج جندي دمشق والأردن، وكلفه مساحة الأراضي وتعديلها^(١)، ويبدو أن هذا التعديل ألحق كثيراً من الظلم بالفلاحين، وفرض عليهم زيادة في الضرائب، لذلك انتهزوا فرصة قدوم المتوكل دمشق في سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م، فعرضوا ظلامتهم عليه، فأناب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان للاجتماع بكتاب الدواوين، ومعهم ابن مدبر لتدارس الأمر، وفي نهاية الاجتماع نقل عبيد الله إلى المتوكل نتيجة الاجتماع، واقترح عليه إسقاط بعض الأبواب التي تظلم الناس منها، فوافق على ذلك، وعزل ابن مدبر عن خراج دمشق^(٢).

وعانى الفلاحون طرق الجباية، ونوعية الضرائب، ومواعيد جبايتها، فقد كانت الخلافة العباسية تقوم بجباية الخراج مالا مقررأ على أساس المساحة حتى عهد المهدي، فكتب إليه وزيره أبو عبيد الله معاوية بن يسار يعرفه الظلم الذي سيلحق أهل الخراج إن هم دفعوا الخراج مالا مقررأ من جراء تذبذب الأسعار، لذلك أمر المهدي بنقل الخراج إلى المقاسمة في الغلات^(٣).

لكن نظام الجباية مالا مقررأ استمر فيما بعد، فأبو يوسف في عهد الرشيد أوصى باستبداله بنظام المقاسمة، وأثنى على نظام المقاسمة، وعدّه حلاً لمشاكل الجباية، وبموجبه تتسلم الدولة نسبة عادلة ومعينة من المحصول، ولا يلحق أي غبن أو ظلم بأهل الخراج، قال: "فلم أجد أوفر على بيت

(١) يعقوبي، تاريخ يعقوبي، مج ٢، ص ٤٩٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥، ص ٣٩٠؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٤١.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٥، ص ١٩-٢٠؛ خزنة كاتبي، الخراج، ص ٢١٤-٢١٥.

(٣) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٧٩-١٨٠؛ علي، مختصر تاريخ العرب، ص ٣٦٥.

المال، ولا أغنى لأهل الخراج من التظالم فيما بينهم، وحمل بعضهم على بعض، ولا أعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة، فيها للسلطان رضا، ولأهل الخراج... راحة وفضل"^(١).

ويبدو أن مواعيد جباية الخراج كانت تلحق ضرراً كبيراً بالفلاحين، إذ كانت - في أحيان كثيرة - قبل موعد نضج المحاصيل وجنيها، ويعود ذلك للفرق بين السنتين الشمسية والهجالية، وبين السنتين الشمسية والفارسية، فالفرق بين السنتين الشمسية والهجالية يقدر أحد عشر يوماً وربع يوم، "فإذا مرت ثلاث وثلاثون سنة، كان الفرق بين التقويمين سنة هلالية كاملة، ووجب حذف سنة هلالية لئلا يؤخذ الخراج مرتين، وقد حصل هذا الكبس في خلافة المتوكل، إذ كانت سنة ٢٤١هـ هي السنة الثالثة والثلاثون، ولذا قرر المتوكل أخذ خراج واحد عن السنتين ٢٤١هـ، ٢٤٢هـ بنقل الأولى إلى الثانية، وصدر الأمر بذلك في محرم سنة ٢٤٣هـ"، كذلك فعل المعتضد عندما "نقل سنة ٢٧٨هـ إلى سنة ٢٧٩هـ، أي إلغاء السنة الأولى، واعتبار الخراج عن السنة الثانية تخفيفاً عن الزارع"^(٢).

أما الفرق بين السنة الشمسية والسنة الفارسية فيقدر بربع يوم، وقد كان ميعاد جباية الخراج يأتي مع رأس السنة الفارسية، وهو عيد النوروز، وهذا يعني أنه يتقدم باستمرار، ولا بد من التوفيق بإضافة يوم إلى السنة الفارسية كل أربع سنين أو شهر كل ١١٦ سنة، وجرت محاولات للإصلاح

(١) الخراج، ص ٤٩-٥٠.

(٢) الدوري، عبد العزيز، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٤، ١٩٩٩م، ص ٥٩-٦٠.

دون جدوى حتى عهد المتوكل؛ إذ لاحظ أن موعد جباية الخراج في نيسان، والزرع أخضر، فأمر بإصلاح الوضع ليتلاءم موعد جباية الخراج مع نضج الغلات، لذلك أّخر النوروز إلى ١٧ حزيران، وكان ذلك في سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م^(١)، غير أنه مع قتل المتوكل في سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م عاد موعد النوروز إلى ما كان عليه قبل إصلاحه، واستمر هكذا إلى عهد المعتضد الذي لاحظ تدمير الفلاحين من أمر الخراج، فأّخر النوروز من الحادي عشر في نيسان إلى الحادي عشر في حزيران سنة ٢٨٢هـ / ٨٩٥م، وكتب إلى جميع العمال في النواحي والأمصار يفرض عليهم التزام الموعد الجديد، وعرف ذلك بالنوروز المعتضدي^(٢).

إضافة إلى ما سبق عانى الفلاحون الآفات الزراعية التي كانت تتلف المحاصيل، ففي أواخر عهد المهدي ومطلع عهد الهادي أتلف الجراد الحنطة والشعير والبقول في الجزيرة، ثم اتجه صوب الغرب، فأّتى على كل الغلات والكروم والأشجار، فحدثت محنة شديدة، وبعد ثلاث سنوات على هذه الضربة، عمّ الغلاء الأرض جمعاء^(٣)، وتكرر ظهور الجراد في سنة ٣٤٢هـ / ٩٥٣م^(٤)، وغيرها من السنوات.

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٢١٨؛ البيروني، الآثار الباقية، ص٣٣-٣٤؛ الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٦٠.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج١٠، ص٣٩؛ البيروني، الآثار الباقية، ص٣٣، ٣٥؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج٢، ص٨١٧-٨١٨؛ الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص٦١.

(٣) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٣؛ السرياني، تاريخ ميخائيل السرياني، ج٢، ص٤٢٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٨، ص٥٠٥.

وكان من نتائج سوء أوضاع الفلاحين وترديها، أن أقدم كثير منهم على التخلي عن أراضيهم بإجرائها إلى بعض المتنفذين تعزراً بهم من ظلم الجباة، وزيادة الضرائب^(١)، ولعل أوضاع الفلاحين المتردية هي التي دفعت بعضهم إلى اعتناق الدعوات التي نادى بالعدالة والمساواة، كالدعوة القرمطية التي اعتنقها معظم أهالي القرى المجاورة لدمشق^(٢).

ومما هو جدير بالذكر أن بعض المصادر أوردت عدة مقادير لجباية جند دمشق في تواريخ مختلفة، وتفيد هذه المقادير في معرفة الواقع الاقتصادي في تلك الآونة، وأوضاع الفلاحين ومقدار ما عانوا من الحيف والظلم، وأول هذه المقادير أورده اليعقوبي، وهو يذكر خراج جند دمشق في عهد الرشيد، وقد بلغ سوى الضياع ثلاثمئة ألف دينار^(٣)، وأورد الجهشباري مقدراً آخر في عهد الرشيد أيضاً، وهو المقدار الذي عرض على يحيى بن خالد البرمكي، وقد بلغ أربعمئة وعشرين ألف دينار^(٤)، ويلحظ ارتفاع هذا المقدار عن الذي ذكره اليعقوبي، وفي هذا ما يشير إلى استقرار الأوضاع السياسية، وقد يكون ناتجاً عن إرهاب الأهالي بالضرائب الباهظة.

وبلغ خراج جند دمشق في عهد المأمون سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩-٨٢٠م، مئة وعشرة آلاف دينار^(٥)، وهذا يعني أنه انخفض بشكل كبير عما كان عليه

- (١) متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١٥٤.
- (٢) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٣٧٢؛ ابن سنان وابن العديم، تاريخ أخبار القرامطة، ص ٢٧.
- (٣) البلدان، ص ٨٨.
- (٤) الوزراء والكتاب، ص ٢٨٧؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، مج ١، (تحقيق: صلاح الدين المنجد)، ص ٢٣٩.
- (٥) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ١٧٨.

في عهد الرشيد، ويعود ذلك إلى الاضطرابات في دمشق في إثر الصراع بين الأمين والمأمون وقيام ثورة أبي العميطر، وأورد ابن خلدون مقداراً آخر للجباية في عهد المأمون أيضاً، بلغ أربعمئة وعشرين ألف دينار^(١)، ومن المحتمل أنه كان بعد أن استقرت الأوضاع في جند دمشق، وبذلك يكون قد عاد إلى ما كان عليه في عهد الرشيد، لكن خراج جند دمشق ما لبث أن تراجع في عهد المعتصم إلى مئة وعشرة آلاف دينار^(٢)، ويعود ذلك إلى قيام الثورات في الشام.

وذكر ابن خُرْداذبَه مقدار خراج جند دمشق في أواسط القرن الثالث الهجري، فكان أربعمئة ألف دينار ونيف^(٣)، وبذلك يكون قد عاد إلى ما كان عليه في عهد المأمون مما يشير إلى استقرار الأوضاع أو إلى إرهاق الأهالي بالضرائب.

وفي قائمة الوزير علي بن عيسى أيام المقتدر سنة ٣٠٦هـ / ٩١٨ - ٩١٩م، وهي تختلف عن مقادير الجباية السابقة إذ ذكر أمام الرقم الأول مال، ولم يُذكر شيء أمام الرقم الثاني، وقد يكون ذلك دلالة على جباية

-
- (١) مقدمة ابن خلدون، ص ١٨٠.
 - (٢) قدامة بن جعفر، نبد من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، وضع مقدمته وحواشيه وفهارسه: محمد مخزوم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ٧٠؛ بيطار، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، ص ٣٢٣؛ حسن، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٢٣٧.
 - (٣) المسالك والممالك، ص ١١٣.

عينية، وفيها بلغ خراج جند دمشق مقدراً بالدنانير ١١٣٠٥٧ مال و٣١٥٣٠٠ = ٤٢٨٣٥٧^(١).

وبلغ خراج جند دمشق في النصف الأول من القرن الرابع الهجري أربعمئة ألف دينار ونيف^(٢).

ومن خلال قراءة مقادير جباية جند دمشق من سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م إلى سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م يتبين ما يلي:

- إن خراج جند دمشق تراوح بشكل عام بين أربعمئة ألف دينار وأربعمئة وعشرين ألفاً، ولم ينخفض عن هذا المستوى إلا في أوقات الاضطرابات والثورات كما في عهدي المأمون والمعتصم.

- إن ثبات مقدار جباية جند دمشق رغم سوء الأحوال فيه، وإهمال العباسيين له، إنما يدل على إرهاب الولاة وعمال الخراج للفلاحين والأهالي بالضرائب دون مراعاة لأحوالهم الاقتصادية.

وتجدر الإشارة إلى أن سكان الأرياف باستثناء أهالي الأجزاء الملاصقة للمدن الكبرى، كانوا يعيشون حالة من الاكتفاء الذاتي المتضائل معتمدين في مآكلهم ومشربهم وملبسهم على منتجات المنطقة التي يعيشون فيها^(٣)، بيد أن

(١) زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٢، ص ١١١؛ بيطار، أمانة، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام بين سنتي ١٣٢-٣٥٩ هـ، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد الثالث، ١٩٨٠م، ص ١٢٩.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٣.

(٣) ميكيل، أندريه، الإسلام وحضارته، ترجمة: زينب عبد العزيز، صيدا - بيروت، المكتبة العصرية، (د.ت)، ص ١٩٣.

سكان الأرياف كانوا ينقسمون إلى فلاحين مستقرين في الأراضي، وفلاحين وعمال زراعيين متنقلين حسب ظروف الفلاحة ومواسم الزرع، كما وجد في الأرياف صناعات للضروريات الأولية كالحدادة والنجارة^(١).

وكان من عادة بعض الفلاحين أن يقوم بجمع الحطب ونقله إلى المدن لبيعه إلى أصحاب الأفران^(٢)، كما اعتاد بعضهم أن يفتد إلى المدن لاستئجار المطبلين والمزمرين ولاعبي السيوف والعصيّ للاحتفال بالأعراس^(٣)؛ ويبدو أن بعض الفلاحين كانوا حريصين على تحسين إنتاجية محاصيلهم، والحصول على إنتاج أفضل من الأرض.

٣- سكان البادية:

أولاً- دور البدو:

تتميز الشام بخصوبة تربتها، ووفرة مياهها ومراعيها، وموقعها الإستراتيجي على طرق التجارة العالمية، ولذلك فقد اجتذبت القبائل العربية منذ القديم التي كانت تشد الرحال بالتوجه إليها، والاستقرار فيها، وشكلت هذه القبائل عدة إمارات فيها، ففي فترة ما قبل الميلاد شكل العرب القادمون من شمال شبه الجزيرة العربية مملكة لهم في لبنان الداخلي، وعرفوا باسم الأيتوريين، واتخذوا مدينة عنجر عاصمة لهم، ومدّوا نفوذهم

(١) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٦٨ - ٦٩.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦١٠.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١١، ص ٤٣٤.

إلى سواحل لبنان، إذ وصلوا إلى جبيل وبيروت^(١)، وفيها بعد شكلت القبائل القادمة من جنوب الجزيرة العربية إمارة لها في منطقة الصفا جنوب دمشق، وشكل الأنباط إمارة لهم في إقليم حوران، وفي القرن الرابع الميلادي شكل الغساسنة دولة في جنوب دمشق^(٢).

انتشر العرب في بلاد الشام مع قدوم جيوش التحرير العربية الإسلامية، وشكلت هذه الجيوش نواة القبائل التي استقرت فيها، فالرواية التي ذكرها ابن عساكر حول معركة اليرموك تبين أن معظم القبائل التي اشتركت فيها يمانية، وهي التي شغلت الدور الأكبر في فتوح الشام، إذ ذكر أن الأزدي كانوا ثلث الناس، وأن الجيش ضم أيضاً قبائل حمير وهمدان ومدحج وخولان وختعم وكنانة وقضاة ولخم وجذام وكندة وحضرموت^(٣)؛ وتفرقت القبائل الوافدة في حواضر المدن، ونزلت الساحات الفارغة، والمنازل التي جلا عنها أهلها ولا سيما في دمشق، وصيدا وبيروت وعرة وجبيل^(٤) وغيرها.

ويبدو أن منازل القبائل القادمة إلى دمشق قد تركزت - في معظمها - خارج سور المدينة، وفي الغوطة، ويعود ذلك لضيق دور المدينة، وعدم

(١) ديسو، رينيه، العرب في سورية قبل الإسلام، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ١٠-١٤؛ زيادة، التطور الإداري لبلاد الشام، ص ٩٩.

(٢) ديسو، العرب في سورية، ص ٧-١٠.

(٣) تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ١٤٨.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٧-١٤٨، ١٥١.

قدرتها على استيعاب الجماعات المهاجرة لكثرتها، كما أن هذه الجماعات وجدت في تركها خارج المدينة منفراً لها ولمواشيها^(١).

وحملت هذه القبائل إلى مناطق استقرارها الجديدة خلافاتها التقليدية على أساس العصبية القبلية، واستمر في العصر الأموي تدفق القبائل العربية إلى الشام، وكان يشدُّها إضافة إلى حسن البلد وموقعه الإستراتيجي، القرب من مركز الدولة الأموية، والغنى الذي تدفق على الشام من الفتوح، مما أدى إلى تزاخم القبائل على سكن الأراضي الخصبة وامتلاكها^(٢).

كان سكان جند دمشق خليطاً من القبائل اليمانية والقيسية، وكانت تتوزع على الشكل الآتي:

- كانت القبائل اليمانية تنتشر في: دمشق - وكانت هي الغالبة عليها -
- والغوطة، والسويداء، والبثينة، وكورة جبال، ومآب، وزغر،
والجولان، وجبل سنير، وبعلبك، وجبل الجليل، وصيدا، أما
القبائل القيسية، فكانت تتوزع إلى جانب اليمانية في بعض المناطق،
كما في: دمشق والغوطة، والبثينة، وجبال، ومآب، وزغر، والجولان
وصيدا، أو في مناطق مستقلة خاصة بها مثل: بصرى، والظاهر،
والغور والشراة، وعرة^(٣).

(١) المنجد، صلاح الدين، منازل القبائل العربية حول دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، مج ٣٠، ج ١، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م، ص ٦٤.

(٢) مصطفى، جنوب بلاد الشام، ص ٦.

(٣) اليعقوبي، البلدان، ص ٨٧ - ٨٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٤ - ٧١؛ عطوان، الجغرافية التاريخية لبلاد الشام، ص ١١٠ - ١١١.

- كانت أكثر القبائل في بادية الشام يمانية ومنها: فزارة، ولخم، وجذام، وبلي^(١)، وکلب التي كانت تحفر الطريق على البر بالسماوة فيما بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وغيرها^(٢)، وإلى جانب اليمانية كان فيها قبائل من مضر وربيعة^(٣).

- كانت القبائل اليمانية في غوطة دمشق أجمع داراً من القيسية، وكانت أهل الثروة والعدد والعز، فأكثر من ثلاثين قرية من قرى الغوطة لليمانية، بينما كانت قرى القيسية قليلة ومتناثرة^(٤)، وقد وصف أبو العميتر القبائل القيسية في الغوطة - لما كتب إلى محمد بن صالح بن بيهس يدعو إلى مبايعته - بالرش المنثور^(٥).

- ذكر بيانكي (Bianquis) أن غوطة دمشق كان فيها مركزان (عاصمتان): مركز للقبائل اليمانية هو داريا، ومركز للقبائل القيسية هو دوما، وعد ذلك دليلاً يفسر التسمية الإدارية التي ترد في بعض المصادر باسم الغوطتين^(٦).

(١) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٢٦.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، ص ٩٥؛ الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت بعد ٣٤٤هـ/٩٥٥م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوغ، مركز

الدراسات والبحوث اليمني، ط ٣، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٣) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٢٦.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٤ - ٨٣؛ المنجد، منازل القبائل العربية حول دمشق، مج ٣٠، ج ١، ص ٧٠.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٢٥٨.

(٦) Damas, p. 14.

كانت القبائل اليمانية القادمة من جنوب شبه الجزيرة العربية أكثر تحضراً من القبائل القيسية القادمة من شأها ووسطها، ولديها بعض الخبرة والمعرفة بحياة المدن، مما جعلها أكثر قدرة على التواءم بسهولة ويسر مع ضرورات الحياة المدنية في البلاد المفتوحة، وجعلها من أنصار التمدن، فشغلت الدور القيادي في تطور حياة المدينة العربية، ورغم انبهار العرب الفاتحين بالحياة المتحضرة في المدن، إلا أنهم ظلوا يتوقون إلى حياة الحرية في السهوب والصحارى، وضاقوا ذرعاً بحياة المدينة وانغلاقها، لذلك ألحوا على اتخاذ مراع يستطيعون الذهاب إليها في الربيع مع خيولهم وقطعان غنمهم، وفضل الأمراء منهم العيش في الريف على تحوم الصحراء، فبنوا لأنفسهم القصور فيها وسّموها البوادي، أو استقروا في القلاع الرومانية^(١).

وكانت القبائل العربية التي تصل إلى الشام تبحث عن موطن الكلاء والماء التي سبقتها إليها قبائل أُخر، فتحاصر هذه القبائل، وتزيجها، وتحل محلها، فتضطر القبائل المضطهدة للاندماج في الحياة الريفية وممارسة الأعمال الزراعية^(٢)، وفي هذا ما يؤكد عروبة أهل الشام الذين انحدروا بأجمعهم من القبائل العربية^(٣).

كانت قبائل بلاد الشام مادة الخلافة وجندها في العصر الأموي، ولها الكلمة الفصل في معظم القضايا، وقد توزعت السيادة فيها بين قبيلتين: كلب في

(١) آشور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٢٧-٢٨.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٠٥؛

(٣) Sourdel, d, etj, La civilisation de L' Islam classique, Paris, 1983, p. 250.

(٣) زعرور، الحياة الاجتماعية، ص ٢٢٠.

الجنوب، وكلاب في الشمال، وقد اتبع الخلفاء الأمويون سياسة متأرجحة تجاه العصبية القبلية، فمال بعضهم إلى اليمانية، بينما انحاز بعضهم الآخر إلى القيسية، مما أدى إلى نشوب الحزبات والصراع بينهما، وغالباً ما كان الصراع يقوم لأسباب اقتصادية أو سياسية أو للخلاف في النسب، وزاد هذا الصراع الاختلاف في البنية الاجتماعية، فقد كانت اليمانية أقدم المهاجرين إلى المنطقة، وأكثر ميلاً إلى الاستقرار، بينما ظلت القيسية محافظة على البداوة حتى عصور متأخرة^(١).

وقد وصل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إلى الحكم بدعم من القيسية، فتعصب لها، لذلك انحرفت القبائل اليمانية عنه، فثارت عليه في حمص ودمشق وفلسطين...، ورفضت الانضمام إلى جيشه الذاهب لمحاربة الخوارج في العراق، وقادت حرباً ضارية لإسقاطه، وبذلك تكون شغلت دوراً كبيراً في إسقاط الخلافة الأموية^(٢)، ولم يقتصر أثر الصراع اليماني القيسي على ذلك، بل إنه كان من العوامل التي ساعدت العباسيين على دخول دمشق، فأثناء الحصار العباسي لها، راسلت القبائل اليمانية عبد الله بن علي، ووعدته بفتح الباب الشرقي شريطة أن ينتقم من أعدائها القيسيين^(٣).

(١) حول دور قبائل الشام في العصر الأموي، انظر: عيسى، رياض، الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية، دمشق، ط ١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص ٢٥١-٢٩٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٥، ص ٣٢٨-٣٣٣؛ بيضون، الشام والدعوة العباسية، ص ٣٤-٣٧.

(٣) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٧، ص ٦٥٤؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٤٤٠؛ ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٧، ص ٤٢٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٣٧.

تغيّر وضع قبائل الشام مع وصول العباسيين إلى الحكم، لأنهم اعتمدوا على العناصر غير العربية (الفرس والترك)، وأقصوا العرب شيئاً فشيئاً عن الجيش والدواوين، فسقطت قيادات العرب ورياستهم، حتى صار معظم الجيش العباسي في عهد المأمون من غير العرب، لذلك لما قدم المأمون دمشق كانوا يستعطفونه بأن ينظر إلى عرب الشام كما نظر إلى عجم خراسان، إلا أنه رفض واحتج بسخط العرب ومناواتهم له^(١)، ولما بويع المعتصم بالخلافة سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م كتب إلى عماله في الأمصار أن يسقطوا العرب من الدواوين، وأن يقطعوا العطاء عنهم^(٢)، فانقطعت أواصر الصلة بين السلطة والقبائل العربية، وشعرت هذه القبائل أن امتيازاتها قد زالت، ما دفعها للقيام بالثورات ضد الحكم العباسي^(٣).

ومما تجدر الإشارة إليه أن قبائل الشام شغلت دوراً كبيراً في الأحداث التي شهدتها جند دمشق منذ مطلع العصر العباسي، فكثيراً ما كانت تقوم نزاعات قبلية بين القيسية واليمانية، ولم تقتصر هذه النزاعات على سكان البادية، بل امتدت لتشمل سكان الأرياف والمدن، ويظهر أن هذه النزاعات قد مثلت في أحيان كثيرة محاولات من قبل بعض قبائل الشام لاسترداد

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ٤٣٢ - ٤٣٣؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٨، ص ٣٤.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٧٦، ٣٥٤.

(٣) أبرز الثورات التي قامت رداً على انحياز العباسيين للعناصر غير العربية، الثورة التي قام بها نصر بن شبث العقيلي في منطقة الجزيرة رداً على مقتل الأمين؛ حول هذه الثورة، انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٥٩٨ - ٦٠٠.

مكاتها أو لدفع بعض الغبن والإهمال اللذين لحقا بها بسبب سياسة العباسيين المنحرفة عن العرب.

وتقدم الحديث عن هذه النزاعات القبلية، وفيما يلي تذكير ببعضها، ففي سنة ١٧٦هـ / ٧٩٢م حدث نزاع بين القيسية واليمانية في جند دمشق امتد إلى جندي الأردن وحمص، وتطور إلى ثورة ضد الخلافة العباسية، إذ تمكن أبو الهيثم المري قائد القوات القيسية من السيطرة على دمشق، وطرد إليها، وإخراج من في السجون، وإحراق قرى القبائل اليمانية في الغوطة، وتكرر حدوث نزاعات قبلية في سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦م، و١٨٧هـ / ٨٠٢م.

وفي سنة ١٩٥هـ / ٨١٠م أيدت القبائل اليمانية أبا العميصر علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية في ثورته، فلاحق أبو العميصر القبائل القيسية التي تصدت له بقيادة زعيمها محمد بن صالح بن بيهس الذي قضى على ثورة أبي العميصر، وفرض سيطرته على دمشق حتى قدوم عبد الله بن طاهر سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥م.

وأيدت القبائل اليمانية بعد ثورة أبي العميصر ثورة الفديني الذي خرج في البلقاء، فتصدت له القبائل القيسية بقيادة محمد بن صالح بن بيهس الذي أرسل جيشاً، هزم الفديني، وقضى على ثورته^(١).

وثارت في سنة ٢٢٤هـ / ٨٣٨م القبائل القيسية في دمشق ضد الوالي أبي المغيث الرافقي، وسبب ثورتها أن محمد بن أزهر بن زهرة أحد رجال السلطان كان قد أخذ خمسة عشر رجلاً وصلبهم، ولتهدئة هذه الثورة خرج الرافقي على

(١) عن النزاعات القبلية السابقة وآثارها، انظر: الفصل الأول - الوضع السياسي.

رأس جيش، إلا أن القبائل الثائرة هزمته، وحاصرته في دمشق، وبقي محاصراً فيها إلى ما بعد وفاة المعتصم سنة ٢٢٧هـ / ٨٤١م، وقد أيدت القبائل اليمانية القيسية في ثورتها هذه^(١)، وفي هذا ما يشير إلى أن ظلم الوالي قد أصابها.

وعندما خرج أبو حرب المبرقع اليماني في أواخر عهد المعتصم في فلسطين والأردن، أيدته القبائل اليمانية، وانضم إليه أتباع كثير، واستجاب له ابن بيهس ورجلان آخران من أهل دمشق، كما تبعه كثير من القيسية من أهلها^(٢).

غابت القبائل الشامية منذ عهد المعتصم عن مسرح الأحداث السياسية في جند دمشق، واستمر غيابها هذا نحو عقدين من الزمن، وعادت للظهور بعد مقتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م، إذ إن الصراع بين الأتراك على المناصب في حاضرة الخلافة أعطى قبائل الشام الفرصة لمحاولة استرداد مكانتها السياسية، وقد قاد هذه المحاولة قبيلة بني شيبان^(٣)، فأحد أفرادها وهو أحمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني تولى دمشق في أيام الخليفة

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ٥٢٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٠٣ - ٣٠٤؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٢٩؛ كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ١٦٤.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ١١٦ - ١١٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٨، ص ٩٤؛ ج ٦٦، ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٣) شيبان بن ثعلبة: بطن من بكر بن وائل من العدنانية، وهم: بنو شيبان بن ثعلبة... وكانت لهم كثرة في صدر الإسلام، وسيدهم في الجاهلية مرة بن ذهل بن شيبان؛ كحالة، معجم قبائل العرب، ج ٢، ص ٦٢٢.

المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥هـ / ٨٦٦ - ٨٦٨م)^(١)، ثم برز في زعامتها عيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني الذي ولي الرملة في سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م^(٢)، فاستغل الاضطرابات، والتنافس على المناصب في حاضرة الخلافة، فمدّ سيطرته إلى فلسطين والأردن ودمشق في سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م، وبدأ يتطلع للسيطرة على مصر والشام بأسرها، غير أن محاولة ابن الشيخ أخفقت مع قدوم جيش من حاضرة الخلافة بقيادة أماجور الذي هزم ابن الشيخ، واستعاد السيطرة على المناطق التي كان يسيطر عليها^(٣).

ولم يشهد جند دمشق في عهد أماجور (٢٥٦ - ٢٦٤هـ / ٨٦٩ - ٨٧٧م) أية نزاعات قبلية أو تحركات بدوية، ويعود ذلك إلى سياسة أماجور القائمة على الشدة والحزم، وفرض الهدوء والاستقرار، ومراقبة الأعراب، وضبط تحركاتهم، فعندما قام أحد الأعراب في أذرعات بتنف خصلتي شعر من سبال أحد الجنود، أرسل من راقب تحركات الأعرابي، حتى تمكن من إلقاء القبض عليه، فعاقبه عقاباً شديداً^(٤).

- (١) الصفدي، أمراء دمشق، ص ٢٥.
- (٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ١٧٦؛ ابن شداد، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ١٢٤.
- (٣) البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٥٠ - ٥٢؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٥٠٧؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢١٨ - ٢١٩؛ الكندي، كتاب ولاة مصر، ص ١٦٨ - ١٦٩؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٧، ص ٣١٢.
- (٤) ابن عساكر، م. ن، ج ٩، ص ٢١٩ - ٢٢٠؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٣، ص ١٠١ - ١٠٢.

ومما هو جدير بالذكر أن ضغط البدو ازداد منذ أواسط القرن الثالث الهجري، إذ بدأت تزحف موجات بدوية واسعة النطاق من أنحاء شبه الجزيرة العربية باتجاه المناطق الحضرية في الشام والجزيرة والعراق، وزحف البدو هذا مرتبط بالجفاف في البادية، فكانت القبائل المهتدة بالمجاعة تضطر للتوجه نحو المناطق الزراعية، ومرتبطة بتزايد المجتمع البدوي بشكل مطرد في مناطق الصحارى والبوادي ذات الموارد الاقتصادية الضئيلة مما يؤدي إلى صراع بين القبائل، فتضطر الضعيفة منها للتوجه نحو المناطق الزراعية^(١)، ولعل الوضع السياسي وضعف السلطة العباسية، كان من أبرز العوامل التي أدت إلى ازدياد ضغط البدو، وقيامهم بالهجوم على المناطق الحضرية، وهذا يعود إلى طبيعة البدو التي تقوم على استغلال الأوضاع المضطربة لتنفيذ هجماتهم على المناطق الحضرية، وتحقيق أهدافهم في الغزو والنهب والسلب، ففي سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٢م تسربت جموع بدوية قيسية من عرب الحجاز إلى حوران، فبلغ خبرها أحمد بن طولون، وهو بدمشق، فأرسل جيشاً يتألف من خمسين ألف مقاتل إلى منطقة أذرععات للتصدي لهم، فتلقاهم عامر بن قيس بن محمد بن شهاب بخمسة عشر ألف مقاتل، وهزمهم وكسرهم، وتوطن أذرععات، وبنى مساكن فيها، فعرف بالأذرععي^(٢).

واستغل الأعراب الاضطرابات والفوضى الناجمة عن الصراع العباسي الطولوني، وهاجموا قوافل الحجاج المارين من الشام إلى مكة، فتوقف طريق الحج ثلاث سنوات من ٢٦٩هـ / ٨٨٢م إلى أن فتحه سعد الأيسر سنة

(١) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٣٠.

(٢) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٤٣؛ كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ١٧٦.

٢٧٢هـ / ٨٨٥م، وأدب الأعراب، فتعلق الناس به، ونقموا على خمارويه عندما قتله، ولم تهدأ الاضطرابات حتى قدم خمارويه إلى دمشق، وتقرب إلى أهلها وعلماؤها بالعطايا، وبعث من فتح طريق الحج وأمنه^(١).

وتغلبت الأعراب في سنة ٢٧٣هـ / ٨٨٦م على بعض نواحي دمشق، فوجه خمارويه جيشاً بقيادة طبارجي الذي تصدى لهم، وقتل مقتلة كبيرة منهم، فانتقم الأعراب منه وقتلوه^(٢).

وفي العقد التاسع من القرن الثالث الهجري ازداد التسرب البدوي في إثر الهجمات القرمطية^(٣)، فقد اعتمد القرامطة لما نقلوا نشاطهم إلى الشام على العناصر البدوية التي شكلت مادة القرامطة وجندهم، فمعظم أتباعهم في حملاتهم التي قاموا بها بقيادة آل زكرويه كانوا من بني العليص، وهم فخذ من قبيلة كلب التي كانت تحفر الطريق على البر بالسماوة فيما بين الكوفة ودمشق، ومن بني الأصبغ^(٤).

وفي المدة العباسية الثانية (٢٩٢ - ٣٢٣هـ / ٩٠٤ - ٩٣٤م) ازداد ضغط البدو، وكثر تعرضهم للحجاج، وقطعهم طريق الحج، ففي سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٠، ص ٤٠٧؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب،

ص ٢٦٠ - ٢٦١؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦، ص ١١٥.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٤، ص ٤٥٩؛ الصفدي، أمراء دمشق، ص ٦٦؛ تحفة ذوي الألباب، ص ٢٦٢.

(٣) عن الهجمات القرمطية، انظر: الفصل الأول - الوضع السياسي.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠، ص ٩٥ - ٩٦؛ القرطبي، صلة تاريخ الطبري، (ج ١١،

من تاريخ الطبري)، ص ١٩؛ ابن سنان وابن العديم، تاريخ أخبار القرامطة، ص ١٨ - ٢٧.

هاجمت جماعة من الأعراب الحجاج، واعتدت عليهم بمنطقة الأَجْفَر^(١)، فتصدى لهم أبو حامد ورقاء بن محمد وهزمهم، وقتل جماعة منهم، وأسر الباقين، وحملهم إلى بغداد، فثار العامة فيها، وقتلوه^(٢).

وهاجم أعراب من لَحْم وِجْدَام^(٣) في سنة ٣٠٦هـ / ٩١٨م رَكَبَ الحجاج المارين بالشام، فتصدى لهم محمد بن طُغْج الذي كان يلي عَمَّان وجبال الشراة من قبل تَكِين والي دمشق، وكان بين الحجاج جماعة من وجوه أهل العراق وجارية لأَم الخليفة المقتدر، مما رفع في شأن محمد بن طُغْج، فزاد الخليفة في رزقه، وأرسل له خلعةً، كما شكره تَكِين^(٤).

ومما هو جدير بالذكر أن ازدياد نشاط قرامطة البحرين في النصف الأول من القرن الرابع الهجري أدى إلى اندفاع كميات هائلة من القبائل نحو الشام والعراق، حملت معها قبائل من طيئ^(٥) إلى جنوب بلاد الشام،

-
- (١) الأَجْفَر: موضع بين فَيْد والحَزِيمية، بينه وبين فَيْد ستة وثلاثون فرسخاً نحو مكة؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار صادر)، مج ١، ص ١٠٢.
- (٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٩٥؛ زيود، العلاقات بين الشام ومصر، ص ٢١٤.
- (٣) لَحْم وِجْدَام: من القبائل القحطانية، ينتهي نسبها إلى زيد بن كهلان؛ كحالة، معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٧٤؛ ج ٣، ص ١٠١١.
- (٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٥٧ - ٥٨؛ ابن سعيد، المغرب في حُلَى المغرب، ج ١، ص ١٥٣.
- (٥) طيئ بن أدد: قبيلة عظيمة من كهلان، من القحطانية؛ كحالة، معجم قبائل العرب، ج ٢، ص ٦٨٩.

وقبائل عامر بن صعصعة^(١) من بني قشير وعقيل وكلاب ونمير إلى شمال بلاد الشام، وكانت القبائل الوافدة هذه تهجم على المناطق المتحضرة وتدمرها، وتجبر أهلها على الأخذ بالحياة الريفية^(٢)؛ هذا وقد قامت قبائل عامر بن صعصعة بثورة ضد سيف الدولة الحمداني في سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م، فواقعهم سيف الدولة عدة وقعات في تدمر، فانهزموا وتفرقوا، فقصدت طائفة منهم القلمون مما يلي غوطة دمشق^(٣)

وازداد ضغط البدو في العصر الإخشيدي (٣٢٣ - ٣٥٩هـ / ٩٣٤ - ٩٦٩م)، وكثر اعتداؤهم على طريق الحج، وطرق التجارة، لذلك اصطنع الإخشيد بعض أمراء البدو من بني عقيل^(٤)، فوطنهم في منطقة أذرعان للدفاع عن طبرية والبثينة والبلقاء، ولضمان أمن الطريق المهتد دوماً من الأعراب، ولرد اعتداءات بني سليم المنتشرين في جبال الشراة حتى أواسط الحجاز، وقد وصل بعض شيوخ بني عقيل إلى حكم بعض المدن كدمشق وطبرية وغيرهما^(٥).

(١) عامر بن صعصعة: بطن من هوازن من قيس بن عيلان، وهم بنو عامر بن صعصعة...، وينقسمون إلى أربعة أفخاذ هي: نمير، ربيعة، هلال، سوأة؛ كحالة، معجم قبائل العرب، ج٢، ص ٧٠٨.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٠٥؛ زكار، القرامطة، ص ١٥٤.

(٣) كانار، نخب تاريخية وأدبية، ص ٢٣١.

(٤) بنو عقيل بن كعب بن ربيعة: بطن من عامر بن صعصعة، من قيس عيلان، من العدنانية؛ كحالة، معجم قبائل العرب، ج٢، ص ٨٠١.

(٥) المقرئزي، إتحاظ الحنفا، ج١، ص ١٩٢ - ١٩٣؛ مصطفى، جنوب بلاد الشام، ص ٣، ٥٧.

لكن بني عقيل تحولوا مع ضعف الدولة الإخشيدية في أواخر عصرها إلى عامل اضطراب وفوضى، وقاموا بحركات متعددة، ففي سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م قام مهلهل العقيلي بحركة في منطقة طبرية، فتصدى له والي دمشق شعلة بن بدر، وجرت صدامات متعددة بينهما، أظهر خلالها شعلة شجاعة كبيرة حتى قتل أثناء ذلك في سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م^(١).

وثار في سنة ٣٤٨هـ/ ٩٥٩م شبيب العقيلي، وكان يلي عمّان والبلقاء من قبل كافور الإخشيدي، ولما علت منزلته، واشتدت شوكته، أعلن العصيان، وجمع الأعراب، وتحرك بقوات تقدر بعشرة آلاف مقاتل للسيطرة على دمشق، فدافعه سكانها مع القوات الإخشيدية الموجودة فيها، وأغلقوا الأبواب دونه، فقتل على أحد الأبواب، وانهمز أتباعه^(٢).

ولم يكن بنو عقيل الوحيدين الذين قاموا بتحركات بدوية واعتداءات مع ضعف الدولة الإخشيدية، بل كان هناك بنو سليم^(٣) الذين قاموا بعدة حركات واعتداءات، ومنها:

- (١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٦، ص ١٥٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٣٥٧.
- (٢) الهمداني، تكملة تاريخ الطبري، ج ١، ص ١٧٦؛ وعن حركة شبيب العقيلي، قال المتنبّي:
بِرُّغَمِ أَنْ شَيْبَ فَارِقَ السَّيْفُ كَفَّهُ وَكَانَا عَلَى الْعَلَّاتِ يَصْطَحْبَانِ
كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لِسَيْفِهِ رَفِيقُكَ قَيْسِيٌّ وَأَنْتَ يَكْمَانِي
العكبري، عبد الله بن الحسين (ت، ٦١٩هـ/ ١٢١٩م)، شرح ديوان المتنبّي، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، بيروت، دار المعرفة، (د.ت)، ج ٤، ص ٢٤٣.
- (٣) سليم بن منصور: قبيلة عظيمة من قيس بن عيلان، من العدنانية؛ كحالة، معجم قبائل العرب، ج ٢، ص ٥٤٣.

- خروج محمد بن أحمد السلمي في سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م في برية الشراة، وانضمام كثير من الأعراب إليه، فلما بلغ خبره كافوراً، وكان في دمشق، جهز جيشاً وجهه نحو السلمي، وأمر أفراد هذا الجيش ألا يبتدئوا القتال، وأن يراقبوا السلمي، وأثناء ذلك قام أحد الأعراب من بني عقيل وهو ثمال الخفاجي بإلقاء القبض عليه وأسرته، ثم أرسله إلى مصر، وفيها شهّر به، واعتقل مدة من الزمن ثم أفرج عنه^(١).

- هجوم بني سليم في سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٥م على ركب الحجاج السائرين من مصر والشام، وقطعهم الطريق على القوافل الحاجة، وكانت تضم أعداداً كبيرة من أهل الشام والثغور الذين دفعهم ضغط الغزو البيزنطي إلى حمل أموالهم وأمتعتهم، والتوجه إلى مكة، قاصدين بعدها السير إلى العراق، فداهمتهم أعراب بني سليم، وسلبتهم أموالهم وأمتعتهم، وقتلت كثيراً منهم، وتشرد من نجا منهم في البرية^(٢).

وقد ازداد المد البدوي في أواخر العصر الإخشيدي في إثر قيام قرامطة البحرين بحملاتهم، فقد هاجموا طبرية في سنة ٣٥٣هـ / ٩٦٤م، وعمّان في سنة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م^(٣)، ودمشق في سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٧م^(٤)، ولم تنته حملات القرامطة مع نهاية العصر الإخشيدي، بل استمرت في مطلع العصر الفاطمي.

(١) الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص ١٠٢؛ كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٣٤٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٥٧٤.

(٣) بيطار، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، ص ٢٠٨؛ زيود، العلاقات

بين الشام ومصر، ص ٣٣٧.

(٤) ابن سنان وابن العديم، تاريخ أخبار القرامطة، ص ١٠٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة

دمشق، ج ١٣، ص ٦.

ثانياً - مظاهر الحياة الاجتماعية عند البدو:

من المعروف أن البدو كانوا وما زالوا يعيشون حياة بسيطة، ولم تتغير عاداتهم وتقاليدهم كثيراً، ومع أن المصادر المتوافرة لا تأتي إلا بالنزر اليسير عن حياة البدو الاجتماعية بشكل عام، يمكن القول إن بدو جند دمشق مثلهم مثل غيرهم من القبائل العربية، عاشوا حياة بسيطة تقوم على التنقل والترحال، معتمدين على منتجات حيواناتهم، ومن ثمَّ فإنَّ ما قيل عن البدو في مختلف المناطق، وفي أوقات مختلفة ينطبق على بدو جند دمشق.

كان البدو وما زالوا يعيشون في البوادي والصحارى التي تتصف بقساوة المناخ والجفاف وقلة الأمطار، وهم يعتمدون في حياتهم على تربية الأغنام والماعز والخيول والإبل، والسمة الأساسية لحياتهم التنقل من مكان إلى آخر طلباً للماء والكأ لتغذية حيواناتهم، وهذا ما أشار إليه الإدريسي عندما تحدث عن قبائل لحم وجذام وجهينة وبلي التي كانت تسكن بين أيلة وتبوك ووادي القرى، قال: "وبلادهم بلاد إبل وألبان وأسبان، وهم ينتجعون مراعي هذه الأرضين، ولهم كرم وبذل لما في أيديهم، وهم يسكنون بيوت الشعر، ويتقلون من موضع إلى موضع لا يقيمون بمكان، ولهم مصاييف ومرابع يدورون عليها، ويتقلون إليها مع الدهر، وهم مترددون إليها"^(١).

وفرضت حياة التنقل والترحال على البدو اختصار أثاثهم وإقلاله والاقتصار على ما هو ضروري ومهم لحياتهم من المساكن والملابس والأقوات^(٢)، فقد سكن البدو بيوتاً مصنوعة من شعر الماعز الأسود، ترفع سقوفها على أعمدة

(١) نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٥٣.

(٢) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ١٢٦.

خشبية رئيسية، وتسند جوانبها إلى أعمدة ثانوية، وتشد بالأطواب المربوطة إلى الشقق بوساطة أوتاد تثبت في الأرض أو بوساطة حجارة، وللأعمدة في البيت البدوي دلالة كبيرة، فكلما طالت وكثرت دلت على الرفعة والثروة، كما أن لها دوراً اجتماعياً، فإذا أجرم الرجل في البادية وطورد، دخل بيت أحد الشيوخ، وقبض على عموده سلم، وصار في حمي هذا البيت^(١).

وينصب البدو بيوتهم عادة في صفيين، وتكون خيامهم في خطوط متوازية تقريباً، وتكون مداخلها مواجهة للشمس عموماً إلا حين تهب الرياح قوية من الشرق^(٢)، وينقسم داخل البيت البدوي إلى قسمين: قسم للرجال يعرف الشقة أو الربعة، وقسم للنساء يعرف الخدر أو المحرم، ويفصل بين هذين القسمين حاجز من القصب أو أمتعة البيت، ويتألف أساس البيت البدوي من أكياس المون، والفرش، وأواني حفظ الماء المصنوعة من جلود المعزي، وأسرجة الخيل والإبل والحمير^(٣).

كانت البساطة وما زالت تغلب على ألبسة البدو، وهم يصنعونها غالباً من جلود الحيوانات وصوفها، ويلبسون غالباً كساء واحداً في الصيف والشتاء، وهم يفضلون الألبسة الفضفاضة ذات الأكمام الواسعة التي

(١) زكريا، أحمد وصفي، عشائر الشام، دمشق، دار الفكر، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ج ١، ص ١٩٦ - ١٩٩؛ جبور، جبرائيل، البدو والبادية، صور من حياة البدو في بادية الشام، أشرف على تحريره: سهيل جبرائيل جبور، بيروت، دار العلم للملايين، ط ١، ١٩٨٨م، ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) جبور، البدو والبادية، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٣) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٠٠ - ٢٠١؛ الصايغ، فتح الله (ت، بعد ١٨٤٧م)، رحلة فتح الله الصايغ الحلبي إلى بادية الشام وصحارى العراق والعجم والجزيرة العربية، تحقيق: يوسف شلحد، دمشق، دار طلاس، ١٩٩١م، ص ٦٩.

تساعد على حرية الحركة، وأفضل اللباس عندهم اللباس ذو اللون الأبيض، ومن أهم ألبسة الرجل عندهم: الكوفية التي يستعملها البدوي غطاء لرأسه لتقيه من الحر والبرد، كما يستخدمونها لمسح الأيدي والوجه وللمخاط، وهي بذلك ذات منافع كثيرة، لذلك قيل: "إن نصف كسوة البدوي كوفيته"^(١)، ومن ألبستهم أيضاً: العباءة، والفروة، والقنبار، والحزام لشد الوسط، ويمشي البدو حفاة أحياناً، وقد يلبسون أحذية جلدية أحياناً^(٢).

ولم يختلف لباس المرأة البدوية كثيراً عن لباس الرجل البدوي، ولكنها تلبس عادة عدة أردية بعضها فوق بعض، ومن ألبستها: الجلابيب، والعباءات، والفروات، والزُّنَّار لشد الخصر، والمناديل لتغطية الرأس، والحزمة أو الزربول حذاء الرجل^(٣).

واهتمت البدوية بجمالها، واستخدمت أساليب متعددة للتجميل والتزين، إذ عرفت الحناء لصبغ الأكف والأصابع والأظافر والأقدام، وعرفت الوشم وتكحيل العيون بالإنثمد، ولبست العقود والحلي الضخمة كالخلائل المصنوعة من الذهب أو الفضة^(٤).

اعتمد البدو في أطعمتهم على منتجات حيواناتهم الحليب واللبن والزبد، وعلى لحوم هذه الحيوانات، وما ينبت في البوادي من نباتات وشجيرات،

- (١) الصايغ، م.ن، ص ٤٤.
- (٢) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٠٣ - ٢٠٤؛ علي، مختصر تاريخ العرب، ص ٧٤؛ جبور، البدو والبادية، ص ٢٦٢ - ٢٦٨.
- (٣) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.
- (٤) زكريا، م.ن، ج ١، ص ٢٠٧.

وأطعمتهم بشكل عام بسيطة، وهي متشابهة تركيباً وطبخاً، ومنها: العصيدة والثلبانة والدفنية وغيرها^(١)، كما عرف عنهم جمع عظام الحيوانات الميتة وطبخها لاستخراج ما فيها من دهن، كما كانوا يقومون بجمع بعض النباتات الصحراوية أو ثمار بعض الشجيرات الصحراوية ليأكلوها أو يستخدموها في طعامهم، ومنها: الهبيد وهو حب الخنظل، والقطس وهو حب الآس، العنكث وهو نوع من الشجر، والذآين وهو نوع من النباتات^(٢)، وتحدث المقدسي عن أهل البادية وأكلهم فقال: إنهم يأكلون الفث - وهو نبات له حب أسود ينبت من نفسه في البادية - "فيجمعونه إلى الغدران ثم يبلونه بالماء فيتفتح عن ذلك الحب ثم يطحنونه ويتقوتون به، ويكثرون أكل لحم اليربوع والحيات"^(٣).

كانت أدوات الطعام عند البدو وما زالت قليلة، وهي عادة مصنوعة من النحاس أو الخشب أو الحجر، ومنها: المنسف لتقديم الطعام، القدر لطبخ الطعام، التنجرة لترويب اللبن، القدح لحلب الإبل وشرب الماء، والمجنا أو المشوط وهي ملعقة خشبية كبيرة^(٤)

- (١) ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم (ت، ٢٧٦هـ / ٨٨٩م)، عيون الأخبار، تحقيق: محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، مج ٣، ص ٢٢٥؛ زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.
- (٢) الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ٣، ص ٥٢٠ - ٥٢١، مادة "ضرية".
- (٣) أحسن التقاسيم، ص ٢٠٦.
- (٤) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ٢٢٤؛ لوبون، غوستاف، حضارة العرب، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط ٣، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م، ص ٣٤٦.

ويتناول البدو طعامهم "بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار"^(١)، وهم عادة يتناولونه بسرعة كبيرة جداً مهما كان ساخناً^(٢)، ولا يعرفون استخدام الملاعق، وإنما يأكلون بأيديهم على الموائد الجلدية المفروشة على الأرض، ولا يغسلون أيديهم بعد الانتهاء من الطعام، إنما يمسحونها بكوفياتهم التي تغطي رؤوسهم أو بشقق الخيم لندرة الماء الموجود في البادية، وللحفاظ على الموجود منه للشراب^(٣).

ورغم ذلك فإن أمراض البدو قليلة بالنسبة إلى سكان القرى والمدن لقلة تناولهم الأطعمة المركبة، وقلة همومهم، ولأنهم يعيشون في الصحارى والبوادي ذات الهواء النقي، وهم يعانون عادة ضعف البصر الناتج عن تعرضهم المستمر لأشعة الشمس الحارة وذرات الرمال التي تنقلها الرياح، لذلك فإن من يتمتع عندهم بحدة البصر ينال شهرة كبيرة^(٤).

كانت أوجه النشاط عند البدو وما زالت محافظة على جوهرها، فهم يحتقرون العمل في الزراعة والصناعة والتجارة، ويقتصرون في أعمالهم على الرعي والتنقل وسباق الخيل والصيد والسلب والنهب، فهم يقطعون الطريق على الغرباء المارين في البوادي، ويسلبونهم ما يملكون، ولم تسلم قوافل الحج من

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ١٢٦.
(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٤، ص ٩؛ ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، مج ٣، ص ٢٢٥.

(٣) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٢٦؛ الصايغ، رحلة فتح الله، ص ٤٤، ٦٨.

(٤) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢١٠-٢١١.

اعتداءاتهم، بل كثيراً ما كانوا يهاجمونها ويهتكون الحجاج يأخذون أباعرهم
وخزائنهم^(١)، ولعل أبلغ وصف معبر عن حياة البدو وأعمالهم قول المتنبي:

وصفتُ فيها مَصفِيفَ باديَةٍ شتوتُ بالصَّحْصَحانِ مَشْتاها
إنْ أَعْشَبَتْ رَوْضَةً رَعِيناها أو ذُكِرَتْ حِلَّةٌ غَزَوَناها
أو عَرَضَتْ عانَةً مُقَرَّعَةً صدنا بأخرى الجيادِ عَقْراها
أو عَبَرَتْ هَجْمَةً بنا تُرِكَتْ تكوسُ بين الشُّروبِ عَقْراها
والخَيْلُ مَطْرُودَةٌ وطارِدَةٌ تجرُّ طولَ القنا وقصرَها
يُعْجِبُها قَتْلُها الكُفاةُ ولا يُنْظِرُها الدَّهْرُ بَعْدَ قَتْلِها^(٢)

ومما هو جدير بالذكر أن البدو كانوا مهتمين اهتماماً كبيراً بالغزو
ومتابعة عملياته، ويعتقدون أن الحروب هي السبيل الوحيد إلى حل
الخلافت و حسم المشكلات، فكانوا يأخذون معهم الأولاد في غزواتهم
ليشهدوا ميدان القتال ويتعلموا فنونه، كذلك كانوا على عادة عرب الجاهلية
يأخذون النساء معهم إلى الحروب ليقمن أثناء القتال بتحريض أبناء
عشيرتهن وتشجيعهم على القتال^(٣).

ومن المعروف أن البدو اعتنقوا الإسلام مع قدوم رسالته^(٤)، ولم تتغير
عاداتهم الاجتماعية كثيراً منذ القديم حتى الآن، فهم يعيشون منعزلين في
البوادي فلا يختلطون بسكان المدن إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ومن عادتهم

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٠٦.

(٢) العكبري، شرح ديوان المتنبي، ج ٤، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٠٥؛ زكار، القرامطة، ص ١٥٤.

(٤) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٩٩.

إمضاء سهراتهم في بيت شيخ القبيلة، وفيها يتحدثون عن شؤون حياتهم المعيشية والخييل والإبل، وأخبار العشيرة وأوضاعها، وأحياناً يمضون السهرات في الحديث عن قصص الحب والزواج والمغامرات، وقد يمضونها في الاستماع إلى شاعر ينشد الشعر تمجيداً لمآثر القبيلة ومفاخرها وذكرياتها^(١).

ومن عاداتهم حسن استقبال الضيف وإكرامه، إذ يجلب عندهم معززاً مكرماً، فيقدمون له أفخر ما عندهم من طعام، وتكون حفواتهم بالضيف عند قدومه أكثر مما هي عند مغادرته كيلا يشعر الضيف أنهم ملؤوا وجوده وكرهوه^(٢).

وليس لدى البدو شريعة مكتوبة أو قانون يحكمون بموجبه، إنما القضاء عندهم يتبع الأعراف والتقاليد، وقياس القضايا القائمة على قضايا سابقة حُلت من قبل بشكل سلمي، ويقوم بالقضاء شيوخ العشائر ورؤساؤها، وهم يحكمون في القضايا التي تنشأ وسط العشيرة والقضايا التي تنشأ مع العشائر المجاورة، وقد لا يتولى الشيوخ القضاء بأنفسهم، بل يعينون نواباً عنهم مختصين بالقضاء البدوي، ويسمى هؤلاء النواب عوارف، وهم يحكمون وفق العرف والعادة والخبرة التي اكتسبوها من التعامل مع القضايا والوقائع السابقة المماثلة^(٣).

(١) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٤، ص ١٩٣٥-١٩٤٠؛

- Sourdel, La civilisation, p. 239-240.

(٢) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ١٣١، ٢٣٠-٢٣١.

(٣) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢٥٧؛ جبور، البدو والبادية، ص ٢٣٩-٢٤٠.

تدور الروابط والعلاقات الاجتماعية عند البدو منذ القديم حتى الآن حول رابطة وحدة الدم أو العصبية، ولم يعرف مجتمعهم أي شكل من أشكال التمييز، فجميع أفراد القبيلة متساوون في الحقوق والواجبات، ولكل قبيلة أو عشيرة شيخ يتولى الإدارة والقيادة فيها، وغالباً ما تكون المشيخة وراثية يرثها الابن عن الأب أو العم، ولكن يشترط في الشيخ أن يكون سديد الرأي، طليق اللسان، فارساً شجاعاً أثناء الحرب، وأن يكون كريماً مضيافاً، واسع الرزق والمال... إلخ، وللشيخ أثر كبير في القبيلة، فهو مرجعها في كل شأن في السراء والضراء، فهو الذي يحل الخلافات بين أفرادها، ويحدد زمان الرحيل ووجهته، ويحمي الضعفاء، ويحير المستجيرين، ويبارك عقود الزواج، ويعقد راية القبيلة معلناً الحرب وغير ذلك^(١).

وكانت الأسرة أساس التكوين الاجتماعي عند البدو، وهي تتألف من الأب والأم وفروعهما، وأصولهما المتقدمة في السن، والأب هو سيدها ورئيسها، وتنتقل الرئاسة عند وفاته إلى ابنه الأكبر، ويكون رئيس الأسرة عادة صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فيها، ويجب على جميع أفراد أسرته احترام أوامره وتنفيذها، وتختلف مكانة الأسرة وحقوقها داخل العشيرة حسب قوتها وغناها ونسبها وعدد المقاتلين الذي يمكن أن تسيرهم وقت الحرب^(٢).

أعطى المجتمع البدوي المرأة كثيراً من الحرية، فهي تتمتع بمكانة كبيرة، وتتجول في البراري وبين المخيمات بكل أمان وحرية، ولا يجوز أن تمس بأذى مهما بلغت الخصومة بين العشائر، وعرف عن المرأة البدوية تحمل

(١) جبور، م.ن، ص ٢٤١-٢٤٢؛ زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ١٨٥-١٩١.

(٢) زكريا، م.ن، ج ١، ص ١٧٤-١٧٥.

المشاق، ومشاركة الرجل في كل الأعمال التي يقوم بها، فعمل البدوي مقتصر على الغزوات والغارات والأعمال الخارجية في حين تتولى المرأة إدارة بيتها، وتقوم بأعمال كثيرة، فهي تبني الخيمة وتقوضها عند الانتقال من مكان إلى آخر، وتغزل الشعر والصوف، وتنسج الخيام والثياب وأكياس المؤن، وتجلب الماء من الغدران والعيون، وتطحن الحبوب، وتحضر الطعام، وتدبغ الجلود، وتقوم أحياناً برعاية الماشية والإبل، إضافة إلى ذلك كانت تشارك الرجال في الغزوات والحروب، وقد تقوم بالوساطة بين الفريقين المتحاربين.

كانت المرأة البدوية كثيراً ما تلد بمساعدة إحدى قريباتها أو جاراتها من النساء دون وجود قابلة أو داية، وقد تلد أحياناً دون وجود من يساعدها فتخدم نفسها بنفسها، وتقوم بكل ما يلزمها في مثل تلك الحالة^(١).

ومن المعروف أن للبدو تربية خاصة في إعداد أولادهم، وهي تقوم على تعليمهم بعض العادات الحسنة كاحترام الوالدين والشيوخ والكبار، وإكرام الضيوف، وتتولى المرأة البدوية تعليم بناتها شؤون المنزل كلها، وتُحَضِرُهُنَّ مجالس النساء ليتعلمن منها شؤون حياتهن ومجتمعهن حتى يصبحن ربات بيوت في المستقبل، أما الصبية فكانوا يترددون إلى مجالس الرجال ليأخذوا منها خبرة الحياة وشؤونها، وقد يكلفون بعض الأعمال مثل الاهتمام بالخيل وسقيها^(٢).

-
- (١) زكريا، عشائر الشام، ج١، ص٢٠٦ - ٢٠٨؛ جبور، البدو والبادية، ص٢٣٥ - ٢٣٦؛ لوبون، حضارة العرب، ص٣٤٥.
- (٢) زكريا، عشائر الشام، ج١، ص٢٠٩.

وكان البدو يرون في أولادهم الدرع الحصينة التي تشد من أزرهم، ويتقون بها هجمات العدو وتعدياته، لذلك كانوا يسمونهم بشر الأسماء بينما كانوا يسمون عبيدهم بأحسن الأسماء، وعندما سُئل بدوي عن سبب ذلك ردَّ قائلاً: "إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا، وعبيدنا لأنفسنا"، أي يعدّون الأبناء لمحاربة الأعداء، ويعدّون العبيد لخدمتهم^(١).

ويتم الزواج عند البدو وفق القاعدة الشرعية بإيجاب وقبول، ويتزوجون عادة في سن مبكر جداً، ويجذون زواج الأقارب^(٢)، ويختار البدوي - في الغالب - خطيبته من الفتيات اللواتي يلتقيهنَّ أثناء حياة التنقل والترحال، واختلاط الجنسين في الأعراس والحروب والأعمال اليومية، فإذا ما أعجبه فتاة أرسل رسلاً إلى وليها لاستشفاف رأيه، فإن أبدى قبوله ورضاه، ذهب الشاب البدوي مع وليه، وبعض أقاربه لخطبتها بشكل رسمي من وليها، ويتم أثناء الخطبة ذبح الذبائح وتحضير الطعام وتقديمه، وتحديد المهر وتقديم الهدية للخطيبة.

كان العرس البدوي وما زال يستمر عدة أيام يجتمع في مساء كل يوم أفراد قبيلة أو عشيرة العريس رجالاً ونساءً، ويدبكون ويغنون، وبعد عدة أيام تكون الأفراح خلالها عامرة، يتوجه أهل العريس في قافلة كبيرة إلى بيت العروس.

(١) القلقشندي، أحمد بن علي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم

الأيباري، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ٢١-٢٢.

(٢) زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ٢١٣.

كانت العروس تستحم وتتجمل وتلبس أفخر الثياب، ومع وصول قافلة أهل العريس إلى قبيلة أو عشيرة العروس تعم الأفراح غناء ودبكة، وتذبح الذبائح وتولم الولائم، وتفرش الموائد، وتستمر أجواء الفرح حتى الصباح، وفيه تتحرك قافلة العرس ومعها العروس إلى بيت أهل العريس.

كان العريس يستحم ويتزين ويلبس أفخر الثياب، ثم ينتظر عروسه في بيت أحد أصدقائه، ومع وصول قافلة العرس تنزل العروس خيمة مخصصة لها ولعريسها الذي لا يلبث أن ينضم إليها، ويقدم لها هدية في اليوم الأول، وفي اليوم الثاني يستقبل العريس وعروسه وفود المهنيين والمهنتات، وفي نهاية الأسبوع تقوم العروس بزيارة أهلها محملة بالهدايا^(١).

وكان من عادة العريس أن يهدي عروسه جملاً يحفظ لها حتى إذا ما عادت إلى أهلها كان لها، هذا وعرف البدو تعدد الزوجات، وعرفوا الطلاق، وهو من حق الرجل فقط، فالرجل إذا طلق زوجته يحق لها أن تأخذ معها كل ما تملك من ثياب وفرش، وتعود إلى أهلها، ومع وصولها إليهم تصبح طالقة^(٢).

ويلتزم البدوي مع تقدمه في السن بيته، ولا يخرج منه إلا عند الضرورة، إذ يحل محله ابنه الأكبر في كل الأعمال، وإذا ما توفي عمّ الحزن قبيلته، وتمزق النساء ثيابهن حزناً عليه، ويرفعن أصواتهن بالنواح والنحيب، ويضعن التراب على رؤوسهن، ومن علامات الحزن تنزيل أحد أطراف الخيمة، ويقوم كبراء العشيرة بتقديم التعازي لورثة الميت، ثم يُشيعهُ أبنائهُ،

(١) زكريا، م.ن، ج١، ص٢١٨-٢١٩؛ الصايغ، رحلة فتح الله، ص١٩١-١٩٦.

(٢) زكريا، عشائر الشام، ج١، ص١٦٩، ٢١٤؛ جبور، البدو والبادية، ص٢٣٧-٢٣٨.

وحولهم أفراد العشيرة رجالاً ونساء، وعندما يصلون إلى مكان الدفن يتلون بعض سور القرآن الكريم ثم يدفنونه^(١).

ومما سبق اتضح أن مجتمع جند دمشق كان مليئاً بالنشاط والحيوية، وكان لكل من سكان المدن وسكان الأرياف وسكان البادية اهتمامهم ونشاطهم المختلفة التي طبعت حياتهم بطابع خاص.

أما سكان المدن، فقد تأثرت أوضاعهم بالاضطرابات وحالة عدم الاستقرار التي سادت في هذه المدة، فكان الحديث عن الأوضاع المضطربة وعن شؤون الساعة وأخبارها محور كلام الناس عند لقاءهم في الأسواق والساحات والمساجد وغيرها، كما أن اضطراب الأوضاع دفع السكان إلى الدفاع الذاتي المحلي، وذلك بتكوين تنظيمات شعبية شبه عسكرية، وكانت المدن بأحيائها وشوارعها ودورها وحماتها مملأى بمظاهر الحركة والنشاط الاجتماعي حيث مارس السكان عاداتهم وتقاليدهم ونشاطهم المختلفة.

وكانت حياة سكان الأرياف مملأى بالبؤس والشقاء والمعاناة، فقد عانوا القلاقل والاضطرابات، وما أدت إليه من تدمير قراهم ومحاصيلهم، وزاد أوضاعهم سوءاً ما تعرضوا له من ضغوط وأعباء كثيرة، كظلم الولاية وتعذيبهم، وعسف الجباة وتعذيبهم، وزيادة الضرائب، وطرق جباية الضرائب وأوقاتها وغير ذلك، مما دفعهم لمشاركة الثوار في ثوراتهم، أو للانضمام إلى الدعوة القرمطية التي نادى بالعدالة والمساواة، وقد عاش سكان الأرياف باستثناء الأجزاء الملاصقة للمدن حالة من الاكتفاء الذاتي معتمدين على منتجات المنطقة التي يعيشون فيها.

(١) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٤، ص ١٩٣٥؛ زكريا، عشائر الشام، ج ١، ص ١٧٢.

وعاشت قبائل الشام مع وصول العباسيين إلى الحكم في ظل عزلة شبه تامة ما دفعها للقيام بالثورات ضد الحكم العباسي في محاولة لاسترداد مكانتها أو لدفع الغبن والإهمال اللذين لحقا بها من جراء سياسة العباسيين المنحرفة عن العرب، وبهذا لا يمكن تفسير الصراع القيسي - اليماني بأنه مجرد صراع قبلي، بل مثل - إلى حد ما - صراعاً ضد السلطة العباسية، ولم يقتصر هذا الصراع على سكان البادية، بل امتد ليشمل سكان الأرياف والمدن، ومع النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ازداد ضغط البدو، فكانوا يهجمون على المناطق الحضرية ناشرين الذعر والخراب، كما كانوا يهجمون على طريق الحج، فينهبون الحجاج ويسلبونهم ما يملكون، ولم تنته هجمات البدو والأعراب على طريق الحج مع نهاية هذه الفترة، بل استمرت في العصور اللاحقة.

وكان البدو يعيشون حياة بسيطة، تقوم على التنقل والترحال معتمدين في حياتهم على تربية الأغنام والماعز والإبل والخيول وغيرها، وكان لهم عاداتهم وتقاليدهم البسيطة التي عاشوا وفقها.

ب - الأحوال الدينية:

كان معظم سكان جند دمشق من المسلمين، وإلى جانبهم كان هناك أقليات من أتباع الديانتين المسيحية واليهودية، وقد تقدمت الإشارة إلى بعض المظاهر الاجتماعية الدينية عند كل منهم كالأعياد والزيارات وغيرهما، وفيما يلي سيكون الحديث عن الحركات والفرق الدينية الإسلامية، وعن وضع المسيحيين واليهود.

١ - المسلمون:

كان معظم مسلمي جند دمشق من الجماعة الذين أيدوا سياسة الأمويين ووقفوا إلى جانبهم، ومع ذلك فقد عرف جند دمشق كثيراً من الفرق التي تباينت آراؤها مثل: المرجئة، والجبرية، والقدرية وغيرها، وعلى الرغم من عدم تأثير أتباع هذه الفرق بشكل واضح في مجتمع جند دمشق، فإنني سألقي بعض الضوء على هذه الفرق، ودور أتباعها في المجتمع، والموقف منهم.

أولاً - المرجئة:

وهم الذين ناقشوا مسألة الإيمان والكفر، وقالوا بالتأخير إذ أرجؤوا الحكم على أصحاب الكبائر، ولم يخرجوهم من حظيرة الإيمان^(١)، وكانوا لا يكفرون أي إنسان ما دام قد اعتنق الإسلام، ونطق بالشهادتين، وبهذا لم يخرج المرجئة على الأمويين، بل وقفوا منهم موقف المؤيد السلبي، لذلك فإن العباسيين لما أقاموا دولتهم نظروا إليهم بصفتهم أعداء سياسيين، وقضوا عليهم، فلم يعد لهم وجود كفرقة مستقلة^(٢)، واقتصر وجودهم على بعض العلماء والشيوخ، وكانت عاداتهم لبس العمامة^(٣)، ولم يكن لهم أثر سياسي ظاهر، ولم يدعوا في أحاديثهم إلى بدعة، ومنهم:

(١) الأشعري، علي بن إسماعيل (ت، ٣٢٤هـ/٩٣٥م)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، عني بتصحيحه: هلموت ريتز، فيسبادن، فرانز شتاينر، ط ٣، ١٩٩٠م، ص ١٣٢ - ١٣٨؛ الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت، ٥٤٨هـ/١١٥٣م)، الملل والنحل، عرض وتعريف: حسين جمعة، دمشق، دار دانية، ط ١، ١٩٩٠م، ص ٦٠.

(٢) أمين، أحمد، فجر الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١١، ١٩٧٩م، ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٧، ص ٣١٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح.و.)

٢٠١ - ٢١٠هـ، ص ٣٨٣.

شعيب بن إسحاق بن عبد الرحمن الأموي (ت، ١٨٩هـ / ٨٠٤م) ^(١)،
ومحمد بن شعيب بن شابور (ت، ٢٠٠هـ / ٨١٥م) ^(٢)، ومروان بن محمد
الطاطري (ت، ٢١٠هـ / ٨٢٥م) ^(٣).

غير أن بعض العلماء والمحدثين عدّوا الإرجاء بدعة، وعملوا على
محاربته، فأبو مسهر الدمشقي رفض الصلاة على شعيب بن إسحاق بن عبد
الرحمن لأنه كان مرجئاً ^(٤)، كما رفض بعضهم تحديث أتباع الإرجاء، فالمحدث
محمد بن يوسف بن واقد الفريابي (ت، ٢١٢هـ / ٨٢٧م)، سكن قيسارية
من ساحل بلاد الشام، وأثناء تحديثه به قدم قوم للسمع منه، "ف قيل له: يا أبا
عبد الله إن هؤلاء مرجئة، فقال: أخرجوهم، فتابوا ورجعوا" ^(٥).

ثانياً - الجبرية:

كان بعض المسلمين في جند دمشق من أتباع الجهمية ^(٦) التي تقول
بالجبرية، وقد ناقشوا مسألة الجبر والاختيار، والعلاقة بين الإنسان والخالق،

(١) المزي، تهذيب الكمال، مج ٤، ص ٣١٥؛ مج ١٢، ص ٥٠١؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء،
ج ٩، ص ١٠٣.

(٢) الذهبي، م.ن، ج ٩، ص ٣٧٦؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٩، ص ١٩١.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٧، ص ٣١٣.

(٤) المزي، تهذيب الكمال، مج ١٢، ص ٥٠٣.

(٥) المزي، م.ن، مج ٢٧، ص ٥٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٦، ص ٣٣٢؛ الذهبي،
سير أعلام النبلاء، ج ١٠، ص ١١٧.

(٦) الجهمية: نسبة إلى الجهم بن صفوان الراسبي، وهو تلميذ الجعد بن درهم محدث القول
بالجبر، وقتل الجهم بن صفوان عمال الأمويين سنة ١٢٨هـ / ٧٤٥م؛ الطبري، تاريخ الأمم
 والملوك، ج ٧، ص ٣٣٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح.و) ١٢١-١٤٠هـ، ص ٦٥.

وقالوا: إن الإنسان مسير لا مخير عاجز عن خلق أفعاله، ولا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وتنسب الأعمال إلى المخلوقين على سبيل المجاز، كما دار جدلهم حول "صفات الله"، ونفوا أن يتصف الله بصفات يتصف بها البشر^(١)، ودعوا إلى ترك العمل، لذلك عرفوا بالمعطلة لقولهم بالتعطيل^(٢).

وقف مرجئة الجبرية في العصر الأموي موقفاً معادياً للأمويين، ونددوا باستئثارهم بالخلافة، ورفضوا نظريتهم فيها، وألبوا الناس عليهم، وانتهزوا الفرص المناسبة للانتفاض عليهم، كما شاركوا في ثورة الثائرين ضدهم، لذلك قام الأمويون بملاحقتهم وقتلهم، في الوقت نفسه أفتى الفقهاء المحيطون بالخلفاء الأمويين بكفر أتباع الجبر، ووجوب ملاحقتهم^(٣)، ما أدى إلى اضمحلال شأن الجبرية في العصر العباسي، فاقصر وجودها على بعض الأتباع الذين قالوا بالجبر، وكان ينظر إليهم بصفتهم أصحاب بدعة، وكثيراً ما وجهت الانتقادات إليهم، وكانوا يرمون بالضعف، ويمتنع المحدثون من التحديث عنهم، فقد اتهم يحيى بن صالح الوحاظي الدمشقي (ت، ٢٢٢هـ / ٨٣٦م) الذي كان صاحب رأي بأنه منهم، وعنه قال إسحاق بن منصور:

(١) البغدادي، عبد القاهر بن طاهر (ت، ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٤، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص ١٩؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٣٦؛ عطوان، حسين، الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي، دار الجيل، ط١، ١٩٨٦م، ص ٨٦ - ٨٧.

(٢) ابن الجوزي، تلبس إبليس، ص ٢٦؛ بدر، أحمد، فقهاء الشام في العصر العباسي الأول وعلاقتهم بالخلفاء العباسيين، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ٩٢.

(٣) عطوان، الفرق الإسلامية، ص ٩٢ - ٩٦.

"حدثنا يحيى بن صالح، وكان مرجئاً خبيثاً داعي دعوة ليس بأهل أن يروى عنه"^(١)، وروى أبو زرعة الدمشقي أن وكيع بن الجراح قال ليحيى بن صالح: "يا أبا زكريا احذر الرأي"، فإني سمعت أبا حنيفة يحذر من بعض قياسهم^(٢).

وكان منهم شعيب بن سهل بن كثير الرازي المعروف بشعبويه (ت، ٢٤٦هـ/٨٦٠م)، وهو محدث، قدم دمشق مع المتوكل، وكان يصلي بالناس في مسجد الرصافة، ويرى رأي جهم، فأتى الناس إلى المسجد الذي يصلي به يريدون محو كتاب كان كتبه على مسجده بأن القرآن مخلوق، فرماهم خادم له بالنشاب، فقام الناس رداً على ذلك بإحراق باب شعيب، ونهبوا منزله^(٣).

وتصدى بعض المحدثين للجهمية، ومن أبرزهم المحدث نعيم بن حماد المروزي الخزازي (ت، ٢٢٧هـ/٨٤١م): أصله من خراسان، وتنقل في طلب الحديث، فزار دمشق، وسمع من محدثيها، ثم انتقل إلى مصر، واستقر فيها، وكان من أعلم الناس بالفرائض، وقد وضع ثلاثة عشر كتاباً في الرد على الجهمية^(٤).

ثالثاً - القدرية:

وكان هناك بعض أتباع القدر الذين قالوا بحرية الإرادة والاختيار، وأنّ الإنسان مخير لا مسير، وله القدرة على أعماله، وهو مسؤول عنها، كما

- (١) المزي، تهذيب الكمال، مج ٣١، ص ٣٧٩.
- (٢) تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ٥٠٧.
- (٣) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٣٢٢.
- (٤) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ج ٨، ص ٢٥١-٢٥٢؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٢، ص ١٥٩.

بحثوا في مسألة الخلافة، ومن يحق له أن يقوم بها، ودعوا إلى المساواة بين العرب والموالي، ورأوا أن الخلافة تصلح لكل المسلمين، وليس من الضرورة حصرها في قريش^(١)، وفي هذا مناهضة لمبدأ الجبر الذي تشبث به الأمويون في أنهم أوتوا الخلافة بقضاء الله وقدره، لذلك أقدم الأمويون على ملاحقتهم وقتلهم، فهرب بعضهم إلى العراق لينشر آراءه فيها بعيداً عن أعين السلطات الأموية^(٢).

ومما هو جدير بالذكر أن آراء القدرية كانت واسعة الانتشار في النصف الثاني من القرن الأول الهجري والنصف الأول من القرن الثاني الهجري، وكان معظم معتنقيها من القبائل اليمنية والربعية الشامية التي كانت تناهض سياسة الأمويين الذين حرموها من المناصب، وبطشوا بساداتها^(٣)، وقد عمل العباسيون على اصطناع بعض أتباع القدر وتقريبهم ومنحهم الجوائز، فقد كان الوضين بن عطاء بن كنانة الدمشقي (ت ١٤٩هـ / ٧٦٦م) صديقاً للخليفة المنصور قبل وصوله إلى الخلافة، واستمرت صداقتها بعد أن صار خليفة، وكانا يتبادلان الزيارات والأحاديث^(٤)، وكان أسباط بن واصل الشيباني قد مدح المنصور بقصيدة كان قد قالها في يزيد بن الوليد، فأمر له المنصور بأربعة آلاف درهم^(٥).

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٦١؛ عطوان، الفرق الإسلامية، ص ٧٥-٧٨.

(٢) عطوان، م.ن، ص ٤٨، ٧٨.

(٣) عطوان، م.ن، ص ٤٢.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١٣، ص ٤٨٢-٤٨٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة

دمشق، ج ٦٣، ص ٤٢؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ١٠٦-١٠٧.

(٥) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ٤٠٤.

وقلد العباسيون بعض أتباع القدر وظائف في الدولة، ومن ذلك قلد المنصور الربيع بن حزيان الدمشقي دار الضرب بدمشق^(١)، وقلد يحيى بن حمزة البتلهي قضاء دمشق في سنة ١٥٣هـ/٧٧٠م^(٢)، واستخدم عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان الدمشقي (ت، ١٦٥هـ/٧٨١م) على بيت المال ببغداد، فاستمر في الوظيفة نفسها حتى عهد المهدي الذي ما لبث أن ولّاه على المظالم ببغداد أيضاً^(٣)، واستخدم المأمون محمد بن عائذ القرشي الدمشقي (ت، ٢٣٣ أو ٢٣٤هـ/٨٤٧-٨٤٨م) على خراج الغوطة^(٤).

هذا وقد تضاءل شأن القدرية في القرن الثالث الهجري، وكان ذلك على حساب المعتزلة التي نادى بأفكارهم نفسها؛ أما بالنسبة لموقف العلماء والفقهاء من أتباع القدر، فقد نظروا إليهم بصفتهم أصحاب بدع، وحذروا من البدع^(٥)، ودعوا إلى عدم مجالسة أصحابها، ووصفوهم بالبلاء، وكانوا

- (١) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٢، ص ٢٠٧؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٧، ص ٣٣٣، (ذكر اسمه بـ"الربيع خطبان").
- (٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٣٢٥؛ ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٤، ص ١٣١.
- (٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١٠، ص ٢٢٣-٢٢٤؛ ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٤، ص ٥٠؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٦، ص ١٣٧-١٣٨.
- (٤) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٢٨٨؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١١، ص ١٠٤.
- (٥) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٦، ص ١١٩؛ أبيض، ملكة، التربية والثقافة العربية - الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، بيروت، دار العلم للملايين، ط ١، ١٩٨٠م، ص ٣٤٨.

يجادلونهم ويحاججونهم ويخرجونهم بالأسئلة أينما التقوهم^(١)، وأفتى بعضهم بقتلهم^(٢)، وكان الناس ينكرون على بعض القدرية قولهم بالقدر، فقد أحرقوا دار ثور بن يزيد الكلاعي (ت، ١٥٣هـ / ٧٧٠م)، فهرب إلى العراق، وروي أن ثوراً لقي الأوزاعي فمدَّ يده ليصافحه، فأبى الأوزاعي مصافحته، وكان سفيان الثوري^(٣) يقول لمن يخبره أنه ذاهب إلى الشام ليأخذ الحديث عن ثور: "خذوا عنه، واتقوا قرنيّه"^(٤).

ونسب الفقهاء أهل القدر إلى الضعف والجنون، فالعباس بن الوليد بن يزيد العذري حدث عن أبيه، قال: "خرجنا ليلاً إلى الصحراء مع الأوزاعي وأصحابنا ومعنا عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، قال: فسل سيفه، فقال: إن الله قد جدَّ فجداوا، قال: فجعلوا يسبونه ويؤذونه وينسبونه إلى الضعف، قال: فقال الأوزاعي: إني أقول أحسن من قولكم، عبد الرحمن قد

- (١) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ٣٧٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٧، ص ١١٧؛ ج ٤٨، ص ١٩٤-٢٠٩؛ ج ٥٤، ص ١٨٤-١٨٥؛ ج ٥٩، ص ٣٢٣.
- (٢) ومن ذلك إفتاء الأوزاعي بقتل غيلان الدمشقي في عهد هشام بن عبد الملك؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢، ص ٣٧٩؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٨، ص ٢٠٥-٢٠٧؛ الزرو، خليل داود، الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط ١، ١٩٧١م، ص ١٣٤.
- (٣) سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله الثوري: من أهل الكوفة، كان إماماً من أئمة المسلمين وعلماً من أعلام الدين، ومن أبرز أصحاب الحديث في زمانه، توفي سنة ١٦١هـ / ٧٧٧م؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٩، ص ١٥١.
- (٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١١، ص ١٩٣-١٩٤؛ ابن منظور، محمد بن مكرم، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، دمشق، دار الفكر، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ج ٥، ص ٣٥١.

رفع عنه القلم - أي إنه مجنون" (١)، وكان يربط بين ابن ثوبان والخوارج وأنه مثلهم لا يرى جمعة خلف ولاية الجور (٢)، وكان أبو مسهر الدمشقي يضعف المحدث الهيثم بن حميد الغساني لأنه كان قدرياً (٣).

وكان الناس يرفضون الصلاة خلف أتباع القدر، فأبو سليمان الداراني (ت، ٢٠٥ أو ٢١٥هـ/٨٢٠، ٨٣٠م) ترك الصلاة في مسجد، وانتقل إلى آخر عندما بلغه أن إمام المسجد يقول بشيء من القدر، وكان يقول: "صلّ خلف كل صاحب بدعة إلا القدري لا تصل خلفه وإن كان سلطاناً" (٤).

وأشاع بعض علماء أهل الشام أن بعض الآيات القرآنية نزلت في القدرية، وهي تقطع بضعفهم ومروقهم من الدين، وتأمّر بمحاربتهم وقتلهم، ووضعوا الأحاديث (٥) التي تطعن في إسلامهم، وتنفر الناس منهم، ونسبوا إلى كبار الصحابة ليؤمن الناس بصحتها (٦).

وامتنع الفقهاء والمحدثون عن تعليم أصحاب البدع، فقد ذكر هشام بن عمار أنه التقى المحدث شهاب ابن خراش بن حوشب الشيباني الكوفي

(١) الفسوي، المعرفة والتاريخ، مج ٢، ص ٣٩٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٧، ص ٣١٤.

(٢) الذهبي، م.ن، ج ٧، ص ٣١٧.

(٣) العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ٨١.

(٤) الخولاني، عبد الجبار (ت، بعد ٣٦٥هـ / ٩٧٥م)، تاريخ داريا، تحقيق: سعيد الأفغاني، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ١١٠؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١٠، ص ٢٤٨؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٠، ص ٣٨٣.

(٥) حول بعض هذه الأحاديث انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٤، ص ١٧٤؛ ج ٣٧، ص ٢٩٣ - ٢٩٤؛ ج ٤٥، ص ٣٩٤؛ ج ٤٨، ص ١٨٩؛ ج ٥٩، ص ٣٢٠.

(٦) عطوان، الفرق الإسلامية، ص ٦٢.

الذي انتقل إلى الشام، وسكن فلسطين عند مروره بدمشق سنة ١٧٤هـ / ٧٩٠م، وأراد أن يأخذ عنه، فقال شهاب له: "إن لم تكن قديراً ولا مرجئاً حدثك، وإلا لم أحدثك" فردَّ هشام: "ما فيَّ من هذا شيء" (١).

وعندما قدم إبراهيم بن محمد بن أبي حصن الحارث الفزاري (ت، ١٨٨هـ / ٨٠٣م) دمشق، واجتمع الناس ليسمعوا منه، قال لأبي مسهر الدمشقي: "أخرج إلى الناس فقل لهم: من كان يرى رأي القدرية، فلا يحضر مجلسنا"، فخرج أبو مسهر وأخبر الناس (٢).

وترك الناس الكتابة والتحديث عن أصحاب القدر أحياناً، فقد ترك بعض الطلبة الكتابة والتحديث عن سعيد بن بشير الأزدي الدمشقي (ت، ١٦٨هـ / ٧٨٤م) عندما شاع أنه قدرى، وسمع هشام بن عمار مجلساً منه ولم يكتبه، وعندما نقل أحد المحدثين لسعيد بن عبد العزيز أن سعيد بن بشير صدوق اللسان في الحديث أجابه: "بث هذا... في جندنا، فإن الناس عندنا كأنهم ينقصونه" (٣).

وكان الأوزاعي يسيء القول في ثور بن يزيد الكلاعي، وعندما قال له أبو مسلم الفزاري حدثنا ثور "غضب غضبة كبيرة، وقال له تأخذ دينك عن المكذب بقدر الله... قال أبو مسلم: فجئت إلى كتابي الذي سمعته من

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٣، ص ٢١٥؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٣٤٢.

(٢) العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١، ص ١٣٧؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧، ص ١٢١.

(٣) ابن عساكر، م، ن، ج ٢١، ص ٢٧؛ ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ج ٤، ص ٤١٣.

ثور... فألقيته في التنور"^(١)، ورفض أبو مسهر الكتابة عن محمد بن راشد (ت، ١٦٠هـ / ٧٧٦م)، وعندما سُئل عن السبب، قال: "كان يرى الخروج على الأئمة"، وفي رواية أخرى: "كان يرى السيف"^(٢).

ومما هو جدير بالذكر أن فريقاً من الفقهاء والمحدثين كان يميز بين الاتجاه العقدي للعالم من جهة، وكفاءته العلمية وشهرته في إحدى العلوم من جهة ثانية، ولم يروا بأساً في الإفادة من علمه، فالإمام الأوزاعي لم ير بأساً في الأخذ عن مكحول (ت، ١١٣ أو ١١٨هـ / ٧٣١، ٧٣٦م) رغم أنه كان قدرياً^(٣)، وكان الفقهاء والمحدثون يثقون بالمحدث صدقة بن عبد الله الدمشقي السمين (ت، ١٦٦هـ / ٧٨٢م) ويصفونه بالصدق رغم أنه كان قدرياً^(٤)، ونصح المحدث والفقير سعيد بن عبد العزيز أحد الطلبة أن يأخذ التفسير عن سعيد بن بشير، وكان مشهوراً به، ويدع ما سواه^(٥)، وقال يحيى بن سعيد القطان لم يترك إبراهيم بن أبي يحيى للقدر "وإنما ترك للكذب"^(٦)، هذا ورأى بعض الفقهاء والمحدثين أن صاحب البدعة يكتب حديثه ما لم يكن داعياً إلى بدعته^(٧).

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١١، ص ١٩١-١٩٢؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٣٥١.

(٢) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ١ ص ٤٠١؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٧، ص ٣٤٤.

(٣) المزي، تهذيب الكمال، مج ٢٨، ص ٤٧٢.

(٤) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ج ٥، ص ١١٥؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٧، ص ٣١٥-٣١٧.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢١، ص ٢٨.

(٦) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ٣٠٧.

(٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٧، ص ١٥٣-١٥٤.

رابعاً - المعتزلة:

يعد المعتزلة^(١) من أهم فرق المتكلمين، ويعود ظهورهم إلى أواخر العصر الأموي، وعرفوا بالعدلية لقولهم بعدل الله وحكمته، وعرفوا بالموحدة لقولهم: لا قديم مع الله^(٢)، وتتجلى آراؤهم في الأصول الخمسة التي قالوا بها، وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٣).

كان من أبرز مظاهر المعتزلة الإيمان بسلطان العقل وتحكيمه في كل الأمور^(٤)، ويرجع إليهم الفضل الأول في وضع الأسس الأولى لعلم الكلام وعلم البلاغة والجدل والمناظرة، وقد استخدموا ما وصل إليهم من العلم والترجمة والفلسفة في عصرهم في بحوثهم الدينية، وردوا على أصناف الملحدين من الزنادقة والدهرية والثوية، واستعانوا في بحوثهم الدينية بالفلسفة اليونانية، فكانوا المنفذ الأول الذي دخل منه فلاسفة المسلمين إلى هذه الفلسفة.

(١) تعود تسميتهم بالمعتزلة إلى اعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري في إثر خلافه معه في مسألة المؤمن العاصي (صاحب كبيرة) هل يسمى مؤمناً أم لا؟ وكان واصل يقول ليس بمؤمن ولا كافر، وإنما في منزلة بين المنزلتين (أي فاسق)، وقد انتحى واصل ناحية من المسجد، وانضم إليه عمرو بن عبيد، وأخذوا يشرحان رأيهما لأتباعهما، فأطلق عليهما وعلى أتباعهما اسم المعتزلة؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢٢ - ٢٣؛ ابن المرتضى، أحمد بن يحيى (ت، ٨٤٠هـ / ١٤٣٧م)، طبقات المعتزلة، تحقيق: سوسن ديفلد - فلزر، بيروت، دار المنتظر، ط ٢، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، ص ٣.

(٢) ابن المرتضى، م. ن، ص ٢.

(٣) عن أصول المعتزلة، انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٢٣٤ - ٢٣٥؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢١؛ أمين، ضحى الإسلام، ج ٣، ص ٢١ - ٢٢.

(٤) أمين، م. ن، ج ٣، ص ٨٩.

كان المعتزلة يكرهون حكم الأمويين، ولم يكن لهم دور في أواخر عصرهم، ومع العصر العباسي نشطت دعوتهم، وبعثوا بالدعاة إلى أقصى الأمصار لنشر مبادئهم^(١)، غير أنه لم يكن لهم أي دور سياسي حتى استلام المأمون الخلافة سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م الذي كان يعتنق مذهب الاعتزال.

كان من أبرز المسائل التي أثارها المعتزلة مسألة خلق القرآن، ولم يكن لهذه المسألة أي أثر حتى عهد المأمون الذي حمل الناس بالشدة على القول بها^(٢)، والذي حمّله على ذلك أحمد بن أبي دؤاد الإيادي^(٣)، وهي ما عرفت باسم محنة القرآن، ففي سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م أظهر المأمون القول بخلق القرآن^(٤)، وفي سنة ٢١٨هـ / ٨٣٢م أخذ بامتحان القضاة والمحدثين، وكتب إلى عماله في الولايات بامتحان المحدثين^(٥)، فلما وصل كتابه إلى والي دمشق إسحاق بن يحيى بن معاذ، أحضر هشام بن عمار، وسليمان بن عبد الرحمن، وعبد الله بن ذكوان، وأحمد بن أبي الحواري، وامتحانهم، فأجاب كلهم إلا ابن أبي الحواري، فحبس وهدد، فأجاب مكرهاً^(٦).

(١) أمين، م. ن، ج ٣، ص ٩٠-٩٦.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٤٦٧-٤٦٨؛ رفاعي، أحمد فريد، عصر المأمون، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط ٤، ١٣٤٦هـ-١٩٢٨م، ج ١، ص ٣٩٧-٣٩٨.

(٣) أحمد بن أبي دؤاد الإيادي: أصله من قنسرين، كان من أصحاب واصل بن عطاء، فصار إلى الاعتزال، وكان من المقربين إلى المأمون فحمّله على الامتحان بخلق القرآن، ثم صار قاضي القضاة للمعتصم والوائق، توفي سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٤، ص ١٤١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ١، ص ٨١.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٦١٩.

(٥) الطبري، م. ن، ج ٨، ص ٦٣١.

(٦) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧١، ص ٢٥٠-٢٥١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٩٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٢، ص ٩٢-٩٣.

وكان أبو مسهر الدمشقي ممن امتحن أيضاً، فقد ذكرت المصادر أنه كان يستنكر النار التي يشعلها المأمون في سفح جبل قاسيون، لذلك لما أظهر المأمون القول بخلق القرآن، وحمل الناس على ذلك، أمر بحمل أبي مسهر إليه في الرقة ليمتحنه بنفسه، فامتنع عن القول إن القرآن مخلوق، ولما هدد بالسيف والقتل اعترف، فأمر المأمون بحمله إلى بغداد ليشهد فيها بما أقرّ وليحبس، فعاش في الحبس عدة أشهر ثم توفي سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م^(١).

استمرت محنة القرآن في عهدي المعتصم والواثق اللذين كانا يعتنقان مذهب الاعتزال^(٢)، وفي أيامها كان قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد يمتحن العلماء^(٣)، قال اليعقوبي: "وامتنح الواثق الناس في خلق القرآن، فكتب إلى القضاة أن يفعلوا ذلك في سائر البلدان، وألاً يجيزوا إلا شهادة من قال بالتوحيد، فحبس بهذا السبب عالماً كثيراً"^(٤)، ففي دمشق كان القاضي محمد بن يحيى بن حمزة "لا يجيز شهادة إلا من امتحنه بخلق القرآن"^(٥).

(١) ابن طولون، الثغر البسام، ص ١٦؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٣٢٨؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٦٤٣؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٣، ص ٤٢٥؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٤، ص ١٩٣٠.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، مج ٤، ص ٦٦؛ المقرئ، المفقى الكبير، ج ٥، ص ٥١٥؛ ج ٧، ص ٣٦٨ - ٣٧١.

(٣) للمزيد عن محنة القرآن، انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٦٣١ - ٦٤٤؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٤، ص ٤١٢ - ٤٣٢؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٤٦٧ - ٤٦٨، ٤٨٢؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ٢٨ - ٤٨؛ رفاعي، عصر المأمون، ج ٣، ص ٥ - ١٦؛ أمين، ضحى الإسلام، ج ٣، ص ١٦١ - ١٩٨.

(٤) تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٤٨٢.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٩، ص ١١١.

ولم تقتصر خلفيات هذه المحنة "على محاكمة الولاة للناس، بل كانت مجالس الخاصة والعامّة تلوك هذه المسألة، فإذا جلس عالم مجلساً سأله سائل: هل القرآن مخلوق؟ وإذا خلا الناس بعضهم إلى بعض تحدثوا عن أخبار خلق القرآن، ومن حقد على آخر وأراد أن يدسّ عليه اتهمه بأنه يقول القرآن غير مخلوق"^(١)، روى عبد الله بن محمد بن منصور الهروي البزاز (ت، ٢٨٩هـ / ٩٠٢م) - وكان ممن زار دمشق وسمع بها - أن هشام بن عمار بلغه أن أناساً ينسونه إلى اللفظية، "فغضب وخطب خطبة أثنى فيها على الله تعالى، ووصفه بالآيات الست من أول الحديد، وتلاها علينا، وذكر من عظمة الله ما عجب منه السامعون من حسنه، ثم ذكر القرآن فقال: القرآن كلام الله وليس بمخلوق، ومن قال القرآن - أو قدرة الله أو عزة الله - مخلوقة فهو من الكافرين، فقيل له: ما تقول فيمن قال: لفظي بالقرآن مخلوق؟ فقال: "قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ"^(٢)، هذا الذي قرأت كلام الله، قيل له: تحدث الناس ببغداد أنك كتبت إلى الكرابيسي^(٣)، فقال: ومن الكرابيسي ما رأيته قط، ولا أدري من هو، والله ما كتبت إليه قط"^(٤).

ولم تطل محنة القرآن كثيراً، إذ عندما تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢هـ / ٨٤٦م، ورأى ما أحدثته تلك المحنة، واتساع دائرة المعارضة لها،

(١) أمين، ضحى الإسلام، ج ٣، ص ١٨٥.

(٢) القرآن الكريم، سورة الإخلاص، الآيات ١-٣.

(٣) الكرابيسي: هو الوليد بن أبان الكرابيسي (ت، ٢١٤هـ / ٨٢٩م)، معتزلي من علماء الكلام، من أهل البصرة، له مقالات في تقوية مذهب الاعتزال، نسبته إلى بيع الكرابيس وهي الثياب؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط ١٤، ١٩٩٩م، ج ٨، ص ١١٩.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٢، ص ٣٧٠-٣٧١.

دعا إلى إبطال القول بها في سنة ٢٣٤هـ / ٨٤٨م، وهدد من أثارها، وكتب إلى الآفاق بالألا يتكلم أحد فيها، وقرب المحدثين وأجزل العطاء لهم^(١)، ومنذئذ بدأ مذهب الاعتزال بالاضمحلال.

خامساً - الشيعة:

افترقت الشيعة بعد الإمام جعفر الصادق إلى شيعتين: الأولى: أتباع موسى بن جعفر، وعرفت بالموسوية، ثم عرفت فيما بعد بالاثني عشرية لولائها اثني عشر إماماً، أما الشيعة الثانية: فكانت أتباع محمد بن إسماعيل بن جعفر، وعرفت بالإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر^(٢)، وكان السبب الظاهر لهذا الافتراق أن الإمام جعفرًا الصادق عين ابنه إسماعيل خلفاً له، إلا أن وفاة إسماعيل في حياته، دفعته إلى أن يعطي الإمامة إلى ابنه موسى الكاظم، ولكن أتباع إسماعيل لم يسلموا بتحويل الإمامة عنه، وأنكروا موته في حياة والده، وقال بعضهم الآخر: إن الإمامة بعد إسماعيل، وإن توفي في حياة والده، يجب أن تكون في أولاده حيث النص عليه يفيد ذلك، وإن النص لا يرجع قهقري، وبذلك يكون محمد بن إسماعيل خليفة أبيه، وهو الإمام السابع عند الإسماعيلية^(٣).

(١) الكندي، كتاب ولاية مصر، ص ١٥٤؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٢، ص ٣٤٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٨٤.

(٢) مكارم، سامي، التقيّة في الإسلام، لندن، ط ١، ٢٠٠٤م، ص ١٧١.

(٣) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص ٢٦؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٨١-٨٢؛ مكارم، التقيّة في الإسلام، ص ١٧٢؛

- Madelung, W, ismā'iliyya, encyclopédie de L' islam, paris, 1978, tome IV, p. 206.

Hodgson, M.G.S, Bātiniyya, encyclopédie de L' islam, paris, 1960, tome I, p.1131-1132.

والواقع أن الدعوة الإسماعيلية بدأت مع تسلّم إسماعيل بن جعفر أو ابنه محمد بن إسماعيل دور ستر شامل تقيه من اضطهاد العباسيين وملاحقتهم، وفي خلال هذا الدور تنقل بيت الإمامة ما بين الحجاز والعراق وخراسان ليستقر أخيراً في مدينة سَلَمِيَّة من أعمال حماة في بلاد الشام^(١).

وانقسمت الإسماعيلية إلى فرق عديدة: منها القرامطة الذين قاموا بحركتهم رداً على الظلم الذي قوي، واستشرى في العصر العباسي، فكان من أهدافها منع الاستغلال، "ونزع الأملاك العقارية الفردية الواسعة، ومصادرة الإيرادات الطائلة الخاصة لمصلحة الدولة"^(٢)، فلاقت هذه الدعوة استجابة الفئات المضطهدة، إذ رأت فيها فرصة للتخلص من أوضاعها السيئة.

وتعددت آراء المؤرخين حول أسماء القرامطة، وبعيداً عن الخوض في ذلك، وقد سبق الحديث عن قيامهم بعدة حملات على بلاد الشام^(٣)، وكان من نتائجها اعتناق كثير من أهل الأرياف والقرى للمذهب القرمطي^(٤)، ولجأ الذين اعتنقوه إلى المناطق التي تؤمن لهم حماية طبيعية ضد أي جيوش قادمة لمحاربتهم مثل: وادي التيم، وجبال الجليل، وجبال الشوف، وهوران، ووادي الأردن^(٥).

أما أسباب اعتناقهم لذلك المذهب، فهي ما حاول الإجابة عنها بعض الباحثين، فهناك من أشار إلى أن أهالي الشام المتحمسين للفكرة الأموية

(١) زكار، القرامطة، ص ٦٣ - ٦٤؛ Madelung, ismā'iliyya, tome IV, p. 206- 207.

(٢) تامر، القرامطة، ص ٦٨.

(٣) انظر: الفصل الأول - الوضع السياسي.

(٤) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٣٧٢؛ ابن سنان وابن العديم، تاريخ أخبار القرامطة، ص ٢٧.

(٥) تدمري، لبنان، ص ٧٥.

لم يشعروا بالوئام والاتفاق مع الحكم العباسي، وكثيراً ما بحثوا عن مخرج للتخلص من هذا الحكم، وقد وجدوا فرصتهم لتحقيق ذلك في الحكم الطولوني، ولكن لما شهدوا ضعف الدولة الطولونية ومن ثم سقوطها، أقدموا على اعتناق الفكر القرمطي^(١).

وهناك من ذكر أن أهالي المناطق التي اعتنق أصحابها ذلك الفكر، يعودون إلى نفس الأصول السكانية للقرامطة الذين قدموا من بلاد تنوخ على الساحل الشرقي للجزيرة العربية^(٢)، ولعل السبب الأبرز يعود إلى كثرة معاناة الفلاحين من الاستغلال وثقل الضرائب والمصادرات، فقاموا بالانضمام للقرامطة، وذلك للهرب من ظلم الجباة وعسفهم.

سادساً - الزهد والتصوف:

من المعروف أن الشام شهدت حركة زهد نشيطة منذ مطلع العصر الإسلامي وفي العصر الأموي، فقد عاش فيها زهاد وعباد كثر انقطعوا للعبادة، وأعرضوا عن ملذات الدنيا وزخرفتها، وانقطع بعضهم في الثغور للدفاع عنها ضد الروم البيزنطيين^(٣)، وفي العصر العباسي ازدادت حركة الزهد والتصوف نشاطاً، إذ كانت الشام مقصداً لزهاد ومتصوفة كثر حيث وجدوا فيها مكاناً مناسباً للعبادة والابتعاد عن مركز الخلافة العباسية والصراعات القائمة فيها، ومظاهر البذخ والترف، فكان جبل لبنان من أهم المناطق التي

(١) زيود، العلاقات بين الشام ومصر، ص ١٦٢.

(٢) تدمري، لبنان، ص ٧٥.

(٣) حول الزهاد والعباد في بلاد الشام في العصر الأموي، انظر: عطوان، الفرق الإسلامية، ص ١٠٩ - ١٩٨؛ الزرو، الحياة العلمية في الشام، ص ١٥٩ - ١٧٣.

انساح فيها الزهاد والمتصوفة، وانقطعوا فيها لعبادة الله عز وجل حتى إنه صار يعرف بجبل العباد والأبدال^(١)، وموطن الأولياء والصلحاء^(٢).

ترك الزهاد والمتصوفة الأنشطة الدنيوية، وإغراءات الحياة، وعاشوا حياة كلها زهد وتقشف وعبادة، ونظروا إلى الدنيا ومغرياتنا نظرة امتهان وازدراء، وعدّوا ذلك زيادة في اليقين والعبادة، ووصول النفس إلى الكمال، فأبراهيم بن أدهم قال: "اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك"^(٣)، وقال أحمد بن أبي الحواري: "من نظر إلى الدنيا نظرة إرادة وحب أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه"^(٤).

(١) الأبدال: قوم من الصالحين بهم يُقيم الله الأرض، أربعون في الشام، وثلاثون في سائر البلاد، لا يموت منهم أحد إلا قام مكانه آخر، فلذلك سُموا أبدالاً، وواحد الأبدال العَبْدُ بَدَلٌ، وَبَدَلٌ ابن منظور، لسان العرب، ج ١، ص ٣٤٤، مادة "بدل".

(٢) ابن الفقيه، البلدان، ص ١٦٢؛ ابن شداد، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ٣٥؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٩٣؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١٤؛ الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، لطائف المعارف، تحقيق: إبراهيم الأبياري، حسن كامل الصيرفي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م، ص ١٥٦.

(٣) المزني، تهذيب الكمال، مج ٢، ص ٣١.

(٤) القشيري، عبد الكريم بن هوازن (ت، ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م)، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٧٢م، ج ١، ص ١٠٥؛ السلمي، محمد بن الحسين بن محمد بن موسى (ت، ٤١٢هـ / ١٠٢١م)، طبقات الصوفية، تحقيق: نور الدين شريه، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط ٢، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م، ص ١٠٠؛ ابن المُلقّن، عمر بن علي بن أحمد المصري (ت، ٨٠٤هـ / ١٤٠١م)، طبقات الأولياء، حققه وخرّجه: نور الدين شريه، بيروت، دار المعرفة، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص ٣٢؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٢، ص ٩٥٥.

وعدَّ الزُّهَادُ لَذَّةَ العيش في الاستغناء عن الناس، ورأوا أن أعجز الخلق من عجز عن سياسة نفسه، واستجاب لرغباتها وأهوائها، لذلك عَمِلُوا على مغالبة الشهوات، فأبو سليمان الداراني، قال: "لأن تذهب الشهوة من قلبي أحب إليّ من أن يقال لي: ادخل الجنة"^(١).

وهناك فئة من الزهاد والمتصوفة رابطة في الثغور البحرية للقيام بالغزو، والدفاع عنها، وعدّوا ذلك شكلاً من أشكال العبادة والتقوى، فأحمد بن أبي الحواري، رابطة في بيروت وأثر عنه أنه قال: "في الرباط والغزو نعم المستراح، إذا ملَّ العبد من العبادة استراح إلى غير معصية"^(٢).

وهناك فئة من الزهاد والمتصوفة، انقطعت في المساجد والمغاور والأماكن الخالية للعبادة والصمت والتأمل والتفكير في خلق الله عز وجل، فقد انقطع سليمان الخواص (من أقران إبراهيم بن أدهم) للعبادة، واعتزل الناس، وكان ينزوي في زاوية في المسجد، ويلزم الصمت والتأمل، فدخل سعيد بن عبد العزيز (ت، ١٦٧هـ / ٧٨٣م) عليه، وقال له: "أراك في ظلمة" فقال: "إن ظلمة القبر أشد من هذا" وعندما قال له: "أراك وحدك، قال: إن للصاحب على الصاحب حقاً فخفت ألا أقوم بحق صاحبي"^(٣)، وذكر أبو عبد الرحمن الأزدي أنه مرَّ على حائط بيروت برجل - يكبر - جالس على شاطئ البحر، ولما سأله "يا شاب ما لك جالساً واحداً، قال: اتق الله، ولا تقل

(١) الخولاني، تاريخ داريا، ص ١٠٨.

(٢) السلمي، م.ن، ص ١٠١.

(٣) القشيري، الرسالة القشيرية، ج ١، ص ١١١؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٢، ص ٢٤٨؛ ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، صفة الصفوة، حققه وعلق عليه: محمود فاخوري، حلب، دار الواعي، ط ١، ١٣٩٣هـ، ج ٤، ص ٢٧٣.

لي إلا حقاً، ما كنت قط وحدي منذ ولدتني أمي، إن معي ربي حيث ما كنت، ومعني ملكان يحفظان عليّ، وشيطان ما يفارقني، فإذا عرضت لي حاجة إلى ربي عز وجل، سألته إياها، ولم أسأله بلساني، فجاءني بها"^(١).

ويدور كلام الزهاد والمتصوفة عند لقاءهم حول ذنوب الإنسان والخوف من الله، وتطهير النفس للقائه، وعموماً كانوا قليلي الكلام، وحثوا على الصمت وقلة الكلام، وعدّوا حفظ اللسان من شروط صلاح القلب والعبادة، فالأوزاعي عدّ "العافية عشرة أجزاء تسعة منها في صمت، وجزء منها في الهرب من الناس"^(٢)، وحث إبراهيم بن أدهم على ألا يتحدث الإنسان إلا بالكلام الذي يرجو منفعته ويخشى عاقبته^(٣).

وحت الزهاد على الحزن، ورأوا فيه باباً من أبواب العبادة، فحزن المرء يجب أن يكون على الآخرة لا على الدنيا، فإبراهيم بن أدهم، قال: "الحزن حزنان: حزن لك، وحزن عليك، فالحزن الذي هو لك حزنك على الآخرة، والحزن الذي هو عليك حزنك على الدنيا وزينتها"^(٤)، وقال أبو معاوية الأسود الزاهد - من أصحاب إبراهيم بن أدهم -: "إن لكل شيء باباً، وباب العبادة الحزن، وإن المحزون في أمر في علو من الله"^(٥).

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٤، ص ٢٨٧ - ٢٨٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٧، ص ٦١.

(٢) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٤، ص ٢٥٧.

(٣) المزني، تهذيب الكمال، مج ٢، ص ٣٤.

(٤) المزني، م.ن، مج ٢، ص ٣٣.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٧، ص ٢٤٥.

وحتّ الزهاد والمتصوفة على البكاء، لأنه يقرب العبد من خالقه، ويساعده على رفع الأحزان، قال أبو سليمان الداراني: "عوّدوا أعينكم على البكاء وقلوبكم على التفكير"^(١)، وقال: "من سالت من عينيه قطرة - يعني دمعة - يوم الجمعة قبل الروح أوصى الله تعالى إلى الملك صاحب الشمال: اطو صفحة عبدي فلان، فلا تكتب عليه خطيئة إلى مثلها من الجمعة القادمة"^(٢)، وقال أحمد بن أبي الحواري: "أفضل البكاء بكاء العبد على ما فاته من أوقاته على غير الموافقة أو بكاء على ما سبق له من المخالفة"^(٣).

ويبدو أن الزهاد والمتصوفة أكثروا البكاء والتهجد حتّى إنهم صاروا يعرفون بالبكائين في القرن الثالث الهجري، فإسحاق بن إبراهيم بن يزيد الدمشقي (ت، ٢٢٧هـ / ٨٤١م) عدّ لكثرة بكائه من الثقات البكائين^(٤).

وروّض الزهاد والمتصوفة أنفسهم على الصبر وتحمل المشاق، إذ عدّوا الصبر أول مقام الرضا بالزهد، واقتصروا في طعامهم على البسيط من الأطعمة كخبز الشعير، وشرب اللبن، وامتنعوا عن أكل الفاكهة، وشرب الماء البارد^(٥)، وعدّوا الجسد بالجوع لتطهير النفس، وعدّوا الجوع مخ العبادة، وأن فراغ

(١) الأصبهاني، أحمد بن عبد الله الأصبهاني الشافعي (ت، ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تحقيق ودراسة: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، مج ٩، ص ٢٨٧.

(٢) الأصبهاني، م. ن، مج ٩، ص ٢٨٩.

(٣) القشيري، الرسالة القشيرية، ج ١، ص ١٠٥؛ السلمي، طبقات الصوفية، ص ١٠٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧١، ص ٢٥٠.

(٤) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٣، ص ١٤٣٦ - ١٤٤٢؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١، ص ١٩٩.

(٥) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص ١٤٥ - ١٤٦.

البطن من الطعام يصفي الذهن، وينأى بالنفس عن الشهوات، قال أبو سليمان الداراني: "لكل شيء صداً، وصداً نور القلب شبع البطن"^(١)، و"مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع"^(٢)، وقال القاسم بن عثمان الجوعى: "سميت قاسماً الجوعى لأن الله تعالى قوّاني على الجوع، فلو تُرُكت ما تُرُكت، ولم أوت بالطعام لم أبال رضت نفسي حتى لو تُرُكت شهراً، وما زاد لم تأكل ولم تشرب لم تبال، أنا عنها راضٍ أسوقها حيث شئت"^(٣).

ولم يكن التوكل عند الزهاد بمعنى التواكل، وأن الله خلق الإنسان، وهو الذي سيرزقه، بل إنه في اطمئنان القلوب إلى خالقها، إبراهيم بن أدهم قال: "التوكل طمأنينة القلب لموعد الله"^(٤)، وقال أبو سليمان الداراني: "لو توكلنا على الله ما بنينا الحائط، ولا جعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص"^(٥).

هذا وعدّ الزهاد والمتصوفة العمل شرطاً من شروط الإيمان والعبادة، ويجب على الإنسان أن يعمل لتأمين لقمة العيش له ولأسرته، وشرط الأعمال الصالحة أن يأكل الإنسان من عمل يديه، فقد عمل إبراهيم بن

(١) السلمي، طبقات الصوفية، ص ٨١؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٤، ص ١٢٧.
(٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٤، ص ١٢٨؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٤، ص ٢٢٣.
(٣) الأصبهاني، حلية الأولياء، مج ٩، ص ٣٣٦؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٤، ص ٢٣٦؛ والجدير بالذكر أن ابن عساكر أفرد ترجمتين باسم قاسم بن عثمان الجوعى، وأعطى واحد منهما لقب الكبير، وذكر أنه من أقران أبي سليمان الداراني، وعنه ذكر هذه الرواية، وأعطى الآخر لقب الصغير، وذكر أنه من أقران أحمد بن أبي الحواري، وهذا سترد ترجمته فيما بعد؛ تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٩، ص ٢٢٢، ١١٦ - ١٢٦.

(٤) ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص ١٣.

(٥) الأصبهاني، حلية الأولياء، مج ٩، ص ٢٦٩.

أدهم في حفظ البساتين والمزارع والحصاد، فإذا جاء وقت محاسبة صاحب الزرع امتنع عن أخذ الدراهم وتركها لأصحابه، ومن أقواله: "لم يَنْبُلْ عندنا من نُبَلٍ بالحج ولا بالجهاد، وإنما نُبِلْ عندنا من نُبَلٍ من كان يعقل ما يدخل جوفه - يعني الرغيفين - من حلّه"^(١)، وقال أبو سليمان الداراني: "ليس العبادة عندنا أن تصفَّ قدميك وغيرك يُفْتَّ لك، ولكن ابداً برغيفيك، فأحرزهما ثم تعبَّد"^(٢)، وقال أحمد بن أبي الخوارى لأبي سليمان الداراني: "أريد أن أدع السوق وأتعبد فردّ عليه: الزم السوق وتعبد"، ولما قال ابن أبي الخوارى "ليس في السوق ما يكفيني"، ردّ الداراني: "تحتاج إلى درهم، فتكسب من السوق دانقاً، ثم تحتال خمسة دوانيق خير من أن تحتال الدرهم كما هو"^(٣).

ولم يجذ الزهاد والمتصوفة الزواج بسبب انشغالهم بأمور العبادة، إذ عدّوا الأولاد والعيال عائقاً يشغل عن صدق اليقين والعبادة، قال أبو سليمان الداراني: "العيال يضعفون يقين الرجل، إنه إذا كان وحده فجاع فرح، وإذا كان له عيال فجاعوا طلب لهم، وإذا جاء الطلب، فقد ضعف اليقين"^(٤)، ولكن الزهد لم يكن يعني الرهينة، إذ لا رهينة في الإسلام، لذلك كان معظم الزهاد والمتصوفة متزوجين ولديهم عيال، فالزاهد أبو عبد رب الدمشقي كان لديه ثمانية عيال، وليس لديه أي دخل إلا ما يخرج من بيت

(١) المزري، تهذيب الكمال، مج ٢، ص ٣٢؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ١٦٨.

(٢) الأصبهاني، حلية الأولياء، مج ٩، ص ٢٧٨؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٤، ص ٢٣٠.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٤، ص ١٥٣.

(٤) السلمي، طبقات الصوفية، ص ٨٠.

المال^(١)، وكان لأحمد بن أبي الحواري أربع نساء^(٢)، والزاهد محمد بن إسماعيل الفرغاني (ت، ٣٣١هـ/ ٩٤١م) كان متزوجاً، وعنده عدة أولاد^(٣).

واقصر الزهاد والمتصوفة في لباسهم على البسيط من الألبسة، فقد لبس إبراهيم بن أدهم في الشتاء فروة ليس تحتها قميص، ولبس في الصيف شقتين، اتزر بواحدة وارتدى أخرى، ولم يلبس عمامة ولا خفين^(٤)، وذكر معروف الكرخي^(٥) أنه التقى في البادية رجلاً شاباً عابداً من أهل دمشق على رأسه رداء قصب، وعليه قميص كتان، وفي رجله نعل طاق^(٦)، وكان أبو معاوية الأسود الزاهد - من أقران إبراهيم بن أدهم - يجمع الألبسة القديمة ويغسلها ويلبسها، ف قيل له: "إنك تُكسى خيراً من هذه"، فردّ: "ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا، جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة"^(٧)؛ وكان أبو سليمان الداراني يلبس "قباءً أحمر، وقلنسوة حمراء مقلوبة، وخفّاً أحمر"^(٨).

ومن المفيد هنا ذكر وصف المقدسي لحياة الزهاد والمتصوفة في جبل لبنان في القرن الرابع الهجري إذ قال: "إن جبل لبنان كثير الأشجار والثمار،

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٧، ص ٥٤.
- (٢) ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص ٣٦؛ متر، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٥.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ١١٦ - ١٢٣.
- (٤) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ١٨٩.
- (٥) معروف الكرخي: ينسب إلى الكرخ ببغداد، كان من المشايخ الكبار، توفي سنة ٢٠٠هـ / ٨١٥م؛ القشيري، الرسالة القشيرية، ج ١، ص ٦٥.
- (٦) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٤، ص ٢٨٩.
- (٧) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٧، ص ٢٤٢.
- (٨) ابن عساكر، م. ن، ج ٥٧، ص ٣٨٩.

يتعبد أقوام فيه، قد بنوا لأنفسهم بيوتاً من القش يأكلون من تلك المباحات، ويرتفعون بما يحملون منها إلى المدن من القصب الفارسي والمرسين وغير ذلك... وجبل الجولان يقابله من نحو دمشق... وبه لقيت أبا إسحاق البلوطي^(١) في أربعين رجلاً، لباسهم الصوف، ولهم مسجد يجتمعون فيه، رأيته فقيهاً عالماً على مذهب سفيان الثوري، ورأيت تقوتهم بالبلوط، ثمرة على مقدار التمر مريفلق ويحلى ثم يطحن، وشم شعير بري يخلط به^(٢).

ومن الجدير بالذكر أن الصوفية والزهاد عرفوا باسم الفقراء، وغلب عليهم هذا الاسم منذ القرن الثالث الهجري، وقد يعود ذلك إلى حياتهم القائمة على التقشف والزهد، وتحمل المشاق والجوع والعطش، ولبس المرقات من الألبسة، وأكل الطعام الرديء.

وعدّوا أنفسهم أمناء الله في أرضه وحجته على عباده، وأنهم يمتدنون بنسبهم إلى الله عز وجل، فالزاهد محمد بن إسماعيل أبو عبد الله المغربي (ت، ٢٧٩هـ/٨٩٢م) قال: "الفقراء الراضون هم أمناء الله في أرضه وحجته على عباده، بهم يندفع البلاء عن الخلق"^(٣)، وقال محمد بن داود الصوفي: "كل أحد ينتسب إلى نسب إلا الفقراء، فإنهم ينتسبون إلى الله تعالى، وكل حسب ونسب ينقطع إلا حسبهم ونسبهم، فإن نسبهم الصديق وحسبهم الصبر"^(٤).

(١) إبراهيم بن حاتم بن مهدي، أبو إسحاق التستري البلوطي: نزل الشام، وسكن بيت لها، وحدث عن جماعة من أهل تستر، كان صاحب أحوال وكرامات ومجاهدات، توفي في حدود ٣٥٠هـ/ ٩٦١م؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج. و) ٣٣١-٣٤٠-٣٤١-٣٥٠هـ، ص ٤٦٣.

(٢) أحسن التقاسيم، ص ١٦٢.

(٣) السلمي، طبقات الصوفية، ص ٢٤٥.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٥، ص ٢٦٧.

ومن حيث المكانة الاجتماعية، تمتع الفقراء باحترام المجتمع وتقديره، فالزاهد أبو حمزة الخراساني - من أهل خراسان، سكن دمشق (ت، ٢٩٠هـ / ٩٠٢م) - كان يجالس الفقراء ويعطف عليهم^(١)، وكان المحبون لأهل الطرق الصوفية كثيراً ما يدعونهم إلى الطعام، فالشيخ أحمد بن عطاء بن أحمد الروذباري، شيخ الشام في وقته، توفي بصور سنة ٣٦٩هـ / ٩٧٩م، كان يعطف على الفقراء ويقربهم^(٢).

وهكذا يمكن القول إن الزهد والتصوف الذي كان يمارس بشكل فردي في القرنين الأول والثاني الهجريين، صار في القرنين الثالث والرابع يمارس بشكل جماعي إذ صار لكل شيخ من شيوخ الصوفية أتباع عرفوا بالفقراء ولهم مسجد كما فعل أبو إسحاق البلوطي وغيره.

وفيما يلي بعض أعلام الزهاد والمتصوفة:

- إبراهيم بن أدهم بن منصور العجلي: أصله من قبيلة عربية في بلخ، كان من أبناء الملوك، ثم لزم طريق الزهد والورع، ودخل مكة، وصحب بها سفيان الثوري، ثم تحول إلى الشام، فدخل دمشق، وقضى أربعاً وعشرين سنة في الشام، عمل خلالها في حفظ البساتين والحصاد لتأمين لقمة العيش، ومن أقواله: "ما تهنت بالعيش إلا في بلاد الشام، أفرُّ بديني من شاهق إلى شاهق، فمن رأني يقول موسوس، ومن رأني يقول جمال"^(٣)، وسئل عن

(١) السلمي، طبقات الصوفية، ص ٣٢٦-٣٢٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٦، ص ١٥٤-١٥٧.

(٢) القشيري، الرسالة القشيرية، ج ١، ص ١٩٨؛ السلمي، طبقات الصوفية، ص ٤٩٧.

(٣) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٤، ص ١٥٥؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٧، ص ٣٣٥؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ٢، ص ٣٣؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ١٧٣.

سبب تركه التحديث فقال إني مشغول عنه بثلاث: "الشكر على النعم، والاستغفار من الذنوب، والاستعداد للموت"^(١).

ولا ينال الرجل درجة الصالحين - حسب قوله - حتى يتجاوز ست عقاب هي: إغلاق باب النعمة وفتح باب الشدة، إغلاق باب العز وفتح باب الذل، إغلاق باب الراحة وفتح باب الجهد، إغلاق باب النوم وفتح باب السهر، إغلاق باب الغنى وفتح باب الفقر، إغلاق باب الأمل وفتح باب الاستعداد للموت^(٢). توفي سنة (١٦١ أو ١٦٢ هـ / ٧٧٧-٧٧٨ م) ودفن على ساحل البحر^(٣).

- عبد الرحمن بن عمرو، أبو عمرو الأوزاعي (ت، ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م): وصفه الأصبهاني بقوله: "كان واحد زمانه وإمام عصره، كان ممن لا يخاف في الله لومة لائم مقولاً بالحق لا يخاف سطوة العظام"^(٤)، أصله من سبي السند، نسب إلى الأوزاع، وهي بطن من حمير، وقيل إنه لم يكن منهم، وإنما نزل الأوزاع، وهي قرية خارج باب الفراديس من قرى دمشق فنسب إليها، ومع دخول العباسيين دمشق رحل منها إلى بيروت، وأقام فيها مرابطاً^(٥). ولما توفي "لم يخلف إلا ستة دنانير فضلت من عطائه، وكان قد كتب في ديوان الساحل"^(٦).

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٣، ص ٢١٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ١١١.

(٢) السلمى، طبقات الصوفية، ص ٣٨؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ١، ص ٤٨.

(٣) المقرئ، م. ن، ج ١، ص ٥١؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ٢، ص ٣٧.

(٤) حلية الأولياء، مج ٦، ص ١٤٦.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ١٩٨-١٩٩؛ الخطيب، محاسن المساعي،

ص ٤٩-٥١؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ١، ص ١٩٦-١٩٨؛ صفة

الصفوة، ج ٤، ص ٢٥٥-٢٥٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٩٤.

(٦) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ١٣٧.

مثل الأوزاعي فئة الزهاد المتورين، وعرف بمواعظه الجريئة، فقد وعظ الحكام، وحضهم على العدل وإحقاق الحق بين الرعية، وتلطف في ردهم عن الباطل، وساد أهل الشام بعلمه وفقهه، ودعا إلى العبادة، إذ قال: "ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوم القيامة يوماً فيوماً، وساعة فساعة، ولا تمر به ساعة لم يذكر الله فيها إلا وتقطعت نفسه عليها حسرات فكيف إذا مرت به ساعة مع ساعة، ويوم مع يوم"^(١).

- عبد الرحمن بن أحمد بن عطية أبو سليمان الداراني (ت، ٢٠٥ أو ٢١٥هـ / ٨٢٠ أو ٨٣٠م): من أهل داريا، كان من العباد والزهاد، زار بغداد، وقضى فيها بعض الوقت ثم عاد إلى الشام، فأقام بها حتى توفي، أنفق كل ما يملك في وجوه البر والتقوى، وقد تبلورت على يديه بعض المبادئ المتصلة بالزهد، واستقطب نشاطه عدداً كبيراً من التلاميذ والأنصار الدمشقيين، والتعاليم التي دعا إليها هي الإيمان بالقدر، والتعفف، والعمل من أجل تأمين لقمة العيش، ومن أقواله: "كل ما شغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو عليك مشؤوم"^(٢)، "وأفضل الأعمال خلاف هوى النفس"^(٣)، وقال: "جوع قليل وسهر قليل ويرد قليل يقطع عنك الدنيا"^(٤).

(١) الأصبهاني، حلية الأولياء، مج ٦، ص ١٥٢.
(٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١٠، ص ٢٤٩؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة،

ج ٤، ص ٢٢٤.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٤، ص ١٢٧.

(٤) الأصبهاني، حلية الأولياء، مج ٩، ص ٢٧٠.

- أحمد بن أبي الحواري (ت، ٢٤٦هـ/٨٦٠م): من تلامذة أبي سليمان الداراني، وهو من أسرة معروفة بالزهد والورع، أصلها من الكوفة، سكنت دمشق، عُرف بالزهد والورع، وكثرة قراءة القرآن، والتفكير بآياته حتى إنه وصف بريحانة الشام، وقال عنه يحيى بن معين: "أظن أهل الشام يسقيهم الله الغيث به"^(١).

خرج ابن أبي الحواري إلى بيروت مرابطاً، فتدفقت الهدايا عليه من أول النهار إلى منتصفه، فأقام يوزعها حتى غابت الشمس^(٢). ومن أقواله في الزهد: "إذا رأيت من قلبك قسوة فجالس الذاكرين، واصحب الزاهدين، وأقلل مطعمك، واجتنب مرادك، وروّض نفسك على المكاره"^(٣).

- قاسم بن عثمان العبدي الجوعي (ت، ٢٤٨هـ/٨٦٢م): صحب أبا سليمان الداراني وحدث عنه، كان من مشايخ دمشق الكبار ومحدثيها، وهو من أقران أحمد بن أبي الحواري ويقدم في الفضل عليه، وله في جامع دمشق حلقة تعليم، لكنه على ما يبدو حوّلها إلى حلقة للوعظ، فقد ذكر عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي^(٤) أنه دخل دمشق على كتبة الحديث، فمرّ بحلقة

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٤، ص ٢٣٧؛ ابن الملقن، طبقات الأولياء، ص ٣١؛

العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٤٥.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧١، ص ٢٤٨.

(٣) السلمي، طبقات الصوفية، ص ١٠٢.

(٤) عبد الرحمن بن محمد بن إدريس، أبو محمد بن أبي حاتم الرازي: أحد الحفاظ، صنّف كتاب الجرح والتعديل، رحل في طلب الحديث، سمع بالعراق ومصر ودمشق، توفي سنة ٣٢٧هـ/٩٣٧م؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ٣٥٧-٣٦٦.

قاسم الجوعي، فرأى نفرأً جلوساً حوله، وهو يتكلم ويوصيهم، قال:
"فحصلت فائدتي من دمشق"^(١).

طوّر قاسم الجوعي مسألة الزهد، وركّز على تعذيب الجسد مكمّن الشهوات عن طريق الجوع، فقد قال في الزهد: "رأس الأعمال كلها الرضا عن الله، والورع عماد الدين، والجوع مخ العبادة، والحصن الحصين ضبط اللسان"^(٢)، وقد انتقد الجوعي - في الجامع - أحمد بن أبي الحواري لأنه قبل هدايا الخلافة العباسية بقوله: "أخذ دراهم اللصوص، ولبس قلانس اللصوص"^(٣).

- مضاء بن عيسى: وهو من أقران أبي سليمان الداراني، ومن أساتيد أحمد بن أبي الحواري، كان يسكن راوية من قرى دمشق، ومن أقواله: "رحم الله أقواماً زاروا إخوانهم في قلوبهم بقلوبهم، وهم قيام في محاريبهم"، وقال: "يا معشر الفقراء، أعطوا الله الرضا من قلوبكم يثبتكم على فقركم"، وقال: "إنما أرادوا بالزهد لتفرغ قلوبهم للآخرة"^(٤).

- محمد بن حسان أبو عبيد الغساني البصري (ت، ٢٣٨هـ / ٨٥٢م):
من أهل بُسْر - قرية من حوران - نُسبت إليه كرامات كثيرة، منها أنه

(١) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٥، ص ٣٥٩؛ ج ٤٩، ص ١٢٠؛ ابن الجوزي، صفة الصفة، ج ٤، ص ٢٣٧.

(٢) الأصبهاني، حلية الأولياء، مج ٩، ص ٣٣٦؛ ابن الجوزي، صفة الصفة، ج ٤، ص ٢٣٦.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٩، ص ١٢١.

(٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٥٨، ص ٢٨١ - ٢٨٤؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٤، ص ٣٤١ - ٣٤٢.

كان يبقى رمضان صائماً في الليل والنهار دون طعام^(١)، وكان يقول إن الله أذهب من قلبه كل الشهوات إلا شهوة النساء ولما سئل عن ذلك، أجاب: "إن الله تبارك وتعالى قد قضى في مبدأ خلقه أن يكون بشيء قدره وقضاه فلا راد لقضائه"^(٢).

- محمد بن أحمد بن سيد حمدويه التميمي (ت، ٣٠١هـ/٩١٣م): صحب قاسماً الجوعي وحدث عنه، ولما توفي الجوعي اعتزل الناس، وأقام في المغاور إحدى عشرة سنة لا يكلم أحداً، وذكر أنه أقام خمسين سنة ما استند ولا مدّ رجليه بين يدي الله هيبه له، وكان له تلاميذ كثير، عبّروا عن إحساسهم بعظم فقدته بعد أن مات فقالوا: "تركنا المعلم أغنياً لا نفتقر بعده، وفقراء لا نستغني بعده" أي أغناهم بأخلاقه وأدبه، وأفقرهم لعدم وجود مثله^(٣).

- أبو عمرو الدمشقي (ت، ٣٢٠هـ/٩٣٢م): من كبار مشايخ الصوفية، صحب ابن الجلاء، وذا النون المصري، ودعا إلى محاربة الشهوات والرغبات، وعدّ أضعف الخلق من استسلم لرغباته وأهوائه، وأقوى الخلق من خالف هواه، وأعقلهم من التزم بالعبادة، وعرفّ التصوف بأنه "رؤية الكون بعين النقص، بل غض الطرف عن كل ناقص ليشاهد من هو منزّه عن كل نقص"، وقال: "حقيقة الخوف ألاّ تخاف مع الله أحداً"، و"الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان"^(٤).

(١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج ١١، ص ٢٦٣-٢٦٤؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ١، ص ٤٩٨-٤٩٩، مادة "بُسر".

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ٢٨١.

(٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٥١، ص ٥٥-٥٦.

(٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٦٧، ص ١٠٠-١٠١؛ الأصبهاني، حلية الأولياء، مج ١٠، ص ٣٦٨.

- محمد بن إسماعيل أبو بكر الفرغاني (ت، ٣٣١هـ / ٩٤٢م): من مشايخ الصوفية بدمشق، زار مصر ومكة وبغداد، عرف بصبره على الجوع، وكان يجلس في جامع دمشق وبيكي، فجاءه ميراث من العراق بلغ قدره مئتي دينار، فوُزَّعها على المستورين، فقالت له زوجته: تفرق المئتي دينار وتردنا إلى الفقر، فردَّ عليها: "ما أبيع مذهبي بمئتي دينار"^(١).

- عباد بن عبد الله أبو الخير الأقطع التيناتي (ت، ٣٤٣هـ / ٩٥٤م)^(٢): أصله من المغرب، نسب إلى تينات من نواحي المصيصة لأنه أقام بها، وسكن جبل لبنان، ونسبت إليه كرامات عديدة، من أقواله: "ما بلغ أحد حالة شريفة إلا بملازمة الموافقة ومعانقة الأدب، وأداء الفرائض، وصحبة الصالحين، وخدمة الفقراء الصادقين"^(٣).

أما النساء المتعبدات فكان منهن:

- أم هارون الخراسانية: كانت أستاذة أبي سليمان الداراني^(٤).

- عبدة أخت أبي سليمان الداراني: عرفت بالعقل والدين، من أقوالها: "الفقراء كلها أموات إلا من أحياه الله تعالى بعز القناعة والرضا بفقره"^(٥).

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ١٢٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء،

ج ١٥، ص ٢٩٠.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٦، ص ١٦٠، "ذكر اسمه حماد بن عبد الله".

(٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٦٦، ص ١٦١؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٤، ص ٢٨٤.

(٤) ابن عساكر، تراجم النساء، ص ٥٥٢ - ٥٥٣؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ٤،

ص ٣٠٤.

(٥) ابن الجوزي، م.ن، ج ٤، ص ٣٠٠.

- رابعة بنت إسماعيل زوج أحمد بن أبي الحواري: وقيل اسمها رابعة
- بالياء - ذكر أحمد بن أبي الحواري أن لها أحوالاً شتى، فمرة يغلب عليها
الحب، ومرة الأنس، ومرة الخوف، وكانت ذات ثروة طائلة صرفتها على
زوجها، وقالت له: "لست أستحل أن أمنعك نفسي وغيري، اذهب
فتزوج"، فتزوج ابن أبي الحواري ثلاثاً غيرها^(١).

- ثوية بنت بهلول: زاهدة من أهل دمشق سمعها أحمد بن أبي
الحواري تقول: "فُرّة عيني ما طابت الدنيا والآخرة إلا بك فلا تجمع علي
فقدك والعذاب"^(٢).

- امرأة متعبدة: سألت أحمد بن أبي الحواري عن طريق النجاة
فأجابها: "لا يقطع ذلك إلا بالسير الحثيث في الجهد، وتصحيح المعادلة،
وحذف العلائق الشاغلة عن أمر الدنيا والآخرة" فهات^(٣).

- امرأة متعبدة: كانت تسكن باب الجابية عندما دخل محمد بن
رائق دمشق وأحرقها، فكانت قائمة تصلي والحريق يعمل في بيتها،
"فجاء إليها زوجها، فقال: قد كربتني بصلاتك هذه، إذا كان ولا بدَّ
فادعي عليهم! فقالت: يا هذا، كيف يجوز لي أن أدعو على قوم ألحقوني
بدرجة الفقراء"^(٤).

(١) ابن الجوزي، م.ن، ج ٤، ص ٣٠٠-٣٠٣.

(٢) ابن الجوزي، م.ن، ج ٤، ص ٣٠٥.

(٣) ابن الجوزي، م.ن، ج ٤، ص ٣٠٧؛ ابن عساكر، تراجم النساء، ص ٥٨٣.

(٤) ابن عساكر، م.ن، ص ٥٨٥.

٢ - المسيحيون:

من المعروف أن بلاد الشام مهد الديانة المسيحية، ومنها انتشرت إلى أصقاع العالم، وقد اعتنقتها بعض القبائل العربية النازلة على تخوم الشام والعراق كبنى غسان وبكر وتنوخ وتغلب^(١)، وحين قدمت جيوش الفتح العربي الإسلامي تحمل رسالة الإسلام من المدينة إلى الشام في القرن السابع الميلادي، استقبل العرب في الشام المسلمين استقبلاً جيداً، وكان المسلمون متسامحين مع الأديان الأخرى، والتزموا بالعهود التي أعطوها، فحافظ بعض النصارى على دينهم، وتمتعوا بحماية المسلمين، وأُعفوا من الخدمة العسكرية بشرط أن يؤدوا الجزية، لذلك سمّوا أهل الذمة، واقتصرت الجزية على المسيحيين القادرين على حمل السلاح فقط، وأُعفي منها الصبيان والشيوخ والعجزة والنساء والمعدمون، وتؤخذ منهم الجزية سنوياً على قدر طبقاتهم، فعلى الفقير المعيل دينار، وعلى المتوسط ديناران، وعلى الغني أربعة دنانير^(٢).

وقد تمتع النصارى بقسط وافر من الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية، وكان مرجعهم في الأمور الدينية والقضائية إلى رؤسائهم الروحيين إلا في القضايا التي مست المسلمين^(٣)، وتمتعوا بحرية العمل، إذ اشتغل معظم نصارى

(١) حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٩٨.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص ١٢٤؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٢٥.

(٣) ورد في بعض المصادر أنه حصل نزاع بين المسلمين والنصارى، فاحتكم النصارى إلى قاضي دمشق يحيى بن حمزة؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٥٤؛ ابن شداد، قسم دمشق، ص ٢٦٩-٢٧٠.

الشام في الأمور الكتابية والطب^(١)، وكانت الروابط بينهم وبين المسلمين قوية، وشارك كل طرف الآخر في أعياده واحتفالاته، وقلد النصارى المسلمين في ملبسهم ومظهرهم، وتبادل الفريقان الهدايا والمأكولات في المناسبات الدينية، وغير الدينية^(٢)، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كان المسلمون على صلة مع النصارى في حياتهم اليومية، وسكنوا معهم في دور واحدة أحياناً^(٣).

وشارك المسلمون النصارى في آلامهم، فعندما ثار قوم من نصارى جبل لبنان، وشكوا من عامل خراج بعلبك، ووجه صالح بن علي من قتل مقاتليهم، وفرقهم في قرى الشام، كتب الإمام الأوزاعي إليه كتاباً يعاتبه، ويذكره بسنة رسول الله ﷺ في معاملة أهل الكتاب^(٤). وذكرت المصادر أن نصراًياً جاء إلى الأوزاعي حاملاً جرة عسل، وطلب منه أن يكتب إلى والي بعلبك للتخفيف عنه، فردّ الأوزاعي الجرة وكتب له، فوضع عنه ثلاثين ديناراً^(٥).

وعندما وقع حريق في كنيسة مريم سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧م سارع أحمد بن طولون مباشرة إلى مكان الحريق للمشاركة في إطفائه، ومعه أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو، ووزع سبعين ألف دينار على الذين تضرروا من الحريق^(٦)، وشارك النصارى المسلمين أيضاً في آلامهم وثوراتهم ضد من

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٧.

(٢) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٣٦٨.

(٣) خماش، الشام في صدر الإسلام، ص ١٣٢.

(٤) ابن زنجويه، كتاب الأموال، ج ١، ص ٤١٩-٤٢٠؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٨٦.

(٥) الأصبهاني، حلية الأولياء، مج ٦، ص ١٥٤.

(٦) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧١، ص ٢١٨-٢١٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و)

٢٦١-٢٧٠ - ٢٧١-٢٨٠هـ، ص ٤٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٩.

يظلمهم، فعندما قام أهل حمص بثورة ضد عاملها محمد بن عبدويه سنة ٢٤١هـ / ٨٥٥م أعانهم قوم من نصارى حمص في ثورتهم، لذلك أمر الخليفة المتوكل عماله باستخدام الشدة للقضاء على هذه الثورة، وأعانهم بقوة من دمشق للانتقام من المشتركين فيها^(١).

وتشير الكنائس^(٢) والأديرة^(٣) التي تركت للنصارى في دمشق عند الفتح الإسلامي، وظلت قائمة لممارسة شعائرتهم، إلى مقدار الحرية التي تمتع النصارى بها في ظل الحكم العربي الإسلامي، ولم يقتصر هذا الأمر على طائفة من طوائفهم، بل شملهم بطوائفهم المختلفة من نسطورية ويعقوبية ومارونية وملكانية^(٤). والجدير بالذكر أن كنائس النصارى وأديرتهم التي كانت تتأذى في أوقات الأزمات، كان يسمح لهم بإعادة بنائها، وهذا ما حصل في عهد الخليفة المقتدر، إذ سمح لهم بإعادة إعمار كنائسهم التي لحقها

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) حول الكنائس التي تركت للنصارى، انظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص ٣٥٥ - ٣٥٨؛ ابن شداد، قسم دمشق، ص ٢٧١ - ٢٧٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، ص ١٨ - ١٩؛ إثناسيو، متري هاجي، موسوعة بطيركية أنطاكية التاريخية والأثرية، سورية المسيحية في الألف الأول الميلادي، ط١، ١٩٩٧م، مج ٥، ص ٩٩.

(٣) حول الأديرة في جند دمشق، انظر: الشابشتي، الديارات، ص ٢٠٤ - ٢١٤؛ ابن شداد، قسم دمشق، ص ٢٧٧ - ٢٨٧؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار صادر)، ج٢، ص ٤٨٦ - ٥٤٣.

(٤) حول هذه الطوائف، انظر: ابن حزم، علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري (ت، ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمن عميرة، بيروت، دار الجيل، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ج١، ص ١١٠ - ١١٢؛ المقدسي، البدء والتاريخ، ج٤، ص ٤٥ - ٤٦؛ إثناسيو، موسوعة بطيركية أنطاكية، مج ٥، ص ١٢٢ - ١٢٤؛ حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج٢، ص ١٣٥ - ١٤٣؛ خوري، صيداء عبر حقب التاريخ، ص ١٣٨.

التخريب بدمشق والرملة وقيسارية في إثر الاضطرابات التي حصلت سنة ٣١٢هـ / ٩٢٤م^(١).

٣ - اليهود:

كان من نتائج التسامح الديني وجود جماعات من أتباع الديانة اليهودية في بعض مناطق جند دمشق، وقد نظرت إليهم الحكومة الإسلامية بصفتهم أصحاب دين سماوي، وعاملتهم كما عاملت النصارى من حيث التسامح معهم في ممارسة عقائدهم، ومن حيث تعهد الدولة بحمايتهم مقابل دفعهم الجزية، فعرفوا كما عرف النصارى باسم "أهل الذمة".

ومن المرجح أن هؤلاء اليهود يعودون في أصولهم إلى العرب الذين اعتنقوا الديانة اليهودية، واستفاد هؤلاء اليهود من أجواء الإخاء والتسامح الديني في ظل الحكم العربي الإسلامي، فتعايشوا جنباً إلى جنب مع العرب المسلمين، وقد عرف عنهم حب المناصب والأموال، واستخدام أساليب متعددة للوصول إلى غايتهم، وكان وجودهم مرتبطاً ببعض الحرف التي توارثوها، وظلوا يعملون بها كالصباغة واللباغة وصناعة الزجاج والصيرفة والجهبذة^(٢).

ويبدو من خلال ما ذكره ابن عساكر أن بعض اليهود لم يقابل المعاملة الحسنة من جانب المسلمين بالجميل كما مع اليهودي يحيى بن أرميا في منطقة البلقاء، فكان يقطع الطرق، ويسلب المارين فيها في عهد الوالي إبراهيم بن المهدي، فحاول هذا الوالي أن يثنيه عن ذلك، وأن يلزمه دفع جزية دينارين،

(١) متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٧٩.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٧.

ومقابل ذلك تكون له مكافأة كبيرة تصل إلى ألفي دينار سنوياً، إلا أن ابن أرميا لم يرضَ، واستمر يقطع الطرق، فكانت نهايته قتلاً من قبل أتباع الدولة^(١).

ورغم قلة اليهود لم يكونوا فرقة واحدة، بل كانوا منقسمين إلى فرق عديدة، منها: السامرية، والربانية، والقرائية^(٢).

إن نظرة عامة في الوضع الديني في جند دمشق تبين أن السواد الأعظم من السكان كان من المسلمين، وإلى جانبهم كان هناك أقليات من أتباع الديانتين المسيحية واليهودية، أما المسلمون فمعظمهم كان من أهل الجماعة، غير أن ذلك لم يمنع من انتشار آراء بعض الفرق كالمرجئة والخبرية والقدرية وغيرها، ولم يكن لأتباع هذه الفرق أي تأثير ظاهر في مجتمع جند دمشق، وتباينت نظرة العلماء والمحدثين إلى أتباع هذه الفرق، ففي حين نظر إليهم الكثير بصفتهم أصحاب بدع، وعملوا على محاربتهم، فحذروا منهم، ووصفوهم بالضعف، وامتنعوا عن تحديثهم والكتابة عنهم، لم يرَ بعض العلماء بأساً في الإفادة من علم أتباع هذه الفرق.

ولم يقتصر الأمر على أتباع هذه الفرق، فقد تأثر جند دمشق بمحنة القرآن التي أثارها المعتزلة في مطلع القرن الثالث الهجري، مما أدى إلى امتحان القضاة والمحدثين فيه في مسألة خلق القرآن، وكان من الحركات الدينية الشيطانية حركة الزهد والتصوف، إذ ظهر زهاد ومتصوفة كثير، تركوا

(١) تاريخ مدينة دمشق، ج ٧، ص ١٦٠-١٦١؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٢) حول هذه الفرق، انظر: ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ١، ص ١٧٧-١٧٨؛ المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٤، ص ٣٤؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٩٧-٩٩.

إغراءات الحياة الدنيا ومتاعها، وانقطعوا للعبادة، وعاشوا حياة كلها زهد وتقشف، وقد انقطع بعضهم في المساجد والأماكن الخالية للعبادة والصمت والتأمل والتفكير، بينما رابط بعضهم في الثغور للقيام بالجهاد، وقد حث الزهاد والمتصوفة على الحزن والبكاء، وروضوا أنفسهم على الصبر وتحمل المشاق، وعدّوا العمل شرطاً من شروط الإيمان والعبادة، واقتصروا في لباسهم على البسيط من الألبسة، وكذلك اقتصروا في طعامهم على الأطعمة البسيطة.

أما المسيحيون واليهود، فكانوا من الذين شملهم الإسلام بعهدته وذمته، وعاشوا بمختلف طوائفهم في أجواء الإخاء والتسامح الديني في ظل الحكم العربي الإسلامي، وجمعتهم مع المسلمين روابط اجتماعية قوية، ومارسوا شعائرهم الدينية بكل حرية، وكان وجودهم مرتبطاً ببعض الحرف التي توارثوها.

الهيئة العامة السورية للكتاب

الفصل الثالث الأوضاع الاقتصادية في جند دمشق

أ - الزراعة:

١ - المناطق الزراعية.

٢ - طرق الري ووسائله.

٣ - أصناف الأراضي الزراعية وملكيته.

٤ - طرق الزراعة واستثمار الأرض.

٥ - المحاصيل الزراعية.

٦ - الأشجار المثمرة.

٧ - الأشجار غير المثمرة.

٨ - المراعي.

٩ - الثروة الحيوانية.

ب - الصناعة والحرف:

١ - أوضاع الحرفيين والتنظيم الحرفي.

٢ - أنواع الصناعات والحرف:

أولاً - النسيج والحياكة.

ثانياً - الحرف المعدنية.

ثالثاً - الورق.

رابعاً - الزجاج.

خامساً - الصناعات الغذائية.

سادساً - الحرف الخشبية.

سابعاً - الصابون والدهون والعقاقير والعطور.

ثامناً - الدباغة وصناعة الجلود.

تاسعاً - الفسيفساء والرخام.

عاشراً - الخزف والفخار.

ج - التجارة:

١ - العوامل المؤثرة في التجارة.

٢ - الطرق التجارية:

أولاً - الطرق الداخلية.

ثانياً - الطرق الخارجية.

٣ - أماكن نزول التجار.

٤ - التجارة الداخلية.

أولاً - أهم الأسواق والمراكز التجارية.

ثانياً - الرقابة على الأسواق.

ثالثاً - الأسعار وأسباب الغلاء.

٥ - التجارة الخارجية.

٦ - وسائل التعامل التجاري.

٧ - المكاييل والأوزان.



الهيئة العامة
السورية للكتاب



الهيئة العامة
السنورية للكتاب

الأوضاع الاقتصادية في جند دمشق

تقدمت الإشارة إلى أن الأوضاع السياسية خلال هذه المدة لم تكن مستقرة في أغلب الأحيان، إذ كانت أراضي جند دمشق غالباً مسرحاً لحروب وثورات واضطرابات متعددة، وهذا ما أدى إلى تدمير قرى زراعية كثيرة، وتأخر المهن والحرف اليدوية، واضطراب أوضاع التجارة.

وأسهمت الكوارث الطبيعية في زيادة سوء الأوضاع الاقتصادية، ففي سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م حدث زلزال قوي في دمشق، أدى إلى سقوط بعض شرفات الجامع الأموي، وخراب منازل كثيرة، فمات خلق كثير تحت الردم^(١)، وتكرر حدوث الزلازل في مناطق الشام في السنوات ٢٣٩هـ/٨٥٣م^(٢)، و ٢٤٢هـ/٨٥٦م^(٣)، و ٢٤٥هـ/٨٥٩م^(٤)، و ٢٦٧هـ/٨٨٠م^(٥).

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٢٦؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر الخضير، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، حققه وعلق عليه: عبد الرحمن بن عبد الجبار الفيرواني، المدينة المنورة، مكتبة الدار، ط ١، ١٤٠٤هـ، ص ٧٠.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٦١.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢٠٧؛ السيوطي، كشف الصلصلة، ص ٧٤.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢١٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٨٢؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٤٩١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٨٧.

(٥) ابن الأثير، م. ن، مج ٧، ص ٣٦١.

وأدى تدهور الأوضاع الاقتصادية إلى حدوث أزمات اقتصادية خانقة، ففي أيام الوالي معيوف بن يحيى بن معيوف انتشر الغلاء، وارتفعت الأسعار بشكل كبير جداً^(١)، وتكرر حدوث الغلاء وارتفاع الأسعار في سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م عندما نزل المتوكل دمشق^(٢)، وفي أيام الوالي نازوك من سنة ٣٠٧هـ / ٩١٩م إلى سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م^(٣)، وفي أيام شعلة بن بدر من سنة ٣٣٨هـ / ٩٤٩م إلى سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م^(٤)، وفي مطلع العصر الفاطمي^(٥).

ومما يدل على تدهور الأحوال السياسية، وتأخر الأوضاع الاقتصادية، ما نقله ابن عساكر من صور الخراب والدمار اللذين لحقا بالمنطقة، قال: "كان على نهر يزيد رواشن مشرفة على النهر، وكان أكثر ظاهر البلد منازل للقبائل، وقرى متصلة وأبنية متقاربة، فخرّب أكثر ذلك في الفتن والحروب والحصارات، وباد أهلوه، وتمادى عليه الخراب إلى الآن، [وما من]... موضع حُفِرَ إلا وجد فيه أثر العمارة في سائر نواحي البلد من قبلية وشرقية وشامية، وغربية"^(٦).

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٩، ص ٤٤٦؛ كرد علي، غوطة دمشق، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.
- (٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢١٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٨٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٩٠.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦١، ص ٣٧٩.
- (٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٦، ص ١٥٩؛ تحفة ذوي الألباب، ص ٢٨٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٣١ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٥٠هـ، ص ٣٢٨.
- (٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٥ - ١٠.
- (٦) تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٦٧.

أ- الزراعة:

شكلت الزراعة أهم أركان الاقتصاد في جند دمشق، إذ كان التجمع السكاني في القرى والأرياف أكبر من المدن وحواضرها، وقد أدى موقع جند دمشق وطبيعة تضاريسه إلى تنوع المناخات فيه، وتنوع زراعته، وأسهم في تنوع زراعته خصوبة الترب المنتشرة فيه، وغناها بالعناصر المعدنية، وفيها توجد أنواع مختلفة من المزروعات والأشجار، ومن هذه الترب: التربة الكلسية الطينية التي تشكلت من رسوبيات ولحقيات الأنهار، وهي تنتشر في أكثر قرى حوران والغوطة، وهناك التربة الرملية الطينية الرملية، وتوجد في بعض قرى الغور والبقاع، وتنتشر التربة الرملية الطينية في بعض قرى الساحل، وفي السهول الشرقية القريبة من البادية، وتتواجد التربة البازلتية البركانية في حوران والجولان واللجاة والصفاء، وهناك التربة الطباشيرية في جبال لبنان وسنير وحرمون، ومناطق شرق نهر الأردن، وسهول البلقاء وتدمر^(١).

١ - المناطق الزراعية:

وجد في جند دمشق مناطق زراعية عديدة، وأهمها: الغوطة التي وصفت بأنها من جنان الدنيا، فقد ذُكر أن جنان الدنيا ثلاث هي "غوطة دمشق، ونهر بلخ^(٢)، ونهر الأبلَّة"^(٣)، واشتهرت الغوطة بخصوبة تربتها ووفرة مياهها، وكثرة

(١) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ١٧١ - ١٧٢.

(٢) نهر بلخ: ينسب إلى مدينة بلخ، وهي مدينة مشهورة بخراسان ويقال لنهر جيحون نهر بلخ؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ١، ص ٥٦٨.

(٣) ابن الفقيه، البلدان، ص ١٥٥؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٢، ص ٤٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٩٤؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٦١؛ نهر الأبلَّة: ينسب إلى مدينة الأبلَّة الواقعة في جنوب العراق، وهو نهر مشقوق من نهر دجلة،

بساتينها وزروعها، وذكر ابن حوقل أن طولها يبلغ مرحلتين^(١)، وعرضها يبلغ مرحلة ووصفها بأنها "أنزه مكان بالشام"^(٢)، وروى بعض محدثي دمشق أن المسيح عليه السلام أشرف على الغوطة من جبل الكسوة، فلما نظر إليها قال، "إن يعجز الغني أن يجمع فيها كنزاً، فلن يعجز المسكين أن يشبع فيها خبزاً"^(٣)، وهذا يعني أنه لا يموت أحد فيها من الجوع، وروى ابن عساكر أن خلفاء بني العباس كانوا يسرعون إلى دمشق طلباً للصحة، وحسن المنظر، ومنهم المأمون الذي زار دمشق مرتين، وقال عن الغوطة إنها خير مغنى على وجه الأرض^(٤)، وقيل لإسحاق بن يحيى بن معاذ: "لم سكنت دمشق، وفلحت أرضها، وأكثرت فيها الغروس من أصناف الفاكهة، وأجريت المياه إلى الضياع وغيرها؟ فقال: لا يطيق نزولها إلا الملوك، قيل له: وكيف ذلك، قال: ما ظنك ببلدة يأكل فيها الأطفال ما يأكل في غيرها الكبار"^(٥).

ومن خلال حديث ابن عساكر عن أبواب دمشق يتبين أن بعضها سمي بأسمائه لما دونه من البساتين والأشجار والزروع كباب الجنان، وباب الفراديس وغيرهما^(٦)، واشتهرت الغوطة بضياعها الكبيرة كالمدين مثل: المزة

ويروي مدينة البصرة؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٠٥؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ١، ص ٩٩-١٠٠.

(١) المرحلة: هي المسافة التي يقطعها المسافر في يومه؛ المنجد في اللغة والأعلام، بيروت، دار

المشرق، ط ٣٣، ١٩٩٢م، ص ٢٥٣، مادة "رحل".

(٢) صورة الأرض، ص ١٦٠-١٦١.

(٣) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٢٧٣.

(٤) تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٩١-٣٩٢.

(٥) ابن عساكر، م.ن، ج ٨، ص ٣٠٤.

(٦) ابن عساكر، م.ن، ج ٢، ص ٤٠٨.

وداريا وبرزة وحرستا...، وأن "بها من أنواع الفواكه ما لا يحيط به تحصيل، ولا يأتي به تمثيل كثرة وخصباً وطيباً"^(١).

واشتهرت كورتا الجبال والشراة بأنها بلدان في غاية الخصب والسعة، واشتهرت مناطق حوران والبثينة بخصوبة تربتها، وجودة زراعتها^(٢)، ومن المناطق الخصبة: أرض الغور الذي يمتد من بحيرة طبرية شمالاً إلى البحر الميت جنوباً، وعنه قال الإصطخري: "والغور ما بين جبلين غائر في الأرض جداً، وبه عيون وأنهار ونخيل، ولا تستقر به الثلوج"^(٣)، ومن المناطق الخصبة جبال لبنان التي عدت من أخصب جبال الدنيا، ففيها كثير من أنواع الفواكه والثمار والمياه والظلال الوفرة^(٤)، وعد سهل البقاع من أخصب الأراضي في جند دمشق، وهو يمتد بين بعلبك وحمص ودمشق، وفيه قرى كثيرة، ويشتهر بزراعاته المتنوعة، ومياهه الغزيرة^(٥)، كما اشتهرت السهول الساحلية بخصوبة تربتها ووفرة خيراتها وبساتينها وأشجارها^(٦).

٢ - طرق الري ووسائله:

اعتمدت الأراضي المزروعة في ريفها على مصادر مياه متنوعة، أهمها مياه الأمطار التي تتساقط خلال المدة الممتدة من تشرين الثاني إلى نيسان، وتتميز هذه

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٤، ٤٨.

(٣) الإصطخري، م.ن، ص ٤٥.

(٤) ابن الفقيه، البلدان، ص ١٦٢؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٢.

(٥) الحموي، معجم البلدان، (ط، دار صادر)، ج ١، ص ٤٧٠.

(٦) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٢ - ٤٥؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٦٩ - ٣٧٤.

الأمطار بأنها متذبذبة بين عام وآخر مما يعوق الزراعة في سنوات الجفاف^(١)، هذا مع العلم أن بعض المناطق اعتمدت في ريها على الأمطار، وأنتجت غلات وفيرة كما في سهول حوران والبشيرة، والمرتفعات المطلّة على بادية الشام^(٢).

كما اعتمدت بعض المناطق المزروعة على الري سيحاً من الأنهار والينابيع والعيون والبحيرات المتوافرة بكثرة في جند دمشق^(٣)، غير أن تذبذب كمية الأمطار بين عام وآخر، وعدم إمكانية إيصال الماء سيحاً إلى المزروعات في بعض المناطق، دفعا الإنسان الشامي منذ القديم لابتكار واستخدام طرائق متعددة للري، فشق القنوات لإيصال الماء إلى المناطق العطشى، فضمن استقرار الإنتاج الزراعي وزيادته.

واهتم الأمويون بالزراعة، فأمروا بحفر الآبار وشق الأقبية والترع، وتوسيع منابع الأنهار والعيون، فقد شق يزيد بن معاوية النهر الذي يحمل اسمه بهدف زيادة المناطق المروية في غوطة دمشق، وإيصال الماء إلى قرى جوبر والقابون وحرستا ودوما^(٤)، وبلغ من اهتمام العباسيين بالري أن أوجدوا ديواناً للري، يسجل فيه مقدار خراج الأرض بحسب نوع ريها^(٥)،

(١) النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت، ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، (نسخة مصورة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق عن طبعة دار الكتب المصرية)، القاهرة،

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ج ٨، ص ٢٥٦.

(٢) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٤؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٠.

(٣) تقدمت الإشارة إلى مصادر المياه في التمهيد - جغرافية جند دمشق.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٦٩.

(٥) زيود، محمد أحمد، حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني وحتى نهاية العصر

الفاطمي، بيروت، دار الفكر، (د. ت)، ص ١٠٩.

فالأرض التي تروى سيحاً تدفع العشر، أما الأرض التي تسقى بالآلات كالقرب والدلو والدالية فتدفع نصف العشر^(١)، ورغم أن اهتمام العباسيين انحصر بالعراق والقسم الشرقي من أراضي الخلافة، إلا أنه يمكن القول إن قنوات الري في جند دمشق حافظت - إلى حد ما - على وضعها وفق ما كانت عليه في العصر الأموي، واستمرت تزود الزراعة والمناطق العطشى بالماء، وجرت محاولات لتطوير نظام الري من قبل بعض الخلفاء، فمن القنوات التي شقت في العصر العباسي قناة نهر منين التي شقها الخليفة المأمون في سفح جبل منين لإيصال الماء إلى معسكره في دير مران^(٢)، ومن قنوات الري التي كانت موجودة أيضاً قناة يبرود، وقناة النبك، وقناة دير عطية^(٣)، ويظهر أن الاهتمام بالري أدى إلى زيادة عدد قنوات الري بشكل كبير، ففي دمشق على سبيل المثال عدّ ابن عساكر في القرن السادس الهجري كثير من قنوات الري التي تزود الدور والمسكن والحمامات بالماء، وتروي المزروعات، وهي تتوزع في نواحيها المختلفة، ويتم توزيع الماء فيها وفق مقادير محددة لكل منها^(٤).

وعمد الإنسان الشامي في المناطق المرتفعة التي لا تستفيد من مياه الأنهار، ولا تمكن مواقعها من شق القنوات إلى استخدام آلات متعددة

(١) القرشي، يحيى بن آدم (ت، ٢٠٣هـ / ٨١٨ م)، كتاب الخراج، صححه وشرحه ووضع فهارسه: أحمد محمد شاكر، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤٧هـ، ص ١١٦ - ١١٧؛ ابن زنجويه، كتاب الأموال، ج ٣، ص ١٠٦٠-١٠٦١؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢١٩.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٩١.

(٣) زيود، حالة بلاد الشام الاقتصادية، ص ١١٩.

(٤) تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٧٤-٣٨٦.

للري كالسواني والنواضح، والدوالي والدواليب والغرفّات والمنجونات والنواعير، أما السواني والنواضح فهي الإبل التي تمدّ الدلاء^(١)، وقد استخدمت للسقاية في دومة الجندل^(٢)، أما الدواليب فكانت تديرها الحيوانات، واستخدمت للسقاية من الآبار^(٣) والأنهار، فترفع الدواليب المياه منها، فتتجمع في أحواض ثم تجري المياه إلى الأراضي المطلوب ربيها، وعند حدوث ثغرة أو تقاطع في مجرى الماء، كانت تستعمل ألواح من الخشب لها حافتان تجري المياه عبرها، وقد استخدمت الدواليب بكثرة في غوطة دمشق ولا سيّما على نهر يزيد^(٤)، أما النواعير فاستخدمت للري من الأنهار، وإيصال الماء إلى المناطق المرتفعة، والناعورة هي دولا ب يركب على مجرى النهر، وله سلسلة من الأقداح الخشبية مثبتة بحبال تصل إلى الماء فتمتلئ ثم تفرغ في المكان المخصص لها، وقد استخدمت النواعير بكثرة في سفح جبل قاسيون ومنطقة الصاحية، وفي غور الأردن^(٥).

- (١) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٢٠؛ الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف (ت، ٣٨٧هـ/٩٩٧م)، مفاتيح العلوم، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٩٥؛ ابن منظور، لسان العرب، ج ١٤، ص ١٧٤، مادة "نضح".
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، مج ١، (تحقيق: صلاح الدين المنجد)، ص ٣٨٥؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١، ص ١٥٠.
- (٣) الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ٤٨.
- (٤) البدري، نزهة الأنام، ص ١١١.
- (٥) البدري، م.ن، ص ٣٨، ٤١، ٤٥؛ رحال، عاطف، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، ط ١، (د.ت)، ص ١٤٦-١٤٧.

٣ - أصناف الأراضي الزراعية وملكيّتها:

عدت الأراضي بعد الفتح الإسلامي ملكاً عاماً للمسلمين، فتركت بيد أصحابها يزرعونها مقابل دفع الخراج عنها، إلا أن ذلك لم يجلّ دون تكون الملكيات الخاصة التي بدأت تظهر منذ العصر الراشدي عن طريق الإقطاعات، وفي العصر الأموي حصلت تغيرات بالنسبة لأوضاع الأراضي، وبناء عليها يمكن تصنيف الأراضي إلى الأصناف الآتية:

- أرض الخراج: هي الأراضي التي فتحها المسلمون صلحاً، فتركت بيد أصحاب من أهل الكتاب يزرعونها مقابل دفع الخراج عنها^(١)، وتبين المصادر أن الأراضي التي فتحت صلحاً على أن تكون خراجية هي: أرض البشّية، وعمّان، وعرنندل، وهوران، ومآب من أرض البلقاء، وبعلبك^(٢).

تقلّصت مساحة أرض الخراج في العصر الأموي، فقد انتقل قسم منها إلى أيدي المسلمين عن طريق الشراء، كما قام الخلفاء الأمويون بمنح إقطاعات من أرض الخراج، فاكتفى المسلمون الذين حصلوا على أجزاء من أرض الخراج بدفع العشر، وامتنعوا عن دفع الخراج، مما دفع الخليفة عمر بن عبد العزيز في سنة ١٠٠هـ/٧١٨م إلى النهي عن بيع الأرض الخراجية، وأكد أنها تبقى خراجية ولو انتقلت إلى أيدي المسلمين^(٣).

(١) ابن سلام، القاسم (ت، ٢٢٤هـ/٨٣٨م)، كتاب الأموال، تحقيق وتعليق: محمد خليل هراس، قطر، إدارة إحياء التراث الإسلامي، (د.ت)، ص ٦٧؛ القرشي، كتاب الخراج، ص ٢٧؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١، ص ١٣.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥١؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٨٨، ٢٩٦.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٢٠٦-٢٠٧.

- أرض الصوافي: هي الأراضي التي كانت لبطارقة الروم الذين قتلوا أو هربوا عند الفتح، "فصارت تلك المزارع صافية للمسلمين موقوفة يقبلها والي المسلمين كما يقبل الرجل مزرعته"، ومنها: أندر كيسان بدمشق، وقبيس بالبلقاء، وقد امتلك الخليفة حرية التصرف بها عن طريق الاستغلال أو الإقطاع، ففي العصر الأموي منح الخلفاء إقطاعات منها للأفراد والقبائل فتقلصت مساحتها^(١)، وفي العصر العباسي ترسخت ملكية الدولة للصوافي، وتوسعت إقطاعات الخلفاء منها، ووسّع العباسيون مفهوم الصوافي، وأضافوا إليه مضامين جديدة، إذ عدّوا ما حول الأسوار من حدائق، وما حول الساحات والطرق من دور ومخازن أنشئت حديثاً في الغالب صوافي، وعدّوا من الصوافي أملاك الأمويين المصادرة وضياعهم، فعرفت باسم ضياع الخلافة أو الضياع السلطانية، وأنشؤوا ديواناً لإدارتها عرف باسم ديوان الضياع، ولم يقتصر موضوع المصادرة على ضياع الأمويين، بل امتد ليشمل الوزراء^(٢) والولاة المعزولين المغضوب عليهم، فعندما أمرت الخلافة بحمل يحيى بن معيوف، وجماعة من أسرته إلى العراق، صادرت أراضيهم في ناحية أرزونا من غوطة دمشق، ووهبتها لأحمد بن يزيد بن الحكم الذي جعلها مقابر، فعرفت بالصوافي، واستمرت تعرف بذلك حتى عصر ابن عساكر^(٣).

- أرض الموات: هي الأراضي المعطلة التي لم تستثمر، ولا حق لأحد فيها، ولا ملك فيها، فتصير هذه الأراضي ملكاً لمن أحيها استناداً إلى قول

(١) ابن عساكر، م.ن، ج ٢، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٢) خزنة كاتبي، الخراج، ص ٣٢٣، ٣٣٠-٣٣١.

(٣) تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٩، ص ٤٤٧.

الرسول ﷺ: "من أحيأ أرضاً ميتة فهي له"، ويكون إحياء الأرض وإعمارها بسوق الماء إليها أو حفر بئر أو عين فيها، ثم زرعها أو غرسها بالأشجار، ويكون عليها العشر من غلاتها^(١)، وأرض الموات في جند دمشق كانت قليلة، واقتصرت على بعض المناطق في مرج بردى وبعض جوانبه، فأخذتها بعض القبائل وأحيتها^(٢).

- أرض العشور: هي الأراضي التي أسلم عليها أصحابها من العرب عند الفتح، فبقيت بأيديهم مقابل دفع العشر^(٣)، وعُدَّ من أرض العشر كلُّ من: الأرض الموات التي يستحييها المسلمون، والأرض التي يقطعها الأئمة لبعض المسلمين، وأرض العنوة التي تقسم بين المسلمين^(٤).

- أرض الإقطاع: هو "أن يقطع السلطان رجلاً أرضاً فتصير له رقبته"^(٥)، وتعود الإقطاعات في دمشق إلى العصر الراشدي، فقد منح الخليفة عثمان بن عفان (رض) إقطاعات كبيرة لمعاوية بن أبي سفيان في دمشق^(٦).

كانت الإقطاعات - في البداية - تمنح من أرض الصوافي، والأراضي التي ليس لها صاحب، فعندما جلا كثير من أهل عرقة وصيدا وبيروت

(١) أبو يوسف، الخراج، ص ٦٣-٦٦؛ ابن سلام، كتاب الأموال، ص ٢١٨؛ قدامة بن

جعفر، الخراج، ص ٢١٢-٢١٣؛ القرشي، كتاب الخراج، ص ٨٦-٩٠.

(٢) زيود، حالة بلاد الشام الاقتصادية، ص ٩٣.

(٣) الشيباني، شرح كتاب السير الكبير، ج ٥، ص ٣١٥؛ ابن سلام، كتاب الأموال، ص ٦٧؛

الموردي، الأحكام السلطانية، ص ١٨٧.

(٤) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٠٤؛ القرشي، كتاب الخراج، ص ٢٨، ٣٠.

(٥) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٨٦.

(٦) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٢٠٦.

وجبيل عند الفتح، وهاجم البيزنطيون هذه المناطق، اتجه معاوية بن أبي سفيان بناءً على توجيه الخليفة عثمان نحو هذه المناطق، وأعاد فتحها، ثم شحنها بالمقاتلة الذين منحهم القواطع^(١)، وفي العصر الأموي توسع الخلفاء الأمويون في منح الإقطاعات لأتباعهم وأشرف العرب^(٢).

استمر وجود الإقطاعات في العصر العباسي، وأضاف إليها العباسيون إقطاعات جديدة منحوها لأتباعهم وللمتعاونين معهم، فقد أقطعوا عبد الله بن عمرو بن صفوان بن أمية الجمحي إقطاعاً كبيراً لدسه على بني أمية ورجلهم عند دخول الجيش العباسي دمشق، وكان الإقطاع الذي أقطعوه له من أملاك هشام بن عبد الملك، ويمتد من سوق اللؤلؤ إلى قنطرة الغرابيل في دمشق^(٣).

وعندما نقل الخليفة أبو جعفر المنصور الأمرين التنوخيين "المنذر بن مالك" و"أرسلان" مع عشيرتهما من معرة النعمان إلى الجبال القريبة من بيروت، منحهما إقطاعات وامتيازات كبيرة في لبنان^(٤).

وذكر الخولاني أن غوطة دمشق عرفت القواطع منذ العصر الأموي، إذ كان أسود بن أصرم المحاربي ينزل داريا في قواطع له، واستمرت تعرف باسمه إلى أيام الخولاني (أي القرن الرابع الهجري)^(٥)، وروي أن قوماً من

-
- (١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥١-١٥٢؛ قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٩٥.
 - (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٢٠٦-٢٠٧؛ تراجم النساء، ص ١١١؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٤، ص ٣٨١.
 - (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣١، ص ٢٣٧.
 - (٤) الشدياق، أخبار الأعيان، ص ٦٤٧؛ شبارو، تاريخ بيروت، ص ٤٩-٥٠؛ تدمري، لبنان، ص ٢١.
 - (٥) تاريخ داريا، ص ٥٦.

أهل الشام قدموا على أبي جعفر المنصور بعد هزيمة عبد الله بن علي، وفيهم الحارث بن عبد الرحمن الجرشي، فتكلم عدة منهم، ثم قام الحارث فتكلم بما أعجب المنصور، فأمر برد قطاعه في الغوطة عليه، وهذا يدل على كثرة الإقطاعات في الغوطة منذ العصر الأموي^(١).

ومما هو جدير بالذكر أنه كان لبني هاشم ومواليهم أملاك كبيرة في دمشق، فلما أعلن أبو العميطر ثورته، هربوا من دمشق، فاستولى أبو العميطر على منازلهم وضياعهم وأقطعها موالي بني أمية، فاستمرت في أيديهم إلى أن دخل ابن يهس دمشق، فرجع بنو هاشم ومواليهم إلى دمشق، وأخذ كل قوم ما كان لهم^(٢).

ولما سيطر مسلمة بن يعقوب الأموي على دمشق، وبدأ بأخذ البيعة لنفسه، عمد إلى تقريب القبائل القيسية، إذ جعل لكل رجل من وجوهها منزلاً في مدينة دمشق، وأقطع بني نمير قرى المرج^(٣). وكان من الإقطاعات أيضاً تلك التي أقطعها الخليفة المتوكل للشاعر البحري، وكانت تلك الإقطاعات تضم ضياعاً بنواحي حمص وغيرها^(٤).

هذا وتشير المصادر الفقهية إلى أن الإقطاع لا يكون إلا من الأراضي التي تخص السلطان، غير أن الالتزام بذلك كان قليلاً، ويصنف الإقطاع صنفين:

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١١، ص ٤٤٩؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ٤، ص ٢٠٠.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٤، ص ١٢١.
- (٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٥٣، ص ٢٦٣؛ ج ٥٨، ص ٦٩؛ كرد علي، خطط الشام، ج ١، ص ١٥٦.
- (٤) المقرئ، المقفى الكبير، ج ٣، ص ٨٣٢.

- إقطاع التملك: ويكون في الأرض الموات، أو العامرة التي توفي أصحابها دون وارث، ويمنح هذا الإقطاع صاحبه حق الملكية التامة، وحق التوريث، ويكون عليه العشر^(١)، وكان إقطاع الموات في الغوطة قليلاً، لأنها كانت عامرة على مر العصور^(٢).

- إقطاع الاستغلال: وهو إقطاع مؤقت، ويكون عشراً أو خراجاً^(٣)، وتطور إلى استغلال بالإيجار أو الضمان أو المزارعة، ومن خصائص هذا الإقطاع أنه لا يورث^(٤).

كان الهدف من الإقطاع إصلاح الأرض وإعمارها^(٥)، ويقع على عاتق صاحبه دفع نسبة من الإنتاج أو من ثمنه إلى خزينة الدولة، وإصلاح قنوات الري المارة في إقطاعه، لكن صاحب الإقطاع لم يلتزم بذلك، وزاد الأمر سوءاً أنه كان يدير إقطاعه بواسطة وكلاء جشعين اهتموا بجمع المال فقط، ومع ضعف الخلافة العباسية وسيطرة الأتراك عليها اتسع انتشار الإقطاع، إذ أخذ الخلفاء العباسيون يقدمون الإقطاعات لهم بصفقتها منحاً وامتيازات، وازداد انتشار الإقطاعات مع سيطرة البويهيين على الخلافة العباسية، ويعود ذلك إلى الصعوبات التي واجهت البويهيين في تلبية حاجات جنودهم، مما دفعهم إلى منحهم الضياع مقابل خدماتهم بدلاً عن الرواتب، ولم يلتزم المقطع بدفع مبالغ

(١) ابن سلاّم، كتاب الأموال، ص ٣١١-٣١٢؛ ابن زنجويه، كتاب الأموال، ج ٢، ص ٦٢٧؛ المارودي، الأحكام السلطانية، ص ٢٣٩.

(٢) كرد علي، غوطة دمشق، ص ١٢٩.

(٣) المارودي، الأحكام السلطانية، ص ٢٤٤.

(٤) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٤٧.

(٥) أبو يوسف، الخراج، ص ٦١؛ ابن سلاّم، كتاب الأموال، ص ٣١٦.

مالية للدولة، وتميز الإقطاع في هذا العصر بالتغير المتكرر في الضياع الممنوحة للعسكريين، فلم يهتم المقطعون - الذين أدركوا أن الضياع ستؤخذ منهم بعد وقت قصير - بصيانة الضياع وشبكات الري والسدود والأقنية مما أدى إلى نتائج مدمرة على الزراعة، ومن ثمَّ خراب الضياع^(١).

- أراضي الوقف: أوقفها الملاك المسلمون للأغراض الدينية، فخصص واردة لأعمال الخير التي أوقفت عليها، فكان للفقراء والمحتاجين أو المدافعين عن حدود الإسلام، أو فك رقاب الأسرى والعبيد أو لبناء المساجد والحصون، أو أية مصلحة عامة أخرى^(٢)، ومن شروط الوقف أن يكون في الأملاك الخاصة، ودائماً، فلا يحق للواقف التصرف به بعد وقفه، ولا يباع الوقف ولا يورث ولا يوهب، وتقسم الأوقاف إلى خاصة ورسمية، فالخاصة هي التي يوقفها بعض الأتقياء في سبيل الله، وقد تكون لصالح ذريتهم بهدف جعل الورثة يتمتعون بواردها بصورة دائمة، أما الأوقاف الرسمية، فهي التي يوقفها الخلفاء^(٣)، ويشرف على الأوقاف القاضي ومهمته حفظ الأوقاف وتنميتها، وجمع واردة، وصرفه في الأوجه المخصصة له^(٤)، غير أن إشرافه على الأوقاف الرسمية كان نظرياً، إذ كانت تدار بوساطة ديوان يعرف بـ "ديوان البر"^(٥).

(١) آشور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٢٣٠-٢٣١؛ الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٥٠-٥٣.

(٢) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٦١؛ الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٥٧.

(٣) رحال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ١٢٧-١٢٨؛ مكّي، المدخل إلى حضارة العصر العباسي، ص ٢٧١.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٩٠.

(٥) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٥٩.

يرجع تاريخ الأوقاف في دمشق إلى أيام الفتح الإسلامي، فعندما قدمت جيوش التحرير العربية الإسلامية، وحررت المنطقة من أيدي البيزنطيين شُغرت أراضٍ كثيرة كانت ملكاً لبطارقة الروم وأمرائهم الذين قتلوا أو فروا منها، فقام المسلمون بإيقاف هذه الأراضي، ثم وزعوا بعضها على من يحسن استثمارها، فاستثمرها عمال المسلمين عن طريق القبالة أو الضمان، وأضافوا دخلها إلى بيت مال المسلمين، ثم أخذ بعضهم يوقف بعض القرى لإعمار مصالح المدينة ومرافقها العامة، فكان ذلك أول الأحباس^(١).

ذكر الخولاني في القرن الرابع الهجري أن في داريا أوقافاً تجري غلاتها على المساكين والفقراء أوقفها سليمان بن حبيب المحاربي المتوفى سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٣ م^(٢)، وكثرت الأوقاف مع الزمن بسبب عسف الجباة وظلمهم، الأمر الذي دفع بعض ملاك الأراضي إلى إيقاف أراضيهم على أعمال البر والخير بهدف حماية أملاكهم من المصادرة، فكانت المساجد أهم المؤسسات التي أوقف عليها بهدف بنائها والمحافظة عليها^(٣)، كما كان هناك أوقاف أوقفت للإشراف على قنوات الري وشقها^(٤)، ووجد أيضاً أوقافٌ يوزع واردها على الغرباء والزوار^(٥).

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٢٠٥-٢٠٦؛ كرد علي، غوطة دمشق، ص ١٢١، ١٢٣.

(٢) تاريخ داريا، ص ٥٦، ٧٨.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٠٨-٣٢١.

(٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٢، ص ٣٧٧-٣٧٨، ٣٨٦.

(٥) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢١٥.

- أرض الإلجاء: التلجئة هي "أن يلجئ الضعيف ضيعة إلى قوي ليحامي عليها"^(١)، ويعود ظهور الإلجاء إلى أواسط العصر الأموي، وتشير الدراسات إلى أن الإلجاء هو نفس نظام الحماية الذي كان موجوداً في العصر البيزنطي، واختفى مع بداية العصر الإسلامي، ثم عاد للظهور فيما بعد، إذ دفعت الضرائب الباهظة وعسف الجباة في تحصيلها للملاكين الصغار إلى الاحتفاء بأحد المتنفذين في الدولة بإلجاء الأراضي إليهم، وتسجيلها بأسمائهم، وفي العصر العباسي اتسع انتشار الإلجاء، فاتسعت الملكيات الكبيرة، وذلك باستيلاء المتنفذين على الأراضي التي أُلجئت إليهم، وتحول الملاكين الأصليين إلى مزارعين عندهم^(٢).

- أرض الإيغار: الإيغار نوع من أنواع الملكية، كان معروفاً منذ العصر الأموي^(٣)، وهو أن "يهب الخليفة أرضاً يعني مستلمها من الضريبة"، ثم صار يطلق على "ضياع يتمتع أصحابها بتخفيف كبير في الضرائب"^(٤)، وقدّم قدامة بن جعفر تعريفاً آخر للإيغار، وهو "أن تحمي الضيعة من أن يدخلها أحد من العمال وأسبابها بما يأمر الإمام به في وضع شيء عليها يؤدي في السنة، أما في بيت المال أو غيره من الأمصار"^(٥)، وهذا النوع من الإيغار

(١) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٨٧.

(٢) الدوري، عبد العزيز، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت، دار الطليعة، ط ٢، ١٩٧٨م، ص ٦٣؛ رحال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ١٢٢.

(٣) رحال، م.ن، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٤) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٥٦.

(٥) الخراج، ص ٢١٨؛ وقدم الخوارزمي تعريفاً مشابهاً لتعريف قدامة، انظر: مفاتيح العلوم، ص ٨٦.

كان معروفاً في العصر العباسي، ذكره أبو يوسف عندما قال: "وإن جاء أهل طسوج (منطقة زراعية) أو مصر من الأمصار، ومعهم رجل من البلد المعروف موسر، فقال: أنا أتضمن عن أهل هذا الطسوج أو أهل هذا البلد خراجهم، ورضوا هم بذلك، فقالوا: هذا أخف علينا، نظر في ذلك، فإن كان صلاحاً لأهل هذا البلد والطسوج قبل وضمن، وأشهد عليه وصيرّ معه أميراً من قبل الإمام يوثق بدينه وأمانته، ويجري عليه من بيت المال، فإن أراد ظلم أحد من أهل الخراج أو الزيادة عليه أو تحميله شيئاً لا يجب عليه، منعه الأمير من ذلك أشد المنع"^(١)، وبذلك يكون الهدف من هذا الإيغار حماية أصحاب الأراضي وأهل الضياع من ظلم الجباة والولاة، ومن إرهابهم بالضرائب الباهظة.

وفي سياق الحديث عن أصناف الأراضي وملكيّتها يمكن القول إن القبائل العربية لم تتجه في بداية الأمر نحو تملك الأراضي وملكيّتها لأنها كانت منشغلة بالفتوحات ونشر رسالة الإسلام، ولأن الفتوحات درّت الغنائم الكثيرة التي كانت كافية لسد احتياجات المسلمين، لكن الاهتمام بالأراضي الزراعية ما لبث أن ظهر من الجماعات القادمة من المدن ولا سيّما رجالات قريش، فظهرت الملكيات الزراعية التي تكونت من مصادر مختلفة، أولها الإقطاعات التي ظهرت منذ العصر الراشدي ثم توسعت في العصرين الأموي والعباسي، وكان هناك مصدر آخر للملكية الخاصة هو إحياء الأرض الموات واستنبتها، وفيما بعد اتسعت الملكيات الخاصة عن طريق شراء الأراضي، إذ أقدم الكثيرون على شراء الأراضي خاصة من الموظفين الذين توافرت لديهم الأموال اللازمة لشراء الأراضي واستملاكها،

(١) الخراج، ص ١٠٦.

واقْتناء الضياع، إذ رأوا في الأراضي مصدر رزق ثابتاً يضمن لهم مستقبلهم فيما إذا تعرضوا للنهب أو المصادرة، فقد صودرت بعض أراضي التاجر ابن الجصاص سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م، ورغم أنها كانت مصادرة كبيرة إلا أنها لم تشمل ضياعه الكثيرة في الشام ومصر والعراق، فعوضت هذه الضياع بعض ما فقده^(١).

وكان على رأس المهتمين بالأراضي في العصر العباسي الوزراء والأمراء وكبار موظفي الدولة الذين حرصوا على امتلاك الضياع الواسعة في مناطق متفرقة، فقد امتلك أبو عيسى الهاشمي محمد بن الخليفة المتوكل ضياعاً في دمشق، وكان وكيله عليها النهيكي^(٢)، وكانت للوزير علي بن عيسى ضياع في الموصل وديار ربيعة والسواد ودمشق ومصر^(٣)، وامتلك محمد بن علي الماذرائي ضياعاً واسعة في الشام ومصر بلغ ارتفاع خراجها مئة ألف دينار^(٤).

وفي العصر الإخشيدي عندما سيطر سيف الدولة على دمشق، حاول أن يصادر الغوطة ويضمها لأملاكه، مما عجل بزوال سلطته عنها، ومن خلال الرواية التي تحدثت عن هذا الخبر يتبين أن الغوطة كانت ملكاً لأسر كثيرة^(٥). ومما أسهم في زيادة الملكيات الزراعية أيضاً بروز نظام الإلجاء السالف الذكر.

- (١) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٥٤.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ٢٢٢ - ٢٢٣.
- (٣) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٥٤.
- (٤) ابن سعيد، المغرب في حُلَى المغرب، ج ١، ص ١٦٢.
- (٥) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١١٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٨٠.

٤ - طرق الزراعة واستثمار الأرض:

لم تكن الدولة الإسلامية تتبع نظاماً زراعياً واحداً، بل كان هناك نظم مختلفة حتى ضمن الولاية الواحدة يكاد كل واد أو قرية ينفرد بنظام زراعي معين، بما يتناسب مع الظروف الطبيعية، وكان الفلاحون يعتمدون طريقة المناوبة في زراعة الأرض، وتقوم هذه الطريقة على زراعة نصف الأرض، وإراحة نصفها الآخر، إذ يُحرث ويُحضر للموسم القادم^(١)، وكانت الأرض تحرث بالمحراث البسيط تجره الثيران، قال الدمشقي: "فلا مندوحة للفلاح من البقر"^(٢)، ومن أدوات الفلاح التي استخدمها في عمله: الجرجر لدرس الحبوب^(٣)، والنورج والمذراة لدرس الحبوب وتصفيتها من الشوائب، والشوافة لتسوية سطح الأرض، والمر والمسحاة لقلب التربة وتسوية الحقول، والمنجل للحصاد^(٤).

اعتمد الفلاحون في زراعتهم على التجارب، وما اكتسبوه من خبرة عبر الأيام، فاتصفت الأعمال الزراعية بالصبر والعمل الجاد الطويل، وعرف عن الفلاحين الاهتمام بالزراعات والأشجار والرفق بها، وحددوا أفضل الأوقات لحريثها وتقليمها وتطعيمها وقطف ثمارها، وكانت أعمال الفلاحين موزعة على مدار السنة، فلكل شهر من أشهر السنة أعماله، ففي

(١) النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٥٦.

(٢) الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ٥٣.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ٢٨٧.

(٤) خير، صفوح، غوطة دمشق، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٦م،

ص ٣٤٩-٣٥٢.

بعضها الحراثة وزراعة البذار، وفي بعضها التقليل، وفي بعضها الآخر يكون قطف الثمار وجني المحاصيل وحفظها للشتاء^(١)...

وكان الفلاحون يستثمرون أراضيهم بأيديهم فيما إذا كانت قليلة المساحة، أما إذا كانت من الملكيات الكبيرة، فكانوا يستخدمون لاستثمارها عمالاً زراعيين بأجور محددة، وبشكل عام كان يتم استغلال أكثرية الأراضي بوساطة فلاحين من طبقة العبيد، ولم يسكن أصحاب الملكيات الكبيرة في ضياعهم، بل استقروا في المدن، وأداروا ضياعهم عن طريق وكلاء كانت مهمتهم مراقبة العمل وتنظيمه، وتهيئة البذور والآلات، ومراقبة منشآت الري، واستخدام عمال إضافيين عند الحاجة^(٢).

وكان هناك عدة طرق لاستثمار الأرض تقوم على أساس المشاركة بين مالك الأرض والفلاح، ومن هذه الطرق: المزارعة والمساقاة والمغارسة والضمان، أما المزارعة فهي إعطاء الأرض إلى فلاح يزرعها، وتكون له حصة من إنتاجها كالنصف أو الثلث أو الربع، وتخص المساقاة الأرض المغروسة بالأشجار المثمرة، فتعطى لمن يقوم بسقايتها والعناية بها، وعند نضج الثمار وقطافها يكون له جزء منها^(٣)، أما المغارسة فهي إعطاء الأرض لفلاح يزرعها بالأشجار المثمرة، ويعتني بها لمدة محددة، وفي نهاية العقد

(١) ابن وحشية، أحمد بن علي بن قيس الكسداني (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي)، الفلاحة النبطية، تحقيق: توفيق فهد، دمشق، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٩٣ م، ج ١، ص ٢١٩-٢٤٠.

(٢) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٦٩-٧٠؛ رحال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ١٢٩.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص ٨٨-٩٠.

يأخذ جزءاً من الأرض التي شجرها^(١)، أما القبالة أو الضمان فتقوم على اتفاق بين مالك الأرض المزروعة بالأشجار المثمرة، وشخص يقوم باستغلالها إلى نهاية الموسم لقاء مبلغ محدد من المال^(٢).

واتبع الفلاحون تقنية متقدمة للعناية بالنباتات والأشجار وزيادة إنتاجها، فاستخدموا التسميد لتخصيب الأرض وزيادة إنتاج المحصول وتحسين جودته، وكانوا يسمدون بالزبل والرماد والتبن^(٣)، ودرسوا الرياح، وعرفوا تأثيرها على النبات، كذلك درسوا الأراضي، وميّزوا بين أنواعها وتربها، واستخدموا أفضل الطرق لاستثمار كل منها، وعرفوا ما يناسب كلاً منها من الأشجار والزراعات، واستخدموا أفضل الطرق للعناية بالأشجار والحفاظ عليها ورعايتها بحيث تحافظ على نضارتها، ولا تتأذى أغصانها، ففي ميدان قطاف الزيتون كانوا يسيرون وفق الطرق التي كانت في العصر الأموي، ويرفقون بالأشجار وفقاً لنصيحة هشام بن عبد الملك عندما مرَّ بكرم زيتون، وسمع نفض العمال للزيتون بالعصي، فقال لرجل: "انطلق إليهم، فقل لهم: القطوه لقطاً، ولا تنفضوه نفضاً فتفتقأ عيونهم، وتتكسر أغصانه"^(٤).

وعرف الفلاحون زراعة أنواع عديدة من الأشجار كمصدات رياح عن المزارع والبساتين، وعملوا على استثمار سفوح الجبال والهضاب في الزراعة، وبناء المدرجات والمصاطب لمنع انجراف التربة، ثم زرعها بالأشجار المختلفة^(٥)،

(١) كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص ١٨١؛ خير، غوطة دمشق، ص ٣٢٤.

(٢) ابن سلام، كتاب الأموال، ص ٨٤ - ٨٥.

(٣) ابن وحشية، الفلاحة النبطية، ج ١، ص ٣٦١ - ٣٦٣.

(٤) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٢٠٦.

(٥) ابن وحشية، الفلاحة النبطية، ج ١، ص ٢٠٠؛ آشور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٧١.

واستدلوا على أماكن وجود المياه الجوفية قريبة من السطح بدلائل متعددة مثل وجود النبات^(١)، وأتقنوا تطعيم الأشجار، وكان يقوم به فلاحون مختصون، فأهل زغر وأهل فلسطين كانوا يلقحون كرومهم وأشجار تينهم بالحمر أو الحميرية التي تقذفها البحيرة المتتنة^(٢)، ونقل البدرى عن مصادر سابقة أنه كان في غوطة دمشق أشجاراً تحمل الواحدة منها أربع فواكه كالتفاح والشمش والخواخ والكمشى، وبها ما يحمل الثلاث، وأقلهن اللونان من الفاكهة، ثم ذكر أنه رأى بالغوطة الكرمة تطرح العنب الأبيض، والأسود والأحمر، وشجر التوت تطرح الأبيض والأسود، وهذا يدل على براعة أهل دمشق في تطعيم الأشجار، كما برعوا أيضاً في هندسة البساتين وزراعتها بشكل صحيح، فكانوا يتركون مسافة بين شجرة وأخرى، ويغرسونها في صفوف، فكانت "كالسطور التي تقرأ"^(٣).

ويبين العارفون في أمور الزراعة الصفات الواجب توافرها في عمال الزراعة والوكلاء على الضياع، وأفضل الطرق للتعامل بين الوكلاء والفلاحين، وبين الملاكين والفلاحين^(٤)، وحددوا أنسب الأوقات لكل عمل من أعمال الزراعة من حيث الحفاظ على جودة المحصول، وحمايته من الحشرات، وادخار الجهد البشري، قال ابن وحشية: "فأما وقت الحصاد،

(١) ابن وحشية، الفلاحة النبطية، ج ١، ص ٥٧ - ٥٩؛ Sourdel, La civilisation, p.264.

(٢) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٧؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٩؛ أبو الفداء،

إسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب، تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه وطبعه: رينود،

والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس، ١٨٤٠م، ص ٢٢٨.

(٣) نزهة الأنام، ص ٢١٣.

(٤) ابن وحشية، الفلاحة النبطية، ج ١، ص ٢٠٢-٢٠٧.

فيجب أن يكون في وقت السحر إلى آخر الليل، ثم إلى أول ساعة من النهار، أعني في مدة مضيها، وذلك بسبب ندي الليل وبرده، فيكون أسلم للحب من الآفات، وأطول بقاء، ويجب أن تجمع بعد التصفية والتذرية جمعاً جيداً، ولا تترك متشرة تضربها الرياح، فإن ذلك يقشفها ويسخنها قشفاً وإسخاناً يضران بالحبوب... وينبغي أن تكون التذرية إن أمكن ذلك في يوم ريح الشمال..."^(١).

كما اهتم الفلاحون بتربية المواشي والحيوانات لاستخدامها في الأعمال الزراعية، واستخدام فضلاتها في تسميد المزروعات، وأهم هذه الحيوانات الأبقار والخيل والبراذين والحمير والبغال^(٢).

٥ - المحاصيل الزراعية:

تنوعت المحاصيل الزراعية في جند دمشق، فكان يوجد في أراضيها أنواع مختلفة منها، ويمكن تقسيم هذه المحاصيل إلى حاصلات غذائية، وحاصلات زراعية صناعية:

- الحاصلات الزراعية الغذائية:

- الحبوب (القمح والشعير): تعد الحبوب المصدر الرئيس في تأمين غذاء الإنسان والحيوان، ويعود تاريخها في المنطقة إلى عهد قديم، وأهم أنواعها القمح الذي احتل أهمية كبيرة لأن غذاء الإنسان كان يقوم على الخبز، وقد انتشرت زراعته في المناطق المعتدلة الدافئة، فكان يزرع في غوطة دمشق، وعلى سفوح جبل قاسيون، والقمح المزروع فيها صنفان هما: البيرودي

(١) ابن وحشية، م.ن، ج ١، ص ٤٢٥-٤٢٦.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩١.

والبياضي^(١)، وقد جادت زراعته في حوران والبثنية وضياح أيوب ودياره ولا سيما مدينة نوى التي عدّها المقدسي "معدن القموح والحبوب"، كما اشتهرت البلقاء بجودة حنطتها ولا سيما "عمّان معدن الحبوب"^(٢)، وزرع في البقاع الذي اشتهر بإنتاج القمح^(٣)، أما الشعير فكان يزرع إلى جانب القمح في نفس المناطق، وفي المناطق الأقل خصوبة، وأهم مناطق زراعته دومة الجندل التي اشتهرت بإنتاجه^(٤).

- الرز أو الأرز: كان من نتائج التقدم في وسائل الري، وزيادة المساحات المروية، التوسع في زراعة الرز الذي يحتاج إلى حرارة عالية، ومياه وافرة، فكان يزرع على شواطئ البحر الميت، وبحيرة طبرية، وعلى امتداد نهر الأردن^(٥)، وقد تحدث المقدسي عن شهرة بيسان بإنتاج الرز وجودته، وأنها تمون الأردن وفلسطين^(٦).

- البطيخ: اشتهرت دمشق بزراعته، وله نوعان: الأول البطيخ الهندي وهو الأخضر، وأصنافه هي: الداراني والمرجي والدومي والحبشي والقبلي والعواميدي، أما النوع الثاني فهو البطيخ الأصفر، وزراعته كانت تجود في

- (١) خير، غوطة دمشق، ص ٣٨٨.
- (٢) أحسن التقاسيم، ص ١٤٠، ١٤٩؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار صادر)، ج ١، ص ٣٣٨، ٤٨٩.
- (٣) رحال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ١٤٨.
- (٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، مج ١، (تحقيق: صلاح الدين المنجد)، ص ٣٨٥؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١، ص ١٥٠.

(٥) Sourdel, La civilisation, p.272.

(٦) أحسن التقاسيم، ص ١٤١.

الضمير شرقي الشام، ومن أصنافه: السمرقندي والسلطاني والشام^(١)، ولدمشق شهرة كبيرة بالبطيخ حتى إن أحد أسواقها كان يعرف بسوق البطيخ^(٢)، وجادت زراعة البطيخ في البلقاء أيضاً^(٣).

- وهناك زراعات غذائية أُخر كالذرة والدخن واللوبياء والبقول والعدس والحمص وغيرها، وهذه الزراعات كانت توجد في السهول الخصبة، وأهم مناطق زراعتها غوطة دمشق^(٤).

- الخضراوات: تعد من أهم المواد الغذائية التي اعتمد عليها الإنسان في حياته اليومية، وانتشرت زراعتها في السهول الخصبة، وحول التجمعات السكانية في المدن والقرى، وقد قدّم البدرى قائمة بأسماء الخضراوات وأوصافها التي تزرع في دمشق وتمون سكانها، ومنها: الخيار، والقثاء، والهليون، والطرخون، والكرنب، والباذنجان، والكراث، والزعتر، والفجل، والنعناع، والرشاد، والبقلة، والكرفس، والسلق، والهندباء، والبصل، والثوم، والكرزبرة، والكرأوية، والكمون، والقرع، والخس^(٥).

- الحاصلات الزراعية الصناعية:

تنوعت المحاصيل الزراعية التي استخدمت حاصلاتها في الصناعة، فكان منها القطن والنيل والزعفران والقنب والورد.

(١) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٦٥؛ البدرى، نزهة الأنام، ص ١٣٣.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٨٨.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٤.

(٤) البدرى، نزهة الأنام، ص ١٨٠ - ١٨٣.

- Lombard, Maurice, L'islam dans sa premiere grandewr, paris, 1971, p. 150.

(٥) نزهة الأنام، ص ١٥٩ - ١٨٤.

- القطن: عرف العرب زراعته واستخدامه في منسوجاتهم منذ ما قبل الإسلام، وقد اتسعت زراعته مع قيام الدولة العربية الإسلامية، وتطور الصناعة، ونشاط التجارة، فجدت زراعته في الأراضي الخصبة المنخفضة ذات الحرارة المرتفعة والمياه الوفيرة كغور الأردن، وسهول الحولة^(١)، وغوطة دمشق^(٢).

- النيل والزعفران: ولهما أهمية كبيرة، إذ شكلا مادتين من أهم مواد صباغة الملابس، فاستعمل النيل للتلوين باللون الأزرق، واستعمل الزعفران للتلوين باللون الأصفر^(٣)، ونظراً لأهميتها الكبيرة فقد اتسعت زراعتهما، فكانت تنتشر في الأراضي المنخفضة والحارة، فمدينة زغر اشتهرت بالنيل الذي لا يقل جودة عن نيل كابل^(٤)، وعرفت أريحا بأنها "معدن النيل"، وعرفت المنطقة من الشراة إلى الحولة بـ "بلد النيل"^(٥)، أما الزعفران فكانت مزارعه منتشرة في أرض النيرب، ويطل عليها من دير مران في السفح الغربي من قاسيون، كما جدت زراعته في قرية جادية من قرى البلقاء، وعرف زعفرانها بالجادي^(٦).

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٠. - Lombard, L'islam, p.201.

(٢) كرد علي، غوطة دمشق، ص ١١٢، ١٣٧.

(٣) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢١١-٢١٢.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٩؛ ابن شداد، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ٦٧؛ كابل: ناحية تقع بين الهند ونواحي سجستان في ظهر الغور، ومدينتها العظمى أوهند؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار صادر)، مج ٤، ص ٤٢٦.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٩، ١٥٣.

(٦) الحموي، معجم البلدان، (ط، دار صادر)، ج ٢، ص ٩٢، ٥٣٣؛ كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ١٥١.

- القنب: هي زراعة ذات مردود اقتصادي كبير، انتشرت في غوطة دمشق، واتصف إنتاجها منه بوفرة أليافه وجودته، فكان يصنع منه الحبال والخيوط^(١).

وهناك السمسم والتمس، وقد زرع في غوطة دمشق خاصة في حرستا^(٢).

- الورد: اشتهر جند دمشق بزراعة الورد بأنواعه المختلفة، الذي استخدم في صناعة العطور، وفي مجال الطب والمعالجة، وعن هذه الورد تحدثت المصادر كثيراً، فقد أبدى الثعالبي إعجابه تجاه حسن غوطة دمشق وحدائقها، فقال: "هي أحسن وأطيب الدنيا الأربع... لم أميز بين رياضها المزخرفة بالأنوار والأزهار، وبين غدرانها المعمورة بطير الماء... ولم أشبهها إلا بالجنة أو صورتها منقوشة على الأرض"^(٣)، وقال المهلبي عن ورد دمشق: "بدمشق عدة ألوان من الورد، فمنها أصفر إبريز، وأسود، وسماقي، وورد موجه للورقة لونان من خارجها وداخلها، وليس الزهر على وجه الأرض ببلد أكثر منه بدمشق"^(٤).

زرعت في دمشق أنواع من الورد الجوري والنسريني، وهو ورد له نوار أبيض، زرع سياجاً حول البساتين؛ والنرجس، وأنواعه هي: اليعفوري والبري والمضعف؛ والبنفسج، والمتثور، والسوسن؛ وهو ضرب من الرياحين لونه أبيض أو أصفر أو أزرق؛ والزنبق، والبهار (الأقحوان)، والأذريون:

(١) كرد علي، غوطة دمشق، ص ١٠٩؛ خير، غوطة دمشق، ص ٤٢٣.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩٠؛ البدري، نزهة الأنام، ص ١٨٣.

(٣) لطائف المعارف، ص ١٥٧-١٥٨.

(٤) الحسن بن أحمد المهلبي (القرن ٤هـ / ١٠م)، المسالك والممالك، نقلًا عن أحمد الإيش، قتيبة الشهابي، دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٨م، ج ١، ص ٢٠٧-٢٠٨.

وهو صنف من الأقحوان؛ والآس، وشقائق النعمان، والنيلوفر ويعرف باسم حب العروس، والقرنفل^(١).

واشتهرت الحولة بأزهارها، وأريحا برياحينها^(٢)، وجبل لبنان والجولان والبقاع والبلقاء بأزهارها وطيوبها^(٣)، واشتهرت المدن الساحلية بورودها وأزهارها، إذ إن مناخها المعتدل، وأراضيها الخصبة، وأمطارها الغزيرة جعلت أراضيها وحقولها متبرجة بالأزهار طيلة أيام السنة، ففي القرن الخامس الهجري أبدى ناصر خسرو إعجابه تجاه حسن ورد جبيل وصيدا، وعبر عن استغرابه لفتح أزهارها في فصل البرد، وقال عن حدائق صيدا هي: "أشبه بحدائق الملوك في تنفيذها وتنسيقها، وحينما دخلنا المدينة كانت جميع حدائقها محملة بالثمار الناضجة"^(٤).

وقد تغنى الشعراء بورد جند دمشق وأزهاره، وروائح العطرة، فالشاعر الصنوبري (ت، ٣٣٤هـ / ٩٤٥م)، أنشد يذكر دمشق ويصف وردها في فصل الربيع قائلاً:

ما الدهرُ إلاَّ الربيعُ المستنيرُ إذا جاء الربيعُ أتاك النورُ والنورُ
فالأرضُ ياقوتةٌ والجوُّ لؤلؤةٌ والنبتُ فيروزٌ والماءُ بللورُ^(٥)

(١) البدرى، نزهة الأنام، ص ٦٠-١٠٣، ٢٠٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩١.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٠، ١٤٩.

(٣) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ١٥٧.

(٤) سفر نامه، ص ٤٤ - ٤٥.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥، ص ٢٤٤؛ الصنوبري، أحمد بن محمد بن محمد بن الحسن الضبي (ت، ٣٣٤هـ / ٩٤٥م)، ديوان الصنوبري، حققه: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٠م، ص ٤٢ - ٤٣.

- النباتات الأخرى: نبتت في جند دمشق نباتات طبيعية كثيرة استفيد منها في الأغراض الطبية، وصناعة الآلات والأدوات المختلفة، فقد وجد في جبل لبنان مثلاً أكثر من تسعين نوعاً من هذه النباتات تحدث عنها شيخ الربوة، قال: "ولجبل لبنان، ولا سيما بقضييه وأذياله نحو من تسعين عقاراً ونباتاً نافعاً مباحاً بلا ثمن، وله قيمة جيدة، وثمرن يكتفي به الجاني الجامع طول سنته له ولأهله، ومن ذلك: الكثيراء، والريباس، والبرباريس، والغاونيا، وهو عود الصليب، والقيسة، والبقس والقيقب الذي يعملون منه المرامل والملاعق، وآلات المموه بالذهب والفضة، ويحمل إلى سائر البلاد والأقاليم، وليس عملاً ألطف منه، ولا أحسن، ومن النباتات أيضاً شجر المحمودة، والأشتوان، والزراوند، والحماما التي لا توجد إلا في إقليم دمشق بجبل لبنان، وهو معلق في شقيف عال ما يقدر على جنيه إلا أن يدلوا جانبه بحبال من رأس جبل عال، كما يدل الدلو في البئر، وهي لأجل الترياق الفاروق، والراوندان، واللوز المر والحلو، والأهل، والقراصيا، والزيفون"^(١).

وكان هناك السواك على ضفاف نهر بردى^(٢)، والبردي على شواطئ بحيرة الحولة^(٣)، والهلين التي جادت زراعته في دمشق، وهو مذاق طيب، ومنافع طبية^(٤).

(١) نخبة الدهر، ص ٢٦٦-٣٦٧.

(٢) ابن زنجويه، كتاب الأموال، ج ١، ص ٣٨٤.

(٣) لامنس، هنري، تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار، لبنان، دار الرائد اللبناني، ط ٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٤) البدرى، نزهة الأنام، ص ١٦٥-١٦٦.

٦- الأشجار المثمرة:

إن خصوبة أراضي جند دمشق، وتوافر المياه والأمطار، أديا إلى تنوع المحاصيل الزراعية وأشجار الفاكهة التي كانت مضرب المثل بطعمتها ونكهتها وحجمها، ففي غوطة دمشق كانت الأشجار والبساتين متداخلة ومتشابكة بكثافة كبيرة على حد قول البدري الذي ذكر أن نهر بردى كان يمر فيه الشيء الكثير من ثمارها الذي يسقطه النسيم عند تضارب الأغصان، وروى أن بعض الفقراء في القديم كان "يضع مكتله على رأسه، ويسرح في طرف البساتين، فيعود، وقد امتلأ مكتله" مما يسقط من الأثمار من غير أن يتناول بيده شيئاً^(١)، وهذا يدل على جودة الأشجار وإنتاجها الغزير، كما تميزت مدن عديدة ببساتينها، وأبرزها: طرابلس التي كانت تضاهي دمشق في بساتينها^(٢)، وأهم الأشجار المثمرة:

- الزيتون: يعد من أهم الأشجار المثمرة، وتعود زراعته في المنطقة إلى عهد قديم، فكانت تنتشر في غوطة دمشق، إذ زرع في المزة وكفرسوسية وبرزة والقابون ودوما ويلدا وحوش الريحانية^(٣)، وجادت زراعته في السهول الساحلية، ولا سيما في طرابلس التي اشتهرت بحقول

(١) المكتل أو المكتلة ج مكاتل: زنبيل من خوص يُحمل فيه التمر وغيره؛ المنجد في اللغة والأعلام، ص ٦٧٣، مادة "كتل".

(٢) نزهة الأنام، ص ١٩١.

(٣) ابن شداد، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ١٠٤.

(٤) ابن شداد، قسم دمشق، ص ١٥٢؛ البدري، نزهة الأنام، ص ١٢٧؛ كرد علي، غوطة دمشق، ص ١٠٨.

الزيتون الكثيرة والواسعة^(١)، وعدت بساتين الزيتون المنتشرة جنوب بيروت من أكبر بساتين الزيتون في العالم^(٢)، وزرع في جهات متعددة من جبل لبنان أهمها: مزارع الكورة، والمختارة، وعمّاطورا، والشويفات^(٣)، وزرع في جبل عامل المتصل بجبل لبنان من الجنوب^(٤)، كما جادت زراعته في كورتي جبال والشراة^(٥)، وذكر ياقوت الحموي زراعته في دومة الجندل^(٦).

اشتهرت المنطقة بإنتاج أجود أنواع الزيت الذي كان مضرب المثل بصفائه وطيبته ونظافته، وكانت تنتج منه كميات كبيرة، يصدر بعضها إلى المناطق المجاورة مثل العراق وشبه الجزيرة العربية، ويعرف هذا الزيت بالركابي لأن تصديره إلى هذه المناطق كان يتم على الإبل، وكان من نتائج وفرة الزيوت نشاط الصناعات المتفرقة عنها كالصابون والعمّور^(٧) وغيرها.

- الكروم: تعد زراعة متوسطة، فموطنها الأصلي بلاد الشام، ومنها انتشرت إلى سائر الأراضي المتوسطة، ولزراعتها شهرة كبيرة، وتعد أكثر ما يزرع من الفواكه، فلا تكاد تخلو منطقة من مناطق الشام من زراعتها، فكانت تزرع في دمشق وخطتها، ومنها كان يصنع الزبيب الذي عدّه المقدسي ضمن صادرات دمشق^(٨)،

- (١) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.
- (٢) حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٥٣.
- (٣) لامنس، تسريح الأبصار، ج ٢، ص ١٨٧.
- (٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤١؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٧٩.
- (٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٥٧.
- (٦) معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ٢، ص ٥٥٥.
- (٧) الثعالبي، لطائف المعارف، ص ١٥٦ - ١٥٧. - Lombard, L'islam, p.183- 184.
- (٨) أحسن التقاسيم، ص ١٥٥.

فقد اشتهرت داريا بعنبها الزيني والأحمر الداراني وهما من أجود أنواع العنب، وزرع في الغوطة أكثر من خمسين نوعاً من أنواع العنب، ومنها: إضافة إلى ما سبق ذكره: البلدي والخصاصي والعاصمي والحلواني والرومي والعرايشي^(١)، وزرعت الكروم في بعلبك في بساتين واسعة وكثيرة، وأنتجت أفضل أنواع العنب، حتى إن المقدسي سَمَّى بعلبك "معدن الأعناب"، ووصف كروم بُصرى التي اشتهرت بجودتها وطيبتها بأنها لا تنسى^(٢)، وانتشرت زراعة الكروم في جبيل وطرابلس والجبال والشراة^(٣) وزغر^(٤)، وجبل عامل ومآب التي اشتهرت بإنتاج الخمر^(٥)، كما زرعت في أذرعات التي اشتهرت بإنتاج الخمر، وتميزت صيدنايا من أعمال دمشق بكثرة الكروم، وإنتاج الخمر الفائق^(٦).

وقد كان إنتاج المنطقة من العنب كبيراً جداً حتى إن الفلاحين كانوا يدفعون جزءاً من الضرائب العينية المفروضة عليهم زيبياً^(٧).

- التفاح: اشتهر جند دمشق بإنتاج أجود أنواع التفاح، وأهم مناطق زراعته جبل لبنان، وقد عدَّ ابن الفقيه التفاح فيه من العجائب، ووجه

(١) البدرى، نزهة الأنام، ص ١٣٣.

(٢) أحسن التقاسيم، ص ١٣٣ - ١٣٤، ١٤٠.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٥٧، ٣٧٢.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٩.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤١، ١٥١.

(٦) الحموي، معجم البلدان، (ط، دار صادر)، ج ١، ص ١٣٠؛ مج ٣، ص ٤٣٨.

(٧) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٨٧.

الأعجوبة فيه أن له ظاهرة غريبة، فعندما يقطف لا يكون له رائحة ولا طعم، فيصدر من لبنان باتجاه المشرق، فما إن يتجاوز نهر البليخ حتى تبرز نكهته الطيبة ورائحته الفائحة^(١)، وزرع التفاح في غوطة دمشق وقراها، وله فيها أصناف كثيرة، منها: السكري والمسكي، والبلدي والحريستاني واللبناني والجناني^(٢).

وكان تفاح الشام مضرِباً للمثل في حسنه وطيبته، فكل سنة يُجْمَل منه ثلاثون ألف تفاحة للخلفاء في العراق، وقيل إنها تكون في العراق أعقب مما كانت عليه في الشام^(٣)، وروى المسعودي أن أحد الوجهاء ذكر أنه حضر الطعام على مائدة الخليفة المقتدر، فلما رفعت المائدة، قُدِّم لهم التفاح الشامي في إجانة كان فيها أكثر من ألف تفاحة من أطيب وأشهى الأنواع^(٤)، وعرف عن الطيب حنين بن إسحاق أنه عندما يشتهي الفواكه كان يأكل التفاح الشامي^(٥).

- النخيل: كان من الزراعات المهمة، إذ شكل التمر غذاءً رئيساً لغالبية الناس، ومورداً اقتصادياً مهماً، وقد انتشرت زراعته في مناطق جنوب الشام قبل الفتح الإسلامي، ولكن مع الفتح الإسلامي اتسعت زراعته إلى مناطق شمال الشام، فكان هذا التوسع عاملاً مهماً في إعمار البادية، وتقدم العمران على حسابها^(٦).

(١) البلدان، ص ١٦٦؛ حتي، تاريخ لبنان، ص ٣٣٨.

(٢) البدري، نزهة الأنام، ص ١٢٠؛ الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ١، ص ٣٦٠.

(٣) الثعالبي، لطائف المعارف، ص ١٥٦.

(٤) مروج الذهب، ج ٤، ص ٣٠٣.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٢، ص ٢١٧؛ حتي، فيليب، تاريخ العرب موجز، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩١م، ص ١٢١.

(٦) - Lombard, L'islam, p.184- 185.

زرع النخيل في زغر التي عرفت ببلد النخيل، واشتهرت بإنتاج التمر الزغري^(١)، وزرع النخيل في الغور وبيسان وأريحا التي كانت مشهورة بأرطابها، وصادراتها من التمر، وكانت أشجاره تغطي بقعة كبيرة تمتد من أرض الشراة جنوباً إلى الحولة شمالاً^(٢)، وزرع في مقنا ودومة الجندل^(٣)، وتبوك^(٤)، وتيباء في البادية التي كانت مركزاً مهماً لزراعته واشتهرت بجودة إنتاجها^(٥)، وزرع في المدن الساحلية بيروت وطرابلس وجبل التي كان يحيط بها مزارع واسعة من النخيل^(٦)، وزرع في دمشق على سفوح جبل قاسيون وضاف نهر بردى، وشكلت أشجاره ميداناً أخضر في غرب دمشق^(٧).

- التين: زرع بشكل واسع في دمشق التي كانت مشهورة بتصدير القطين، وهو التين المجفف^(٨)، وزرع في المزة وبرزة اللتين نسب إليهما التين

- (١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٤٥.
- (٢) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٥؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٠؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤١، ١٤٩، ١٥٣-١٥٤.
- (٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٨٥-٨٦؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ١، ص ١٥؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ٢، ص ٥٥٤.
- (٤) الحموي، م.ن، ج ٢، ص ١٧.
- (٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٠٦.
- (٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٢؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٢، ٤٤؛ الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٦.
- (٧) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٨١؛ البدري، نزهة الأنام، ص ١٩١.
- (٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٥.

المزي والبرزي، ومن أصناف التين التي كانت تزرع في غوطة دمشق: الرومي، والعسيلي، والشتوي والماسوني والبعلبكي^(١)، وزرع في أرض الشراة وزغر، وفي جبل لبنان^(٢).

- قصب السكر: أُدخلت زراعته من الهند في القرن السادس الميلادي إلى العراق، ثم انتقلت إلى الشام، فكان يزرع في الأغوار والسهول الساحلية، وكانت حاصلاته من أهم الحاصلات في الشام، وأهم مناطق زراعته ضياع غور الأردن التي اشتهرت بإنتاج كميات كبيرة من السكر، وكانت تصدر بعضها إلى سائر بلاد الشام^(٣)، وزرع في أريحا وجبل الجليل^(٤)، وكانت أوسع مزارعه وأجودها في السهول الساحلية حيث كثرت أشجاره ومعاصره في بيروت وصيدا وطرابلس وعَرَقة، وصور التي اشتهرت بصادراتها من السكر^(٥). وانتشرت زراعته في غوطة دمشق، وله فيها أنواع

(١) البدري، نزهة الأنام، ص ١٥٧.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٥٧؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٢٨؛ لامنس، تسريح الأبصار، ج ٢، ص ١٩٣.

(٣) الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ١، ص ١٧٧.

- Sourdel, la civilization, p. 272.

(٤) آشور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ١٩٤.

(٥) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٦؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٢؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٤؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٢، ٤٥؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٧٢-٣٧٤؛ ابن شداد، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ٩٢، ١٠٤؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ٢٠٣؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٦٣؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٧٥.

متعددة، منها: الأبيض والأصفر والأسود الذي لا يعصر، بينما يعصر الأبيض والأصفر، ويقال لعصارتها عسل القصب^(١).

- المشمش: كان من أكثر الأشجار المغلة في غوطة دمشق ومرجها، وأشجاره فيها من أجود الأنواع بمائته ونكهته، وله أصناف كثيرة، وهذا ذكر بعضها: اللوزي، والكلابي، والعريبي، والحموي والوزير...، وقد أدت شهرة دمشق بإنتاج المشمش إلى نشاط الصناعات الغذائية القائمة على إنتاجه كالمرببات وغيرها^(٢)، وزرع المشمش في جبل لبنان، وأبرز الأصناف فيه: الكلابي والوزير، وزرع في منطقة الشراة التي اشتهرت بمشمشها^(٣).

- الرمان: جادت زراعته في غوطة دمشق، ومن أصنافه: الشويكي، والبردي، والماوردي، والسلطاني، والحامض الذي يستخدم في الطعام، واللفان الذي يتصف بقابليته للخصن مدة طويلة^(٤)، وزرع الرمان في الشراة وكورة الجبال، والمناطق الساحلية^(٥).

- الأترج والنانج (البرتقال والليمون): لم تكن معروفة في بلاد الشام قبل القرن الثالث الهجري، فقد ذكر المسعودي أن العرب نقلوها من الهند إلى بلادهم في القرن الرابع الهجري، فزرعت بعمان والعراق وبلاد الشام^(٦)،

(١) البدري، نزهة الأنام، ص ٢١٠.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٩، ١٥٣.

(٣) لامنس، تسريح الأبصار، ج ٢، ص ١٩٤؛ كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ١٥٠.

(٤) البدري، نزهة الأنام، ص ١٢٨.

(٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٥٧؛ كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ١٤٠.

(٦) مروج الذهب، مج ١، ص ٣٧٨.

أما بالنسبة لمناطق زراعتها في جند دمشق، فكانت في السهول الساحلية، ولا سيّما طرابلس التي كانت مشهورة ببساتينها من النارج والأترج والليمون، وجادت زراعتها في جبل لبنان الذي كان غنياً بأشجار البرتقال^(١)، وتميز وادي الجرمق من أعمال صيدا بأنه كثير الليمون والأترج^(٢)، وزرعت في دمشق، ويصنف الليمون إلى أحمر وأصفر، وأجود أصنافه اليافاوي والبلدي والماوردي^(٣).

- اللوز: هو شجر له نوار أبيض وأحمر، كان يزرع في غوطة دمشق بين البساتين والكروم، ومن أصنافه: الجلي والقسطاسي والعرييلي والعقابي والبندقي والشحمي^(٤)، وزرع في مآب بشكل واسع، وأنتجت كميات كبيرة منه، فكانت قلبه من صادراتها^(٥)، وزرع في جبل لبنان بنوعيه المر والحلو^(٦)، كما زرع أيضاً في الجبال والشرارة^(٧).

- (١) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ٤٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩٠؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٧٥؛ لامنس، تسريح الأبصار، ج ٢، ص ١٩٠.
- (٢) الأرمنازي، غيث بن علي بن عبد السلام الصوري (ت، ٥٠٩هـ / ١١١٥م)، المجموع من المنتخب المنشور في أخبار الشيوخ من تاريخ دمشق وصور، براوية مؤرخ دمشق الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت، ٥٧١هـ / ١١٧٥م)، جمعه واعتنى به: عمر عبد السلام تدمري، صيدا - بيروت، المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص ١٩٢؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤١، ص ٣٣٩، ورد فيه اسم الوادي (الحريق).
- (٣) البدري، نزهة الأنام، ص ١٩٦ - ١٩٨؛ كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ١٨١.
- (٤) البدري، نزهة الأنام، ص ١٤٠ - ١٤٧؛ كرد علي، غوطة دمشق، ص ١١١.
- (٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥١، ١٥٥.
- (٦) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٦٦؛ لامنس، تسريح الأبصار، ج ٢، ص ١٩٣.
- (٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٥٧.

- الجوز: زرع بشكل واسع في دمشق التي اشتهرت بأشجار الجوز المشوقة القدور، وذات الحجم الكبير، وصادراتها من الجوز^(١)، وكان يراعى في زراعة أشجاره ألا تعيق نمو المحاصيل الزراعية، لذلك كانت تزرع على جوانب الطرق والممرات، وفي أطراف البساتين لأنها تكبر بسرعة وتأخذ حجماً كبيراً، وللجوز فائدة كبيرة إذ تستخدم أخشابه في صناعة الأثاث المنزلي، وقشوره الخضراء وثماره في صنع المربيات، ويستخرج من ثماره بعض أنواع الزيت، ومن قشوره أصباغ يستعملها النجارون، وجادت زراعة الجوز في مدين، وإليها ينسب الجوز الميني الذي يتصف برقة قشره وبياض قلبه، ومن أصناف الجوز: المغاربي والفرك والجبلي والبستاني، وانتشرت زراعة الجوز في مناطق أحر كجبل لبنان ولا سيما حول مدينة طرابلس^(٢).

- الموز: انتشرت زراعته بشكل واسع في أريحا وغور الأردن، وقد عرفت المنطقة من الشراة إلى الحولة بأنها بلد الموز^(٣)، وزرع في طرابلس وغوطة دمشق^(٤).

- الكمثرى: اشتهرت غوطة دمشق بزراعته، وكان يعرف بالإنجاص، وله ثلاثة وعشرون صنفاً، أبرزها: الملكي، والعيلاي، والبيرودي، والعقرباني، والرحبي^(٥)، وبلغ من شهرة كمثرى دمشق أنها كانت تقدم هدية للأمرء،

- (١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٥؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٧٠.
- (٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٨٠، ٢٠٣؛ البدري، نزهة الأنام، ص ٢٠٥؛ محاسنة، تاريخ مدينة دمشق، ص ١٩٠.
- (٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٩، ١٥٣.
- (٤) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ٢٠٣؛ البدري، نزهة الأنام، ص ٢٠٩.
- (٥) البدري، م.ن، ص ١١٧؛ كرد علي، غوطة دمشق، ص ١١٠ - ١١١.

ذكر ابن سعيد أن رجلاً من أهل دمشق حمل ثلاثين كمشري إلى مصر، وقدمها هدية لمحمد بن علي الماذرائي صاحب الخراج، فكافأه عليها بثلاثين ديناراً^(١).

- الدراق: يعد من محاسن الشام، ويزرع في غوطة دمشق، وأشهر أنواعه الدراق الزهري^(٢).

- فواكه وثمار مختلفة: إضافة إلى الأصناف السابقة زرع في جند دمشق أصناف أخر كثيرة، منها: الإجاص أو الخوخ، والسفرجل، والعناب، والبندق، والفسق، والكستنة والكرز، وكانت هذه الأصناف توجد في غوطة دمشق، وهناك التوت الذي زرع في دمشق أيضاً، وله عدة أصناف^(٣)، وزرع السماق على سفوح جبل قاسيون، واستعملت ثماره الشبيهة بالعناقيد الكثيفة في الطعام ودباغة الجلود^(٤)، كما زرع القلقاس - وهو من أشجار الفاكهة التي توجد في المناطق الحارة - في قرية الغور من أعمال دمشق، وزرع أيضاً في حقول طرابلس وبساتينها^(٥).

٧- الأشجار غير المثمرة:

اشتهر جند دمشق بغاباته الغنية بسروها وصنوبرها وأرزها، فقد كان جبل لبنان وما زال من أحسن جبال الشام بغابات الصنوبر والأرز، التي

(١) المغرب في حلى المغرب، ج١، ص١٥١.

(٢) البدرى، نزهة الأنام، ص١٢٤.

(٣) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص١٨٦؛ البدرى، نزهة الأنام، ص١٤٩، ١٦٢، ١٨٥-١٨٦، ١٨٩.

(٤) البدرى، م.ن، ص٢٠٢.

(٥) البدرى، م.ن، ص٢٠٨؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٧٥.

كثُر الحديث عنها في المصادر التاريخية، وشكلت أخشابها مورداً اقتصادياً مهماً استخدمتها الشعوب التي تعاقبت سيطرتها على المنطقة في بناء قصورها وهياكلها، كما استخدم العرب المسلمون أخشاب هذا الجبل، فنقلوها إلى المدن الساحلية، وعملوا منها سفنهم وأساطيلهم^(١).

وانتشرت غابات أشجار الصنوبر في مناطق متعددة، فمدينة بيروت كانت وسط غيضة من أشجار الصنوبر تمتد على سفوح جبل لبنان^(٢)، وكان هناك أشجار السنديان والبلوط والشيخ والجميز ذات الأخشاب القوية والضخمة، وقد استخدمها أحمد بن طولون في تحصين ميناء عكا^(٣)، وهناك أشجار البطم والخرنوب التي انتشرت بكثافة كبيرة في جبل عامل^(٤) وجبل لبنان، وقيل إن إقليم الخروب سمي بذلك لكثافة أشجار الخرنوب فيه، وقد تحدث الإدريسي عن خرنوب مدينة الناعمة في جبل لبنان، فقال: "والناعمة مدينة حسنة، وأكثر نبات أرضها الخرنوب الذي لا يعرف في معمور الأرض مثله قدراً وطيباً، ومنها يجّهز به إلى الشام وإلى ديار مصر، وإليها ينسب الخرنوب الشامي، أما وإن كان في الشام كثيراً وطيباً، فهو بالناعمة أكثر وأطيب"^(٥)، كما انتشرت زراعة الخرنوب في غوطة دمشق، وعلى سفوح جبل قاسيون^(٦).

(١) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ١٥٢ - ١٥٣.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٧١؛ ابن شداد، قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ١٠١؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٩١.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٢.

(٤) شيخ الرّبوة، نخبة الدهر، ص ٢٧٩.

(٥) نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٧١؛ لامنس، تسريح الأبصار، ج ٢، ص ١٩١.

(٦) البدري، نزهة الأنام، ص ٢٠٥.

وانتشرت زراعة الحور في غوطة دمشق على ضفاف نهر بردى، وأخشابه من أجود أنواع الأخشاب، لذلك عمد الدمشقيون منذ القديم إلى الاهتمام بزراعته، لاستخدام أخشابه في البناء، وتظهر معالم استخدامه واضحة في أعمدة الحور الرومي في سقف الجامع الأموي، وأبواب السور الرومي القديم، كما زرع الدمشقيون الحور مصدات رياح وسياج للبساتين والمزارع، وللحور أصناف أهمها: الرومي والحموي والفارسي^(١).

وانتشرت زراعة السرو على أطراف البرك والبحيرات ومجاري الأنهار ولا سيما في غوطة دمشق على ضفاف نهر بردى، إذ شكلت غاباته منظراً جميلاً من أجمل المناظر، وفي هذا قال المهلبي: "وبظاهر دمشق وادي البنفسج"^(٢) تكسيه نحو أربعة أميال، ونهر بردى يشقه، فالوادي كله مملوء بشجر السرو، ولا تصل الشمس إلى أكثر أرضه، وأرضه كلها بنفسج متشج بعضه ببعض في نهاية الحسن"^(٣).

ونمت في هذه المنطقة أشجار أخرى غير مثمرة على ضفاف المجاري المائية، وسفوح الجبال والهضاب، مثل: الدلب، والصفصاف، والشيح، والحيلاني وهو شجر يشبه الصفصاف، والزعرور والزيزفون اللذين استخدمهما الفلاحون سياجاً لمزارعهم وحقولهم^(٤).

(١) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٧٩، ١٨٦؛ خير، غوطة دمشق، ص ٥١٦-٥١٧.

(٢) واد البنفسج: كان من منتزهات دمشق في الجانب الغربي منها؛ الشهابي، معجم دمشق التاريخي، ج ٢، ص ٣٣٥.

(٣) المهلبي، المسالك والممالك، نقلاً عن الإيش والشهابي، دمشق الشام، ج ١، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٤) البدري، نزهة الأنام، ص ١٠٩، ٢٠٣-٢٠٤.

٨- المراعي:

شكلت المراعي مساحة كبيرة من أراضي جند دمشق، وفيها تركز نشاط البدو، فإليها كانوا يرحلون بمواشيهم وإبلهم خاصة المناطق المتاخمة للبادية التي كانت ميدان نشاطهم الأبرز.

وانتشرت مناطق الرعي على ضفاف الأنهار والأودية وسفوح الجبال وتخوم البادية، وفي المروج كمرج راهط ومرج عذراء ومرج الصفر في شمالي حوران^(١)، ومرج عيون وغيرها، وكان هناك بعض المدن التي وصفت بكثرة مروجها ومراعيها كطرابلس^(٢) والجولان ودومة الجندل، وفي السياق نفسه يمكن القول إن البادية التي شكلت جزءاً كبيراً من مساحة جند دمشق كانت من أهم المراعي لسقوط نسبة من الأمطار فيها كافية لنمو الأعشاب التي ترعاها المواشي.

٩- الثروة الحيوانية:

اهتم الإنسان منذ القديم بتدجين الحيوانات لاستخدامها في ميادين حياته للنقل والركوب والحرب والحراثة والري، وللاستفادة من منتجاتها ولحمها في غذائه ولباسه، وبالنسبة للحيوانات التي كانت موجودة في جند دمشق فهي الإبل والخيل والبغال والحمير والبراذين، وأبرز مراكز تربيتها دومة الجندل^(٣)،

(١) الحموي، معجم البلدان، (ط، دار صادر)، ج ٢، ص ٩١.

(٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ٢٠٣.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٨٦؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)،

ج ٢، ص ٥٥٥.

وهناك الأغنام التي اشتهرت بتربيتها عمّان^(١)، كما اشتهرت طرابلس بتربية الأغنام والماعز والأبقار التي استخدمت في الفلاحة وعصر قصب السكر وغيرها من الأعمال^(٢)، كما اشتهرت قبائل لحم وجدام وجهينة وبلي التي كانت تسكن بين أيلة وتبوك إلى وادي القرى بتربية الإبل^(٣)، وانتشرت في هذه المدة تربية الجاموس الذي استفيد منه في الأعمال الزراعية، كما اعتمد أهالي بعض المناطق في غذائهم عليه^(٤).

وبرع أهالي جند دمشق في تربية النحل لاستخراج العسل، وللعسل عندهم أنواع متميزة، أحسنها وأطيبها عسل جبل لبنان، وجبل عامل^(٥). وعرفوا تربية الطيور ومنها: الأوز والدجاج والحمام، وأنواع طيور الماء المختلفة^(٦)، وأهم مناطق تربية الطيور طرابلس التي اشتهرت بكثرة طيورها^(٧)، وقد بلغ من اهتمام الناس بتربية الطيور أنهم كانوا يبنون أبراجاً عالية لتربية الحمام لوقايتها من الأفاعي وغيرها من الحيوانات الضارة^(٨).

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٩.

(٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ٢٠٣؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٦٣.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٥٢-٣٥٣.

(٤) ابن العديم، بغية الطلب، مج ١، ص ١٥٩؛ بيطار، الحياة السياسية وأهمّ مظاهر الحضارة في بلاد الشام، ص ٣٣٤.

(٥) الفسوي، المعرفة والتاريخ، مج ١، ص ٥٨٠؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٨.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩١.

(٧) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٧٥.

(٨) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٣٢. - Sourdel, la civilization, p. 272.

أما صيد الأسماك، فكان يتم من العيون والأنهار والبحيرات كبحيرة طبرية التي وصفت بكثرة سمكها، ومن البحر الأحمر^(١)، والبحر المتوسط، وأنشط المدن الساحلية في صيد الأسماك كانت طرابلس حيث وجد فيها باستمرار سمك البحر الطري^(٢).

من خلال ما سبق يمكن القول إن أراضي جند دمشق التي قلماً تلقت الرعاية والاهتمام من كثير من الولاة العباسيين أو الطولونيين أو الإخشيديين لم تبخل بخيراتها ومنتجاتها، فاستمرت تزود الأهالي بمصدر غذائهم ورزقهم، وبمواد أولية لصناعتهم، ومنتجات لتجارهم، ويعود ازدهار الزراعة إلى تعدد المناطق التضريبية في جند دمشق، ومن ثم تنوع زراعاته التي جادت في مناطقه الزراعية المتعددة التي تميزت بخصوبة تربتها وجودة زراعتها، كما يعود إلى توافر المياه اللازمة لري الزراعات، وتعدد طرق الري ووسائله.

وتبين من خلال ما سبق أيضاً أن أصناف الأراضي كانت متعددة، وكانت طرائق استثمار الأراضي الزراعية متنوعة، واعتمد الفلاحون في استثمارها على المناوبة والتجارب المكتسبة، واتبعوا أفضل الأساليب للعناية بالنباتات والأشجار، فجادت زراعات متنوعة كالقمح والشعير والأرز والخضراوات والبقول بأنواعها...، كما جادت الأشجار المثمرة بأنواعها المختلفة، واشتهر جند دمشق بتنوع نباتاته الطبيعية، وأشجاره غير المثمرة التي استفيد منها في أغراض مختلفة، وتميز أيضاً بمراعيه ومروجه وحيواناته المتنوعة.

(١) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٤١، ١٥٢؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٦٣؛

البلاذري، فتوح البلدان، ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٧٥.

ب - الصناعة والحرف:

من الثابت أنه لم يكن هناك صناعة بمعنى مصانع ومعامل كبيرة، وإنما كانت هناك حرف ومهن يدوية تمارس في ورش حرفية أو في المنازل، ولا مانع من إطلاق اسم صناعة عليها على سبيل الإيضاح.

واجهت الصناعة في جند دمشق صعوبات جمة تمثلت في الحروب المتكررة التي كانت تدور رحاها على أرضه، مما كان يؤدي إلى ضعف نشاط الصناعة ووقف إنتاجها، ويبدو أن الصناعة تأثرت أيضاً بما قام به بعض الخلفاء العباسيين من أخذ مهرة الصناع والحرفيين في الشام للمشاركة في بناء المدن التي أقاموها^(١)، ورغم ذلك فإن عوامل متعددة جعلت صناعة جند دمشق مزدهرة ومتطورة، وتحافظ على شهرتها القديمة، وأهم هذه العوامل: توافر المواد الأولية اللازمة لكثير من الصناعات كالزيتون لصناعة الزيت والصابون، وقصب السكر لصناعة السكر، والقطن لصناعة الأقمشة، والأخشاب للصناعات الخشبية، والحديد للصناعات المعدنية^(٢)،... إلخ، وتوافر الأيدي العاملة الخيرة بأنواع الصناعات وتقانتها.

ومما نشط صناعة جند دمشق موقعه الإستراتيجي على الطرق التجارية المهمة التي تصل بين شمال بلاد الشام وجنوبها، وبين البحر المتوسط وشبه الجزيرة العربية والخليج العربي، وبين العراق ومصر وشمال إفريقيا.

(١) اليعقوبي، البلدان، ص ١١، ٣٤؛ ديهاند، الفنون الإسلامية، ص ٩٤.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٨؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٧١.

١ - أوضاع الحرفيين والتنظيم الحرفي:

كانت أبواب الحرف مفتوحة أمام الناس لاختيار المهنة التي يريدونها، غير أن بعض الناس كان يأنف من ممارسة بعض الحرف لأسباب اجتماعية كحرفة الدباغة والحياكة التي تنبعث من صاحبها رائحة كريهة قد تكون من موانع الزواج، كما أن بعض الحرف كانت مرفوضة عند المسلمين لأسباب دينية كمهنة الصيرفة وتجارة الخمور المذمومة في الإسلام، لذلك كان أكثر العاملين في بعض الحرف من أتباع طائفة واحدة، فقد اختص اليهود بممارسة حرف الصباغة والدباغة، وصياغة الذهب والفضة، بينما اختص النصارى بالعمل كتاباً وأطباء^(١).

كانت أوضاع الحرفيين والصناع متدنية بشكل عام، وكان دخلهم المالي ضعيفاً، ولا يكاد يكفي لضرورات عيشتهم، وهذا ما أشار إليه الدمشقي بقوله: "وأما الصنائع العملية وهي المهن، فقد قيل قديماً، الصناعة في الكف أمان من الفقر، وأمان من الغنى، وذلك أن الصانع بيده لا يكاد كسبه يقصر عن إقامة ما لا بد منه، ولا يكاد كسبه يتسع لاقتناء ضيعة أو عقد نعمة، وأيضاً فإنه مع ذلك إذا ميز بين الناس دخل في أدون طبقاتهم"^(٢).

كانت النظرة الاجتماعية إلى الحرف متباينة، فبينما حظيت بعض الحرف باحترام وأهمية في المجتمع كالصنائع العملية ومهن أرباب السيوف والوظائف

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٧.

(٢) الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ٥٧.

الإدارية في الدولة، كان هناك حرف آخر ينظر إليها نظرة امتهان وازدراء لما تلحقه من إضرار بالأجسام والعقول، مثل معاناة الأشياء المنتنة والسمك والغبار، والأعمال الشاقة والقصابة والدباغة والبيطرة^(١).

كانت المهن وراثية عادة، وكان كل صاحب حرفة يفضل حرفته على الحرف الأخرى، وعن ذلك قال الجاحظ: "ولكن لكل صنف من الناس مُزَيَّنٌ عندهم ما هم فيه، ومسهَّلٌ ذلك عليهم، فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذق أو خرقاً، قال له: يا حجّام، والحجّام إذا رأى تقصيراً من صاحبه، قال له: يا حائك"^(٢).

إن تلاقي المصالح بين أصحاب الحرف أدى إلى انتشار الشعور بروح الجماعة، وقيام نوع من التكتل والتنظيم فيما بينهم، فكل واحد منهم كان يشعر بصلة تربطه بإخوانه، وشعارهم في ذلك "الصناعة نسب"^(٣)، فانتشر الانتساب إلى المهن إلى جانب النسب إلى المدينة أو القبيلة كالقلاسي وهو لقب مفتي دمشق محمد بن المبارك (ت، ٢١٥ / ٨٣٠م)، والطاطري وهو لقب مروان بن محمد الطاطري (ت، ٢١٠هـ / ٨٢٥م)^(٤)، وفيما بعد أدى تطور الحياة الاقتصادية،

(١) الدمشقي، م.ن، ص ٥٦-٥٨؛ الجاحظ، عمرو بن بحر (ت، ٢٥٥هـ / ٨٦٨م)، رسائل

الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مصر، مكتبة الخانجي، ط ١، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ج ٣، ص ٢٤٢.

(٢) الجاحظ، م.ن، ج ٣، ص ٢٤٢.

(٣) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٠٥.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٩، ص ٥١٠-٥١١؛ ج ١٠، ص ٣٩٠؛ والقلاسي هو

الذي يبيع القلانيس أو يصنعها، أما الطاطري فهو الذي يبيع الكرابيس.

وظروف عمل الصناع ومشكلاتهم إلى تقوية تعاونهم وتنمية تنظيماتهم، فعاشوا في سوق خاص بهم، وخصوا كل حرفة بسوق منفصل عن أسواق الحرف الأخرى، وكوّنوا الأصناف والنقابات، وساروا وفقها، ومما يشير إلى تنظيمات الحرف الأسماء التي كانت تعرف بها، وهي الأصناف، وأصحاب الصنائع، وأصحاب الحرف^(١)، ولكل حرفة عرف أو سنة خاصة بها، يعود إليها القاضي أو المحتسب عند النظر في الخلافات التي تنشأ بين أهل الحرفة الواحدة^(٢).

وتألف التنظيم المهني لكل حرفة من رئيس ومعلمين وصناع ومبتدئين، فالرئيس يعرف بشيخ الصنف، تختاره الحكومة أو تعترف به، وتنظر إليه ممثلاً للحرفة، أما المعلمون فهم الذين بلغوا درجة عالية من التقدم في إتقان الحرفة ومهارتها، ويليهم الصناع وهم الذين أتقنوا الحرفة، وصار بإمكانهم العمل مستقلين، وفتح ورش خاصة بهم، ويتدرب على أيديهم المبتدئون، وهم أدنى درجة في الحرفة، ويكونون في مرحلة تعلمها، ولكل واحد في الحرفة من شيخها إلى المبتدئ حقوق وواجبات وصفات يجب أن يتحلى بها، وأبرز الواجبات المترتبة على جميع أصحاب الحرفة الواحدة الحفاظ على أسرار المهنة، والتعاون فيما بينهم لحماية أفرادها، والحفاظ على مستوى أسعار المصنوعات^(٣).

(١) الدوري، عبد العزيز، الأصناف والحرف الإسلامية، مجلة الرسالة، القاهرة، العدد /٩٨٣/،

١٣٧١هـ-١٩٥٢م، ص ٤٩٣؛ مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص ٦٧؛ تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٠٦-١٠٧.

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٣٠٠.

(٣) قدسي، إلياس عبده، نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية، بيروت، دار الحمراء، ط ٢،

١٩٩٢م، ص ٩-١٨؛ الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص ٦٨؛ تاريخ

العراق الاقتصادي، ص ١٠٧-١٠٨.

كان العمل في أكثر الحرف على صعيد الأفراد، إذ إن الصانع وحده يقوم بالإنتاج أو يقوم بعنصر مهم من عناصره كما في الصناعات التي تحتاج إلى عدد من المشتغلين لإنجازها، مثل صناعة القماش التي تحتاج إلى أعمال متوالية يقوم بها عمال مختصون، وكان الصانع يبدي مهارة وحثاً في إنجاز مهمته، مما جعل عمله يتصف بالإتقان وحسن الطلاوة، وكان يبيع إنتاجه عادة في حانوته^(١).

كانت العلاقة بين الصانع تقوم على التعاون والمشاركة في العمل، وبينما كان بعضهم يعملون في حوانيتهم الخاصة، كان هناك صناع لا يملكون حوانيت خاصة بهم، وإنما يعملون عند الغير مقابل أجور يومية أو حسب وحدة الإنتاج^(٢).

وكانت الحرف تخضع لإشراف الدولة من خلال سلطة المحتسب الذي من واجباته مراقبة الأسواق والموازن والمكاييل، ومراقبة عمل أهل الصنائع، ومنع الغش في الإنتاج^(٣)، كما كانت الحكومة تنظر في الخلافات التي تنشأ بين الصانع، وفيما عدا ذلك لم تكن تتدخل في أمورهم^(٤).

٢ - أنواع الصناعات والحرف:

عرف جند دمشق كثير من النشاطات الحرفية والصناعية التي تهدف إلى تحويل المنتجات الطبيعية إلى منتجات استهلاكية أو أشياء قيمة، وقد

(١) كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٢) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١١٥-١١٦.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٣١٦-٣١٨.

(٤) الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص ٤٣.

كانت الحرف مزدهرة ومتنوعة فيه، وأنتجت الورشات الحرفية مختلف أنواع الأدوات والحاجات، وبلغ من شهرة بعض هذه المنتجات أنها كانت مضرب المثل في جودتها، وكانت تصدر إلى مناطق متعددة في العالم، وأهم الصناعات والحرف هي:

أولاً - النسيج والحياكة:

تعد الصناعات النسيجية من الصناعات القديمة الضرورية والمهمة التي وجدت لكي تؤمن حاجات الإنسان الضرورية وغيرها مما يستعمله الإنسان في حياته اليومية للوقاية من القر والحرق^(١).

تعود شهرة بلاد الشام في صناعة النسيج والحياكة إلى القديم، فمنذ العصر الروماني اشتهرت حوران بصناعة المنسوجات، وفي العصر البيزنطي استمرت هذه الصناعة في تقدمها وازدهارها بخاصة صناعة الحرير التي انتشرت في صور وبيروت، وساعد على تقدمها دخول تربية دودة القز منذ أواخر العصر البيزنطي، وانتشار مزارع أشجار التوت في ضواحي بيروت، وبلغ من إتقان الناس تربية دودة القز أن أصبحت علماً حقيقياً، فأنتج السوريون كثير من الحرير الذي صدره إلى مناطق متعددة في العالم^(٢).

-
- (١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٣٩١.
- (٢) هايد، ف، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، ج ١، ص ٣٣-٣٤؛ لويس، أشيالد. ر.، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م)، ترجمة: أحمد محمد عيسى، القاهرة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، (د.ت)، ص ٥٣، ٦٥.

حافظت مناطق جند دمشق في العصور الإسلامية على شهرتها بصناعة المنسوجات، وتقدمت هذه الصناعة بحكم توافر المواد الأولية اللازمة لها، كانتشار مزارع أشجار التوت وتربية دودة القز، وانتشار زراعة القطن والتوسع في زراعته، وشهرة بعض المناطق بتربية الأغنام والماعز التي استفيد من صوفها في نسج المنسوجات الصوفية^(١)، أضف إلى ذلك اهتمام المسلمين بملابسهم، واهتمام الخلفاء والأمراء والأثرياء باقتناء الثياب الفاخرة وامتلاكها، مما أدى إلى تحسين صناعة النسيج واهتمام الصناع بتطويرها وتنوعها والإكثار منها، وبلغ من أهمية المنسوجات أنها كانت ذات قيمة كبيرة، وعدت من أهم الدلائل على الرقي الحضاري والتقدم في المجتمع الإسلامي، وأن الحكام ورجال الدولة كانوا يتهدون الملابس إضافة إلى الأشياء الأخرى، كما كانت الملابس تمنح كخلع ومكافآت للمسؤولين الكبار عند تعيينهم في مراكزهم^(٢)، وقد شملت صناعة النسيج صناعة الملابس، والبسط، والسجاجيد، وستائر تزيين البيوت، والوسائد وسجاجيد الصلاة، والأغطية والمخاد والمقاعد وغيرها^(٣).

كان جميع الأهالي - في بعض المناطق - يقومون بغزل الصوف بما في ذلك النساء اللواتي كن يقمن بالنسيج في البيوت^(٤)، وكانت أهم ورش النسيج في دمشق التي اشتهرت منذ العصر الأموي بصفتها مركزاً مهماً رئيساً في صناعة المنسوجات بمختلف أنواعها ولا سيما الحريرية منها التي أطلق عليها لشهرتها

(١) انظر: الزراعة في جند دمشق.

(٢) زيود، حالة بلاد الشام الاقتصادية، ص ١٩٢. - Lombard, L' islam, p.200.

(٣) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٣٣.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٣، ص ٤٩؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٨٤ - ٨٥.

اسم "الدمقس"^(١)، وقد حافظت على شهرتها في العصر العباسي، وقد عرف عن الدمشقيين استخدام الأساليب الفنية القديمة وتطويرها، فهناك بعض قطع المنسوجات التي تعود إلى تلك المدّة، وهي تشهد على مهارة الصناع الدمشقيين وبراعتهم في نسج المنسوجات وزخرفتها، إذ كانت تزين الأقمشة الحريرية بزخارف برتقالية اللون على أرضية خضراء^(٢)، كما اشتهرت دمشق بصناعة الثياب النفيسة من الحرير كالحز والديباج النفيس، وفاقت غيرها من المدن المشهورة بهذه الصناعة حتّى إن ديباجها كان مضرّباً للمثل في حسنه وزخرفته ونسجه^(٣)، كما اشتهرت بصناعة القماش بمختلف أنواعه وأجناسه^(٤)، وتميزت أيضاً بصناعة الأقمشة القطنية المشجرة التي عرفت بالدمشقيات^(٥)، واشتهرت صور بصناعة الثياب البيض الفاخرة التي كانت تصدر إلى مناطق متعددة^(٦)، وتميزت بلدة أعناك من نواحي حوران بصنع الأكسية الجيدة التي تنسب إليها^(٧)، واشتهرت بعلبك بصنع الأحرام والمشدات والثياب المنسوبة إليها^(٨)، وامتازت طرابلس بصناعة المنسوجات الحريرية، ومن مصنوعات

(١) حسن، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٢٥٣.

(٢) ديباند، الفنون الإسلامية، ص ٢٥٨.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٦٩.

(٤) البدري، نزهة الأنام، ص ٢١٤.

(٥) ريسلر، جاك. س، الحضارة العربية، ترجمة: غنيم عبدون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د.ت)، ص ١٢٥.

(٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٦٦.

(٧) الحموي، معجم البلدان، (ط، دار صادر)، ج ١، ص ٢٢٢.

(٨) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، مج ١، ص ٢٩٥.

جند دمشق النسيجية أيضاً المشدات المعروفة بالكمار، وهي تصنع من الصوف، وتشد على الخصور، وتعد من متمات اللباس^(١).

وكان السجاد من المصنوعات القديمة والثمينة في الشام التي اشتهرت بإنتاج أجوده، وللسجاد أهمية كبيرة، فهو يعد من الممتلكات الثمينة، ومن اللوازم الأساسية التي يستعملها الإنسان أثاثاً منزلياً لتأمين الدفء، كما أن قصور الخلفاء والأمراء والمساجد كانت تفرش بالسجاد لإظهار روعتها وجمالها، وأهم مناطق صناعته كانت دمشق التي أنتجت السجاد بأنواعه وألوانه المختلفة، كما تميزت بصناعة البسط، واشتهرت أعناك والشوبك في حوران بصناعة البسط، وبلغ من شهرتها بصناعته أن البسط كانت تنسب إليهما، فيقال لها بسط أعناك وبسط الشوبكية، وكانت البسط تحاك من الصوف الخالص فقط^(٢).

ومن الصناعات النسيجية صناعة الخيم التي كانت محل اهتمام البدوي ولا تزال، وهي تصنع من الصوف والوبر، أما الخيم التي تصنع من الكتان فقد اقتصر استخدامها على الأغنياء من سكان المدن خلال سفرهم، وكان هناك الخيم التي تصنع من القطن وتعرف بالسرادق^(٣).

وفي معرض الحديث عن صناعة النسيج تجدر الإشارة إلى دور الطراز لعلاقتها بهذه الصناعة، ولدورها في رقيها وتقدمها، والطراز هو ما كان خاصاً بالخلفاء والأمراء، ولفظة الطراز أطلقت على الشريط المشتمل على كتابة منسوجة

(١) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٢٠٣.

(٢) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٢٢٧.

(٣) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٥٥-٢٥٦؛ رحال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ٢٢٧.

أو مطرزة، كما أطلقت على الأقمشة المزخرفة بهذه الطريقة، وعلى المصانع التي تنتج هذه الأقمشة^(١)، وقد أنتجت دور الطراز البسط والأعلام والثياب والبنود والفرش، وكان لإنشائها في المدن والحوضر الإسلامية دوراً كبيراً في رقي صناعة النسيج وتطورها، ففي العصر الطولوني وجد إلى جانب المصانع الأهلية مصانع حكومية كانت تعرف باسم دور الطراز^(٢)؛ ويشرف على الطراز ديوان الطراز ومهمته مراقبة الحياكة والصباغة والاهتمام بجودة الإنتاج^(٣).

- الصباغة: يلحق بالنسيج والحياكة الحديث عن الصباغة، وهي صنعة تطورت وازدادت أهميتها مع تطور صناعة النسيج، ومع اهتمام الناس الكبير بارتداء الملابس الملونة، فظهر تخصيص الألوان، وبرع الصباغون في صبغ الأقمشة بالألوان البراقة الزاهية التي تحافظ على لونها مهما طال الزمن بخاصة في دمشق التي كان لأصباغها الدور الرئيس في شهرة الديباج الدمشقي^(٤).

كانت أكثر الأصباغ المستعملة نباتية باستثناء الصباغ الأرجواني الذي كان يستخرج من نوع معين من أصداف البحر، ويستخدم لصبغ الأقمشة الأرجوانية التي كانت مطلوبة في بيزنطة، واستمر استعمال هذا الصباغ في مناطق الساحل اللبناني في العصور الإسلامية^(٥)، أما النيلبة التي كانت تزرع

(١) كحالة، عمر رضا، الفنون الجميلة في العصور الإسلامية، دمشق، المكتبة التعاونية، ١٣٩٢هـ -

١٩٧٢م، ص ٢٥٠.

(٢) زيود، حالة بلاد الشام الاقتصادية، ص ١٩٨.

(٣) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٤) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٥) زركلي، بلاد الشام، ص ١٠٠؛ رحال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ٢٢٨.

في الغور، فكانت تستعمل للصبغ باللون الأزرق، واستعمل الزعفران للتلوين باللون الأصفر^(١)، كما استعمل الصباغون العفص ونبات القوة ذا العروق الحمراء لصبغ الثياب بالألوان الحمراء^(٢)، واستعملوا قشر الرمان للتلوين باللون الأصفر، أما الأصباغ المركبة فكانت تتركب بخلط الأصباغ بعضها ببعض، وقد عرف عن الصباغين إتقان صناعتهم والبراعة فيها، وكان بعضهم مختصاً بالصبغ بصبغة واحدة^(٣)، وكان أكثر الصباغين من اليهود^(٤).

- الحصر: كانت الحصر تصنع من البردي والقصب وسعف النخيل والحلفاء، ومن شجر السامان الذي ينبت في بيسان، وتعرف الحصر المصنوعة منه بالحصر السامانية^(٥)، كما اشتهرت بيروت بصناعة الحصر^(٦)، وتزين الحصر بنقوش مختلفة، وتستخدم لأغراض متعددة، فكانت تفرش في أرض البيوت والمساجد، فقد ذكر ناصر خسرو عندما زار صيدا أن مسجدها قد فرش بالحصر الملونة المنقوشة^(٧).

ثانياً- الحرف المعدنية:

من الصناعات القديمة والمهمة في مناطق جند دمشق، وساعد على استمرارها وتقدمها وجود معدن الحديد في جبل لبنان، وهو من النوع الجيد،

(١) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢١١ - ٢١٢.

(٢) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٧٢.

(٣) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٢٥.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٧.

(٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٥٦.

(٦) البدري، م. ن، ص ٢٠٢.

(٧) سفرنامه، ص ٤٥.

واستخراجه سهل، وتصدر كميات كبيرة منه إلى معظم بلاد الشام^(١)، كما وجد الحديد في جبال الشراة على مقربة من البتراء، وعلى مقربة من بصرى.

وساعد على استمرار الحرف المعدنية وجود معدن النحاس في لبنان، وكان أساس الصناعة النحاسية في دمشق^(٢)، إضافة إلى ذلك شهرة دمشق بصناعة الفولاذ منذ العصر الأموي، مما أدى إلى تقدم صناعة المعادن، فأنتجت المصنوعات المتطورة التي تلبى حاجات البلاد المتنوعة والمتزايدة، فكان لبعض هذه المصنوعات شهرة كبيرة في الخارج، كما أن بعض الصناعات المعدنية اعتمدت على المعادن المستوردة كالنحاس والرصاص والقصدير^(٣) وغيرها.

شملت الصناعات المعدنية صناعة جميع الأواني والأدوات التي تدخل المعادن في صناعتها، فكان منها الأبواب والشبابيك التي صنعت من الحديد والنحاس، واستخدمت في الجامع الأموي الذي كانت أبوابه من الصفر المذهب^(٤)، وصنع منها القدور والأواني المصنوعة من النحاس والفضة، وقد كان لدمشق براعة كبيرة في صناعة القدور النحاسية التي كانت تصدر

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٨؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٧١؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٩١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١٤... ٢٧٥ - Sourdel, la civilisation, p.275...

(٢) زيادة، نقولا، تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر العباسي بين سنتي (١٣٢-٤٥١هـ/ ٧٥٠-١٠٥٩م)، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٣) زيود، حالة بلاد الشام الاقتصادية، ص ٢١٢. - Lombard, L' islam, p.197.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٣٩.

إلى مصر، وتتصف بحسن الطلاوة إلى حد يظنها المرء مصنوعة من الذهب^(١)، وقد أنتجت مشاغل الصناعات المعدنية كل ما يلزم المجتمع من الكؤوس والمصابيح والأقفال^(٢) وغيرها، وبلغ من إتقان الصناعات ومهارتهم في أعمالهم أنهم عرفوا تأثير عوامل المناخ على الأدوات المعدنية ولا سيَّما في المناطق القريبة من البحر لذلك كانوا يعزلونها بطبقة من الشمع أو الزيت حتى لا تصدأ^(٣).

وتميزت مناطق جند دمشق بصناعة الأسلحة منذ القديم، وحافظت على شهرتها وتقدمها في هذه الصناعة، ويعود ذلك إلى توافر المواد الأولية، وكثرة الصراعات في مناطق بلاد الشام، وتنافس الأمراء والولاة والحكام للسيطرة عليها، وسعي كل منهم إلى زيادة جيشه، وتزويده بأفضل أنواع السلاح، وقد كانت مناطق جند دمشق تصنع معظم أنواع الأسلحة كالسيوف والرماح والأقواس والدروع والتروس والحراش وغيرها من الأنواع ولا سيَّما مدينة دمشق التي عرفت مصنوعات من الأسلحة باسم "الدمشقيات"^(٤).

ويعد السيف السلاح المفضل عند أهل الشجاعة والإقدام في الحروب، وسلاح العرب الأول من حيث تقدير المجتمع له، وبلغ من أهميته لديهم أن عرفوا للسيف أسماء كثيرة أمثال: الباتر، والحسام، والصارم،

(١) المقدسي، م.ن، ص ١٥٥.

(٢) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٢١٥.

(٣) الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ٤١.

(٤) ريسلر، الحضارة العربية، ص ١١٨.

والصقيل، والصمصام، والقاطع، والماضي، والمهند وغيرها^(١)، وقد ازدهرت صناعة السيوف في دمشق التي فاقت غيرها من مدن الشام بهذه الصناعة، وتعد سيوفها أفضل أنواع السيوف في بلاد الشام وأجودها، وتم صناعتها من الفولاذ الجوهر الدمشقي وفق أسلوب خاص يعرف باسم الدمشقة^(٢)، وتفنن الصياغلة في صنعها من الصلب المسقي وصقلها، وتنزيل الذهب والفضة مع الفولاذ، وتزيينها بنقش الأشعار والآيات القرآنية عليها، وتتصف هذه السيوف بسقايتها الأصيلة، ونصالها الجيدة، ورهافة حدها، ولمعانها البراق، وتعد أقطع أنواع السيوف المولدة أي المصنوعة من الفولاذ المذكور، وكانت أثمانها تتراوح بين خمسة عشر درهماً إلى عشرين درهماً^(٣)، ويمكن إدراك مدى جودة سيوف دمشق وتقانة صناعتها من خلال ما ذكرته بعض المصادر عن الإخشيد عندما خرج يتصيد في ضواحي دمشق، فالتقاه أعرابي ومدحه، فأمر الإخشيد غلمانه بمنح سيوفهم له، فقدم سبعة عشر منهم سيوفهم للأعرابي، ولما عاد الإخشيد إلى دمشق أمر أن يصاغ سبعة عشر سيفاً دمشقياً للغلمان الذين بذلوا سيوفهم على سبيل المكافأة لهم، والإغاضة للآخرين الذين امتنعوا عن بذل سيوفهم^(٤).

(١) النميري، حسن، السيف العربي ومكانته في أدبنا، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب،

٢٠١٢م، ص ١٢-٥٤.

(٢) زيود، حالة بلاد الشام الاقتصادية، ص ٢١٣.

(٣) البدري، م.ن، ص ٢٠٢.

(٤) التنوخي، المحسن بن علي، المستجاد من فعلات الأجواد، تحقيق: محمد كرد علي، دمشق،

المجمع العلمي العربي، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م، ص ١٣٤ - ١٣٥؛ ابن عساكر، تاريخ

مدينة دمشق، ج ١٧، ص ٤٧.

واشتهرت صناعة السيوف في عدة بلدات تطل على بادية الشام، وهي: دياف من قرى حوران^(١)، ومؤته من قرى البلقاء، والمشارف قرب حوران ولا سيما بُصرى، ونسبت هذه السيوف إلى هذه البلدات، وقيل لها المشرفية لوقوع هذه البلدات على مشارف الشام (أي حدود الشام المطلة على بلاد العرب)^(٢)، كذلك اشتهرت السيوف التي تصنع في موقع يعرف بالقلعة في بادية الشام، وسيوفه تعرف بالقلعية^(٣)؛ وتميزت بُصرى في جنوب سورية بصناعة السيوف البصرية^(٤).

- الصياغة: كانت الصياغة متقدمة في جند دمشق، فقد اتصف الصياغ بالمهارة والدقة، فبلغوا درجة عالية من الرقي والإتقان في صياغة الذهب والفضة، فكانوا يصنعون منها الأطواق والخلاخيل والقلائد وأكلة الجواهر وأقرطة الذهب والخواتم والأساور والأواني الذهبية المطلية بالمينا، كما برع الصاغة في تزيين الحلي بفصوص من الياقوت أو الماس أو الزمرد أو الفيروز^(٥)، وتجدر الإشارة إلى أن الذهب والفضة كانا يستخدمان أيضاً في تحلية المصاحف والسيوف والسروج، وترصيع الأواني المعدنية، وتزيين القاعات، وتزيين أعمدة المساجد وسقوفها^(٦).

- (١) الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ٢، ص ٥٦٢.
- (٢) الحموي، م.ن، ج ٥، ص ١٥٣، ٢٥٤؛ النويري، نهاية الأرب، ج ٦، ص ٢٠٦؛ النميري، السيف العربي، ص ٧٩-٨٠.
- (٣) النويري، نهاية الأرب، ج ٦، ص ٢٠٥؛ الكندي، السيوف وأجناسها، ص ١٤؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ٤، ص ٢٤٢؛ النميري، السيف العربي، ص ٧١-٧٢.
- (٤) النميري، م.ن، ص ٧١.
- (٥) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٢٢٤-٢٢٦.
- (٦) زيود، حالة بلاد الشام الاقتصادية، ص ٢١٧.

ثالثاً - الورق:

تعد صناعة الورق من أهم الصناعات التي ساهمت في تطور الحضارة الإنسانية، وحفظ تراثها وتاريخها ونقله عبر العصور، وقد كان العرب - في القديم - يكتبون على الحجارة الرقيقة، وأكتاف الإبل والغنم وعسيب النخيل^(١).

ذكرت بعض المصادر والدراسات أن صناعة الورق من اختراع الصينيين في القرن الأول قبل الميلاد، وأن العرب نقلوا هذه الصناعة عن طريق بعض الأسرى الصينيين إلى سمرقند^(٢) في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، ثم نقلوها إلى بغداد التي أنشئ فيها أول مصنع لصناعته في عهد الرشيد الذي أمر باتخاذ الورق للكتابة في الدوائر الرسمية، وتعود أسباب هذا الإصلاح، إلى أن كلفة هذه المادة قليلة، وإلى أن الورق لا يقبل الحك أو الإعادة أو الكشط دون ترك أي أثر بخلاف الجلود التي تقبل الحك والكشط، ومن ثمّ التزوير، ثم انتشرت صناعة الورق في بلاد الشام^(٣).

وخلافاً لذلك يمكن القول إن الشام كانت تصنع الورق قبل أن تُنقل إليها من بغداد، ومنذ ما قبل الإسلام، ويدل على ذلك قول الشاعر طرفة بن العبد (ت، ٥٥٢م):

- (١) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٢٢٢.
- (٢) سمرقند: بلد مشهور في بلاد ما وراء النهر، وهي قصبه الصغد؛ الحموي، معجم البلدان، (ط. دار صادر)، مج ٣، ص ٢٤٦؛ لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠٣.
- (٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥١٥-٥١٦؛ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٤٠٤؛ مصطفى، شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٣، ١٩٨٣م، ج ١، ص ٧٢.

وَخَدَّ كَقَرطاسِ الشَّامِي، وَمَشْفَرٌ كَسَبَّتِ السَّيَّانِي، قَدُّهُ لَمْ يُجَرِّدِ^(١)

وهذا يعني أن الشام عرفت صناعة الورق الممتاز منذ ما قبل الإسلام، حتى إن الشاعر طرفة ابن العبد شبه بياض خد حبيته بياض القرطاس الشامي، ومن ثمَّ فإن ما يذكره المؤرخون حول نقل صناعة الورق من الصين في القرن الثاني الهجري، فمن المرجح أن المقصود به نقل تقانة أخرى في صناعة الورق، أو نقل صناعة نوع آخر من الورق غير الذي كان معروفاً في الشام.

ويضاف إلى ذلك أن دمشق عرفت صناعة نوع من أنواع الورق في العصر الأموي، كان يصنع من نسيج القطن والكتان، غير أن غلاء تكاليف صناعته، وحاجة الدولة الكبيرة إلى الورق ولا سيَّما بعد تعريب الدواوين جعلت الدولة الأموية تستمر في استعمال أوراق البرديّ المصنوعة في مصر^(٢).

وفي العصر العباسي اشتهرت دمشق بصناعة الورق فكان فيها موضع للوراقين، وهو يقع في أروقة باب البريد من أبواب الجامع الأموي، وبلغ من جودة الورق الكاغد الذي تنتجه ما جعل تجارته رائجة رواجاً كبيراً، وتدخل ضمن صادراتها الرئيسة^(٣)، واشتهرت طرابلس بمعامل الورق التي أنتجت أنواعاً نفيسة من الكاغد والقراطيس والطوامير، وقد أثنى ناصر

(١) الشنتمري، الأعلام (ت، ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م)، شرح ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: درية

الخطيب، لطفی الصَّقَال، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ص ٢٣.

(٢) مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج ١، ص ٧٠-٧١.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٣٩، ١٥٥.

خسرو على ورق طرابلس، فقال: "ورأيت في طرابلس نوعاً جديداً من الورق مثل الورق السمرقندي، بل هو أجود"^(١)، وكان من نتائج نشاط صناعة الورق فيها ازدهار الحركة الثقافية، ونشاط حركة التأليف والكتابة والترجمة، وكثرة الوراقين والكتّاب والمؤلفين والمجلدين^(٢)، كما كان من نتائج صناعة الورق، ورواج تجارته، نشاط كل الأعمال المتعلقة بصناعته من كتابة ونسخ وتجليد، وسائر الأعمال الكتابية، وتوافر الكتب في الأسواق^(٣)، وقد برع أهل الشام في فن التجليد، وبلغوا فيه إتقاناً عالياً، وكانوا يتفاخرون بحسن تجليد المخطوطات وتلوينها وتذهيبها بأساليب فنية رائعة، فكان الجغرافي المقدسي بارعاً في فن التجليد على الطريقة الشامية، لذلك كان يطلب منه تجليد الكتب كلما نزل في منطقة، فعندما زار اليمن ونزل عدن أعجبوا بتجليده حتى إنهم أعطوه دينارين على تجليد المصحف^(٤).

ولا يزال في خزانة دار الكتب العربية في دمشق كتابٌ شاهدٌ على جودة القرطاس الشامي في ذلك العصر، ويعود تاريخه إلى سنة ٢٦٦هـ/ ٨٧٩م، وقد كتب هذا الكتاب على الورق الشامي، وما زال محافظاً على متانته^(٥)، والجدير بالذكر أنه كان من أنواع الورق الشامي ورق يعرف ورق

(١) سفرنامه، ص ٤٣؛ حتي، تاريخ لبنان، ص ٣٤٠.

(٢) تدمري، عمر عبد السلام، دار العلم في طرابلس الشام خلال القرن الخامس الهجري، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج ١٢، ١٩٨١م، ص ٢٥٩.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٩، ص ٢٨٥؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ١٩٩.

(٤) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٥) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٢٢٣.

الطير، وهو يستخدم لكتابة الرسائل التي ينقلها الحمام الزاجل، ويتصف هذا الورق بأنه رقيق وذو جودة عالية^(١).

واشتهر جند دمشق بصناعة حبر الكتابة الذي يعرف بالدوى، وقد أثنى الخليفة المنصور على الدوى الشامية، ووصفها بأنها "أدب جميل، ومن أدوات الكتابة"^(٢).

رابعاً - الزجاج:

من الصناعات القديمة في الشام، عرفت منذ أيام الفينيقيين الذين اكتشفوا الزجاج الشفاف^(٣)، فمذ تلك الأيام اشتهرت مدن الساحل ولا سيَّما صور وصيدا بصناعة الزجاج، وساعد صناع الزجاج في ذلك وجود رمل ممتاز لصناعته^(٤)، وفي العصرين الروماني والبيزنطي استمرت هذه الصناعة، وبلغوا فيها درجة عالية من التقانة والزخرفة والتنوع حتى صارت الأواني الزجاجية المصنوعة في مناطق جند دمشق من أجود أنواع الزجاج في العالم، وبلغ من إتقانها وجودتها أنها كانت مضرب المثل في الرقة والصفاء^(٥)، وأن منتجاتها كانت تصدر إلى حوض البحر المتوسط كله، وكان صناع الزجاج في العراق ومصر يقلدون الأواني الزجاجية التي تصنع في مدن جند دمشق، وأساليب زخرفتها وأشكالها الجميلة ولا سيَّما تلك التي

(١) كرد علي، م.ن، ج٤، ص٢٢٣.

(٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص١٣٢.

(٣) حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ص٩٩.

(٤) آشور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص١١٦. - Lombard, L' islam, p.207.

(٥) الثعالبي، لطائف المعارف، ص١٥٧.

كانت تصنع في مدينة صور التي فاقت غيرها من مدن الشام من حيث جودة أنواع الزجاج الذي تصنعه^(١)، كما عرفت دمشق بصناعة الزجاج، وشهرة الزجاجين وبراعتهم وتفننهم في زخرفة الأواني الزجاجية وتزيينها التي كانت لشهرتها تنسب إليها فيقال لها الدمشقي^(٢)، وتميزت صيدا بصناعة الزجاج ولا سيَّما المرايا الزجاجية التي عرفت بالوذائل، وكانت تصنع في البداية من مزيج القصدير والنحاس ثم صارت تصنع من الفضة أو الذهب^(٣).

وأنتجت مصانع الزجاج مختلف أنواع الأواني والأدوات الزجاجية من الكؤوس والقوارير والزهريات والأباريق والأكواب والجامات وغيرها التي استخدمت للاستعمال المنزلي وحفظ الزيوت والعطور، كما استخدم بعضها للزخرفة والزينة^(٤)، ففي الجامع الأموي كان يوجد إناء من البلور يضيء مثل السراج ويسمى القلَّة، وبلغ من شهرة القلَّة أن الخليفة الأمين أعجب بها جداً حتى إنه أوعز لواليه على دمشق بمصادرتها وإرسالها إليه، فأرسلها الوالي إليه خلسة، ولما تولى المأمون أمر بإعادة القلَّة إلى الجامع الأموي بدمشق^(٥).

أما بالنسبة لزخارف الأواني الزجاجية، فكانت متنوعة، وتتم وفق أسلوب خاص، ومنها الخطوط البارزة، وأشكال خلايا النحل، والكتابات،

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٤؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٦٥؛ ريسلر،

الحضارة العربية، ص ١٢١؛ زيود، حالة بلاد الشام الاقتصادية، ص ٢٣٠.

(٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٨٠؛ كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٢١٧.

(٣) كرد علي، م.ن، ج ٤، ص ٢٢٤.

(٤) ديباندي، الفنون الإسلامية، ص ٢٣٠؛ كحالة، الفنون الجميلة في العصور الإسلامية،

ص ٢٤٤.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٢٧٨؛ ج ٦٠، ص ٣٥٢-٣٥٤.

ورسوم الحيوانات، وأبرز الزخارف شيوعاً كانت الزخرفة بالأقراص والخيوط المضافة إلى سطح الإناء، بلون الإناء أو بلون مغاير، كما اشتهر زجاجو جند دمشق بتزيين الأواني الزجاجية بالزخارف ذات البريق المعدني، وعرفوا تذهيب الزجاج وطلية بالمينا^(١).

خامساً- الصناعات الغذائية:

تقوم الصناعات الغذائية على ما يتوافر من منتجات زراعية، وقد عرف عن الفلاح الشامي أنه فلاح من الطراز الأول مما ساهم في توافر المواد الأولية لكثير من الصناعات الغذائية، وقد استخدم أهل جند دمشق وسائل متنوعة لحفظ محصولاتهم الزراعية، وتحويلها إلى غذاء نافع وقت الحاجة، فقد عرفوا التين المجفف الذي تميزت بإنتاجه دمشق كما تميزت بإنتاج الزبيب^(٢)، واشتهرت بإنتاج الزبيب أيضاً قرية الفرزل في البقاع قرب بعلبك، وزبيبا يعرف بالجوزاني لأن حبه كبيرة^(٣)، وعرفوا حفظ فواكه آخر كالرمان والجوز والمشمش وغيرها.

ومن المنتجات الغذائية التي اشتهرت في جند دمشق صناعة الدبس والجبين واللبن والسُّمُون، وتتميزت بإنتاجها المنطقة من إيلة إلى تبوك^(٤)،

(١) العش، محمد أبو الفرج، الزجاج السوري المموه بالمينا والذهب في العصر الوسيط، مجلة الحوليات الأثرية السورية، دمشق، مج ١٦، ج ١، ١٩٦٦م، ص ٣٨-٤٠؛ دياندا، الفنون الإسلامية، ص ٢٣١-٢٣٢؛ كحالة، الفنون الجميلة في العصور الإسلامية، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٥.

(٣) الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ٤، ص ٢٨٢.

(٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٥٣.

ومدينة بعلبك^(١)، التي تميزت بإنتاج العسل أيضاً، واشتهرت به عمّان أيضاً، ويعد أجود أنواع العسل الذي يحصل عليه من النحل الذي يمتص رحيق السعتر الذي ينمو في جبل عامل والقدس^(٢).

- السكر: تعد صناعة السكر من الصناعات القديمة في الشام، ويعود الفضل الكبير للعرب في تطويرها ونشرها في معظم بلدان البحر المتوسط، وقد انتشرت مصانع السكر وتكريره في منطقة الغور، فكان السكر أكثر غلات ضياع الغور، ومنها يحمل إلى سائر بلاد المشرق^(٣)، كما انتشرت مصانعه في المناطق الساحلية ولا سيّما طرابلس وبيروت وصيدا وصور التي اشتهرت بصادراتها من السكر^(٤)، وكانت عملية عصر قصب السكر تتم بأدوات متعددة، "فمنها ما يعتصر بحجارة الماء، ومنها ما يعتصر بالأبقار، ومنها ما يعتصر بالسهم" أي الأعواد من الخشب^(٥)، وبلغ من شهرة مصانع سكر طرابلس ودمشق أنها استمرت تزود أوربا بالسكر بأشكاله المختلفة كرقائق أو حلوى أو ناعم دقيق حتى أواخر العصور الوسطى^(٦).

- المطاحن والمعاصر: ارتبطت بالصناعات الغذائية قيام العديد من المطاحن، التي كانت تعرف بالرحى، وهي عبارة عن أحجار تتركب على

(١) الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ١، ص ٥٣٨؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٩٣.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٨.

(٣) الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ١، ص ١٧٧.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٤؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٢؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ٢٠٣.

(٥) النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٧١.

(٦) حتي، تاريخ لبنان، ص ٤١٤.

حافة الأنهار ومجري المياه في الأودية، فيديرها الماء المنحدر بشدة، وتستخدم هذه المطاحن لطحن الحبوب، وعصر قصب السكر، وعصر الزيتون لاستخراج الزيت، ويعود وجود الطواحين في مناطق جند دمشق إلى أيام الفتح الإسلامي، فقد ذكر ابن عساكر أن الجيش الإسلامي لما حاصر دمشق أرسل صاحب الرحا فيها إلى أبي عبيدة بن الجراح فصالحه، وفتح له باب الجابية^(١)، وورد ذكر الأرحاء في كتاب الأمان الذي كتبه أبو عبيدة لأهل مدينة بعلبك^(٢)، ومن المناطق التي تميزت بالأرحاء والطواحين: مدينة عمّان، ويدير أرحيتها الماء^(٣)، واشتهرت منطقة البلقاء بأرحائها حتى إن الناس كانوا يقصدونها من جهات مختلفة ليطحنوا فيها^(٤)، واشتهرت دمشق بطواحينها وأرحائها المركبة على نهر بردى وفروعه وأوديته^(٥). كما وجدت مطاحن مركبة على مجاري الأنهار في عرقة وبعلبك^(٦)، وتميزت مدينة بانياس في الجولان بأرحائها المركبة على منابع نهر الأردن فيها^(٧).

أما معاصر الزيتون، فكانت منتشرة بكثرة في جند دمشق، وذلك لشهرته بزراعة الزيتون، وكانت تنتج كميات كبيرة من الزيت الذي كان

(١) تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ١٢٠.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥٤.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٩.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ١٢٨.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣١١، ٣١٤، ٣٦٥، ٣٨٩؛ تراجم النساء،

ص ٩٥؛ ابن فضل الله العمري، ص ١٨٦؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٥، ٧.

(٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٦٩، ٣٧٤؛ ابن شداد، قسم لبنان والأردن

وفلسطين، ص ٤٢، ٩٢.

(٧) البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٥٢.

معروفاً بوجودته وشهرته في الخارج، وكان مضرب المثل في صفائه ونظافته^(١)، وانتشرت أكثر هذه المعاصر في المناطق القريبة من مزارع الزيتون، ومن هذه المعاصر المعصرة التي كانت موجودة في كفرسوسية، وتعود لزمان عيسى عليه السلام^(٢).

- الخمر: راجت صناعة الخمر في الشام منذ القديم، وساعد على ذلك انتشار زراعة الكرم بكثافة كبيرة، وقد استمرت زراعة أشجار العنب في العصور الإسلامية، رغم تحريم الإسلام تعاطي الخمر، وقد تسامح المسلمون مع أهل الديانات الأخرى في تعاطيه^(٣)، لهذا كانت الأديرة المسيحية من المراكز الرئيسة في إنتاج الخمر واستهلاكها^(٤)، وقد اشتهرت صناعته في مدن ومناطق متعددة، منها: جبل لبنان الذي اشتهر بإنتاجه^(٥)، وتميزت مدينة أذرعان بإنتاج الخمر الذي نسب إليها^(٦)، وعرفت مآب بإنتاج الخمر الذي نسب إليها^(٧)، كما اشتهرت المناطق المحيطة بدمشق بجودة إنتاجها، وصنع أيضاً في صرخد وصيدنايا^(٨).

(١) الثعالبي، لطائف المعارف، ص ١٥٦.

(٢) البدري، نزهة الأنام، ص ١٢٧.

(٣) كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص ١٢١. - Lombard, L' islam, p.184.

(٤) انظر: على سبيل المثال وصف الثعالبي لمجالس الشراب في دير مران في سفح جبل قاسيون؛ يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٥٣-٢٥٦.

(٥) حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٠٠.

(٦) الحموي، معجم البلدان، (ط، دار صادر)، ج ١، ص ١٣٠.

(٧) الحموي، م.ن، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ٥، ص ٣٧.

(٨) الحموي، م.ن، ج ٣، ص ٤٥٥، ٤٩٧.

سادساً- الحرف الخشبية:

هي حرف تعتمد على الخشب، ومن المعروف أن للخشب أهمية كبيرة في الصناعة والبناء والتدفئة، وقامت عليه صناعات متعددة، أهمها:

- النجارة: هي صناعة قديمة في جند دمشق ساعد عليها توافر الغابات والأحراج ولا سيّما في جبل لبنان، وبراعة النجارين وحثهم في استعمال مهاراتهم وأساليبهم الفنية في إعداد المصنوعات وإتقانها، فكانوا يهيئون قطع الأخشاب ثم يسمّرونها بالمسامير أو يدخلون نهاياتها بعضها ببعض ثم يصقلونها حتى يظهر الكل قطعة واحدة^(١)، واستخدموا أخشاب الصنوبر والسرو والجوز والهور والصنديل والشربين وغيرها في صنع الأبواب والنوافذ والدعائم وأثاث المنازل والمناضد والكراسي والصناديق والآلات الموسيقية والسفن، وكانت دمشق أهم مراكز النجارة التي تميزت بصنع الصناديق التي تعمل من خشب الجوز، وتتصف بمتانتها وجمال نقوشها المحفورة عليها، وكانت تحافظ على وضعها عدة قرون من دون أن تتشقق أو تتآكل^(٢)، كما اشتهرت بعلبك بصنع الأواني الخشبية ولا سيّما الملاعق، وبلغ من إتقان نجاريها أنهم كانوا يصنعون الملاعق بأحجام مختلفة ثم يضعون كل واحدة في جوف الأخرى حتى يصبح عددها عشرة، فيظنها الرائي ملعقة واحدة^(٣)، كما كان النجارون يصنعون بعض أدوات القتال كالسهام والأقواس والرماح، فقد اشتهرت قرية عمّتا في الغور بالنبال^(٤)،

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٣٩٠.

(٢) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٢٠٨.

(٣) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، مج ١، ص ٢٩٥.

(٤) الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ٤، ص ١٧٣.

والجدير بالذكر أن الأوربيين الذين يزورون الشرق يبدون دائماً دهشتهم وإعجابهم تجاه الآثار الخشبية التي ما زالت محافظة على وضعها منذ مئات السنين، وهي بالتأكيد دلالة رائعة على براعة النجارين المسلمين وتقانتهم^(١).

- الآلات الموسيقية: ساهمت حياة البذخ والترف وانتشار مجالس الغناء والطرب في تطور صناعة الآلات الموسيقية، غير أن هذه الصناعة كانت فردية، واقتصر إتقانها على بعض الأفراد للانتفاع بها، ومن هؤلاء الفيلسوف أبو نصر الفارابي (ت، ٣٣٩هـ/٩٥٠م) الذي صنع آلة موسيقية تتحكم بالانفعالات، وقد كان من المترددين على مجالس سيف الدولة، وفي أحد هذه المجالس في دمشق، أخطأ الفارابي كل من حضر ليعزف الموسيقى، وعندما سأله سيف الدولة عن إحسانه هذه الصنعة أجاب بالإيجاب، ثم أخرج خريطة من وسطه، فأخرج منها عيداناً وركبها ثم لعب بها، فضحك كل من المجلس، ثم فكها وركبها تركيباً آخر ولعب بها، فبكى كل من في المجلس، ثم فكها وغيّر تركيبها وضرب بها، فنام كل من في المجلس حتى البواب، فتركهم نياماً وخرج، هذا وينسب إلى الفارابي صنع الآلة الموسيقية المسماة بالقانون^(٢)، ومن الآلات الموسيقية التي كانت تصنع وتستخدم في تلك الآونة أيضاً العود والطنبور والربابة والصنج^(٣) وغيرها.

- صناعة السفن: اشتهرت مدن الساحل بصناعة السفن منذ القديم، وقد ساعد على قيام هذه الصناعة واستمرارها وتقدمها، وفرة الأخشاب

(١) ريسلر، الحضارة العربية، ص ١١٩.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٥، ص ١٥٥-١٥٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و)

٣٣١-٣٤٠-٣٤١-٣٥٠هـ، ص ١٨١-١٨٢.

(٣) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج ١، ص ١٩٤.

اللازمة لها في جبل لبنان، ومهارة الصنّاع، وخبرتهم في صنع السفن، وبراعة أهل هذه المدن بفن الملاحة وتسيير السفن، واهتمام المسلمين بحماية ثغور بلاد الشام الساحلية، وخطوط المواصلات والتجارة في البحر المتوسط من هجمات البيزنطيين، فأقاموا لذلك أول دار لصناعة السفن في عكا التي بنى فيها معاوية بن أبي سفيان أول أسطول عربي، واستمرت دار صناعة السفن في عكا حتى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك فنقلها إلى صور^(١).

وفي العصر العباسي اهتم العباسيون بالثغور البحرية فشحنوها بالرجال والمقاتلين، ورتبوا المراكب فيها، وبنوا الحصون والمراقب للدفاع عنها وحمايتها من غارات الأساطيل المعادية، فالخليفة أبو جعفر المنصور تتبع حصون السواحل وعمّرها وحصّنها، وبنى ما احتاج منها إلى البناء، وعندما استخلف المهدي استكمل ما بدأه المنصور، واستتم بناء المدن والحصون، وشحنها بالمقاتلين، وعندما تولى الرشيد اهتم بمدن السواحل، وزاد في تحصينها، وأمر بتقسيم الأموال على المرابطين فيها، وفي سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م أمر المتوكل بتجهيز المراكب في جميع السواحل، وأن تشحن بالمقاتلة^(٢).

واستمر الاهتمام بالثغور البحرية في العصرين الطولوني والإخشيدي خاصة في عهد أحمد بن طولون، فارتفعت فعالية الأسطول الشامي، وصار في مقدمة الأساطيل العربية الإسلامية^(٣).

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٢.

(٢) البلاذري، م.ن، ص ١٨٦ - ١٨٧؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ١، ص ٤٩.

- Salibi, Syria, p.33

(٣) زيود، حالة بلاد الشام الاقتصادية، ص ٢٢٢.

كذلك كان الاهتمام كبيراً بإعداد الموانئ الكبيرة المحصنة لاستقبال أكبر عدد من السفن، فميناء طرابلس في القرن الثالث الهجري وصف بأنه ميناء عجيب، ويحتمل ألف مركب^(١)، وقد تحدث المقدسي عن بناء أحمد بن طولون ميناءً حصيناً في عكا، فذكر أنها كانت تتعرض بشكل مستمر لغارات العدو، لذلك لما زارها أحمد بن طولون أراد أن يبني فيها ميناءً حصيناً على غرار ما رآه في صور من حصانة مينائها ومنعته، فجمع صناعاتها، وعرض عليهم ما يريد، فكان جوابهم: إنهم لا يستطيعون البناء في الماء، ثم ذكروا له أبا بكر البناء، وكان يقيم في القدس، وهو جد المؤرخ المقدسي، فاستدعاه ابن طولون، ولما حضر عرض عليه ما يريد بناءه، فكان جوابه أنه يمكن بناء ما طلب، ثم بدأ بتنفيذ ذلك، فكان يأخذ أخشاب الجميز الضخمة، ويشطرها شطرين ثم يضعها على وجه الماء بقدر الحصن البري، ويربط بعضها إلى بعض بقدر التحصين المراد بناؤه، ثم يبني عليها بالحجارة والشيد، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ لسند البناء، وكانت فلق الجميز كلما ثقلت نزلت حتى إذا استقرت على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى تأخذ قرارها، ثم يتابع البناء من حيث ترك، وكلما بلغ البناء إلى الحائط القديم داخله معه، وربطه به، حتى أتمَّ البناء، وجعل على باب الحاجز قنطرة، فكانت المراكب تدخل إلى الميناء ليلاً، وتجر السلسلة، فتبيت آمنة من غارات العدو^(٢).

وذكر قدامة بن جعفر أن المراكب التي تقوم بالغزاة من الثغور الشامية هي ما يجتمع من مراكب الشام ومصر، ويكون عددها من ثمانين إلى مئة،

(١) اليعقوبي، البلدان، ص ٨٨.

(٢) أحسن التقاسيم، ص ١٤٢.

ويسمى ما يجتمع من هذه المراكب الأسطول، ويكون المدبّر لجميع أمور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية، ويكون مقدار النفقة على المراكب إذا غزت من مصر والشام نحو مئة ألف دينار^(١).

وكان من بين التعليمات التي تعطى للوالي على الثغور البحرية أن يكون على دراية بصناعة المراكب، وأن يهتم بصناعتها، وأن يتخيّر الصانع لها ممن عرفوا بالحذق والدراية والحنكة والتجربة، وأن يراقب صناعة السفن والأدوات المستخدمة لذلك^(٢).

وقد استمرت دار صناعة السفن في صور منذ العصر الأموي، وعنهما قال اليعقوبي في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي: "بها دار الصناعة، ومنها تخرج مراكب السلطان تغزو الروم، وهي حصينة جليلة"^(٣)، فشغلت سفنها مع سفن صيدا وطرابلس دوراً مهماً في الدفاع عن سواحل بلاد الشام، وفي الصراعات الدولية للسيطرة على مياه البحر المتوسط^(٤)

وكانت صناعة السفن وأنواعها تختلف من بحر إلى آخر، فبينما كان صناع سفن البحر المتوسط يستعملون مسامير من حديد لتثبيت ألواح خشب السفن، كان صناع مراكب البحر الأحمر والمحيط الهندي يخيطنون ألواح خشب السفن بحبال الليف، ثم يطلونها بالشحوم والقطران منعاً لتسرب الماء إلى داخلها^(٥)، وقد

(١) نبذ من كتاب الخراج، ص ٧٥.

(٢) قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٤٨ - ٤٩.

(٣) البلدان، ص ٨٨.

(٤) حول هذا الدور، انظر: تدمري، لبنان، ص ٧٨ - ١٣٠.

(٥) المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ١٦٣؛ كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص ٢٢٣.

تحدث الإدريسي عن صناعة السفن في البحر الأحمر، فقال: "وبالقلزم^(١) تنشأ السفن السائرة في هذا البحر، وإنشاؤها شيء طريف، وذلك أن الكلكل^(٢) ينسبط على الأرض عريضاً ثم لا يزال اللوح يتركب منه على ما لصق به حتى يتهدم ثم يجوز بحبال الليف والدرس، ويوصل بينهما بالجسور الماسكة، فإذا كمل ذلك بأسره، جُلِّفَ^(٣) بالشحم المتخذ من دواب البحر ودقاق اللبان، وقيعان مراكبه عراض دون تعميق في تركيبها لتحمل بذلك كثير الوسق، ولا تدرس على كبير عمق"^(٤). هذا ووجد في البحر الميت سفن صغار تنقل صنوف الغلات والتمر بين زغر وأريحا^(٥).

سابعاً- الصابون والدهون والعقاقير والعطور:

ازدهرت صناعة الصابون منذ القديم نظراً لأهمية الصابون في حياة المجتمع، ولكثرة أشجار الزيتون في جند دمشق، مما أدى إلى إنتاج كميات كبيرة من الزيت.

(١) القلزم: بلدة على ساحل بحر اليمن قرب إيلة والطور ومدين، وإلى هذه المدينة ينسب هذا البحر (أي البحر الأحمر)؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج٤، ص٤٤٠.

(٢) الكلكل والكلكال: الصدر من كل شيء؛ ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص١٤٦، مادة "كلل".

(٣) جَلَّفَ وَجَلَّفَ السفينة: ادخل بين مسامير الألواح وحزوزها خرقاً أو مُشاققة الكتان ومسحها بالزفت والقار، والعامّة تقول قَلَّفَ؛ المنجد في اللغة والأعلام، ص٩٨، مادة "جلف".

(٤) نزهة المشتاق، مج١، ص٣٤٨-٣٤٩.

(٥) الإدريسي، م.ن، مج١، ص٣٥٥.

كان الصابون يصنع على هيئة قطع جامدة^(١)، وأهم مناطق صناعته دمشق التي اشتهرت بإنتاج أجود أنواعه، وعرف عن أهلها الاهتمام بصناعته وكثرة استهلاكه في حياتهم اليومية، ويدل على ذلك كثرة الحمامات في دمشق، وتوزعها في جميع جهاتها^(٢)، كما اشتهرت طرابلس وبعض قرى لبنان بصناعة الصابون^(٣).

- الدهون والعقاقير: كانت صناعة الدهون التي اشتقت من صناعة الزيت متقدمة، واستخدمت منتجاتها للتبرج ومعالجة الأمراض، وحظيت بالرواج والشهرة، وكان هناك أنواع أخرى من الدهون، منها دهن النارجيل الذي يستخرج من ثمر الجوز، ودهن البنفسج الذي استخدم لعلاج السعال والصداع، واشتهرت دمشق بصناعته^(٤)، كما تميزت بعض مناطق جند دمشق بصناعة بعض الأدوية والعقاقير الطبية لمعالجة الأمراض، ومنها الترياق الذي يصنع من نبات الحماما الذي ينمو بكثرة في جبل لبنان، ومن العقاقير أيضاً الرياس والراوند والبقس وغيرها^(٥).

- العطور: كانت صناعة العطور والطيوب متقدمة ومزدهرة، واستفيد منها في الطب وفي الطيب، وأسهم في ازدهارها توافر الورود والأزهار، واهتمام الولاة والأمراء بالتطيب، واستخدام العطور كالمسك

(١) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٣٠.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٨٦-٣٨٩.

(٣) زيود، حالة بلاد الشام الاقتصادية، ص ٢١٠.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٥؛ رحال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ٢٣٩.

(٥) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٦٦-٢٦٧.

والعنبر والزعفران وغيرها، فطُغج بن جُف والد الإخشيد كان مشهوراً بحبه للتطيب، وكان له قبة مشبكة في دمشق يتطيب فيها، فإذا تطيب لم يجفَ على أكثر أهل دمشق ذلك، وكان له خزائن طيب تحمل في سفره على نيف وخمسين جملاً^(١).

اشتهرت قرية المزة في غوطة دمشق بصناعة العطور وماء الورد، فكانت "حراقة تلقى على الطرقات، وفي دروبها وأزقتها كالمزابل، فلا يكون لرائحته نظير، ويكون ألد من المسك إلى مدة انقضاء الورد"^(٢)، وكان ماء الورد المزي يستخرج بالكركات والأنايق وعن طريق وقود الحطب، ويصدر إلى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراءها، وإلى الهند وبلاد السند والصين، ويسمى هناك الزهر^(٣).

ومن الطيوب التي كانت مشهورة في جند دمشق الغالية وهي مسك وعنبر يمزجان مع البان^(٤)، كما عرف أهله استخدام الزنجبيل في صناعة العطور إذ كان يجفف ويخلط مع الزعفران ثم يعجن مع البلسان، ويعمل قطعاً تجفف وتستخدم في الطيب فتعطي ريحاً عجيماً "وأفضل ما فيها أنها تعبق بالثياب حتى لا تفارق إلى غسل الثياب، وتزداد كل يوم طيب ريح إلى اتساخ الثياب ونزعها"^(٥).

(١) ابن سعيد، المغرب في حُلَى المغرب، ج ١، ص ١٥٠؛ كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٦٠.

(٢) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٦١.

(٣) شيخ الربوة، م. ن، ص ٢٦١ - ٢٦٥.

(٤) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ١٥٦.

(٥) ابن وحشية، الفلاحة النبوية، ج ١، ص ٦٣٧.

ثامناً - الدباغة وصناعة الجلود:

اشتهرت الدباغة وصناعة الجلود في مناطق متعددة لسد الاحتياجات من المصنوعات الجلدية، فمن جلود الحيوانات كانت تصنع الأحذية والسروج والمقاعد والمطارح والقرب والروايا وغيرها من الأدوات الجلدية^(١).

أما دباغة الجلود، فكانت تتم في معامل خاصة، ففي دمشق وجد معمل للدباغة كان يعرف باسم طاحونة الدباغة^(٢)، اشتهر بدباغة جلود الخراف بالقرظ، فكانت مضرب المثل^(٣)، والجدير بالذكر أن مهنة الدباغة كان ينظر إليها نظرة امتهان وازدراء، ويعود ذلك إلى الرائحة الكريهة التي تنبعث من المواد المستعملة في الدباغة، لذلك انحصر القيام بها بأيدي فئة قليلة من الناس كان أكثرها من اليهود^(٤).

تاسعاً - الفسيفساء والرخام:

كان من نتائج النهضة العمرانية في العصر الأموي تقدم صناعة الفسيفساء وبلوغها درجة عالية من التقانة، حيث قام الأمويون ببناء المساجد والقصور، وقاموا بتزيينها بالفسيفساء الزجاجية التي كانت صناعتها متمركزة في دمشق، وبلغت درجة عالية من التطور مع بناء الوليد بن عبد الملك جامع دمشق سنة ٨٦هـ / ٧٠٥م، ثم تزيين حرم الجامع وأقواس الصحن

(١) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٢٠٦.

(٢) محاسنة، تاريخ مدينة دمشق، ص ٢٠٦.

(٣) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٨٠.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٧؛ الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٢٤٢.

وجدران أروقتة بالفسيفساء المذهبة والملونة^(١)، ورغم تراجع أهمية الشام في العصر العباسي لا مانع من القول إن صناعة الفسيفساء استمرت محافظة على وضعها، وإن الولاة والأمراء، وبعض أهل دمشق استخدموا مكعبات معامل الفسيفساء في تزيين قصورهم وأبنيتهم.

وكان من نتائج النهضة العمرانية في العصر الأموي تطور صناعة الرخام الذي استخدم بكثرة في تحسين الأبنية وتجميلها^(٢)، واستمرت هذه الصناعة في تطورها في العصر العباسي نظراً لتوافر المواد الأولية اللازمة لها، واهتمام الناس الكبير بتزيين الدور والمباني بالرخام والنقوش والرسوم الملونة والفسيفساء، فقد استخدموا الحوارة التي وجدت في عمّان لتبييض السقوف وتطين السطوح^(٣)، واستخدموا أيضاً الأدهان التي تميزت بها مدينة بعلبك لطلي البيوت وتزيينها^(٤)، كما كان سكان المدن الساحلية يدهنون البيوت بالقيرو لوقايتها من تأثير المناخ^(٥).

عاشراً - الخزف والفخار:

من الصناعات القديمة التي وجدت لكي تؤمن احتياجات الناس الأساسية للأدوات الضرورية التي تستخدم في أمور حياتهم، وتشير الدراسات إلى بداية عهد جديد في تاريخ فنون الخزف مع الفتح العربي الإسلامي، فلم

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٣٨ - Lombard, L' islam, p.206.

(٢) اليعقوبي، البلدان، ص ٨٧؛ الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٥.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٨.

(٤) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٩٢؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١٣.

(٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٥.

يقتصر الخزافون المسلمون على استخدام الأساليب التقليدية، بل ابتكروا أساليب جديدة في صناعة الخزف وزخرفته، فكانوا يزينون المصنوعات الخزفية بأساليب متعددة مثل الحز والرسم تحت الدهان بلون واحد أو بعدة ألوان، كما كانوا يزينون الفخار غير المدهون بطريقة الصب بالزخارف البارزة المكونة من أشرطة وتفريعات نباتية، كما زخرفوا بعض المنتجات بزخارف ذات بريق معدني أو بطلائها بالمينا^(١).

واشتهر جند دمشق بصناعة الفخار، ورغم منافسة بعض مصنوعات الزجاج والمعدن المشابهة لبعض المصنوعات التي تنتجها صناعة الفخار، فإن هذه الصناعة حافظت على مكانتها وتقدمها، وذلك لسهولة صنعها وقلة تكاليفها، وتعدد استخداماتهم لحفظ المون والعمور والبخور، وتقديم الطعام وغير ذلك، وهذه الصناعة جادت في مدينة صور التي اشتهرت بجودة إنتاجها^(٢)، كما جادت في دمشق وطرابلس وصيدا وبيروت، فأنتجت مصانع الفخار كل أدوات الاستخدام المنزلي من القدور والخوابي والجرار والإجانات والدوارق وأصص الزهور وغيرها^(٣).

ومن الصناعات التي عرفت أيضاً استخراج الملح والقيصر من البحر الميت^(٤).

هكذا يتبين أن براعة صناعات جند دمشق ومهارتهم كانت أقوى من كل الظروف والأوضاع الصعبة التي واجهتهم، فلم تنهم عن مواصلة جهودهم

(١) كحالة، الفنون الجميلة في العصور الإسلامية، ص ٢١٤-٢١٦.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٦٦.

(٣) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٢٢٠.

(٤) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ١١٥.

للمحافظة على جودة إنتاجهم، وتطوير صناعاتهم، فكان لذلك أكبر الأثر في ازدهار الصناعة، وتنوع منتجاتها لسد مختلف أنواع الحاجات، وتصدير الفائض من الإنتاج.

ج - التجارة:

١ - العوامل المؤثرة في التجارة:

لا شك أن الأمن والاستقرار من أهم العوامل المشجعة على تنشيط التجارة وازدهارها، وهذا قلما عرفه جند دمشق خلال العصر العباسي، فقد سبقت الإشارة إلى كثرة معاناة الناس في المدن والأرياف من الحروب والثورات والاضطرابات، ولم تستقر الأمور إلا في عهود بعض الحكام والولاة الأقوياء.

كان لهذه الأوضاع أثر سلبي على الحياة الاقتصادية ولا سيَّما التجارة، وزاد من تراجع التجارة انتشار اللصوص وقطاع الطرق مع ضعف الدولة العباسية، وكثرة مهاجمة القبائل البدوية للقوافل التجارية^(١)، ومهاجمة البيزنطيين سواحل بلاد الشام ومصر، وقد تحدث عن ذلك ابن حوقل الذي ساح في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فقال: "وقد أبح الروم في هذا الوقت على سواحل الشام بالغارة ونواحي مصر فهم يختطفون مراكبهم من كل أوب، ويأخذونها من كل جهة ولا غياث ولا ناصر"^(٢).

(١) انظر: دور البدو في الفصل الثاني.

(٢) صورة الأرض، ص ١٨٥.

وعانى التجار من المصادرات، فعندما أعلن أبو العميطر ثورته كان أنصاره يجوبون في أسواق دمشق فيستولون على الحوانيت التي أصحابها يعودون في أنسابهم إلى القبائل القيسية، فقد نقل ابن عساكر عن أبي زرعة عبد الرحمن بن عمرو النصري قوله: "سمعت أبي يقول: دخلت على أبي العميطر فسلمت عليه بالخلافة، فردّ عليّ، فقلت: يا أمير المؤمنين حوانيت لي ورثتها من أبي أخذت من يدي، فقال: من قریش أنت؟ قلت: لا، قال: فمن مواليهم؟ قلت: لا، قال: ليس كل من قال حوانيتي يُقبل منه"^(١)، وعرف عن الوالي علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ مصادرة الأغنياء^(٢)، وعرف عن الإخشيد أيضاً مصادرة الأغنياء والتجار، وعنه قال متر: "كان الإخشيد صاحب مصر... يقوم بالمصادرات الكثيرة في هدوء من جانبه وبرود، فكان يقبض على عماله وخاصته وثقاته، ويصادرهم على المبالغ الكثيرة هم وأهلهم، ومن يكون في دورهم يوم المصادرة، وكان إذا أفلت أحد من المصادرة حياً لم يسلم من أخذ أمواله بعد وفاته"^(٣).

ومن العوامل التي أدت إلى تراجع النشاط التجاري ممارسة الاحتكار من قبل بعض التجار أو الأمراء إذ كانوا يشترون البضائع بأبخس الأثمان ثم يعرضونها للبيع بأعلى الأثمان، هذا إلى جانب بعض الصناعات المحلية التي تصنع وتباع لصالحهم، فقد عرف عن الإخشيد حب العنبر، لذلك كان الناس يتوددون إليه بإهدائه العنبر، لكن جشع الإخشيد وحبه للمال

(١) تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٣، ص ٣٠.

(٢) السرياني، تاريخ ميخائيل السرياني، ج ٣، ص ٦٨-٦٩.

(٣) الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١٥٨.

دفعه إلى الإفادة من ذلك، فكان يجمع الطيب المهدى إليه ثم يطرحه في موسم الإهداء، فيقوم بشرائه الذين يهدونه، ويكرر هذا العمل، ويجمع منه مبالغ طائلة من المال^(١)، وعرف عن الوالي شعلة بن بدر الإخشيدي (٣٣٨ هـ - ٣٤٥ هـ / ٩٤٩ - ٩٥٦ م) ممارسة سياسة الظلم والاحتكار^(٢).

ورغم كل هذه العقبات والصعوبات حافظت تجارة جند دمشق على بعض أهميتها ونشاطها بنتيجة عدة عوامل، وأهمها:

- أهمية موقع جند دمشق: سبقت الإشارة إلى أن جند دمشق شكل أكبر أجناد الشام وأهمها^(٣) فهو يصل بين شياها وجنوبها، وتمر فيه أبرز طرق التجارة العالمية الواصلة بين موانئ البحر المتوسط والخليج العربي وشبه الجزيرة العربية، وبين العراق ومصر، فشكل بذلك معبراً للتجارة الترانزيت بين الشرق والغرب مما كان له الأثر الكبير في بناء مدنه الواقعة على خطوط سير القوافل التجارية، وتنشيط تجارته وازدهارها، وزاد في ذلك امتداد جند دمشق على جزء مهم من سواحل بلاد الشام على البحر المتوسط، واحتواؤه على موانئ بحرية ذات تجارات مهمة ونشيطة، وكان لمراكبها دورٌ كبيرٌ في التجارة الدولية في البحر المتوسط، فالحمولات كانت دائماً قادمة وذهابة منها^(٤).

(١) ابن سعيد، المغرب في حُلَى المغرب، ج ١، ص ١٨٦؛ زيود، حالة بلاد الشام الاقتصادية، ص ٢٩٠.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٦، ص ١٥٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٣١ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٥٠ هـ، ص ٣٢٨.

(٣) انظر: التمهيد - جغرافية جند دمشق.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٣٤.

- الحج إلى الأماكن المقدسة: إذ كانت تمر في جند دمشق طرقُ الحج من الشام إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة وفلسطين، ففي دمشق كان يلتقي الحجاج القادمون من الشمال ومن السواحل، ومنها يمضون إلى مكة عبر طريق الحج الذي يمر شرقي نهر الأردن، وفي طريق عودتهم كثيراً ما كانوا يزورون الأماكن المقدسة في فلسطين، وكان يرافق الحج نشاط تجاري مزدهر^(١)، فكانت تقام المراكز التجارية على طول طريق الحج، وفي المدن المقدسة لكي تؤمن متطلبات الحجاج، وكثيراً ما كان يرافق قافلة الحجاج جماعة كبيرة من التجار، ويغريهم في ذلك حماية القوة العسكرية المرافقة لقافلة الحج، ففي سنة ٣٣١هـ/٩٤٣م رافق كثير من تجار بغداد قافلة الحج إلى الشام ومصر بسبب انتشار الفتن وتوالي المحن في بغداد، وقد يحصل العكس أحياناً، ففي سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م التحق كثير من أهل الشام بقافلة الحج، وقطعوا الطريق من الشام إلى العراق مارين بمكة^(٢)، ويضاف إلى ذلك أن سلع الشرق الأدنى التي تفرغ في جدة كل عام، كانت تصل عبر الحجاج السوريين إلى دمشق، ومنها إلى مدن ساحل بلاد الشام طرابلس وبيروت وصور التي تقوم بدورها بتصديرها إلى سواحل المتوسط الغربية^(٣).

هذه العوامل - إضافة إلى شهرة جند دمشق بمنتجاته الزراعية والصناعية^(٤)

- أهلتها لاحتلال مكانة تجارية مرموقة والقيام بدور تجاري كبير.

(١) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ج ١، ص ٥٨.

(٢) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٧٨.

(٣) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ج ١، ص ٥٨ - ٥٩.

(٤) انظر: الزراعة والصناعة.

٢ - الطرق التجارية:

شكّلت الطرق التجارية جسور عبور وتواصل حضاري بين المناطق المختلفة، وكانت محور النشاط والحركة التجارية، لذلك فقد اهتم المسلمون منذ العصر الأموي بالطرق لتسهيل التنقل من مكان إلى آخر، وللحفاظ على استمرار ورود المعلومات من الأمصار إلى العاصمة وبالعكس، وأسهم في زيادة الاهتمام بالطرق، الحجّ إلى الأماكن المقدسة، وفي العصر العباسي استمر الاهتمام بالطرق إذ وضع العباسيون الأميال والبرك عليها، وعملوا على حراستها وتأمينها وإنشاء الأماكن لاستراحة المسافرين^(١).

كانت الطرق في بلاد الشام تمثل عصب الحياة، فهي تربط بينها وبين المناطق المجاورة لها، وكان هناك عدة شروط لا بد من توافرها في أية مرحلة أو مركز من الطريق حتى تكون صالحة، وأهم هذه الشروط توافر الماء العذب، وأهمية الموقع للحج والتجارة، وطبيعة الموقع من حيث السهولة والصعوبة في الانتقال، وهناك الناحية الاقتصادية التي لها دور كبير في جعل قرية أو مدينة مركزاً تجارياً تمر به قوافل الحج والتجارة^(٢)، ومعظم هذه الشروط كانت متوافرة في بلاد الشام ولا سيّما جند دمشق مما نشط الحركة التجارية وأدى إلى ازدهارها، وساهم في ذلك الاهتمام بشق الدروب والطرق، وإقامة الجسور فوق مجاري الأنهار والأودية ومنها القنطرة التي كانت على نهر بردى في وسط مدينة دمشق^(٣).

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص١٣٦، ١٦٢.

(٢) زواهره، تيسير، طرق التجارة والحج في بلاد الشام في العصر العباسي، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص١٦٧ - ١٦٩.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦١؛ الإصطخري، المسالك والممالك، ص٤٥.

شكل جند دمشق مركزاً من أهم مراكز مواصلات بلاد الشام الداخلية والخارجية، إذ وجدت فيه شبكة واسعة من الطرق ربطت بين مدنه كما ربطت بينها وبين مدن الشام الأخرى، كما كانت تربطه مع العالم الخارجي إلى العراق ومنها إلى الهند والصين، وإلى الجزيرة العربية وإلى مصر، وكانت موانئه الشبيطة: طرابلس، وبيروت، وصيدا، وصور تربطه بأوروبا وبيزنطة وسواحل شمال إفريقيا والأندلس.

أولاً- الطرق الداخلية:

كانت دمشق عقدة مواصلات مهمة، تتفرع طرق متعددة منها إلى كل من: بعلبك وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وهوران والبثينة وبانياس، ومسافة كل من هذه الطرق يومان^(١)، ويتفرع طريق من دمشق إلى أقصى الغوطة مسافته يوم^(٢)، ويتفرع طريق من دمشق إلى صور طوله ثمانية عشر فرسخاً^(٣)، ويتجه طريق من دمشق نحو الجنوب فيأخذ إلى أذرعات مسافة مرحلتين، ثم يتابع جنوباً فيأخذ إلى الزرقاء مرحلة، ومن الزرقاء إلى مآب

(١) اليوم يعادل تسعة عشر ميلاً أي ثمانية وثلاثين كيلو متراً؛ محاسنة، تاريخ مدينة دمشق، ص ٢١٢.

(٢) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٩؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٧٠-١٧١؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٣.

(٣) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٦؛ الفرسخ: يساوي حوالي ستة كيلو مترات؛ هنتس، فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، الجامعة الأردنية، ط، (د.ت)، ص ٩٤.

مرحلة، ومن مآب إلى زغر مرحلة، ومن زغر إلى إيلة أربع مراحل^(١)، ويتفرع من زغر طريق إلى أريحا مسافته يومان، وطريق آخر إلى جبال الشراة مسافته يومان، ويتابع هذا الطريق فيأخذ من جبال الشراة إلى آخرها مسافة يوم^(٢).

ومن الطرق الداخلية: الطرق التي تتفرع من جبل لبنان إلى كل من صيدا وصور ونابلس، ومسافة كل من هذه الطرق مرحلة، وهناك طريق الساحل الذي يصل بين مدن ساحل جند دمشق فمن الشمال يمر في عرقة ثم يتجه إلى طرابلس فيأخذ منها إلى بيروت مرحلة، ومن بيروت إلى صيدا مرحلة، ومن صيدا إلى صور مرحلة^(٣).

ثانياً - الطرق الخارجية:

تعددت الطرق الخارجية التي تصل إلى جند دمشق، وهي:

أ - الطرق التي تربط جند دمشق مع شمال بلاد الشام والعراق، ومنها إلى الهند والصين، وقبل الحديث عن أهم هذه الطرق تجدر الإشارة إلى أن الطرق البرية التي تربط بين الخليج العربي والبحر المتوسط كانت تنتهي في العصر البيزنطي في أنطاكية شمال سورية، غير أن ازدهار دمشق في العصر الإسلامي حوّل الطرق إليها، ومنها بلغت البحر المتوسط في موانئ صور وطرابلس وبيروت وعكا^(٤)، وأهم هذه الطرق:

- (١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٤، ٢٠٥.
- (٢) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٨ - ٤٩.
- (٣) المقدسي أحسن التقاسيم، ص ١٦٣ - ١٦٤.
- (٤) كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص ٢١٧.

- طريق حمص دمشق عبر جوسية وقارا والنبك والقטיפفة، وطول هذا الطريق اثنان وتسعون ميلاً^(١).

- طريق دمشق الرصافة: وهو يبدأ من الرقة، وعند الرصافة يتفرع إلى طريقين: الأول يمر في المناطق العامرة، فمن الرصافة إلى الزّراعة ثم قسطل ثم سلمية ثم حمص ثم شمسين ثم قارا ثم النبك ثم القטיפفة، ومنها إلى دمشق، وطول هذا الطريق مئتان وستة وعشرون ميلاً، أما الثاني فيمر في البرية: فمن الرصافة إلى الخربة ثم العذيب ثم نهبيا ثم القريتين ثم جرود ومنها إلى دمشق، وطول هذا الطريق مئة وخمسة وستون ميلاً^(٢)، وتؤدي طريق دمشق الرصافة شمالاً إلى شمال بلاد الشام، وشرقاً إلى العراق ومنه إلى خراسان والهند والصين^(٣).

- طريق السلمية دمشق ويعرف بالطريق الأوسط، وهو يمر بفرعايا وماء شريك وصدد والنبك، وطول هذا الطريق واحد وتسعون ميلاً^(٤).

- الطريق من الجزيرة إلى الساحل: يبدأ من الرقة ثم يتجه غرباً فيمر بمنبج وحلب، ويتابع غرباً إلى أن يصل أنطاكية على ساحل البحر ثم يتجه جنوباً فيمر باللاذقية وجبلة وطرسوس وعرقّة وطرابلس وبيروت وصيدا وصور، ثم يتابع جنوباً عبر جندي الأردن وفلسطين^(٥).

(١) ابن خُرْدَاذَبَه، المسالك والممالك، ص ١١١؛ الميل: يساوي حوالي ٢ كم؛ هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.

(٢) قدامة بن جعفر، نبد من كتاب الخراج، ص ٣٨ - ٣٩.

(٣) قدامة بن جعفر، م.ن، ص ٣٥ - ٣٧.

(٤) قدامة بن جعفر، م.ن، ص ٣٩.

(٥) ابن خُرْدَاذَبَه، المسالك والممالك، ص ١٣٥.

- طريق دمشق الكوفة: وهو يبدأ من جهة العراق من الحيرة ثم يتجه عبر البادية إلى أن يصل بلدة أعناك في حوران ثم يتجه إلى أذرعات ثم إلى منزل ثم إلى دمشق^(١).

- الطريق من الكوفة إلى عمّان عبر البادية^(٢).

- طريق دمشق بغداد الذي يسير على الضفة الغربية للفرات مروراً بالأنبار ثم هيت ثم عبر الصحراء إلى دمشق، ويعد هذا الطريق أقصر طريق يصل بين دمشق وبغداد، ومعه كانت القوافل تتابع سيرها إلى خراسان والهند والصين^(٣).

ب - طرق تربط جند دمشق مع شبه الجزيرة العربية، وأهمها:

- طريق دمشق مكة، وهو يمر بذات المنازل وسرع وتبوك ووادي القرى ثم المدينة ومنها إلى مكة^(٤).

- طريق من دمشق إلى المدينة على دومة الجندل، وهو يأخذ إلى دومة الجندل عشرة مراحل، ومنها إلى المدينة ثلاث عشرة مرحلة، وهناك طريق يتفرع من دومة الجندل يؤدي إلى الكوفة طوله عشر مراحل^(٥).

- هناك ثلاثة طرق تصل بين عمّان وتيماء في البادية، وهي طريق تبوك، وطريق وبير، وطريق بطن السر، وكانت هذه الطرق الثلاث تستخدم لمرور قوافل

(١) ابن خُرْدَاذْبَه، م.ن، ص ١٣٦.

(٢) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، مج ١، ص ٢٦٢.

(٣) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٧٤ - ٢٧٦.

(٤) قدامة بن جعفر، نبذ من كتاب الخراج، ص ١٧؛ ابن خُرْدَاذْبَه، المسالك والممالك، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٥) ابن خُرْدَاذْبَه، م.ن، ص ١٨٠.

الحج إلى مكة، لكن أشهرها كانت طريق تبوك، وهي تأخذ "من عمّان إلى معان منهلين"^(١) ثم إلى تبوك مثلها ثم إلى تيباء أربعاً ثم إلى وادي القرى أربعاً"^(٢).

ج - طرق تربط جند دمشق مع جندي الأردن وفلسطين ومع مصر ومنها إلى شمال أفريقيا والأندلس، وأهمها:

- الطريق المستقيم من دمشق إلى الأردن، ويمر بالكسوة وجاسم وسيق ومنها إلى طبرية، وطول هذا الطريق ستة وستون ميلاً، ويؤدي من طبرية إلى الرملة، ثم يتابع غرباً إلى مصر، ومنها إلى شمال أفريقيا والأندلس^(٣).

- طريق الدرّاج أو المدارج الذي يربط بعلبك بطبرية عبر عين الجر والقرعون والعيون وكفر ليلي، وطول هذا الطريق ستون ميلاً^(٤).

- طريق عمّان بيت المقدس مروراً بنهر الأردن وأريحا ثم إلى بيت المقدس ومنها إلى الرملة^(٥).

إضافة إلى طرق المواصلات السالفة الذكر كان هناك طرق البريد التي شكلت شبكة ربط بين مناطق الخلافة، وهذه السكك كانت تربط جند

(١) المنهل: المشرب، ثم كثر ذلك حتى سميت منازل السُّفّار على المياه مناهل، ما بين المناهل مراحل، والمنهل من المياه: كل ما يطؤه الطريق، وما كان على غير الطريق لا يُدعى منهلًا؛ ابن منظور، لسان العرب، ج ١٤، ص ٣١٠ مادة "نهل".

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٠٥.

(٣) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ١١٣-١٢٤؛ قدامة بن جعفر، نبد من كتاب الخراج، ص ٣٩-٤٠؛ المقرئ، الخطط، مج ١، ص ٦١٤-٦١٥.

(٤) قدامة بن جعفر، نبد من كتاب الخراج، ص ٣٩؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٤.

(٥) المقدسي، م.ن، ص ١٦٤.

دمشق مع أجناد الشام الأخرى، فمن حمص إلى المحمدية أربع سكك، ومن المحمدية إلى بعلبك خمس سكك، ومن بعلبك إلى دمشق تسع سكك، ومن دمشق إلى دير أيوب سبع سكك، ومن دير أيوب إلى طبرية ست سكك^(١).

٣- أماكن نزول التجار^(٢):

تركز النشاط التجاري في الأسواق التجارية العامة، وفي منشآت خاصة أقيمت خصيصاً للأغراض التجارية واستقبال التجار والمسافرين، وتعرف هذه المنشآت بالفنادق والقيساريات والخانات، وقد أقيمت في داخل المدن أو في أطرافها أو على الطرق التجارية، فشكلت محطات لنزول القوافل التجارية.

تشير الدراسات إلى أن هذه المنشآت كانت متشابهة - إلى حد ما - من حيث المهمة والبناء والتخطيط، وكانت - في الغالب - عبارة عن بناء يتألف من طابقين أو أكثر، وقد استخدم الطابق السفلي منه مكاتب تجارية ومستودعات

(١) قدامة بن جعفر، نذ من كتاب الخراج، ص ٤٦.

(٢) تجدر الإشارة إلى أن الدمشقي صنّف التجار في ثلاثة أصناف هي:

١ - الخزان: وهو الذي يشتري البضائع في أوقات توافرها في السوق، وورخص أسعارها، فيخزنها إلى حين قلتها في الأسواق وارتفاع أسعارها.

٢ - الركّاض: هو الذي ينتقل من بلد إلى آخر، ويعاني مشاق السفر، ويشترط فيه المعرفة والتبصرة، فقد قيل التبصرة نصف عطية.

٣ - المهجز: هو التاجر المستقر في السوق ببلده، ويقوم بتجهيز البضائع وإرسالها إلى وكلاء مأمونين لبيعها، ويقوم هؤلاء الوكلاء بشراء البضائع له ويرسلونها إليه؛ الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ٦٣ - ٦٨.

للبضائع، بينما كانت طواقمه العليا مخصصة لنوم المسافرين والتجار، على أن بعض هذه المنشآت قد يكون مخصصاً لنوع معين من السلع أو المهنة من المهن، وقد قامت هذه المنشآت إضافة إلى وظيفتها التجارية بوظائف أحر مثل الوظائف العسكرية إذ كانت تستخدم مراكز عسكرية، واستمرت تقوم بذلك حتى أقام السلاجقة محطات الجيش، فتركت هذه المنشآت للقوافل التجارية إلا عند الضرورة القصوى، كما كانت تقوم بوظائف بريدية^(١).

اشتهرت دمشق بفنادقها التي شغلت دوراً كبيراً في زيادة تنشيط تجارتها الخارجية، ومن هذه الفنادق، فندق أماجور الذي بناه الوالي أماجور سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٨م^(٢)، وفندق ابن حية، وفندق ابن موسى، وهذان الفندقان يقعان في سوق القمح، وفندق أبي طاهر بن عفيف الفارقي، وفندق البيع، وفندق بني عبد المطلب عند سوق الدواب^(٣) وغيرها، كما اشتهرت طرابلس بوجود بيوت شبيهة بالفنادق، تتألف من أربعة أدوار وخمسة وستة، وفيها يجد الغريب كل أنواع الطعام والفواكه والمشروبات^(٤).

واشتهرت دمشق بقيسارياتها، الموزعة في أسواقها، "وهي مرتفعات كأنها الفنادق مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور، وكل قيسارية

(١) ريجاوي، عبد القادر، خانات دمشق في الإسلام، مجلة الحوليات الأثرية السورية، دمشق، مج ٢٥، ج ١-٢، ١٩٧٥م، ص ٤٧-٤٩؛ يحيى، فؤاد، جرد أثري لخانات دمشق، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، دمشق، العدد ٣١/، ١٩٨١م، ص ٦٨-٧٢.

(٢) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٤٧؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٣، ص ١٠٣.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣١٠، ٣٦٢-٣٦٣، ٣٦٧، ٣٧٩.

(٤) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٣.

منفردة بضبتها وأغلاقتها الجديدة"^(١)، ومن هذه القيساريات: قيسارية الفرش، وقيسارية الخدم، وقيسارية الجعفري^(٢) وغيرها.

أما الخانات، فوجدت قرب القصر (أي دار الإمارة الذي بناه العباسيون) في دمشق، وعرف القائم على الخدمة فيها باسم الخاني، وكان بإمكان الزائر الدخول إلى ساحة الخان على ظهر حصانه، وقد تألفت هذه الخانات من عدة طوابق، وخصصت الطوابق العليا منها للسكن^(٣)، كما وجدت الخانات على الطريق من حمص إلى دمشق، فشكلت محطات للقوافل التجارية، وكانت مزودة بالماء، وتغلق بأبواب حديدية^(٤).

وتجدر الإشارة إلى أن العرب استخدموا المنازل لتوقف القبائل والقوافل، وزودت هذه المنازل بالخانات، وقد وجد العديد منها في جند دمشق^(٥)، كما وجدت منشآت أخرى لخدمة التجار الغرباء عرفت باسم دار الضيافة^(٦).

٤ - التجارة الداخلية:

كانت التجارة الداخلية نشيطة، وزاد من نشاطها شهرة جند دمشق بالمنتجات الزراعية والصناعية، وأهمية موقعه للتجارة العالمية، وتركز

- (١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٢٤.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٠٣، ٣٧٨؛ ج ٣، ص ٣٢٤؛ ج ٣٨، ص ٤٥.
- (٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٥، ص ١١٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٠١ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣٢٠ هـ، ص ٥٩٨.
- (٤) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢٠٠ - ٢٠١.
- (٥) يحيى، جرد أثري لخانات دمشق، ص ٦٩.
- (٦) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٦، ص ٢٣١.

النشاط التجاري في الأسواق التي شكلت القسم الأساسي في المدن، وكانت من أهم أسباب وجود المجتمع وتشكيلاته، ولم يقتصر دورها على النشاط الاقتصادي سواء الصناعي أو التجاري، بل تعداه إلى الاجتماعي والفكري، وكانت هذه الأسواق تبنى بالأجر والحجارة والخشب، وتشكل مجموعة من الحوانيت تمتد على جوانب الشوارع، وكانت هذه الأسواق متخصصة، فلكل تجارة أو حرفة سوق خاص بها، وتقيم كل طائفة من التجار في السوق المخصص لها بحيث لا تختلط تجارة بأخرى، وكان لكل من هذه الأسواق أبواب في مداخلها تغلق في المساء للضرورات الأمنية، وكانت معظم هذه الأسواق مسقوفة بالخشب والمعدن لحماية السلع المباعة فيها من تأثير العوامل الجوية، ولوقاية مرتاديهما والمارين فيها من حر الصيف وقر الشتاء^(١)، ففي مدينة دمشق على سبيل المثال كانت أكثر أسواقها مغطاة ما عدا السوق الكبير الذي يمتد على طول البلد، فكان مكشوفاً^(٢).

كانت المدن بصورة عامة أسواقاً لما يحيط بها من أرياف وقرى، فإليها يأتي القرويون حاملين محاصيلهم الزراعية لبيعها، ثم يعودون حاملين بالمواد المصنعة^(٣).

أولاً - أهم الأسواق والمراكز التجارية:

١ - دمشق: اشتهرت بنشاطها التجاري منذ القديم بحكم موقعها الإستراتيجي على طرق التجارة العالمية، وهي عقدة مواصلات مهمة، وتلقتي

(١) الشيرزي، نهاية الرتبة، ص ١٠-١٣؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ١٧؛ سوفاجيه، دمشق الشام، ص ٦٨؛ ريجايوي، مدينة دمشق، ص ٦٤.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٣٧.

(٣) المعايطة، زريف، الأسواق في بلاد الشام في العصر العباسي، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص ٢٥٠.

فيها القوافل التجارية القادمة من جهات متعددة. وزاد من نشاطها التجاري أنها كانت مركزاً لتجمع الحجاج المسلمين القادمين من الشمال والسواحل في طريق الذهاب، وفي طريق عودتهم كانوا يفترقون عندما يصلون إليها، وكل هذا أدى إلى تدفق السلع إليها، فغدت أسواقها من أشهر الأسواق وأنشطها^(١)، وزاد من نشاطها التجاري أنها مركز زراعي وصناعي، فكانت جامعة لصنوف من المحاسن والصناعات "وأشهر من الثياب الحرير كالحز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة العديم المثال الذي يحمل منها إلى كل بلد، ويتجهز منها به إلى كل الآفاق والأمصار المصاغة لها والمتباعدة منها... وتجاراتها رابحة، وهي من أعز البلاد الشامية وأكملها حسناً"^(٢)، ووفرة البضائع وتنوعها في أسواقها أديا إلى رخص الأسعار فيها^(٣).

وقد تميزت بأسواقها المرتبة، وتركز وجود هذه الأسواق حول المسجد الجامع، كما قام بعضها على أبواب المدينة لتبادل التجارة بين أهلها وسكان الأرياف والبادية، وكانت الأسواق تسمى بأسماء السلع التي تبيعها، ومنها: سوق الصفارين، وسوق الخرزيين، وسوق البزازين، وصناع الزجاج، والجوهريين، وسوق الوراقين^(٤)، وسوق الزيت، وسوق الغزل، وسوق الريحان، وسوق الجبن، وسوق الغنم، وسوق الفاكهة^(٥)... إلخ، كما وجد فيها أسواق صغيرة عرفت باسم السويقات، وكانت تسمى غالباً بأسماء المواقع التي توجد

(١) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ج ١، ص ٥٩.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٦٩.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٣٧.

(٤) ابن جبير، رحلة ابن حبير، ص ٢٠٨؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، مج ١، ص ٣١١-٣١٣.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ١١٩، ٢٥٥-٢٥٦، ٣٠١، ٣١٠، ٣٦٢، ٣٦٧.

فيها، ومنها: سويقة الباب الصغير، سويقة باب توما، سويقة باب البريد، وسويقة الباب الشرقي^(١).

كما عرفت دمشق إقامة أسواق أسبوعية مثل سوق الأحد^(٢)، كما عرفت نشاطاً تجارياً مميزاً في كل يوم سبت من كل أسبوع؛ إذ كان أهلها يخرجون إلى المنتزهات وشطوط الأنهار لذلك كان المتعشون والبائعون الجائلون ينقلون دكاكينهم إلى أماكن النزهة^(٣).

٢ - طرابلس: بلغت حداً كبيراً في التجارة حتى إن ميناءها كان يتسع لألف مركب^(٤)، وكان يعد من أنشط الموانئ وأكبرها على سواحل بلاد الشام، وإليه تهوي مراكب البحر محملة بالبضائع والغلات من بلاد الروم والفرنجة والأندلس والمغرب، وزاد في نشاطها التجاري أنها كانت معقلاً من معاقل الشام، وكانت أسواقها في غاية النظام والنظافة، وإليها تأتي التجارات بالأمتعة وضروب الأموال وصنوف السلع^(٥).

٣ - بيروت: كانت ذات غلات وفيرة وموارد متنوعة، وتميزت بأسواقها التجارية الحسنة والمهمة^(٦)، وإليها يرد التجار بالبضائع الكثيرة

(١) ابن عساكر، م.ن، ج ٢، ص ٢٩١، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٨٢-٣٨٧؛ ابن شداد، قسم دمشق، ص ١٠٧، ١١٠-١١١؛ قسم لبنان والأردن وفلسطين، ص ٢٣، ٢٥، ٢٩.

(٢) المزي، تهذيب الكمال، مج ٢٨، ص ٤٦٥؛ ابن شداد، قسم دمشق، ص ١١٦.

(٣) المعاينة، الأسواق في بلاد الشام، ص ٢٥٣.

(٤) اليعقوبي، البلدان، ص ٨٨.

(٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٣؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٧٢-٣٧٣؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ٢٠٣؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٤٩.

(٦) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، مج ١، ص ٢٦٢.

والمتنوعة، وعن ذلك قال ابن حوقل: "تجارات البحر عليها دارة واردة وصادرة"^(١).

٤ - صيدا: اشتهرت بنشاطها التجاري وأسواقها النظيفة، فقد أبدى ناصر خسرو إعجابه تجاه حسن أسواقها ونظافتها، فقال: "رأيت أسواق المدينة على درجة عظيمة من النظام والنظافة، فظننت أن السوق جهّز لاستقبال حاكم المدينة، ولكنني علمت أن هذه حال أسواقها في كل حين"^(٢)، ووصف الإدريسي صيدا بأنها عامرة الأسواق ورخيصة الأسعار^(٣).

٥ - صور: تميزت بنشاط مينائها التجاري، فإليه تأتي المراكب محملة بالبضائع الواردة، وبعد إفراغ حمولتها تقلع هذه المراكب بعد أن تكون قد امتلأت بالبضائع الصادرة من منتجات صور والمناطق المجاورة لها، وقد عبّر الإدريسي عن هذه الحركة التجارية فقال: "وبها للمراكب إرساء وإقلاع"^(٤)، وزاد من نشاط صور التجاري شهرتها ببعض الصناعات، وأسواقها الجميلة الكثيرة الخيرات، وقد أضفى عليها هذا النشاط التجاري ثراءً كبيراً اتصفت به من بين مدن ساحل بلاد الشام^(٥).

ومن المدن التي اشتهرت بأسواقها ونشاطها التجاري أيضاً: مدينة بعلبك التي تميزت بأسواقها الحسنة العامرة، وسعة رزقها ورخص أسعارها، ومنتجاتها

(١) صورة الأرض، ص ١٦٢.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٥.

(٣) نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٧٠.

(٤) الإدريسي، م.ن، مج ١، ص ٣٦٥.

(٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٥.

من الملاين والأدهان^(١)، كما اتصفت مدينة عرقة بأنها مدينة عامرة حسنة، وكثرة تجارتها وغنى أهلها^(٢)، وتميزت زغر أيضاً بتجارتها الرباحة ولا سيما تجارة النيلة، وقد وصف المقدسي زغرب "البصرة الصغرى، والمتجر المريح"^(٣)، وتميزت عمان بقراها ومزارعها وأسواقها الرخيصة الأسعار^(٤).

إضافة إلى أسواق المدن التي شكلت أسواقاً محلية ودائمة، كان هناك أسواق موسمية تقام في أوقات محددة من السنة في المدن والمراكز التجارية المهمة، وشجّع على قيامها مرور قوافل الحج والتجارة في هذه المدن والمراكز، وكانت هذه الأسواق أشبه بالمعارض المؤقتة^(٥)، وأهمها: سوق دير أيوب في حوران، وهو أول الأسواق التي يقيمها العرب عندما يغادرون الحجاز نحو الشام للتبادل التجاري فيها، وعندما ينتهي هذا السوق كانوا يتجهون إلى بصرى لإقامة السوق فيها، وسوقها اشتهر منذ ما قبل الإسلام، ولم ينقطع بعد الإسلام، بل استمر في موعده، وزادت مدته حتى صار يستمر من ثلاثين إلى أربعين يوماً، وبعد انقضاء سوق بصرى بسبعين ليلة كان يقام سوق أذرعان، وهو أطول الأسواق الموسمية إذ يستمر أياماً طويلة، وغالباً ما يستمر طيلة أيام الصيف^(٦)، ومن الأسواق الموسمية السوق الذي

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٦٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١٣.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٧٣.

(٣) أحسن التقاسيم، ص ١٥١.

(٤) المقدسي، م.ن، ص ١٤٩.

(٥) كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص ٢٢٦.

(٦) المرزوقي، أحمد بن علي الأصفهاني (ت، ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)، كتاب الأزمنة والأمكنة،

حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف، ط ١، ١٣٣٢هـ، ج ٢، ص ١٦٩ - ١٧٠

يقام في قرية زيزاء من قرى البلقاء لقافلة الحج الشامي التي تمر فيها^(١)، كما كانت تقام في دمشق سوق موسمية في كانون الأول من كل عام تعرف بسوق قضيب البان^(٢).

وكان هناك أسواق أسبوعية ريفية، تقام عادة في المناطق غير الحضرية ذات الكثافة السكانية المتوسطة، وأبرز صفات هذه الأسواق أن البائعين والمشتريين يسكنون على بعد مسافة قريبة منها تكون على الأغلب نصف يوم، وأثناء السوق يشكل البائعون حلقة يطلق عليها دور، وتعرف هذه الأسواق باسم يوم من أيام الأسبوع أو باسم المكان الذي تقام فيه، كما أن بعض الأسواق الأسبوعية كانت تقام في المناطق الحضرية مثل سوق الأحد في دمشق، وتقام هذه خارج المدينة لأن كثافة العمران تمنع من إقامتها داخل السور، ويلتقي في هذه السوق القادمون للبيع والشراء من أهل المدن والأرياف، وبعد أن يبيع الفلاح بضاعته في هذه السوق كان يتجه إلى أسواق المدينة المتخصصة لشراء مستلزماته^(٣).

ثانياً - الرقابة على الأسواق:

كانت الأسواق تحت الرقابة المستمرة، وذلك من خلال نظام الحسبة الذي نظم الحياة التجارية، وراقب الأسواق باستمرار منعاً لأي تجاوز أو اختلال، وقطعاً لكل أشكال العبث والفضي، ويعرف القائم على الحسبة

(١) الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ٣، ص ١٨٤.

(٢) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٢٣٩.

(٣) المعاينة، الأسواق في بلاد الشام، ص ٢٥٧؛ عثمان، المدينة الإسلامية، ص ٢٥٢.

باسم المحتسب، ويختار لهذا المنصب بدقة إذ يجب أن يتميز بصفات أبرزها: أن يكون فقيهاً عارفاً بأحكام الشريعة، وأن يكون خبيراً عدلاً ذا صرامة وخشونة في الدين، وعلم بالمنكرات الظاهرة^(١)، وقرنت الحسبة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر^(٢).

ويراقب المحتسب كل ما يجري في الأسواق من عمليات البيع والشراء، فيتأكد من صحة المقاييس والموازن والمكاييل المستعملة، لكي يجري التعامل بها من غير غبن على الوجه الشرعي، ولضمان ذلك كان المحتسب يلزم التجار باتخاذ الأبطال والأوزان من الحديد، والمعادن، أو الخشب والحجارة، لاسيما بعد وضع ختمه عليها، كما كان يتفقد عيار الصنج والحبات وغيرهما على حين غفلة من أصحابها، ويمنع الغش في الإنتاج والتلاعب في الوزن والقياس^(٣)، ويمنع المعاملات المنكرة كالبيوع الفاسدة والربا^(٤)، ويراقب أسعار البضائع، ولكن لا يحق له تسعيرها^(٥)، ومع ذلك فقد كان من واجبه التدخل لمنع الارتفاع الفاحش في أسعار البضائع التي يحتاجها الناس^(٦)، كما كان يتدخل في

(١) أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص ٢٨٥؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٦؛ ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٨٠٧.

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٩٩؛ أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص ٢٨٤؛ ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢١٩.

-Cahen, cl, M. talbi; hisba, encyclopédie, de L' Islam, Paris, 1999, tome III. P.503.

(٣) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٥ - ٢٠؛ ابن الأخوة، معالم القربة، ص ٨٠ - ٨٥.

(٤) ابن الأخوة، م. ن، ص ٥٢.

(٥) ابن الأخوة، م. ن، ص ٦٤؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٢؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ١٨.

(٦) السامرائي، المؤسسات الإدارية، ص ٣١٨.

حال احتكار أحد التجار للمواد الغذائية، فيمنعه من ذلك، ويلزمه بيعها إجباراً، لأن الاحتكار حرام، والمنع من فعل الحرام واجب^(١)، وينهي المحتسب أيضاً عن قسم اليمين عند البيع، وعند النداء على السلعة^(٢).

ومن مهام المحتسب أيضاً الإشراف على تنظيم المدينة، وتنظيف الأسواق والطرق، ومنع كل ما من شأنه مضايقة المارة فيها^(٣)، والإشراف على كل الحرف والصنائع، ومنع التلاعب أو الغش في إنتاجها^(٤)، كما يشرف على ممارسة الشعائر الدينية والعبادات والأخلاق والآداب العامة^(٥).

والواقع أن المحتسب كان يقوم بمهامه المختلفة بمساعدة أعوان، وغلمان يتخذهم لمساعدته في قمع المخالفين، وقد يكون الشرطة ضمن هؤلاء الأعوان^(٦)، كما يتخذ من أهل "كل صنعة عريفاً من صالح أهلها خبيراً بصناعتهم بصيراً بغشوشهم وتدليساتهم، مشهوراً بالثقة والأمانة، ويكون مشرفاً على أحوالهم، ويطلعه بأخبارهم، وما يجلب إلى سوقهم من السلع والبضائع، وما تستقر عليه من الأسعار، وغير ذلك من الأسباب التي

(١) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٢؛ ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٦٥، ٨٩؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ١٨.

(٢) السامرائي، المؤسسات الإدارية، ص ٣١٨.

(٣) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١١، ١٣ - ١٤؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ١٩.

(٤) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٢٠ - ٧٢.

(٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٣٠٣ - ٣١١؛ أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

(٦) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٨، ١٠؛ ابن الأخوة، معالم القرية، ص ١٤، ٢٢٠؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ١٥.

يلزم المحتسب معرفتها^(١)، كما كان يعين المحتسب نواباً عنه على سواحل البحر، وفي الأماكن التي ترد إليها الغلة ليعلموه بما يرد من البضائع والغلال، وما يخرج منها، ويشرفوا على مخازن الغلة التي قد يئتمونها إلى وقت الحاجة^(٢).

ويلازم المحتسب الأسواق، فيتجول فيها كل يوم مراراً في الليل والنهار للقيام بمهامه، ويلازمه في جولاته هذه أعوانه وغلماؤه^(٣)، كما كان يتفقد أصحاب الحوانيت المنفردة في الحارات، والدروب الخارجة عن الأسواق في كل أسبوع على حين غفلة من أصحابها^(٤)، وتجدر الإشارة إلى أن المحتسب كان يتفنن في إيجاد الوسائل والطرق التي تساعده في كشف غشوش التجار والصناع وتدليساتهم^(٥).

أما عدة المحتسب التي يتخذها لمساعدته في إنجاز مهامه، فكانت السوط والدرّة والطرطور لمعاينة المخالفين وردعهم عن الغش والتدليس، وهذه العدة كانت تعلق على دكة المحتسب ليشاهدها الناس، فترتعب منها قلوب المفسدين، وينزجر بها أهل التدليس^(٦)، هذا وقد كانت دكة المحتسب القديمة بدمشق بناحية سوق القمح فيها^(٧)، كما كان للمحتسب "سجل

(١) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٢.

(٢) ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ١٦؛ السامرائي، المؤسسات الإدارية، ص ٣٢٩.

(٣) ابن الأخوة، معالم القرية، ص ٢١٩-٢٢٠؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ١٥.

(٤) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٦٠. -Cahen., talbi; hisba, tome III, p. 503.

(٥) السامرائي، المؤسسات الإدارية، ص ٣٣١.

(٦) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٠٨، ١٠؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ٢٠٩.

(٧) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢١، ص ٥٣.

خاص " يدون فيه أسماء التجار والصناع، ومواقع محلاتهم، وذلك ليتمكن من الوصول إليهم بسرعة عند الحاجة^(١).

أما عقوبات المحتسب للمخالفين أو المدلسين، فكانت تقوم على النصح والإرشاد عند حدوث المخالفة أول مرة، وفي حال التكرار كان يلجأ إلى التنبية والتحذير، وإذا استمر المدلس في غشه وتدليس، كان المحتسب يُوقع عليه العقوبة التي يستحقها^(٢).

ثالثاً - الأسعار وأسباب الغلاء:

وصف المقدسي في القرن الرابع الهجري إقليم الشام ببلد الرخص والفواكه^(٣)، وعند حديثه عن جند دمشق أشار إلى رخص الأسعار في دمشق^(٤)، وهذه الإشارة - على أهميتها - لا تكفي لرسم صورة الأسعار في جند دمشق خلال العصر العباسي من القرن الثاني الهجري، وحتى النصف الأول من القرن الرابع الهجري، فهي تشير فقط إلى الأسعار في عهد المقدسي (أي أواسط القرن الرابع الهجري).

والواقع أن المصادر المتوافرة لم تأت بالمعلومات الكثيرة عن الأسعار في جند دمشق خلال ذلك العصر، فكل ما ذكرته عن هذا الجانب يقتصر على إشارات عديدة تشير إلى ارتفاع الأسعار في أوقات مختلفة، كما في عهد

(١) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٢٢؛ السامرائي، المؤسسات الإدارية، ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(٢) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ٩؛ ابن بسام، نهاية الرتبة، ص ١٤.

(٣) أحسن التقاسيم، ص ١٥٣.

(٤) المقدسي، م. ن، ص ١٣٧.

الوالي معيوف بن يحيى بن معيوف الذي تولى دمشق في عهد الخليفة المأمون، وكانت أيامه أيام بؤس وجذب وغلاء، فارتفعت الأسعار بشكل كبير جداً، ولا سيّما سعر الخبز، فصوّر بعض أهل دمشق ذلك بقوله:

ما كنتُ أحسبُ أنّ الخبزَ فاكهةٌ حتى تربّع في الخضراءِ معيوفٌ^(١)

وحدث الغلاء في سنوات: ٢٤٤هـ / ٨٥٨م عندما نزل المتوكل دمشق^(٢)، وفي سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٣م عندما اشتد الغلاء في عامة بلاد الإسلام^(٣)، وفي أيام الوالي نازوك ٣٠٧ - ٣٠٩هـ / ٩١٩ - ٩٢١م^(٤)، وفي أيام الوالي شعله بن بدر ٣٣٨ - ٣٤٥هـ / ٩٤٩ - ٩٥٦م^(٥)، وفي مطلع العصر الفاطمي^(٦)، وغير ذلك.

وتعود أزمات الغلاء هذه إلى أسباب متعددة تتمثل في: الأوضاع السياسية المضطربة شبه المستمرة، والاحتكارات، والكوارث الطبيعية... وغيرها من الأسباب التي أثرت في حياة السكان، وأوضاعهم المعيشية.

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٥٩، ص٤٤٦؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص٢١٥.
- (٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٢١٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٧، ص٨٥.
- (٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص٥١٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج٧، ص٢٧٣.
- (٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٦١، ص٣٧٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٠١ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣٢٠هـ، ص٢٨.
- (٥) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٦، ص١٥٩؛ تحفة ذوي الألباب، ص٢٨٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٣١ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٥٠هـ، ص٣٢٨.
- (٦) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٥ - ١٠.

١- الأوضاع السياسية المضطربة شبه المستمرة: شكلت الأحوال السياسية المضطربة والفتن شبه المستمرة عاملاً مؤثراً في حياة الناس، إذ كانت تشغلهم عن تجارتهم وحرفهم وزراعاتهم، مما كان يؤدي إلى تدهور الموارد الاقتصادية، ومن ثمَّ انتشار الغلاء وارتفاع الأسعار، ومن هذه الاضطرابات:

- سقوط الخلافة الأموية في سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م، وما ترتب على ذلك من نتائج بعيدة الأثر على الاقتصاد في بلاد الشام، إذ في إثر ذلك انتهى المجد الاقتصادي الذي كانت تعيشه بلاد الشام في العصر الأموي ولا سيَّما دمشق، وانتقل ذلك إلى العراق الذي بات يحوي مركز الخلافة العباسية^(١).

- أعمال السلب والنهب والتدمير التي ارتكبتها الجيش العباسي عند سيطرته على دمشق في سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م^(٢).

- الفتن والاضطرابات والثورات التي شهدتها جند دمشق، وما كان يرافقها من حرائق، وأعمال تخريب مما كان يؤدي إلى فقدان الأمن، وضعف المنتجات، وارتفاع الأسعار، ومن ذلك ما حدث في ثورة أبي الهيثم المري سنة ١٧٦هـ / ٧٩٢م، وقد ألحقت الخراب والدمار

(١) عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً بعنوان "في أن الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها"، وفيه أشار إلى أن عدول بني العباس عن دمشق إلى بغداد، كان سبباً في اختلال حضارتها وتمدنها؛ مقدمة ابن خلدون، ص ٣٥٦.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٣، ص ١١٦؛ ج ٧، ص ٦٥٤؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٣٥٦؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٧، ص ٤٣٨.

بمعظم قرى غوطة دمشق^(١)، وما حدث في ثورة أبي العمير سنة ١٩٥هـ / ٨١٠م، إذ كان أتباعه يجولون في أسواق دمشق، فيضرمون النار في الخوانيت التي تعود ملكيتها للقبائل القيسية أو يصادرونها^(٢).

- الحروب التي كانت تدور رحاها فوق أراضي جند دمشق، وما كانت تؤدي إليه من إتلاف للمزروعات، وتوقف الحرف والصنائع، وفقدان الأمن وتعطل التجارة، ومن هذه الحروب: الحروب العباسية الطولونية، وحروب الإخشيد مع كل من محمد بن رائق، وسيف الدولة الحمداني^(٣).

- هجمات القبائل البدوية على مناطق جند دمشق، وما سببته من اضطراب وخراب^(٤).

- ظهور الخطر البيزنطي في القرن الرابع الهجري، وهجماته على مناطق بلاد الشام وسواحلها، وقد وصل في إحدى هذه الهجمات إلى مناطق جند دمشق^(٥).

٢ - الاحتكارات: الاحتكار هو التسلط على أموال الناس، ويكون بشراء البضائع بأبخس الأثمان، ثم عرضها للبيع بأغلى الأثمان، ويكون

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٦٢ - ٨٧.

(٢) ابن عساكر، م. ن، ج ٤٣، ص ٣٠.

(٣) عن الحروب العباسية الطولونية، وحروب الإخشيد مع محمد بن رائق وسيف الدولة الحمداني، انظر: الفصل الأول - الوضع السياسي.

(٤) عن هجمات البدو، وغزوات القرامطة انظر: الفصل الثاني - دور البدو.

(٥) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١٤٩؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٦٦.

الاحتكار مترافقاً بالغضب والإكراه في الشراء والبيع، فتعود خسارة ما بين الصنفقتين على رؤوس أموال التجار المقيمين في المدن أو الواردين إليها، وعلى أهل الدكاكين، وأهل الصنائع، فتقل عمليات البيع والشراء، فتكسد الأسواق، ويبطل معاش الرعايا^(١).

فقد عرف عن بعض الولاة والأمراء أتباعهم الاحتكار، هذا إضافة إلى أن بعض الصناعات المحلية كانت تصنع وتباع لصالحهم، فالإخشيدي مثلاً عرف عنه مصادرة التجار المياسير، وعرف عنه حب العنبر، لذلك كان الناس يتوددون إليه بإهدائه العنبر، غير أن جشع الإخشيد وطمعه، دفعه إلى الإفادة من ذلك، فكان يجمع الطيب المهدي إليه، ثم يطرحه في موسم الإهداء، فيقوم بشرائه الذين يهدونه إليه، ويكرر هذا العمل، ويجمع منه مبالغ طائلة^(٢).

وعرف عن الوالي شعلة بن بدر الإخشيدي (٣٣٨ - ٣٤٥هـ / ٩٤٩ - ٩٥٦م) ممارسة الاحتكار، وهذا أدى إلى ارتفاع الأسعار وانتشار الغلاء في عهده^(٣).

كذلك عرف عن بعض التجار احتكارهم لأطعمة الناس وإخفائها إلى حين ارتفاع الأسعار ولا سيما في أوقات الأزمات والمشاكل^(٤).

- (١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٧٤ - ٢٧٥.
- (٢) ابن سعيد، المغرب في حُلَى المغرب، ج ١، ص ١٨٦ - ١٨٧.
- (٣) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٦، ص ١٥٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٣١ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٥٠هـ، ص ٣٢٨.
- (٤) محاسنة، تاريخ مدينة دمشق، ص ٢٣٧.

٣- الكوارث الطبيعية: تعددت الكوارث الطبيعية التي ألحقت أضراراً بمناطق جند دمشق، ومن هذه الكوارث الزلازل التي حدثت مرات عديدة، وألحقت أضراراً بالغة، فزلزال سنة ٢٣٢هـ / ٨٤٦م أدى سقوط بعض حيطان دمشق^(١)، وكان زلزال سنة ٢٣٣هـ / ٨٤٧م زلزلاً مهولاً، إذ أدى إلى سقوط دور كثيرة في دمشق، وسقوط بعض شرفات الجامع الأموي، وتصدع حائط المحراب، وسقوط منارته، فهلك خلق كثير تحت الروم، وقد امتد هذا الزلزال إلى الغوطة، فأتى على داريا والمزة وبيت هليا وغيرها^(٢)، وتكرر حدوث الزلازل في سنوات عدة^(٣).

ومن الكوارث الطبيعية انتشار الأوبئة والأمراض والآفات الزراعية التي كانت تتلف المحاصيل مما كان يؤدي إلى قلة الإنتاج، ومن ثم ارتفاع الأسعار، وانتشار المجاعات، ففي أواخر عهد المهدي ومطلع عهد الهادي ١٦٨ - ١٦٩هـ / ٧٨٤م، ظهر جراد طيار في الجزيرة، فأتلف الحنطة والشعير والبقول ثم اتجه صوب الغرب، ففضى على كل الغلات والأشجار والكروم، فحدثت محنة شديدة، وبعد ثلاث سنوات على هذه الضربة عمّ الغلاء الأرض جمعاء^(٤)، وتكرر ظهور الجراد في سنوات ٣٤٢هـ / ٩٥٣م^(٥)، و٣٤٨هـ / ٩٥٩م^(٦) وغيرهما. ومن الكوارث الطبيعية أيضاً الجفاف وانحباس

(١) السيوطي، كشف الصلصلة، ص ٧١.

(٢) السيوطي، م. ن، ص ٧٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٢٦.

(٣) سلفت الإشارة إلى الزلازل التي حدثت في منطقة جند دمشق في مقدمة هذا الفصل.

(٤) السرياني، تاريخ ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٤٢٥؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ١٣.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٥٠٥.

(٦) ابن الأثير، م. ن، مج ٨، ص ٥٢٨.

المطر، وهبوب الرياح القاسية في موسم نضج الغلات^(١)، وغيرها من الكوارث التي كانت تؤذي المحاصيل الزراعية أو تلتفها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أزمة الغلاء التي حدثت في دمشق سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م، من المرجح أن من أسبابها التضخم السكاني الذي عانت منه دمشق في إثر انتقال الخليفة المتوكل إليها مع كبار قواده وجيشه، في محاولة منه لجعلها مقر الخلافة العباسية^(٢).

وكان من العوامل المؤثرة في الأسعار أيضاً، الضرائب الباهظة التي كانت تفرض على السكان، فتؤدي إلى فراغ أيديهم من النقود، وانتشار الفقر والمجاعة، ومن ثمَّ سوء مستوى المعيشة، وعدم استقرار الأسعار^(٣).

وقد انعكست نتائج العوامل الآتفة الذكر على حياة السكان، فتدنى مستوى معيشتهم، وعانوا في أوقات الأزمات من الفقر والمجاعات، حتى إنهم اضطروا إلى أكل الميتة، والكلاب، والسنانير، والنباتات المضرة، فتزايد انتشار الأمراض بينهم^(٤)، ولعل فقر السكان الشديد هو الذي دفع الخليفة المأمون إلى الرأفة بوضعهم، عندما كان بدمشق وورده إليها ٣٠ مليون درهم من مال خراج الدولة، فوزَّع ما مقداره ٢٤ مليون درهم على السكان فيها^(٥)، وكذلك وزَّع أحمد بن

- (١) السرياني، تاريخ ميخائيل السرياني، ج ٢، ص ٤٤٦؛ ج ٣، ص ٧٧.
- (٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢١٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٢٩٠.
- (٣) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٩ - ١٠.
- (٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٤٦٥.
- (٥) ابن الأثير، م. ن، مج ٦، ص ٤٣٣ - ٤٣٤؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٦٥٢ - ٦٥٣.

طولون عندما دخل دمشق سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧م، الأموال على الفقراء فيها وفي الغوطة^(١).

٥ - التجارة الخارجية:

اشتهر سكان الشام منذ القديم بنشاطهم التجاري، وتأدية دور الوسيط في التجارة العالمية، ولم يتوقف هذا النشاط مع قيام الخلافة العربية الإسلامية، بل إنه ازدهر ولا سيَّما بعد إزالة الخلافة للحواجز والعراقيل التي كانت تعترض تجارة الشام في العصر البيزنطي^(٢)، وفي العصر العباسي حافظت الشام - ومنها جند دمشق - على دورها في التجارة العالمية.

إن موقع جند دمشق بصفته محطة من المحطات الرئيسة على طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب، ومنتجاته الوافرة الزراعية والصناعية، جعله يقوم بدور كبير في التجارة العالمية، ويمكن إدراك هذا الدور من خلال ما ذكره ابن خردادبه عن مسلك تجار الروس في البر إذ كانت دمشق من محطاتهم الرئيسة، فهم كانوا يخرجون من الأندلس أو من فرنجة، فيعبرون السوس الأقصى إلى طنجة ثم يمرون إلى المشرق عبر إفريقية ومصر والرملة ومنها إلى دمشق ومن دمشق إلى العراق ثم إلى فارس ثم إلى السند ثم إلى الهند ثم إلى الصين^(٣).

كانت حركة التبادل التجاري مزدهرة بين جند دمشق وأجناد الشام الأخرى، فإليها كان يصدر الفائض من منتجاته ومصنوعاته كالأسلحة والأواني

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٢٦١ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٨٠هـ، ص ٤٨ - ٤٩؛

المقريزي، المققى الكبير، ج ١، ص ٤٣٠.

(٢) رحال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ١٨٧.

(٣) المسالك والممالك، ص ٢٠٩.

الزجاجية والنحاسية والجلود المدبوغة والثياب والفواكه والسكر^(١)، ومنها كان يستورد بعض المنتجات والمصنوعات، فمن شمال بلاد الشام (مرعش وأعلى ما بين النهرين) كان يستورد الحديد والنحاس^(٢)، واستورد من حصن التينات الأخشاب^(٣).

كما تميز جند دمشق بعلاقاته التجارية النشيطة مع كل المناطق المجاورة والبعيدة كالعراق، والهند، والصين وشبه الجزيرة العربية ومصر وشمال إفريقيا والأندلس وبيزنطة وأوربا.

أما بالنسبة لصلاته التجارية مع العراق، فكانت وثيقة، وتتم بطرق مباشرة تصله مع العراق، أو بطرق غير مباشرة تمر عبر شمال بلاد الشام بمواقع مهمة على الفرات، وأبرز هذه المواقع مدينة بالس التي كانت محطة تجارية مهمة، وميناء تجارة الشام على الفرات، وقد وصفت بفرضة أهل الشام على الفرات^(٤)، كما ارتبطت تجارة الشام ومنها تجارة جند دمشق مع العراق عن طريق الملاحة في الفرات، فقد ذكر اليعقوبي أن السفن تأتي إلى بغداد عن طريق الفرات محملة ببضائع الشام ومصر^(٥)، ولم يقتصر التواصل على ذلك، بل إن بعض التجار كانوا يأتون من العراق إلى دمشق ليستقروا فيها ويمارسوا التجارة، ومنهم التاجر الحسن بن الحر بن الحكم النخعي

-
- (١) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٨٠؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٦٩؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ١، ص ١٧٧؛ ج ٢، ص ٥٢٩.
 - (٢) زيادة، تجارة بلاد الشام الخارجية، ص ٣٠٠ - ٣٠١.
 - (٣) الإصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٧.
 - (٤) الإصطخري، م.ن، ص ٤٦؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٥.
 - (٥) البلدان، ص ٢٢.

(ت، ١٣٣هـ / ٧٥٣م) الذي قدم دمشق لأجل التجارة، فصار يبيع البنز فيها على باب المسجد الجامع مما يلي باب البريد^(١).

ومن صادرات جند دمشق إلى العراق الزيت والزيتون والزبيب والحبوب^(٢) والفواكه، ولا سيَّما التفاح اللبناني، فكان يُحمل منه كل عام ثلاثون ألف تفاعحة إلى خلفاء بغداد^(٣)، كما كانت تُحمل منه الأنواع الفريدة من النباتات والأطعمة كاهليون الذي اشتهرت به دمشق، فكان يحمل منها في المراكب من الرصاص، فيصل إلى العراق في اليوم السادس^(٤)، والجلود المدبوغة والنحاس المذهب، والأنواع الجيدة من السلاح، والأواني الزجاجية والمنسوجات الحريرية والقطنية^(٥)، بينما كان يستورد من العراق بعض أنواع الأقمشة والفواكه والتمور والأقلام والخيل^(٦).

أما بالنسبة للعلاقات التجارية مع الشرق الأقصى (الهند والصين)، فكانت تتم من خلال النشاط التجاري العربي، فمن المعروف أن العرب وصلوا إلى الصين منذ العصر الأموي، إذ كانت السفن العربية تصل إلى كانتون ميناء الصين الرئيسي، كما كانت السفن الصينية تقوم بنقل البضائع بين الصين والخليج العربي، وفي القرن الثاني الهجري مع قيام الخلافة العباسية تعززت رحلات العرب التجارية إلى الصين عن طريق البحر، كما

(١) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٤، ص ١٦٠.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٤-١٥٥.

(٣) ابن الفقيه، البلدان، ص ١٦٦؛ الثعالبي، لطائف المعارف، ص ١٥٦.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٣٦٦-٣٦٧؛ الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص ١٨.

(٥) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٨٠.

(٦) رحال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ٢١٢.

أن بعض التواصل مع الصين كان يتم عن طريق البر، ولكن بدرجة أقل من التواصل البحري، هذا وكانت للعرب صلات تجارية قوية مع شبه جزيرة ملقا، كما وصلوا إلى كوريا، وأقاموا فيها بعض المنشآت، أما العلاقات التجارية مع الهند، فكانت مزدهرة، وتركزت مع مدينة الديبال عند مصب نهر السند، ومدينة مولتان المجاورة لهذا النهر، وعن طريقها كان التجار العرب يحصلون على بضائع الهند وبضائع المناطق المجاورة لها^(١).

وكان بعض تجارة الشام - ومنها تجارة جند دمشق - مع بلدان الشرق الأقصى يتم عن طريق البحر الأحمر، وفيه كانت حركة التجارة نشيطة، وأدت إلى انتعاش بعض موانئه مثل عدن في الجنوب التي قال عنها اليعقوبي: "مرفأً مراكب الصين"^(٢)، وكانت مدينة القلزم في شمال البحر الأحمر مخزناً كبيراً تتجمع فيه البضائع الواردة من الشرق عن طريق هذا البحر، ومن الغرب عن طريق البحر المتوسط، وكانت ميناء مشتركاً لتجارة الشام ومصر بحكم موقعها المتوسط بينهما، وهذا ما أشار إليه الإصطخري بقوله: "كانت القلزم فرضة مصر والشام، ومنها تحمل حمولات الشام ومصر إلى الحجاز واليمن وسواحل هذا البحر"^(٣).

وأهم الواردات من الصين: الحرير، والفرند، والمسك، والعود الصيني، والعقاقير الطبية، والتوابل والخزف الصيني، وأهم الواردات من الهند: الطيب، والقرنفل، والمنسوجات القطنية والمخملية، والكافور، والأعواد^(٤)،

(١) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ج ١، ص ٤٤-٥١.

(٢) البلدان، ص ٨٠.

(٣) المسالك والممالك، ص ٣٠.

(٤) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ١٠٣-١٠٤.

والفولاذ الهندي اللازم لصناعة الأسلحة الدمشقية، كما كان جند دمشق يستورد من أرمينية وأذربيجان الحديد والقرمز (القرمز) لتلوين الأقمشة الصوفية^(١)، أما أهم صادراته إلى مناطق الشرق الأقصى، فكانت العطور وماء الورد المزي ويعرف هناك باسم الزهر^(٢).

وبالنسبة للعلامات التجارية مع شبه الجزيرة العربية فهي قديمة، وتعود إلى ما قبل الإسلام، إذ كان تجار قريش يأتون إلى مناطق الشام بقوافلهم التجارية، فتقام الأسواق لهم مثل سوق دومة الجندل^(٣)، وبعد الإسلام تعززت هذه العلاقات، وزاد في أهميتها الحج إلى الأماكن المقدسة، ووقوع جند دمشق على طريق الحج الشامي، هذا وكان بعض التبادل التجاري مع شبه الجزيرة العربية يتم عن طريق الملاحه في البحر الأحمر التي كانت في قمة ازدهارها، وتقدمت الإشارة إلى ذلك.

صدر جند دمشق إلى شبه الجزيرة العربية الفواكه الطازجة والمجففة والحبوب والأسلحة والزجاج والمنسوجات الحريرية والقطنية والسكر^(٤)، بينما استورد منها بعض المنسوجات القطنية والطيوب، وتوابل الشرق التي كانت تفرغ في جدة^(٥).

- (١) زيادة، تجارة بلاد الشام الخارجية، ص ٣٠٠، ٣٠٤.
- (٢) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٢٦٤.
- (٣) المرزوقي، كتاب الأزمنة والأمكنة، ج ٢، ص ١٦١.
- (٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٠، ١٥٥؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٦٦، ٣٦٩؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ١، ص ١٧٧؛ ج ٢، ص ٥٢٩.

(٥) رحال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ٢١١.

وارتبط جند دمشق بعلاقات تجارية نشيطة مع مصر وشمال إفريقيا والأندلس، وكان التبادل مع هذه المناطق يتم بوساطة الطريق البري الواصل بين دمشق والفسطاط، ومنها إلى شمال إفريقيا ثم إلى الأندلس^(١)، كما أن بعض هذا التبادل كان يتم عن طريق الملاحة في البحر المتوسط، فكانت السفن دائبة الحركة بين موانئ جند دمشق التي كانت أنشط موانئ الشام وموانئ مصر وشمال إفريقيا والأندلس^(٢).

أما الصادرات إلى مصر، فأهمها: الأواني النحاسية والزجاجية والحبوب والأسلحة والحديد والخرنوب والسكر، وقصب الذهب والقراصيا والقبع والقباب وقمر الدين من المشمش والقنب^(٣)، أما الواردات منها، فأبرزها: الأقمشة الكتانية والبلسان^(٤)، أما الصادرات إلى شمال إفريقيا والأندلس، فكانت المصنوعات الزجاجية والثياب والأسلحة^(٥)، بينما أبرز الواردات منها الثياب والجلود والوبر والرقيق والحواري^(٦)، واستورد جند دمشق عن طريق شمال إفريقيا الذهب من السودان^(٧).

وارتبط جند دمشق بعلاقات تجارية مع بيزنطة وأوروبا، فرغم موقف بيزنطة العدائي من الدولة العربية الإسلامية لم تستطع التخلي عن التجارة

-
- (١) انظر: طرق التجارة الخارجية.
 - (٢) لويس، القوى البحرية والتجارية، ص ٢٥٢.
 - (٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٤ - ١٥٥؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٧١؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، مج ١، ص ٢٦٢؛ البدرى، نزهة الأنام، ص ٢١٥.
 - (٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٥٠.
 - (٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٦٦، ٣٦٩.
 - (٦) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ١٢٧.
 - (٧) زيادة، تجارة بلاد الشام الخارجية، ص ٣٠٢.

السورية، نظراً لأهمية هذه التجارة، ودورها في تجارة الشرق، لذلك قامت باتخاذ بعض التدابير اللازمة لجذب التجارة السورية في البحر المتوسط، ففتحت بعض المنافذ البحرية لهذه التجارة^(١)، وقد بلغ من شهرة التجارة الإسلامية في القسطنطينية أن أقيم لها وكالتان، إحداهما لتجار الحرير، والأخرى لتجار التوابل^(٢)، وقد كان من نتائج ذلك انتعاش موانئ طرابلس وبيروت وصور وغيرها، فكانت المراكب تبحر منها محملة بالبضائع والتجارة إلى القسطنطينية وسواحل أوروبا^(٣).

صدر جند دمشق إلى بيزنطة الزجاج والأواني النحاسية والأنواع الجيدة من السلاح وجلود الخراف المدبوغة، والثياب الحريرية كالخز والديباج^(٤)، بينما استورد منها الديباج الرومي والثياب الرومية^(٥)، وصدر إلى أوروبا السكر والورق والأسلحة والزجاج والثياب الحريرية والقطنية^(٦)، واستورد منها الأخشاب والرقيق والأسلحة^(٧)، والنحاس من قبرص^(٨).

إضافة إلى ما سبق كان يرتفع من جند دمشق أيضاً الملاين والأدهان والدبس من بعلبك، والحبوب والخرفان والعسل من عمّان، ونيل غاية من

- (١) لويس، القوى البحرية والتجارية، ص ١٨٥.
- (٢) لويس، م.ن، ص ٢٦٧.
- (٣) لويس، م.ن، ص ٢٥٨؛ كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ٢٤١.
- (٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٦٦، ٣٦٩؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ١٨٠.
- (٥) رحال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ٢١٣.
- (٦) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٢-٤٣؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، مج ١، ص ٣٦٦، ٣٦٩.
- (٧) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ج ١، ص ١٢٨.
- (٨) زيادة، تجارة بلاد الشام الخارجية، ص ٣٠١.

أريجاً، والنيل والتمور من صغر وبيسان، والرز من بيسان أيضاً، وقلوب اللوز من مآب^(١)، ومن المرجح أن هذه الصادرات كانت في أكثرها تصدر إلى المناطق المجاورة والقريبة.

٦ - وسائل التعامل التجاري:

لم يكن للعرب نقد قبل الإسلام، بل كانوا غالباً ما يستعملون الدنانير الذهبية البيزنطية والدراهم الفضية الساسانية، واستمروا في استخدامها في مطلع العصر الإسلامي، إلا أن الدين الجديد والسياسة الجديدة للدولة العربية الإسلامية جعلت العرب يقومون بإدخال تعديلات تدريجية على النقود حتى كان عهد عبد الملك بن مروان، فعربها في سنة ٧٦هـ/٦٩٥م، وضرب الدنانير والدراهم الإسلامية التي تحمل نقوشاً عربية^(٢).

وفي العصر العباسي لم يبطل العباسيون - في البداية - نقود العصر الأموي، فاستمر الناس يتعاملون بها، غير أن حقد العباسيين على الأمويين جعل الخليفة أبا جعفر المنصور يطلق عليها اسم "النقود المكروهة"^(٣)، وهذه النقود كانت تضرب في دار ضرب دمشق، ومن الذين تولوا هذا الدار الربيع بن حظيان، وقد تولاها من قبل أبي جعفر المنصور^(٤)، وحتى

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٢) المقرئزي، أحمد بن علي، النقود الإسلامية المسمى "بشذور العقود في ذكر النقود"، تحقيق وإضافات: السيد محمد بحر العلوم، بيروت، دار الزهراء، ط ٦، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ٦١ - ٦٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٤٨٣.

(٣) الشهابي، قتيبة، نقود الشام، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠٠٠م، ص ١٠١.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٢، ص ٢٠٧؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٧، ص ٣٣٣، (ذكر اسمه بـ "الربيع خطبان").

سنة ١٩٨ هـ / ٨١٣ م كانت دار ضرب دمشق تسك النقود بنفس الشكل والتأثيرات التي كانت عليها في زمن الأمويين مع حذف أسماء الولاة والخلفاء الذين ضربت في عهدهم^(١)، وإلى جانب النقود التي سكتها دمشق كان الناس يتداولون بالدنانير التي أصدرها الخلفاء العباسيون، وكانت هذه الدنانير تحمل أسماءهم، كما فعل المهدي والرشيد الذي سك دنانير ذهبية تحمل اسمه واسم ولي عهده الأمين إلى جانب بعض الآيات القرآنية، كما تداول الناس الدنانير التي ضربها بعض الولاة مثل تلك التي ضربها جعفر البرمكي وزير الرشيد^(٢).

تأثر النظام النقدي في الدولة العباسية بالصراع بين الأخوين الأمين والمأمون، فعمّ الاضطراب النقدي، لذلك عندما استلم المأمون الخلافة أمر بإعادة الكتابات التي كانت تنقش في عهد والده الرشيد، واستبدل اسم أخيه الأمين باسمه^(٣)، وتوزعت أماكن ضرب النقود في العراق وفلسطين ومصر ودمشق التي كانت تضرب نقود الشام، وفيما بعد لجأ الخلفاء العباسيون إلى تقليد الساسانيين والبيزنطيين بضرب صورهم على وجوه النقود، وضرب صور الحيوانات على الوجه الآخر، وهذا ما فعله المتوكل والمقتدر^(٤).

وفي العصر الطولوني كان التداول بالنقود التي سكتها أحمد بن طولون، وعرفت بالأحمدية نسبة إليه، وامتازت بعيارها الجيد^(٥)، وتشير بعض الدراسات

-
- (١) الشهابي، نقود الشام، ص ١٠١.
 - (٢) المقرئزي، شذور العقود في ذكر النقود، ص ٧٠.
 - (٣) المقرئزي، شذور العقود في ذكر النقود، ص ٧١.
 - (٤) الشهابي، نقود الشام، ص ١٠١ - ١٠٢.
 - (٥) البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ١٦٩؛ المقرئزي، شذور العقود في ذكر النقود، ص ٧٥.

إلى أن أقدم ما ضرب منها يعود إلى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م^(١)، بينما تشير دراسات أخرى إلى أن أحمد بن طولون لم يضرب السكة الذهبية إلا بعد أن زادت قوته، وسيطر على الشام في سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م، وبعد أن اتسعت شقة الخلاف بينه وبين الموفق أخي الخليفة، لذلك قام بضرب الدنانير الأحمديّة لتأكيد سلطانه واستقلاله، وتحمل هذه الدنانير أسماء مناطق مختلفة، منها: مصر ودمشق وحلب وغيرها، ولم توضح المصادر فيما إذا كانت هذه الدنانير ضربت في المناطق التي تحمل أسماءها أم لا، وتشير بعض الدراسات إلى أن جميعها ضربت في عاصمة الدولة الطولونية في مصر تحت إشراف أحمد بن طولون الذي احتفظ لنفسه بحق ضرب السكة الذهبية، ولم يمنع هذا من أن تحمل السكة اسم الإقليم الذي ستداول فيه، وقد أخذت الدنانير الأحمديّة طراز السكة الذهبية التي كانت سائدة منذ عهد المأمون، وكانت تحمل اسم أحمد بن طولون بعد اسم الخليفة المعتمد على الله، أما أوزانها فتراوحت بين ٣،٣٠ غرام و٤،٢٤ غرام، وقد يعود هذا الاختلاف في الوزن إلى طريقة الضرب البدائية، وقد لاحظ الباحثون أن الدنانير الأحمديّة التي تحمل اسم مصر كانت أوفى وزناً من تلك التي تحمل أسماء دور سك أخرى، وشكلت الدنانير الأحمديّة النموذج الذي احتذاه خلفاء أحمد بن طولون من بعده^(٢).

وفي المدّة العباسية الثانية عادت دار ضرب دمشق تسك النقود باسم الخلفاء العباسيين^(٣)، وفي العصر الإخشيدى كان تداول الناس بالدنانير

(١) الشهابي، نقود الشام، ص ١٠٩.

(٢) المقرئزي، شذور العقود في ذكر النقود، (إضافات المحقق)، ص ١٢٧-١٣٠.

(٣) مصطفى، جنوب بلاد الشام، ص ٨٥-٨٦.

الإخشيديّة التي ضربت في مصر وفلسطين ودمشق، وكانت هذه الدنانير - في البداية - تحمل اسم الخليفة وحده، ولكن بدءاً من سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م صار ينقش عليها اسم الإخشيد إلى جانب اسم الخليفة، وفي عهد خلفاء الإخشيد صارت تحمل أسماؤهم إلى جانب أسماء الخلفاء العباسيين^(١).

وكان الناس يستعملون الدراهم الفضية أيضاً التي شاع انتشارها في الشام في القرن الرابع الهجري، كما كانوا يستعملون أجزاء الدرهم القيراط والدانق والحبة للمشتريات الرخيصة، كما عرف الناس التعامل بالفلوس النحاسية التي ضربت في دمشق سنة ١٩٢هـ/٨٠٧م، كما ضربت في غيرها من مدن الشام^(٢).

كانت المعاملات التجارية البسيطة تتم عن طريق المقايضة التي كانت منتشرة كثيراً في بادية الشام، وتكون المقايضة مصحوبة بموافقة علنية صريحة من الجانبين على البيع^(٣)، أما المعاملات المالية الضخمة فقد استلزمت وسائل مأمونة للدفع تجنب أخطار المواصلات، وتكون بعيدة عن متناول اللصوص وقطاع الطرق، ومأمونة من الضياع وخفيفة الحمل، ومن هذه الوسائل السفاتج أو الحوالات، والسفتجة تعني أن يعطي رجل مالاً لآخر، فيعطيه الآخر خطأً يمكنه من استرداد ذلك المال عن طريق عميل له في بلد آخر، فيستفيد الآخر بذلك من أمن الطريق^(٤)، وهذا يعني أن السفتجة أو

(١) كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ١٩٢ - ١٩٤.

(٢) بيطار، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، ص ٣٤٤ - ٣٤٥.

(٣) متز، الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٥٨.

(٤) المنجد في اللغة والأعلام، ص ٣٣٦، مادة "سفتج".

الحوالة تكون بين طرفين، ولكن قد تكون بين ثلاثة أطراف "حيث يتوافق شخصان على إحالة الدين إلى شخص ثالث في بلد آخر"^(١).

كان التعامل بالسفاتيح محدوداً في القرنين الأول والثاني للهجرة، ولكن مع اتساع حركة التبادل التجاري في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وكثرة المعاملات المالية، وصعوبة نقل المبالغ الكبيرة من بلد إلى آخر اتسع استخدام السفاتيح من قبل الحكام والتجار، وتكون هذه السفاتيح قابلة للصرف في أي بلد من قبل عملائهم، فمثلاً هؤلاء العملاء بذلك دور البنوك، إذ كانوا يعطون التجار رقاعاً بما لديهم من أموال، فيقوم التجار بشراء ما يلزمهم، ويحولون ثمنها إليهم^(٢)، كما كان الولاة يرسلون ما زاد من دخل ولاياتهم إلى بغداد على شكل سفاتيح، فقد حمل أحمد بن طولون إلى بغداد في أربع سنين سفاتيح بمليونين ومئتي ألف دينار^(٣)، وأرسل علي بن عيسى المشرف على أعمال الشام ومصر في سنة ٣١٣هـ / ٩٢٥م سفاتيح بمئة وسبعة وأربعين ألف دينار^(٤)، وأرسل الإخشيد إلى نائبه ببغداد سفاتيح بثلاثين ألف دينار ليسلمها للوزير ابن مقله^(٥)، وهناك إشارات عديدة في المصادر تدل على استخدام السفاتيح، فعندما حاول ابن طولون إقناع

(١) رحال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، ص ١٧٨.

(٢) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٩٦؛ بيطار، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام، ص ٣٤٥.

(٣) المقرئ، المقفى الكبير، ج ١، ص ٤٣٠.

(٤) مسكوية، تجارب الأمم، ج ١، ص ١٤٦.

(٥) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج ١، ص ١٨٣؛ كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ١٩٥.

الخليفة المعتمد أن يقصد مصر أنفذ إليه رسولاً مع كتاب يدعو إلى مصر، مع سفتجة بمئة ألف دينار^(١)، وروى المقرئ بن الحسين بن أحمد الماذرائي المعروف بأبي زنبور والي خراج مصر والشام، عندما طوب من الحضرة بالحساب لأربع سنين أرسل الكاتب إسحاق بن إبراهيم بن قلات (بعد ٣٠٠هـ/٩١٢م) ليقوم بإخراج الحساب، وزوده برقعة فيها عشرة آلاف دينار، وكتب له على دمشق بخمسة آلاف دينار، وإلى بغداد بعشرة آلاف دينار، وقال له: "إن احتجت إلى شيء آخر فخذ من فلان، واكتب له سفاتج علي"^(٢)، وروت بعض المصادر أن أحد الماذرائيين خسر ضمانه في العصر الإخشيدى، فاضطر للتخفي في دمشق عند أحد أصدقائه، ثم لجأ إلى دير، فاستمر متخفياً حتى أرسل إليه صديقه الدمشقي سفاتج، فردّها الماذرائي مع درج رقعة منه إلى صديقه، فلما كان بعد يومين أرسل إليه ألفي دينار، فكان ذلك بداية لحل مشكلاته^(٣).

٧- المكايل والأوزان:

لم تكن المكايل والموازين موحدة في جند دمشق، حيث اختصت بعض مدنه بمكايل وأوزان خاصة بها، ففي دمشق كان المكيال الرئيس الغرارة وهي مكيال للحنطة تعادل اثني عشر كيلاً، وكل كيل ستة أمداد، وبذلك

(١) البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٨٠-٢٨١.

(٢) المقفي الكبير، المقفي الكبير، ج ٢، ص ٥٠.

(٣) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٦٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٨، ص ٢٥٧-٢٦٢.

تكون الغرارة ٧٢ مداً^(١)، أما مكاييل صور فكانت القفيز والكيلجة^(٢)، أما القفيز فيساوي نحو ٢٤ صاعاً أي نحو ١٠٠ لتر^(٣)، في حين أن كيلجة صور كانت تعادل صاعاً، وسعة الصاع ٤,٢ لتر^(٤).

واختصت عمّان بمكاييل خاصة بها هي: القفيز: ويعادل نصف كيلجة، وبه كانوا يبيعون الزبيب والتين المجفف، المدى: ويعادل ست كيلج، وسعة كل كيلجة صاع ونصف، أي نحو ٦,٣ لتر، وبذلك تكون سعة المدى تسع صاعات أي نحو ٣٧,٨ لتر^(٥).

أما بالنسبة للأوزان، فوحدة الوزن الرئيسية كانت الرطل، وأجزاؤه الأوقية والدرهم، فهو يعادل اثني عشر أوقية، والأوقية خمسون درهماً،

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٦؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٧؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص ٨١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨٨؛ المد الشريفي في فجر الإسلام كان يساوي ربع صاع؛ هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٧٤.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٦.

(٣) ذكر المقدسي أن قفيز صور مدى إيليا، أما مدى إيليا فيساوي ثلثي القفيز، فإذا كان القفيز يعادل ١٥١,٤ لتر، فإن مدى إيليا يساوي حوالي ١٠٠ لتر، وهذا يعني أن قفيز صور الذي يساوي مدى إيليا يعادل حوالي ١٠٠ لتر؛ أحسن التقاسيم، ص ١٥٦؛ هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٦٨، ٧٥.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٦؛ هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٦٨، ٦٣.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٦؛ هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٧٢، ٧٥.

وبذلك يكون الرطل ستمئة درهم^(١)، أما أضعاف الرطل فتتمثل في القنطار، ويعادل مئة رطل^(٢).

أما الأوزان بالنسبة للعملة، فالأساس فيها حبة الشعير الواحدة، فكل ثلاث شعيرات ونصف الشعيرة تشكل قيراطاً، وكل عشر حبات تشكل دانقاً، وكل ستين حبة تشكل درهماً، أما الدينار فكان يساوي أربعة وعشرين قيراطاً^(٣).

هكذا تبين أن التجارة عانت من صعوبات وعقبات متعددة كانعدام الأمن، وانتشار اللصوص وقطاع الطرق وغيرها، ورغم ذلك فإن شهرة جند دمشق بمنتجاته الزراعية والحرفية وأهمية موقعه للتجارة العالمية جعلت تجارته تحافظ على أهميتها ونشاطها، وزاد في ذلك الحج إلى الأماكن المقدسة، ووجود شبكة واسعة من الطرق التي ربطت بين مدن جند دمشق، كما ربطت بينها وبين مدن أجناد الشام الأخرى، وكانت هذه الطرق تؤدي إلى العراق والهند والصين، وإلى شبه الجزيرة العربية، ومصر وشمال إفريقيا والأندلس، وأسهم في ازدهار النشاط التجاري أيضاً وجود منشآت لاستقبال التجار والمسافرين، ووجود محطات ومنازل على طرق التجارة.

وكانت التجارة الداخلية نشيطة، وتركزت في أسواق المدن الدائمة والأسبوعية، وفي الأسواق الموسمية التي أقيمت في المدن والمراكز التي تمر

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٦؛ الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٦؛ ابن فضل الله

العمرى، مسالك الأبصار، ص ٨١؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨٨.

(٢) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٥.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٦.

ففيها طرق القوافل التجارية، وكانت هذه الأسواق تحت رقابة المحتسب الذي راقب كل ما يجري فيها من تجارات وحرف، وقد تأثرت الأسعار في هذه الأسواق بظروف متعددة أدت إلى ارتفاع الأسعار، وانتشار الغلاء مما كان له الأثر السيئ على أوضاع السكان، وأحوالهم المعيشية. وكذلك كانت التجارة الخارجية نشيطة إذ كانت حركة التبادل التجاري مع المناطق المجاورة والبعيدة مزدهرة، أما وسائل التعامل التجاري فكانت متعددة، وكذلك المكاييل والأوزان المستخدمة.



الهيئة العامة السورية للكتاب



الهيئة العامة
السنورية للكتاب

الفصل الرابع الحياة الفكرية في جند دمشق

أ - العوامل المؤثرة في الحياة الفكرية.

ب - التعليم:

١ - مراكز التعليم: أولاً - الكتاتيب.

ثانياً - المساجد والجوامع.

ثالثاً - المكتبات.

رابعاً - مراكز آخر للتعليم.

٢ - تعليم المرأة.

٣ - طرائق التعليم.

٤ - العلاقة بين أهل العلم.

٥ - آداب العالم والمتعلم.

٦ - مكانة العلماء الاجتماعية وأوضاعهم المادية.

ج - العلوم: ١ - العلوم النقلية:

أولاً - القراءات.

ثانياً - الحديث.

ثالثاً - التفسير.

رابعاً - الفقه.

خامساً - النحو.

سادساً - الشعر.

٢ - العلوم العقلية:

أولاً - الترجمة.

ثانياً - الطب.

ثالثاً - الفلسفة.

رابعاً - التاريخ.



الهيئة العامة السورية للكتاب

الحياة الفكرية في جند دمشق

تُعدّ الحياة الفكرية أرقى ظواهر المجتمع وجوانبه، فهي الوجه الأكثر تعبيراً عن حياة الشعوب والمجتمعات، ومن المعروف أن الإسلام أذكى حب المعرفة في نفوس العرب، ودفعهم دفعاً قوياً إلى العلم والتعلم، فأقبلوا على ترجمة ثقافات الحضارات الأخرى ودراستها، فلم يمضِ القرن الأول الهجري حتى شهد العالم الإسلامي نهضة علمية كبيرة في جميع الميادين.

أ - العوامل المؤثرة في الحياة الفكرية:

شهد جند دمشق منذ مطلع العصر الإسلامي نهضة فكرية كبيرة، وقد آتت هذه النهضة ثمارها في مطلع القرن الثاني الهجري، غير أن هذه النهضة انكسبت مع سقوط الخلافة الأموية وسيطرة العباسيين على دمشق^(١)، ولكن ذلك لم يمنع جند دمشق من أن يشهد بعض الازدهار الثقافي والعلمي خلال المدّة من القرن الثاني الهجري حتى النصف الأول من القرن الرابع الهجري، وقد أسهم في هذا الازدهار عوامل متعددة، منها:

(١) أشارت إلى هذا الوضع الدراسة الإحصائية لعلماء جند دمشق في القرون الثلاثة الأولى للهجرة التي أعدتها الدكتورة ملكة أبيض استناداً إلى تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، فذكرت أن عدد علماء جند دمشق في القرن الأول الهجري بلغ /٢٩٥/، وارتفع عددهم في القرن الثاني الهجري إلى /٦٨٦/، أما في القرن الثالث فانخفض عددهم إلى /٤٥٦/؛ التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ٣٨٩، ٣٩٣.

١ - دور الولاة والأمراء في رعاية رجال الفكر والأدب:

كان بعض الولاة والأمراء الذين تولوا في جند دمشق من رجال العلم والأدب، فاهتموا بخلق جو أدبي، وعملوا على تكريم العلماء والأدباء ورعايتهم، فكان لذلك أكبر الأثر في تنشيط الحركة الثقافية والعلمية، ومن الذين أسهموا في ذلك:

- إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة الهاشمي (ت، ٢٢٤هـ / ٨٣٨م): تولى جند دمشق في عهد الرشيد، كان شاعراً وعالمًا بالموسيقا والغناء والإيقاعات^(١)، فعقد مجالس للغناء والطرب، وفيها غنى المغني المشهور فليج بن العوراء المكي^(٢).

- عبد الله بن طاهر بن الحسين (ت، ٢٣٠هـ / ٨٤٤م): ولاة المأمون الشام ومصر، وكلفه محاربة نصر بن سبث العقيلي، وقد كان يتمتع بثقافة عربية إسلامية راقية، فقدم خدمات جلى للثقافة في الشام، فحظي بتقدير العلماء والأدباء^(٣)، فعندما كان بالرقعة كان يجود على طلبة الحديث بعطاء كبير لتأمين مصروفهم، وقد اجتمع حوله عدد من شعراء الشام،

(١) الأصفهاني، الأغاني، مج ١٠، ص ٧٢؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧، ص ١٦٤-١٦٥.
(٢) فليج بن العوراء المكي: من المغنين المجيدين من أهل مكة، كان مختصاً بالرشيد، فلما كبر في السن، وقلَّ ضبطه للإيقاع والأهازيج بعث به الرشيد إلى إبراهيم بن المهدي في دمشق، فأقام عنده مدة ثلاث سنين، فانتشرت بعض أغانيه في دمشق، وأخذت عنه الجواري كل ما كان معه من الغناء؛ الأصفهاني، الأغاني، مج ٤، ص ٣٦٦-٣٦٧؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٨، ص ٤٥٦.

(٣) الشابشتي، الديارات، ص ١٣٣، ١٣٦-١٣٧؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٩، ص ٢١٧.

وسافر بعضهم معه إلى دمشق فمصر، ومنهم العلاء بن عاصم الغساني^(١)،
وبطين الشاعر الحمصي^(٢).

- القاسم بن عيسى بن إدريس أبو دلف العجلي (ت، ٢٢٥هـ / ٨٣٩م):
والي دمشق في أيام المعتصم، كان من الأجواد الممدوحين، وكان شجاعاً
سخياً وشاعراً محسناً، صنف عدة مصنفات منها: كتاب "البيزة والصيد"،
و"كتاب السلاح"، و"كتاب النزاهة"، وكتاب "سياسة الملوك"، وقد مدحه
الشعراء الكبار، ومنهم أبو تمام^(٣).

- مالك بن طوق التغلبي (ت، ٢٦٠هـ / ٨٧٣م): والي دمشق
والأردن في أيام الواثق والمتوكل، كان من أجواد العرب وممدوحهم،
اتصف بالكرم وإغداق الصلات على الأدباء والشعراء، فكان من الشعراء
الذين مدحوه الشاعر أبو تمام^(٤).

- أحمد بن محمد بن عبد الله أبو الحسن بن المدبر الكاتب (ت، ٢٧٠هـ
/ ٨٨٣م): والي خراج جندي دمشق والأردن في عهد المتوكل والمعتمد^(٥)،
وقد تمتع بمستوى ثقافي عالٍ، إذ كان كاتباً ماهراً وأديباً شاعراً، وصنف
كتاباً بعنوان "المجالسة والمذاكرة"^(٦)، كما اشتهر بتشجيع أعمال الترجمة،

(١) أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ١٩٢.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٨، ص ٥٤.

(٣) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٦، ص ٤٦٠ - ٤٦١.

(٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٤٩٠، ٥٠٩.

(٦) النديم، محمد بن إسحاق (ت، بعد ٣٨٥هـ / ٩٩٥م)، الفهرست، تحقيق: شعبان خليفة،

وليد محمد العوزة، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩١م، مج ١، ص ٢٢٤.

فصرف كثير من ماله في هذا الميدان^(١)، كما عرف عنه إجزال العطاء للشعراء والأدباء، ومن طريف ما يُروى عنه أنه إذا مدحه شاعر فأجاد منحه جوائز كبيرة، أما إذا مدحه شاعر ولم يرض شعره، أمر غلمانه أن يمضوا به إلى المسجد الجامع فلا يفارقونه حتى يصلي مئة ركعة، فتحاماه الشعراء إلا المجيدين منهم، ومن الذين مدحوه البحتري^(٢)، والشاعر الحسين بن عبد السلام المصري الملقب بالجمل (ت، ٢٥٨هـ/١٨٧١م)^(٣)، كما مدحه الشاعر عبد السلام بن رغبان الحمصي المعروف بديك الجن (ت، ٢٣٥هـ/١٨٤٩م)^(٤).

- واشتهر أحمد بن طولون برعاية العلماء والفقهاء، فكان يجري ألف دينار على أهل المساجد، كما كان يرسل مبالغ مالية ضخمة إلى بغداد لتوزع على العلماء والصالحين^(٥)، وقد رافقه في زيارته إلى الشام بعض رجال العلم والأدب ومنهم: محمد بن إبراهيم الإسكندراني الفقيه المالكي المعروف بابن المواز (ت، ٢٦٩هـ/١٨٨٢م)^(٦)، وبكار بن قتيبة قاضي مصر (ت، ٢٧٠هـ/١٨٨٣م)^(٧)، والشاعر منصف بن خليفة الهذلي^(٨).

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٨٤.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٢، ص ١٩؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥، ص ٣٩٠ - ٣٩٢.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٤، ص ٩٥.

(٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٦، ص ٢٠١.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ١٢، ص ٢٣٣.

(٦) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥١، ص ١٩٧.

(٧) المقرئ، المقفى الكبير، ج ٢، ص ٤٤٢.

(٨) الكندي، كتاب ولاية مصر، ص ١٧٧؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٠، ص ٣٠٣.

- وعرف عن حُمارويه بن أحمد بن طولون قضاء أوقات طويلة في دمشق، وفيها كان يقيم مجالس غناء وطرب، ويجزل العطاء لمن يمدحه^(١)، ومن الشعراء الذين مدحوه الشاعر البحري^(٢)، وإبراهيم بن النائحة الدمشقي^(٣).

واهتم الأمراء الإخشيديون بتشجيع العلم ورعاية العلماء وتقريبهم، فكانت طوائف العلماء تلتقي في مجالسهم ومجالس علية القوم^(٤)، وعرف عن بعضهم إجزال العطاء للأدباء وتقديم الجوائز لهم، ومنهم على سبيل المثال الحسن بن عبيد الله بن طُغج (ت، ٣٦١هـ/٩٧١م)، الذي مدحه المتنبّي، فأثابه بمئة دينار^(٥).

وفي السياق نفسه لا بد من الحديث عن سيف الدولة الحمداني (ت، ٣٥٦هـ/٩٦٦م)، الذي كان من رجال الأدب والعلم، واشتهر بالفصاحة ورجاحة الفكر، واحتضن رجال الأدب والفكر في مجالسه، فقيل إنه لم يجتمع بباب أمير أو والٍ بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه، وقد عرف عنه ضرب دنائير للصلوات في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته، فكان يمنحها رجال العلم والأدب في مجالسه^(٦)، ورغم أن حكمه لجند دمشق لم يدم إلا مدة قصيرة، فإن مجالسه العلمية والأدبية فيه شغلت

(١) ابن عساکر، م.ن، ج ١٧، ص ٤٥-٤٧.

(٢) ابن عساکر، م.ن، ج ٦٣، ص ١٨٨؛ ابن سعيد، المغرب في حُلّ المغرب، ج ١، ص ١٣٧.

(٣) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ٣١٢.

(٤) كاشف، مصر في عصر الإخشيديين، ص ٣٠٣.

(٥) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٢، ص ٦٦٢.

(٦) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ١، ص ٣٢.

دوراً كبيراً في تنشيط الحركة الثقافية والعلمية، ففي إحدى هذه المجالس استقبل الفيلسوف الفارابي، فكرّمه وفرض له العطاء^(١).

٢ - زيارات الخلفاء العباسيين:

شغلت زيارات بعض الخلفاء لجند دمشق دوراً مؤثراً في تنشيط الحركة الثقافية والعلمية، وذلك من خلال المجالس والندوات التي عقدها فيه، ومن خلال رجال العلم والفكر الذين رافقوهم في هذه الزيارات، ومن ذلك: زيارة الخليفة المهدي دمشقي في سنة ١٦٣هـ / ٧٧٩م، واجتماعه بالمحدثين فيها، وروايته الحديث لهم عن أبيه عن جده... عن جد الأسرة العباسية عبد الله بن عباس^(٢).

وجاء الخليفة المأمون إلى دمشق في سنتي ٢١٥هـ / ٨٣٠م، و٢١٨هـ / ٨٣٣م، فعقد فيها مجالس للغناء والأدب^(٣)، وعمل على إقامة مرصد فلكي على جبل قاسيون بهدف رصد الكواكب والتحقق من القياسات التي أجريت سابقاً في بغداد وغيرها^(٤)، وتكوين جداول فلكية مضبوطة، ومن أجل ذلك رافقه بعض العلماء الفلكيين البارعين في صناعة النجوم، وتسيير الكواكب، وحساب الفلك، وصنع آلات الرصد وإصلاحها، ومنهم: خالد بن عبد الملك المروزي، ويحيى بن أبي منصور، والعباس بن سعيد الجوهري،

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٥، ص ١٥٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٣١ -

٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٥٠هـ، ص ١٨١ - ١٨٢.

(٢) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٤١١ - ٤١٢.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٦٢٤ - ٦٢٥، ٦٥٧.

(٤) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١٣٧.

وسند بن علي^(١)، وعلي بن عيسى الإصطرابي، ويبدو أن أبناء موسى بن شاكر^(٢) كانوا برفقته، فقد دخل أحدهم وهو حسن بن موسى الرياضي في نقاش حاد مع أحد زملائه بشأن هندسة إقليدس، وهذا كان في دمشق وبحضور الخليفة، كما انضم آخر منهم، وهو محمد بن موسى إلى جماعة الفلكيين التي كلفت قياس محيط الأرض في تدمر^(٣)، ومن رجال العلم والأدب الذين رافقوا المأمون في زيارته:

- يحيى بن أكثم التميمي المروزي (ت، ٢٤٢ أو ٢٤٣هـ/٨٥٦ أو ٨٥٧م): قاضي قضااته، وهو من أئمة العلم، كان عالماً بالفقه، وكثير الأدب، وله "كتاب التنبيه"، وقد جلس في مسجد دمشق، فأجرى مناظرات ومذاكرات في الحديث والفقه مع علماء دمشق^(٤)، كما استدعى أحد أعلام الزهاد إليه وهو

(١) القفطي، علي بن يوسف (ت، ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م)، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، مكتبة المتنبّي، (د.ت)، ص ١٤٠، ١٤٨، ١٦٢، ١٨٥، ٢٣٤؛ البيروني، الآثار الباقية، ص ١٢٩.

(٢) بنو موسى بن شاكر، وهم: محمد وأحمد والحسن، برزوا في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ولا يعرفون إلا ببني موسى، أما أولادهم من بعدهم فعرفوا ببني المنجم، وقد كان أبوهم صديقاً للمأمون، وتوفي وهم أطفالاً فتولى المأمون رعايتهم وعهد بتربيتهم إلى كبار العلماء في بيت الحكمة، فنشأوا نشأة علمية ملمين بعلوم مختلفة، ثم برزوا مترجمين كبار، ورحلوا في طلب المخطوطات، وأحضروا المترجمين ودفَعوا لهم الأجور السخية وأشهر ما ينسب إليهم الكتاب المعروف بحيل بني موسى؛ القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، بغداد، مكتبة المثنى، (د.ت)، ص ٤٤١ - ٤٤٢.

(٣) أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ١٩٥.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٤، ص ٦٢ - ٦٦.

أحمد بن أبي الحواري، فمنحه مبلغاً كبيراً من المال، وقدم له الرداء الرسمي العباسي الذي يشتمل على الطيلسان والقلنسوة^(١).

- إبراهيم بن يحيى بن المبارك المعروف باليزيدي: وهو شاعر وأديب، نادم الخلفاء، وقدم دمشق بصحبة المأمون والمعتصم، وله من المصنفات: كتاب "ما اتفق لفظه واختلف معناه"، وكتاب "مصادر القرآن"، وكتاب في "بناء الكعبة وأخبارها"^(٢).

- عمرو بن مسعدة الصولي (ت، ٢١٧هـ / ٨٣٢م): وهو كاتب وشاعر ومحدث^(٣).

- إسحاق بن إبراهيم الموصلبي (ت، ٢٣٥هـ / ٨٤٩م): كان بارعاً في الغناء وجيداً في الشعر^(٤).

- محمد بن علي بن أمية بن عمرو الشاعر الملقب بأبي حشيشة: وهو أديب ومغنٍ^(٥).

وعندما جاء المعتصم إلى دمشق كان في صحبته من رجال الفكر والأدب: أحمد بن أبي دؤاد الإيادي (ت، ٢٤٠هـ / ٨٥٤م): وهو من أتباع الاعتزال، وقد عرف عنه سعة معارفه وقول الشعر، وقد تولى القضاء للمعتصم والوائق، فكان في أيامهما يمتحن العلماء بشأن مسألة خلق

(١) ابن عساكر، م.ن، ج ٤٩، ص ١٢٠.

(٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٧، ص ٢٧٢ - ٢٧٥.

(٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٤٦، ص ٣٥٢ - ٣٥٣.

(٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٨، ص ١٤٢.

(٥) ابن عساكر، م.ن، ج ٥٤، ص ٢٤٩.

القرآن^(١)، كما كان برفقته (أي المعتصم) وزيره محمد بن عبد الملك الزيات (ت، ٢٣٣هـ / ٨٤٧م): وهو من رجال الأدب واللغة والنحو^(٢).

وعندما قرر المتوكل اتخاذ دمشق عاصمة له، وانتقل إليها في سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م، كان في صحبته من رجال العلم والأدب:

- الفتح بن خاقان التركي (ت، ٢٤٧هـ / ٨٦١م): وزير المتوكل، كان شاعراً فصيحاً، وموصوفاً بالجود والكرم، وله من المصنفات كتاب "البستان"، وكتاب "الصيد والجوارح"، وقد ولاه المتوكل على دمشق بعد رحيله عنها، فاستخلف عليها كليتاكين التركي^(٣).

- يعقوب بن إسحاق السكيت (ت، ٢٤٤ / ٨٥٨م): وهو عالم نحوي، كان يؤدب أولاد الخليفة، وله من المصنفات كتاب "إصلاح المنطق"، وكتاب "الألفاظ"، وكتاب "في معاني الشعر"، وكتاب "القلب والإبدال"^(٤).

- شعيب بن سهل الرازي المعروف بشعبيوه (ت، ٢٤٦هـ / ٨٦٠م): وهو فقيه من أتباع الجهمية، وكان يصلي بالناس في مسجد الرصافة أيام الجمع والأعياد^(٥).

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٤، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٤، ص ١٣٣.

(٣) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٣٦ - ٢٤٠؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٧٨.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٤، ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٥) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٣٢٢.

- داوود بن محمد بن الجراح: كاتب مشهور كان على المظالم في عهد المتوكل^(١).

- محمد بن موسى المنجم الفلكي (ت، ٢٥٩هـ / ٨٧٢م)^(٢).

- علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم (ت، ٢٧٥هـ / ٨٨٨م): وهو شاعر ومغن وراويّة للأخبار والأشعار، نادم المتوكل والخلفاء بعده إلى أيام المعتمد^(٣).

- محمد بن الفضل الجرجاني الوزير (ت، ٢٥٠هـ / ٨٦٤م): أديب وشاعر، كان المتوكل قد استوزره ثم عزله عن الوزارة، وصيّر مكانه عبيد الله بن يحيى بن خاقان^(٤).

وكان برفقة المتوكل من الشعراء الوليد بن عبيد الطائي الشاعر البحري (ت، ٢٨٣هـ / ٨٩٦م)^(٥)، والشاعر أبو بقية وهو من سامراء، كتب قصيدة يصف فيها الطريق من سامراء إلى دمشق^(٦).

٣- الغنى الاقتصادي:

كان الغنى الاقتصادي في جند دمشق عاملاً مهماً في تنشيط الحركة العلمية والثقافية، فقد تقدمت الإشارة إلى غناه بالمنتجات الزراعية

(١) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٧، ص ٣٤٦٤.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٦، ص ٨٢.

(٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٤٣، ص ٢٧٣.

(٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٥٥، ص ٩٤.

(٥) ابن عساكر، م.ن، ج ٦٣، ص ١٨٨.

(٦) ابن عساكر، م.ن، ج ٦٦، ص ١٨.

والصناعية^(١)، وأهم هذه المنتجات بالنسبة للحياة الثقافية كانت صناعة الورق التي كانت متقدمة، ما أدى إلى نشاط حركة التأليف والترجمة وكل الأعمال الكتابية والعمليات الملحقة بها مثل التجليد، وصناعة الأقلام والمداد، فانتشرت أسواق الوراق والوراقين لتأمين هذه الأعمال ورفد المتعلمين بما يحتاجون إليه من مادة علمية^(٢)، فكان طلاب العلم يغدون إلى هذه الأسواق لشراء الكتب^(٣)، أو لقراءة ما يريدون من الكتب الموجودة فيها لقاء أجر بسيط يدفعونه لصاحبها^(٤).

كما أن أهمية جند دمشق التجارية، والحركة التجارية النشيطة في أسواقه الغنية أسهمت في ازدهار الحركة الثقافية، ولم يقتصر دور هذه الأسواق على النشاط الاقتصادي، بل تعداه إلى النشاط الثقافي والعلمي، إذ تخرج منها بعض العلماء والشعراء، فالشاعر الوأواء الدمشقي (ت، ٣٧٠هـ/٩٨٠م)، كان يعمل في بدايته منادياً في سوق الفاكهة بدمشق، ومنه تخرَّج، فصار أحد أعلام الشعراء البارزين في القرن الرابع الهجري^(٥).

(١) انظر: الفصل الثالث.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٣٩؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، مج ١، ص ٣١٢.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٩، ص ٢٨٥؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ١٩٩.

(٤) ضيف، العصر العباسي الأول، ص ١٠٤.

(٥) الوأواء الدمشقي، محمد بن أحمد الغساني (ت، ٣٧٠هـ/٩٨٠م)، ديوان الوأواء الدمشقي، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهرسه: سامي الدهان، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م، (المقدمة)، ص ٩-١٠.

٤ - الرحلة في طلب العلم:

عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً بعنوان "في أن الرحلة في طلب العلوم، ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم"، أشار فيه إلى أن الرحلة تفيد كثرة الشيوخ، وعلى قدر كثرتهم يكون حصول الملكات ورسوخها، إذ يتيح تعدد المشايخ للطلبة الاطلاع على طرائق متعددة في التعليم، وتصحيح معارفهم وتمييزها عن سواها، وتقوية ملكاتهم العقلية والذهنية بالمباشرة والتلقين؛ لذلك لا بد من الرحلة في طلب العلم والمعرفة للظفر بالفوائد والكمال، ويكون هذا بلقاء العلماء والشيوخ والأخذ عنهم^(١).

تعد الرحلة في طلب العلم من أهم السمات البارزة للثقافة العربية الإسلامية، إذ يلحظ من يطالع على كتب التراجم والطبقات إشادة المؤرخين برحلات من يترجمون لهم من العلماء والأدباء في سبيل تحصيل العلوم ولقاء العلماء.

لقد كان المحدثون من أنشط الذين رحلوا في طلب العلم، إذ كان في كل مصر من الأمصار أحاديث يرويها محدثون لا تعرف في الأمصار الأخرى، ويعود هذا إلى انتشار الصحابة في أعقاب الفتوحات الإسلامية في أمصار مختلفة، لذلك جدّ المحدثون في الرحلة لسماع الأحاديث من أهلها، وجمع ما تفرق منها^(٢)، ولكن بعد جمع الحديث - في القرون الثلاثة الأولى للهجرة - صار المحدثون يشدون الرحال لتلقي الحديث من أعلام رواته، وللحصول على أسانيد عالية، ولعقد مجالس مذاكرة مع كبار الشيوخ^(٣).

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٥٥٩ - ٥٦٠.

(٢) أمين، ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٧٠ - ٧١.

(٣) أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٦٦.

هكذا فقد كان طلاب الحديث يتركون بلدانهم بعد تحصيل ما لدى علمائهم، متوجهين إلى مراكز العلم المنتشرة في العالم الإسلامي، غير مبالين بالمشاق والصعوبات والأخطار التي قد تعترضهم، خاصة مع ظروف الحياة وطبيعتها آنذاك، فكان الواحد منهم يقطع المسافات الطويلة لسماع حديث واحد أو للأخذ عن شيخ وغير ذلك، وقد شجع على هذه الرحلات العلمية الاعتقاد الذي تغلغل في النفوس بأن طلب العلم جهاد، ومن مات في سبيله مات شهيداً^(١)، ومن العوامل التي ساعدت على نجاح الرحلات العلمية أداء فريضة الحج إذ كان الشيوخ والطلبة حريصين على أداء هذه الفريضة مرات عديدة، مما أتاح لهم التعليم والتعلم وذلك عندما يتم اللقاء بين الحجاج، وأسهم في نجاح الرحلات العلمية أيضاً استخدام اللغة العربية وسيلة للتعليم في جميع بقاع العالم الإسلامي، إذ كانت لغة العلوم كلّها، وهذا أتاح الفرصة لمن يرحل في طلب العلم أن يدرس أينما ذهب في أنحاء العالم الإسلامي بصرف النظر عن لغة أهل البلد التي يزورها^(٢).

ولم تقتصر الرحلات العلمية على طلاب الحديث أو العلوم الدينية، بل شملت جميع العلوم والمعارف، فالأدباء تنقلوا بين أمصار إسلامية مختلفة للأخذ عن أدبائها، ورحل طلاب الطب والفلسفة وغيرها من العلوم العقلية إلى القسطنطينية وغيرها للحصول على الكتب اليونانية وترجمتها^(٣).

(١) أمين، ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٧٢.

(٢) أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٦٥، ٦٨؛ طوطح، التربية عند العرب، ص ٨١-٨٤.

(٣) أمين، ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٧٠.

كان شيوخ جند دمشق من بين من رحلوا في طلب العلم مستسهلين مشاق السفر وأخطاره، ليعودوا بعد ذلك إلى بلدهم حاملين معهم حصيلة علمهم، فيلقوه في دروسهم، ويضعوه في مصنفاتهم القيّمة، ومثال ذلك الرحلات التي قام بها كلُّ من عبد الرحمن بن عمرو والأوزاعي، وعبد الرحمن بن عمرو أبو زُرعة الدمشقي، وخيثمة بن سليمان بن حيدرة الأطرابلسي^(١) وغيرهم، وقد تحدث خيثمة عن بعض الأخطار التي واجهته في رحلاته، فذكر أنه بينما كان يبحر من جبلة إلى أنطاكية دَهَمَ المركب الذي يقوله قراصنة الروم البيزنطيين، فوقع في يدهم أسيراً، فبقي في الأسر مدة أربعة أشهر، ثم أفرج عنه، فعاد إلى طرابلس^(٢).

وعرف عن بعض العلماء انتهاز فرصة الحج لالتقاء علماء الأمصار الأخرى، والاستفادة من علمهم، ومن ذلك اجتماعات الأوزاعي عندما كان يحج، ففي مرة اجتمع مع الإمام مالك في المدينة، فتناظر بالحديث والفقهِ والمغازي من الظهر إلى العصر، وفي مرة أخرى اجتمع مع سفيان الثوري في بيت الإمام مالك، وفي مرة ثالثة اجتمع مع سفيان الثوري والإمام أبي حنيفة في بيت الإمام مالك أيضاً^(٣).

وانتهز بعض العلماء فرصة الحج للاجتماع بالحجاج القادمين من أمصار مختلفة، وإلقاء الدروس عليهم، كما هو الحال مع الوليد بن مسلم

(١) انظر ما كتب عنهم في الحديث أو الفقه من هذا الفصل.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٧، ص ٧٠ - ٧١.

(٣) ابن عساكر، م. ن، ج ٣٥، ص ١٦٦ - ١٦٧، ١٦٩.

القرشي (ت، ١٩٥هـ/٨١٠م)، فقيه الشام ومحدثها بعد الأوزاعي، وكان قد تبوأ مكانة علمية رفيعة، فقصده الطلاب من مختلف الأمصار الإسلامية للسمع منه، وعندما يحج كان يغتنم بعض الحجاج الفرصة للسمع منه والإفادة من علمه، فكانوا يسألونه عن أنواع عديدة من العلم، فكان يحدثهم بالأحاديث الطويلة والملاحم، وفي مرة أثناء الحج اجتمع أصحاب الحديث، فجعل يحدثهم، غير أن الجمع كان كبيراً، ولم يكن صوته يصل إلى آخر الحضور، مما دفع بعضهم لإثارة الضجة مطالباً إياه برفع صوته، فتركهم الوليد بن مسلم ومضى^(١).

وانتهز بعض الطلبة فرصة الحج للالتقاء بالعلماء والأخذ عنهم، ومثال ذلك هشام بن عمار، وقد حجَّ في صباه، فعرَّج على مجلس الإمام مالك في المدينة، وسأله عن مسائل كانت معه، وعن ذلك قال هشام بن عمار: "باع أبي عمار بيتاً له بعشرين ديناراً، وجهَّزني للحج، فلما صرت إلى المدينة أتيت مجلس مالك بن أنس، ومعني مسائل أريد أن أسأله عنها، فأتيته وهو جالس في هيئة الملوك، وغللمان قيام، والناس يسألونه، وهو يجيبهم، فلما انقضى المجلس قال لي بعض أصحاب الحديث، سل عما معك، فقلت له: يا أبا عبد الله، ما تقول في كذا وكذا؟ فقال: حصلنا على الصبيان، يا غلام، احمله، فحملني كما يحمل الصبي وأنا يومئذ غلام مدرك، فضر بني بدرة مثل درة المعلمين سبع عشرة درة، فوقفك أبكي، فقال لي مالك: ما يبكيك؟ أوجعتك هذه، قلت: إن أبي باع منزله، ووجه بي أتشرف بك وبالسمع

(١) ابن عساكر، م. ن، ج ٦٣، ص ٢٩٠.

منك، فضررتني؟ فقال: اكتب، فحدثني سبعة عشر حديثاً، وسألته عما كان معي من المسائل فأجابني^(١).

وانتقل بعض العلماء من جند دمشق إلى أمصار أخرى، فتصدوا للتعليم فيها، ومن هؤلاء: ضمرة بن ربيعة القرشي الدمشقي (ت، ٢٠٢ هـ/٨١٧م)، وقد غادر دمشق إلى الرملة، فحدث فيها عن أستاذه الأوزاعي، وعن أعلام المحدثين الدمشقيين أمثال سعيد بن عبد العزيز، والوليد بن مسلم وغيرهما^(٢)، وانتقل عبد الله بن يوسف الدمشقي (ت، ٢١٨ هـ/٨٣٣م)، إلى تنيس من قرى مصر، فعرف بالتَّيْسِيّ، وحدث فيها عن سعيد بن عبد العزيز، ويحيى بن حمزة وغيرهما^(٣)، وغادر دمشق محمد بن العباس المري الدمشقي (ت بعد ٢٩٠ هـ/٩٠٢م)، إلى جرجان، فروى الحديث فيها عن هشام بن عمار وغيره من أعلام المحدثين الدمشقيين، فقصدته الطلبة من مختلف مناطق المشرق الإسلامي للسمع منه^(٤).

وقد تبوأ جند دمشق مكانة علمية كبيرة، بحكم نزول عدد كبير من الصحابة فيه، فتجمع فيه علم كثير منذ القرن الأول الهجري، وزاد من هذه المكانة شهرة بعض علمائه وشيوخه، وقد جذبت هذه المكانة كثير من طلاب العلم والعلماء الذين وفدوا من أمصار مختلفة إلى جند دمشق لسماع الشيوخ والأخذ عنهم، ومن الذين وفدوا إليه:

- (١) ابن عساكر، م.ن، ج٧٤، ص٣٣؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١١، ص٤٢٨ - ٤٢٩.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢٥، ص٤٠٤.
- (٣) ابن عساكر، م.ن، ج٣٣، ص٣٩٢؛ ابن عبد الهادي، طبقات علماء الحديث، ج٢، ص٤٠.
- (٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٥٣، ص٣٠٦.

- أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الإمام (ت، ٢٤١هـ/٨٥٥م)، صاحب "المسند الجامع"، وقد سمع من الوليد بن مسلم وأبي مسهر وغيرهما^(١).

- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري (ت، ٢٥٦هـ/٨٦٩م)، صاحب "الصحيح"، و"التاريخ الكبير"، وقد سمع من هشام بن عمار ودحيم^(٢).

- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت، ٢٦١هـ/٨٧٤م)، صاحب "الصحيح" الذي سمع بدمشق، فكان من شيوخه فيها الوليد بن مسلم^(٣).

- محمد بن يزيد بن ماجة القزويني الحافظ (ت، ٢٧٣هـ/٨٨٦م)، صاحب "كتاب السنن"، فسمع من تسعة محدثين دمشقيين أبرزهم هشام بن عمار ودحيم^(٤).

- سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني (ت، ٢٧٥هـ/٨٨٨م)، صاحب "السنن"، فسمع من عدد من المحدثين الدمشقيين^(٥).

- أحمد بن شعيب بن علي النسائي (ت، ٣٠٣هـ/٩١٥م)، صاحب "السنن"^(٦).

- (١) ابن عساكر، م. ن، ج ٥، ص ٢٥٢.
- (٢) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٢، ص ٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ٥٠.
- (٣) ابن عساكر، م. ن، ج ٥٨، ص ٨٥.
- (٤) ابن عساكر، م. ن، ج ٥٦، ص ٢٧٠.
- (٥) ابن عساكر، م. ن، ج ٢٢، ص ١٩١.
- (٦) المقرئ، المقفى الكبير، ج ١، ص ٣٩٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ١، ص ٧٧.

كما زاره أيضاً محمد بن إدريس أبو حاتم الرازي الحافظ (ت، ٢٧٧هـ / ٨٩٠م)، فسمع بدمشق وحدث بها^(١)، وزاره عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي (ت، ٣٢٧هـ / ٩٣٨م)، صاحب "كتاب الجرح والتعديل"^(٢)؛ ومحمد بن حبان التميمي البستي (ت، ٣٥٤هـ / ٩٦٥م)، صاحب "المُسند الصحيح"، و"التاريخ"، و"الضعفاء"^(٣).

وجاءه سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت، ٣٦٠هـ / ٩٧٠م)، صاحب "المعجم الكبير في أسماء الصحابة"، و"الأوسط في غرائب الشيوخ"، و"الصغير في أسماء شيوخه"^(٤)، وجاء جند دمشق محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مندة العبدي الحافظ الأصبهاني (ت، ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) صاحب "التاريخ"، و"الشيوخ"، و"معرفة الصحابة"، فسمع بدمشق من أحمد بن سليمان بن حذلم وغيره، وبطرابلس من خيثمة بن سليمان بن حيدرة، وببيروت من موسى بن عبد الرحمن الصباغ^(٥).

ومن العلماء والأدباء الذين جاؤوا إليه أيضاً: محمد بن عمر المدني المعروف بالواقدي (ت، ٢٠٧هـ / ٨٢٢م)، صاحب "المغازي"^(٦)، والقاسم بن سلام البغدادي (ت، ٢٢٤هـ / ٨٣٨م)، صاحب "كتاب الأموال"^(٧)،

(١) ابن عساکر، تاریخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ٣.

(٢) ابن عساکر، م. ن، ج ٣٥، ص ٣٥٧.

(٣) ابن عساکر، م. ن، ج ٥٢، ص ٢٤٩.

(٤) ابن عساکر، م. ن، ج ٢٢، ص ١٦٣.

(٥) ابن عساکر، م. ن، ج ٥٢، ص ٢٩.

(٦) ابن عساکر، م. ن، ج ٥٤، ص ٤٣٢.

(٧) ابن منظور، مختصر تاریخ دمشق، ج ٢١، ص ١٥؛ الحموي، معجم الأدباء، مج ٦، ص ١٨٩.

ومحمد بن سعد بن منيع كاتب الواقدي (ت، ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، صاحب "الطبقات الكبرى"^(١)، وعمر بن بحر البصري المعروف بالجاحظ (ت، ٢٥٥هـ/٨٦٨م)، صاحب "البيان والتبيين"، و"الحيوان" وغيرها^(٢)، وأحمد بن يحيى بن جابر البغدادي البلاذري (ت، ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، صاحب "أنساب الأشراف"، و"فتوح البلدان"^(٣)، ومحمد بن يزيد البصري النحوي المعروف بالبرّد (ت، ٢٨٥هـ/٨٩٨م)، صاحب "الكامل" و"كتاب الروضة"، و"كتاب معاني القرآن"^(٤)، ومحمد بن جرير الطبري (ت، ٣١٠هـ/٩٢٢م)، صاحب "تاريخ الطبري"^(٥)، وعلي بن الحسين المسعودي (ت، ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، صاحب "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، و"التنبيه والإشراف"، وغيرها من المصنفات^(٦).

ومما تجدر الإشارة إليه أن شهرة بعض علماء جند دمشق أقنعت بعض الشيوخ بالبقاء في بلدهم، والاكتفاء بعلم علمائهم، ومثلاً ذلك أبو مسهر الغساني الذي قال: "ينبغي للرجل أن يقتصر على علم بلده وعلى علم عالمه، فلقد رأيتني أقتصر على سعيد بن عبد العزيز فما افتقر معه إلى أحد"^(٧).

- (١) النديم، الفهرست، مج ١، ص ١٧٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٦٢.
- (٢) ابن عساكر، م. ن، ج ٤٥، ص ٤٣١؛ الإيش، الشهابي، دمشق الشام، ج ١، ص ٥٥.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦، ص ٧٤؛ الإيش، الشهابي، دمشق الشام، ج ١، ص ٧١-٧٢.
- (٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٦، ص ٢٤٦.
- (٥) ابن عساكر، م. ن، ج ٥٢، ص ١٨٨؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٢، ص ١٦٢.
- (٦) الكتبي، فوات الوفيات، مج ٣، ص ١٢-١٣؛ الإيش، الشهابي، دمشق الشام، ج ١، ص ١٦٣-١٦٤.
- (٧) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢١، ص ٢٠٤.

هكذا فإن الرحلة في طلب العلم شغلت دوراً كبيراً في تنشيط الحركة الثقافية والعلمية في جند دمشق، وكان أنشط من قام بهذه الرحلات علماء الحديث الذين رحلوا إلى أمصار إسلامية مختلفة بهدف جمع الحديث وتدقيق أسانيده، ولم تقتصر الرحلات العلمية عليهم، بل قام بها معظم أصحاب العلوم الدينية والأدبية والعقلية.

وقد شغلت مكانة جند دمشق العلمية وأهميته بالنسبة للعلوم دوراً كبيراً في اجتذاب كبار طلاب العلم الذين وفدوا إليه من أمصار بعيدة قاطعين المسافات الطويلة في سبيل التعلّم فيه.

ويضاف إلى ما تقدم النهضة العلمية الكبيرة التي شهدتها الشام منذ مطلع العصر الإسلامي، وتعود تلك النهضة إلى وصول عدد كبير من الصحابة إلى الشام، وقيامهم بنشر العلم، والتفاف التلاميذ حولهم^(١)، كما تعود إلى أن دمشق بصفتها عاصمة الدولة العربية الأولى كانت مركزاً لاستقطاب رجال العلم والأدب مما نشط حركة الكتابة والتأليف والترجمة^(٢)، وأسهم في هذه النهضة

(١) ذكر ابن عساكر أن جيش تحرير الشام كان يضم ألفاً من أصحاب الرسول ﷺ بينهم مئة بدري؛ تاريخ مدينة دمشق، مج ١ (تحقيق: صلاح الدين المنجد)، ص ٥٢٩؛ ومن الصحابة الذين جاؤوا إلى الشام: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٧، ص ١٣٧؛ وزار دمشق وبيروت الصحابي سلمان الفارسي؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦، ص ١٨٨؛ كما زار الشام الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه عدة مرات؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ١٦٧-١٦٩، ج ٤٤، ص ٤.

(٢) كرد علي، خطط الشام، ج ٤، ص ١٧-٢١.

أيضاً جمع القرآن الكريم وتوزيعه على الأمصار في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه^(١).

هكذا فإن عوامل متعددة أسهمت في الازدهار الفكري الذي شهده جند دمشق، وتتمثل في عوامل سياسية واقتصادية وتاريخية ودينية... وغيرها.

ب - التعليم:

من المعروف أن التربية العربية الإسلامية في الشام وغيرها من الأمصار الإسلامية، كانت تهدف إلى نشر الدين الإسلامي، وتعليم الجماعة أحكام الدين، لهذا ركز التعليم أول الأمر على دراسة الأمور الدينية كالقرآن والحديث وما يرتبط بهما^(٢)، وكانت أبواب التعليم مفتوحة على مصراعيها أمام جميع الناس دون تمييز بين غنيهم وفقيرهم^(٣)، وكان الناس يغدون في سبيل طلب العلم إلى مراكز تعليم مختلفة.

١ - مراكز التعليم:

أولاً - الكتاتيب:

تُعدّ الكتاتيب أول مراكز التعليم وجوداً في العالم الإسلامي، واشتق اسمها من التكتيب والكتابة، فالكتّاب هو "موضع تعليم الكتاب" (أي

(١) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ٥٩٠-٥٩١؛ ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، مج ١، (تحقيق: صلاح الدين المنجد)، ص ١٩٠.

(٢) أبيض، ملكة، مؤسسات التربية العربية في الشام حتى أواسط القرن الرابع الهجري، التربية العربية الإسلامية، (المؤسسات والممارسات)، عمّان، مؤسسة آل البيت، ج ١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، ص ١٠٧-١٠٨.

(٣) طوطح، خليل، التربية عند العرب، دمشق، وزارة الثقافة، سلسلة آفاق ثقافية، العدد ١٨/، ٢٠٠٤م، ص ٩١.

الكتابة)، والجمع "كتاتيب ومكاتب"^(١)، وقد شكلت الكتاتيب المرحلة الأولى من نظام التعليم الإسلامي، وكانت أهم مراحلها، إذ كانت الأساس الذي ارتكز عليه البنيان الثقافي والعلمي في الحضارة الإسلامية، ففيها كان يتم تعليم الصبيان وتهيئتهم لمواصلة التعليم أو للانصراف إلى الحياة العملية.

عرفت الجزيرة العربية الكتاتيب منذ ما قبل الإسلام، إلا أنها كانت قليلة الانتشار^(٢)، كما عرفت الشام الكتاتيب منذ ما قبل الإسلام أيضاً، وكانت هذه الكتاتيب أشبه بمدارس ابتدائية، وانتشرت في المدن والقرى وكانت تتبع الكنائس والأديرة^(٣).

وبعد الإسلام أولى العرب الكتاتيب عناية كبيرة لدورها في تعليم القراءة والكتابة ولقيام ارتباط وثيق بين تعلّم القراءة والكتابة وتعلّم القرآن الكريم، وقد استفاد العرب المسلمون من الكتاتيب التي كانت موجودة عند أهل الديانات الأخرى، واقتدوا في ذلك بما فعله الرسول ﷺ عندما جعل فداء القارئ من أسرى معركة بدر تعليم القراءة والكتابة لعشرة من أبناء المسلمين^(٤)، وطبق المسلمون النهج نفسه عقب فتح قيسارية على ساحل فلسطين في سنة ١٩هـ/٦٤٠م، إذ نقلوا أسراها إلى معسكر المسلمين، وكلفوهم تعليم أولادهم في الكتاب^(٥).

- (١) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٢، ص ٢٣، مادة "كتب".
- (٢) شليبي، أحمد، التربية الإسلامية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ٧، ١٩٨٢م، ص ٤٤.
- (٣) ليفسكايا، نينا بيغوى، ثقافة السريان في القرون الوسطى، ترجمة: خلف الجراد، دمشق، ط ١، ١٩٩٠م، ص ٤٥.
- (٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٦.
- (٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٦.

هكذا لم يبلغ العرب المسلمون الكتابات المسيحية في الشام بعد فتحها، بل استفادوا من هذه الكتابات واستمروا في إرسال أولادهم إليها لتعلم القراءة والكتابة، وممن قرأ فيها: إياس بن معاوية المزني (ت بعد ١٢٠ هـ / ٧٣٧م)، الذي روى أنه درس - عندما كان صبياً - في مكتب بالشام، وروى نقاشاً دار بينه وبين أحد معلمي الكتاب النصارى^(١)، كما أن أدهم بن محرز الباهلي - وهو أول مولود ولد في الإسلام في حمص درس في الكتاب^(٢)، ودرس خالد بن يزيد بن معاوية على يد راهب نصراني اسمه مريانوس، واعتمد على بعض النصارى الذين ترجموا له عدداً من الكتب^(٣).

ومما يؤيد وجود كتابات عند النصارى، وأن المسلمين استفادوا منها لتعليم أولادهم القراءة والكتابة، الفتوى التي أطلقها يعقوب الرهاوي (ت، ٨٩ هـ / ٧٠٧م)، إلى الرهبان المسيحيين يحيز لهم تعليم أولاد المسلمين التعليم الراقي^(٤)، وتشير الدراسات إلى أن وجود الكتابات النصرانية استمر إلى القرن العاشر الميلادي^(٥)، وكان الذي يتعلم من صبيان المسلمين القراءة والكتابة في كُتَّاب الذميين ينتقل إلى الكتابات الإسلامية لتعلم القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي.

- (١) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٠، ص ١٤ - ١٥.
- (٢) ابن عساکر، م.ن، ج ٧، ص ٤٦٤ - ٤٦٥؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٣، ص ١٣٣٦ - ١٣٣٧.
- (٣) النديم، الفهرست، مج ١، ص ٤٩٥؛ الزرو، الحياة العلمية الشام، ص ١٧٧ - ١٧٨.
- (٤) أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ٩٤.
- (٥) ليفسكاي، ثقافة السريان، ص ١٢٠.

أما بالنسبة للكتاتيب الإسلامية، فمن المعروف أن المسلمين سارعوا منذ مطلع العصر الإسلامي إلى إقامة الكتاتيب، واستفادوا في ذلك من الكتاتيب القديمة، غير أنهم كَيَّفُوا الكتاتيب التي أنشئوها وفقاً لما يلبي حاجاتهم، ويتفق مع مبادئ الدين الإسلامي، ويظهر أن الكتاتيب الإسلامية كانت على نوعين هما:

١ - كتاتيب اختصت بتعليم القراءة والكتابة.

٢ - كتاتيب اختصت بتعليم القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي^(١).

١ - كتاتيب تعليم القراءة والكتابة:

عُرِفَ القائمون على التعليم فيها باسم المُكْتَبِّين، وكانوا يعلمون تلاميذهم القراءة والكتابة عن طريق كتابة الحكم والأشعار، فقد علمت أم الدرداء^(٢) تلميذها عبد ربه بن سليمان القراءة والكتابة، وكتبت له في لوحه: "تعلموا الحكمة صغاراً تعملوا بها كباراً"، "وإن كل زارع حاصد ما زرع من خير أو شر"^(٣).

استمرت كتاتيب تعليم القراءة والكتابة في القرون التالية، فقد ذكرت المصادر أسماء عديدة اقترنت بصفة المُكْتَبِّ (أي الذي يعلم الكتابة)، ومنهم في القرن الثالث الهجري:

(١) شلبي، التربية الإسلامية، ص ٤٦.

(٢) أم الدرداء: زوج الصحابي أبي الدرداء، اسمها هجيمة بنت حبي الأوصابية كانت زاهدة وفقية، (توفيت بعد، ٨١هـ/٧٠٠م)؛ ابن عساكر، تراجم النساء، ص ٤١٨.

(٣) ابن عساكر، م.ن، ص ٤٢٨ - ٤٢٩؛ أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ٣٣٤.

- أبو الفضل العباس بن عثمان بن محمد البجلي الراهمي (ت، ٢٣٩هـ / ٨٥٣م): كان يسكن قينية والراهب من قرى غوطة دمشق، واقرن اسمه بالمكتّب والمعلم^(١)، وقال عنه الوليد بن مسلم: "احفظوني في عباس فإن لي فيه فراسة"^(٢).

- عبيد الله بن محمد المكتّب من بيت لهيا^(٣).

وبرز من المكتّبين في دمشق في القرن الرابع الهجري:

- أبو هاشم عبد الجبار بن عبد الصمد السلمي المكتّب (ت، ٣٦٤هـ / ٩٧٤م)^(٤): وصفه الذهبي بالمحدّث والمقرئ والمؤدّب وقال: إنه "جمع من المصنفات شيئاً كثيراً"^(٥).

- عبد الرحمن المكتّب^(٦).

- أبو شعيب عبد الرحمن بن محمد المكتّب^(٧).

ويظهر أن كتابت تعليم القراءة والكتابة استمرت فيما بعد، ففي القرن السادس الهجري تحدث ابن جبير عن التعليم في دمشق، فقال: "وتعليم

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢٦، ص٣٨١؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج٥، ص١١١؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج٧، ص٢٥٠.

(٢) المزني، تهذيب الكمال، مج١٥، ص٢٣٤.

(٣) أبيض، مؤسسات التربية العربية في الشام، ج١، ص١٤٣.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣٤، ص٢٧.

(٥) سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص١٥٢-١٥٣.

(٦) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣٦، ص١٢٢؛ ج٤٥، ص٤٠٦.

(٧) أبيض، مؤسسات التربية العربية في الشام، ج١، ص١٤٣.

الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها، تنزيهاً لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو، وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة فيفصل في التلقين إلى التكتيب، لهم في ذلك سيرة حسنة، ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط، لأن المعلم له لا يشتغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم والصبي في التعلم كذلك، ويسهل عليه لأنه بتصويرٍ يجذو جذوه"^(١).

٢- الكتاتيب القرآنية:

ظهرت الكتاتيب القرآنية منذ مطلع العصر الإسلامي، ويدل على ذلك شواهد عديدة منها: ذكر ابن سحنون نقلاً عن أنس بن مالك^(٢) ما يشير إلى أن الكتاتيب القرآنية كانت معروفة منذ عصر الخلفاء الراشدين، وأنه كان للصبيان ألواح يكتبون فيها ثم يمسخونها باستخدام الماء الطاهر^(٣)، وذكر ابن عساكر وجود ثلاثة معلمين في المدينة أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان عمر يرزق كلاً منهم خمسة عشر درهماً في الشهر^(٤)، وجاء في

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢١١.

(٢) أنس بن مالك (ت، ٩٣هـ/٧١٢م): صاحب رسول الله ﷺ وخادمه، ولد بالمدينة وأسلم صغيراً وخدم النبي ﷺ إلى أن قبض، ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، فمات فيها، وهو آخر من مات فيها من الصحابة؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٣٧؛ الزركلي، الأعلام، ج ٢، ص ٢٤-٢٥.

(٣) محمد بن سحنون (ت، ٢٥٦هـ/٨٧٠م)، كتاب آداب المعلمين، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة وتعليق: محمد العروسي المطوعي، تونس، دار الكتب الشرقية،

١٣٩٢هـ-١٩٧٢م، ص ٨٦-٨٧.

(٤) تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٤، ص ٣٥.

تاج العروس بصدد كلمة (أَبْجَدُ) " أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي أعرابياً، فقال له: هل تحسن أن تقرأ القرآن؟ قال: نعم، قال: فقرأ أم القرآن، فقال: والله ما أحسن البنات فكيف الأم، قال: فضربه، ثم أسلمه إلى الكتاب، فمكث فيه، ثم هَرَبَ" (١).

عرف جند دمشق الكتاتيب القرآنية منذ القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، وبرز من معلميها، عبد الله بن زيد أبو قلابة الجرحي (ت، ١٠٤هـ / ٧٢٢م)، الذي انتقل من البصرة إلى دمشق، واشتهر معلم كتاب، وأقام مكتباً لتعليم القرآن الكريم في داريا (٢).

اتسع انتشار الكتاتيب القرآنية في القرن الثاني الهجري، وازداد عددها حتى إنه صار بكل قرية كتاب، وربما أكثر من كتاب (٣)، ويظهر أن هذه الكتاتيب كانت أهلية ومفتوحة لجميع الناس، فلم يكن للدولة أي سلطان عليها، هذا وتشير الدراسات إلى أن هذه الكتاتيب انتظمت - نوعاً ما - بعد القرن الرابع الهجري لعناية الناس بتعليم أولادهم من جهة، ولاهتمام أولي الأمر بها ورصد الخيرات من مال الأوقاف للصرف عليها من جهة ثانية (٤).

(١) الزبيدي، محمد مُرتضى الحسيني (ت، ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس،

الكويت، وزارة الإرشاد والأبناء، ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م، ج٧، ص٤٠٢، مادة "أَبْجَدُ".

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢٨، ص٣٠٤؛ أبيض، مؤسسات التربية العربية في الشام، ج١، ص١٤٤.

(٣) شلبي، التربية الإسلامية، ص٥٤ - ٥٥.

(٤) طلس، محمد أسعد، التربية والتعليم في الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٥٧م، ص٦٩.

انقسم معلمو الكتاتيب منذ العصر الأموي قسمين هما: معلمو أبناء العامة وسواد الشعب، ومعلمو أبناء الخاصة وهم الذين عرفوا بالمؤدبين.

كان القائم على التعليم في الكتاتيب يسمى - في البداية - معلماً ومقرئاً لتمييزه عن معلم الكتابة الذي عرف بـ (المُكْتَب)، ولكن بدءاً من القرن الثاني الهجري صار يطلق على معلمي الكتاتيب اسم (المؤدبين) علماً أن هذه التسمية كانت في القرن الأول الهجري محصورة في معلمي أبناء الخاصة، وتشير بعض الدراسات إلى أن ذلك يعود إلى أن معلمي الكُتَّاب كانوا يعلمون اللغة والنحو إلى جانب القرآن الكريم، وهذه المواد تعد جزءاً مما كان يسمى الأدب آنذاك، أو قد يعود ذلك إلى أن تعليم القرآن الكريم كان على مستويين: مستوى أولي للصبيان يُعرف القائمون على التعليم فيه باسم المؤدبين، ومستوى عالٍ للكبار يُعرف القائمون على التعليم فيه باسم المقرئين^(١)، وتضيف دراسات أُخر إلى ما سبق، أن انهيار الخلافة الأموية وما ترتب عليه من غياب شبه كامل لشخص المؤدب أفسح المجال أمام هذه التسمية لتأخذ صفة التعميم، وتطلق على المعلمين أيضاً^(٢).

اتخذ معلمو الكتاتيب القرآنية التعليم مهنة لهم، وكان بعضهم يتقاضى أجراً على تعليم القرآن الكريم، وقام بعضهم بتعليمه احتساباً، وطلباً للشواب، وقد أجاز الفقهاء أخذ الأجر على تعليم القرآن الكريم، قال مالك^(٣): "لا بأس

(١) أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ٢٦٢.

(٢) زركلي، بلاد الشام، ص ٦٣٤.

(٣) مالك بن أنس الأصبحي الحميري أبو عبد الله (ت ١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م): إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة، وإليه تنسب المالكية، مولده ووفاته في المدينة، صنف عدة كتب أهمها "كتاب الموطأ"؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ١٥٤؛ الزركلي، الأعلام، ج ٥، ص ٢٥٧-٢٥٨.

بما يأخذ المعلم على تعليم القرآن، وإن اشترط شيئاً كان له حلالاً جائزاً، ولا بأس في الاشتراط في ذلك" (١).

ويتم الأجر بالاتفاق بين أهالي الأطفال والمعلمين، وبشكل عام كانت أجور المعلمين زهيدة واقتصرت أحياناً على رغفان الخبز (٢)، ويظهر أن المعلمين كانوا يحصلون على الأجر عند إتمام العمل، ومن ثمّ فإن مقياس دفع الأجر لم يكن الوقت بل كان النتيجة العملية (٣).

ومع أن الباعث الديني كان من أهم البواعث التي دفعت بعض المعلمين إلى التعليم احتساباً إلا أن بعضهم اتخذ ذلك وسيلة لتحقيق الكسب، والحصول على عطاء السلطان، والوصول إلى المناصب والوظائف التي تُخص بها أهل العلم والأدب (٤).

وكان تعليم الكتاتيب يتم إما في منازل العلماء أو في أماكن مستقلة تقام خصيصاً لذلك، ويكون الكتاب عادة عبارة عن مكان متواضع أو حانوت يتسع لعدد من الصبيان الذين يشرف عليهم معلم أو أكثر (٥)، ولا يستحب أن تكون المساجد موضع الكتاب، فكان يكره ذلك استناداً إلى الحديث الذي يرويه الشاميون نقلاً عن صحابة الرسول ﷺ "جنبوا مساجدكم

(١) القاسبي، علي بن محمد بن خلف (ت، ٤٠٣هـ / ١٠١٢م)، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، دراسة وتحقيق: أحمد خالد، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ط ١، ١٩٨٦م، ص ١٠٨.

(٢) أمين، ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٥٠-٥١.

(٣) طوطح، التربية عند العرب، ص ٧٠.

(٤) أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ٢٥٥.

(٥) الأهواني، أحمد فؤاد، التربية في الإسلام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨م، ص ١٨٣.

صبيانكم ومجانينكم، وسل سيوفكم، وإقامة حدودكم ورفع أصواتكم وخصوصياتكم، واجمروا في الجمع، واجعلوا على أبوابها المطاهر"^(١) وعرف عن بعض المحدثين أنه كان يشتد غضباً إذا رأى صبياناً في المسجد، ويحاول إخراجهم"^(٢)، وتعود معارضة علماء المسلمين تعليم الصبيان في المساجد إلى ضرورة المحافظة على نظافتها، وأن الأطفال قد لا يحترزون من النجاسة، لذلك كانت التوصيات أن يكون تعليمهم في الدروب وأطراف الأسواق"^(٣)، ومن المعلمين الذين كانوا يعلمون في الأماكن العامة:

- عبد الله بن أحمد بن محمد التميمي المعروف بالغبغي (ت، ٣٢٥هـ - ٩٣٦م): كان معلماً بدمشق على باب الجابية"^(٤).

- عبد الله بن محمد بن زكريا الأزدي المعلم المعروف بابن أبي النمر (ت، ٣٢٩هـ / ٩٤٠م): كان معلماً على باب الفراديس"^(٥).

- عبد الله بن محمد بن مروان أبو القاسم المعلم المعروف بالمستملي (ت، ٣٣٢هـ / ٩٤٣م): كان معلماً بدمشق على باب الصغير"^(٦).

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٧، ص ٢٢٤ - ٢٢٥؛ روى الحديث مكحول عن ثلاثة من الصحابة هم: أبو الدرداء، ووائلة بن الأسقع، وأبو أمامة الباهلي.

(٢) أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ٢٦٥.

(٣) الشيزري، نهاية الرتبة، ص ١٠٣.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٧، ص ٤٦ - ٤٨؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٢٨٦.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٢، ص ١٨٢.

(٦) ابن عساكر، م، ن، ج ٣٣، ص ٣٤.

ولكن يبدو أن الضرورات كانت تدفع أحياناً إلى تعليم الصبيان على أبواب الجوامع والمساجد أو في داخلها، فقد روى عبد الباقي بن الحسن بن السقا المقرئ (ت، ٣٨٠هـ/٩٩٠م)^(١)، وقد قرأ القرآن الكريم على أبي طاهر محمد بن سليمان البعلبكي الذي سكن صيدا، وتوفي فيها سنة (٣٥٤هـ/٩٦٥م)، قال: لم يكن أبو طاهر يسمح لنفسه بأخذ أجر على تعليم القرآن من أحد، "فلما كان قبل موته بيسير احتاج إلى تعليم الصبيان، فكان يُعلم بباب الجامع بصيدا، فقرأت عليه وختمت القرآن بعد مداراتي له، ولو لا ما لحقه من الإقلال لكان على الامتناع من الأخذ"^(٢)

والواقع أن تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر - على أهميته - لا يأتي إلا بالترتيب عن التعليم في الكتاتيب، لذلك كان لا بد من الرجوع إلى الكتب التي عالجت هذا الموضوع ككتب الجاحظ، وكتاب آداب المعلمين لابن سحنون، وكتاب الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين للقاسبي، وغيرها من الكتب التي حوت مادة غنية عن التعليم في الكتاتيب ومنهاجه وطرائقه وبرامجه ومشاكل المعلمين وغير ذلك.

كان التحاق الأطفال بالكتاتيب في سن مبكرة، فقد أوردت بعض المصادر أن المعلم كان يأمرهم بالصلاة إذا كانوا بني سبع سنين ويضربهم عليها إذا كانوا بني عشر سنين^(٣)، وهذا يعني أن التحاقهم كان يجري قبل السابعة

(١) ابن الجزري، محمد بن محمد (ت، ٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره: ج. برجستراسر، مصر، مكتبة الخانجي، ١٣٥١هـ-١٩٣٢م، ج ٢، ص ١٤٨.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ١١٥.

(٣) ابن سحنون، كتاب آداب المعلمين، ص ١٠٩؛ القاسبي، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين، ص ١١٢.

من عمرهم، وترجح بعض الدراسات أن يكون في السنة الخامسة أو السادسة من عمرهم، أما مدة بقائهم في الكُتَّاب فتستمر من خمس إلى ست سنوات^(١).

ويقوم منهاج التعليم في الكتاتيب على تثقيف أذهان الناشئة وتزويدهم ببعض المبادئ الأولية، وتأهيل المتفوقين منهم لمتابعة دراستهم في مرحلة التعليم العالي التي تكون في المساجد، ويقوم هذا المنهاج بشكل أساسي على تعليم القرآن الكريم وسنن الصلاة وأحكامها، إضافة إلى بعض المواد الأخرى المساعدة على حفظ القرآن الكريم وفهمه والوقوف على معانيه كالنحو واللغة العربية والحساب، ويضاف إلى ذلك أيام العرب وأخبارهم، والشعر ما حسن منه ولم يكن فيه فحش^(٢).

ويقسم برنامج الدروس اليومية في الكتاتيب إلى دروس صباحية ودروس بعد الظهر، وكان برنامج اليوم الدراسي يجري كما يلي:

- ١ - دراسة القرآن الكريم من أول النهار حتى الضحى.
- ٢ - التدرب على الكتابة وتجويد الحفظ من الضحى إلى الظهر.
- ٣ - انصراف الصبيان لتناول الغداء، ثم يعودون بعد صلاة الظهر.
- ٤ - دراسة بقية العلوم كالنحو والعربية والشعر وأيام العرب وغيرها من بعد الظهر إلى آخر النهار وقت الانصراف^(٣).

(١) طلس، التربية والتعليم في الإسلام، ص ٧٨.

(٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٣٥؛ ابن سحنون، كتاب آداب المعلمين، ص ١٠٢؛ القاسبي، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين، ص ١١٢ - ١١٥.

(٣) طلس، التربية والتعليم في الإسلام، ص ٧٨؛ الأهواني، التربية في الإسلام، ص ١٨٤.

أما استراحة الأطفال أسبوعياً، فكانت أيام الجمع^(١)، أما الأعطال الأخرى التي يعطلونها فكانت ثلاثة أيام في عيد الفطر وخمسة أيام في عيد الأضحى، وقد يعطل بعض الأطفال في بعض المناسبات الخاصة كيوم ختمه القرآن الكريم ويوم ظهوره وغيرهما^(٢).

كان من طرائق التعليم في الكتاتيب القرآنية التلقين، ويقوم بأن يقرأ الشيخ ثم يردد الصبي، ذكر ابن عساكر أن عطاءً دمشقي المعلم المشهور في القرن الثاني الهجري، كان يعلم صبياً، فيقول له: "والعاديَاتِ صَبِحاً"^(٣)، فيردد الصبي: "والعاديَاتِ ذبحاً" حتى إذا أعياه ضرب بأسفل اللوح نحره، فقال: يا معلم ضبحتني ضبحتني، قال: فأين كان هذا الكلام من تلك الساعة يا كذا وكذا"^(٤).

ومن طرائق التدريس الإملاء، وتكون بجعل المعلم بعضهم يملي على بعض ثم يتفقد إملاءهم، وفي هذه الطريقة قد يأخذ المعلم عريفاً يساعده في تعليم الصبيان، ويكون هذا العريف ممن حفظ القرآن الكريم، وأصبح مستغنياً عن التعليم^(٥).

- (١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٣٤٧.
- (٢) ابن سحنون، كتاب آداب المعلمين، ص ٩٧؛ القاسبي، الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين، ص ١٣٥ - ١٣٦.
- (٣) سورة العاديَاتِ، آية (١).
- (٤) تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٠، ص ٣٦٥.
- (٥) ابن سحنون، كتاب آداب المعلمين، ص ٩٨، ١٠٦؛ القاسبي، الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين، ص ١٤٠ - ١٤١.

ويراعي المعلمون في تعليم القرآن الكريم للأطفال، تعليمهم تجويده وقرآته بلفظه الصحيح، وذلك بعيداً عن قراءته بالألحان التي كانت تعد قراءة مكروهة، وعن ذلك قال الإمام مالك: "لا يجوز أن يقرأ القرآن بالألحان"^(١)، وكان المعلم لا ينقل الصبيان من سورة إلى سورة حتى يحفظوها بكتابتها وإعرابها^(٢)، وقد جرت العادة في الكتاتيب "أن يتعلم الصبيان جميع القرآن، ويعرف هذا بالختمة، على أن ختم القرآن لم يكن واجباً، فقد يكتفى بثلاثة أرباع القرآن أو ثلثي أو نصف أو ثلث أو ربع القرآن حسب طاقة الصبي والظروف الخارجية الأخرى"^(٣)، ويخصص المعلمون للعرض واختبار حفظ الصبيان وفهمهم أسبوعياً ما بعد ظهر يوم الأربعاء وكامل يوم الخميس^(٤)، وفي نهاية مرحلة التعليم في الكتاتيب كان المعلمون يقومون بامتحان الصبيان للتأكد من حفظهم القرآن الكريم، وكانت هناك درجات لإجادة الصبي وحفظه وأولها أن يستظهر الصبي "القرآن حفظاً من أوله إلى آخره"، ويقبل عن هذه الدرجة "أن يكون الصبي استكمل قراءة القرآن في المصحف نظراً لا يخفى عليه شيء من حروفه مع ما فهمه مما ينضاف إلى ذلك من ضبط الهجاء والشكل وحسن الخط"، وآخر درجات الإجادة أن "يُملي على الصبي فلا يتهجى، ويرى الحروف

(١) القاسبي، م.ن، ص ١١٩؛ ابن سحنون، كتاب آداب المعلمين، ص ١٠٤.

(٢) ابن سحنون، م.ن، ص ١٠٦.

(٣) الأهواني، التربية في الإسلام، ص ١٧٠.

(٤) ابن سحنون، كتاب آداب المعلمين، ص ١٠٤؛ القاسبي، الرسالة المفصلة لأحوال

المعلمين، ص ١٣١.

فلا يضبطها ولا يستمر في قراءتها"، أما الصبيان الذين لا يحفظون ما علّموا ولا يضبطون ما فهموا، فكانوا يوصفون بالضعف والبلاهة^(١).

وكان من عادة الأهالي الذين ينجح أبناؤهم في استظهار القرآن غيباً في الختمة، أن يقيموا وليمة يدعون إليها معلم الكتاب والتلاميذ^(٢).

كان للأطفال ألواح من الخشب يكتبون فيها دروسهم، وكلما فرغوا من درس محوه وأثبتوا مكانه درساً آخر^(٣)، وكان هناك توصيات حول أن يكون المحو بالماء الطاهر أو بمنديل، قال أنس بن مالك: "إذا محت صبية الكتاب ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٤) من ألواحهم بأرجلهم نبذ المعلم إسلامه خلف ظهره، ثم لم يبال حين يلقي الله على ما يلقاه عليه"، وأضاف: أن المؤدبين في عصر الخلفاء الراشدين كان لهم إجانة يملؤها الناشئة بالماء الطاهر ثم يستخدمونه للمحو من ألواحهم، وإذا ما انتهوا من المحو كانوا يصبون ذلك الماء في حفرة بالأرض فينشف^(٥).

وتقوم العلاقة بين المعلم والصبيان على الاحترام المتبادل، فالمعلم يأخذهم بالرفق والعطف ويتفقدهم ويسوسهم بما ينفعهم، ولا ينشغل عنهم بأي عمل آخر، ولا يرسل أيّاً منهم في حوائجه، ويساوي بينهم، ولا يميز

(١) القاسبي، م.ن، ص ١٤٩-١٥٠؛ الأهواني، التربية في الإسلام، ص ١٩٢.

(٢) زركلي، بلاد الشام، ص ٦٣٢.

(٣) ضيف، العصر العباسي الأول، ص ٩٩.

(٤) سورة الواقعة، آية (٨٠).

(٥) ابن سحنون، كتاب آداب المعلمين، ص ٨٦-٨٧؛ القاسبي، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين، ص ١٣٤.

بين أحدٍ وآخر، وفي المقابل يبدي الصبيان كل الاحترام والتقدير لمعلميهم، ويقدمون الهدايا لهم في الأعياد وعند ختمهم القرآن الكريم، وتكون هذه الهدايا على قدر يسر آباء الصبيان وعسرهم، ولم تمنع هذه العلاقة الحميمة من معاقبة الصبي إذا أهمل دروسه، أو أساء الأدب، ويكون هذا العقاب بالنصح أو التهديد، وإذا استمرَّ الصبي في تراجعته أو في سوء أدبه كان المعلم يلجأ إلى إنزال الضرب به^(١).

ذكر أبو زرعة الدمشقي أن عبد الله بن عامر اليحصبي ضرب خالد بن اللجلاج، والعلاء بن الزبير حين ارتفعت أصواتهما في العلم في المسجد^(٢)، وكان يراعى في ضرب الصبيان أن يكون على سبيل النصح والتوجيه، وأن يكون حافظاً لهم على مواصلة الاهتمام بالعلم، امثالاً لقول الرسول ﷺ: "شرار أمتي معلمو صبيانهم أقلهم رحمة لليتيم، وأغلظهم على المسكين"^(٣)، وقد تنبه علماء المسلمين إلى مساوئ الضرب وما يلحقه بالصبيان، فابن خلدون عقد فصلاً بعنوان: "في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم" ذكر فيه ما يترتب على الضرب من الكسل والذهاب بنشاط النفس وحملها على الكذب والمكر بغية التهرب من الضرب، ومن ثمَّ ابتعاد النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، لذلك نصح المعلمين ألا يستبدوا في الضرب^(٤).

(١) القاسبي، م.ن، ص ١٢٧-١٢٨، ١٣١، ١٣٩-١٧٠، ١٤١؛ ابن سحنون، كتاب آداب المعلمين، ص ٩٤-٩٨، ١٠٩، ١٢٤، ١٣٢.

(٢) تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ٣٤٣.

(٣) ابن سحنون، كتاب آداب المعلمين، ص ٨٩.

(٤) مقدمة ابن خلدون، ص ٥٥٨-٥٥٩.

سبقت الإشارة إلى أن معلمي الكتاتيب انقسموا منذ العصر الأموي قسامين هما: معلمو أبناء العامة وهم الذين سبق الحديث عنهم، أما معلمو أبناء الخاصة وهم الذين عرفوا بالمؤدبين، وكانوا يعلمون في القصور، فقد اتجه الخلفاء والأمراء والأثرياء منذ العصر الأموي نحو تربية أبنائهم تربية خاصة تؤهلهم للمهام التي تنتظرهم والوظائف التي قد يشغلونها في المستقبل، فاختروا لتعليمهم كبار العلماء والمحدثين والأدباء، وأغدقوا عليهم الأموال والهبات والمنح، وخصصوا لهم أحياناً أجنحة في قصورهم ليكون إشرافهم على الأبناء أحكم وأشمل^(١).

ويلتقي منهاج التأديب عند المؤدبين في أسسه العامة مع منهاج التعليم الذي وضع لجميع الصبيان مع بعض الحذف أو الإضافة، وذلك استجابة لوصايا الآباء التي كانوا يوجهونها إلى مؤدبي أبنائهم، وأفضل الأساليب في التعامل معهم، ومن خلال الاطلاع على بعض هذه الوصايا^(٢) يتبين أن المنهاج الذي اتبعه المؤدبون في تثقيف الصبيان يقوم - بشكل عام - على تعليمهم القرآن الكريم والحديث واللغة والشعر والأدب، وأيام العرب وأخبارها وقواعد السلوك.

(١) شلبي، التربية الإسلامية، ص ٥٨ - ٥٩.

(٢) انظر: وصية عتبة بن أبي سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده، ووصية عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده؛ ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، مج ١، ص ٥٦٣ - ٥٦٤؛ وانظر: وصية هشام بن عبد الملك إلى سليمان بن سليم بن كيسان مؤدب ولده؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٢٧٧ - ٢٧٨؛ وانظر: وصية الرشيد للأحمر مؤدب ولده الأمين؛ المسعودي، مروج الذهب، مج ٣، ص ٣٦٢.

وفيا يخص اهتمام الآباء بتأديب أبنائهم، كان بعضهم يمتحن أبناءه من حين لآخر ليرى مدى تحصيلهم العلمي، ويحضرون دروس تعليمهم للتأكد من حسن سيرها^(١).

ومما هو جدير بالذكر أن الصبيان كانوا يستمرون في تلقي تعليمهم في القصور حتى يتجاوزوا مرحلتهم، فينتقلوا إلى مرحلة التعليم العالي في المساجد.

ويظهر أن شهرة الشام منذ العصر الأموي بمؤدبيها الذين عرفوا بسعة إطلاعهم ومعارفهم، دفعت بعض الخلفاء العباسيين لاختيار بعض مؤدبي أبنائهم منها، فالتوكل عندما قدم دمشق أرسل ببعض ولده ليأخذ عن هشام بن عمار وحمله إليه ألف دينار^(٢)، والخليفة المعتز اختار أحمد بن سعيد بن عبد الله الدمشقي (ت، ٣٠٦هـ/٩١٨م)، لتأديب ابنه عبد الله، وكان أحمد بن سعيد من رجالات الأدب البارزين في القرن الثالث الهجري، ونزل ببغداد وحدث فيها عن هشام بن عمار وطبقته^(٣).

ومن المؤدبين الذين برزوا أيضاً:

- (١) أبيض، مؤسسات التربية العربية في الشام، ج ١، ص ١٥٨.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٤، ص ٣٥؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ٣٠، ص ٢٥١.
- (٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٤، ص ١٧١؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧١، ص ١٤٣ - ١٤٤؛ الحموي، معجم الأدباء، مج ١، ص ٥٠٩ - ٥١٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٦، باعتناء: س. ديدرينغ، فيسبادن، فرانز شتاينر، ١٩٧٢م، ص ٣٨٨.

- عبيد الله بن محمد الكلابي المقرئ والمؤدب، وكان يسكن قنطرة
سنان بنواحي باب توما بدمشق^(١).

- عبد الرحمن مؤدب ولد عبد الملك بن صالح الذي تولى جند دمشق
للرشيد، وتولى الشام والجزيرة للأمين^(٢).

- أحمد بن نصر بن شاكر بن عمار الدمشقي (ت، ٢٩٢هـ/٩٠٤م)،
وكان مقرئاً ومؤدباً ومعلماً للقرآن بدمشق^(٣).

- محمد بن شقيق بن ضبارة أبو الأسد اللخمي (ت، ٣٢٦هـ/٩٣٧م)،
كان من أهل اللغة والنحو واختص بتأديب بني أبي زنبور^(٤).

حظي معلمو الخاصة بمكانة مرموقة في المجتمع، وكانوا موضع
احترام وتقدير، وعاشوا في رغد من العيش وسعة من الرزق، بينما كانت
مكانة معلمي كتاتيب العامة متدنية وأقل مستوى من مكانة معلمي الخاصة
وغيرهم من العلماء فلم يحظوا بالاهتمام والاحترام، ويبدو أن بعضهم كان
موضع تهكم الجماعة وسخريتهم، فقد نقل ابن عساكر قول عبد الرحمن
مؤدب ولد عبد الملك بن صالح: "قال لي عبد الملك بعد أن خصّني وصيّرتني

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٨، ص ٩٩.

(٢) ابن عساكر، م، ج ٣٧، ص ٢٦، (لم يترجم ابن عساكر لهذا المؤدب).

(٣) ابن عساكر، م، ج ٦، ص ٤٩ - ٥٠؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٧٨؛ ابن
بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ١٠٢.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٢٥٥؛ أبو زنبور: هو الحسين بن أحمد
الماذرائي (ت، ٣١٧هـ/٩٢٩م)، كان يلي خراج مصر، وتولى خراج الشام في عهد أحمد
بن طولون؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ٣، ص ٤٦٦.

وزيراً... إني اتخذتك مؤدباً بعد أن كنت معلماً، وجعلتك جليساً مقرباً بعد أن كنت مع الصبيان مباحداً"^(١).

وأدى نقصان مكانة معلمي الكتاتيب إلى قلة عدد المقبلين على القيام بالتعليم فيها، ويدل على ذلك أن ابن عساكر لا يذكر إلا عدداً قليلاً منهم خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن الجاحظ أورد عدداً من الأقوال والأمثال التي قيلت في المعلمين، وهي تشير إلى مقامهم الاجتماعي المنحط، إذ تصفهم بالحماقة وقلة العقل وتضعهم في صفوف رعاة الغنم، ومن هذه الأقوال: "أحمق من معلّم كُتّاب"، و"الحُمُقُ في الحَاكَةِ والمعلّمين والغزّالين"، وأورد قول بعض الحكماء "لا تستشيروا معلماً ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء"^(٣).

ولعل هذه النظرة السلبية إلى المعلمين تعود إلى أخذهم الأجر على تعليم القرآن الكريم، أو للعذاب الكبير الذي يعانونه في تعليم الصبيان، وإلى ذلك أشار الجاحظ بقوله: "والمعلمون أشقى بالصبيان من رعاة الضأن ورؤّاض المهارة"^(٤)، وكأنه جعل شقاء المعلمين مع الصبيان أكبر من شقاء رعاة الأغنام والماعز، ومروضي الخيول الصغيرة.

ويظهر أن لهذه النظرة السلبية إلى المعلمين أسباباً أُخرى، لم تفضح المصادر عنها، ومن المرجح أنها قد تعود إلى أن بعض الناس في ذلك العصر

(١) تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٧، ص ٢٦.

(٢) أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ٢٦٤.

(٣) البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٤) رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٢٨.

لم يدركوا قيمة هذه المهنة، وبقيت عقولهم قاصرة عن استيعاب أهمية العلم، وإلى هذا أشار خليل طوطح عندما ذكر "احتقار العرب للمهن التي لا تظهر فيها أعمال الرجولية التي تتجلى في الحرب والغزو وركوب الخيل إلى غير ذلك"^(١).

ويضاف إلى ما سبق "أنه ربما اضطر الناس إلى احتقار معلمي الأولاد لما أظهره بعضهم من صغر النفس والمسكنة وسخافة العقل والخطورة على الصغار وضربهم بالعصي وإذاقتهم آلام الفلقة"^(٢).

ومهما يكن الأمر فإن بعض معلمي الكتاتيب ارتقى إلى مستوى رفيع، ومثال ذلك عبد الحميد بن يحيى الكاتب (ت، ١٣٢هـ/٧٥٠م)، الذي كان في أول أمره معلم صبية ينتقل في البلدان ثم ارتقى إلى مستوى عالٍ، وصار كاتباً لمرwan بن محمد، واشتهر برسائله البليغة، وصار أوحده دهره"^(٣).

هكذا فإن الكتاتيب شغلت دوراً كبيراً في نظام التعليم عند المسلمين، وكانت الأساس الذي ارتكز عليه هذا النظام، وأسهمت في بناء الشخصية القوية الملائمة للمجتمع الإسلامي، وكانت تؤهل المتخرج منها لإمامة المسلمين في الصلاة، وتزوده بكثير من المعارف والعلوم التي تؤهله لكتابة الرسائل والكتب، ومتابعة تحصيله العلمي، وبلوغ مراتب العلماء.

على أن اهتمام المسلمين بتربية أولادهم وتعليمهم لم يقتصر على تعليمهم في الكتاتيب، بل اهتموا بتربيتهم جسمياً وجسدياً، وهذه التربية

(١) التربية عند العرب، ص ٦٢.

(٢) طوطح، م.ن، ص ٦٢ - ٦٣.

(٣) النديم، الفهرست، مج ١، ص ٢١٢؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٤، ص ٩٢.

كانت تتم وفقاً للوصية التي وجهها الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى أهل الشام، وهي: "علّموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية"^(١)، ومما هو جدير بالذكر أن العرب كانت "تسمّي الرجل إذا كان يكتب ويحسن العوم وهي السباحة ويقول الشعر الكامل"^(٢). وقيل: "من تمام ما يجب على الآباء من حفظ الأبناء، أن يعلموهم الكتاب والحساب والسّباحة"^(٣).

ثانياً - المساجد والجوامع:

شغلت المساجد والجوامع دوراً مهماً في حياة المسلمين، ولم تكن مهامها مقصورة على الدينية منها فحسب، بل كانت تؤدي مهامّ مختلفة، فكانت المنتدى الذي يؤمّه المسلمون ليتصل بعضهم ببعض، ويتداولوا في شؤونهم الإدارية والسياسية والعسكرية، وفيها كان يجلس القضاة لحل النزاعات وإصدار الأحكام، وكانت مقر بيت المال أحياناً، وعلى منابرها كان الخطباء يلقون خطبهم السياسية والإدارية، ومن أهم المهام التي نهضت بها المهمة التعليمية، إذ كانت المركز الرئيسي للتعليم ونشر الثقافة في القرون الإسلامية الأولى، واستمرت تقوم بدور تعليمي فيما بعد حتى الآن، وزاد من الدور العلمي للمساجد والجوامع أنها كانت بيوت الله التي يقصدها المسلمون للصلاة، ومن ثمّ فإنه يحق لكل مسلم الدخول إليها من غير استئذان، والاستفادة مما يعلم فيها.

(١) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، مج ١، ص ٥٦٥.

(٢) ابن قتيبة الدينوري، م.ن، مج ١، ص ٥٦٥.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ١٨٠.

ومن المفيد قبل الحديث عن النشاط العلمي في المساجد والجوامع تقديم لمحة عن بنائها، فقد بدأ المسلمون ببناء المساجد في الشام عقب تحريرها، فبنوا في كل مدينة من مدنها مسجداً جامعاً لتأدية الأمور التي تهم الجماعة، ذكر ابن عساكر أن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) "كتب إلى أمراء أجناد الشام ألا يتبدوا إلى القرى، ويتركوا المدائن، وأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً واحداً"^(١)، فكان أول مسجد بني في دمشق سنة ١٤هـ/٦٣٥م^(٢)، وفيما بعد انتشر بناء المساجد في مدن الشام ومناطقها.

كانت المساجد في بدايتها بسيطة، إذ اقتصرَت على ساحة كبيرة مسورة لاستقبال أكبر عدد من المسلمين، وفيما بعد اتجه المسلمون نحو توسيعها وتنظيمها بما يليبي حاجات المسلمين، فبنوا المساجد الجامعة التي أدت دوراً علمياً كبيراً إضافة إلى دورها كمركز للعبادة، ومن هذه المساجد: الجامع الأموي في دمشق الذي بني في سنة ٨٦هـ/٧٠٥م، وغدا مع الأيام بمنزلة جامعة تدرس مختلف أنواع العلوم، وقد وصف هذا الجامع بأنه من عجائب الدنيا، وقيل: إن من عجائبه أن الرجل لو بقي فيه مئة سنة لرأى فيه في كل وقت أعجوبة جديدة^(٣).

ولم يقتصر بناء المساجد والجوامع على الجهود التي بذلتها الدولة، بل قام كثير من الأفراد والقبائل ببناء المساجد^(٤)، فازداد عددها، ولم يأت القرن

(١) تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٢، ص ٢٤٦.

(٣) ابن الفقيه، البلدان، ص ١٥٦-١٥٨.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٧٢؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ص ٣٣١.

السادس الهجري حتى صار في دمشق وحدها - كما ذكر ابن عساكر - ٢٤٢ مسجداً في داخلها، و ١٨١ مسجداً في ظاهرها^(١)، ويعود إنشاء كثير منها إلى حقبة البحث، مما يدل على مقدار النهضة العلمية والثقافية التي كانت تعيشها دمشق، ولم تقتصر هذه النهضة عليها، بل شملت جميع مناطق الشام.

لقد شغلت المساجد دوراً كبيراً في التعليم، إذ كانت المكان الرئيس للقاء حملة العلم وطلابه، وفيها كان يتم التعليم على شكل حلقات ومجالس، ويعود وجود الحلقات إلى صدر الإسلام، روى الأوزاعي أن السلف كانوا "إذا صدع الفجر أو قبله شيئاً كأنها على رؤوسهم الطير مقبلين على أنفسهم، حتى لو أن حميماً لأحدهم غاب عنه حيناً ثم قدم ما التفت إليه، فلا يزالون كذلك حتى يكون قريباً من طلوع الشمس ثم يقوم بعضهم إلى بعض فيتحلقون، فأول ما يقتضون فيه أمر معادهم، وما هم صائرون إليه، ثم يتحلقون إلى الفقه والقرآن"^(٢)، وكان الصحابي أبو الدرداء (ت، ٣٢٢هـ/٦٥٢م)، أول من سن الحلقات في مساجد الشام، إذ انتقى أصحاب المعارف السابقة والقدرات المميزة، واتخذهم مساعدين له أو عرفاء، فكان إذا صلى جلس إليهم، وهم محدقون به على شكل حلقة، فيقرأ جزءاً من القرآن، فإذا فرغ من قراءته، قام كلُّ منهم إلى العشرة الذين أضيفوا إليه لتعليمهم، فكان إذا أخطأ أحد الطلاب رجع إلى عريفه، فإذا أخطأ عريفهم رجع إلى أبي الدرداء، ويمتحن العريف طلابه بعد ختم القرآن، فإن تبين له إتقان بعضهم القرآن، قدّمه إلى شيخه الذي يمنحه

(١) ابن عساكر، م.ن، ج ٢، ص ٣٠٨-٣٢١.

(٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٥، ص ١٨٤-١٨٥.

إجازة، فيصير عريفاً على عشرة، أو قد يقوم بتعليم القرآن الكريم في حلقة أخرى وحده^(١).

وفيا بعد تعددت حلقات العلم التي تعقد في المساجد، وقد تولَّى أمرها الشيوخ كلُّ حسب اختصاصه، فكل شيخ كان يجلس إلى جانب أحد أعمدة المسجد، ويلتف الطلبة حوله على شكل حلقة، ثم يعطيهم الدروس، وبرز هذا التنظيم منذ القرن الأول الهجري، فقد نقل ابن عساكر عن محدث من القرن الأول الهجري قوله: عهدت المسجد الجامع بدمشق "وإن عند كل عمود شيخاً وعليه الناس يكتبون العلم"^(٢).

كان من شروط من يتصدى للتعليم في المساجد أن يكون قد اكتمل علمه، وعرف بين الناس بالبراعة والإتقان والتميز، وبلغ من العمر سنّاً تؤهله للقيام بذلك^(٣)، وهذا يعني أن أصحاب الحلق كانوا من كبار المحدثين والفقهاء والعلماء، وكانوا ينظّمون حلقاتهم ومجالسهم بالتنسيق فيما بينهم من حيث المكان والزمان، بحيث يتسنى الوقت لطلابهم للانتقال من حلقة إلى أخرى، روى سعيد بن عبد العزيز (ت، ١٦٧هـ/٧٨٣م)، أنه كان يجلس إلى شيخ صباحاً، ثم يجلس إلى شيخ آخر بعد الظهر، ثم يجلس إلى شيخ ثالث بعد العصر^(٤).

(١) ابن عساكر، م.ن، ج ١، ص ٣٢٨؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٦٠٦-٦٠٧.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ص ٣٢٨، مج ١، (تحقيق: صلاح الدين المنجد)، ص ٣١٥.

(٣) معروف، بشار عواد، مؤسسات التعليم في العراق في القرنين الخامس والسابع الهجريين، التربية العربية الإسلامية، (المؤسسات والممارسات)، عمّان، مؤسسة آل البيت، ج ٢، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، ص ٣٧٩.

(٤) الفسوي، المعرفة والتاريخ، مج ٢، ص ٣٣٥؛ ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ج ٤، ص ٢٥١؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٤، ص ١٧٠٠.

ولم يكن للدراسة في المساجد قواعد ناظمة، بل كانت تعتمد على ظروف الطالب ورغبته واستعداده، فيلتحق بحلقات المساجد ومجالسها متى أراد، وينقطع عنها متى أراد، وهو الذي يختار أستاذه ودروسه، ويكون هذا بإرشاد من أهله أو من الأساتذة الذين يثق بهم^(١).

وكان التحاق الطلاب بحلقات المساجد ومجالسها بعد إتمامهم الدراسة في الكتاتيب، وإتقانهم القراءة والكتابة، وحفظهم القرآن الكريم، فالإمام الأوزاعي كان إذا رأى حَدَثًا في حلقة امتحنه بحفظ القرآن الكريم، فإن تبين له أنه لا يحفظه رفض قبوله في حلقة، وقال له: "اذهب تعلم القرآن قبل أن تطلب العلم"^(٢).

وكانت الحلقات والمجالس تتسع وتضيق تبعاً لمكانة صاحب الحلقة، وسعة علمه، ومعارفه، وقدرته على إيصالها إلى الحاضرين، ومن الحلقات التي تميزت بحضورها الكبير، حلقات الإمام الأوزاعي حتى إن الزاهد إبراهيم بن أدهم عندما مرَّ بحلقة في بيروت أبدى دهشته من كبرها قائلاً: "لو أن هذه الحلقة على أبي هريرة لعجز عنها"^(٣).

وكان لبعض أصحاب الحلقات كراسي يجلسون عليها، فإذا رفعت كرسي صاحب الحلقة، كان ذلك تعبيراً عن إلغاء الحلقة^(٤).

(١) أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ٢٦٦.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ١٨٧.

(٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٥، ص ١٨٩.

(٤) معروف، مؤسسات التعليم، ج ٢، ص ٣٧٩.

اختصت بعض الحلقات والمجالس بتدريس موضوع واحد، بينما اختص بعضها الآخر بتدريس عدة موضوعات، وفي البداية كانت الحلقات والمجالس تعرف باسم الشيخ الذي يدرس فيها، غير أنه مع تخصص كل شيخ بتدريس مادة واحدة، صارت المجالس والحلقات تعرف باسم المواد التي تدرس فيها، فكان هناك حلقات ومجالس اختصت بتدريس الفقه، أو الفقه والحديث، أو اختصت بالحديث، أو إقراء القرآن الكريم أو المناظرة.

ومن الحلقات والمجالس التي اختصت بتدريس الفقه وفقاً للمذهب معين:

- حلقة كنين بن عبد الله أبي علي الخادم (ت، ٢٨٠هـ / ٨٩٣م)، وهو فقيه شافعي أصله من بغداد، ثم انتقل إلى مصر واستقر بها، وصار يدرس وفق المذهب الشافعي، غير أن تعصبه الشديد لهذا المذهب دفع أحمد بن طولون إلى سجنه، فلما توفي أحمد بن طولون أفرج عنه، فاتجه إلى دمشق، وصار له فيها حلقة فقه في المسجد الجامع وفق المذهب الشافعي^(١).

- حلقة عيلان بن زفر بن جبر بن مروان أبي الهيثم المازني (ت، ٣٢٨هـ / ٩٣٩م)، في المسجد الجامع بدمشق، وهي حلقة فقه على المذهب الشافعي^(٢).

- حلقة أحمد بن سليمان بن حذلم قاضي دمشق (ت، ٣٤٧هـ / ٩٥٨م)، وكانت آخر حلقة فقه في جامع دمشق وفق المذهب الأوزاعي^(٣).

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٠، ص ٢٦١-٢٦٢.
- (٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٤٨، ص ٤٦-٤٧.
- (٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٧١، ص ١٥١-١٥٢؛ الكتاني، عبد العزيز بن أحمد (ت، ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م)، ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، تحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، ط ١، ١٤٠٩هـ ص ٧٨؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٥١٤-٥١٥؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٣١-٣٢؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، مج ٤، ص ٢٤٧-٢٤٨.

ومن الجدير بالذكر أن المقدسي الذي زار دمشق في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ذكر أن للأوزاعية مجلساً بجامع دمشق، والعمل فيه على مذهب أصحاب الحديث^(١).

وهناك حلقات جمعت بين تدريس الفقه والحديث وأبرزها:

- حلقات عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت، ١٥٧هـ/٧٧٣م)، في دمشق وبيروت وهي حلقات حديث وفقه، تميزت بحضور عدد كبير من الطلاب فيها^(٢).

- حلقة الهقل بن زياد بن عبيد الله السكسكي (ت، ١٧٩هـ/٧٩٥م)، في جامع بيروت، وكان الهقل تلميذ الأوزاعي، فدرس في حلقة الفقه وفق مذهب أستاذه كما درس الحديث^(٣).

- حلقة سعيد بن عبد العزيز (ت، ١٦٧هـ/٧٨٣م)، في دمشق، واستمرت أكثر من نصف قرن من الزمن^(٤).

- حلقة الوليد بن مسلم (ت، ١٩٥هـ/٨١٠م)، في دمشق، وفيها درّس الحديث والفقه، فقد ذكر إسماعيل بن موسى الفزاري الكوفي (ت، ٢٤٥هـ/٨٥٩م)، أنه دخل دمشق، فجلس في حلقة الوليد بن مسلم، ثم سأله مسألة في الفقه فأصاب بها^(٥).

(١) أحسن التقاسيم، ص ١٥٣.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ١٨٩؛ الملاح، الإمام الأوزاعي، ص ١٢٦.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٤، ص ٤٤ - ٤٦؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ٥٧ - ٥٨.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢١، ص ٢٠٢.

(٥) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٤، ص ١٨٣٣.

واختصت بعض الحلقات والمجالس بتدريس الحديث، وكانت أكثر حضوراً من حلقات الفقه نظراً لإقبال الناس على الحديث كونه أسهل من الفقه، ولا يحتاج إلى أسس معرفية سابقة^(١)، وكانت دراسة الحديث وما تتطلبه من تدقيق الأسانيد تستغرق مدة أطول من مدد الدراسات الأخرى، أما أهم حلقات الحديث ومجالسه فهي:

- حلقة أبي مسهر الغساني (ت، ٢١٨هـ / ٨٣٣م)، في جامع دمشق عند حائطه الشرقي بين العشاء والعتمّة، وفيها كان يحدث بالمغاري وأيام الناس وأخبارهم، وفي إحدى جلسات حلقاته هذه انتقد النار التي يشعلها المأمون في سفح جبل قاسيون، فحقد المأمون عليه، لذلك لما حمل الناس على القول بخلق القرآن أمر بحمل أبي مسهر ليتمتحنه بنفسه^(٢).

- مجلس الوليد بن عتبة الأشجعي (ت، ٢٤٠هـ / ٨٥٤م)، في مسجد باب الجابية، وفيه كان يروي الحديث، ويلقي مصنفات الوليد بن مسلم^(٣).

- حلقة قاسم بن عثمان الجوعي الزاهد (ت، ٢٤٨هـ / ٨٦٢م)، وهي حلقة حديث ووعظ^(٤).

- مجلس أبي عامر موسى بن عامر بن عمارة بن خريم المري (ت، ٢٥٥هـ / ٨٦٨م)، وكان قد درس على الوليد بن مسلم، فكان عنده من الكتب

(١) معروف، مؤسسات التعليم، ج ٢، ص ٣٧٧.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٣، ص ٤٣٨؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ١٥-١٦.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٥، ص ٨١؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٣، ص ١٦٢-١٦٣؛ المزني، تهذيب الكمال، مج ٣١، ص ٤٨.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٩، ص ١٢٠، ج ٣٥، ص ٣٥٨-٣٥٩.

ما لم يكن عند شيخي الشام هشام بن عمار (ت، ٢٤٥هـ / ٨٥٩م)، وعبد الرحمن بن إبراهيم المعروف بدحيم (ت، ٢٤٥هـ / ٨٥٩م)؛ لذلك حين توفي هذان الشيخان (أقبل إليه أصحاب الحديث، فقالوا له: يا أبا عامر حدثنا فإن عندك شيئاً لا نصيبه عند غيرك، فجلس لهم أبو عامر في غرب المسجد... على كرسي، فامتلاً الرواق" وحدثهم أربعة أيام متتالية^(١).

- مجلس خيثمة بن سليمان بن حيدرة القرشي الأطرابلسي (ت، ٣٤٣هـ / ٩٥٤م)، في جامع طرابلس، كما أن خيثمة زار دمشق في أواخر عمره، فعقد في مسجدها الجامع مجلساً للحديث^(٢).

واختصت بعض الحلقات والمجالس بإقراء القرآن الكريم، ومن المعروف أن تلاوة القرآن ارتبطت بالجوامع والمساجد منذ نشأتها، وكان يشرف عليها كبار القراء، وكان من عادتهم أن يقسموا طلابهم إلى عشرات، ويجعلوا على كل عشرة عريفاً يشرف عليهم، ويقرئهم القرآن سورة فسورة، ويعيدها عليهم ويحفظهم إياها^(٣).

فقد كان الجامع الأموي بدمشق من أبرز المساجد الجامعة التي اشتهرت بمجالس القرآن وحلقات إقراءه^(٤)، إذ كان فيه موضع مخصص لإقراء القرآن،

(١) ابن عساكر، م.ن، ج ٦٠، ص ٤٣٩ - ٤٤٠.
(٢) ابن عساكر، م.ن، ج ١٧، ص ٧٠؛ الأطرابلسي، خيثمة بن سليمان القرشي (ت، ٣٤٣هـ / ٩٥٤م)، من حديث خيثمة بن سليمان القرشي الأطرابلسي، دراسة وتحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، (مقدمة المحقق)، ص ٣٢.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ص ٣٢٨.

(٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٢٠، ص ٧٥؛ ج ٥٣، ص ٤٠٥؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ١١.

وهو تحت قبة النسرة^(١)، ولم تقتصر حلقات إلقاء القرآن ومجالسه على هذا الجامع، بل كانت تتم في كل الجوامع والمساجد، وكان يشرف عليها كبار القراء والحفاظ، أما أبرز هذه المجالس والحلقات فهو:

- مجلس يحيى بن الحارث الذماري (ت، ١٤٥هـ / ٧٦٢م)، في مسجد دمشق^(٢).
- مجلس عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان (ت، ٢٤٢هـ / ٨٥٦م)، إمام الجامع في دمشق^(٣).
- مجلس هارون بن موسى بن شريك الأخفش (ت، ٢٩٢هـ / ٩٠٤م)، في جامع دمشق^(٤).
- حلقة محمد بن النضر أبي الحسن بن الأخرم الربيعي (ت، ٣٤١هـ / ٩٥٢م)، في جامع دمشق، وهي حلقة عظيمة لإتقانه ومعرفته، وفيها كان يُقرأ من بعد الفجر إلى الظهر^(٥).

- (١) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٢، ص ٦٩٤؛ قبة النسرة: قبة حرم الجامع الأموي بدمشق، وتعرف أيضاً بنسرة الجامع، أقيمت مع إقامة الجامع في عهد الوليد بن عبد الملك، وسميت بالنسرة بعدما أطلق العرب اسم هذا الطائر على المصلى والحرم؛ الشهابي، معجم دمشق التاريخي، ج ٢، ص ١١٣.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٢٨٤ - ٢٨٥؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، حققه وقيد نصه وعلق عليه: بشار عواد معروف وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، مج ١، ص ١٠٥؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢، ص ٣٦٧.
- (٣) ابن الجزري، م. ن، ج ١، ص ٤٠٤.
- (٤) ابن الجزري، م. ن، ج ٢، ص ٣٤٧ - ٣٤٨؛ الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.
- (٥) الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ٢٩١؛ سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٥٦٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، مج ٤، ص ٢٢٤؛ للمزيد عن إلقاء القرآن وحلقات ومجالس تعليمه، انظر: علم القراءات الذي سيرد فيما بعد.

ومن الجدير بالذكر أن المساجد والجوامع في جند دمشق شهدت - إضافة إلى الحلقات والمجالس التي عقدها الشيوخ من أبنائه - حلقات ومجالس عقدها الشيوخ والعلماء الذين زاروه طلباً للعلم، ومنها:

- مجلس مقاتل بن سليمان البلخي (ت، ١٥٠هـ/٧٦٧م)، وهو محدث ومفسر، أصله من بلخ، وقدم بيروت، وجلس في جامعها، فقال: "لا تسألوني عن شيء مما دون العرش إلا أنبأتكم به"^(١).

- مجلس إبراهيم بن محمد بن الحارث الفزاري (ت، ١٨٥هـ/٨٠١م)، وهو محدث، أصله من العراق، نزل الشام وسكن الثغور، ثم زار دمشق، فاجتمع الناس للسمع منه، فقال لأبي مسهر "أخرج إلى الناس فقل لهم من كان يرى القدر فلا يحضر مجلسنا"^(٢).

- حلقة عبید الله بن عبد الكريم أبي زرعة الرازي الحافظ (ت، ٢٦٤هـ/٨٧٧م)، وهو أحد الأئمة الجوالين، أصله من الري، وقد زار دمشق في سنة ٢٢٨هـ/٨٤٢م، فلما رأى أهلها علمه ومعارفه، جلسوا للأخذ عنه، فلما أراد الانصراف، قال له يزيد بن عبد الصمد - أحد تلاميذه - "يا أبا زرعة اجعلني خليفتك في هذه الحلقة، فقال له: قد جعلتك"^(٣).

علاوة على ذلك عرفت المساجد والجوامع مجالس للمناظرة، وهذه المجالس لم تكن حلقات تعليمية بالمعنى الصحيح غير أنها ساعدت في تطوير التعليم إلى حد كبير إذ كان يحضرها الطلبة، هذا ومن المعروف أن

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٠، ص ١١١.

(٢) العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١، ص ١٣٧.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٨، ص ١٣.

المناظرات شغلت دوراً كبيراً في الثقافة الإسلامية، وفي تفكير المسلمين ونظام التعليم لديهم، إذ كانت تعتمد على سرعة التعبير، وكان من شروطها أن يكون المتناظرون ملمين بعلوم شتى، وأن تكون معارفهم ذات ترتيب منطقي، وفيها كان يتم بحث مواضيع مختلفة من دينية وأدبية وغيرها، أما عقدها فكان يتم مصادفةً في أغلب الأحيان^(١)، وأبرز هذه المجالس:

- مجلس قاضي القضاة يحيى بن أكثم (ت، ٢٤٢هـ / ٨٥٦م)، في الجامع الأموي، وفيه أجرى مناظرات مع الشيوخ والعلماء، ثم سألهم عن أوثق أصحاب الأوزاعي^(٢).

- وهناك المجلس الذي جمع عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان (ت، ٢٤٢هـ / ٨٥٦م)، ومحمود بن خالد بن يزيد أبو علي السلمي (ت، ٢٤٧هـ / ٨٦١م)، وعبد الرحمن بن إبراهيم الملقب بدحيم (ت، ٢٤٥هـ / ٨٦٠م)، وعبد الرحمن بن عمرو أبو زرعة النصري (ت، ٢٨١هـ / ٨٩١م) في جامع دمشق، وفيه تحدثوا عن أعمال عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وأعمال معاوية بن أبي سفيان، ثم دار نقاش بين أبي زرعة ودحيم حول المقدمين من علماء الشام حسب طبقاتهم^(٣).

ولم تقتصر الدراسات في الجوامع والمساجد على ما تقدم (أي الجوانب الدينية) بل تعدتها إلى ما سواها من معارف ذلك العصر، وبرغم أن

(١) أحمد، منير الدين، تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري، ترجمة: سامي الصقار، الرياض، دار المريخ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ٥٦ - ٥٨.

(٢) المزي، تهذيب الكمال، مج ١٦، ص ٤٢٢.

(٣) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ٥٩٦ - ٦٠٢؛ أبيض، مؤسسات التربية العربية في الشام، ج ١، ص ١٢٥.

المصادر لم تذكر حلقات أو مجالس أدبية شهدتها جوامع ومساجد جند دمشق خلال هذه المدة، لا بد من القول إن هذه الدراسات كانت تجد طريقها إلى الجوامع والمساجد تماماً كما كان يحصل في مساجد العراق وغيره من الأمصار^(١)، كما أن المساجد والجوامع عرفت حلقات ومجالس للوعظ والزهد والتفسير وغيرها.

ومما أسهم في زيادة النشاط التعليمي والثقافي للمساجد والجوامع تأمينها السكن للطلاب والمعلمين الغرباء، فعندما جاء المؤرخ والمفسر محمد بن جرير الطبري (ت، ٣١٠هـ / ٩٢٣م)، إلى بيروت، أقام تسع ليالٍ بييت في المسجد الجامع بها، حتى ختم القرآن بالرواية الشامية تلاوة على العباس بن الوليد البيروتي^(٢). وعندما انتقل المحدث المصري محمد بن أحمد بن خالد الأعدالي (ت، ٣٤٩هـ / ٩٥٨م)، إلى دمشق، سكن بمسجد الزيتون، وصار يحدث فيه^(٣).

وبذلك تكون المساجد والجوامع قد أدت دوراً كبيراً في الحياة الفكرية، إضافة إلى دورها الديني، إذ كانت قبلة أنظار الطلاب والأساتذة، وتخرج من حلقاتها ومجالسها علماء متخصصون بعلوم ومعارف متنوعة.

ثالثاً - المكتبات:

يظهر من بعض المصادر والدراسات أن دمشق وجد فيها خلال العصر الأموي خزائن للكتب الكبيرة، كانت تحتوي على دفاتر وكتب ومؤلفات

(١) حول الحلقات والمجالس الأدبية في مساجد العراق، انظر: شليبي، التربية الإسلامية، ص ١١١-١١٢.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ١٩١؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢، ص ١٠٦-١٠٧.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥١، ص ٣٤.

كثيرة، وخصص لها موظفين لحفظ الكتب ونسخها وترجمتها^(١)، ولكن منذ أواخر العصر الأموي يختفي ذكر تلك الخزائن، ورغم أن المصادر لم تقدم أية معلومات حول مصيرها بعد سيطرة العباسيين على الخلافة، من المرجح أنها بقيت، فاستفاد منها كثير من أبناء الشام، أو أنها كانت الأساس الذي اعتمد عليه العباسيون في المكتبات التي أقاموها.

إلى جانب الاهتمام الرسمي بإنشاء المكتبات واقتناء الكتب، ظهر منذ القرن الأول الهجري اهتمام كثير من طالبي العلم باقتناء الكتب، فأخذ بعضهم يجمع الكتب، ويصنف المصنفات بحرص كبير حتى إنه كان يحفظها في غلاف له أزرار وعُرا، كما عرف عن بعضهم توريث كتبه إلى تلاميذه، ومع القرن الثاني الهجري كثرت المؤلفات والمصنفات في مجال الحديث والفقه، فكان الطلبة يتناقلونها بالنسخ أو بالشراء من الأسواق، وهكذا استمر الحال في القرن الثالث الهجري مع ازدياد عدد الكتب والمؤلفات التي تصنف وتنسخ وتداول^(٢)، وهكذا كان بدء إنشاء المكتبات الخاصة.

هذا وترجع الدراسات وجود خزانة للكتب الموقوفة بدمشق، وذلك استناداً إلى وجود وقف للمصاحف في الجامع الأموي، ويدل على ذلك العثور على جزء من مصحف مكتوب على الرق، كُتب عليه: "وقف هذه الأجزاء،

(١) القفطي، إخبار العلماء، (طبعة مكتبة المثنى)، ص ٣٢٤ - ٣٢٥؛ العشي، يوسف، دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، ترجمه عن الفرنسية: نزار أباطة، محمد صباغ، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ص ٤٣ - ٤٥، ٤٩، ٥١؛ طلس، التربية والتعليم في الإسلام، ص ٩٥؛ أبيض، مؤسسات التربية العربية في الشام، ج ١، ص ١٦٣.

(٢) أبيض، مؤسسات التربية العربية في الشام، ج ١، ص ١٦٣ - ١٦٤.

وهي ثلاثون جزءاً في المسجد الأموي بدمشق عبد المنعم بن أحمد طلباً لثواب الله
وابتغاء مرضاته في ذي القعدة سنة ثمان وتسعين ومئتين / تموز ٩١١ م^(١).

ومهدت ظاهرة وقف الكتب الطريق أمام ظهور المكتبات العامة
الغنية بمختلف أنواع الكتب، والتي شغلت دوراً كبيراً في الحياة العلمية
عند المسلمين.

رابعاً: مراكز آخر للتعليم:

كان هناك مراكز آخر أسهمت في نشر العلم وتوسيع التعليم ونشر
الثقافة، ومنها منازل العلماء والشيخوخ، إذ شاع في هذه المدة تعليم الشيخوخ في
بيوتهم، فكان الطلبة يرتادونها ليسألوا الشيخوخ أو لسمعوا منهم، وكان
الشيخوخ الذين جعلوا من منازلهم ملتقى الطلاب يستقبلون روادهم بكل
ترحيب، بينما التزم الطلاب الذين زاروا الشيخوخ في منازلهم بالوقار
والاحترام، ومن الشيخوخ الذين علموا في منازلهم:

- هارون بن موسى بن شريك الأحنف المقي (ت، ٢٩٢هـ / ٩٠٤م)،
فقد روى تلميذه أبو الحسن محمد بن النضر الربيعي المعروف بابن الأخرم
المقي (ت، ٣٤١هـ / ٩٥٢م)، أنه كان يقرأ عليه في منزله أحياناً، وفي
المسجد في أحيان آخر^(٢).

- محمد بن يوسف بن بشر الهروي الحافظ (ت، ٣٣٠هـ / ٩٤١م)،
حدث بدمشق في منزله بسوق النحاسين في الدار المعروفة بدار بني عوف^(٣).

(١) العث، دور الكتب العربية العامة، ص ١٦٦.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٦، ص ١٢١.

(٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٥٦، ص ٣٠٨.

- القاضي أحمد بن سليمان بن حذلم (ت، ٣٤٧هـ/٩٥٨م)، كان له - إضافة إلى حلقاته الفقهية في جامع دمشق - مجلس إملاء في داره كل يوم جمعة^(١).

كما أن بعض الشيوخ والعلماء كانوا يلقون دروسهم في الدكاكين والأماكن العامة، ومن ذلك أن أبا العباس الوليد بن عتبة الأشجعي (ت، ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، كان يعلم في مسجد باب الجابية، فكان رجل يأتي وقد فاته بعض المجلس، فكان الوليد يعيده عليه، فلما كثر ذلك، نبهه الشيخ أنه إذا لم يأت مثل الآخرين في بداية المجلس فلن يعيد عليه شيئاً، فرد الرجل قائلاً: "يا أبا العباس أنا رجل مُعيل، ولي دكان في بيت لهما، فإن لم أشتري لها حويجاتها من غدوة ثم أغلق وأجبيء أغدو، وإلا خشيت أن يفوتني معاشي، فقال الوليد بن عتبة: لا أراك ها هنا مرة أخرى، فكان الوليد بن عتبة يقرأ... المجلس ويأخذ الكتاب، ويمر إلى بيت لهما، حتى يمر يقرأ عليه المجلس في دكانه"^(٢).

ومن الذين درّسوا في الأماكن العامة أيضاً عبد الرحمن بن سعيد الخير، وهو محدث حمصي قدم دمشق في القرن الرابع الهجري، فحدث بها عند مسجد الثقفين في المربعة عند دار كروس^(٣).

ومن المراكز التعليمية أيضاً الربط، ومنها رباط الجهاد التي أقيمت على سواحل بلاد الشام للدفاع عنها، وقد كانت بيروت رباط سكان دمشق

(١) الكتاني، ذيل تاريخ، ص ٧٧؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧١، ص ١٥٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٥١٤-٥١٥.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٥، ص ٨٢؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج ٢٣، ص ١٦٢-١٦٣.

(٣) ابن منظور، م، ج ١٤، ص ٢٥٦؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٤، ص ٣٨٤.

وجندها، وإليها كانوا ينفرون عند استنفارهم^(١)، أما الدور التعليمي لرباط الجهاد، فيتجلى في قدوم كثير من المحدثين والفقهاء للمرابطة فيها بصورة دائمة أو مؤقتة، فكانوا أثناء وجودهم يقومون بالتحديث والإقراء والتفقيه إضافة إلى دورهم الجهادي^(٢). كما كان هناك رباط للزهاد والمتصوفة^(٣).

٢ - تعليم المرأة:

من المعروف أن الإسلام شجع على تعليم المرأة، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ومن خلال ما يرد في المصادر يتبين أن البنات كنّ يترددن على الكُتّاب لتلقي التعليم:

فقد ذكرت بعض المصادر أن الوليد بن عبد الملك مرَّ على معلم كُتّاب، فوجد عنده صبّية، فسأله ما تصنع هذه عندك، قال: أعلمها الكتابة والقرآن، فطلب منه أن يجعل تعليمها إلى من هو أصغر منها سنًا^(٤). كما أكد ابن سحنون أن البنات كنّ يترددن إلى الكُتّاب، وعلق على ذلك قائلاً: "وأكره للمعلم أن يعلم الجوارِي ولا يخلطهن مع الغلمان لأن ذلك فساد لهم"^(٥).

على أن الاهتمام بتعليم الفتيات في الكتاتيب كان يقتصر على تحفيظهم القرآن الكريم ولا سيّما سورة النور، وإلى هذا أشار الجاحظ عندما أورد

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٢.

(٢) أبيض، مؤسسات التربية العربية في الشام، ج ١، ص ١٤٩.

(٣) انظر: الزهد والتّصوف في الفصل الثاني.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٢٠٣؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤، ص ٤٢٤.

(٥) كتاب آداب المعلمين، ص ١١٧.

قولاً للعرب وهو: "لا تعلموا بناتكم الكتاب ولا تُروهنّ الشعر، وعلموهن القرآن، ومن القرآن سورة النور"^(١). ويبدو أن هذا القول أثر سلباً على تعليم المرأة، وأدى إلى قلة المتعلّقات في العصور اللاحقة.

وفي سياق الحديث عن تعليم البنات، تجدر الإشارة إلى أن بعضهن كان يتردد إلى حلقات القراء في المساجد، ذكر ابن عساكر أن أم الدرداء كانت "يتيمة في حجر أبي الدرداء تختلف مع أبي الدرداء في بُرُوسٍ تصلي في صفوف الرجال، وتجلس في حلق القراء تعلّم القرآن حتى قال لها أبو الدرداء يوماً: الحقي بصفوف النساء"^(٢).

وفيما يخصّ تدريس البنات عندما يكبرن، فكان يتم في البيوت^(٣)، أما الجوّاري فكاننّ يحظين باهتمام كبير من أسيادهن، ويعلمن النحو والشعر والغناء وآداب المجتمع^(٤).

ومهما يكن الأمر فإن كتب التاريخ والأدب تزخر بالحديث عن عدد من النساء اللواتي نبغن في الأدب والشعر والعلم، وفي هذا أكبر دليل على انتشار التعليم بين النساء، ومن المفيد هنا ذكر بعض اللواتي نبغن في جند دمشق، ومنهن:

- رواحة بنت أبي عمرو وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي البيروتية: كانت محدثة، روت الحديث عن أبيها، وروى عنها المحدثون^(٥).

(١) البيان والتبيين، ج ٢، ص ١٨٠.

(٢) تراجم النساء، ص ٤٢٢.

(٣) أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٧٢.

(٤) أحمد، م.ن، ص ٨١.

(٥) ابن عساكر، تراجم النساء، ص ١٠٠.

- زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمية: كانت مع أهلها بالحميمة من أرض البلقاء، وهي زوج إبراهيم بن محمد الإمام، كانت من أفاضل النساء، حدثت عن أبيها، وعاشت إلى أيام المأمون^(١).

- كتيبة بنت الوقعة السعدية: شاعرة، قالت بعض الأشعار في فتنة أبي الهيثام^(٢).

- امرأة عنسية: شاعرة من أهل داريا، رثت ابن عم لها قتل في فتنة أبي الهيثام، كما قالت بعض الأشعار تبكي ابناً لها قتل في الفتنة نفسها^(٣).

٣ - طرائق التعليم:

اتبع المحدثون طرائق متعددة في تدريس الحديث، منها:

- السماع: ويعني سماع الأستاذ يلقي من كتاب أو من الذاكرة، وهو أعلى طرائق التعليم، لأنه يتيح للطالب الاطلاع على الأحاديث نصاً ولفظاً، ولم يكن يسمح للطلاب بالكتابة أثناء السماع، وهذا ما دفع الشيوخ إلى عقد مجالس يملون فيها ما سبق لهم أن ألقوه، على أن بعض الشيوخ كان يجمع بين الإلقاء والإملاء معاً^(٤)، ومن الأمثلة على السماع: قال يحيى بن معين: كان صدقة بن خالد الدمشقي (ت، ١٧٠ أو ١٨٠ هـ/ ٧٨٦ أو ٧٩٦ م)،

(١) ابن عساكر، م.ن، ص ١١٤.

(٢) ابن عساكر، م.ن، ص ٣١٣.

(٣) ابن عساكر، م.ن، ص ٥٨٨.

(٤) أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين، ص ٦٣.

"يكتب عند المحدثين في ألواح، وأهل الشام لا يكتبون عند المحدث يسمعون، ثم يجيئون إلى المحدث، فيأخذون بسماعهم منه"^(١).

ويستخدم المحدث في رواية الأحاديث التي سمعها لفظ "حدثنا" أو "أخبرنا"، وهذا ما أشار إليه الأوزاعي بقوله لأحد تلاميذه:

ما قرأته عليك وحدك، فقل فيه حدثني.

ما قرأته على جماعة أنت فيهم، فقل فيه حدثنا.

وما أخبرته لك وحدك فقل فيه أخبرني.

وما أخبرته لجماعة أنت فيهم فقل فيه أخبرنا^(٢).

إضافة إلى ما سبق كان المحدث يستخدم في السماع أحياناً لفظ "سمعتُ"^(٣).

- الإماء: تقوم على أن يملي الشيخ من حفظه أو من كتاب بين يديه، وهي طريقة لا يتطرق إليها أي نوع من الفساد لأن المحدث يعرف ما يملي والطالب يسمع ويفهم ما يكتب^(٤).

وكان لمجالس الإماء آداب خاصة ومنها: أن المحدث كان يستعد لمجلس الإماء بإصلاح هيئته ومظهره الخارجي الذي يجمّله عند الحاضرين^(٥)،

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٤، ص ١٣.

(٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٦٣، ص ٢٧١.

(٣) الأطرابلسي، من حديث خيشمة، (مقدمة المحقق)، ص ٥٠.

(٤) السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت، ٥٦٢هـ/١١٦٦م)، أدب الإماء والاستملاء، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص ١٠.

(٥) السمعاني، أدب الإماء والاستملاء، ص ٢٥-٣٢.

وكان في طريقه إلى المجلس يلقي السلام على كل من يلتقي به من المسلمين، فإذا وصل المجلس منع من يكون جالساً من القيام له، ثم كان يصلي ركعتين ثم يجلس متربعاً متخشعاً، ويستعمل لطيف الخطاب مع أصحابه وأهل مجلسه^(١).

وكان المملي يعين مجلس الإملاء مسبقاً لئلا ينقطع الناس عن أشغالهم وليستعدوا لإتيانه^(٢)، وكانت مجالس الإملاء تعقد عادة في المساجد ولا سيما أيام الجُمُع، وخلال المجلس يجلس المحدث تجاه القبلة، ولا يحدث إلا عن طهارة ولا يحدث إلا من كتاب، لأن الحفظ خوَّان ثم يفتح بقراءة سورة من القرآن الكريم، ثم يرفع صوته بالقدر الذي يسمع الحاضرين قائلاً ما يريد أن يمليه على أنه يستحب أن يجلس على منبر أو موضع مرتفع ليراه الحضور^(٣).

كان المحدث لا يروي إلا عن الثقات، ويجتنب الرواية عن الضعفاء والمخالفين من أهل البدع والأهواء^(٤)، وكان يركز على إملاء الأحاديث الفقهية التي تفيد معرفة الأحكام الشرعية من العبادات وما يتعلق بحقوق المعاملات، كما كان يملئ الأحاديث التي ترغَّب في فضائل الأعمال وتحث على الخير وترهِّد في الدنيا^(٥). ويحرص المحدث على عدم إطالة المجلس كراهة إملال السامع وإضجاره، وينتتم مجلسه بالنوادر والحكايات ثم يتبعها بالأناشيد والأشعار^(٦).

(١) السمعاني، م.ن، ص ٣٣ - ٣٦.

(٢) السمعاني، م.ن، ص ٣٨.

(٣) السمعاني، م.ن، ص ٤٢ - ٥٠.

(٤) السمعاني، م.ن، ص ٥٥ - ٥٦.

(٥) السمعاني، م.ن، ص ٦٠.

(٦) السمعاني، م.ن، ص ٦٦ - ٧٠.

ويستعين المملي عندما تكون المجالس كبيرة بمستملٍ مساعدٍ مهمته تكرار ما يقوله ليسمعه البعيدون، ويختار المستملي من أفصح الحاضرين لساناً وأوضحهم بياناً وأحسنهم عبارة وأجودهم أداءً، ويجب أن يكون جهوري الصوت ومتيقظاً، ويقوم بواجبه واقفاً أو وهو جالس على موضع مرتفع بحيث يراه الحضور، وكان من مهامه أيضاً أن يستنصت الناس، وكان المملي يزيد عدد المستملين كلما زاد الحضور^(١).

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشيوخ والعلماء كانوا يعرفون عدد الطلاب الذين يحضرون مجالسهم، وذلك بإحصاء محابريهم التي يضعونها أمامهم والتي كانت أهم عتاد الطالب^(٢).

ومن مجالس الإملاء التي اشتهرت: بعض مجالس أبي مسهر الغساني وحلقاته، وفيها كان يملي من كتاب يحيى بن حمزة^(٣)، ومجلس إملاء خيثمة بن سليمان بن حيدرة القرشي الأطرابلسي في المسجد الجامع بدمشق، الذي تُوِّفِّي سنة ٣٤٣هـ/٩٥٤م^(٤).

- العرض: هو قراءة الطالب بحضور أستاذه من كتاب أستاذه أو من نسخته أو من ذاكرته، أو قد يكون العرض بمراجعة الأستاذ للنصوص التي كتبها الطالب للتأكد من صحتها^(٥)، ومن الأمثلة على العرض:

- (١) السمعاني، م.ن، ص ٨٨-٩٧.
- (٢) متز، الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٢٣٩.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٣، ص ٤٣١.
- (٤) ابن عساكر، م.ن، ج ١٧، ص ٧٠.
- (٥) أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ٢٨٦.

قال محمد بن شعيب بن شابور (ت، ٢٠٠هـ/٨١٥م)، لقيت الأوزاعي،
ومعني كتاب كتبه من أحاديثه، فقلت له: يا أبا عمرو، هذا كتاب كتبه من
أحاديثك، فأخذه الأوزاعي وانصرف إلى منزله، وانصرفت، فلما كان بعد أيام
لقيته، "فقال: هذا كتابك قد عرضته وصححته، قلت: يا أبا عمرو أفأروي
عنك؟ قال: نعم، فقلت: أذهب، فأقول: أخبرني الأوزاعي؟ قال: نعم" ثم
أضاف محمد بن شعيب: "لأن عرضه مرة أحب لي من أن أسمعه مرتين"^(١).

وقال محمد بن مصعب بن صدقة القرقيساني (ت، ٢٠٨هـ/٨٢٣م)،
"كنت آتي الأوزاعي، فيحدث بثلاثين حديثاً، فإذا تفرق الناس عرضتها
عليه، فلا أخطئ فيها، فيقول الأوزاعي، ما أتاني أحفظ منك"^(٢). وقد فضل
بعض الشيوخ العرض على غيره من طرائق التعليم، قال العباس بن الوليد
بن مزيد البيروتي: "سمعت من أبي وعرضت عليه، والعرض أصح"^(٣).

- الإجازة: هي أن يسمح الشيخ للآخرين بالرواية عنه، وقد تشدد
المحدثون في سماع الأحاديث وكتابتها من المحدثين شخصياً، لذلك فقد
اختلفوا في صحة الإجازة فوصفها بعضهم بالضعف، وأبطلها بعضهم
الآخر قائلًا: "لو صحت الإجازة بطلت الرحلة"^(٤).

وللإجازة أشكال عديدة منها: المناولة وهي أن يسلم الشيخ بعض كتبه
التي كتبها أو كلها لعالم آخر أو لطالب، ويخبره بأسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم،

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٢) ابن عساكر، م، ج ٥٥، ص ٤٠٢؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٣، ص ٢٧٧.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٦، ص ٤٥٢.

(٤) السمعاني، أدب الإملاء والاستملاء، ص ١٠.

والأسلوب الذي بوساطته حصل عليها، ثم يسمح له بروايتها عنه^(١)، وفي المناولة كان المحدث يقول: قال فلان أو عن فلان^(٢)، على أن المناولة لم تكن مستحبة، وإلى ذلك أشار الأوزاعي بقوله: "كان هذا العلم كريماً يتلاقاه الرجال بينهم، فلما دخل في الكتب دخل فيه غير أهله"^(٣).

ومن أشكال الإجازة أيضاً المراسلة وفيها يرسل الشيخ أحاديث معينة أو أجزاء من كتب، ويسمح لمن أرسلت إليه بروايتها.

- الوصية: يوصي الشيخ بكتبه إلى أحد تلاميذه أو أقاربه أو معارفه فتصير إليه بعد وفاته^(٤)، ومثال ذلك: أوصى عبد الله بن زيد أبو قلابه الجرمي (ت، ١٠٤هـ/٧٢٢م)، بمصنفاته إلى تلميذه البصري أيوب السختياني لذلك عندما توفي، أرسل أيوب في طلبها، فجيء بها إليه، وكانت عدل راحلة، فاستفاد منها في تدريسه، وقد سأل أيوب صديقه محمد بن سيرين عما إذا كان يؤيد ذلك، فأجابه: "لا أمرك ولا أنك"^(٥).

- الوجدادة: هي أن يعثر الشيخ على كتاب أو يشتري كتاباً من السوق، فيتبني ما وجد في الكتاب ويرويّه، ومثال ذلك معاوية بن يحيى الصدفي الدمشقي - كان يلي بيت المال للمهدي - اشترى كتاباً من السوق للزهري، وصار يرويّه عنه^(٦).

(١) أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ٢٨٦.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ١٨٧.

(٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٥، ص ١٨٨.

(٤) أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ٢٨٧.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٨، ص ٣١٠.

(٦) ابن عساكر، م.ن، ج ٥٩، ص ٢٨٣ - ٢٨٥.

ومن الجدير بالذكر أن الطرائق الثلاث الأخيرة (الإجازة والوصية والوجادة) جرّحت في البداية، ووصفت بالضعف، غير أن ازدهار صناعة الورق وانتشار الكتب أدى إلى ازدياد انتشارها.

ويشير المحدث - عادة - إلى الطريقة التي حصل بها على الأحاديث، فيقول فيما سمعه "حدثنا فلان" أو "خبرنا فلان" أو "سمعتُ فلاناً"، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، أما الأحاديث التي يحصل عليها بالطرق الأخرى، فكان عند روايتها يقول: "عن فلان" أو "قال فلان"^(١).

وتجدر الإشارة إلى أن المحدثين كانوا يفضلون في القرن الأول الهجري تدريس عدد قليل من الأحاديث في الجلسة الواحدة، فقد عاتب أحد التلاميذ الأوزاعي لأنه لم يسمع منه إلا ثلاثين حديثاً في أربعة أيام، فردّ عليه الأوزاعي قائلاً: إن فلاناً من المحدثين سافر من المدينة إلى مصر ليسمع حديثاً واحداً ثم عاد إلى المدينة، وأنت تستقل ثلاثين حديثاً في أربعة أيام^(٢)، على أن المصادر تذكر في خبر آخر أن الأوزاعي كان يحدث بثلاثين حديثاً في المجلس الواحد^(٣).

هذا وتشير الدراسات إلى أن المحدثين صاروا مع انتشار الكتب واستخدامها في القرنين الثاني والثالث الهجريين يدرسون عدداً أكبر من الأحاديث^(٤).

(١) ابن عساکر، م.ن، ج ٤٦، ص ٦٧؛ ج ٣٥، ص ١٨٧.

(٢) ابن عساکر، م.ن، ج ٤٦، ص ٦٩.

(٣) ابن عساکر، م.ن، ج ٥٥، ص ٤٠٢؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٣، ص ٢٧٧.

(٤) أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ٢٩١.

أما تدريس الفقه، فكان يعتمد على المناقشة والأسئلة والأجوبة، فالطلبة يوجهون الأسئلة والفقيه يجيب عنها، فيقوم الطلبة بتسجيل الإجابات وإذا تميز أحد الطلبة بقدرة جيدة على صياغة الأسئلة كان يكلف بطرحها^(١).

ومما هو جدير بالذكر أن الشيوخ والعلماء كانوا يتدرجون عادة في دروسهم من السهل إلى الصعب، وإذا تعددت الدروس كانوا يقدمونها حسب أهميتها، فالأهم أولاً ثم ما يليه من حيث الأهمية، فيقدمون تفسير القرآن ثم الحديث ثم أصول الدين ثم أصول الفقه ثم المذهب ثم النحو... إلخ، وكانوا يطرحون على الطلبة بعد الفراغ من شرح الدروس مسائل تتعلق بها بهدف امتحان فهمهم وضبطهم^(٢)، كما عرف عن بعض الشيوخ استخدام الإشارات الحسية كوسيلة معينة على الفهم، ذكر ابن عساكر أن محمد بن النضر الربعي المقرئ المعروف بابن الأخرم (ت، ٣٤١هـ / ٩٥٢م)، كان يساعد من يقرأ عليه القرآن الكريم بإشارات عرفت عنه وفهمت لمواظبته عليها، فكان يشير بيده أو بفيه مرة إلى الفتح، ومرة إلى الضم، ومرة إلى الكسر، ومرة إلى الإدغام، ومرة إلى الإظهار وغير ذلك^(٣).

(١) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، مج ٤، ص ٢٥١ - ٢٥٢؛ أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ٣٠٦.

(٢) ابن جماعة، محمد بن إبراهيم بن سعد الله (ت، ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م)، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، حققه وعلق عليه: السيد محمد هاشم الندوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص ٤٤.

(٣) تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٦، ص ١٢٢.

٤ - العلاقة بين أهل العلم:

تمتع رجال العلم والفكر بقدر كبير من الاحترام في المجتمع، فانعكس هذا التقدير في سلوك العلماء بعضهم تجاه بعض أساتذة وطلاباً، فالأساتذة كانوا إذا التقوا في مجلس واحد يعطون الأولوية في الكلام لأكبرهم سناً أو أكثرهم علماً، فالأوزاعي كان إذا سئل عن مسألة وسعيد بن عبد العزيز حاضر قال: سلوا أبا محمد، وذلك تعظيماً له^(١)، وكان الوليد بن مسلم إذا سئل عن مسألة ومحمد بن شعيب بن شابور جالس قال لصاحب المسألة: سل أبا عبد الله^(٢).

وكان الأساتذة يرعون طلابهم ويعاملونهم باحترام كما يعاملون أولادهم، قال سعيد بن عبد العزيز: "كنا عند مكحول كبعض ولده"^(٣)، وكانوا يساوون بين الطلبة ولا يفضلون أياً منهم إلا على أساس اجتهاده وتحصيله، وكانوا يكافئون النابهين منهم ويكرمونهم بأن يسمحوا لهم بالإفتاء في مجالسهم إذا لمسوا فيهم القدرة على ذلك، فالأوزاعي كان يسمح لتلميذه محمد بن شعيب بن شابور بالإفتاء في مجلسه^(٤)، كما كانوا يجلسون المتفوقين معهم في صدر المجلس أحياناً، فسعيد بن عبد العزيز كان يسند أبا مسهر معه في صدر المجلس^(٥).

(١) ابن عساکر، م.ن، ج ٢١، ص ٢٠٠.

(٢) ابن عساکر، م.ن، ج ٥٣، ص ٢٥٠.

(٣) ابن عساکر، م.ن، ج ٢١، ص ١٩٨.

(٤) ابن عساکر، م.ن، ج ٥٣، ص ٢٥٠؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٣٠.

(٥) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٣، ص ٤٢٩.

وخير ما يوضح احترام الأستاذ لطلابه وتقديره لهم ما نقله ابن عساكر عن الأوزاعي، وقد شيع بعض طلبته عند انصرافهم من عنده، فأبعد في تشييعهم حتى مشى معهم فرسخين أو ثلاثة، وعندما رجوه أن يعود لصعوبة المشي عليه بسبب كبر سنه، رد عليهم قائلاً: "امشوا واسكتوا، لو علمت أن الله طبقة أو قوماً يباهي الله بهم، أو أفضل منكم لمشيت معهم وشييعتهم، ولكنكم أفضل الناس"^(١).

وكان الأستاذ إذا أسرف أحد الطلبة في الغياب يسأل عنه ويستفسر عن أحواله، فإن لم يُجبر بشيء أرسل إليه أو قصده بنفسه للاطمئنان عليه^(٢)، وكان الأستاذ يترحب بالطلبة إذا لقيهم وعند إقبالهم عليه ويكرمهم إذا جلسوا إليه، ويعاملهم بطلاقة الوجه ويطمئن على أحوالهم^(٣).

أما الطالب فكان ينقاد لأستاذه ولا يخرج عن رأيه، ويظهر الإجلال له، ويخاطبه بأقوال تظهر الاحترام والتقدير، أمثال: يا سيدي، يا أستاذي، أيها الحافظ، أيها العالم^(٤)، وكان لا يدخل على الشيخ في غير المجلس العام إلا باستئذان سواء كان الشيخ وحده أم معه غيره، فإذا أذن له وكان مع الطالب جماعة، كان يقدم أفضلهم وأسنهم بالدخول والسلام^(٥).

(١) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٥، ص ١٩١.

(٢) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص ٦٦ - ٦٧.

(٣) ابن جماعة، م.ن، ص ٧٠.

(٤) ابن جماعة، م.ن، ص ٨٩ - ٩٠.

(٥) ابن جماعة، م.ن، ص ٩٤ - ٩٥.

ويحضر الطالب درس الشيخ بأدب واحترام، ويتعد عن العادات المكروهة، ويستخدم لطيف الكلام في سؤاله وجوابه، ويصغي إلى الشيخ، ويستفيد مما يلقيه ولا يقاطعه في الكلام^(١).

كما كان الطالب يستشير أستاذه وشيوخ بلده ويسألهم النصح فيمن يسمع عنه، قال الوليد بن مسلم: "كنت إذا أردت أن آتي الشيخ أسمع منه سألت عنه قبل أن آتية الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز - يعني التنوخي - فإذا أمرني به آتيته"^(٢).

أما فيما يخص أوضاع العلماء والطلبة، فمن المعروف أن الدولة لم تكن تشرف على التعليم، ولا تنفق عليه من ميزانيتها، ومن ثمّ فالعلماء والطلبة كانوا يعلمون ويتعلمون على حسابهم الخاص، وإذا كانت المصادر قد أوردت بعض الأخبار عن أعطيات من بعض رجال الدولة والأمراء لبعض العلماء^(٣)، فإن هذه الأعطيات لم تكن تشمل كل الذين يعملون بمهنة التعليم، مما اضطر بعضهم وبسبب الحاجة إلى أخذ الأجر على التعليم، ومثال ذلك محمد سليمان بن أحمد البعلبكي (ت، ٣٥٤هـ/٩٦٥م)، وقد دفعته الحاجة إلى أخذ الأجر على تعليم القرآن الكريم^(٤).

وقد عرف عن بعض العلماء رفض أخذ الأجر على التعليم، فالإمام الأوزاعي رفض هدية أصحاب الحديث عندما اجتمعوا وجاؤوا حاملين

(١) ابن جماعة، م.ن، ص ٩٨-١٠٥.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٣، ص ٢٨٥.

(٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٥، ص ١٩٨، ٢١١؛ ج ٤٩، ص ١٢٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء،

ج ١١، ص ٤٢٨؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ٣٠، ص ٢٥١.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ١١٥.

هديتهم للسماح منه، قائلاً لهم: "أنتم بالخيار إن شئتم قبلت هديتكم ولم أحدثكم، وإن شئتم حدثتكم ورددت هديتكم"^(١).

على أن بعض العلماء لم يرَ بأساً في أخذ الأجر على التعليم كما مع هشام بن عمار (ت، ٢٤٥هـ/١٨٥٩م)، الذي كان يأخذ على الحديث، ولا يحدث ما لم يأخذ^(٢).

أما بالنسبة لأوضاع الطلبة، فبحكم أن مسؤولية حصولهم على التعليم كانت تقع على عاتقهم وعلى عاتق أسرهم، فقد اضطر بعضهم بسبب الحاجة إلى الجمع بين العمل والتعلم، ومثال ذلك الشاعر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت، ٢٣١ أو ٢٣٢هـ/٨٤٥ أو ٨٤٦م)، الذي كان يعمل عند حائك في دمشق، وعندما انتقل إلى مصر صار يعمل في سقاية الماء بباب الجامع لتوفير المال اللازم لمتابعة الدراسة فيها^(٣).

هذا وقد عرف عن بعض الآباء الاهتمام بتعليم أولادهم، وصرف الغالي والنفيس في سبيل ذلك، فعمار والد هشام بن عمار باع منزله بعشرين ديناراً، ليرسل ابنه هشاماً - وهو ما زال صبيّاً - ليحج ويمرّ على مجلس الإمام مالك في المدينة، فيسمع منه ويتعلّم عليه^(٤).

- (١) ابن عساکر، م.ن، ج ٣٥، ص ١٩٨.
- (٢) المزي، تهذيب الكمال، مج ٣٠، ص ٢٤٩؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ٤٨.
- (٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٢، ص ١٧.
- (٤) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٤، ص ٣٣؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١١، ص ٤٢٨-٤٢٩.

٥ - آداب العالم والمتعلم:

إن الحديث عن التعليم ومراكزه، وطرائقه، والعلاقة بين أهل العلم وأوضاعهم يقودنا إلى الحديث عن جانب مهم كان يراعى في العملية التعليمية وقتئذٍ، وهو أن كلاً من العالم والمتعلم يجب أن يتحلى بشروط وآداب خاصة، وهذا ما أشارت إليه المصادر التي عرضت للتربية والتعليم عند العرب، فقد أجملت الشروط الواجب توافرها في العالم أو المدرس في ثلاثة جوانب هي: آداب العالم في نفسه، وفي درسه، ومع طلبته مطلقاً في حلقاته.

فمن آداب العالم في نفسه: دوام مراقبة الله تعالى في السر والعلن، ودوام السكينة والخشوع والوقار، وصيانة العلم بالترفع عن الأغراض الدنيوية، والترفع عن الأعمال المكروهة كالحجامة، والدبابة، والصرف، والصياغة، وتجنب مواقع التهم، والمحافظة على شعائر الإسلام، وملازمة تلاوة القرآن الكريم، وذكر الله تعالى بالقلب واللسان، والتحلي بكمكارم الأخلاق، والتنزه عن الأخلاق الرديئة^(١)، والمواظبة على القراءة والمطالعة والعبادة، والحرص على أخذ الفائدة حيثما وجدت، وإن كانت من الطلبة أو ممن هم أدنى منه، ودوام الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف^(٢).

ومن آداب العالم في درسه: يجب عليه ألا يتصب للتدريس إذا لم يكن أهلاً له^(٣)، وأن يتهيأ للدّرس، ويكون ذلك بالطّهارة والنّظافة؛ ولبس أحسن

(١) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص ٢٥ - ٣٢.

(٢) ابن جماعة، م.ن، ص ٣٥، ٣٧ - ٣٨.

(٣) ابن جماعة، م.ن، ص ٥٢.

التياب اللاتقة به بين أهل زمانه، ثم يُصَلِّي ركعتين، وهو ينوي نشر العلم وتعليمه، ثم يدعو بالدعاء الصحيح المأثور عن النبي ﷺ وهو "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ وَأُزَلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلَمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ، عَزَّ جَارِكُ، وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ، ثُمَّ يَقُولُ: بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهِ، حَسْبِيَ اللَّهُ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، اللَّهُمَّ أَثْبِتْ جَنَانِي، وَأَدْرِ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِي"^(١)، ويديم ذكر الله إلى أن يصل إلى مجلس التدريس، وفي المجلس يجلس بارزاً لجميع الحضور بسكينة ووقار، ويرتفع عن الأعمال المكروهة، وينبغي له ألا يدرس في الحالات التي لا يتمكن فيها من استيفاء النظر كالجوع، أو العطش، أو الغضب، أو الهم^(٢).

ويبدأ العالم درسه بتلاوة آيات من كتاب الله تيمناً وتبركاً، ويدعو عقيب القراءة لنفسه ولجميع الحاضرين، وسائر المسلمين، ثم يدرس دروسه حسب أهميتها، فيقدم التفسير، ثم الحديث، ثم أصول الفقه، ثم المذهب، ثم النحو، ويختتم دروسه بدروس سهلة تدعو إلى تطهير الباطن، والتخلي بالزهد والصبر، ويجب على العالم أثناء الدرس أن يتحدث بصوت مسموع وواضح^(٣)، وأن يصون مجلسه عن اللغط وارتفاع الأصوات، واختلاف جهات البحث، وأن يزر من يسيء الأدب، كما يجب عليه أن يتخذ نقياً فطناً لمساعدته في ترتيب الحاضرين، وأن يلازم الإنصاف في بحثه، وأن يصغي إلى الأسئلة، ويتودد إلى الغرباء^(٤).

(١) ابن جماعة، م.ن، ص ٤٠.

(٢) ابن جماعة، م.ن، ص ٤٠-٤٢.

(٣) ابن جماعة، م.ن، ص ٤٢-٤٥.

(٤) ابن جماعة، م.ن، ص ٤٧-٥٠.

ومن آداب العالم مع طلبته مطلقاً في حلقاته: أن يقصد بتعليمهم وتهذيبهم وجه الله تعالى ونشر العلم، وإحياء الشرع، ودوام ظهور الحق، ويرغبهم في تحصيل العلم، ويكرمهم ويعتني بمصالحهم، ويتلطف في رد المسيء منهم بالنصح، ويدرب الطلاب على الفهم، وذلك بتقريب المعنى إلى أذهانهم وتوضيحه، والإعادة في الشرح والتكرار، ويختبر حفظ الطلاب وفهمهم، وذلك بطرح الأسئلة عليهم بعد الفراغ من الدرس أو أوقات مختلفة أثناء الدروس، كما يجب على العالم أن يرشد الطالب إلى العلم الذي يقدر عليه ويفهمه، وأن يذكر للطلبة قواعد إتقان العلوم وفهمها، وأن يقتصر في دروسه على العلوم التي يتقنها، وأن يساوي بين الطلبة ويكرمهم، ويسعى في مصالحهم^(١).

أما الشروط الواجب توافرها في المتعلم أو آداب المتعلم، فتنقسم إلى ثلاثة جوانب هي: آداب المتعلم في نفسه، وآدابه مع شيخه وقدوته، وآدابه في دروسه وقراءته في الحلقة، وما يعتمد فيها مع الشيخ والرفقة، فمن آداب المتعلم في نفسه: أن يظهر قلبه عن الصفات الخبيثة كالغش، والطمع، والغل، والحسد...، وأن يقصد بتعليمه وجه الله تعالى وإحياء الشريعة، وأن يبادر إلى تحصيل العلم في أوقات الشباب، ويتفرغ عن الشواغل لطلب العلم، ويقنع بما يستر من اللباس، وبما يتيسر من القوت^(٢)، وينظم أوقات

(١) ابن جماعة، م.ن، ص ٥٣، ٥٥ - ٦٠، ص ٦٣ - ٦٥.

(٢) ابن جماعة، م.ن، ص ٧١ - ٧٤؛ الزرنوجي، برهان الإسلام (ت، ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م)، كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم، تحقيق ودراسة: محمد عبد القادر أحمد، القاهرة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص ٩٢ - ٩٣، ٩٥، ١٥٤.

الليل والنهار بين التعليم والتعلم، فأفضل الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الإبداع، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل^(١).

وينبغي لطالب العلم أيضاً أن يأخذ نفسه بالأسباب المعينة على تحصيل العلم، كأكل القدر اليسير من الحلال، وأن يستعمل الأدوية التي تساعد على جودة الذهن كمضغ اللبان، وأكل الزبيب والعسل وغير ذلك، ويجب عليه أيضاً أن يتجنب الأشياء التي تؤدي إلى النسيان^(٢)، وعليه ألا يزيد نومه في الليل والنهار على ثماني ساعات، وأن يريح قلبه وذهنه وبصره، وذلك بالتنزه في أماكن البرية، كما يجب عليه أن يختار رفاقه ممن يتصفون بالتدين والورع وحسن الأخلاق^(٣).

أما آداب المتعلم مع شيخه وقدوته فمنها: يجب عليه أن يختار شيخه ممن عُرف بالعلم، والورع، وحسن الأخلاق، والآداب، وأن يطيع الشيخ ويحترمه^(٤)، وألا يدخل عليه في غير المجلس العام إلا باستئذان^(٥)، وأن يحضر جلسة الدرس بتواضع وخشوع، وهو يصغي إلى الشيخ للاستفادة مما يقوله، ويتلطف في سؤال الشيخ وجوابه، ولا يقطع كلامه^(٦)، وإذا ناوله الشيخ شيئاً تناوله باليمين، وإن ناول الشيخ شيئاً ناوله إياه باليمين^(٧).

(١) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص ٧٦.

(٢) الزرنوجي، كتاب تعليم المتعلم، ص ١٦٩-١٧٣؛ ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص ٧٦-٨٠.

(٣) ابن جماعة، م. ن، ص ٨٠-٨٥؛ الزرنوجي، كتاب تعليم المتعلم، ص ١٠٣.

(٤) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص ٨٦-٨٩.

(٥) ابن جماعة، م. ن، ص ٩٤.

(٦) ابن جماعة، م. ن، ص ٩٧-١٠٥.

(٧) ابن جماعة، م. ن، ص ١٠٦، ١٠٨؛ الزرنوجي، كتاب تعليم المتعلم، ص ١٠٨.

ومن آداب المتعلم في دروسه وقراءته في الحلقة وما يعتمد فيه مع الشيخ والرفقة: أن يتدبّر أولاً بكتاب الله العزيز فيتقنه حفظاً، ويجتهد في إتقان تفسيره وسائر علومه، ثم يحفظ من كل فن مختصراً يجمع فيه بين طرفيه من الحديث وعلومه والأصولين والنحو والتصريف، ويحرص على أن يأخذ كل فن عن من هو أحسن تعليماً له وأكثر تحقيقاً له، ويتعد في أول أمره عن الاشتغال في الاختلاف بين العلماء أو بين الناس لأن ذلك مما يجرى ذهن، ويدهش العقل^(١)، ويعتني من كل علم بالأهم فالأهم، ولا يغفلن عن العمل الذي هو المقصود بالعلم، وأن يصحح ما يقرؤه قبل حفظه^(٢)، وأن يبكر بسماع الحديث ولا يهمل الاشتغال به وبعلمه والنظر في إسناده ورجاله ومعانيه وأحكامه وفوائده ولغته وتواريخه^(٣)، وأن يلزم حلقة شيخه ومجالسه، فإذا حضر مجلس الشيخ سلم على الحاضرين بصوت مسموع للجميع، ويخص الشيخ بزيادة تحية وإكرام، وكذلك يسلم إذا انصرف، ويجلس حيث ينتهي إلى المجلس^(٤).

كما ينبغي عليه أن يلزم الأدب في مجلس الشيخ، فيحترم رفقائه وأصحابه، ويسأل عما أشكل عليه بتلطف وحسن خطاب^(٥)، ويراعي نوبته، ويحضر معه كتابه الذي يقرأ منه، فإذا حضرت نوبته، استأذن الشيخ، فإن أذن له استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم يسمي بالله تعالى، ويحمده، ويصلي على النبي ﷺ وعلى آله وصحبه، ثم يدعو للشيخ ولوالديه ولمشايخه

(١) ابن جماعة، تذكرة السامع والمتكلم، ص ١١٠ - ١١٣.

(٢) ابن جماعة، م. ن، ص ١١٦.

(٣) ابن جماعة، م. ن، ص ١٢٠.

(٤) ابن جماعة، م. ن، ص ١٣٥.

(٥) ابن جماعة، م. ن، ص ١٤٠، ١٤٤.

ولنفسه ولسائر المسلمين، وكذلك يفعل كلما شرع في قراءة درس أو تكراره أو مطالعته أو مقابله في حضور الشيخ أو في غيبته، كما يترحم على مصنف الكتاب، ويرغب الطلبة في تحصيل العلم^(١).

هكذا فقد تميز التعليم بحريته إذ كانت أبوابه مفتوحة لجميع الناس دون تمييز، وكان يمر بمرحلتين: أما الأولى فهي الكتابية، وهي تعد الطفل لإتقان القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، أما الثانية فهي مرحلة التعليم العالي، وكانت تتم بالدرجة الأولى في حلقات المساجد ومجالسها، وفيها يتخصص الطالب في علم من العلوم، فيتخرج منها متقناً لهذا العلم، فيؤهله هذا لأن يعمل مدرساً للعلم الذي أتقنه، ومما هو جدير بالذكر أنه لم يكن هناك امتحان أو شهادات في نهاية هذه المرحلة، إنما الامتحان كان امتحان الرأي المحيط بالعالم عندما يجلس أول مجلس ليدرّس، فيتعرض العلماء ومناقشتهم، فإن أجاد كانت شهادات العلماء المحيطين به بالإجادة والعلم والمعرفة، وفي هذا كان ما يكفي لحماية العلماء من مدعي العلم دون معرفة.

وكان من عادة الأساتذة استخدام طرائق متعددة في التعليم كالسماع والعرض والإجازة وغيرها، وكانت العلاقة بين الأساتذة والطلاب تقوم على الاحترام والتقدير، ولم تكن الدولة تشرف على التعليم أو تنفق على الأساتذة والطلاب.

٦ - مكانة العلماء الاجتماعية وأوضاعهم المادية:

تبوأ العلماء - بحكم مكانتهم العلمية - مكانة اجتماعية رفيعة، فكانوا محط أنظار الناس في عصرهم، وتمتعوا بقسط ضخم من احترامهم وثقتهم،

(١) ابن جماعة، م. ن، ص ١٤٨.

وقد أهلتهم هذه المكانة لأن يشغلوا دوراً قيادياً في المجتمع أحياناً، ولأن تكون كلمتهم مسموعة لدى أفراد المجتمع ولدى رجال السُّلطة، وإدراكاً من بعض الأمراء والحكام لمكانة العلماء الاجتماعية، فقد سعوا إلى كسب بعض العلماء إلى جانبهم.

كان الناس في أوقات الأزمات والمحن يلجؤون إلى بعض العلماء لمساعدتهم في تجاوز هذه المحن، فعندما حاصر الجيش العباسي بقيادة عبد الله بن علي دمشق سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م، واشتد الوضع فيها سوءاً، استغاث الناس بيحيى بن قيس الغساني (ت، ١٣٣هـ أو ١٣٥هـ/٧٥٠م أو ٧٥٢م)، وكان سيد أهل دمشق وعالماً بالفتيا والقضاء - ليخرج إلى عبد الله بن علي، فيسأله الأمن، فأجابه عبد الله إلى طلبه، لكنه لم يلبث أن نقض وعده لما رأى دخول جنوده، فأغلظ له يحيى بالكلام، فلم يؤذ به عبد الله، بل أمر أن يؤخذ إلى بيته، وأن ينادي المنادي أن من دخلها فهو آمن^(١).

وتتوضح مكانة العلماء أكثر من خلال ما أوردته المصادر عن الإمام الأوزاعي الذي تبوأ مكانة كبيرة في المجتمع، وقد عرف الولاية مكانته وقدره الكبيرين، لذلك كانوا يتحاشونه لما له من تأثير على الناس، فقد عرض عليه عبد الله بن علي القضاء، فاعتذر عن قبول هذا المنصب^(٢)، واستدعاه الخليفة المنصور إلى بغداد لزيارته، وتقبّل مواعظه ونصائحه شاكراً له^(٣)، وكان الناس في عصره يرون أنه يصلح لإمامة المسلمين "أي أن يكون خليفة"^(٤)، وكان أمره

(١) ابن عساکر، م.ن، ج ٥٦، ص ٦٠ - ٦١؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٣٥٦.

(٢) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ٢١١.

(٣) ابن عساکر، م.ن، ج ٣٥، ص ٢١٤، ٢٢٠.

(٤) ابن عساکر، م.ن، ج ٣٥، ص ١٧١.

عند الناس أعزَّ من أمر السلطان، فعندما همَّ أحد الولاة لأن يؤذيه قال له أصحابه: "دعه فوالله لو أمر أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك"^(١)، ونقل ابن عساكر قول عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين كاتب الأوزاعي: "سمعت أميراً كان بالساحل يقول - وقد دفنا الأوزاعي - ونحن عند القبور - رحمك الله يا أبا عمرو، فلقد كنتُ أخافك أكثر ممن ولاني"^(٢).

وتمتع بعض العلماء بالإجلال والتقدير، إذ كان استقبالهم ووداعهم يتم باحترام وإجلال كبيرين، فأبو مسهر الغساني كان عظيم القدر في نفوس الناس بحيث - كان إذا خرج من الجامع - يصطفون ليسلموا عليه ويقبلوا يده، قال أبو حاتم الرازي: "ما رأيت أحداً في كورة من الكور أعظم قدراً ولا أجل عند أهلها من أبي مسهر بدمشق، وكنتُ أرى أبا مسهر إذا خرج إلى المسجد اصطف الناس يسلمون عليه ويقبلون يده"^(٣).

وتمتع بالمكانة نفسها سلم بن يحيى بن عبد الحميد الطائي الحجراوي - وهو من أهل قرية حجرا بدمشق، ومن الأعلام البارزين في القرن الثالث الهجري - فقد نقل ابن عساكر أنه كان "إذا دخل يوم الجمعة إلى مدينة دمشق ينزل الناس من الجامع، فيتلقونه في أسفل جيرون فيحملونه حتى يصعدوا إلى المسجد ثم يفعلون به ذلك إذا أراد الانصراف"^(٤).

(١) الخطيب، محاسن المساعي، ص ٨٩.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ٢٢٠.

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١، ص ٧٣؛ المزني، تهذيب الكمال، مج ١٦، ص ٣٧٥.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٢، ص ١٦٠؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

أما فيما يخص أوضاع العلماء المادية، فقد سبقت الإشارة إلى أنه لم يكن هناك إشراف رسمي على الحركة العلمية، وإذا كان بعض رجال السلطة قد قدموا بعض الصلات لبعض علماء الدين ورجال الأدب وعلماء الترجمة والطب والفلسفة، فإن هذه الصلات لم تشمل إلا فئة محدودة منهم، ومن ثمَّ فإن بعض العلماء اضطر بسبب الحاجة للعمل في الحرف أو التجارة لتأمين لقمة عيشه ومثال ذلك مروان بن محمد الطاطري (ت، ٢١٠هـ/ ٨٢٥م)، الذي كان يبيع الثياب الخشنة بدمشق^(١)، فيما اضطر بعضهم وبسبب الحاجة أيضاً إلى تولي المناصب كما مع سويد بن عبد العزيز (ت، ١٩٤هـ/ ٨٠٩م)، وعن ذلك قال ابن سعد: "أخبرنا أبو عبد الله الشامي قال: ولي سويد بن عبد العزيز قضاء بعلبك وكان محتاجاً، فلقبه داود بن أبي شيان الدمشقي، فقال له: يا أبا محمد وليت القضاء بعد العلم والحديث؟ قال: نعم، نشدتك الله أمتحت جبتك شعار؟ قال داود: نعم، فرفع سويد جبته وقال: لكن جبتي ليس تحتها شعار، ثم قال: أنشدك الله هل هذا الطيلسان لك؟ قال داود: نعم، قال سويد: فو الله ما هذا الطيلسان الذي ترى عليَّ لي وإنه لعاريَّة، أفلا ألي القضاء بعد هذا؟ فو الله لو ولوني بيت المال فإنه شر من القضاء لوليته"^(٢).

وبذلك يمكن القول إن بعض العلماء تمتعوا بمكانة اجتماعية رفيعة أهلتهم لشغل دور قيادي في المجتمع، ولأن ينالوا احترام رجال السلطة والحكم، وأن أوضاع العلماء المادية لم تكن مستقرَّة، فبينما حصل بعضهم على هبات من الدولة، اضطر بعضهم الآخر إلى العمل في الحرف

(١) العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٨٧.

(٢) الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٣٢٦؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ١٢، ص ٢٦١.

أو التجارة لتأمين لقمة عيشه، وأحياناً اضطرّ بعضهم وبسبب الحاجة إلى تويّي مناصب إدارية.

ج - العلوم:

قسّم علماء المسلمين العلوم قسمين: أما القسم الأول فيشمل العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم، وأطلقوا عليها اسم العلوم النقلية، ومنها: القراءات، والحديث، والتفسير، والفقه، والنحو، والشعر وغيرها، أما القسم الثاني من العلوم، فيشمل العلوم التي أخذوها عن غيرهم من الأمم، وأطلقوا عليها اسم العلوم العقلية، ومنها: الطب، والفلسفة، والتاريخ وغيرها^(١).

١ - العلوم النقلية:

أولاً - القراءات:

كانت قراءة عبد الله بن عامر اليحصبي (ت، ١١٨هـ / ٧٣٦م)، القراءة السائدة الرئيسة في جند دمشق منذ القرن الأول الهجري حتى القرن الخامس الهجري / ١١م^(٢)، وعبد الله بن عامر هو أحد القراء السبعة^(٣)، وقد تخرج من حلقات أبي الدرداء (ت، ٣٢هـ / ٦٥٢م)، التي سنّها في مساجد الشام لتعليم

- (١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٤١٧ - ٤١٨، ٤٧٥ - ٤٧٦؛ حسن، تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٢٦٤؛ ج ٣، ص ٣٤٦.
- (٢) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٢٩٢، ص ٤٢٤ - ٤٢٥.
- (٣) العصفري، خليفة بن خياط، كتاب الطبقات، حققه: سهيل زكار، دمشق، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، ١٩٦٦م، ج ٢، ص ٧٩٦؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٤٢٣؛ حول القراء السبعة، انظر: ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ٤٣ - ٤٦.

القرآن وقراءته، وفي هذه الحلقات كان ابن عامر مقدماً وعريفاً على عشرة، ثم صار إمام أهل الشام في القراءة^(١).

وكان ابن عامر قد قرأ على جماعة من الصحابة إضافة إلى أبي الدرداء، فقد أخذ القراءة عن فضالة بن عبيد الأنصاري (ت، ٥٣هـ/٦٧٢م)، ووائلة بن الأسقع^(٢)، وقيل أخذ القراءة عن الخليفة عثمان بن عفان، كما تتلمذ على يد قارئ آخر من أهل المدينة وهو المغيرة بن أبي شهاب المخزومي (ت، ٩١هـ/٧٠٩م)، وقرأ المغيرة على الخليفة عثمان بن عفان الذي أرسله إلى الشام مع المصحف الشامي، فانتشرت القراءة العثمانية في الشام على يد ابن عامر وتلاميذه.

تولى ابن عامر قضاء دمشق، وهو الذي أشرف على بناء الجامع الأموي، ثم صار رئيسه وخصّ بموضع خاص فيه لإقراء القرآن^(٣)، وألف

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ص ٣٢٨؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٦٠٦-٦٠٧.

(٢) وائلة بن الأسقع بن عبد العزى بن عبد ياليل الليثي الكناني (ت، ٨٣هـ/٧٠٢م): صحابي من أهل الصفة، شهد غزوة تبوك مع الرسول ﷺ، وقيل خدم النبي ثلاث سنوات، ثم نزل البصرة وكانت له بها دار، وشهد فتح دمشق وسكن قرية البلاط على ثلاثة فراسخ منها، وحضر المغازي في البلاد الشامية، وتحول إلى بيت المقدس، وهو آخر الصحابة موتاً في دمشق؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٢، ص ٣٤٣-٣٦٦؛ الزركلي، الأعلام، ج ٨، ص ١٠٧.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٩، ص ٢٧١-٢٧٢، ٢٨٠؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ١٥، ص ١٤٣-١٤٥؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٥، ص ٢٤٣-٢٤٤؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٤٢٣-٤٢٥.

كتاباً في "اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق"، وكتاباً في "مقطوع القرآن وموصوله"^(١).

وتخرج من حلقات ابن عامر ومجالسه كثير من القراء الذين يتقنون القراءة العثمانية وأبرزهم: يحيى بن الحارث الذمري، وسعيد بن عبد العزيز، وعبد الرحمن بن عامر وغيرهم ممن كان لهم دورٌ كبيرٌ في إعداد جيل القراء الكبار الذين برزوا فيما بعد^(٢)، وتجدد الإشارة إلى أن بعض القراء الكبار الذين برزوا خلال هذه المدة كانوا يلّمون بقراءات أُخر غير قراءة ابن عامر، فقد قرأ الوليد بن مسلم (ت، ١٩٥هـ / ٨١٠م)، وأبو مسهر الغساني (ت، ٢١٨هـ / ٨٣٣م)، علي نافع بن أبي نعيم المدني^(٣) وهو أحد القراء السبعة، ولكن تأثرهما به كان محدوداً، وبقياً يقرآن وفق القراءة العثمانية الشامية^(٤)، وقرأ عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان (ت، ٢٤٢هـ / ٨٥٦م)، علي الكسائي^(٥) وهو أحد القراء السبع عندما

(١) ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ٥٩، ٦١.

(٢) ابن النديم، م.ن، مج ١، ص ٤٥.

(٣) نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني (ت، ١٦٩هـ / ٧٨٥م): أحد القراء السبعة الأعلام، أصله من أصبهان، اشتهر بالمدينة وانتهت إليه رئاسة القراءة فيها، وأقرأ الناس نيفاً وسبعين سنة، وتوفي فيها؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح.و) ١٦٠ - ١٧٠، ص ٤٨٤ - ٤٨٦؛ الزركلي، الأعلام، ج ٨، ص ١٥.

(٤) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٣٥٥؛ ج ٢، ص ٣٦٠.

(٥) الكسائي: هو علي بن حمزة بن عبد الله الكسائي، أحد القراء السبعة، كان شيخ القراء في الكوفة، وإمام الناس في القراءة في عصره، وكان من أعلم الناس بالنحو، وقد قدم إلى دمشق وأقرأ بها عدة أشهر، توفي سنة ١٨٩هـ / ٨٠٤م؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٥٣٥.

قدم دمشق، وأقرأ في جامعها^(١)، وقرأ أحمد بن نصر بن شاعر (ت، ٢٩٢هـ / ٩٠٤م)، بقراءة عاصم^(٢) على الحسين بن علي العجلي^(٣)، كما أن بعض القراء كان يُلم بالقراءات السبع ويضبطها ومثال ذلك هارون بن موسى الأخفش (ت، ٢٩٢هـ / ٩٠٤م)^(٤).

ولم تقتصر اهتمامات القراء على الإقراء، بل كان أكثرهم يلم بعلوم أخرى، فقد كان سعيد بن عبد العزيز (ت، ١٦٧هـ / ٧٨٣م)، فقيهاً ومفتياً وقارئاً^(٥)، وكان الوليد بن مسلم محدثاً وفقيهاً وقارئاً^(٦)، وكذلك كان أبو مسهر الغساني^(٧)، وكان هشام بن عمار إمام أهل دمشق وخطيبهم وفقههم ومحدثهم ومقرئهم^(٨) وغيرهم.

اتصف قراء جند دمشق بالضبط والإتقان، فنالوا شهرة كبيرة في العالم

الإسلامي، وكانوا مقصد الطلاب من مختلف النواحي، وفيما يلي أبرزهم:

- (١) ابن الجزري، م.ن، ج ١، ص ٤٠٤.
- (٢) عاصم بن بهدلة بن أبي النجود أبو بكر الأسدي الكوفي (ت، ١٢٧هـ / ٧٤٤م)، شيخ الإقراء بالكوفة وأحد القراء السبعة؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٣٤٦.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦، ص ٤٩.
- (٤) الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ٢٤٧؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢، ص ٣٤٧.
- (٥) العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٥٣.
- (٦) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٣، ص ٢٧٤.
- (٧) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٣، ص ٤٢١.
- (٨) ابن عساكر، م.ن، ج ٧٤، ص ٣٢.

- يحيى بن الحارث الذماري الدمشقي (ت، ١٤٥هـ/٧٦٢م):
أخذ القراءة عرضاً عن عبد الله بن عامر اليحصبي وهو الذي خلفه على القيام
بالقراءة، كما قرأ على الصحابي واثلة بن الأسقع، فصار شيخ القراء بدمشق، كان
عالماً بالقراءة في دهره، وكان له دور كبير في نشر القراءة العثمانية بالشام إذ تتلمذ
على يديه عدد من القراء البارزين الذين أسهموا في نشرها، أمثال: أيوب بن تميم،
وسعيد بن عبد العزيز، وسويد بن عبد العزيز، ويحيى بن حمزة، ومحمد بن شعيب
بن شابور، صدقه بن خالد، والوليد بن مسلم وغيرهم.

استمر يحيى بن الحارث يقوم بدوره في إلقاء القرآن حتى بعد أن تقدم في
السن، فكان لا يستطيع أن يؤم الناس في المسجد، لذلك كان يقف خلف الأئمة
ويرد عليهم إذا غفلوا^(١)، وكان له اختيار في القراءة خالف فيه أستاذه ابن عامر^(٢)،
وألف كتاباً في "هجاء المصاحف"، وكتاباً في "عدد آي القرآن"^(٣).

- سعيد بن عبد العزيز التنوخي (ت، ١٦٧هـ/٧٨٣م): فقيه أهل دمشق
ومفتيهم بعد الأوزاعي، قرأ على عبد الله بن عامر ويزيد بن أبي مالك، وعرض
على يحيى بن الحارث، أخذ القراءة عنه عدد من علماء الشام أبرزهم الوليد بن
مسلم وأبو مسهر الغساني^(٤).

- (١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٣٢١؛ الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ١٠٥؛
العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ١٧١؛ العصفري، كتاب الطبقات، ج ٢، ص ٨٠٣.
- (٢) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢، ص ٣٦٨.
- (٣) ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ٦٠، ٦٢.
- (٤) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ١٦١؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ١٠، ص ٥٣٩؛ ابن
الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٣٠٧؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب،
ج ٤، ص ٥٣؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦، ص ١٥٢.

- صدقة بن خالد الدمشقي (ت، ١٧٠ أو ١٨٠هـ / ٧٨٦ أو ٧٩٦م): أخذ القراءة عرضاً عن يحيى بن الحارث، تتلمذ على يديه وروى القراءة عنه كبار علماء الشام أمثال: الوليد بن مسلم، وأبو مسهر الغساني، وهشام بن عمار^(١).

- سويد بن عبد العزيز الدمشقي (ت، ١٩٤هـ / ٨٠٩م): قاضي بعلبك، وقيل كان شريك يحيى بن حمزة في القضاء، وإليه كان يتقاضى أهل الذمة، قرأ القرآن على يحيى بن الحارث، أخذ عنه القراءة أبو مسهر الغساني والربيع بن ثعلب وهشام بن عمار^(٢).

- الوليد بن مسلم القرشي (ت، ١٩٥هـ / ٨١٠م): قرأ على يحيى بن الحارث وسعيد بن عبد العزيز كما قرأ على نافع بن أبي نعيم قارئ المدينة، غير أن تأثيره به كان محدوداً جداً، واستمر يقرأ بقراءة ابن عامر التي عدّها الأساس في إقراءه القرآن، فقرأ عليه الربيع بن ثعلب وهشام بن عمار والوليد بن عتبة وأحمد ابن عبد العزيز الصوري وغيرهم^(٣).

(١) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٣٣٦؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٤، ص ٩.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٣٢٦؛ ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ج ٤، ص ٤٩٠؛ الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ١٥٠؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ١٢، ص ٢٥٥؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٢٥٠.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٣، ص ٢٧٤؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ٣١، ص ٨٦؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢، ص ٣٦٠؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ١٣٣.

- أيوب بن تميم التميمي الدمشقي (ت، ١٩٨هـ/٨١٣م): قرأ القرآن على يحيى بن الحارث وهو الذي خلفه على القيام بالقراءة، وأخذ القراءة عنه عرضاً عبد الله بن ذكوان والوليد بن عتبة وعبد الحميد بن بكار وهشام بن عمار وأبو مسهر، وتجدر الإشارة أن اسم أيوب بن تميم اقترن بلقب قارئ الجند "أي جند دمشق"^(١).

- عراك بن خالد بن يزيد المري الدمشقي (ت قبيل ٢٠٠هـ/٨١٥م): مقرئ أهل دمشق في عصره، أخذ القراءة عرضاً عن أبيه وعن يحيى بن الحارث الذماري، وهو أحد الذين خلفوه بالقراءة، قرأ عليه عبد الله بن ذكوان والربيع بن ثعلب وهشام بن عمار^(٢).

- عبد الحميد بن بكار أبو عبد الله الكلاعي الدمشقي (كانت وفاته بيروت بين ٢١١ - ٢٢٠هـ/٨٢٦ - ٨٣٥م): قارئ ومحدث دمشقي، سكن بيروت، أخذ القراءة عرضاً عن أيوب بن تميم، وهو ممن خلفوه على القراءة من بعده، وتلمذ على يديه العباس بن الوليد بن مزيد العذري^(٣).

- أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي (ت ببغداد، ٢١٨هـ/٨٣٣م): شيخ الشام في وقته وإمامها في الحفظ والإتقان، قرأ على

(١) الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ١٤٨؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ١٧٢؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٣، ص ٢٠٢.

(٢) الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ١٥٠؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٥١١.

(٣) غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٣٦٠؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٦، ص ٩٩.

أيوب بن تميم، ونافع بن أبي نعيم، وسويد بن عبد العزيز، وصدقة بن خالد، وسعيد بن عبد العزيز، روى القراءة عنه أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي، وسمع منه أبو زرعة الدمشقي^(١).

- أبو العباس الوليد بن عتبة الأشجعي الدمشقي (ت، ٢٤٠هـ / ٨٥٤م):
قرأ القرآن على أيوب بن تميم والوليد بن مسلم، وكان يقرأ في مجلسه، قرأ عليه أحمد بن نصر بن شاكر وغيره، وكان الوليد بن عتبة أحد ثلاثة قراء في دمشق، كانوا يتقنون القراءة الشامية ويضبطونها وهم: هشام بن عمار وعبد الله بن ذكوان والوليد بن عتبة^(٢).

- عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان الدمشقي (ت، ٢٤٢هـ / ٨٥٦م):
شيخ الإقراء بالشام وإمام الجامع في دمشق، أخذ القراءة عرضاً عن أيوب بن تميم وهو الذي خلفه على القيام بالقراءة في دمشق، وقرأ القرآن أكثر من مرة على الكسائي عندما قدم دمشق وأقرأ في جامعها عدة أشهر، وروى القراءة عنه أحمد بن نصر بن شاكر وأبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو، ومحمد بن إسماعيل الترمذي وهارون الأخفش وغيرهم، وقد ألف ابن ذكوان كتاب "أقسام القرآن وجوابها وما يجب على قارئ القرآن عند حركة لسانه"^(٣). وبلغ ابن ذكوان

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٣، ص ٤٢١؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١١، ص ٧٢؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ١٦، ص ٣٦٩؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٦، ص ٩٠؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٣٥٥.

(٢) الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ٢٠١؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ٣١، ص ٤٦؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ١٢٤.

(٣) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٤٠٤.

درجة عالية في إلقاء القرآن حتى إن أبا زرعة الدمشقي قال: لم يكن بالعراق ولا بالشام ولا بالحجاز ولا بمصر ولا بخراسان أقرأ منه^(١).

- هشام بن عمار السلمي (ت، ٢٤٥هـ/٨٥٩م): إمام أهل دمشق وخطيبهم وفقههم ومحدثهم، أخذ القراءة عن أيوب بن تميم وعراك بن خالد وسويد بن عبد العزيز والوليد بن مسلم وغيرهم، قرأ على يديه العديد من القراء الكبار أمثال هارون الأخفش والقاسم بن سلام البغدادي^(٢).

تشير المصادر إلى أن الإمامة في القراءة بعد وفاة أيوب بن تميم صارت إلى عبد الله بن ذكوان وهشام بن عمار؛ أما ابن ذكوان فكان مشهوراً بالقراءة والضبط، أما ابن عمار فكان مشهوراً بالنقل والفصاحة والرواية، لذلك ارتحل إليه الناس في القراءات والحديث^(٣)، وألف ابن عمار كتاباً في "فضائل القرآن"^(٤).

- هارون بن موسى بن شريك الأخفش (ت، ٢٩٢هـ/٩٠٤م): شيخ المقرئين في زمانه، كان عارفاً بالتفسير والنحو والمعاني والشعر وقيماً بالقراءات السبع، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن ابن ذكوان، فرجعت إليه الإمامة فيها،

(١) ابن الجزري، م.ن، ج ١، ص ٤٠٥؛ الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ١٩٨ -

١٩٩؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ١٤، ص ٢٨٢؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٥،

ص ١٢٦؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٢٧٦.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١١، ص ٤٢٢؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢، ص ٣٥٤.

(٣) ابن الجزري، م.ن، ج ٢، ص ٣٥٥؛ الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ١٩٥؛ المزي،

تهذيب الكمال، مج ٣٠، ص ٢٥٣؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ٤٨.

(٤) ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ٦١.

وأخذ الحروف عن هشام بن عمار، ورحل إليه الطلبة من الأمصار المختلفة لإتقانه وتبحره، ومن الذين قرؤوا عليه: أبو علي الحسن بن حبيب الحصائري ومحمد بن النضر بن الأخرم ومحمد بن سليمان البعلبكي وجماعة غيرهم. وصنف هارون الأخفش كتباً كثيرة في القراءات والعربية^(١) منها "قراءة ابن عامر بالعلل"^(٢).

- أحمد بن نصر بن شاكر الدمشقي (ت، ٢٩٢هـ/٩٠٤م): جمع بين القراءة الشامية وقراءة عاصم إذ قرأ بقراءة عاصم على الحسين بن علي العجلي^(٣)، وقرأ بالقراءة الشامية على ابن ذكوان، وعرض أيضاً على الوليد بن عتبة، روى القراءة عنه مقرئون كبار أمثال: أبي الحسن بن الأخرم وغيره، ومما هو جدير بالذكر أن ابن شاكر جمع بين تعليم القرآن للصبيان وتعليمه على المستوى العالي بالقراءتين^(٤).

- الحسن بن حبيب بن عبد الملك الحصائري (ت، ٣٣٨هـ/٩٤٩م): فقيه مقرئ، كان إمام مسجد باب الجابية، روى القراءة عن هارون الأخفش، وسمع منه كتابه الذي ألفه في "قراءة ابن عامر بالعلل"، وروى الحروف عن أحمد بن المعلى، وروى القراءة عنه عبد الله بن عطية، وصالح بن إدريس، وعبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون وغيرهم^(٥).

- (١) الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ٢٤٧-٢٤٨؛ الحموي، معجم الأدباء، مج ٧، ص ١٩٥؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢، ص ٣٤٧-٣٤٨.
- (٢) ابن الجزري، م.ن، ج ١، ص ٢١٠.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦، ص ٤٩؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٢، ص ١٠٢.
- (٤) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ١٤٤؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٧٨.
- (٥) الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ٢٨٩؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ٢٠٩.

- محمد بن النضر الربعي الدمشقي المعروف بابن الأخرم (ت، ٣٤١هـ - ٩٥٢م): قرأ على هارون الأخفش فكان من جلة أصحابه وأتقنهم، كما قرأ على أحمد بن نصر بن شاكر وغيره.

انتهت إليه رئاسة الإقراء بالشام، فتتلمذ على يديه جماعة كبيرة من القراء منهم: أحمد بن عبد العزيز بن بدهن، ومحمد بن أحمد السلمي الجبني، وعبد الله بن عطية الدمشقي المقرئ المفسر، ومحمد بن أحمد الشنبوذي البغدادي، وأبو الحسن علي بن داود الداراني^(١).

وكان له حلقة كبيرة بجامع دمشق يُقرأ فيها من بعد الفجر إلى الظهر^(٢)، وكان الإقراء صنعته وديدنه وكان مشهوراً بالضبط والإتقان وحسن الخلق والتواضع والانبساط، وكان واسع الحفظ في التفسير، وعارفاً بعلل القراءات ووجوهها، وبصيراً بالعربية، وكان يراعي في إقراء طلابه تعليمهم التجويد وإتقان القراءة والضبط، ومن شدة اهتمامه بالقارئ كان إذا سلم عليه إنسان أوماً إليه إيباء لثلاث يفوته شيء مما يقرأ، وكان يعين من يقرأ عليه بإشارات عرفت عنه لمواظبته عليها وأخذها، فكان يشير بيده أو بفمه مرة إلى الضم ومرة إلى الكسر ومرة إلى الفتح ومرة إلى الإدغام ومرة إلى الإظهار^(٣).

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٦، ص ١٢٠؛ الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ٢٩٠-٢٩١؛ سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٥٦٤؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٢) الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ٢٩١؛ سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٥٦٥؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، مج ٤، ص ٢٢٤.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٦، ص ١٢١-١٢٣.

طال عمره، فارتحل الناس إليه من كل النواحي، وقد أشار محمد بن أحمد السلمي إلى كثرة طلابه بقوله: قمت ليلة قبل الفجر لآخذ النوبة على ابن الأخرم، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئاً إلى المسجد، فلم تدركني النوبة إلى العصر. وطارت شهرة ابن الأخرم إلى مختلف النواحي حتى إنه عندما قدم بغداد، وحضر مجلس ابن مجاهد^(١) مقرئ بغداد المشهور، قال ابن مجاهد لأصحابه: هذا صاحب الأخفش الدمشقي فاقروا عليه، فقرأ عليه العديد منهم^(٢).

- محمد بن سليمان بن أحمد البعلبكي المؤدب (ت، ٣٥٤هـ / ٩٦٥م): سكن صيدا، قرأ على هارون الأخفش، وقرأ عليه عبد الباقي بن الحسن بن السقا، وقد جمع بين تعليم القرآن للصبيان وتعليمه على المستوى العالي^(٣).

- موسى بن عبد الرحمن البيروتي الصبَّاح (ت، ٣٦٠هـ / ٩٧٠م): إمام جامع بيروت، كان أسند من بقي في الشام من القراء، وآخر من قرأ على هارون الأخفش، توفي وقد نيف على التسعين، وكان قد سمع أبا زرعة الدمشقي وجماعة غيره، وحدث عنه العديد من المحدثين^(٤).

- (١) ابن مجاهد: هو أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادي (ت، ٣٢٤هـ / ٩٣٥م)، كان من كبار القراء في عصره، ولم يكن أحد من شيوخ القراءات أكثر تلاميذ منه؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، ص ١٣٩.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٦، ص ١٢٢-١٢٣؛ الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ٢٩١-٢٩٢؛ سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٥٦٥؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢، ص ٢٧١.
- (٣) ابن الجزري، م.ن، ج ٢، ص ١٤٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ١١٤؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٣، تحقيق: س. ديدرنيغ، فيسبادن، فرانز شتاينر، ١٩٧٤م، ص ١٢٥؛ الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ٣١٦.
- (٤) الذهبي، معرفة القراء الكبار، مج ١، ص ٣١٩.

ومن المقرئين أيضاً:

- عثمان بن أبي العاتكة (ت، ١٤٩هـ/٧٦٦م)، مقرئ أهل دمشق ومعلمهم، وكان أهل دمشق يسمون المقرئ معلماً^(١).
- عبد الله بن كثير القارئ الطويل (ت، ١٩٦هـ/٨١١م)، مقرئ أهل دمشق وإمام المسجد الجامع^(٢).
- عتبة بن حماد أبو خليل القارئ الحكمي الدمشقي إمام المسجد الجامع بدمشق^(٣).
- محمد بن شعيب بن شابور (ت، بيروت، ٢٠٠هـ/٨١٥م)^(٤).
- أحمد بن عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان (ت، ٣٢٢هـ/٩٣٣م)^(٥).
- أحمد بن محمد بن موسى القرشي المقرئ المعروف بابن ضريرة (ت، ٣٢٥هـ/٩٣٦م)، كان مقرئاً وحافظاً لتفسير القرآن^(٦).

-
- (١) الفسوي، المعرفة والتاريخ، مج ١، ص ١٣١؛ ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ج ٦، ص ٢٨٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٨، ص ٣٩١.
 - (٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٢، ص ١٢٧؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ١٥، ص ٤٧١.
 - (٣) المزي، م.ن، مج ١٩، ص ٣٠٣؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٨، ص ٢٤٣؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٧، ص ٨٤.
 - (٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٢٤٥ - ٢٤٦؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢، ص ١٥٤.
 - (٥) ابن الجزري، م.ن، ج ١، ص ٧١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٢١ - ٣٣٠هـ، ص ٧٦.
 - (٦) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥، ص ٤٥٤.

ومما تجدر الإشارة إليه أن دمشق عرفت منذ العصر الأموي دراسة القرآن المسماة "السَّبع"، وهي قراءة الجماعة سبعاً من القرآن بالتكرار وراء قارئ في مجلس واحد بعد صلاة الصبح^(١)، واستمرت هذه الدراسة طوال قرون عديدة في الموضع نفسه من المسجد الجامع، وهو الجهة الشرقية من مقصورة الصحابة في إثر صلاة الصبح^(٢).

ثانياً - الحديث:

من المعروف أن تدوين الحديث خطأ أول خطواته في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، وقد كتب إلى الآفاق بجمع حديث الرسول ﷺ^(٣)، على أن اهتمام المشتغلين بالحديث في العصر الأموي كان مقتصرًا على كتابة الروايات، وهو ما عرف بـ "تقييد العلم"، وعلى جمع النصوص المتفرقة وهو ما عرف بـ "التدوين"، وعلى تأليف رسائل مفردة لتحقيق هدف بعينه^(٤).

فلما كان النصف الأول من القرن الثاني الهجري خطأ تدوين الحديث خطوة جديدة، وهي تقوم على ترتيب الأحاديث على الأبواب حسب الموضوعات المختلفة، وعرف هذا بـ "تصنيف الحديث"^(٥). ومع النصف الثاني

(١) ابن عساكر، م.ن، ج ٢، ص ٢٨٢ - ٢٨٣؛ ج ٧٣، ص ٣٧٧.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٢١٠.

(٣) كحالة، عمر رضا، علوم الدين الإسلامي، دمشق، مطبعة الحجاز، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م، ص ٨٢.

(٤) سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، نقله إلى العربية: محمود فهمي حجازي، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، مج ١، ج ١، ص ١٦٥.

(٥) سزكين، م.ن، مج ١، ج ١، ص ١٦٥.

من القرن الثاني الهجري خطأ تدوين الحديث خطوة جديدة أخرى، وهي تقوم على ترتيب الأحاديث حسب الرواة من الصحابة، فكانت "كتب المسانيد"، أما القرن الثالث الهجري، فكان أهم القرون بالنسبة إلى تدوين الحديث، فقد نشطت فيه حركة الجمع والنقد وتمييز الصحيح من غيره، وألّفت فيه أهم كتب الحديث^(١)، ومع القرن الرابع الهجري تضخم الحديث^(٢).

ظهر في جند دمشق خلال القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة أعلام بارزون في ميدان الحديث، فروى عنهم أصحاب الصحاح والسنن والمانيد، وقد عرف عن محدثي جند دمشق الاهتمام بالسند تأكيد أهمية إirاده في الحديث، وأن الحديث لا قيمة له دون إسناد، قال الأوزاعي: "ما اذهب العلم ذهاب الإسناد"^(٣)، وقال أحمد بن عمير بن جوصاء (ت، ٣٢٠هـ / ٩٣٢م)، "إسناد بخمسين سنداً من موت الشيخ إسناد علو"^(٤)، ووضع المحدثون معايير لضمان صحة الأحاديث من حيث المضمون فعندما سأل أحد الطلبة الأوزاعي، هل نقبل كل ما أتانا عن رسول الله؟ أجاب الأوزاعي: لا نقبل إلا ما صدقه كتاب الله^(٥)، وأكد المحدثون صحة الحديث، قال الأوزاعي: "إن كنا لنسمع الحديث فنعرضه على أصحابنا

(١) أمين، ضحى الإسلام، ص ١٠٩-١١٠؛ أهم كتب الحديث هي الكتب الستة التي عدت أصح كتبه، وهي: صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن ابن ماجه، سنن أبي داود، جامع الترمذي، وسنن النسائي.

(٢) كحالة، علوم الدين الإسلام، ص ٨٩.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ١٨٦.

(٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٥، ص ١١٣.

(٥) ابن عساكر، م.ن، ج ٦٠، ص ٣٧٨.

كما نعرض الدرهم الزائف على الصيارفة، فما عرفوا أخذنا، وما أنكروا تركنا"^(١)، كما أكد المحدثون الصفات الواجب توافرها في الرواة وأصحاب الحديث، وهذه الصفات ذكرها مروان بن محمد الطاطري (ت، ٢١٠هـ / ٨٢٥م)، بقوله: "ثلاثة ليس لصاحب الحديث عنها غنى: الحفظ، والصدق، وصحة الكتب، فإن أخطأت واحدة، وكانت فيه اثنتان لم تضره، إن أخطأ في الحفظ ورجع إلى صدق وصحة كتب لم يضره"^(٢).

ولم تقتصر اهتمامات المحدثين على جمع الحديث وروايته، بل اهتم أكثرهم بتحصيل علم أو أكثر من العلوم الأخرى ولا سيما تلك التي تخدم الحديث، فاشتغل بعضهم بالتاريخ أمثال: محمد بن عائذ القرشي الدمشقي (ت، ٢٣٢هـ / ٨٤٦م)^(٣)، ومحمود بن إبراهيم بن محمد بن سُميع الدمشقي (ت، ٢٥٩هـ / ٨٧٢م)^(٤)، وعبد الرحمن بن عمرو بن أبي زرعة النصري (ت، ٢٨١هـ / ٨٩٤م)^(٥).

وجمع بعض المحدثين بين الحديث والفقہ كما مع سعيد بن عبد العزيز (ت، ١٦٧هـ / ٧٨٣م)^(٦)، وعبد الرحمن بن إبراهيم بن عمرو المعروف

- (١) ابن عساکر، م.ن، ج ٣٥، ص ١٨٦.
- (٢) ابن عساکر، م.ن، ج ٥٧، ص ٣١٨.
- (٣) ابن عساکر، م.ن، ج ٥٣، ص ٢٨٨.
- (٤) ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد (ت، ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م)، طبقات علماء الحديث، تحقيق: أكرم البوشي، إبراهيم الزبيق، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ج ٢، ص ٣١٤.
- (٥) ابن عبد الهادي، م.ن، ج ٢، ص ٣٢٨.
- (٦) ابن عبد الهادي، م.ن، ج ١، ص ٣٢٣.

بدحيم (ت، ٢٤٥هـ/٨٥٩م)^(١)، وجمع محدثون آخرون بين إقراء القرآن والحديث والفقہ كما مع الوليد بن مسلم (ت، ١٩٥هـ/٨١٠م)^(٢)، وغيره.

وتجدر الإشارة إلى أن جند دمشق برز فيه خلال هذه المدّة كثير من المحدثين، ومن أبرزهم:

- معاوية بن سلام بن أبي سلام الألهاني الدمشقي (ت، في حدود ١٧٠هـ/٧٨٦م)، قيل إنه كان من حمص، ثم انتقل إلى دمشق فنسب إليها وفيها توفي، روى عن أبيه والزهري^(٣) وآخرين، وروى عنه كبار المحدثين الشاميين أمثال: أبي مسهر الغساني ومحمد بن شعيب بن شابور ومروان بن محمد الطاطري والوليد بن مسلم وغيرهم، وصفه أحمد بن حنبل بالثقة، وقال عنه يحيى بن معين: "مُحَدَّثُ أَهْلِ الشَّامِ وَهُوَ صَدُوقُ الْحَدِيثِ، وَمَنْ لَمْ يَكْتُبْ حَدِيثَهُ مُسْنَدَهُ وَمَنْقَطَعَهُ حَتَّى يَعْرِفَهُ فَلَيْسَ بِصَاحِبِ حَدِيثٍ"^(٤).

(١) ابن عبد الهادي، م، ن، ج ٢، ص ١٤٢.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٣، ص ٢٧١.

(٣) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، أحد الفقهاء والمحدثين من التابعين، وعالم أهل الحجاز والشام، رأى عشرة من الصحابة رضوان الله عليهم، وروى عنه جماعة من الأئمة منهم: عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري، كان أول من دوّن العلم وكتبه، وقد قدم على عبد الملك بن مروان، واستوطن دمشق، وفيما بعد اختص بهشام بن عبد الملك، فكان يجالسه ويؤدب بعض ولده، توفي سنة ١٢٤هـ/٧٤١م؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٤، ص ١٧٧؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ٧، ص ٢٤٠.

(٤) المزني، تهذيب الكمال، مج ٢٨، ص ١٨٥ - ١٨٦؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ١٩٠.

- يحيى بن حمزة الحضرمي البتلهي القاضي (ت، ١٨٣هـ / ٧٩٩م):
كان من أعلم الناس بحديث مكحول، وكان كثير الحديث، روى عن
الأوزاعي ويحيى بن الحارث الذماري وآخرين، وروى عنه أعلامُ المحدثين
الشاميين، ومنهم: هشام بن عمار والوليد بن مسلم، وقد دفعت شهرة يحيى
بن حمزة وسعة معارفه الخليفة المنصور إلى استعماله على قضاء دمشق، فبقي
على قضائها - بشكل شبه مستمر - حتى وفاته^(١)، صنّف يحيى بن حمزة مصنفات
عديدة لم تصل إلينا، لكن ابن عساكر ذكر أن أبا مسهر الغساني كان يملئ في
بعض مجالسه من كتاب يحيى بن حمزة^(٢).

- الوليد بن مسلم القرشي الدمشقي (ت، ١٩٥هـ / ٨١٠م)^(٣): روى
عن الأوزاعي ومالك بن أنس وسفيان الثوري ويحيى بن الحارث وغيرهم،
وروى عنه كبار المحدثين من أمثال: أحمد بن حنبل، وهشام بن عمار، ومحمد
بن شعيب بن شابور، ودحيم، ومحمد بن عائد وآخرون^(٤).

كان كثير العلم والحديث، فعدّ من ثقات الناس وأفاضلهم، وصار له قدر
وجاه كبير في الشام، واشتهر بحلقاته العلمية التي درّس فيها الحديث والفقه^(٥)،
وكان عالماً بحديث الأوزاعي، فقد قال مروان بن محمد لأحمد بن أبي الحواري:

(١) العصفري، كتاب الطبقات، ج ٢، ص ٨١٣؛ ابن سعد، كتاب الطبقات، ج ٧، ص ٣٢٥؛
الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٠٩ - ٢١٠؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ٣١،
ص ٢٧٨ - ٢٨٢؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ١٣.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٣، ص ٤٣١.

(٣) العصفري، كتاب الطبقات، ج ٢، ص ٨١٣؛ ابن سعد، كتاب الطبقات، ج ٧، ص ٣٢٦.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٣، ص ٢٧١ - ٢٧٧؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٢١.

(٥) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٤، ص ١٨٣٣.

"إذا كتبت حديث الأوزاعي عن الوليد بن مسلم فما تبالي من فاتك"، وقال أحمد بن حنبل لأبي زرعة: عندكم ثلاثة أصحاب حديث هم الوليد بن مسلم، ومروان ابن محمد، وأبو مسهر، وقال أيضاً: "ما رأيت من الشاميين أعقل من الوليد بن مسلم"^(١)، وسئل أبو مسهر عن الوليد بن مسلم فقال: "كان من ثقات أصحابنا"، وفي رواية أخرى "من حفاظ أصحابنا"^(٢)، ونقل العسقلاني قول يعقوب بن سفيان: "كنت أسمع أصحابنا يقولون علم الناس عند إسماعيل بن عياش والوليد بن مسلم، فأما الوليد فمضى على سنته محموداً عند أهل العلم متقناً صحيحاً صحيح العلم"^(٣).

كان الوليد معتمياً بالتأليف والتصنيف، وقد بلغت مصنفاته سبعين كتاباً، وقيل إنه لما أخذ في التصنيف أتاه شيخ من شيوخ المسجد، فقال له: "يا فتى خذ فيما أنت فيه، فإني رأيت كأن قناديل مسجد الجامع قد طفيت، فجئت أنت فأسرجتها"^(٤).

- مروان بن محمد بن حسان الطاطري الدمشقي (ت، ٢١٠هـ / ٨٢٥م):
عرف بالطاطري لأنه كان يبيع الكرابيس^(٥) في دمشق، روى عن مالك بن
(١) المزي، تهذيب الكمال، مج ٣١، ص ٩٣؛ الرازي، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي (ت، ٣٢٧هـ / ٩٣٨م)، كتاب الجرح والتعديل، حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط ١، ١٢٧١هـ - ١٩٥٢م، مج ٤، ق ٢، ص ١٧.
(٢) المزي، تهذيب الكمال، مج ٣١، ص ٩٤.
(٣) تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ١٣٤.
(٤) المزي، تهذيب الكمال، مج ٣١، ص ٩٥.
(٥) الكرابيسي: هذه النسبة إلى بيع الثياب؛ السمعاني، الأنساب، مج ٤، ص ٥٩٧.

أنس وسعيد بن عبد العزيز ومعاوية بن سلام ويحيى ابن حمزة وإسماعيل بن عياش وآخرين، وروى عنه الوليد بن عتبة، وأحمد بن أبي الحواري، وعبد الله بن أحمد بن ذكوان وآخرون^(١).

عدّه أحمد بن حنبل من أعلام أصحاب الحديث في دمشق وأثنى عليه ورأى أنه يذهب مذهب أهل العلم، وتمنى أن يسمع منه، وقد وصفه بصاحب حديث، وعدّه أبو سليمان الداراني خير شامي رآه، وقدمه على سعيد بن عبد العزيز، ومما هو جدير بالذكر أن الطاطري أكد صفات صاحب الحديث وهي الصدق والحفظ وصحة الكتب، ودعا إلى تدوين الحديث والحفاظ على السند^(٢).

- عبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى بن مسهر الغساني (ت، ٢١٨هـ - ٨٣٣م)^(٣): شيخ الشام في وقته، روى عن محدثين كثر منهم: مالك بن أنس وسعيد بن عبد العزيز ويحيى بن حمزة وعبد الله ابن العلاء بن زبر والهيثم بن حميد، وروى عنه أعلام المحدثين الشاميين من أمثال: مروان بن محمد ومحمد بن عائذ وأبو زرعة الدمشقي وإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني وغيرهم.

ولد أبو مسهر سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧م، وبذلك يكون قد عاصر الأوزاعي مدة من الزمن، غير أنه أخذ أكثر تعليمه عن سعيد بن عبد العزيز، وقد

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٧، ص ٣١٣ - ٣١٤.
- (٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٥٧، ص ٣١٦ - ٣١٨؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٥٥؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٨٧ - ٨٨.
- (٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٣٢٨؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١١، ص ٧٢؛ ابن عبد الهادي، طبقات علماء الحديث، ج ٢، ص ٩.

جالسه مدة اثنتي عشرة سنة، فكان من أحفظ الناس لحديثه، وبلغ من إعجاب سعيد به أنه كان يسنده معه في صدر المجلس^(١).

وكان أبو مسهر من المعتنين بأنساب أهل بلده وأبنائهم، وكان عارفاً بالمغازي وأيام الناس، واشتهر بحلقاته العلمية، وإليه رجع أهل الشام في الجرح والعدالة لشيوخهم^(٢)، وتمتع بقدر كبير من الاحترام والإجلال عند أهل دمشق، فكان إذا خرج من المسجد يصطف الناس ليسلموا عليه ويقبلوا يده، لذلك قال يحيى بن معين: "إن الذي يحدث بالبلدة وبها من هو أولى منه بالحديث أحق، إذا رأيتني أحدث ببلدة فيها مثل أبي مسهر فينبغي للحيتي أن تُحلق"^(٣) وعده أحمد بن حنبل من أثبت محدثي عصره في دمشق، وقال عنه: "كيس عالم بالشاميين"^(٤). وصنف أبو مسهر مصنفات عديدة لم يبق منها إلا "جزء من حديث أبي مسهر"^(٥).

- هشام بن عمار بن نُصير السلمي الدمشقي (ت، ٢٤٥هـ/١٥٩م): ذكره ابن سعد في الطبقة السابعة من أهل الشام^(٦)، وصفه الذهبي بـ "الإمام الحافظ العلامة المقرئ عالم أهل الشام وخطيب دمشق"^(٧)، وقد سمع هشام

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٣، ص ٤٢١-٤٢٨؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٦، ص ٩٠-٩١.

(٢) العسقلاني، م.ن، ج ٦، ص ٩٢.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٣، ص ٤٣١-٤٣٢.

(٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٣، ص ٤٣٣؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ١٦، ص ٣٧٣.

(٥) سزكين، تاريخ التراث العربي، مج ١، ج ١، ص ١٨٨.

(٦) الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٣٢٨.

(٧) سير أعلام النبلاء، ج ١١، ص ٤٢٠.

الإمام مالكاً وأخذ عنه، وكان ذلك في صباه عندما حج، فتوجه إلى مجلس الإمام مالك عندما صار إلى المدينة، وسأله عن مسائل كانت معه، وكتب عنه سبعة عشر حديثاً^(١)، كما سمع من كبار المحدثين الشاميين وحدث عنهم، ومنهم: سويد بن عبد العزيز وإسماعيل بن عياش ويحيى بن حمزة والوليد بن مسلم، وروى عنه كبار شيوخه كالوليد بن مسلم ومحمد بن شعيب بن شابور، وحدث عنه أبو زرعة الدمشقي، كما حدث عنه أصحاب الصحاح والسنن كالبخاري وأبي داود والنسائي وابن ماجه والترمذي وغيرهم كثير من الناس^(٢).

كان فصيحاً علامة واسع الرواية، وعظيم القدر وبعيد الصيت، وبلغ من شهرته أن الناس كانوا يغدون إليه لسماع الحديث من مختلف الأمصار، ولما قدم المتوكل دمشق وسمع عن شهرته، وجّه بعض ولده ليكتب عنه، وأرسل إليه بألف دينار^(٣)، وقد أشار المحدثون إلى أهمية هشام بن عمار، فأبو زرعة الرازي قال: "من فاته هشام بن عمار يحتاج أن ينزل في عشرة آلاف حديث"^(٤).

كان هشام بن عمار يأخذ على الحديث، ولا يحدث ما لم يأخذ، ويظهر أن تقاضيه المال على الحديث جعل بعض المحدثين يمسكون عن الأخذ

(١) الذهبي، م.ن، ج ١١، ص ٤٢٨ - ٤٢٩؛ ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٤، ص ٣٣؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ٣٠، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

(٢) المزي، م.ن، مج ٣٠، ص ٢٤٢ - ٢٤٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١١، ص ٤٢٠ - ٤٢٣.

(٣) الذهبي، م.ن، ج ١١، ص ٤٢٨؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ٣٠، ص ٢٥١.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١١، ص ٤٣٠؛ تذكرة الحفاظ، ج ٢، ص ٣٠.

عنه^(١). وصنف مصنفات عديدة أثر منها: مجموعة من "أحاديثه"، وهناك الأحاديث التي رواها عن الإمام مالك، وله كتاب "الفوائد"^(٢).

- إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق السعدي الجوزجاني (ت، ٢٥٦ وقيل ٢٥٩هـ/٨٦٩ أو ٨٧٢م): أحد أئمة الجرح والتعديل، ولد ونشأ بجوزجان وهي مدينة في خراسان، ثم رحل في طلب العلم إلى مكة، فالبصرة، فالرملة، ثم قدم دمشق، واستقر بها، وتوفي فيها، وكان قد قام برحلة إلى مصر في سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م، حدث عن أحمد بن حنبل وعن كثير من المحدثين، وحدث عنه أبو داود، والترمذي، والنسائي، والطبري، وأبو زرعة الدمشقي، وأبو زرعة الرازي وغيرهم.

اشتهر بالحديث في دمشق، وبلغ من شهرته أن أحمد بن حنبل كان يكاتبه ويكرمه، واشتهر أيضاً بأنه كان من المصنفين والمخرجين الثقات^(٣)، ومن مصنفاته: "أمارات النبوة"، و"الأباطيل"، وكتاب في الضعفاء سماه "الشجرة في أحوال الرجال"^(٤).

- عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان أبو زرعة النصرى الحافظ (ت، ٢٨١هـ/٨٩٤م): شيخ الشام في وقته، تعلم على يد أبي مسهر

(١) العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ٤٨؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ٣٠، ص ٢٤٩.

(٢) سزكين، تاريخ التراث العربي، مج ١، ج ١، ص ٢١٣.

(٣) المقرئ، المقفى الكبير، ج ١، ص ٣٣٦ - ٣٣٧؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١،

ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٤) سزكين، تاريخ التراث العربي، مج ١، ج ١، ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

الذي أعجب بمجالسته عندما كان صغيراً، كما أعجب به أحمد ابن أبي الحواري حيث لقبه بشيخ الشباب.

رحل أبو زرعة في طلب الحديث، فسمع في العديد من المدن الشامية، كما قام برحلة إلى بعض البلدان الأخرى في سبيل سماع الحديث، ومن البلدان التي زارها: مصر وبغداد والكوفة وواسط والبصرة، ومكة والمدينة، روى عن أعلام المحدثين الشاميين كأبي مسهر وأبي الجماهر ومحمد بن عائذ وهشام بن عمار وغيرهم، أما الذين روى عنه فمنهم: أبو داود السجستاني وابنه أبو بكر بن أبي داود وأبو الحسن بن حذلم وأبو الحسن بن جوصاء ويعقوب بن سفيان الفسوي وأحمد بن المعلى القاضي^(١).

وقد أكسبته منزلته العلمية مكانة رفيعة بين أبناء عصره، وبلغ من شهرته أن جماعة من أهل الري قدموا دمشق، فاطلعوا على علمه ومعارفه، وبلغ من إعجابهم به أن كنوا أحد البارزين بينهم بكنيته وهو الحافظ عبيد الله بن عبد الكريم أبو زرعة الرازي^(٢).

صنف أبو زرعة من الحديث ما لم يصنفه أحد، ومن مصنفاته: كتاب "مسائل في الحديث والفقهاء عن الإمام أحمد"^(٣)، و"الفوائد والأحاديث والعلل والسؤالات"^(٤)، كما صنف العديد من المصنفات التاريخية^(٥).

- (١) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ١، (مقدمة المحقق) ص ٣٠، ٣٣-٤٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ١٤١-١٤٥؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ٢، ص ١٤٨؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ١٧، ص ٣٠١-٣٠٤؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٦، ص ٢١٤-٢١٥.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٨، ص ١٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٣، ص ٣١٤.
- (٣) الزحيلي، محمد، مرجع العلوم الإسلامية، دمشق، دار المعرفة، (د. ت)، ص ٢٥٢.
- (٤) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ١، (مقدمة المحقق)، ص ٥٠.
- (٥) حول مصنفات أبي زرعة التاريخية، انظر: التاريخ في هذا الفصل.

- أحمد بن علي بن سعيد بن إبراهيم الأموي المروزي القاضي (ت، ٢٩٢هـ/٩٠٤م): أصله من مرو، ويعود في نسبه إلى بني أمية، تولى قضاء حمص ثم قضاء دمشق نيابة عن أبي زرعة محمد بن عثمان، وفي دمشق توفي، كان مكثراً شيوخاً وحديثاً، حدث عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما، وعنه روى النسائي في سننه، وأبو القاسم الطبراني وأحمد بن عمير بن جوصاء، صنف تصانيف عديدة منها: "كتاب الجمعة"، و"كتاب العلم"، و"مسند أبي بكر وعثمان وعائشة"^(١)، و"كتاب الورع"، و"حديث أبي بكر المروزي... إلخ"^(٢).

- أحمد بن عمير بن موسى بن جوصاء الحافظ (ت، ٣٢٠هـ - ٩٣٢م): مولى بني هاشم وقيل مولى محمد بن صالح بن بهس، كان شيخ الشام في وقته، وإمام أهل الحديث فيها، قام برحلة واسعة في طلب الحديث، فزار بغداد والكوفة ومصر، وروى عن محدثين من هذه المناطق كما روى عن أعلام المحدثين الشاميين من أمثال: أبو زرعة النصري، ومحمد بن إبراهيم بن سميع، وإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني^(٣).

كان ابن جوصاء موضع شك بعض المحدثين، وقد اختلفوا في عدالته، فامتنعوا عن التحديث عنه^(٤). وعرف عن ابن جوصاء أنه ذاكر وصنف، وكان له وراقون لحفظ مصنفاته وتجليدها، ومن مصنفاته "حديث"^(٥).

(١) ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢١؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٣، ص ٤٢٨؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٥٦-٥٧؛ ابن عبد الهادي، طبقات علماء الحديث، ج ٢، ص ٣٧٤.

(٢) سزكين، تاريخ التراث العربي، مج ١، ج ١، ص ٣١٧.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥، ص ١٠٩-١١٠.

(٤) المقرئ، المقفى الكبير، ج ١، ص ٥٥١.

(٥) سزكين، تاريخ التراث العربي، مج ١، ج ١، ص ٣٤٩.

- أحمد بن محمد بن إسماعيل أبو الدحداح التميمي (ت، ٣٢٨هـ - ٩٣٩م): يعود في أصله إلى العراق، وهو من أهل بيت علم، انتقلوا إلى دمشق واستقروا بها، فكان يسكن في ربض باب الفراديس، روى عن موسى بن عامر وإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني والعباس بن الوليد بن مزيد وآخرين، وروى عنه سليمان بن أحمد الطبراني وعبد الله بن محمد بن ذكوان وأبو علي الحسن ابن محمد بن الحسن بن درستويه وأبو الحسين الرازي، وقد ذكره في تسمية من كتب عنه بدمشق في الدفعة الثانية^(١)، صنف مصنفات عديدة، ومن آثاره كتاب "منتقى"^(٢).

- خيشمة بن سليمان بن حيدرة القرشي الأطرابلسي (ت، ٣٤٣هـ - ٩٥٤م): "أحد الثقات المكثرين الرحالين في طلب الحديث"^(٣)، عرف بـ "محدث الشام"^(٤)، وهو أشهر محدث أخرجته طرابلس في تاريخها، ولد سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤، وهو من أسرة اشتهرت بالعلم وأخرجت العديد من العلماء، فاحتلت مكانة كبيرة في تاريخ طرابلس من القرن الأول الهجري حتى منتصف القرن الخامس الهجري، ويعود في نسبه إلى حيان بن وبرة المري صاحب الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وجده هذا نزل طرابلس بُعيد فتحها^(٥).

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥، ص ٢١٨ - ٢٢١.
- (٢) سزكين، تاريخ التراث العربي، مج ١، ج ١، ص ٣٥٥.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٧، ص ٦٨.
- (٤) بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، نقل الكتاب إلى العربية: عبد الحليم النجار وآخرون، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ق ٢، ص ٢١٧.
- (٥) الأطرابلسي، من حديث خيشمة، (مقدمة المحقق)، ص ٣١.

سمع خيثة من محدثي بلده ثم رحل في طلب الحديث، فسمع في كثير من مدن الشام، وسمع في مكة واليمن وبغداد والكوفة وغيرها^(١)، وحين انتهى من طلب الحديث عاد إلى بلده، فعقد في جامعها مجلساً للحديث، فكان مقصداً للطلبة من مختلف بقاع العالم الإسلامي، وروى عنه محدثون كثير من بلاد الشام والحجاز والعراق واليمن وفارس وغيرها، وبلغ من مكانته أن القضاة كانوا يستعينون به في قضايا الحكم والخلاف، ولما كبر في السن وصعب عليه حضور مجلس القاضي، صار القاضي يذهب بنفسه إلى الجامع حيث مجلس خيثة ليستشير خيثة ويأخذ بشهادته إجلالاً لعلمه وسنه^(٢)، وزار خيثة في أواخر عمره دمشق، فعقد في مسجدها الجامع مجلساً لإملاء الحديث، فحرص كثير من طلبة العلم على الحضور للاستفادة من علمه^(٣).

كان خيثة كثير التصنيف، ومن مصنفاته: "فضائل الصحابة"، وفيه "لم يخص واحداً على الآخر"^(٤)، و"فضائل أبي بكر الصديق"^(٥)، و"المنتخب من فوائد أبي الحسن خيثة"، و"الرقائق والحكايات"، و"من حديث خيثة"^(٦).

(١) الكتاني، ذيل تاريخ، ص ٧٣ - ٧٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٧، ص ٦٨؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٧، ص ٣٣٩٠؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ٣، ص ٨٣٣ - ٨٣٤.

(٢) الأتربلسي، من حديث خيثة، (مقدمة المحقق)، ص ٣٢ - ٣٥.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٧، ص ٧٠.

(٤) الأرمنازي، المجموع من المنتخب المشهور، ص ١١١.

(٥) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ق ٢، ص ٢١٧.

(٦) الأتربلسي، من حديث خيثة، (مقدمة المحقق)، ص ٥١ - ٥٤.

ثالثاً - التفسير:

لم يلق التفسير اهتماماً كبيراً من جانب شيوخ جند دمشق وعلمائه خلال هذه المدّة، فلم تترجم المصادر إلا لعدد قليل من المفسرين، ولم يكن التفسير محور اهتمامهم الرئيسي، بل كانوا يلمون بعلوم أُخر إلى جانبه كالحديث أو إقراء القرآن أو الفقه، وأبرز المفسرين:

- بكير بن معروف الأَسدي الدامغاني (ت، ١٦٣هـ/٧٧٩م): أصله من خراسان، تولى قضاء نيسابور، ثم سكن دمشق وفيها توفي، حدث عن أبي حنيفة، ويحيى بن سعيد الأنصاري، ومقاتل ابن حيان وغيرهم، روى عنه كبار المحدثين الدمشقيين أمثال: الوليد بن مسلم ومروان بن محمد^(١)، كما سمع منه هشام بن عمار لكنه لم يكتب عنه، وذكره أبو زرعة الدمشقي في نفر قدموا الشام، وقال عنه مروان بن محمد: ثقة، وقال عنه أحمد بن حنبل: ذاهب الحديث^(٢).

- سعيد بن بشير الأزدي الدمشقي (ت، ١٦٨هـ/٧٨٤م): تلقى علومه في دمشق ثم في البصرة، وبرز محدثاً وحافظاً ومفسراً للقرآن الكريم، وقد أدى اتهامه بالقدرية إلى انقسام الشيوخ تجاهه إلى فئتين: فئة فيها هشام بن عمار ترفض الرواية عنه، وفئة أخرى فيها الوليد بن مسلم وسعيد بن

(١) الداودي، محمد بن علي بن أحمد (ت، ٩٤٥هـ/١٥٣٨م)، طبقات المفسرين، تحقيق: علي محمد عمر، القاهرة، مطبعة الاستقلال الكبرى، ط١، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، ج١، ص١٢٠؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ١٦١ - ١٧٠هـ، ص ٩٥ - ٩٧؛ السيوطي، عبد الرحمن ابن أبي بكر الخضير، طبقات المفسرين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ٣٢.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج١٠، ص ٣٩٠ - ٣٩٤.

عبد العزيز ترى الإفادة منه لصدقه في الحديث، وسعة معارفه في التفسير، وقد تناقل أهل دمشق مصنفاته، وأبرزها تفسيراً رواه عنه الوليد بن مسلم^(١).

- عبد الرحمن بن إبراهيم بن عمرو المعروف بدحيم الفقيه (ت، ٢٤٥هـ / ٨٥٩م): تولى قضاء طبرية والرملة، كان محدثاً وحافظاً متقناً، قيل لم يكن بدمشق في زمنه مثله، كما برز علماً من أعلام الفقه وفق المذهب الأوزاعي، وبرز أيضاً حافظاً مقرئاً ومفسراً^(٢)؛ ويظهر أنه صنف تفسيراً، كان في متناول أيدي رجال العلم والفكر في بلاد الشام، فكان من الذين حدثوا بتفسير دحيم بدمشق أحمد بن محمد بن سعيد القرشي الوراق المتوفى سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م^(٣).

- أحمد بن محمد بن موسى القرشي المقرئ المعروف بابن ضريرة (ت، ٣٢٥هـ / ٩٣٦م): حدث عن أبيه وعن بكار بن قتيبة وغيرهما، وحدث عنه بعض المحدثين، كان شيخاً مقرئاً حافظاً لتفسير القرآن^(٤).

- عبد الله بن عطية بن عبد الله بن حبيب المفسر المقرئ المعدل (ت، ٣٨٣هـ / ٩٩٣م): قرأ على أشهر قراء دمشق كأبي الحسن بن الأخرم

(١) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ج ٤، ص ٤٢٢؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق،

ج ٢١، ص ٢٢ - ٣٤؛ الداودي، طبقات المفسرين، ج ١، ص ١٨٠ - ١٨١.

(٢) الداودي، م. ن، ج ١، ص ٢٦١؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١،

ص ٣٦١؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٤، ص ١٦٣.

(٣) ابن عساكر، م. ن، ج ٥، ص ٣٦٠.

(٤) ابن عساكر، م. ن، ج ٥، ص ٤٥٤؛ الداودي، طبقات المفسرين، ج ١، ص ٩٠؛ السيوطي،

طبقات المفسرين، ص ٢٣.

وغيره، وحدث عن أشهر محدثيها كأحمد بن عمير بن جوصاء، تولى إمامة مسجد باب الجابية، فكان مقرئاً ومحدثاً ومفسراً، وعرف عنه استخدام الأشعار للاستدلال على معاني القرآن، فكان يحفظ خمسين ألف بيت شعر في الاستشهاد على معاني القرآن^(١).

ومن المفسرين أيضاً: هشام بن عمار (ت، ٢٤٥هـ/٨٥٩م)^(٢)، وهارون بن موسى الأخفش (ت، ٢٩٢هـ/٩٠٤م)^(٣)، ومحمد بن النصر بن الأخرم (ت، ٣٤١هـ/٩٥٢م)^(٤)، وهم من أعلام القراء أيضاً^(٥).

رابعاً - الفقه:

عرف جند دمشق في العصر الأموي العديد من الفقهاء الأعلام البارزين الذين اشتهروا بفتاويهم ومنهم: أبو إدريس عائذ بن عبد الله الخولاني (ت، ٨٠هـ/٦٩٩م) فقيه أهل الشام وقاضيهم ومقرئهم^(٦)، وبعده برز مكحول الدمشقي الفقيه (ت، ١١٣هـ وقيل ١١٨هـ/٧٣١م، ٧٣٦م وقيل غير ذلك)^(٧)،

- (١) الداودي، طبقات المفسرين، ج ١، ص ٢٣٩؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣١، ص ٢٧ - ٣٠؛ السيوطي، طبقات المفسرين، ص ٤٥.
- (٢) الداودي، طبقات المفسرين، ج ٢، ص ٣٥٢.
- (٣) الداودي، م. ن، ج ٢، ص ٣٤٧.
- (٤) الداودي، م. ن، ج ٢، ص ٢٦٣؛ السيوطي، طبقات المفسرين، ص ١٠٢ - ١٠٣.
- (٥) انظر: القراءات في هذا الفصل.
- (٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٣١٢؛ العصفري، كتاب الطبقات، ج ٢، ص ٧٨٩؛ الفسوي، المعرفة والتاريخ، مج ٢، ص ٣٢٠.
- (٧) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٣١٥؛ الفسوي، المعرفة والتاريخ، مج ٢، ص ٤٠٠؛ الشيرازي، إبراهيم بن علي بن يوسف (ت، ٤٧٦هـ/١٠٨٣م)، طبقات الفقهاء، حققه وقدم له: إحسان عباس، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٧٠م، ص ٧٥.

الذي اشتهر بحلقاته العلمية ومنها تخرج فقهاء كثير أبرزهم: سليمان بن موسى الأشدق (ت، ١١٩هـ/٧٣٧م)^(١)، ويزيد بن يزيد بن جابر الأزدي الدمشقي (ت، ١٣٤هـ/٧٥١م)^(٢)، والعلاء بن الحارث الذماري (ت، ١٣٦هـ/٧٥٣م)^(٣).

ومن تلاميذ مكحول الأوزاعي، وقبل الحديث عنه وعن مدرسته الفقهية لا بدّ من الحديث عن تلميذ آخر من تلاميذ مكحول وهو سعيد بن عبد العزيز التنوخي (ت، ١٦٧هـ/٧٨٣م)^(٤) الذي تولى الفتيا في دمشق بعد الأوزاعي، وقيل إنه لأهل الشام كمالك بن أنس لأهل المدينة في التقدّم والفضل والفقه والأمانة، وبلغ من شهرته في الفقه أن الأوزاعي كان يقدمه في المسائل الفقهية، كما اشتهر بحلقاته العلمية في جامع دمشق، وفيها درّس الحديث والفقه^(٥).

أما عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت، ١٥٧هـ/٧٧٣م)^(٦): فكان إمام أهل الشام في الحديث والفقه، وساد معه تيار الحديث والسنة، واستمر طوال

-
- (١) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ج٤، ص٢٥١؛ الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص٧٥.
 - (٢) المزي، تهذيب الكمال، مج٣٢، ص٢٧٦؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج١١، ص٣٢٢-٣٢٣.
 - (٣) الرازي، كتاب الجرح والتعديل، مقدمة الجرح والتعديل، ص١٨٧؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٤٧، ص٢٠٦.
 - (٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٧، ص٣٢٤؛ الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص٧٦.
 - (٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢١، ص١٩٨-٢٠٢؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج٤، ص٥٣-٥٤؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج٦، ص١٥٢-١٥٣.
 - (٦) العصفري، كتاب الطبقات، ج٢، ص٨٠٨؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٧، ص٣٣٩؛ الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص٧٦؛ الأصبهاني، حلية الأولياء، مج٦، ص١٤٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٩٤. P.143. Sourdél, La civilization.

القرنين الثاني والثالث الهجريين دونما منازع، وقد كان لنشأة الأوزاعي أثر كبير في الاتجاه الذي اتخذته ونشره حتى تجاوز به الشام، فقد روى عن الزهري ويحيى بن أبي كثير وعطاء بن أبي رباح وسليمان بن موسى وسليمان بن حبيب المحاربي وعبد الله بن عامر اليحصبي والعلاء بن الحارث وغيرهم كثير، وروى عنه كثير من المحدثين والشيوخ حتى أشياخه أمثال الزهري، ويحيى بن أبي كثير روى عنه، كما روى عنه مالك بن أنس وسفيان الثوري وسويد بن عبد العزيز والوليد بن مسلم وسعيد بن عبد العزيز وإسماعيل بن عياش والهقل بن زياد وغيرهم^(١).

كتب الأوزاعي كثير من الحديث أثناء طلبه للعلم في الحجاز واليامة والبصرة والكوفة والشام، وقيل إنه كتب في اليامة عن يحيى بن أبي كثير ثلاثة عشر أو أربعة عشر كتاباً، وقد ساعده ذلك في الرجوع إلى الحديث في جميع فتاويه، وعندما كان يسأل عن مسألة ليس عنده فيها خبر كان يعترف بذلك، ويمتنع عن إبداء رأيه الشخصي^(٢).

تميز الأوزاعي بالقوة في شخصيته، والفصاحة في قوله، والقوة في كتابته، وتميز بالخلق الحميد والمعرفة الشاملة، وعنه قال ابن سعد: "كان ثقة مأموناً صدوقاً فاضلاً خيراً كثير الحديث والعلم والفقهاء حجة"^(٣)، وكان عارفاً بأنسب أهل الشام وحديثهم لذلك تسيدهم في الحديث والعلم والفقهاء، وصارت إليه فتوى الفقهاء لفضله وكثرة روايته، وقيل سئل أول مرة

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ١٤٧ - ١٤٩.

(٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٥، ص ١٥٨ - ١٦٢.

(٣) الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٣٣٩.

عن الفقه في سنة ١١٣هـ/٧٣١م، وهو ابن خمس وعشرين سنة، ثم لم يزل يفتي بقية عمره أي قرابة نصف قرن من الزمن، أجاب خلالها عن سبعين ألف مسألة من العلم^(١)، وروى الحديث في حلقاته العلمية في مسجدي دمشق وبيروت، وفيها دون تلاميذه جميع أحاديثه ومسائله الفقهية تقريباً، وكانوا يعرضون كتبهم عليه، فيراجعها ويصححها ثم يسمح لهم بروايتها عنه، وكان للأوزاعي ثلاثة كتّاب مهمتهم تدوين ما يمليه عليهم من الحديث والفتاوي وهم:

- الهقل بن زياد بن عبيد الله السكسكي (ت، ١٧٩هـ/٧٩٥م)^(٢).
- عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين (تاريخ وفاته غير معروف)^(٣).
- يوسف بن السّفر بن الفيض (تاريخ وفاته غير معروف)^(٤).

كان اهتمام الأوزاعي بالكتابة والترسل كبيراً، فقد كتب ثلاثة عشر كتاباً احترقت في الزلزلة التي حدثت سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م^(٥)، وهو يعد من الأوائل الذين صنّفوا كتباً مبنية في السنن، فقد ذكر له ابن النديم كتابين هما: "كتاب السنن في الفقه"، و"كتاب المسائل في الفقه"^(٦)، كما كتب عدداً من

-
- (١) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ٢، ص ٧٢١؛ الرازي، كتاب الجرح والتعديل، مقدمة الجرح والتعديل، ص ١٨٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ١٥٨ - ١٦٣؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ١٣٥؛ المزي، تهذيب الكمال، مع ١٧، ص ٣١٣-٣١٤؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٦، ص ٢١٦.
 - (٢) المزي، تهذيب الكمال، مع ٣٠، ص ٢٩٢؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ٥٧.
 - (٣) العسقلاني، م.ن، ج ٦، ص ١٠٢؛ المزي، تهذيب الكمال، مع ١٦، ص ٤٢٠-٤٢١.
 - (٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٤، ص ٢٤١.
 - (٥) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٥، ص ١٨٩.
 - (٦) الفهرست، مع ١، ص ٤٦٨.

الرسائل ناقش فيها المسائل المطروحة في ذلك الحين كالقدر، وكتب بعض الرسائل في وعظ الحكام والأصدقاء، وقد اتصفت رسائله بأنها مؤثرة وذات أسلوب بليغ حتى إن الخليفة المنصور كان عندما ترد عليه رسائل الأوزاعي يتعجب من بلاغتها ويكثر النظر فيها، ثم كان يأمر بنسخها في دفاتر ووضعها بين يديه استحساناً لألفاظها^(١).

واشترك الأوزاعي بمناظرات ومجالس مع علماء عصره وفقهائه، وأهم تلك المناظرات تلك التي أجراها في المدينة من الظهر حتى العصر مع الإمام مالك بن أنس، وكانت في علوم الحديث والفقه والمغازي، وخلالها تبين للإمام مالك سعة علم الأوزاعي ومعارفه، وقد بلغ من تقديره للأوزاعي، أنه كان يخرج للقاءه عندما يزور المدينة، وكان يعده من الراسخين في العلم، وأنه إمام يقتدى به ويصلح للإمامة. وقد بلغ الأوزاعي شهرة كبيرة حتى إن بعض الفقهاء في عصره كانوا ينصحون طلابهم الاقتداء به وأنه يكفي عما قبله^(٢).

كما اشترك الأوزاعي بمناظرات ومجالس مع سفيان الثوري^(٣)، كما التقى مع الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت صاحب مدرسة الرأي^(٤)، وبذلك يكون قد عاصر أبرز المدارس الفقهية في عصره (أي مدرسة الحديث ومدرسة

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ١٩٠، ٢٠٨ - ٢٠٩، ٢١١؛ الذهبي، تذكرة

الحفاظ، ج ١، ١٣٧.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ١٦٦ - ١٧١؛ الرازي، كتاب الجرح

والتعديل، مقدمة الجرح والتعديل، ص ١٨٥؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٦،

ص ٢١٧؛ الخطيب، محاسن المساعي، ص ٦٦.

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٩، ص ١٥٩.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ١٦٧؛ الخطيب، محاسن المساعي، ص ٦٧.

الرأي)، والتقى أئمتها ثم أسس مدرسة فقهية في الشام، وهي ذات منهج فقهي أقرب إلى مدرسة الحديث منه إلى مدرسة الرأي، وذلك أن الأوزاعي كان يكثر الحديث ويتعد عن القياس، فمنهجه الفقهي يقوم على استنباط الأحكام من كتاب الله تعالى، فإن لم يجد فيه، أو إن ما وجد فيه مجملاً، يَمَّم شطر السنة يلتمس بيانه، فإن لم يكن هناك نص صريح في الكتاب أو السنة بحث عنه في مظانه من إجماع الصحابة والتابعين أو أخذ برأي صحابي إن لم يكن له مخالف من الصحابة^(١).

ساد مذهب الأوزاعي في الشام نحو /٢٢٠/ سنة، كانت خلالها الخطابة والإمامة والقضاء والفتيا في معظمها وفقاً له، ومن أبرز الفقهاء الذين خلفوا الأوزاعي وكانوا وفقاً لمذهبه:

- يزيد بن يوسف الصنعاني (ت، ١٦٧هـ / ٨٨٣م)، ويزيد بن السمط الصنعاني: عرفا بعالمي الجند^(٢).

- الوليد بن مسلم القرشي (ت، ١٩٥هـ / ٨١٠م): من تلاميذ الأوزاعي، وتقدمت الإشارة إلى حلقاته العلمية، ومصنفاته السبعين، وقد غلبت على هذه المصنفات الصفة الفقهية القضائية حتى إنه قيل: إن من كتبها صلح أن يلي القضاء^(٣)، وحوث هذه المصنفات كثير من علم الأوزاعي

-
- (١) الملاح، الإمام الأوزاعي، ص ٢٠٦-٢٠٧.
 - (٢) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال، ج ٩، ص ١٥٠؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١٤، ص ٣٣٣؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ٣٢، ص ١٤٩-١٥٠، ٢٨٣-٢٨٥؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١١، ٢٨٩-٢٩٠، ٣٢٤.
 - (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٣، ص ٢٨٨؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ١، ص ٢٢١؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ٣١، ص ٩٤؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، مج ٢، ص ٤٤٧.

إذ أُخرج منها أربعة آلاف مسألة عن الأوزاعي^(١)، كما أنه وضع "كتاب السير عن الأوزاعي" وهو مطبوع في "كتاب الأم" للإمام الشافعي^(٢)، ومن مصنفاته الفقهية أيضاً: "كتاب السنن في الفقه"^(٣).

- الوليد بن مزيد العذري البيروتي (ت، ٢٠٣هـ/٨١٨م)^(٤).

- عبد الرحمن بن إبراهيم بن عمرو الدمشقي المعروف بدحيم الفقيه (ت، ٢٤٥هـ/٨٥٩م)^(٥).

- العباس بن الوليد بن مزيد البيروتي (ت، ٢٧٠هـ/٨٨٣م)^(٦).

- أحمد بن سليمان بن حذلم قاضي دمشق (ت، ٣٤٧هـ/٩٥٨م)، وهو آخر من كانت له حلقة في مسجد دمشق يدرس فيها الفقه على المذهب الأوزاعي^(٧).

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ١٦٣.

(٢) تدمري، لبنان، ص ٢٣٨.

(٣) ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ٤٦٩.

(٤) الرازي، كتاب الجرح والتعديل، ج ٩، ص ١٨؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ٣١، ص ٨١؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ١٣٢.

(٥) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١٠، ص ٢٦٥؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٤، ص ١٦٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠، ص ٩٤؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ١٦، ص ٤٩٥؛ ابن عبد الهادي، طبقات علماء الحديث، ج ٢، ص ١٤٢؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ٢، ص ٥٠؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٦، ص ١٢٠-١٢١.

(٦) العسقلاني، م.ن، ج ٥، ص ١١٨-١١٩؛ المزي، تهذيب الكمال، مج ١٤، ص ٢٥٥.

(٧) الكتاني، ذيل تاريخ، ص ٧٧-٧٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧١، ص ١٥٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٦، ص ٤٠٥؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٥١٤؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٣١؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، مج ٤، ص ٢٤٧-٢٤٨؛ الخطيب، محاسن المساعي، ص ٦٢.

ومما هو جدير بالذكر أن أهل الأندلس عملوا مدة من الزمن وفقاً لمذهب الأوزاعي، وكان قد نقله إليهم صعصعة بن سلام (ت، ١٩٢ هـ / ٨٠٧ م)، وهو أحد تلاميذ الأوزاعي، وقد رحل إلى الأندلس واستقر فيها، وأخذ يفتي وفقاً لمذهب أستاذه، فاستمر العمل وفق هذا المذهب مدة أربعين سنة، إلا أنه أخذ بالتقلص والانكماش في حدود سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م مع انتشار المذهب المالكي^(١).

ويعود ضعف المذهب الأوزاعي وانقراضه إلى أسباب عديدة، منها:
- إقامة الأوزاعي في بيروت التي لم تكن مركزاً يقصده الناس، ولا يمر فيها طريق الحج، ولم تكن محجة لأهل العلم مثل المدينة وبغداد^(٢).

- عدم وجود تلاميذ وأصحاب للأوزاعي عملوا على نشر مذهبه الفقهي في الأمصار والبلدان المختلفة، واكتفاء التلاميذ الذين اعتنقوه بتقليد الأوزاعي وترديد ما قاله دون إضافتهم أي أحكام جديدة أو التأليف في المذهب^(٣).

- ومن المفيد هنا ذكر ما قاله ابن خلدون حول التَّوَّعُّمَة الاجتماعية التي كانت السبب في انتشار المذهب المالكي في الأندلس على حساب المذهب الأوزاعي وغيره من المذاهب، قال: "فالبداوة كانت غالبية على

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٤، ص ٧٨ - ٧٩؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٦، ص ٢١٨.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٢٧.

(٣) الملاح، الإمام الأوزاعي، ص ٢١١ - ٢١٢.

أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غصاً عندهم، ولم يأخذه تفتيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب"^(١).

يضاف إلى ما سبق ما ذكرته بعض المصادر من تشجيع بعض القضاة للمذاهب الأخرى، فعلى سبيل المثال كان القاضي أبو زرعة محمد بن عثمان الثقفي الدمشقي (ت، ٣٠٢هـ/٩١٤م)، من أتباع المذهب الشافعي، وهو أول من أدخله إلى دمشق، وكان يشجع على هذا المذهب، ويهب لمن يحفظ "مختصر المزني"^(٢) في الفقه الشافعي مئة دينار^(٣).

وتجدر الإشارة إلى أن جند دمشق عرف في هذه المدة المذاهب الفقهية الكبرى على يد بعض أتباعها، فقد بدأ أنصار الرأي بالظهور منذ القرن الثاني الهجري، ومنهم: شعيب بن إسحاق بن عبد الرحمن القرشي الدمشقي (ت، ١٨٩هـ/٨٠٥م) وهو من ثقات أهل الرأي، ومن كبار الفقهاء، أخذ الفقه عن أبي حنيفة، وكان متقناً مجوداً للحديث^(٤)، وبرز من أنصار الرأي في القرن

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٣١.

(٢) المزني: هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني (ت بمصر ٢٦٤هـ/٨٧٧م) من أشهر تلاميذ الإمام الشافعي، صنف كتباً كثيرة منها: "الجامع الكبير"، و"الجامع الصغير"، و"مختصر المختصر" وغيرها؛ الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص ٩٧.

(٣) المقرئ، المقفى الكبير، ج ٦، ص ١٨٩ - ١٩٠؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٢؛ الإسنوي، عبد الرحيم بن الحسن بن علي (ت، ٧٧٢هـ/١٣٧٠م)، طبقات الشافعية، نشر: كمال يوسف

الحوت، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ج ١، ص ٢٥١.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٣، ص ٨١-٨٨؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٩، ص ١٠٣.

الثالث الهجري: صفوان بن صالح الثقفي الدمشقي، مؤذن الجامع (ت، ٢٣٧هـ / ٨٥١م)^(١)، ويزيد بن أحمد بن يزيد السلمي (ت، ٢٨١هـ / ٨٩٤م)^(٢)، وقد ازداد أنصار الرأي بتشجيع الخلفاء العباسيين، إذ عينوا منهم قضاة ومنهم: عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد المجيد أبو حازم السكوني (ت، ٢٩٢هـ / ٩٠٤م)^(٣)، وهو من أعلام الفقه وفقاً للمذهب الحنفي، وله من الكتب: "كتاب المحاضر والسجلات"، و"كتاب الفرائض"، و"كتاب أدب القاضي"^(٤)؛ وعلي بن محمد بن الحسن النخعي الكوفي (ت، ٣٢٤هـ / ٩٣٥م)، الذي كان إماماً كبير القدر في الفقه الحنفي، وله "كتاب يغص فيه من الشافعي"^(٥).

أما أتباع المذهب المالكي، فكان منهم: عتبة بن حماد الحكمي الدمشقي القارئ، وكان قد قرأ الموطأ على يد الإمام مالك، غير أن أثره كان محدوداً^(٦)، كما أن بعض القضاة الذين تولوا القضاء كانوا من أتباع المذهب المالكي، ومنهم على سبيل المثال: القاضي أبو طاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر الذهلي البغدادي (ت، ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) الذي كان فقيهاً ومفسراً وأديباً وعارفاً بأيام الناس، تولى قضاء واسط والبصرة وبغداد ودمشق،

- (١) العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٣٩١.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٥، ص ٧١.
- (٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١١، ص ٦٢؛ الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص ١٤١؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٤، ص ٧٨.
- (٤) ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ٤٣١.
- (٥) ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٧.
- (٦) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٨، ص ٢٣٤ - ٢٣٨.

صنف كتباً عديدة منها: "كتاب الحديث"، و"كتاب في الفقه" على المذهب المالكي، و"مختصر تفسير الجبائي"^(١)، و"مختصر تفسير البلخي"^(٢).

أما المذهب الشافعي، فقد سبقت الإشارة إلى أن أول من أدخله إلى الشام القاضي أبو زرعة محمد ابن عثمان، ومن الفقهاء الذين برزوا وفق هذا المذهب:

- كنيز بن عبد الله الخادم (ت، ٢٨٠هـ/٨٩٣م)، وكان له حلقة في مسجد دمشق وفق المذهب الشافعي، ومن خلالها عمل على نشر هذا المذهب^(٣).

- محمد بن يوسف بن بشر الهروي الحافظ الفقيه الشافعي (ت، ٣٣٠هـ/٩٤١م)، وهو من الحفاظ الثقات، ومن المكثرين الجوالين في طلب الحديث، وقد قدم دمشق وسكنها وفيها توفي، وكان يحدث في منزله بسوق النخاسين في الدار المعروفة بدار بني عوف^(٤).

(١) الجبائي: هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد المعروف بالجبائي (ت، ٣٠٣هـ/٩١٥م) أحد أئمة المعتزلة، وله في مذهب الاعتزال مقالات مشهورة؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٤، ص ٢٦٧.

(٢) المقرئ، المففى الكبير، ج ٥، ص ١٨٩؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٣٤؛ سزكين، تاريخ التراث العربي، مج ١، ج ٣، ص ١٦٤؛ البلخي: هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي (ت، ٣١٧هـ/٩٢٩م)، كان رأس طائفة من المعتزلة يقال لها "الكعبية"، وهو صاحب مقالات واختيارات في علم الكلام؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٣، ص ٤٥.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٠، ص ٢٦١ - ٢٦٢؛ الإسنوي، طبقات الشافعية، ج ٢، ص ١٧٨.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٦، ص ٣٠٥ - ٣٠٨؛ الإسنوي، طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٢٩٥.

- الحسن بن حبيب بن عبد الملك الحصائري الدمشقي (ت، ٣٣٨هـ - ٩٤٩م)، تلقى علومه في الشام ومصر والعراق ومكة، ثم صار إمام مسجد باب الجابية، وكان حافظاً لمذهب الشافعي، وكان يحدث بكتاب "الأم" للشافعي عن أصحابه^(١).

- أبو الحسين الرازي محمد بن عبد الله بن جعفر (ت، ٣٤٧هـ / ٩٥٨م)، أصله من الري، نزل دمشق، كان حافظاً ومحدثاً، وكان من أعلام الفقه وفقاً للمذهب الشافعي، وله تصنيف في "أخبار الشافعي"^(٢).
كما أن بعض القضاة كانوا من أتباع المذهب الشافعي ومنهم:

- عبد الله بن محمد بن جعفر القزويني الفقيه (ت، ٣١٥هـ / ٩٢٧م) ألف كتاب "سنن الشافعي"^(٣).

- عبد الله بن محمد بن الحسن بن الخصيب الأصفهاني (ت، ٣٤٨هـ - ٩٥٩م) كان فقيهاً شافعيًا، وصنف كتاباً في الفقه سماه "المسائل المجالسية"^(٤).

أما المذهب الحنبلي، فكان من أتباعه: أبو القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله الخرقني (ت، ٣٣٤هـ / ٩٤٥م)، أصله بغدادي، درس على صالح

(١) الكنازي، ذيل تاريخ، ص ٦٦-٦٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج. و) ٣٣١-٣٤٠-٣٤١-٣٥٠هـ ص ١٥٩-

١٦٠؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٥، ص ٢٣٠٨؛ المقرئ، المقفى الكبير، ج ٣، ص ٣٥٣؛ ابن العماد

الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٠٤؛ الإسنوي، طبقات الشافعية، ج ١، ص ٢٠٠.

(٢) الإسنوي، م. ن، ج ١، ص ٢٨٥.

(٣) الإسنوي، م. ن، ج ٢، ص ١٤٥؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٦.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٢، ص ١٧٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٥،

ص ٥٤٠؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٩-٣٠، ويرد عنده كتاب "المسائل المجالسية"

باسم "الشمال المجالسية"؛ الإسنوي، طبقات الشافعية، ج ١، ص ٤٩.

وعبد الله ابني أحمد بن حنبل وغيرهما، وقد خرج إلى دمشق بعد أن ضاقت الحياة بالحنابلة في بغداد، لأنهم نقدوا بعض الصحابة، وكان له مؤلفات ومصنفات كثيرة في الفقه على المذهب الحنبلي، غير أنه تركها في بغداد فاحترقت، ولم يبق منها إلا "مختصر في الفقه"^(١) ومختارات من كتابه "فوائد"^(٢).

أما فيما يخص المذهب الشيعي، فلم يبرز في جند دمشق خلال هذه المدة أي من الفقهاء وفقاً لهذا المذهب.

خامساً - النحو:

يعود نشوء علم النحو إلى القرن الأول الهجري، وكان أول من وضعه أبو الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو بن سفيان المتوفى سنة ٦٩هـ/٦٨٨م، وقيل كانت وفاته في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ - ١٠١هـ/٧١٧ - ٧١٩م)، وتذكر المصادر أنه أخذ هذا العلم عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه^(٣).

تطور علم النحو في العصر العباسي، وبلغ نضجه الكامل بفضل جهود كثير من العلماء النحويين الذين صنفوا فيه وأتموا قواعده، هذا وتشير الدراسات إلى أن معظم علماء النحو كانوا من أهل العراق^(٤)، لكن مما هو جدير بالذكر أن أحد العلماء الذين برزوا في القرن الرابع الهجري عاش في

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١١، ص ٢٣٤ - ٢٣٥؛ الشيرازي، طبقات الفقهاء، ١٧٢؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٣، ص ٥٦٢؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ق ٢، ص ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٢) سزكين، تاريخ التراث العربي، مج ١، ج ٣، ص ٢٣٦.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٢، ص ٥٣٥.

(٤) أمين، ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٣١٦.

دمشق وعلم فيها، وهذا العالم هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي النحوي الذي "كان إماماً في علم النحو"^(١)، ووصفه الذهبي بـ "شيخ العربية"^(٢)، وهو من أهل بغداد، تتلمذ على أبي إسحاق الزجاج^(٣)، فنسب إليه، ثم انتقل إلى دمشق وسكنها فأملى بها وحدث، فانتفع الناس به وتخرجوا عليه، وفي أواخر عمره انتقل إلى طبرية، وفيها توفي سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م.

صنف أبو القاسم الزجاجي عدة كتب في النحو، منها: كتاب "الجمال"، و"الأمالي" الأدبية، و"كتاب الإيضاح"، و"شرح خطبة أدب الكاتب"، وكتاب "اللغات"، و"المخترع في القوافي" وغيرها^(٤).

سادساً - الشعر:

يعود ازدهار الشعر العربي في بلاد الشام إلى أصالة الأدب الشامي، وبعده عن تأثير التيارات الأعجمية الوافدة على الأمة العربية، ولاتصاله المباشر بالحجاز، وإلى هذا أشار الثعالبي عندما تحدث عن فضل شعراء الشام مقارنة بغيرهم من شعراء البلدان الأخرى، قال: "لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها، في الجاهلية والإسلام... والسبب في تبرز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر: قربهم من خطط العرب ولا سيما

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٣، ص ١٣٦.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٤٧٥.

(٣) أبو إسحاق الزجاج إبراهيم بن محمد بن السري (ت، ٣١١هـ/٩٢٣م)، عالم بالنحو والأدب من أهل بغداد، كان يخرط الزجاج فنسب إليه، تعلم على المبرد وثعلب، صنف كتباً عديدة منها: "معاني القرآن" و"كتاب الاشتقاق" و"كتاب مختصر في النحو"؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ١، ص ٤٩.

(٤) ابن خلكان، م.ن، مج ٣، ص ١٣٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٤٧٥-٤٧٦.

أهل الحجاز، وبعدهم عن بلاد العجم، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق لمجاورة الفرس والنبط، ومداخلتهم إياهم^(١). ويضاف إلى ما ذكره الثعالبي أن طبيعة بلاد الشام الخلابة وغناها بالأزهار والورود^(٢) كانت ملهمة للشعراء منذ القديم على ابتكار الألفاظ الجزلة والتعابير الجميلة.

لقد برز في جند دمشق كثير من الشعراء اللامعين خلال العصر العباسي، ومنهم:

- آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز الأموي: كان بالشام حين ذهب ملك أهل بيته، وهو من الأمويين الذين منّ عليهم عبد الله بن علي بالعمو لما قتل من وجد من بني أمية في مذبحه أبي فطرس، فرحل آدم إلى العراق وسكنه، وذكرت المصادر أنه كان شاعراً ماجناً ثم تنسك، وقيل إن الخليفة المهدي جلده ثلاثمائة سوطٍ على أن يقر بالزندقة، فلم يقر، وكان جوابه: "والله ما أشركت بالله طرفة عين، ومتى رأيت قرشياً تزندق؟"^(٣).

- عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي (ت نحو ١٩٣هـ/٨٠٩م): ينتسب إلى بني الحارث بن كعب، وهم بطن من مذحج من العرب القحطانية، وكانوا يقيمون بالفلجة^(٤) من أرض دمشق^(٥)، وذكر الشاعر بلدته في شعره بصيغة التصغير في قوله:

- (١) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٤.
- (٢) انظر: الزرعة في الفصل الثالث.
- (٣) الأصفهاني، الأغاني، مج ١٥، ص ٢٢٧؛ فرفور، معجم الشعراء، ج ١، ص ٢٦٢.
- (٤) فَلَجَة: بالتحريك موضعاً بالشام؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ٤، ص ٣٠٩.
- (٥) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

تَصَيَّقَتِ اللُّجُونُ ثُمَّ تَحَيَّرَتْ لها من شمَارِيخِ الفُليجَةِ مَرْتَعَاً^(١)

تجاهلت معظم كتب التراجم الشاعر الحارثي، ولم تَفِهْ حقه، ويظهر أن هذا يعود إلى أنه كان شامياً، والشامي كان محلاً للشك والريبة من قبل العباسيين^(٢)، ومن بين من ترجم لهذا الشاعر كان ابن المعتز، وكان معجباً به غاية الإعجاب، وعنه قال: "كان الحارثي شاعراً مُفْلِقاً مَفْوْهاً مطبوعاً"^(٣).

توجه الحارثي إلى بغداد بغية مدح الخلفاء والوزراء والحصول على أعطياتهم، غير أن الرشيد غضب عليه، وحبسه ومنعه من العودة، وذلك بسبب مذهبه السياسي وميوله الأموية، وبغضه للعباسيين، فكتب الحارثي من السجن شعراً إلى أخيه معاتباً:

فلو كان ما بي - لا يكن بك - إليك وراح البرُّ بي والتقربُ^(٤)

كما ضاعت أخبار هذا الشاعر ضاعت أشعاره، فلم يبقَ منها إلا النزر اليسير وهي متناثرة في كتب الأدب والشعر، وتتمحور أشعاره التي

(١) مردم، خليل، عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، مج ٣٢، ج ٣، ١٩٥٧م، ص ٤٠٤؛ باشا، عمر موسى، الأدب في بلاد الشام من العصر الإسلامي حتى نهاية العصر العباسي، دمشق، دار طلاس، ط ١، ١٩٨٦م، ص ١٨٦.

(٢) مردم، عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، مج ٣٢، ج ٣، ص ٤٠٢.

(٣) ابن المعتز، عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد (ت، ٢٩٦هـ / ٩٠٨م)، طبقات الشعراء المحدثين، حققه وقدم له: عمر فاروق الطباع، بيروت، شركة دار الأرقام، ط ١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ص ٣١٠.

(٤) مردم، عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، مج ٣٢، ج ٣، ص ٤٠٤؛ باشا، الأدب في بلاد الشام، ص ١٨٧.

بقيت في الحماسة والحكمة والفخر والفروسية والمروعة والرياء والغزل وما إليها^(١).

تميز شعر الحارثي بالجودة العالية والجزالة البدوية والأصالة، وعن ذلك قال ابن المعتز: "وكان لا يشبه بشعره شعر المحدثين الحضريين، وكان نمطه نمط الأعراب، ولما قال قصيدته المعروفة العجبية انقاد الشعراء وأذعنوا، وهو أحد من نسخ شعره بهاء الذهب"، أما القصيدة العجبية فمنها:

هأنذا يطالبي ساعي محضرٌ برِّي إلى الداعي
أحمي حمي من غاب من مذحج ويحمّد الشاهد إيقاعي^(٢)

أما أشهر قصائد الحارثي، والتي كانت موضع إعجاب القدماء فهي قصيدته التي قالها في رثاء أخيه سعيد بن عبد الرحيم وهي تتألف من مئة بيت^(٣).

- أبو تمام حبيب بن أوس الطائي: ولد بقرية جاسم الواقعة جنوب دمشق على الطريق بينها وبين طبرية، وهناك روايات متعددة حول سنة ولادته، فقبل سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م، وقيل سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م، وقيل سنة ١٨٨هـ/٨٠٣م، وقيل سنة ١٩٠هـ/٨٠٥م، وهناك تضارب في الآراء حول صحة نسبه إلى طيء،

(١) مردم، م.ن، مج ٣٢، ج ٣، ص ٤٠٥ "وفيها يذكر بعض كتب الأدب والشعر التي ترد فيها أشعار الحارثي".

(٢) طبقات الشعراء المحدثين، ص ٣١٠.

(٣) نشر الأستاذ خليل مردم هذه القصيدة في مجلة المجمع العلمي العربي مج ٣٢، ج ٤، ١٩٥٧م، ص ٥٦١-٥٧٤، وذلك نقلاً عن مخطوطة جمهرة الإسلام لأمين الدين أبي الغنائم مسلم بن محمود بن نعمان بن رسلان الشيزري.

فبعض المصادر تذكر أن أباه كان نصرانياً اسمه تدوس، وأنه حرّفه إلى أوس، وانتسب إلى طيء^(١)، وهناك من ذكر أن اسم أبيه كان (ثادوس) أو (ثيودوس)، وأن الابن استبدل هذا الاسم، فجعله أوساً بعد اعتناقه الإسلام، ووصله بقبيلة طيء^(٢)، وإن صحت نصرانية أبيه لا تنفّه من العرب ولا من طيء^(٣).

عاش أبو تمام حياة مفعمة بالعمل والجد والنشاط والإنتاج الشعري، فحتى شبابه كان في دمشق يعمل عند حائك، وفي شبابه انتقل إلى حمص، وفيها التقى ديك الجن الحمصي^(٤) وتأثر به، وأثناء وجوده في حمص برزت شاعريته وسطع نجمه حتى إنه كان لا يبقى شاعر إلا يقصده ويعرض عليه شعره، ومن الذين قصده آنذاك الشاعر البحري الذي أخذ عنه^(٥)، ثم

(١) الأصفهاني، الأغاني، مج ١٦، ص ٣٠٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٢، ص ١١؛

ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٢، ص ١٩، وفيه ذكر اسم أبيه بأنه "تروس"؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ٢، ص ١١٠.

(٢) مرجليوث، أبو تمام، دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة عن الأصلين الإنكليزي والفرنسي، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتناوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣٣م، مج ١، ص ٣٢٠.

(٣) ضيف، العصر العباسي الأول، ص ٢٦٩.

(٤) ديك الجن الحمصي: هو عبد السلام بن رعبان بن عبد السلام الكلبي الملقب ديك الجن، شاعر مشهور من شعراء الدولة العباسية، أشعاره في غاية الجودة، أصله من سلمية، ولد بـحمص سنة ١٦١هـ / ٧٧٧م، توفي سنة ٢٣٥هـ / ٨٤٩م، عاش طوال حياته في الشام، فلم يفارقها ولم يرحل إلى العراق ولا إلى غيره للتكسب بشعره؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٦، ص ٢٠١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٣، ص ١٨٤.

(٥) الصولي، محمد بن يحيى (ت، ٣٣٥هـ / ٩٤٦م)، أخبار أبي تمام، نشره وحققه وعلق عليه: خليل محمود عساكر وآخرون، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ١، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م، ص ٦٦؛ الأرمنازي، المجموع من المنتخب المنشور، ص ٨٢ - ٨٣.

رحل أبو تمام إلى مصر، فصار يسقي الماء في المسجد الجامع، ثم جالس الأدباء وأخذ عنهم، ومدح بعض الأمراء^(١)، ثم عاد إلى دمشق، فتقدم لمدح المأمون بعد عودته من غزو البيزنطيين، إلا أن المأمون لم يرتح لشكله البدوي وصوته الأجش^(٢)، فرحل أبو تمام إلى الموصل وقضى فيها شطراً من حياته، ثم التحق ببلاط الخليفة المعتصم ومدحه، كما مدح خلفه الواثق، ومدح أحمد بن المعتصم، وكبار رجال البلاط العباسي أمثال: أحمد بن أبي دؤاد وغيره، ومدح كبار الأمراء والقواد كمالك بن طوق والي دمشق في عهد المتوكل، وخالد بن يزيد الشيباني والي أرمينية في عهد الواثق^(٣)، ورحل أبو تمام إلى خراسان لمدح عبد الله بن طاهر، فاجتمع الشعراء للسمع منه، وبلغ من استحسانهم الأشعار التي ألقاها أن تنازل بعضهم عن جوائزه التي وعده بها - ابن طاهر - لأبي تمام^(٤)، ومدح أيضاً بعض من تولى دمشق أمثال: أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، وأبي المغيث موسى بن إبراهيم بن سابق الرافقي^(٥)، وتولى في أواخر حياته بريد الموصل، فأقام عليه سنة، ثم اعتل ومات في سنة ٢٣١هـ/ ٨٤٥ أو ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م^(٦).

(١) ابن عساکر، تاریخ مدينة دمشق، ج ١٢، ص ١٨؛ الخطيب البغدادي، تاریخ بغداد، مج ٨، ص ٢٤٨.

(٢) أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ١٩٦؛ باشا، الأدب في بلاد الشام، ص ٢٢٦.

(٣) الصولي، أخبار أبي تمام، ص ١٤١، ١٤٣، ١٥٨، ٢٣٠؛ الأصفهاني، الأغاني، مج ١٦، ص ٣١٠.

(٤) الأصفهاني، م.ن، مج ١٦، ٣٠٨.

(٥) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (ت، ٢٣١ - ٢٣٢هـ / ٨٤٥ - ٨٤٦م)، ديوان أبي تمام، تقديم وشرح: محيي الدين صبحي، بيروت، دار صادر، ط ١، ١٩٩٧م، مج ١، ص ١٤٦، ٣٧٥.

(٦) الصولي، أخبار أبي تمام، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

على الرغم من أن أبا تمام قد مات في ريعان شبابه عن عمر لا يتجاوز - على الأرجح - أربعين سنة، فإنه ترك إراثاً ثقافياً وشعرياً كبيراً، وهياً للشعر ازدهاراً رائعاً، وكان محط إعجاب رجال الأدب والعلم منذ القديم، وعنه قال ابن المعتز: إن "... الرجل كثير الشعر جداً.. ويقال إن له ستمئة قصيدة وثمانمئة مقطوعة، وأكثر ما له جيد، والردىء الذي له إنما هو شيء يستغلق لفظه فقط، فأما أن يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا"^(١)، وقال عنه الأصفهاني "شاعر مطبوع لطيف الفطنة دقيق المعاني"^(٢).

اتصف أبو تمام بسرعة البداهة والإجابة، فكان يجيب الذي يسأله قبل أن ينهي سؤاله، واتصف بالظرف وحسن الأخلاق وكرم النفس، والترفع عن الدنيا، فلم يكن ماجناً أو عابثاً، ولم يرد في ديوانه ما يصور ذلك^(٣)، وكانت ثقافته واسعة، فقد أجاد الشعر قديمه وحديثه، وقيل كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطع^(٤)، وقد أودع خلاصة دراسته في أشعاره، وساعده في ذلك ثقافته الواسعة بالفلسفة، فتأثر بها في كثير من أشعاره، كما عرف عنه الحدة والذكاء والفطنة، وإجتهاد نفسه في التفكير، وينسب إلى بعض الفلاسفة الذين رأوه قولهم عنه: يموت قبل حينه لأنه أتعب نفسه بالفكر^(٥).

(١) طبقات الشعراء المحدثين، ص ٣١٩.

(٢) الأغاني، مج ١٦، ص ٣٠٣.

(٣) ضيف، العصر العباسي الأول، ص ٢٧٦.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٢، ص ١٢.

(٥) ابن خلكان، م. ن، مج ٢، ص ١٥؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ق ١، ص ٣٩١.

عانى أبو تمام متممة يسيرة في صوته لذلك اتخذ راوية لشعره يحسن الإنشاد^(١)، وعاب عليه بعض الشعراء إفراطه في المعاني والمجازات، وعدم اهتمامه باللفظ^(٢).

كان أبو تمام أشبه بمدرسة شعرية كبيرة أثرت في الشعراء المعاصرين له، الذين كانوا يقرون بأستاذيته إذا ذكر، فالبحتري على سبيل المثال كان يصفه بـ "الرئيس الأستاذ"^(٣)، واقتفى مسلكه في كثير من أشعاره، وأنصفه لما سئل عنه وعن نفسه بقوله: "جيدّه خير من جيدي، وردّي خير من رديّه"^(٤)، كما أثر أبو تمام في الشعراء الفحول الذين جاؤوا بعده، كالمتنبي وغيره.

ولأبي تمام ديوان شعري يحتوي على قصائد في المديح والهجاء والثناء والوصف والعتاب والغزل والفخر... إلخ، وقد سار كثير من أشعاره مسرى الأمثال لكثرة ما فيها من الحكم وحقائق الكلم، ولبعض أشعاره التي صور فيها الأحداث في عصره أهمية كبيرة من الوجهة التاريخية، ومنها وصفه فتح المعتصم عمورية^(٥) وانتصاره على البيزنطيين في سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م، وفيها يقول:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جِلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ

- (١) الصولي، أخبار أبي تمام، ص ١٤٣-١٤٤.
- (٢) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ق ١، ص ٣٩١.
- (٣) الصولي، أخبار أبي تمام، ص ٦٧.
- (٤) ابن المعتز، طبقات الشعراء المحدثين، ص ٣١٩.
- (٥) عمورية: بلد في بلاد الروم؛ الحموي، معجم البلدان، (ط، دار الكتب العلمية)، ج ٤، ص ١٧٨.

إلى أن يقول:

فَتَحُّ الْفُتُوحِ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ
فَتَحُّ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ
نَظْمٌ مِنَ الشُّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الْخُطْبِ
وَتَبَرُّزُ الْأَرْضِ فِي أَثْوَابِهَا الْقُشْبِ
مِنْكَ الْمَنَى حُفْلًا مَعْسُولَةَ الْحَلْبِ^(١)
يَا يَوْمَ وَقَعَةَ عَمُورِيَّةَ أَنْصَرَفَتْ

وقيل إنه كرر إنشاد هذه القصيدة ثلاثة أيام، فمنحه المعتصم مئة وسبعين ألف درهم عن كل بيت منها ألف^(٢).

ولا تقوم مكانة أبي تمام الرفيعة على الشعر الذي نظمه فحسب بل على المؤلفات والمصنفات التي ألفها، وأبرزها ديوان الحماسة المشتمل على روائع الشعر من زمن الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي، وقد جمعه في طريق عودته من عند عبد الله بن طاهر في خراسان، وكان قد حبسه الثلج في همدان، فنزل عند أحد أدبائها الذي فتح له مكتبته، فأخذ يتصفح ويقرأ ويصنف. ومن مؤلفاته أيضاً: كتاب الفحول وهو مختارات من أجود قصائد شعراء الجاهلية والإسلام، كتاب الاختيارات من شعر القبائل، كتاب الاختيارات من شعر الشعراء^(٣)، كتاب اختيار المقطعات، مختارات من شعر المحدثين^(٤).

- الحسين بن عبد الرحيم بن الوليد الكلابي المعروف بابن أبي الزلازل (ت، ٣٥٤هـ/٩٦٥م): يعود نسبه إلى بني كلاب، كان لغويًا وأديبًا وكاتبًا وشاعرًا، أخذ عن أبي القاسم الزجاجي وأبي بكر الخرائطي وغيرهما،

- (١) أبو تمام، ديوان أبي تمام، مج ١، ص ٩٦ - ٩٧.
- (٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٢، ص ٢٣.
- (٣) ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ٣٠٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٢، ص ١٢.
- (٤) مرجليوث، أبو تمام، دائرة المعارف الإسلامية، مج ١، ص ٣٢١.

وحدث عن أحمد بن عمير بن جوصاء والحسن بن حبيب الحصائري وعبد الله بن أحمد بن زبر والقاضي زكريا بن أحمد البلخي وآخرين.

صنف مصنفات عديدة منها كتاب سماه "أنواع الأسجاع" ابتداءً في جمعه بدمشق في سنة ٣٤٣هـ/٩٥٤م، وفيه روى عن شيوخه وغيرهم، وجعل فيه ما جاء من أخبار العرب مسجوعاً، وهو كتاب ممتع أجاد وضعه وتأليفه، ومن شعره في مدح بعض الأمراء وتهنئته بالعيد:

عيدُ يمينٍ مؤكَّدٌ بأمانٍ من تصاريفِ طارقِ الحدَّانِ
جعلَ اللهُ عيدَ عامِكُ هذا خيرَ عيدٍ وذاكَ خيرَ التَّهاني^(١)

- أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني الدمشقي الملقب بالوأواء: ولد في دمشق في مطلع القرن الرابع الهجري، ونشأ فيها، وفي بداية أمره كان منادياً في دار البطيخ يبيع الفواكه، فعرف بالوأواء، وأثناء ذلك صار يقول الشعر حتى أجاده، وقيل إن أول أشعاره قالها في مدح الشريف العقيقي فكافأه عليها بعشرين درهماً، مما دفعه إلى اهتمام أكثر بالشعر، فتنقل في بلاد الشام، ووفد على سيف الدولة الحمداني في حلب ومدحه، وقد قضى أكثر حياته في دمشق، وفيها توفي سنة ٣٧٠هـ/٩٨٠م^(٢). وصفه الثعالبي بأنه "من حسنات الشام وصاغة الكلام"^(٣)، وللوأواء ديوان شعر مطبوع، أكثر قصائده

(١) الحموي، معجم الأدباء، ص ٦٣ - ٦٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٤، ص ٩٤ - ٩٥.

(٢) الوأواء الدمشقي، ديوان الوأواء الدمشقي، (مقدمة المحقق)، ص ٩ - ١٥؛ الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٨٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥١، ص ١٧٥.

(٣) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٨٨.

قصائده في المديح والغزل ووصف الطبيعة^(١)، ومن أشعاره في وصف الطبيعة،
قوله في وصف النرجس:

نرجسةٌ لم تزل مُحَدِّقَةً لم تكتحل قطُّ لذة الغمضِ
أماها القطرُ فهي باهتةٌ تنظرُ فعلَ السماءِ بالأرضِ^(٢)

ومن الشعراء أيضاً: - محمد بن سلامة، أبو زرعة الكِنَاني الدمشقي
الشاعر: قيل اسمه المعلى بن سلامة، وهو شاعر دمشقي محسن، كان هو
وذيك الجن الحمصي المتوفى سنة ٢٣٥ أو ٢٣٦هـ / ٨٤٩ - ٨٥٠م
شاعري الشام^(٣).

- تمام بن حبيب - أبي تمام - بن أوس الطائي الشاعر: أصله من
جاسم، سكن العراق، ومدح محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين في
خراسان^(٤).

- محمد بن سعد أبو المنذر العامري: شاعر دمشقي محسن، له قصيدة
في مدح دمشق وخطبتها رواها عنه أبو الحسين الرازي المتوفى سنة
(٣٤٧هـ/٩٥٨م)، وهي قصيدة تتألف من ثمانين بيتاً، وصف فيها الفاكهة
والزهور والطيور، كما وصف حال العلم والعبادة في المسجد الجامع^(٥).

(١) الوأواء، ديوان الوأواء الدمشقي، (مقدمة المحقق)، ص ٢٦، وانظر: الديوان أيضاً.

(٢) الوأواء، م.ن، ص ١٣٦-١٣٧.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ١٧٠.

(٤) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٤، ص ١٩؛ فرفور، معجم الشعراء، ج ١،
ص ٤٢٣.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٦٧-٦٩.

وبرز في جند دمشق خلال هذه المدّة عدد من الشعراء المحليين الذين قالوا بعض الأشعار في تصوير بعض الأحداث والوقائع المحلية، ومنهم:

- أعنس بن عثمان الهمداني الدمشقي: هجا عمرو بن يزيد بن محمد القرشي العدوي (ت، ١٩٤هـ/٨٠٩م)، قاضي دمشق في عهد الرشيد^(١).

وهناك بعض الشعراء الذين قالوا بعض الأشعار في فتنة أبي الهيثم المري ومنهم:

- خريم بن أبي الهيثم المري وقد شهد فتنة أبيه^(٢).

- حجوة بن مدرك الغساني^(٣).

- يوسف بن عمرو الشعيثي النصري^(٤).

- جناح بن روح بن جناح^(٥).

وهناك قعدان بن عمرو: كان بدمشق حين قدمها أحمد بن طولون سنة

٢٦٩هـ/٨٨٢م وخلع الموفق، فمدحه بأبيات من الشعر مطلعها:

طال الهدى بابن طولون الأمير يزهُو به الدّين عن دينٍ وإسلام^(٦)

(١) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٣، ص ٨٤؛ فرفور، معجم الشعراء، ج ١، ص ٣١١.

(٢) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٥، ص ١٢٦.

(٣) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٥، ص ٢١٣٧؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٤، ص ٨٧.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٤، ص ٢٥٤.

(٥) ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٣، ص ٤٠٦؛ فرفور، معجم الشعراء، ج ١، ص ٤٧١.

(٦) الكندي، ولاية مصر، ص ١٧٧؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٩، ص ٣٤٤.

٢- العلوم العقلية:

أولاً - الترجمة:

بدأت الترجمة منذ العصر الأموي، إلا أنها كانت ضيقة، واقتصرت على ترجمة بعض الكتب من التراث اليوناني والساساني والهندي، ومع تولي العباسيين مقاليد الحكم اتسع إطار الترجمة، ويعود ذلك إلى عناية الخلفاء العباسيين بالنقل وترجمة الكتب والمخطوطات الإغريقية والفارسية والهندية القديمة، وتقريبهم العلماء والتراجم، وإغداق الأموال الطائلة عليهم، وقد بلغت حركة النقل والترجمة أوج ازدهارها مع إنشاء بيت الحكمة في عهد الرشيد، واهتمام المأمون بجلب المخطوطات اليونانية وترجمتها إلى العربية^(١)، فكان من نتائج ذلك نهضة علمية واسعة، خصوصاً مع ازدهار صناعة الورق^(٢)، وانتشار الكتب والمؤلفات بين الناس.

بيد أن الاهتمام بالترجمة لم يقتصر على الخلفاء، بل إن بعض الأمراء والأثرياء كانوا يغدقون الأموال على المترجمين، ويشجعون أعمال الترجمة، كما هو الحال مع بني موسى بن شاكر في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وقد كانوا من أعلام التراجم، وقدموا خدمات جُلى في ميدان الترجمة، إذ رحلوا في طلب المخطوطات، وأحضروا المترجمين، ومنحوهم الأجور السخية^(٣)، كما عرف عن أحمد بن محمد المعروف بابن المدبر الكاتب والي خراج

(١) ضيف، العصر العباسي الأول، ص ١٠٩-١١٣.

(٢) انظر: صناعة الورق في الفصل الثالث.

(٣) القفطي، إخبار العلماء، (طبعة مكتبة المثنى)، ص ٤٤١-٤٤٢.

دمشق تشجيع أعمال النقل والترجمة، ووصل المترجمين بالشيء الكثير من ماله^(١).

ومما هو جدير بالذكر أن أثر الترجمة لم يقتصر على نقل كتب الحضارات الأخرى، وحفظ تراثها، فلم يكتفِ العرب بالنقل والترجمة، بل تعدوهما إلى التكييف والتجديد، فحوّروا التراث اليوناني والفارسي والهندي بما يلي حاجاتهم، ويناسب طريقة تفكيرهم، وصبغوا ما ترجموه بطابع العقلية العربية، وأضافوا إليه الكثير، وقد انتهى ما ترجموه وابتكروه إلى أوروبا عن طريق سورية وإسبانيا وصقلية، فكان الأساس الذي قامت عليه النهضة الأوربية.

أسهم جند دمشق في حركة النقل والترجمة من خلال بعض العلماء الذين كانوا في أصولهم منه، ثم رحلوا في طلب العلم، واستقر بهم المطاف في بغداد، فشاركوا في النهضة العلمية التي شهدها العالم العربي الإسلامي من خلال جهودهم التي بذلوها في النقل والترجمة، والمؤلفات التي صنّفوها، ومن المفيد هنا أن نذكر أن هؤلاء المترجمين لم يقتصروا على أعمال الترجمة بل ألمّ أكثرهم باختصاصات علمية مختلفة كالطب والفلك والفلسفة وغيرها، وصنّف في هذه الاختصاصات مؤلفات عديدة، ومن هؤلاء المترجمين:

- قسطين لوقا البعلبكي (ت، ٣٠٠هـ/٩١٢م): ولد في بعلبك في حدود سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م، جال في آسيا الصغرى وبلاد الروم في شبابه طلباً للعلم، ثم عاد إلى الشام ومعه كثير من المخطوطات، ثم استقر به المقام في بغداد، وأخذ في النقل والترجمة، وقد عرف عنه أنه يتقن علوماً عديدة، فقد كان بارعاً في الطب

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٨٤.

والفلسفة والهندسة والأعداد والموسيقا، وكان فصيحاً باليونانية والسريانية،
وجيد العبارة بالعربية، وتشير المصادر إلى بلوغه درجة عالية من النبل
والفضل ولا سيّما في ميدان الطب^(١)، وعنه قال ابن العبري: "لو قلت حقاً
قلت إنه أفضل من صنف كتاباً بما احتوى عليه من العلوم والفضائل،
وما رزق من الاختصار للألفاظ وجمع المعاني"^(٢)، وعدّ له ابن النديم خمسة
وثلاثين كتاباً^(٣)، في حين ذكر فيليب حتي أن قسطا بن لوقا خلّف تسعة
وستين مؤلفاً موضوعاً، وسبعة عشر كتاباً مترجماً^(٤).

ومن مؤلفاته في ميدان الطب والصيدلة: كتاب الجامع في الدخول
إلى علم الطب، كتاب في البلغم وعلله، في التحرز من الزكام والنزلات التي
ترد في الشفاء، في تدبير الأبدان في السفر للسلامة من المرض والخطر، كتاب
في حفظ الصحة وإزالة المرض، في الضرس، في الأدوية المسهلة والعلاج
بالإسهال^(٥)، وكتاب الدم، وكتاب رسالته في الخضاب، وكتاب رسالته
في قوانين الأغذية.

وألف في ميدان الفلك: المدخل إلى علم النجوم^(٦)، وكتاب العمل
بالكرة الفلكية (في النجوم)، ورسالة في العمل بالكرة ذات الكرسي (عن

(١) ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ٤٩٩، ٥٩٠؛ القفطي، إخبار العلماء، (طبعة مكتبة

المتنى)، ص ٣١.

(٢) تاريخ مختصر الدول، ص ١٤٩.

(٣) الفهرست، مج ١، ص ٥٩٠-٥٩٢.

(٤) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ١٧٧.

(٥) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ق ٢، ص ٤٩٣، ٤٩٥-٤٩٦.

(٦) ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ٥٩٠-٥٩١.

آلة فلكية)، وكتاب العمل بالإسطرلاب الكروي، وكتاب هيئة الأفلاك^(١)، كما عمل على صنع وتحسين بعض الأجهزة الفلكية^(٢).

وصنف في ميدان الفلسفة: كتاب الفصل بين الروح والنفس، والمدخل إلى المنطق، والفردوس في التاريخ^(٣)، ورسالة في اختلاف الناس في سيرهم وأخلاقهم وشهواتهم واختياراتهم.

وكتب في الرياضيات: مقدمة في علم الرياضيات^(٤) وكتاب المدخل إلى الهندسة، وألف في الميكانيك كتاباً في الأوزان والمكاييل^(٥).

أما ترجماته فمنها: أصول الهندسة لأفلاطون، وكتاب الأصول لإقليدس، وكتاب المساكن لثيودوسيوس، وكتاب الأيام والليالي لثيودوسيوس، وكتاب شيل الأثقال لإيرن الإسكندري، وكتاب الطلوع والغروب لأوطولوقس وغيرها^(٦).

- حُبَيْش بن الحسن الأعسم الدمشقي (ت ٣٠٠هـ / ٩١٢م): عاش في بلاط المتوكل وخلفائه حتى قرب نهاية القرن الثالث الهجري، تتلمذ على يد خاله حنين بن إسحاق^(٧) الذي علمه صناعة الطب، ثم برز رائداً في

(١) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ق ٢، ص ٤٩٢ - ٤٩٤.

(٢) أبيض، التربية والثقافة العربية - الإسلامية، ص ٢١٣.

(٣) ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ٥٩١ - ٥٩٢.

(٤) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ق ٢، ص ٤٩٢ - ٤٩٣.

(٥) ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ٥٩١.

(٦) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ق ٢، ص ٤٩٦ - ٤٩٨.

(٧) حنين بن إسحاق العبادي (١٩٤ - ٢٦٤هـ / ٨٠٩ - ٨٧٧م): طبيب ومترجم، برز منذ أواخر عهد المأمون، كان عالماً باللغات الأربع العربية والسريانية واليونانية والفارسية، كما اشتغل بالطب أيضاً، وقد ترجم وألف العديد من الكتب، كما كان يصلح ما ينقله غيره؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٥٧ - ٢٧٤.

ميدان النقل والترجمة من اليوناني والسرياني إلى اللغة العربية، وأكثر ترجماته في الميدان الطبي، وكان في نقله يسلك مسلك خاله حنين، وقد اتصف حُبِيش بالذكاء والفطنة حتى إن حيناً كان يقدمه على جميع تلاميذه، ويرضى عن نقله، وبلغ في الترجمة درجة عالية، وكان يعلو خاله فيها، غير أن كثير من ترجماته نسبت إلى خاله، ويعود ذلك إلى التشابه بين رسمي الاسمين، مما أدى إلى حدوث الالتباس عند بعض الناس الذين كانوا يرون الكتب القديمة بنقل حُبِيش، فيظنون أنه حنين وقد صحّف فيكشطونه ويجعلونه حنين^(١)، وقد اشترك حُبِيش مع بعض المترجمين في نقل وترجمة كثير من الكتب، وحصل على مكافأة على ترجماته من بني المنجم الذين خصصوا له ولغيره من المترجمين خمسمئة دينار في الشهر^(٢)، وفيما يلي ذكر بعض الكتب التي ترجمها: كتاب عهد بقراط، كتاب الماء لبقراط، كتاب الحشائش لديسقوريدس، جالينوس^(٣)، ونقل الكثير من مقالات كتاب التشريح الكبير لجالينوس^(٤).

واشتهر حُبِيش بمؤلفاته في الميدان الطبي، فقد أكمل كتاب مسائل حنين في الطب الذي وضعه للمتعلمين، وجعله مدخلاً إلى هذه الصناعة، ومن الكتب التي صنفها أيضاً: كتاب إصلاح الأدوية المسهلة، كتاب الأدوية المفردة، كتاب الأغذية، كتاب الاستسقاء، مقالة في النبض على جهة التقسيم^(٥).

(١) ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ١٢٨؛ القفطي، إخبار العلماء، (طبعة مكتبة المثنى)، ص ١٧٧؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١٤٥-١٤٦؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ق ٢، ص ٥١٠-٥١١.

(٢) القفطي، إخبار العلماء، (طبعة مكتبة المثنى)، ص ٣٠-٣١.

(٣) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، م.س، ق ٢، ص ٥١١.

(٤) القفطي، إخبار العلماء، (طبعة مكتبة المثنى)، ص ١٢٩-١٣١.

(٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٧٦.

- أبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي: كان من الأطباء المذكورين ببغداد، برز في مطلع عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ/٩٠٨ - ٩٣٢م) طبيباً مشهوراً، وكان قد أنشأ بيمارستاناً ببغداد، وأنفق عليه المال الكثير، فولاه الوزير علي بن عيسى في سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م الإشراف على بيمارستانات بغداد ومكة والمدينة^(١).

وقد ترجم العديد من الكتب في ميادين الطب والهندسة والفلسفة، ومن ترجماته: ترجمة إيساغوجي (لرفوريوس)، والمقالات السبع من كتاب طويقا (ومعناه الجدل) لأرسطو، ترجمة (القول في مبادئ الكل على رأي أرسطو طاليس) للإسكندر الأفروديسي، ترجمة كتاب البول لمغنس الحمصي^(٢).

أما مصنفاته فأبرزها: مسائل جمعها من كتاب جالينوس في الأخلاق - مقالة في النبض مشجرة، وهي جوامع لكتاب النبض الصغير لجالينوس^(٣).

ثانياً - الطب:

شهدت العلوم الطبية نهضة كبيرة منذ مطلع العصر العباسي، إذ خطا العرب خطوات واسعة في الاستدواء بمختلف أنواع العقاقير، وأوجدوا حوانيت لبيع الأدوية، وصنفوا الكتب في علم الأدوية، وفرضوا على

(١) ابن أبي أصيبعة، م.ن، ص ٢٨٢، ٣١٦.

(٢) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ق ٢، ص ٥١٢.

(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣١٦.

الأطباء والصيادلة - منذ زمن المأمون والمعتمد - اجتياز امتحان خاص حتى يسمح لهم بمزاولة المهنة^(١).

أسهم جند دمشق بدور كبير في هذه النهضة الطبية من خلال عائلة دمشقية اختصت أباً عن جد بممارسة الطب، وهي عائلة الدمشقي التي زاول أفرادها هذه المهنة بنجاح كبير مشهود له في مدة استمرت نحو قرنين من الزمن من سنة ٥٧ هـ/٦٧٦ م إلى سنة ٢٢٧ هـ/٨٤١ م^(٢)، وأول من برز من هذه العائلة الطبيب أبو الحكم، وقد استطبه معاوية بن أبي سفيان، واعتمد عليه في تحضير الأدوية، ثم سيّره مع ابنه يزيد عندما جعله أميراً على الحج، ثم التزم أبو الحكم بخدمة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وغيرهما من بني أمية، وعمّر أبو الحكم أكثر من مئة سنة، وتوفي في مطلع العصر العباسي^(٣).

خلف الحكم الدمشقي أباه "أبو الحكم" في مزاولة الأعمال الطبية والمداواة، وكان قد تعلم ذلك على يد والده، وعمّر طويلاً، وهو محتفظ بعمله ورجاحة عقله، إذ توفي سنة ٢١٠ هـ/٨٢٥ م عندما كان عبد الله بن طاهر في دمشق، فحضر جنازته كل الذين يمارسون الأعمال الطبية حتى الطبيب الخاص بعبد الله بن طاهر، وعندما لام عبد الله طبيبه الخاص على تركه حضور طعامه، اعتذر بوفاة الحكم الدمشقي، وأخبره أنه لا يعرف أحداً بلغ

(١) حتي، العرب تاريخ موجز، ص ١٤٧.

(٢) حارثة، سامي خلف، الطبيب عيسى بن حكم الدمشقي ورسائله الهارونية، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ص ٥٤٠.

(٣) القفطي، إخبار العلماء، (طبعة مكتبة المثني)، ص ١٧٨-١٧٩؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٧٥-١٧٦؛ حارثة، الطبيب عيسى بن حكم الدمشقي، ص ٥٤٠-٥٤١.

من السن ما بلغ الحكم، إذ عاش مئة وخمس سنوات ولم يتغير عقله أو علمه، فقال عبد الله بن طاهر: "عاش حكم نصف التاريخ"^(١).

كان عيسى بن حكم مسيح الدمشقي أشهر من برز من عائلة الدمشقي في مزاوله الأعمال الطبية، وقد ولد في عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م، وتوفي في زمن المعتصم سنة ٢٢٧هـ/٨٤١م^(٢). كان خبيراً بالطب والمعالجة، ونال شهرة كبيرة، فاستدعي إلى بغداد ليعالج بعض أفراد الأسرة العباسية، وليقوم بالرعاية الصحية في قصر الخلفاء، فاستمر في ذلك من زمن المهدي إلى زمن المأمون، وقصة مرض السيدة غضيض^(٣) أم ولد الرشيد، وابنتها أم محمد ووفاتها لعدم أخذهما بالعلاج الطبي والنصح السديد اللذين قدمهما عيسى الدمشقي كفيلاً بإظهار مكانته^(٤).

وقام عيسى بن حكم أثناء وجوده في بغداد بزيارة إلى الهند لمدة ثلاث سنوات بهدف زيادة خبرته الطبية، والاطلاع على بعض العلوم الطبية في

(١) القفطي، إخبار الحكماء، (طبعة مكتبة المشنى)، ص ١٧٩ - ١٨٠؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء، ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٢) ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ٥٩٤؛ حارثة، الطبيب عيسى بن حكم الدمشقي، ص ٥٤١ - ٥٤٢.

(٣) غضيض: جارية فارسية الأصل، اشتراها الرشيد بمبلغ خمسة آلاف دينار من سوق بغداد لبيع الجوارى، وأصبحت إحدى حظاياها، وهي أم لابنته حمدون، وماتت في خلافة الرشيد أيضاً؛ حسن، سولاف فيض الله، دور الجوارى والقهرمانات في دار الخلافة العباسية (١٣٢ - ٦٥٦هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨م)، دمشق، صفحات للدراسات والنشر، ط ١، ٢٠١٣م، ص ٨١.

(٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء، ص ١٧٧.

تلك البلاد، وعاد بعدها إلى بغداد ثم إلى دمشق^(١)، وفي أواخر عمره سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م، جاءه صديقه يوسف بن إبراهيم مولى إبراهيم بن المهدي في زيارة طبية في إثر بعض الأمراض التي أصابته، وتحذرت المصادر عن ذلك بشيء من التفصيل، وعندما تحسن وضع يوسف بن إبراهيم، وهم بالعودة إلى بغداد، خرج عيسى بن حكم مودعاً له إلى مكان يعرف بالراهب خارج دمشق، وهناك قدم له بعض النصائح الطبية والوصايا فيما يخص المحافظة على الصحة والوقاية من الأمراض^(٢).

كان عيسى بن حكم يولي اهتماماً كبيراً للتغذية الصحية المبنية على المشاهدة والتجربة في معالجة الأمراض^(٣)، وألّف عدة كتب طبية منها: الكناش الكبير، وكتاب في منافع الحيوان^(٤)، وأبرز مؤلفاته الرسالة الكافية الهارونية^(٥)، وهي رسالة طبية ألفها وأهداها لهارون الرشيد، فعرفت باسم الهارونية نسبة إليه، وسميت باسم الكافية لأنها وافية بمعناها ومحتوياتها، وعرفت باسم الياقوتية (الياقوته) أيضاً لقيمتها العلمية وعدم وجود ما يماثلها، وتتألف هذه الرسالة من جزأين أو مقاليتين "تتضمن على مواضيع أساسية في التعريف والقانون الطبي، وفلسفة المهنة، والعلاقة بين صحة المجتمع والرعاية البيئية، كذلك تفيد في ذكر التشريح المقارن، والاهتمام بالكيمياء الطبية، ومفردات

(١) حارثة، الطبيب عيسى بن حكم الدمشقي، ص ٥٤٥.

(٢) القفطي، إخبار الحكماء، (طبعة مكتبة المثنى)، ص ٢٤٩ - ٢٥٠؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٧٨.

(٣) ابن أبي أصيبعة، م.ن، ص ١٧٨؛ حارثة، الطبيب عيسى بن حكم الدمشقي، ص ٥٤٥.

(٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ١٧٨.

(٥) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ق ٢، ص ٦٧٧.

الأدوية والأغذية النافعة لصحة الإنسان، وتنتهي في الجزء الثاني: بالمستحضرات الصيدلانية، والقوانين المرعية في التراكيب العلاجية المجربة"^(١).

ومن الأطباء الذين برزوا في دمشق في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي الطيب أبو الفرج جورجس بن يوحنا بن سهل بن إبراهيم البيرودي (ت بعد ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م)، وهو من أهالي يبرود شمال دمشق، كان يقوم في بدايته بجمع الشيوخ، ويبيعه إلى الخبازين في دمشق، ثم ترك هذا العمل، وصار يعمل في ميدان الطب، فتعلّم على يد أحد المتطيين في دمشق، وكان قد أرشده إلى الطريقة الصحيحة لقطع نزيف مريض كان يفصده، ثم أكمل البيرودي تعليمه في بغداد ثم عاد إلى دمشق، فمارس الطب، وبرز طبيباً ماهراً حاذقاً اشتهر بمعالجته، كما اشتهر بمراسلاته الطبية ومباحثاته التي أجراها مع الأطباء المصريين المعاصرين له، وصنف كتباً طبية، أهمها: "مقالة في أن الفرخ أبرد من الفروج"^(٢).

ثالثاً - الفلسفة:

كان من نتائج بلوغ حركة الترجمة أوج نشاطها في العصر العباسي ترجمة كتب الفلسفة اليونانية، فأقدم المسلمون على دراستها وتأثروا بها، فكان من نتائج ذلك ظهور فلاسفة إسلاميين أعلام قدموا خدمات جلى في الميدان الفلسفي من خلال آرائهم ومصنفاتهم التي تركوها، ومن هؤلاء الأعلام الفيلسوف الفارابي^(٣) الذي يعد أكبر فلاسفة المسلمين وأبرزهم، قال عنه ابن

(١) حارثة، الطيب عيسى بن حكم الدمشقي، ص ٥٤٥.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦١٠ - ٦١١، ٦١٣.

(٣) ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ٥٣٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٤٩١؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١٧٠.

أبي أصيبعة "كان رحمه الله فيلسوفاً كاملاً، وإماماً فاضلاً قد أتقن العلوم الحكيمة، وبرع في العلوم الرياضية، زكي النفس، قوي الذكاء، متجنباً عن الدنيا، مقتنعاً منها بما يقوم بأوده، يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين"^(١).

ولد الفارابي في مدينة فاراب^(٢) الواقعة في تركستان، واسمه أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، وهو تركي، عاش في بلده مدة من الزمن، ثم غادرها إلى بغداد، فلقي فيها أبو بشر متى بن يونس^(٣) الذي درس عليه المنطق، ثم اتجه إلى حران فأكمل فيها دراسة المنطق، ثم عاد إلى بغداد فقرأ علوم الفلسفة وتبحر في قراءة كتب أرسطو طاليس واستخراج معانيها والوقوف على أغراضها، ثم سافر إلى دمشق، فصار يعمل فيها - من شدة فقره - ناطوراً للبياتين، وهو دائم الاشتغال بالحكمة والنظر فيها، إذ كان يقضي الليل في المطالعة والتصنيف مستضيئاً بقناديل الحراس، واستمر حاله هكذا إلى أن التحق بمجلس سيف الدولة الحمداني في دمشق، ويروي المؤرخون قصة دخوله مجلسه، ومنها يستدل على قوة شخصية الفارابي وجرأته وسعة اطلاعه ومعارفه وإجادته لسبعين لغة، فأكرمه سيف الدولة على سعة معارفه، وأجرى عليه في كل يوم أربعة دراهم من بيت المال، ولم يزل

(١) عيون الأنباء، ص ٦٠٣.

(٢) فاراب: ولاية وراء نهر سيحون في تخوم بلاد الترك؛ الحموي، معجم البلدان، (ط)، دار الكتب العلمية، ج ٤، ص ٢٥٥.

(٣) متى بن يونس: عالم بالمنطق نزل بغداد في خلافة الرازي بعد سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م وقبل سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م، له كتب وشروح كثيرة في المنطق، وإليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره؛ القفطي، إخبار العلماء، (طبعة مكتبة المثنى)، ص ٣٢٣.

هكذا حال الفارابي إلى أن توفي سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م، فدفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير^(١).

كرّس الفارابي حياته للإنتاج العلمي والفلسفي، فكان يحب العزلة والتأمل والابتعاد عن صحب الحياة ولهوها، وذلك بهدف التأليف والتصنيف، وعن ذلك قال ابن خلكان: "كان متفرداً بنفسه لا يجالس الناس، وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالباً إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض، يؤلف هناك كتبه، ويتتابه المشتغلون عليه"^(٢).

اشتهر الفارابي بشروحه وتعليقه على مؤلفات أرسطو، وقد أكسبته هذه الشروح لقب المعلم الثاني إذ عدّ ثاني معلم للمنطق بعد أرسطو المعلم الأول^(٣)، ومن كتب أرسطو التي شرحها: البرهان، الخطابة، المغالطة، القياس، المقولات، الجدل والعبارة... إلخ، ولم يقتصر الفارابي على شروحه هذه، بل صنّف في ميادين مختلفة، فقد ذكر له ابن أبي أصيبعة خمسة وتسعين مؤلفاً ما بين كتاب ومقالة ورسالة - عدا عن الشروح - وهي في اختصاصات مختلفة^(٤)، ففي الفلسفة حاول التوفيق بين أرسطو وأفلاطون في عدة رسائل منها:

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٥، ص ١٥٣-١٥٦؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٠٣-٦٠٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٣١ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٥٠هـ، ص ١٨١-١٨٢.

(٢) وفيات الأعيان، مج ٥، ص ١٥٦.

(٣) كاراده فو، أبو نصر الفارابي، دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة عن الأصلين الإنكليزي والفرنسي، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتناوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣٣، مج ١، ص ٤٠٧.

(٤) عيون الأنباء، ص ٦٠٨-٦٠٩.

كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطوطاليس، وأغراض أفلاطون وأرسطو، كما حاول التوفيق بين الفلسفة اليونانية والعقيدة الإسلامية^(١)، ومن مؤلفاته الفلسفية أيضاً: آراء أهل المدينة الفاضلة، السياسات المدنية، المنطق، البرهان، الجدل والمبادئ الإنسانية... إلخ، وألّف في علم النفس والإلهيات حيث له رسائل في النفس وقوى النفس، والعقل والمعقول، والواحد والوحدة، والجوهر وغيرها.

ألّم الفارابي بعلوم مختلفة، فقد ألّف كتاباً في إحصاء العلوم وترتيبها، وكان على معرفة جيدة بصناعة الطب، لكنه لم يمارسه، وبرع في اللغات إذ أتقن سبعين لساناً منها، وكان يقول الشعر، وبرز في النحو والكتابة، فقد صنّف كتاباً في صناعة الكتابة، وكتاباً في الألفاظ والحروف، ونبغ في الموسيقى والعزف، وقد أهّله مؤلفاته الموسيقية لأن يعد أعظم علماء الموسيقى العربية ومنها: كتاب الموسيقى الكبير، وكتاب إحصاء الإيقاع^(٢).

ومما هو جدير بالذكر أن الفارابي أثر تأثيراً كبيراً في الفلاسفة الذين جاؤوا بعده ولا سيّما الرئيس ابن سينا^(٣) الذي استفاد أيها فائدة من كتب الفارابي وتصانيفه^(٤).

(١) كاراده فو، أبو نصر الفارابي، مج ١، ص ٤٠٩، ٤١١.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٠٣ - ٦٠٩.

(٣) أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا: عالم وفيلسوف وطبيب، عرف بالشيخ الرئيس، ولد ببلخ، وبرز ببخارى، وتوفي بهمدان سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٧م، صنّف مؤلفات عديدة منها: "كتاب القانون"، و"كتاب الشفاء"، و"كتاب الأدوية القلبية" وغيرها؛ القفطي، إخبار العلماء، (طبعة مكتبة المثنى)، ص ٤١٣.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٥، ص ١٥٣.

رابعاً - التاريخ:

استقطبت مدرسة الشام التاريخية عدداً من العلماء الإخباريين منذ مطلع العصر الأموي، وتميزت بعنايتها بأمر الفتوح ولا سيّما المغازي، كما عيّنت بالأنساب والتاريخ^(١)، ومنذ أواخر القرن الثاني الهجري وخلال القرن الثالث الهجري، اتجهت اتجاهين هما:

١ - رواية التاريخ الأموي ومناقب الأمويين.

٢ - رواية المغازي.

على أن هذين الاتجاهين بدأ يضمران منذ القرن الرابع الهجري ليظهر بدلاً منهما اللون المحلي في التدوين التاريخي الذي يعنى بأخبار المدن الشامية وأخبار علمائها ومحدثيها^(٢).

كان من مدرسة الشام التاريخية المؤرخون الذين ظهرُوا في جند دمشق خلال هذه المدّة، ومعظمهم كان من المحدثين والفقهاء كما هو الحال مع الوليد بن مسلم، وهشام بن عمار، وأبي زرعة الدمشقي عبد الرحمن بن عمرو^(٣) وغيرهم، وقد تمحورت كتاباتهم التاريخية في إطار أنواع تاريخية عديدة، فبعضها كان في السيرة النبوية مثل: "كتاب السير" لمحمد بن عائذ الدمشقي (ت، ٢٣٣ أو ٢٣٤هـ / ٨٤٧ أو ٨٤٨م)^(٤)،

(١) مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج ١، ص ١١٩.

(٢) مصطفى، م.ن، ج ١، ص ١٣٤.

(٣) انظر: ما كتب عنهم سابقاً في هذا الفصل.

(٤) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ١٨١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٢١؛ المنجد، صلاح الدين، معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط ١، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، ص ٩.

وكتاب "المبعث" لهشام بن عمار^(١)، و "سيرة الرسول وتاريخ الخلفاء الراشدين" لأبي زرعة الدمشقي عبد الرحمن بن عمرو^(٢).

واختصت بعض الكتابات في المغازي والفتوح، وهي تتحدث عن غزوات الرسول وسراياه، وعن الفتوحات الإسلامية، ومن الكتابات في هذا المجال:

- كتاب "المغازي" للوليد بن مسلم^(٣).

- كتابا "المغازي" و "الفتوح والصوائف" لمحمد بن عائذ الدمشقي^(٤).

- "فتوح الشام" لمحمد بن جعفر بن خالد الدمشقي الذي عاش ما بين النصف الثاني من القرن الثاني الهجري والنصف الأول من القرن الثالث الهجري، وفي كتابه حدث عن كبار محدثي الشام من أمثال: الوليد بن مسلم، وإسماعيل بن عياش، وشعيب بن إسحاق، وسويد بن عبد العزيز وغيرهم^(٥).

وهناك بعض الكتابات التاريخية التي اختصت في تاريخ الطبقات، وفيها يتحدث المؤرخون عن الرجال والشخصيات التي شغلت دوراً كبيراً في التاريخ، وقد قسمت إلى طبقات على أساس التعاقب الزمني، بحيث يكون الرجال

(١) المنجد، م.ن، ص ١٠.

(٢) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ١، (مقدمة المحقق)، ص ٥٠؛ مصطفى، التاريخ

العربي والمؤرخون، ج ٢، ص ٢٢٦.

(٣) ابن النديم، الفهرست، مج ١، ص ٤٦٩؛ سزكين، تاريخ التراث العربي، مج ١، ج ٢، ص ٩٨.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٢٨٨؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١١،

ص ١٠٦؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٩، ص ٢٠٨؛ ابن تغري بردي، النجوم

الزاهرة، ج ٢، ص ٣٢١.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ٢١٣.

الذين عاشوا في مدة زمنية واحدة طبقة^(١)، ومن الذين صنفوا على أساس الطبقات: المحدث والمؤرخ محمود بن إبراهيم بن سُميع الدمشقي (ت، ٢٥٩هـ/٨٧٢م)، وله "كتاب الطبقات"^(٢)، وأبو زرعة الدمشقي وله "كتاب الطبقات"^(٣).

واختصت بعض كتابات المؤرخين في التراجم، وفيها يترجم المؤرخون لرجال العلم والمعرفة الذين شغلوا دوراً كبيراً في النهضة الإسلامية، كالفقهاء والعلماء والمحدثين والشعراء وغيرهم، وتسير كتب التراجم غالباً بحسب الترتيب الأبجدي^(٤)، ومنها على سبيل المثال: كتاب "ذكر أهل الفتوى بدمشق" لأبي زرعة الدمشقي، وفيه ترجم للفقهاء بدمشق، وقد اعتمد عليه بعض المؤرخين في ترجمتهم لبعض الفقهاء^(٥).

وجاءت بعض كتابات المؤرخين في التاريخ المحلي، وهي تبحث في تاريخ مدينة أو إقليم، وتبين العلماء والمشهورين فيه، ومن الذين صنفوا في التاريخ المحلي: - أبو زرعة الدمشقي، وقد صنف كتاباً بعنوان "تاريخ دمشق"^(٦).

- (١) الخطيب، نشأت نور الدين، التاريخ والمؤرخون العرب (تصور ومنهج)، بيروت، شركة النعمات التجارية، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ص ٢٥٤.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٧، ص ١٠١؛ ابن عبد الهادي، طبقات علماء الحديث، ج ٢، ص ٣١٤؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج ٢، ص ١٤٢.
- (٣) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ١، (مقدمة المحقق)، ص ٥٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٣، ص ٣٣٩.
- (٤) الخطيب، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٢٦٢ - ٢٦٣.
- (٥) المزي، تهذيب الكمال، مج ٢٤، ص ٥٢٥؛ مج ٣٠، ص ١٧٦، ١٩٩؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ٥٠؛ ج ٩، ص ٦٢، ٢٠٨؛ ج ١١، ص ٣١، ٣٦.
- (٦) أبو زرعة، تاريخ أبي زرعة، ج ١، (مقدمة المحقق)، ص ٥٠.

- أحمد بن حميد بن سعيد بن خالد أبو الحسن الأزدي المعروف بابن أبي العجائز، وهو من مؤرخي القرن الرابع الهجري، وكان معاصراً لمحمد بن عبد الله بن جعفر أبي الحسين الرازي المتوفى سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م، وله كتاب "تاريخ دمشق" تحدث فيه عن بني أمية، ومن كان منهم في دمشق وغوطتها، ولهذا الكتاب أهمية كبيرة لمعرفة تاريخ الأمويين في الشام حيث يتحدث عن منازلهم ومسكنهم وأسمائهم بعد سقوط دولتهم^(١)، وقد اعتمد ابن عساكر على هذا الكتاب في ترجمته للعديد من الأمويين الدمشقيين^(٢).

- القاضي عبد الجبار بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحيم الخولاني المعروف بابن مهنا (ت، بعد ٣٦٥هـ/٩٧٥م): وله "تاريخ داريا"^(٣)، وفي أوله قال: "ذكر من نزل داريا من أصحاب رسول الله والتابعين وتابعي التابعين وأهل العلم على طبقاتهم وأزمانهم وذكر وفاتهم ومن أعقب بها منهم ومن لم يعقب إلى وقتنا هذا"^(٤)، ورغم أنه تاريخ مدينة كما يدل عنوانه إلا أنه اقتصر على تراجم وملاحظات عن علماء المدينة البارزين، فقد ضم سبعا وأربعين ترجمة، وانعدمت فيه الأحداث السياسية، ووردت فيه بعض المعلومات الاجتماعية في ثنايا بعض التراجم.

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٣، ص٦٠؛ المنجد، معجم المؤرخين الدمشقيين، ص١٦.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، ج٣٨، ص٢٩٠، ٣١٩؛ ج٤٠، ص١٩.

(٣) ابن عساكر، م.ن، ج٣٤، ص٢٣.

(٤) الخولاني، تاريخ داريا، (مقدمة المحقق)، ص١٣؛ وانظر: الكتاب، ص٥٢.

وقد أشار محقق "تاريخ داريا" إلى أن الخولاني كان من المتمكنين في فن الحديث، فهو لا يقتصر على ضبط رواياته، بل ينقد الأخبار والروايات المشكوك في صحتها ولو رويت عن كبار المحدثين، وأضاف المحقق أن لتاريخ داريا ميزتين مهمتين: الأولى فهي إمام المؤلف الشامل بتاريخ مدينته وسكانها وأحوالهم وأنسابهم وجماعاتهم، أما الثانية فهي انفراد بروايات ومعلومات لا توجد في غيره^(١).

ومن أشهر المؤرخين خلال هذه المدة كان عبد الرحمن بن عمرو أبو زرعة النصري الدمشقي (ت، ٢٨١هـ/٨٩٤م): شيخ الشام في وقته، وقد اشتهر بالحديث مما طبع كتابه في التاريخ بالطابع المعروف لمؤلفات المحدثين وكتاباتهم، صنف العديد من المؤلفات التاريخية مما جعله يتفرد في تمثيل مدرسة الشام التاريخية في القرن الثالث الهجري^(٢)، وأهم مؤلفاته "كتاب التاريخ"، وفيه بدأ بسيرة النبي ﷺ وغازاته ثم تحدث عن الخلفاء الراشدين، ثم عن قيام الخلافة الأموية وأسماء خلفائها ثم عن سقوطها وانتقال السلطة إلى أيدي العباسيين، ثم ذكر قائمة بأسماء الخلفاء العباسيين تنتهي بذكر هارون الرشيد، ثم قدم قائمة بقضاة دمشق وفلسطين، وفي الجزء الثاني تحدث عن أصحاب الرسول (ص) ومن توفي منهم في الشام، ويتحدث عن الوقائع في الشام في خلافتي أبي بكر وعمر، ثم تحدث عن أزواج النبي ﷺ وعددهن، ثم ذكر قوائم بأسماء المعروفين بالكنى، وقدم تراجم كثيرة أغلبها للشاميين، وختم

(١) الخولاني، م.ن، ص ١٤-١٥.

(٢) مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ج ١، ص ١٣٢؛ ج ٢، ص ٢٢٥.

كتابه بذكر قائمة طويلة بالوفيات مع بعض المعلومات عن أصحابها^(١)، وقد حصل أبو زرعة على منزلة علمية رفيعة جعلت لعلمه وآرائه قيمة كبيرة، حتى إن كتابه في التاريخ عدَّ أحد ما يجب على طالب الحديث العناية به وقراءته^(٢).

ويلاحظ أن أبو زرعة لم يتبع منهجاً معيناً في ترتيب كتابه وعرض مادته، فلم يرتبه على السنين، ولم يرتبه على التراجم حسب حروف المعجم، ولم يرتبه على الطبقات، وقد رجح شكر الله القوجاني محقق الكتاب، أن يكون أبو زرعة قد انتبه إلى التشويش الذي أصاب عرض مادة كتابه، لذلك قام بتبويبه وتنسيقه وترتيب التراجم على الطبقات، فوضع كتابه الجديد وهو "كتاب الطبقات"، غير أن هذا الكتاب لم يصلنا، ولكنه كان من مصادر بعض المؤرخين كالحولاني في تاريخ داريا، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق^(٣).

كان أبو زرعة الدمشقي خصب التآليف؛ إذ صنف كثير من المصنفات التاريخية، إضافة إلى "كتاب التاريخ"، ولكن هذه المصنفات بحكم المفقودة، ولم يعرف منها إلا أسماؤها من خلال اعتماد بعض المؤرخين عليها، ومن هذه المصنفات: كتاب البيان والعلل^(٤)، تسمية شيوخ أهل دمشق^(٥)، تسمية من نزل الشام من مضر^(٦)، كتاب الأخوة والأخوات^(٧)، تسمية "نفر أهل

(١) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ٢، ص ٧٣٢-٧٣٤؛ ج ١، (مقدمة المحقق)، ص ١٠٧-١١٠.

(٢) أبو زرعة، م. ن، ج ١، (مقدمة المحقق)، ص ٤٧.

(٣) أبو زرعة، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، (مقدمة المحقق)، ص ١٢٦-١٢٧.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥، ص ٥٩.

(٥) ابن عساكر، م. ن، ج ٢٨، ص ٦٧؛ ج ٣٤، ص ١١٠.

(٦) ابن عساكر، م. ن، ج ٣٨، ص ٢٩٠.

(٧) ابن عساكر، م. ن، ج ٣٨، ص ٣٣٠.

زهد وفضل" (١)، تسمية الأصاغر من أصحاب وائلة بن الأسقع (٢)، فوائد أبي زرعة (٣)، وغيرها كثير من المصنفات (٤).

ومن المؤرخين أيضاً:

- أحمد بن المعلی بن یزید أبو بکر الأسدي (ت، ٢٨٦هـ / ٨٩٩م): كان من المحدثين الثقات، تولى قضاء دمشق نيابة عن أبي زرعة محمد بن عثمان، له "جزء في خبر المسجد الجامع وبنائه" وهو من أوائل الكتب التي صنفت حول المسجد الجامع في دمشق وبنائه (٥)، ولم ينته إلينا هذا الكتاب، غير أن بعض المؤرخين اعتمدوا عليه في نقلهم خبر قسمة المسجد الجامع بدمشق، ويظهر هذا عند ابن عساكر في تاريخه (٦)، وعند ابن جبير في رحلته وهو يسميه "تاريخ ابن المعلی" (٧).

- عبد الله بن أحمد بن ربيعة بن زبر أبو محمد الربيعي (ت بمصر ٣٢٩هـ - / ٩٤٠م): أصله بغدادی، تولى قضاء دمشق وعزل عنه سنة ٣١٢هـ / ٩٢٤م، كما تولى قضاء مصر عدة مرات، كان من المحدثين الثقات، وكان عارفاً بالأخبار والكتب، وقد صنف أجزاء كثيرة، ومنها في الميدان التاريخي: أخبار الأصمعي، سيرة الدولتين (٨)، الشروط العمرية (٩).

(١) المزني، تهذيب الكمال، مج ٣١، ص ٤٤٦؛ العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ٨، ص ١٧٨.

(٢) العسقلاني، م.ن، ج ٢، ص ١٣٧.

(٣) المنجد، معجم المؤرخين الدمشقيين، ص ١٣.

(٤) حول هذه المصنفات، انظر: أبو زرعة الدمشقي، م.س، ج ١، (مقدمة المحقق)، ص ٥٠-٥١.

(٥) المنجد، معجم المؤرخين الدمشقيين، ص ١٤.

(٦) تاريخ مدينة دمشق، ج ٢، ص ٢٣٦-٢٧٢.

(٧) رحلة ابن جبير، ص ٢٠٢.

(٨) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٧، ص ٢٧؛ الأرمنازي، المجموع من المتخب المشور، ص ١٤٦.

(٩) المنجد، معجم المؤرخين الدمشقيين، ص ١٩.

- محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد أبو الحسين الرازي (ت، ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م): أصله من الري، وفيها كان يعرف بابن الرستاقى، ولما سكن الشام صار يعرف بالرازي، كان من المحدثين الثقات، وقد قام برحلة كبيرة في سبيل طلب الحديث، فإضافة إلى محدثي بلده سمع من محدثي الكوفة ومكة والموصل والشام ومصر وغيرهم، وفي نهاية المطاف استقر في دمشق، وعاش فيها حتى توفي.

وصفت المصادر أبا الحسين الرازي بأنه أحد المكثرين المصنفين الثقات^(١)، وكان يحدث طلابه من كتبه، وكان قد عاصر أحمد بن حميد المعروف بابن أبي العجائز وأخذ عنه، وقد صنف أجزاء كثيرة شكلت مصدراً من المصادر التي اعتمد عليها ابن عساكر في تاريخه، وقد ورد في ثانيا تاريخ ابن عساكر أسماء بعض مؤلفات أبي الحسين الرازي ومنها:

تسمية كتاب أمراء دمشق^(٢)، تسمية من كتب عنه بدمشق من الغرباء^(٣)، كتاب ذكر الدور بدمشق^(٤)، تسمية من كتب عنه بدمشق^(٥).

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٣٣٥-٣٣٦؛ ابن عبد الهادي، طبقات علماء الحديث، ج ٣، ص ٩١-٩٢.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٠، ص ٣٨٨، ٣٩٥؛ ج ٣٨، ص ١٢٩، ١٤٩، ١٦٩.

(٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٤٠، ص ٥٤؛ ج ٤٣، ص ١٦٠.

(٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٨، ص ٤٢٩؛ ج ٦٦، ص ١٢٤.

(٥) ابن عساكر، م.ن، ج ٥٢، ص ٢١٤.

تسمية من كتب عنه في قرى دمشق^(١)، تسمية من كتب عنه بدمشق في الدفعة الثانية^(٢)، تسمية أمراء دمشق في أيام بني العباس، تسمية من نقل عنه بدمشق، جزء فيما أفاده بعض أهل دمشق عن أبيه عن جده، وبعض أهل بيته المؤمنين^(٣).

ورجح شاعر مصطفى أن يكون لأبي الحسين الرازي كتابٌ في فضائل دمشق، اعتمد عليه ابن عساكر في تاريخه إذ نقل عنه عدة مرات أحاديث وأخباراً في فضل دمشق، وأضاف مصطفى قائلاً: "وإذا صح هذا فنحن في الواقع، أمام أول كتاب جمع ما تفرق على الألسن من الأحاديث والأخبار التي شاعت أو وضعت في فضل هذه المدينة... ولعل أهم من هذا أن هذه المرويات المجموعة كانت النواة الأولى لسلسلة من الكتب التي توالى في فضل دمشق، وكان أكثر ما دفع إليها وروجها ما أصاب هذا البلد من محن ونكبات..."^(٤).

وتميز كثير من علماء جند دمشق باهتماماتهم التاريخية دون أن يرد في تراجمهم أسماء مصنفات دونوها، ومن هؤلاء العلماء: يحيى بن صالح بن بيهس أبو الوليد الكلابي - أخو محمد بن صالح بن بيهس أمير دمشق في فتنة أبي العميطر - الذي كان فارساً شاعراً، ومن "علماء أهل الشام بأيام العرب ووقائعها"^(٥).

- (١) ابن عساكر، م.ن، ج ٤٣، ص ٣٣٨.
- (٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٢٧، ص ٢٩؛ ج ٢٩، ص ٣٦٨.
- (٣) المنجد، معجم المؤرخين الدمشقيين، ص ١٨.
- (٤) التاريخ العربي والمؤرخون، ج ٢، ص ٢٢٨.
- (٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٤، ص ٢٧٢ - ٢٧٣؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢١٤.

ومما سبق يتبين أن أنواعاً عديدة من العلوم سواء من النقلية أو العقلية كانت مزدهرة، ففي ميادين القراءات والحديث والتفسير والفقہ برز أعلام بارزون، فكانوا قبلة طلاب العلم من مختلف الأمصار الإسلامية، وقد ندر أن اختص عالم بعلم من هذه العلوم دون غيره، وكذلك كان الشعر مزدهراً حيث برز شعراء فحول تبوؤا مكانة مرموقة في الشعر العربي أمثال أبي تمام وغيره، كما برز كثيرٌ من الشعراء المحليين الذين قالوا بعض الأشعار في تصوير بعض الأحداث المحلية.

وبرز في ميادين الترجمة والطب والفلسفة أعلام بارزون قدموا خدمات جليلة ومساهمات علمية كبيرة، وتجدر الإشارة إلى أن الذين برزوا في هذه العلوم كانوا متعددي الثقافات مثلهم في ذلك مثل العلماء الذين برزوا في القراءات والحديث والتفسير والفقہ.

وبرز في ميدان التاريخ عدد من المؤرخين، وقد صنّفوا وفق فنون تاريخية عديدة، ورغم أن مؤلفات أكثرهم قد ضاعت، غير أنها كانت من مصادر المؤرخين الذين جاؤوا بعدهم، أما المصنّفات التاريخية التي وصلت من تلك المدّة فلها أهمية كبيرة من حيث ما تضمنته من معلومات عن تاريخ جند دمشق وعلمائه، وهي تعد من المصادر المهمة لمعرفة تاريخ بلاد الشام.

خاتمة

لم تستقر الأوضاع في جند دمشق لمدة طويلة بعد انتهاء العصر الأموي، فقد بالغ العباسيون في سوء معاملتهم لأهله ولأهل الشام عامة، بنتيجة مواقفهم من الأمويين خاصة ومن أتباعهم عامة، ورداً على ذلك قام السكان بثورات متعددة، وقد أخذت بعض هذه الثورات شكل حركة السفياي المنتظر، ومن خلالها عبّر أهل الشام عن كرههم للحكم العباسي، ورغبتهم في إحياء الدولة الأموية، ولم تقتصر الأحداث التي شهدها جند دمشق على هذه الثورات، بل شهد قيام اضطرابات وفتن متعددة أربكت الخلافة العباسية أحياناً، وراح ضحيتها عدد كبير من السكان.

وقد شهد جند دمشق بعض الهدوء والاستقرار في مطلع العصر الطولوني، غير أن ذلك انتهى بوفاة أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية وقيام الحروب العباسية الطولونية، وتعرض جند دمشق لهجمات البدو المتكررة. ولم تستقر الأوضاع في جند دمشق مع عودة السيطرة العباسية عليه بعد القضاء على الدولة الطولونية، إذ استمرت هجمات البدو، كما حدثت اضطرابات وأزمات متعددة.

ولم يكن الحال أفضل في جند دمشق خلال العصر التي خضع فيه للدولة الإخشيدية، إذ عانى الصراعات بين هذه الدولة ومنافسيها في بلاد الشام وهما: محمد بن رائق، وسيف الدولة الحمداني، وقد سيطر كل منهما

عليه لمدة قصيرة من الزمن، كما استمرت هجمات البدو، وشهد حدوث أزمات وأحداث متعددة أدت إلى اضطراب أوضاعه، وزاد اضطراب الأوضاع فيه، وفي الشام عامة، ظهور الخطر البيزنطي الذي حاول أن يستفيد من الظروف التي تمر بها بلاد الشام في ظل ضعف الخلافة العباسية وضعف الدول المستقلة عنها في الشام، فنشط في هجماته، وقد وصل في إحداها إلى طرابلس، وهكذا استمرت الأوضاع حتى نهاية العصر الإخشيدي، وانتقال السلطة إلى الفاطميين الذين أضافوا حكم جند دمشق إلى حكمهم في مصر.

أما بالنسبة للموضع الإداري في جند دمشق، فقد تغير مع سقوط الخلافة الأموية، إذ تحول من مركز للخلافة إلى ولاية شبه مهملة تابعة للخلافة العباسية التي باتت مركزها في العراق، فارتبط التنظيم الإداري فيه بالتنظيم الذي اتبعه العباسيون في الشام، وصار أبرز موظفي الجهاز الإداري فيه تابعين للإدارة المركزية في حاضرة الخلافة العباسية، ومعينين من قبلها، وقد مثل الجهاز الإداري فيه عمال عديدون كالوالي والكاتب والحاجب وصاحب الخراج وصاحب الشرطة وصاحب البريد والقاضي وصاحب المظالم وغيرهم، وكان لكل من هؤلاء العمال اختصاصاته وعمله المحدد، وبينما استمد بعضهم تفويض سلطاته من حاضرة الخلافة، كانت سلطات بعضهم الآخر مستمدة من الوالي الذي شكل أعلى سلطة في الولاية.

ولم يحصل أي تعديل أو تغيير إداري عندما خضع جند دمشق للدولتين الطولونية والإخشيديّة، بل استمرت الأعمال الإدارية نفسها التي كانت من قبل، ولكن القائمين على هذه الأعمال صاروا خاضعين لسلطات هاتين الدولتين أو معينين من قبلها.

وقد تميز بعض موظفي الجهاز الإداري بإدارته الناجحة التي أسهمت في تحقيق الهدوء والاستقرار، بينما تميز بعضهم الآخر بسوء الإدارة والتصرف ما أدى إلى حدوث الفتن والاضطرابات والأزمات.

والمواقع أن الأوضاع المضطربة شبه المستمرة التي عانى منها جند دمشق في العصر العباسي أثرت على حياة سكانه، ففي المدن أدت هذه الأوضاع إلى تعاون السكان فيما بينهم، وذلك بتكوين تنظيمات شعبية شبه عسكرية عرفت بالأحداث لضمان الأمن الداخلي والدفاع عن المدن، كما أثرت هذه الأوضاع في مخطط المدن وشوارعها، وعلى حركة المرور في الأسواق والشوارع.

وقد تميز سكان المدن بنشاطاتهم الحرفية والتجارية التي مارسوها في أسواق المدن وشوارعها، كما اهتموا ببناء البيوت، وعرفوا طرائق متعددة لتزويد المدن بالماء، واهتموا بالصحة العامة ومعالجة الأمراض، وارتادوا الحمامات التي شغلت دوراً اجتماعياً كبيراً، وعرفوا ارتداء أنواع عديدة من الألبسة، وتناول أطعمة مختلفة، وقد اتبعوا طرائق متعددة في تحضيرها، وتميزوا بأعيادهم واحتفالاتهم وعاداتهم وتقاليدهم المختلفة كالكرم وتوديع الحجاج واستقبالهم، وممارسة تسليات متعددة، وزيارة الأماكن المقدسة، كما كان لهم عاداتهم وتقاليدهم المختلفة في الأفراح والزواج والأحزان والوفاة. أما الفلاحون، سكان الأرياف، فقد كانت حياتهم مليئة بالبوأس والشقاء، إذ عانوا الاضطرابات والقلق المتكررة التي أدت في أحيان كثيرة إلى تدمير محاصيلهم وقراهم، كما عانوا من تعدي الولاة وظلمهم، وعسف الجباة وتعذيبهم، وزيادات الضرائب المختلفة، وطرائق جباية الضرائب وغير ذلك،

وكان من نتائج معاناة الفلاحين الشديدة أن أقدم كثير منهم على تأييد بعض الثورات والمشاركة فيها، فيما عمد بعضهم إلى ترك أراضيهم وهجرها أو إلجائها إلى بعض المتنفذين تعزراً بهم من ظلم الجباة وزيادة الضرائب، ويظهر أن أوضاع الفلاحين كانت من أسباب اعتناق بعضهم للدعوة القرمطية التي نادى بالعدالة والمساواة. وقد عاش سكان الأرياف باستثناء الأجزاء الملاصقة للمدن في حالة من الاكتفاء الذاتي معتمدين في مآكلهم ومشربهم على منتجات المنطقة التي يعيشون فيها.

وشغلت قبائل جند دمشق دوراً كبيراً في الاضطرابات التي شهدتها، فسكانه كان خليطاً من القبائل اليمانية والقيسية، وقد قامت نزاعات عديدة بين هذه القبائل، ومع أن هذه النزاعات اتخذت طابع العصبية القبلية، إلا أنها تحولت أحياناً إلى انتفاضات ضد السلطة العباسية، ومن خلال هذه الانتفاضات حاولت بعض هذه القبائل استعادة امتيازاتها التي فقدتها مع اعتماد العباسيين على العناصر غير العربية. ومع النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي برز دور البدو، وازداد ضغطهم، إذ كانوا يهجمون على المناطق الحضرية ناشرين الذعر والخراب، كما كانوا يهجمون على طرق التجارة والحج، فينهبون الحجاج ويسلبونهم ما يملكون.

وقد عرف البدو بحياتهم البسيطة التي تقوم على التنقل والترحال، معتمدين على منتجات حيواناتهم ومقتصرين على الضروري والمهم لحياتهم من المساكن والملابس والأقوات، وكانت أكثر نشاطاتهم تقوم على الرعي والتنقل والسلب والنهب، وعاشوا وفقاً لعاداتهم وتقاليدهم الخاصة التي طبعت حياتهم بطابع خاص.

أما فيما يخص الأحوال الدينية، فمعظم سكان جند دمشق كانوا من المسلمين، ووجدت إلى جانبهم أقليات من المسيحيين واليهود، أما المسلمون، فمعظمهم كان من أهل الجماعة، ولكن ذلك لم يمنع انتشار آراء بعض الفرق بينهم كالمرجئة والجبرية والقدرية... وغيرها، ويظهر أن أتباع هذه الفرق كانوا قلائل، فلم يكن لهم أي تأثير ظاهر على المجتمع، وتباينت مواقف العلماء والمحدثين تجاه أتباع هذه الفرق، ففي حين عدّهم العديد من العلماء من أصحاب البدع ووصفهم بالضعف، وعملوا على محاربتهم، لم يرَ بعض العلماء بأساً في الاستفادة من علم أحد أتباع هذه الفرق ولا سيّما إذا كان مشهوراً في أحد العلوم.

ولم يقتصر الأمر على هذه الفرق، بل تأثر جند دمشق بمحنة القرآن التي أثارها المعتزلة في القرن الثالث الهجري، فقد طال أثرها عدداً من فقهاء وشيوخه البارزين الذين امتحنوا في مسألة خلق القرآن، كما تأثر مع الهجمات القرمطية في أواخر القرن الثالث الهجري بالمذهب القرمطي الذي اعتنقه معظم أهالي القرى المجاورة لدمشق.

وكانت حركة الزهد والتصوف نشيطة في جند دمشق، فقد ظهر زهاد ومتصوفة كثر، تركوا إغراءات الحياة الدنيا، وانقطعوا للعبادة والصمت والتأمل والتفكير، والحزن، والبكاء، والصبر وتحمل المشاق، والاقْتِصَار على بسيط الطعام واللباس، وبينما انقطع بعضهم في المساجد والأماكن الخالية للعبادة، رابط بعضهم الآخر في الثغور للقيام بالجهاد، وقد تطورت حركة الزهد والتصوف مع القرنين الثالث والرابع الهجريين، فتحوّلت من حالة تمارس بشكل فردي إلى حالة تمارس بشكل جماعي، إذ صار لكل شيخ

من شيوخ الصوفية أتباع عرفوا بالفقراء، فكان لهم مسجدهم الخاص، وحياتهم الخاصة.

أما المسيحيون واليهود، فهم الذين عرفوا بأهل الذمة، وقد شملهم الإسلام بعهد وأمانه، وكان وجودهم مرتبطاً ببعض الحرف التي توارثوها، وعاشوا بمختلف طوائفهم في أجواء الإخاء والتسامح الديني في ظل الحكم العربي الإسلامي، ومارسوا شعائرهم الدينية وعاداتهم وتقاليدهم المختلفة بكل حرية وأمان، وارتبطوا مع المسلمين بروابط اجتماعية قوية.

لقد تأثرت الأوضاع الاقتصادية في جند دمشق بالأوضاع السياسية المضطربة، وحالة عدم الاستقرار شبه المستمرة، وأسهمت الكوارث الطبيعية في زيادة تدهور الأوضاع الاقتصادية، ما أدى إلى حدوث كثير من الأزمات الاقتصادية الخانقة.

شكلت الزراعة المورد الاقتصادي الأول للسكان، إذ كانت تزودهم بموارد رزقهم وغذائهم، ومواد أولية لحرفهم وصنائعهم، ومنتجات لتجارهم، وقد تميزت زراعات جند دمشق بتنوعها، ويعود ذلك إلى خصوبة التربة، وتعدد المناطق الزراعية، وتوافر المياه، وتعدد طرق الري ووسائله، أما أصناف الأراضي الزراعية، فكانت متعددة، وبرز في هذه المدة اهتمام كبير بامتلاك الأراضي الزراعية واقتناء الضياع ولاسيما من كبار موظفي الدولة.

وقد اتبع الفلاحون طرائق وأساليب متعددة في استثمار الأراضي والعناية بالزراعات والأشجار المثمرة، فكانت تجود في أراضي جند دمشق أنواع عديدة من المحاصيل الزراعية كالقمح والشعير والرز والبطيخ

والبقول والخضروات بأنواعها، والقطن والنيل والزعفران والقنب والورد والرياحين وغيرها، كما جادت أنواع عديدة من النباتات الطبيعية التي استخدمت في الأغراض الطبية وفي صناعة آلات وأدوات مختلفة، وتنوعت الأشجار المثمرة التي تميزت بإنتاجها الغزير كالزيتون والكروم والتفاح والنخيل والتين وقصب السكر وغيرها، كما تعددت الأشجار غير المثمرة التي استخدمت في أغراض مختلفة كالبناء والحرف الخشبية وغيرها، كما تميزت أراضي جند دمشق بمراعيها الواسعة وثروتها الحيوانية المتنوعة.

وتميزت الصنائع والحرف بتنظيماتها الحرفية المنظمة، إذ كان لكل منها عرف أو سنة خاصة بها، وقد تنوعت النشاطات الحرفية التي كانت تهدف إلى تحويل المنتجات الطبيعية إلى منتجات استهلاكية وأشياء قيّمة، فكانت تزود المجتمع بأنواع مختلفة من الأدوات والحاجات، ومن الصنائع والحرف التي كانت مزدهرة: الحياكة والنسيج، والحرف المعدنية، والورق، والصناعات الغذائية، والصابون والدهون والعقاقير والعطور، والدباغة وصناعة الجلود، والفسيفساء والرخام، والخزف والفخار.

لقد تأثرت تجارة جند دمشق بالأوضاع السياسية المضطربة، ولكن ذلك لم يمنع جند دمشق من أن يشهد بعض النشاط التجاري المزدهر، وذلك بحكم أهمية موقعه على طرق التجارة العالمية، وزاد من هذه الأهمية الحج إلى الأماكن المقدسة، ووجود شبكة واسعة من الطرق التي ربطت بين مدن جند دمشق، كما ربطت بينه وبين المناطق المجاورة له والبعيدة عنه، كما أسهمت موانئه النشيطة في ربطه مع بيزنطة وأوروبا وشمال

أفريقيا والاندلس، وأسهم في الازدهار التجاري أيضاً وجود منشآت لاستقبال التجار والمسافرين، ووجود محطات ومنازل على طرق التجارة.

وقد تركز النشاط التجاري الداخلي في أسواق المدن الدائمة والأسبوعية، وفي الأسواق الموسمية التي أقيمت في المدن والمراكز التي تمر فيها طرق القوافل التجارية، وكانت تلك الأسواق تخضع للرقابة التامة من قبل المحتسب، وكانت حركة التبادل التجاري الخارجي نشيطة مع العديد من المناطق المجاورة والبعيدة، أما وسائل التعامل التجاري، والنقود والمكايل والأوزان التي كانت تستخدم، فكانت متعددة.

وعنيت الدراسة في الفصل الرابع بالحياة الفكرية، فأظهرت أن جند دمشق شهد خلال المدة المدروسة بعض الازدهار الثقافي والعلمي، وذلك بفضل عوامل متعددة كتشجيع بعض الأمراء والولاة لرجال العلم والأدب، وزيارات بعض الخلفاء لجند دمشق، والندوات التي عقدوها، ورجال الفكر والأدب الذين رافقوهم، كما أسهم في هذا الازدهار تقدم صناعة الورق وانتشار أسواق الوراق والوراقين، والرحلة في طلب العلم التي شغلت دوراً كبيراً في تنشيط الحركة الفكرية.

أما التعليم، فكانت أبوابه مفتوحة لجميع الناس دون تمييز، وكان في مراكز متعددة هي: الكتاتيب، والمساجد، والجوامع، والمكتبات، والأسواق والدكاكين، ومنازل العلماء، هذا ولم يكن هناك امتحان أو شهادات في نهاية مرحلة التعليم، إنما الامتحان كان من الرأي المحيط بالعالم عندما يجلس أول مجلس ليدرس فيه، وكان من عادة العلماء والشيوخ استخدام طرائق متعددة

في إعطاء دروسهم، وتقوم العلاقة بين الأساتذة والطلاب على الاحترام والتقدير، وكانت مسؤولية التعليم تقع على كاهل الأهالي؛ إذ لم يكن للدولة أي إشراف على التعليم، كما أنها لم تكن تنفق على الأساتذة والطلاب، وكان هناك آداب يجب أن يتحلى بها كل من العالم والمتعلم، وقد تمتع بعض العلماء بمكانة اجتماعية رفيعة جعلتهم أهلاً لشغل دور قيادي في المجتمع، ولأن ينالوا احترام رجال الحكم والسلطة.

كانت بعض العلوم النقلية مزدهرة كالقراءات والحديث والتفسير، إذ برز في هذه العلوم كثير من الأعلام البارزين، فكانوا قبلة لطلاب العلم من أمصار إسلامية مختلفة، وقد ندر أن يختص عالم بعلم من هذه العلوم دون غيره، كما برز في ميدان الشعر شعراء فحول تبوؤوا مكانة كبيرة في التراث العربي. كذلك نبغ في ميادين الترجمة والطب والفلسفة والتاريخ كثير من الأعلام الذين قدموا خدمات جليلة ومساهمات علمية كبيرة.

الهيئة العامة السورية للكتاب



الهيئة العامة السنورية للكتاب



الهيئة العامة السنورية للكتاب

(١) الولاية

١- ولاية جند دمشق في المدة العباسية الأولى ١٣٢ - ٢٦٤هـ / ٧٥٠ - ٨٧٧م

الخليفة أبو العباس السفاح ١٣٢ - ١٣٦هـ / ٧٤٩ - ٧٥٣م			
اسم الوالي	تاريخ الولاية	تاريخ العزل	ملاحظات
عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ^(١)	١٣٢هـ / ٧٥٠م	١٣٦هـ / ٧٥٣م	كان والياً على الشام بأجمعه
عمر بن شريح الحضرمي ^(٢)			نيابة عن عبد الله بن علي
عبد الحميد بن ربعي الطائي ^(٣)			استخلفه عبد الله بن علي لما اتجه للقضاء على ثورة قنسرين
عثمان بن عبد الأعلى بن سراقه ^(٤)			استخلفه عبد الله بن علي لما قام بثورته
الخليفة أبو جعفر المنصور ١٣٦ - ١٥٨هـ / ٧٥٣ - ٧٧٤م			
صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ^(٥)	١٣٦هـ / ٧٥٣م	١٤٠هـ / ٧٥٧م	ولاه المنصور الشام ومصر

(١) ابن عساکر، تاریخ مدينة دمشق، ج ٣١، ص ٥٤.

(٢) ابن عساکر، م.ن، ج ٤٥، ص ٧٩.

(٣) ابن عساکر، م.ن، ج ٣٤، ص ٦٦.

(٤) ابن عساکر، م.ن، ج ٣٥، ص ٤٢٥.

(٥) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ١٦٠؛ أمراء دمشق، ص ٦٣.

رياح بن عثمان المري ^(١)			نيابة عن صالح بن علي
يزيد بن روح اللخمي ^(٢)	١٣٨هـ / ٧٥٥م		ولاه صالح بن علي إمرة دمشق مكافأة على قتله الحكم بن ضبعان الجذامي
محمد بن الأشعث الخزاعي ^(٣)	١٤٠هـ / ٧٥٧م		ولاه المنصور دمشق ثم نقله إلى الأردن وفلسطين
العباس بن محمد بن علي ^(٤)	١٤٠هـ / ٧٥٧م		وأي دمشق والشام كله من قبل المنصور
صالح بن علي بن عبد الله بن عباس	١٤١هـ / ٧٥٨م		(للمرة الثانية) ولاه المنصور دمشق وحمص وقنسرين
الفضل بن صالح بن علي ^(٥)			ولاه المنصور
عمرو بن محمد بن عبد المطلب الهاشمي ^(٦)			ولاه المنصور
عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ^(٧)	١٥٧هـ / ٧٧٣م		كان يلي دمشق وفلسطين من قبل المنصور

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٨، ص ٢٦٥؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ١٦١.
- (٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٣، ص ١١٩.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ١٣٣.
- (٤) الصفدي، أمراء دمشق، ص ٦٩؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٢٥٣.
- (٥) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ١٦٠؛ أمراء دمشق، ص ٦٣.
- (٦) ابن عساكر، م.ن، ج ٤٦، ص ٣٢٤.
- (٧) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١١، ص ١٧؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٧، ص ٢٩٩.

تولى بعد والده عبد الوهاب		١٥٨هـ / ٧٧٤م	إبراهيم بن عبد الوهاب بن إبراهيم ^(١)
الخليفة المهدي ١٥٨-١٦٩هـ / ٧٧٤-٧٨٥م			
	١٥٩هـ / ٧٧٥م		إبراهيم بن عبد الوهاب بن إبراهيم
ولاه المهدي دمشق والأردن	١٦٩هـ / ٧٨٥م	١٥٩هـ / ٧٧٥م	محمد بن إبراهيم الإمام بن محمد بن علي ^(٢)
ولاه المهدي دمشق والأردن		١٦٩هـ / ٧٨٥م	إبراهيم بن صالح بن علي ^(٣)
الخليفة الهادي ١٦٩-١٧٠هـ / ٧٨٥-٧٨٦م			
كان يلي الشام والأردن وقبرص والجزيرة وفلسطين			إبراهيم بن صالح بن علي
الخليفة الرشيد ١٧٠-١٩٣هـ / ٧٨٦-٨٠٨م			
استمر من أواخر عهد المهدي حتى عزله الرشيد	١٧٠هـ / ٧٨٦م		إبراهيم بن صالح بن علي
كان يلي دمشق والأردن	١٧٢هـ / ٧٨٨م	١٧٠هـ / ٧٨٦م	محمد بن إبراهيم الإمام
للمرة الثانية	١٧٥هـ / ٧٩١م	١٧٢هـ / ٧٨٨م	إبراهيم بن صالح بن علي

- (١) ابن عساكر، م.ن، ج٧، ص٤٤؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص١٧٧.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٥١، ص٢٢٧.
- (٣) الصفدي، أمراء دمشق، ص٢٣؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج٢، ص٢١٩.

عبد الصمد بن علي ^(١)	/١٧٥هـ / ٧٩١م	/١٧٦هـ / ٧٩٢م	في عهده بدأت فتنة أبي الهيثم
إبراهيم بن صالح بن علي	/١٧٦هـ / ٧٩٢م	/١٧٦هـ / ٧٩٢م	للمرة الثالثة
إسحاق بن إبراهيم بن صالح ^(٢)	/١٧٦هـ / ٧٩٢م	/١٧٦هـ / ٧٩٢م	ولي دمشق نيابة عن أبيه إبراهيم
موسى بن عيسى بن موسى ^(٣)	/١٧٦هـ / ٧٩٢م	/١٧٦هـ / ٧٩٢م	
عبد السلام بن حميد المروزي ^(٤)	/١٧٦هـ / ٧٩٢م	/١٧٦هـ / ٧٩٢م	استخلف على دمشق بعد عزل موسى ابن عيسى مدة قصيرة
موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ^(٥)	/١٧٦هـ / ٧٩٢م	/١٧٧هـ / ٧٩٣م	ولاه الرشيد دمشق والشام بأسره
السندي بن شاهك ^(٦)	/١٧٧هـ / ٧٩٣م	/١٧٧هـ / ٧٩٣م	نيابة عن موسى بن يحيى بن خالد برمك
عبد الملك بن صالح بن علي ^(٧)	/١٧٧هـ / ٧٩٣م	/١٧٩هـ / ٧٩٥م	

- (١) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ١٦٧.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٨، ص ١٠٦.
- (٣) ابن عساكر، م. ن، ج ٢٦، ص ٧٧؛ ج ٦١، ص ١٩٠.
- (٤) ابن عساكر، م. ن، ج ٢٦، ص ٧٨.
- (٥) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ١٦٠؛ أمراء دمشق، ص ٦٣.
- (٦) الصفدي، أمراء دمشق، ص ٦٠.
- (٧) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٧، ص ٢١.

	/١٨٠هـ/ ٧٩٦م	/١٧٩هـ/ ٧٩٥م	إسحاق بن عيسى بن علي ^(١)
	/١٨٠هـ/ ٧٩٦م	/١٨٠هـ/ ٧٩٦م	جعفر بن يحيى البرمكي ^(٢)
ولاه جعفر بن يحيى البرمكي	/١٨١هـ/ ٧٩٧م	/١٨٠هـ/ ٧٩٦م	عيسى بن العكي ^(٣)
ولاه الرشيد، عرف عنه حسن الإدارة والتدبير	/١٨٧هـ/ ٨٠٢م	/١٨١هـ/ ٧٩٧م	إبراهيم بن المهدي (المعروف بابن شلكة الهاشمي) ^(٤)
	/١٨٨هـ/ ٨٠٣م	/١٨٧هـ/ ٨٠٢م	شعيب بن خازم بن خزيمه ^(٥)
	/١٨٩هـ/ ٨٠٤م	/١٨٨هـ/ ٨٠٣م	إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن محمد ابن علي ^(٦)
	/١٩٢هـ/ ٨٠٧م	/١٨٩هـ/ ٨٠٤م	سليمان بن عبد الله المنصور ^(٧)
		/١٩٢هـ/ ٨٠٧م	علي بن الحسن بن قحطبة ^(٨)

- (١) ابن عساكر، م. ن، ج ٨، ص ٢٦٦.
- (٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٢٦٢ - ٢٦٣؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٧، ص ١٥٢.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٨، ص ٤٦.
- (٤) ابن عساكر، م. ن، ج ٧، ص ١٥٥.
- (٥) ابن عساكر، م. ن، ج ٢٣، ص ٨٨.
- (٦) ابن عساكر، م. ن، ج ٧، ص ١١٣.
- (٧) ابن عساكر، م. ن، ج ٢٢، ص ٣٣٥.
- (٨) ابن عساكر، م. ن، ج ٤١، ص ٣٣٦.

الخليفة الأمين ١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣م			
	/١٩٣هـ ٨٠٨م		علي بن الحسن بن قحطبة
هو الذي أمر بسرقة قلعة الجامع الأموي	/١٩٤هـ ٨٠٩م	/١٩٣هـ ٨٠٨م	منصور بن محمد المهدي ^(١)
ولاه الأمين مدة قصيرة	/١٩٤هـ ٨٠٩م	/١٩٤هـ ٨٠٩م	أحمد بن سعيد الخرشيني ^(٢)
(للمرة الثانية) ولي دمشق وحصص من قبل الأمين	/١٩٥هـ ٨١٠م	/١٩٤هـ ٨٠٩م	سليمان بن عبد الله المنصور
(للمرة الثانية) ولاه الأمين الشام والجزيرة، توفي في الرقة قبل وصوله إلى دمشق	/١٩٦هـ ٨١١م	/١٩٦هـ ٨١١م	 عبد الملك بن صالح
حارب أبا العميطة وتغلب على دمشق بعد انتصاره عليه وعلى مسلمة بن يعقوب فأرسل إليه المأمون يقره على دمشق		/١٩٨هـ ٨١٣م	محمد بن صالح بن بيهس ^(٣)

- (١) ابن عساكر، م.ن، ج ٦٠، ص ٣٤٩؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٠١.
- (٢) الصفدي، م.ن، ص ٢٠٣؛ أمراء دمشق، ص ٢٥.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٢٥٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ٢٥٠.

الخليفة المأمون ١٩٨ - ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م			
محمد بن صالح بن بيهس	٢١٠هـ /	٨٢٥ م	ولاه المأمون
معيوف بن يحيى بن معيوف ^(١)			لم تذكر المصادر تاريخ توليه وتاريخ عزله
حميد بن معيوف بن يحيى ^(٢)			لم تذكر المصادر تاريخ توليه وتاريخ عزله
عبد الله بن طاهر بن الحسين ^(٣)			ولاه المأمون الشام ومصر حرباً وخراجاً
صدقة بن عثمان المري ^(٤)	٢١٠هـ /	٨٢٥ م	ولاه عبد الله بن طاهر بن الحسين لما وصل دمشق في طريقه إلى مصر
نصر بن حمزة بن مالك بن الهيثم الخراساني ^(٥)	٢١١هـ /	٨٢٦ م	ولاه عبد الله بن طاهر بن الحسين لما عاد من مصر إلى دمشق
محمد بن هارون "أبو إسحاق المعتصم" ^(٦)	٢١٣هـ /	٨٢٨ م	ولاه المأمون مصر والشام

- (١) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٩، ص ٤٤٦؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢١٥.
- (٢) ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٩، ص ٤٤٦؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢١٥.
- (٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٥٦؛ ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٩، ص ٢١٦.
- (٤) ابن عساکر، م. ن، ج ٢٤، ص ٢٨.
- (٥) ابن عساکر، م. ن، ج ٦٢، ص ٣٣.
- (٦) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨، ص ٦٢٠.

ولاه المعتصم واستمر إلى ما بعد وفاة المأمون	٨٢٨م	٢١٣هـ /	إسحاق بن يحيى بن معاذ الختلي ^(١)
الخليفة المعتصم ٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤٢م			
			إسحاق بن يحيى بن معاذ الختلي
			القاسم بن عيسى بن إدريس العجلي ^(٢)
			مسلم بن محمد أبو الصالحات ^(٣)
ولاه المعتصم فأقام أياماً ثم عزل	٨٤٠م	٢٢٥هـ /	دينار بن عبد الله بن زاد مفروخ ^(٤)
ولاه المعتصم	٨٤١م	٢٢٦هـ /	محمد بن الجهم الشامي ^(٥)
	٨٤١م	٢٢٦هـ /	صول أرتكين ^(٦)

- (١) الطبري، م. ن، ج ٨، ص ٦٤٦؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٨، ص ٣٠٢.
- (٢) ابن عساكر، م. ن، ج ٩، ص ١٣٠.
- (٣) ابن عساكر، م. ن، ج ٥٨، ص ١١٨.
- (٤) ابن عساكر، م. ن، ج ١٧، ص ٣١٩؛ الصفدي، أمراء دمشق، ص ٥١.
- (٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ٢٤١.
- (٦) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ١١١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٦، ص ٥١٧.

علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ ^(١)	/هـ ٢٢٦ م ٨٤١	/هـ ٢٢٦ م ٨٤١	كان على المعونة بدمشق من قبل صول أرتكين
موسى بن إبراهيم بن سابق الرافقي ^(٢)	/هـ ٢٢٦ م ٨٤١	/هـ ٢٢٦ م ٨٤١	توفي المعتصم وهو على دمشق
الخليفة الواثق ٢٢٧ - ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ - ٨٤٦ م			
موسى بن إبراهيم بن سابق الرافقي	/هـ ٢٢٧ م ٨٤٢		
إسحاق بن يحيى بن معاذ الختلي	/هـ ٢٢٧ م ٨٤٢	/هـ ٢٢٧ م ٨٤٢	(للمرة الثانية) عين من قبل الواثق
أشناس التركي ^(٣)			ولاه الواثق الجزيرة والشام ومصر والمغرب
عبد الرحمن بن حبيب القرشي ^(٤)	/هـ ٢٢٧ م ٨٤٢	/هـ ٢٣٢ م ٨٤٦	
مالك بن طوق التغلبي ^(٥)	/هـ ٢٣٢ م ٨٤٦		كان يلي الشام والأردن

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٠، ص ٣٨٨.
- (٢) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٤، ص ١٩١٩؛ زبدة الحلب، ج ١، ص ٧٧.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٩، ص ٤٤٦؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢١٥.
- (٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٤، ص ٢٨٧.
- (٥) ابن عساكر، م.ن، ج ٥٦، ص ٤٦٠.

الخليفة المتوكل ٢٣٢ - ٢٤٧هـ / ٨٤٦ - ٨٦١م			
	٢٣٢هـ / ٨٤٦م		مالك بن طوق التغلبي
قتل من قبل سكان دمشق	٢٤٠هـ / ٨٥٤م	٢٣٢هـ / ٨٤٦م	سالم بن حامد ^(١)
توفي قبل دخوله دمشق	٢٤٠هـ / ٨٥٤م	٢٤٠هـ / ٨٥٤م	أفريدون التركي ^(٢)
استمر حتى قدوم المتوكل إلى دمشق	٢٤٤هـ / ٨٥٨م	٢٤٠هـ / ٨٥٤م	صالح العباسي ^(٣)
عينه المتوكل لما رحل عن دمشق سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م		٢٤٤هـ / ٨٥٨م	الفتح بن خاقان ^(٤)
نيابة عن الفتح بن خاقان		٢٤٤هـ / ٨٥٨م	كليباتكين ^(٥)
قتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م وهو والٍ على دمشق			يونس بن طارحة ^(٦)

- (١) ابن عساكر، م.ن، ج ٢٠، ص ٣٨؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٤٣.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٠، ص ٣٩.
- (٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٢٣، ص ٤٠٥.
- (٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٤٨، ص ٢٢٢؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١٢، ص ٣٨٩.
- (٥) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٤٠؛ أمراء دمشق، ص ٩٠.
- (٦) الصفدي، م.ن، ص ١١٧؛ تحفة ذوي الألباب، ص ٢٤٣.

الخليفة المنتصر ٢٤٧-٢٤٨هـ/٨٦١-٨٦٢م			
يونس بن طارحة	/٢٤٧هـ	٨٦١م	
عيسى بن محمد النوشري ^(١)	/٢٤٧هـ	٨٦١م	/٢٤٨هـ ٨٦٢م
الخليفة المستعين ٢٤٨-٢٥٢هـ/٨٦٢-٨٦٦م			
صالح العباسي	/٢٤٩هـ	٨٦٣م	(للمرة الثانية) ٨٦٣م
نوشري بن طاجيل ^(٢)	/٢٤٩هـ	٨٦٣م	٨٦٣م
عيسى بن محمد النوشري	/٢٤٩هـ	٨٦٣م	(للمرة الثانية) ٨٦٦م
الخليفة المعتز بالله ٢٥٢-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٨م			
أحمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ^(٣)	/٢٥٢هـ	٨٦٦م	
يمكنجور ^(٤)			لم تذكر المصادر تاريخ توليه وعزله

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٧، ص ٣٤٦.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج ٢، ص ٥٠٠.

(٣) الصفدي، أمراء دمشق، ص ٢٥.

(٤) الصفدي، م. ن، ص ١١٦؛ تحفة ذوي الألباب، ص ٢٤٥.

الخليفة المهتدى ٢٥٥-٢٥٦هـ/٨٦٨-٨٦٩م			
			يمكجور
لم تذكر المصادر تاريخ توليه وعزله			أصرم ^(١)
تغلب على دمشق	٢٥٥هـ/ ٨٦٨م		عيسى بن الشيخ ين السليل الشيبياني ^(٢)
الخليفة المعتمد ٢٥٦-٢٧٩هـ/٨٦٩-٨٩٢م			
	٢٥٦هـ/ ٨٦٩م		عيسى بن الشيخ ين السليل الشيبياني
ولاه المعتمد وهو الذي قضى على عصيان ابن الشيخ	٢٦٤هـ/ ٨٧٧م	٢٥٦هـ/ ٨٦٩م	أماجور ^(٣)
	٢٦٤هـ/ ٨٧٧م	٢٦٤هـ/ ٨٧٧م	علي بن أماجور ^(٤)

- الهيئة العامة
المسورية للكتاب
- (١) الصفدي، م.ن، ص ٢٤٥-٢٤٦.
- (٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٤٧٤ - ٤٧٥؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٧، ص ٣٠٩.
- (٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٩، ص ٢١٨؛ البلوي، سيرة أحمد بن طولون، ص ٥٢.
- (٤) البلوي، م.ن، ص ٩٢؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤١، ص ٢٦٦.

٢ - ولاية جند دمشق في العصر الطولوني ٢٦٤-٢٩٢هـ / ٨٧٧-٩٠٤م

الخليفة	الحاكم الطولوني	الوالي	تاريخ الولاية	تاريخ العزل	ملاحظات
المعتمد	أحمد بن طولون	أحمد بن يد غباش التركي (دغباش) ^(١)	٢٦٤هـ ٨٧٧م		ولّاه أحمد بن طولون
- ٢٥٦ ٢٧٩هـ	أحمد بن طولون - ٢٦٤	أحمد بن وصيف بن حام ^(٢)	٢٦٤هـ ٨٧٧م		ولّاه أحمد بن طولون
/ - ٨٦٩	٢٧٠هـ / ٨٨٣-٨٧٧م	جيغويه ^(٣)			ولّاه أحمد بن طولون
٨٩٢م		أحمد بن يد غباش التركي (دغباش)			للمرة الثانية ولّاه أحمد بن طولون
المعتمد - ٢٥٦	خمارويه بن أحمد ابن	أحمد بن يد غباش التركي		٢٧٠هـ / ٨٨٣م	خلع الطاعة الطولونية

(١) ابن العديم، بغية الطلب، مج ٣، ص ١٢٤١؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦، ص ٩٣.

(٢) ابن عساكر، م. ن، ج ٦، ص ٦١.

(٣) الصفدي، أمراء دمشق، ص ٤٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٨، ص ٢٣، ذكره باسم "ابن جيغويه".

			(دغباش)		
من قبل خمارويه	٢٧١هـ /	٨٨٤م	محمد بن أحمد الواسطي ^(١)	طولون ٢٧٠-	٢٧٩هـ ٨٦٩/ ٨٩٢م-
هو الذي انتصر على الجيش العباسي في معركة الطواحين		٢٧٢هـ ٨٨٤م /	سعد الأيسر ^(٢)		
من قبل خمارويه		٢٧٢هـ ٨٨٤م /	أحمد بن أبا (أياز) ^(٣)	٢٨١هـ / ٨٣٣-٨٩٤م	
من قبل خمارويه			عبد الله بن الفتح ^(٤)		
من قبل خمارويه		٢٧٣هـ ٨٨٦م /	طبارجي ^(٥)		
من قبل خمارويه			طعج بن جف ^(٦)		الخليفة المعتضد ٢٧٩-
من قبل جيش بن خمارويه			طعج بن جف	جيش بن خمارويه	٢٨٩هـ

٢٨٢-٢٨٣هـ

- (١) ابن عساكر، م.ن، ج ٥١، ص ١٧٢.
- (٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٢٠، ص ٤٠٧.
- (٣) الصفدي، أمراء دمشق، ص ٢٥؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧١، ص ٧.
- (٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٣١، ص ٣٩٩.
- (٥) ابن عساكر، م.ن، ج ٢٤، ص ٤٥٩.
- (٦) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٦، ص ٤٥٣؛ تحفة ذوي الألباب، ص ٢٦٤.

				١٨٩٥-١٨٩٦ م	١٨٩٢-
من قبل هارون					٩٠١ م
بن خمارويه في	٢٩٠هـ /		طعج بن جف	هارون بن	الخليفة
عهده بدأت	٩٠٢ م			خمارويه	المكتفي
هجمات القرامطة				٢٨٣ -	٢٨٩-
استمر حتى قدم		٢٩٠هـ	بدر الحامي ^(١)	٢٩١هـ /	٢٩٥هـ
محمد بن سليمان		٩٠٢ م /		١٩٦ -	/
الكاتب للقضاء				٩٠٣ م	٩٠١-
على الدولة					٩٠٧ م
الطولونية					



الهيئة العامة السورية للكتاب

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ٧، ص ١٠٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج. و)

٣٠١-٣١٠-٣١١-٣٢٠هـ، ص ٤١٠.

٣- ولاية جند دمشق في المدّة العباسية الثانية ٢٩٢-٣٢٣هـ/٩٠٤-٩٣٤م

الخليفة المكتفي ٢٨٩-٢٩٥هـ/٩٠١-٩٠٧م			
اسم الوالي	تاريخ الولاية	تاريخ العزل	ملاحظات
بدر الحمامي		٢٩٣هـ/ ٩٠٥م	
أحمد بن كيغلف ^(١)	٢٩٣هـ/ ٩٠٥م		
صالح بن الفضل ^(٢)	٢٩٣هـ/ ٩٠٥م	٢٩٣هـ/ ٩٠٥م	كان يلي دمشق والأردن نيابة عن أحمد بن كيغلف الذي كلفته الخلافة القضاء على ثورة ابن الخليجي في مصر
أحمد بن كيغلف ^(٣)			
الخليفة المقتدر ٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٧-٩٣٢م			
أحمد بن كيغلف			
مؤنس المظفر الخادم ^(٤)	٣٠١هـ/ ٩١٣م		ولي الشام ومصر

- (١) القرطبي، صلة تاريخ الطبري، (ج ١١ من تاريخ الطبري)، ص ١٨-١٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٥٤٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٨٤.
- (٢) القرطبي، صلة تاريخ الطبري، (ج ١١ من تاريخ الطبري)، ص ١٨-١٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٧، ص ٥٤٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٨٤.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥، ص ١٧٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج. و) ٣٢١-٣٣٠هـ، ص ٢٩٦.
- (٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ٩٩؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٥٦.

نيابة عن مؤنس الخادم	/هـ٣٠١ م٩١٣	ذكا الأعور ^(١)
(للمرة الثانية)	/هـ٣٠٣ م٩١٥	أحمد بن كيغلق
	/هـ٣٠٧ م٩١٩	تكوين الخزري ^(٢)
	/هـ٣٠٩ م٩٢١	نازوك ^(٣)
(للمرة الثانية)	/هـ٣١١ م٩٢٣	تكوين الخزري
تولى دمشق شهوراً ثم عزل	/هـ٣١١ م٩٢٣	عمر الراشدي ^(٤)
(للمرة الثالثة)	/هـ٣١٣ م٩٢٥	أحمد بن كيغلق
ولاه المقتدر	/هـ٣١٦ م٩٢٨	هلال بن بدر ^(٥)

- (١) ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٩٩.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج١١، ص٣٥-٣٦.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٥٩، ص٤٤٦؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص٢١٥.
- (٤) ابن عساكر، م.ن، ج٤٥، ص٣٩٨.
- (٥) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص٢٧٤-٢٧٥؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص١٠١.

وصيف المكتمري ^(١)	/٣١٦هـ ٩٢٨م	/٣١٧هـ ٩٢٩م	في عهده خلع المقتدر للمرة الثانية ثم أعيد للخلافة
محمد بن علي المعروف بغلام الراشدي ^(٢)	/٣١٧هـ ٩٢٩م	/٣١٨هـ ٩٣٠م	
محمد بن طغج بن جف ^(٣)	/٣١٨هـ ٩٣٠م	/٣١٨هـ ٩٣٠م	
تكوين الخزري	/٣١٨هـ ٩٣٠م		(للمرة الثالثة)
الخليفة القاهر ٣٢٠-٣٢٢هـ / ٩٣٢-٩٣٣م			
تكوين الخزري		/٣٢١هـ ٩٣٣م	
محمد بن طغج بن جف	/٣٢١هـ ٩٣٣م		
الحسن بن طغج بن جف ^(٤)			نيابة عن أخيه محمد بن طغج بن جف
الخليفة الراضي ٣٢٢-٣٢٩هـ / ٩٣٣-٩٤٠م			
محمد بن طغج بن جف			في سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٠م حصل على كتاب بولايته على مصر فاستقل بالشام ومصر

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٣، ص ٤٠.
- (٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٥٤، ص ٤٠٣.
- (٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٥، ص ٥٦؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٢٨٥.
- (٤) ابن عساكر، م.ن، ج ١٣، ص ١١٧؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٨٧.

٤- ولاية جند دمشق في العصر الإخشيدي ٣٢٣-٣٥٩هـ / ٩٣٤-٩٦٩م

ملاحظات	تاريخ العزل	تاريخ الولاية	الوالي	الحاكم الإخشيدي	الخليفة
ولاه محمد بن طغج بن جف			عبيد الله بن طغج بن جف ^(١)	محمد بن طغج ابن جف	الراضي - ٣٢٢
ولاه محمد بن طغج بن جف	/٣٢٧هـ ٩٣٨م	/٣٢٥هـ ٩٣٦م	بدر الإخشيدي (بدير) ^(٢)	جف - ٣٢٣	/٣٢٩هـ - ٩٣٣
تغلب على دمشق		/٣٢٧هـ ٩٣٨م	محمد بن رائق ^(٣)	/٣٣٤هـ - ٩٣٤	٩٤٠م
ولاه محمد بن رائق	/٣٣٠هـ ٩٤١م	/٣٢٨هـ ٩٣٩م	محمد بن يزاد الشهرودي ^(٤)	٩٤٥م	المتقي لله - ٣٢٩
ولاه الإخشيدي، كانت ولايته شهرين	/٣٣٠هـ ٩٤١م	/٣٣٠هـ ٩٤١م	بدر الخرشني ^(٥)		/٣٣٣هـ - ٩٤٠ ٩٤٤م

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٧، ص ٤٧٠.
- (٢) ابن عساكر، م. ن، ج ٧١، ص ٣٦٦.
- (٣) ابن عساكر، م. ن، ج ٥٣، ص ١٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٥، ص ١١٨.
- (٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٦، ص ٢٣٨.
- (٥) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٧٨ - ٢٧٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٣٩٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٢١ - ٣٣٠هـ، ص ٢٧٩.

ولاه الإخشيد		٣٣١هـ /٩٤٢م	الحسين بن لؤلؤ ^(١)		
سيطر على دمشق لمدة قصيرة	/٣٣٣هـ ٩٤٤م	٣٣٣هـ /٩٤٤م	سيف الدولة الحمداني ^(٢)		
ولاه الإخشيد		٣٣٣هـ /٩٤٤م	يأنس المؤنسي ^(٣)	المستكفي - ٣٣٣ /٣٣٤هـ - ٩٤٤ ٩٤٥م	
	/٣٣٤هـ ٩٤٥م		يأنس المؤنسي	المطيع لله - ٣٣٤ أبوالقاسم أنوجور	
تغلب على دمشق خلال هذه المدة	/٣٣٥هـ ٩٤٦م	/٣٣٤هـ ٩٤٥م	سيف الدولة الحمداني ^(٤)	- ٣٤٤ /٣٤٩هـ - ٩٤٥ ٩٧٤م	/٣٦٣هـ - ٩٤٥ ٩٧٤م
ولاه كافور	/٣٣٧هـ ٩٤٨م	/٣٣٦هـ ٩٤٧م	بدر الإخشيد (بدير)	٩٦٠م	

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٤، ص ٢٩٠.
- (٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١١٣-١١٤.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٤، ص ٣٨.
- (٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ١١٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٤٥٧.

ولّاه كافور	/هـ٣٣٨ م٩٤٩	/هـ٣٣٧ م٩٤٨	الحسن بن طغج بن جف	
ولّاه أنوجور وعلي ابني الإخشد	/هـ٣٤٥ م٩٥٦	/هـ٣٣٨ م٩٤٩	شعلة بن بدر الإخشيدي ^(١)	
ولّاه الحسن بن عبيد الله بن طغج، استمر لمدة أكثر من شهرين	/هـ٣٤٥ م٩٥٦	/هـ٣٤٥ م٩٥٦	صافي بن عبد الله النحوي ^(٢)	
ولّاه أنوجور وعلي ابني الإخشد	/هـ٣٥٧ م٩٦٧	/هـ٣٤٥ م٩٥٦	علي بن الإخشد أبو شجاع فاتك الإخشيدي ^(٣)	-٣٤٩ /هـ٣٥٥ -٩٦٠ م٩٦٥

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٣١ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٥٠ هـ، ص ٣٢٨؛ الصفي، تحفة ذوي الألباب، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٣، ص ٢٩٣؛ الصفي، أمراء دمشق، ص ٦١؛ تحفة ذوي الألباب، ص ٢٩٥.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٨، ص ٢١٥.

ولّاه الحسن بن عبيد الله بن طعج	/هـ٣٥٧ م٩٦٧	/هـ٣٥٧ م٩٦٧	فك بن عبد الله الخادم الكافوري ^(١)	كافور -٣٥٥ /هـ٣٥٧
كان يتولى الصنمين فاستدعاه شيوخ دمشق وسلموا له الأمر	/هـ٣٥٧ م٩٦٧	/هـ٣٥٧ م٩٦٧	صالح بن عمير العقيلي ^(٢)	-٩٦٥ م٩٦٧
تغلب على دمشق		/هـ٣٥٧ م٩٦٧	الحسن بن أحمد القرمطي الأعصم ^(٣)	
ولّاه الحسن بن أحمد القرمطي	/هـ٣٥٨ م٩٦٨	/هـ٣٥٧ م٩٦٧	وشاح السلمي ^(٤)	
(للمرة الثانية)	/هـ٣٥٨ م٩٦٨	/هـ٣٥٨ م٩٦٨	صالح بن عمير العقيلي	أحمد بن علي ابن الإخشيدي

(١) ابن عساكر، م.ن، ج٤٨، ص٤٥٧.

(٢) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص٢٩٤.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج١٣، ص٦.

(٤) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص٣٠٣.

	/هـ٣٥٨ م٩٦٨	/هـ٣٥٨ م٩٦٨	الحسن بن عبيد الله بن طغج ^(١)	
ولاه الحسن بن عبيد الله بن طغج	/هـ٣٥٨ م٩٦٨	/هـ٣٥٨ م٩٦٨	شمول الإخشيدي ^(٢)	الحسن بن عبيد الله بن طغج
ولاه شمول الإخشيدي	/هـ٣٥٩ م٩٦٩	/هـ٣٥٨ م٩٦٨	إقبال غلام شمول الإخشيدي ^(٣)	
تغلب على دمشق وأعاد الدعوة للعباسيين	/هـ٣٥٩ م٩٦٩	/هـ٣٥٩ م٩٦٩	أبو القاسم بن أبي يعلى الشريف الهاشمي ^(٤)	
قائد الجيش الفاطمي الذي دخل دمشق أواخر سنة /هـ٣٥٩ م٩٦٩		/هـ٣٥٩ م٩٦٩	جعفر بن فلاح الكتامي ^(٥)	

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٣، ص ١٣
- (٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٢٣، ص ٢٠٥.
- (٣) الصفدي، أمراء دمشق، ص ٣٠.
- (٤) الصفدي، م.ن، ص ٨٦؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج ٨، ص ٥٩١.
- (٥) المقرئ، المقفى الكبير، ج ٣، ص ٥٠؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ص ٣١٢.

(٢) القضاة^(١)

١ - قضاة جند دمشق في المدة العباسية الأولى ١٣٢ - ٢٦٤هـ / ٧٥٠ - ٨٧٧م

اسم القاضي	من ولّاه	سنة وفاته	ملاحظات
كلثوم بن عبد الله الحكمي ^(٢)			أول قضاة دمشق في العصر العباسي
سالم بن عبد الله المحاربي ^(٣)	عبد الله بن علي		
محمد بن عبد الله بن لبيد الأسدي ^(٤)	عبد الله بن علي	ت، ١٥٠هـ / ٧٦٧م	
ثمامة بن يزيد الأزدي ^(٥)	صالح بن علي	ت، ١٦٣هـ / ٧٧٩م	
مسافر الخراساني "مساور" ^(٦)	محمد بن الأشعث الخراساني	ت، ١٥٣هـ / ٧٧٠م	
ثمامة بن يزيد الأزدي	محمد بن الأشعث الخراساني	ت، ١٦٣هـ / ٧٧٩م	(للمرة الثانية)

- (١) تجدر الإشارة إلى أن ملحق القضاة تم ترتيبه حسب تسلسلهم في تولي قضاء جند دمشق.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٠، ص ٢١٧.
- (٣) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ٢٠٣؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٠، ص ٧٥؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ١١.
- (٤) أبو زرعة الدمشقي، تاريخ أبي زرعة، ج ١، ص ٢٠٣ - ٢٠٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٤٠٤؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ١١.
- (٥) وكيع، أخبار القضاة، ج ٣، ص ٢٠٨؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٣، ص ٣٧٧.
- (٦) وكيع، أخبار القضاة، ج ٣، ص ٢٠٨؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٧، ص ٣٧٩.

	ت، ١٦١هـ / ٧٧٧م	الفضل بن صالح بن علي	سلمة بن عمرو العقيلي "مسلمة" ^(١)
سنة ولي ١٥٣هـ / ٧٧٠م	ت، ١٨٣هـ / ٧٩٩م	الخليفة أبو جعفر المنصور	يحيى بن حمزة البتلهي ^(٢)
كان شريك يحيى بن حمزة وقيل: كان يقضي بين أهل الذمة وإنه كان قاضي بعلبك	ت، ١٩٤هـ / ٨٠٩م		سويد بن عبد العزيز ^(٣)
		المهدي	عبيدة بن جماح الغساني ^(٤)
ولي سنة ١٦٣ هـ وبقي حتى توفي المهدي سنة ١٦٩ هـ	ت، ١٨٣هـ / ٧٩٩م	المهدي	عبد الرحمن بن يزيد بن عبد الرحمن "هانئ الهمداني" ^(٥)
(للمرة الثانية) ولي سنة ١٦٩ هـ وبقي حتى توفي سنة ١٨٣ هـ		الهادي	يحيى بن حمزة البتلهي
	ت، ١٩٤هـ / ٧٩٩م	الرشيد	عمرو بن يزيد بن محمد العدوي ^(٦)

- (١) ابن عساكر، م.ن، ج ٢٢، ص ١٠٥؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ١٢؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٢٣٢.
- (٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٦٤، ص ١٣١؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ١٣ - ١٤.
- (٣) ابن طولون، م.ن، ص ١٢؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٧٢، ص ٣٤٥.
- (٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٨، ص ١٥٢.
- (٥) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٦، ص ٦٤؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ١٤.
- (٦) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٥، ص ٤٤٨؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ١٤.

	ت، ١٩٤هـ / ٧٩٩م		محمد بن حرب الخولاني الأبرش ^(١)
ولي من قبل أبي العميطر سنة ١٩٥هـ وعندما خلع أبو العميطر تنحى عن القضاء	ت، ٢١٨هـ / ٨٣٣م	علي بن عبد الله بن خالد "أبو العميطر"	أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر ^(٢)
	ت، ٢١٦هـ / ٨٣١م		محمد بن بكار بن بلال العاملي ^(٣)
	ت، ٢٣٢هـ / ٨٤٦م		محمد بن يحيى بن حمزة البتلهي ^(٤)
	ت، ٢٤٠هـ / ٨٥٤م	أحمد بن أبي دؤاد	إسماعيل بن عبد الله السكري "اليشكري" ^(٥)
تولى قضاء حمص بعد أن عزل عن قضاء دمشق	ت، ٢٥١هـ / ٨٦٥م	يحيى بن أكثم	محمد بن هاشم بن ميسرة ^(٦)
استمر قاضياً حتى توفي	ت، ٢٦٤هـ / ٨٧٧م	جعفر بن عبد الواحد	محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بابن عليّة ^(٦)

- (١) ابن طولون، م.ن، ص ١٧.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٣، ص ٤٣٥؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مج ١١، ص ٧٢.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ١٥٤؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ١٨.
- (٤) ابن طولون، م.ن، ص ١٨.
- (٥) ابن طولون، م.ن، ص ١٨؛ ابن العديم، بغية الطلب، مج ٤، ص ١٦٥٨.
- (٦) ابن طولون، الثغر البسام، ص ١٩.

٢- قضاة جند دمشق في العصر الطولوني ٢٦٤-٢٩٢هـ/٨٧٧-٩٠٤م

اسم القاضي	ولي من قبل	سنة وفاته	ملاحظات
عبد الحميد بن عبد العزيز بن عبد المجيد ^(٢)	جعفر بن عبد الواحد	ت، ٢٩٢هـ / م ٩٠٤	كان عاملاً على مذهب أبي حنيفة. تولى قضاء دمشق سنة ٢٦٤هـ وبقي حتى قدم المعتضد لحرب خمارويه ٢٧١هـ، فخرج معه إلى بغداد كان يلي قضاء جند الأردن وفلسطين إضافة إلى جند دمشق
أبوزرعة محمد بن عثمان الدمشقي ^(٣)	خمارويه بن أحمد بن طولون	ت، ٣٠٢هـ / م ٩١٤	أدخل المذهب الشافعي، وقبله كان يسود المذهب الأوزاعي
عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز العمري ^(٤)	خمارويه بن أحمد بن طولون	ت، ٢٩٤هـ / م ٩١٤	كان يلي قضاء دمشق والأردن وفلسطين
أبوزرعة محمد بن عثمان الدمشقي	خمارويه بن أحمد بن طولون		(للمرة ثانية) كان يلي قضاء مصر ودمشق واستمر في عهد جيش وهارون ابني خمارويه

- (١) ابن طولون، م.ن، ص ٢٠؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ٤٧.
- (٢) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٤، ص ٧٨؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٠.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٤، ص ١٩٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٠٣.
- (٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٨، ص ١٠٢؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٣.

فارس بن أحمد ^(١) أبي زرعة	نيابة عن أبي زرعة محمد بن عثمان الدمشقي
أحمد بن المعل بن يزيد الأسدي ^(٢) أبي زرعة	ت، ٢٨٦هـ / م ٨٩٩
عمر بن أحمد بن علي ^(٣) أبي زرعة	ت، ٢٩٠هـ / م ٩٠٢
أحمد بن علي بن سعيد المروزي ^(٤) أبي زرعة	ت، ٢٩٢هـ / م ٩٠٤
عمر بن الحسن بن نصر الحلبي ^(٥) الخليفة المكتفي	ت، ٣٠٦هـ / م ٩١٨

٣- قضاة جند دمشق في المدة العباسية الثانية ٢٩٢ - ٣٢٣هـ / ٩٠٤ - ٩٣٤م.

اسم القاضي	ولي من قبل	سنة وفاته	ملاحظات
محمد بن العباس الجمحي ^(٦)		ت، ٢٩٧هـ / م ٩٠٩	ولي بعد سنة ٢٩٠هـ / ٩٠٢م
عبد الله بن الشاهد الفرغان ^(١)	محمد بن العباس الجمحي		نيابة عن محمد بن العباس الجمحي

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٨، ص ٢١٦.
- (٢) العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٧٣؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٤.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٣، ص ٥٣٨.
- (٤) ابن عساكر، م. ن، ج ٥، ص ٥٥؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٣، ص ٤٢٨.
- (٥) ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٥؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٤، ص ٥٥٩.
- (٦) ابن عساكر، م. ن، ج ٥٣، ص ٣٠٣؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢١.

كان عاملاً على مذهب الإمام الشافعي، نيابة عن محمد بن العباس الجمحي	ت، ٣١٥هـ / م ٩٢٧	محمد بن العباس الجمحي	عبد الله بن محمد بن جعفر القزويني ^(٢)
(للمرة الثالثة) بقي قاضياً حتى توفي	ت، ٣٠٢هـ / م ٩١٤		أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي
استخلف على القضاء لما ولي سنة ٣٠٢هـ عبد الصمد بن عبد الله بن عبد الصمد، وإبراهيم بن محمد بن أحمد بن أبي ثابت، فنابا عنه حتى قدم البلد مدة ستة أشهر	ت، ٣٠٤هـ / م ٩١٦	الخليفة المقتدر	محمد بن أحمد بن المرزبان ^(٣)
استخلف على القضاء عبد الصمد بن عبد الله ابن عبد الصمد، وإبراهيم بن محمد بن أحمد ابن أبي ثابت، فنابا عنه حتى قدم البلد مدة خمسة أشهر	ت، ٣١٠هـ / م ٩٢٢		عمر بن الجنيد بن داود ^(٤)
قاض مالكي، استخلف لما ولي القضاء أحمد بن عبد الله الحماري	ت، ٣١٠هـ / م ٩٢٢		محمد بن أحمد بن إسماعيل التوكاني (البركاني) ^(١)

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٣، ص ٤١٠؛ ج ٥٣، ص ٣٠٤.
(٢) ابن عساكر، م. ن، ج ٣٢، ص ١٦٩؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٦.
(٣) ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٥.
(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٣، ص ٥٥٥؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٥.

زكريا بن أحمد بن يحيى البلخي ^(٢)	ت، ٣٣٠هـ / ٩٤١م	كان من أصحاب الشافعي، وكان شيخ الشافعيين بالشام
عبد الله بن أحمد بن ربيعة بن زبير الربيعي ^(٣)	ت، ٣٢٩هـ / ٩٤٠م	ولي بعد عزل زكريا سنة ٣١٠هـ، فورد كتابه باستخلاف يحيى بن عمرو بن نوح ابن حوي ومحمد بن إسماعيل بن سلام فنا بآبائه عنه حتى قدم دمشق، عزل سنة ٣١٢هـ
علي بن محمد بن الحسن النخعي المعروف بابن كاس ^(٤)	ت، ٣٢٤هـ / ٩٣٥م	كان عاملاً على مذهب أبي حنيفة
الحسن بن القاسم بن دحيم ^(٥) الدمشقي	ت، ٣٢٧هـ / ٩٣٨م	كان من أهل الشام
الحسين بن محمد بن عثمان بن زرعة ^(٦)	ت، ٣٢٧هـ / ٩٣٨م	ولي سنة ٣١٢هـ كان عاملاً على مذهب الإمام الشافعي

- (١) ابن طولون، م.ن، ص ٢٦؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥١، ص ٤٦.
- (٢) ابن عساكر، م.ن، ج ١٩، ص ٥٧؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٨؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٥، ص ٣٨١.
- (٣) الكندي، كتاب ولاية مصر وويليه كتاب تسمية قضائتها، ص ٣٦٥؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٧، ص ٢٣.
- (٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٤٣، ص ١٥٩؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٧.
- (٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٣٠٩؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٣، ص ٣٤٧.
- (٦) ابن عساكر، م.ن، ج ١٤، ص ٣١٧؛ ج ٥٢، ص ٣٠٠؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (ح. و) ٣٢١-٣٣٠، ص ٢٠٤.

٤ - قضاة جند دمشق في العصر الإخشيدي ٣٢٣-٣٥٩هـ / ٩٣٤-٩٦٩م:

اسم القاضي	ولي من قبل	سنة وفاته	ملاحظات
الحسين بن محمد بن عثمان بن زرعة	الإخشيدي	ت، ٣٢٧هـ / م ٩٣٨	جمع له الإخشيدي القضاء بالشام ومصر
أبو الحسين بن جريش ^(١)	الحسين بن محمد بن عثمان		نيابة عن الحسين بن محمد بن عثمان
محمد بن الحسن بن داود ^(٢)		ت، ٣٣٠هـ / م ٩٤١	ولي سنة ٣٢٧هـ، واستمر إلى أن توفي.
عاصم الرقاشي ^(٣)			ولي سنة ٣٣٠هـ، وعزل سنة ٣٣٢هـ
عبد الله بن محمد بن الحسن الخصيبي الشافعي الأصبهاني ^(٤)		ت، ٣٤٨هـ / م ٩٥٩	ولي سنة ٣٣٢هـ كان عاملاً على مذهب الإمام الشافعي
محمد بن أحمد الذهلي ^(٥)	الخليفة المطيع	ت، ٣٦٧هـ / م ٩٧٧	كان مالكي المذهب

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٦٦، ص ١٤٩؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٧-٢٨.
- (٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ٢٩٩.
- (٣) ابن عساكر، م.ن، ج ٢٥، ص ٢٩٥.
- (٤) ابن عساكر، م.ن، ج ٣٢، ص ١٧٦؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٢٩-٣٠.
- (٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥١، ص ٦٢؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٣٤-٣٥.

الحسين بن عيسى بن هارون ^(١)	الخليفة المطيع	ت، ٣٣٤هـ / ٩٤٥م	نيابة عن محمد بن أحمد الذهلي
أحمد بن سليمان بن حذلم ^(٢)	الحسين بن عيسى بن هارون	ت، ٣٤٧هـ / ٩٥٨م	كان أوزاعي المذهب
عمر بن الحسن بن عبد العزيز بن عبد الله بن العباس الهاشمي العباسي ^(٣)		ت، ٣٣٩هـ / ٩٥٠م	صرف بعد ثلاث سنوات من ولايته سنة ٣٣٩هـ
أبو بكر بن الحداد ^(٤)	عمر بن الحسن الهاشمي العباسي		نيابة عن عمر بن الحسن الهاشمي العباسي
عبد الله بن محمد بن الحسن الخصيبي الشافعي الأصبهاني	الخليفة المطيع	ت، ٣٤٨هـ / ٩٥٩م	(للمرة الثانية)

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٤، ص ٢٨٦؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٤، ص ٣٤٩.
- (٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٥، ص ٥١٤؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٦، ص ٤٠٥.
- (٣) الكندي، كتاب ولاة مصر وويليه كتاب تسمية قضاتها، ص ٣٧٢؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٣٠.
- (٤) ابن طولون، م، ن، ص ٣٠.

نيابة عن أبيه قام ينظر شهراً ثم اعتلّ ومات		عبد الله بن محمد بن الخصبي	محمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن الخصبي ^(١)
كان يذهب مذهب الأوزعي، تولى نيابة عن عبد الله بن محمد بن الخصبي	٣٤٧هـ / ٩٥٨م	عبد الله بن محمد بن الخصبي	أحمد بن سليمان بن حذلم ^(٢)
نيابة عن عبد الله بن محمد بن الخصبي كانت مدة ولايته تسعة أشهر حتى مات القاضي الخصبي ثم ولي قضاء صيدا	٣٤٩هـ / ٩٦٠م	عبد الله بن محمد بن الخصبي	محمد بن إسماعيل المرثدي ^(٣)
كان مالكي المذهب. كان قاضياً بغوطة دمشق اختاره أهل دمشق للنظر في القضاء بعد موت القاضي الخصبي، واعترال نائبه محمد بن إسماعيل المرثدي، فنظر في القضاء مدة يسيرة حتى قدم عبد الله بن أحمد بن راشد بن شعيب	٣٥٠هـ / ٩٦١م		حكيم بن محمد أبو الفضل المالكي الفقيه ^(٤)

- (١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٤، ص ٩.
- (٢) ابن طولون، الثغر البسام، ص ٣١.
- (٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٢، ص ١١٥.
- (٤) ابن عساكر، م، ن، ج ١٥، ص ١٣٥ - ١٣٦؛ ابن بدران، تهذيب تاريخ دمشق، مج ٤، ص ٤٢٣.

ولي سنة ٣٤٨هـ من قبل الدولة الإخشيدية، وقبل ذلك كان قد ولي قضاء مصر ثلاث مرات.	ت، ٣٦٩هـ / ٩٧٩م	عبد الله بن أحمد بن راشد بن شعيب البغدادي المعروف "بابن أخت وليد" ^(١)
نيابة عن أبيه من سنة ٣٤٨هـ إلى سنة ٣٤٩هـ		محمد بن عبد الله بن أحمد بن راشد بن شعيب البغدادي ^(٢)
	ت، ٣٥٧هـ / ٩٦٧م	محمد بن محمد بن عبد الحميد الفزاري ^(٣)
ولي قبل سنة ٣٦٠هـ	ت، ٣٦٠هـ / ٩٧٠م	محمد بن عبد العزیز بن الحسن الجرجاني ^(٤)
يوسف بن القاسم الميانجي ^(١) أول قضاة دمشق في العصر الفاطمي ت، ٣٧٣هـ / ٩٨٣م		

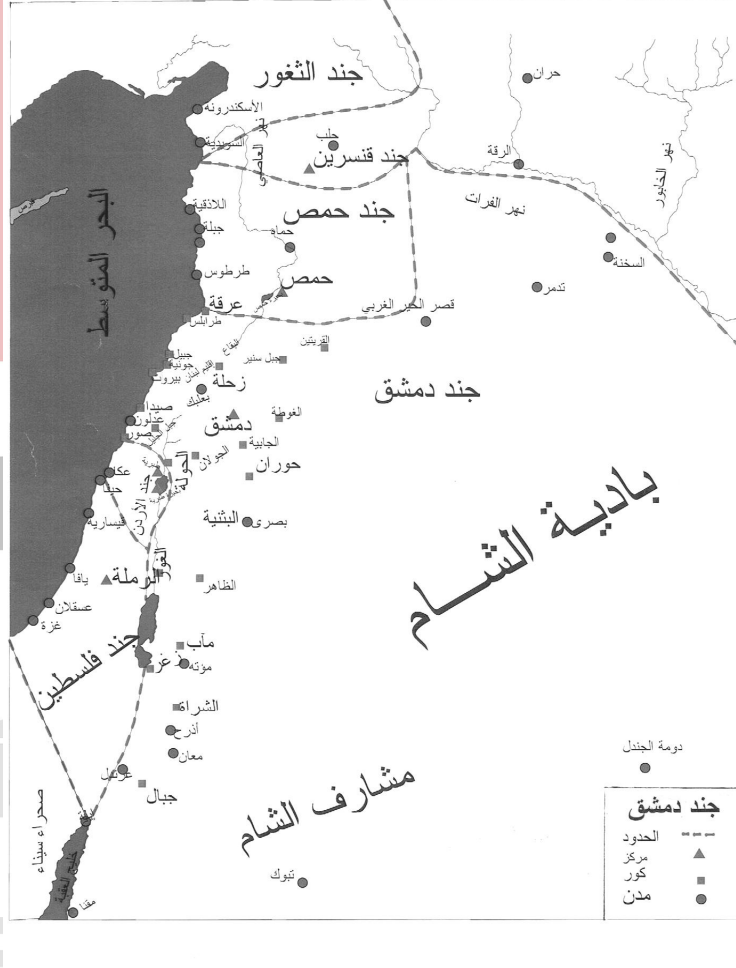
(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٧، ص ٢١؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٣٥-٣٦.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٣، ص ٣٢٠.

(٣) ابن عساكر، م. ن، ج ٥٥، ص ١٨١؛ ابن طولون، الثغر البسام، ص ٣٤.

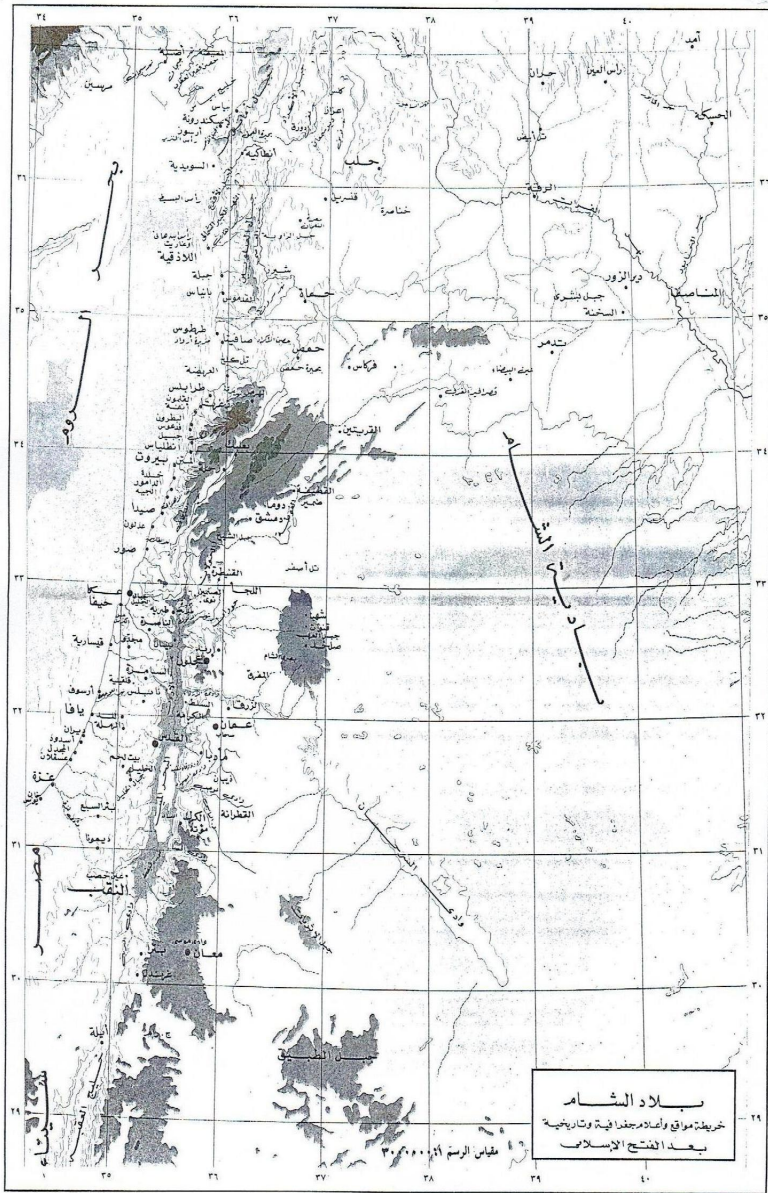
(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٥٤، ص ١٢٤.

الخرائط



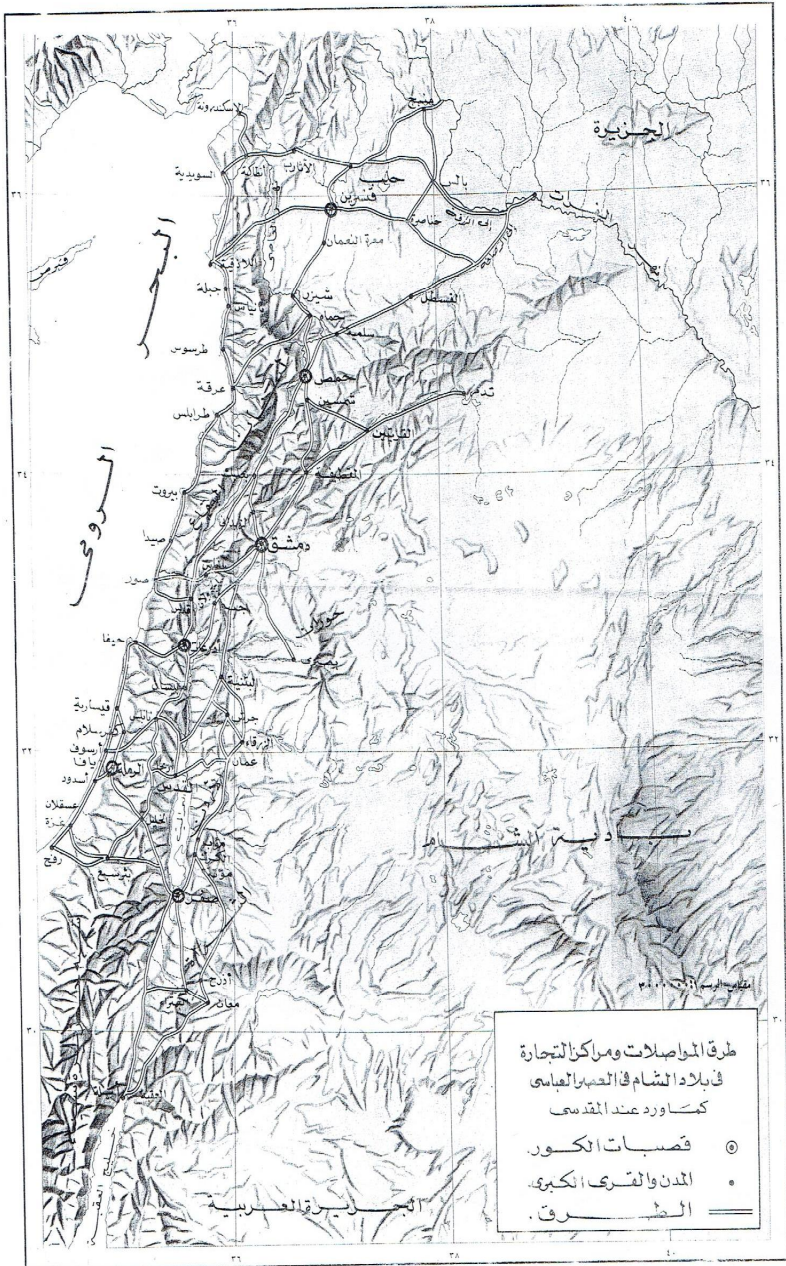
نقلاً (بتصرف) عن حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي،
ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ١٤٢.

(١) ابن طولون، الثغر البسام، ص ٣٧؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٦، ص ٣٦١.



مؤنن، حسين، أطلن تاريخ الإسلام، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط ١، ١٤٠٧ هـ -

١٩٨٧م، ص ١١٢.



مونس، حسين، أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، الزفران للإعلام العربي، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ١٤٤.



الهيئة العامة
السنورية للكتاب

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - المصادر.

ثانياً - المراجع:

١ - المراجع العربية.

٢ - المراجع المترجمة إلى العربية.

٣ - الأبحاث والدوريات والمقالات.

٤ - المراجع بالإنكليزية والفرنسية.

الهيئة العامة
السورية للكتاب



الهيئة العامة
السنورية للكتاب

أولاً - المصادر:

- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (ت، ٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، (د.ت).
- ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت، ٦٣٠هـ /١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.
- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت، ٧٢٩هـ /١٣٢٩م)، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق: روبن ليوي، القاهرة، مكتبة المتنبى، (د.ت).
- ابن بسام، محمد بن أحمد بن بسام المحتسب، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام الدين السامرائي، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٦٨م.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت، ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المسماة رحلة ابن بطوطة، تحقيق: عبد الهادي التازي، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- ابن تغري بردي، يوسف (ت، ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلّق عليه: محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- ابن جبير، محمد (ت، ٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، بيروت، دار الشرق العربي، (د.ت).
- ابن الجزري، محمد بن محمد (ت، ٨٣٣هـ/١٤٢٩م)، غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره: ج، برجستراسر، مصر، مكتبة الخانجي، ١٣٥١هـ-١٩٣٢م.

- ابن جماعة، محمد بن إبراهيم بن سعد الله (ت، ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م)، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، حققه وعلق عليه: السيد محمد هاشم الندوي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت، ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- تليس إبليس، تحقيق: محمد علي أبي العباس، القاهرة، مكتبة القرآن، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- صفة الصفوة، حققه وعلق عليه: محمود فاخوري، حلب، دار الواعي، ط١، ١٣٩٣هـ.
- ابن حزم، علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري (ت، ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمن عميرة، بيروت، دار الجيل، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ابن حوقل، محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت، نحو ٣٦٧هـ / ٩٧٧م)، صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩م.
- ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله (ت، ٣٠٠هـ / ٩١٢م)، المسالك والممالك، إعداد وتقديم: خير الدين محمود قبلاوي، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٩م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت، ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م)، مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- ابن خلكان، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت، ٦٨١هـ / ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (د.ت).
- ابن زنجوية، حميد (ت، ٢٥١هـ / ٨٦٥م)، كتاب الأموال، تحقيق: شاعر فياض، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- ابن سحنون، محمد (ت، ٢٥٦هـ/١٧٠م)، كتاب آداب المعلمين، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة وتعليق: محمد العروسي المطوعي، تونس، دار الكتب الشرقية، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت، ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- ابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى (ت، ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، المغرب في حُلَى المغرب، عني بنشره وتحقيقه والتعليق عليه: زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، عدد ١٨٩/، ٢٠٠٣م.
- ابن سلام القاسم (ت، ٢٢٤هـ/٨٣٨م)، كتاب الأموال، تحقيق وتعليق: محمد خليل هراس، قطر، إدارة إحياء التراث الإسلامي، (د.ت).
- ابن سنان، ثابت، ثابت (ت، ٣٦٥هـ/٩٧٥م)، وابن العديم، تاريخ أخبار القرامطة، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الأمانة، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
- ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت، ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي، قسم مدينة دمشق، ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م؛ قسم لبنان والأردن وفلسطين، ١٣٨٢هـ-١٩٦٢م.
- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت، ٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، حلب، دار القلم العربي، ط ١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- ابن طولون، محمد بن علي (ت، ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٩٥٦م.

- ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد (ت، ٣٢٧هـ / ٩٣٨م)، العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين وآخرين، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد (ت، ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م)، طبقات علماء الحديث، تحقيق: أكرم البوشي، إبراهيم الزبيق، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ابن العبري، غريغوريوس الملطي (ت، ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)، تاريخ مختصر الدول، القاهرة، دار الآفاق، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- تاريخ الزمان، نقله إلى العربية: إسحق أرمله، بيروت، دار المشرق، ١٢٨٦هـ - ١٩٨٦م.
- ابن عدي، عبد الله بن عدي الجرجاني (ت، ٣٦٥هـ / ٩٧٥م)، الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت، ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨م.
- زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دمشق، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت، ٥٧١هـ / ١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها، دراسة وتحقيق: علي شيري، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م؛ مج١، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٣٧١هـ - ١٩٥١م.
- تراجم النساء، تحقيق: سكينه الشهابي، دمشق، ط١، ١٩٨٢م.
- ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد الدمشقي (ت، ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

- ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى (ت، ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: دوروتيا كرافولسكي، بيروت، المركز الإسلامي للبحوث، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.
- ابن الفقيه، أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني (ت، ٣٤٠هـ/٩٥١م)، البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم (ت، ٢٧٦هـ/٨٨٩م)، عيون الأخبار، تحقيق: محمد الإسكندراني، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- ابن القلانسي، حمزة (ت، ٥٥٥هـ/١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨م.
- ابن كثير، إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت، ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد بن الموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- ابن المرتضى، أحمد بن يحيى (ت، ٨٤٠هـ/١٤٣٧م)، طبقات المعتزلة، تحقيق: سُوسَنَة ديفلد- فلزر، بيروت، دار المنتظر، ط٢، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
- ابن المعتز، عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد (ت، ٢٩٦هـ/٩٠٨م)، طبقات الشعراء المحدثين، حققه وقدم له: عمر فاروق الطباع، بيروت، شركة الأرقام، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- ديوان ابن المعتز، شرحه: مجيد طراد، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- ابن الملقن، عمر بن علي بن أحمد المصري (ت، ٨٠٤هـ/١٤٠١م) طبقات الأولياء، حققه وخرجه: نور الدين شريبه، بيروت، دار المعرفة، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

- ابن منظور، محمد بن مكرم (ت، ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ابن وحشية، أحمد بن علي بن قيس الكسداني (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) الفلاحة النبطية، تحقيق: توفيق فهد، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٩٣م.
- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، (ت، ٢٣١ - ٢٣٢هـ/ ٨٤٥ - ٨٤٦م)، ديوان أبي تمام، تقديم وشرح: محيي الدين صبحي، بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٩٧م.
- أبو زرعة الدمشقي، عبد الرحمن بن عمرو النصري (ت، ٢٨١هـ/ ٨٩٤م)، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، تحقيق: شكر الله القوجاني، دمشق، مجمع اللغة العربية، (د.ت).
- أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب (ت، ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، (د.ت).
- تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه وطبعه: رينود، والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس، ١٨٤٠م.
- أبو يعلى، محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت، ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، الأحكام السلطانية تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت، ١٨٢هـ/ ٧٩٨م)، كتاب الخراج، بيروت، دار المعرفة (د.ت).
- الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي (ت، ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

- الأرمنازي، غيث بن علي بن عبد السلام السوري (ت، ٥٠٩هـ / ١١١٥م)، المجموع من المنتخب المثور في أخبار الشيوخ من تاريخ دمشق وصور، براوية مؤرخ دمشق الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت، ٥٧١هـ / ١١٧٥م)، جمعه واعتنى به: عمر عبد السلام تدمري، صيدا - بيروت، المكتبة العصرية، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- الأزدي، علي بن ظافر (ت، ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م)، أخبار الدولة الحمدانية بالموصل وحلب وديار بكر والثغور، حققته وقدمت له: تيممة الرواف، دمشق، دار حسان، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.
- الإسنوي، عبد الرحيم بن الحسن بن علي (ت، ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م)، طبقات الشافعية، نشر: كمال يوسف الحوت، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- الأشعري، علي بن إسماعيل (ت، ٣٢٤هـ / ٩٣٥م)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، عني بتصحيحه: هلموت ريتز، فيسبادن، فرانز شتاينر، ط ٣، ١٩٩٠م.
- الأصبهاني، أحمد بن عبد الله الأصبهاني الشافعي (ت، ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تحقيق ودراسة: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- الإصطخري، إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي (ت، ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال، مراجعة: محمد شفيق غربال، الجمهورية العربية المتحدة، دار القلم، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- الأصفهاني، علي بن الحسين (ت، ٣٥٦هـ / ٩٦٧م)، الأغاني، تحقيق: لجنة من الأدباء بإشراف عبد الستار أحمد الفراج، بيروت، دار الثقافة، ط ٨، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

- الأطرابلسي، خيثمة بن سليمان القرشي (ت، ٣٤٣هـ/٩٥٤م)، من حديث خيثمة بن سليمان القرشي الأطرابلسي، دراسة وتحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى (ت، ٤٥٨هـ/١٠٦٦م)، تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتبخا، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، جروس برس، ١٩٩٠م.
- البدري، أبو البقاء عبد الله البدري (القرن ٨٩٤هـ/١٤٨٨م)، نزهة الأنام في محاسن الشام، بيروت، دار الرائد العربي، ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر (ت، ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٤، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت، ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، فتوح البلدان، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، عمرو أحمد عطوة، الإسكندرية، دار ابن خلدون، (د.ت).
- أنساب الأشراف، تحقيق: محمود الفردوس العظم، دمشق، دار اليقظة العربية، ٢٠٠٠م.
- البلوي، عبد الله بن محمد المدني، (ت، بعد ٣٣٠هـ/٩٤٢م)، سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد علي، دمشق، المكتبة العربية، ١٣٥٨هـ.
- البيروني، محمد بن أحمد (ت، ٤٤٠هـ/١٠٤٨م)، الآثار الباقية عن القرون الخالية، وضع حواشيه: خليل منصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- التنوخي، المحسن بن علي (ت، ٣٨٤هـ/٩٩٤م)، الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الشالحي، بيروت، دار صادر، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

- المستجاد من فعاليات الأجواد، تحقيق: محمد كرد علي، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٣٦٥هـ-١٩٤٦م.
- كتاب جامع التواريخ المسمى بكتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، اعتنى بتصحيحه: ر.س. مرجليوث، مصر، مطبعة أمين هندية، ١٩٢١م.
- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت، ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، ط٢، ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م.
- لطائف المعارف، تحقيق: إبراهيم الأبياري، حسن كامل الصيرفي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٩هـ-١٩٦٠م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر (ت، ٢٥٥هـ/٨٦٩م)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ط١، ١٣٦٨هـ-١٩٤٩م.
- رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مصر، مكتبة الخانجي، ط١، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- الجهشياري،
- الحموي، محمد بن عبدوس (ت، ٣٢١هـ/٩٣٣م)، الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٨هـ-١٩٣٨م.
- ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي (ت، ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، (د.ت)؛ وطبعة دار الكتب العلمية، تحقيق: فريد عبد العزيز، (د.ت).
- معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: عمر فاروق الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

- الخطيب، زين الدين بن تقي الدين بن عبد الرحمن (ت، ٨٧٠هـ/١٤٦٥م)، محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، نشر: الأستاذ شكيب أرسلان، مصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، (د.ت).
- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت، ٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، بيروت، دار الكتاب العربي، (د.ت).
- الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف (ت، ٣٨٧هـ/٩٩٧م)، مفاتيح العلوم، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- الخولاني، عبد الجبار (ت، بعد ٣٦٥هـ/٩٧٥م)، تاريخ داريا، تحقيق: سعيد الأفغاني، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- الداودي، محمد بن علي بن أحمد (ت، ٩٤٥هـ/١٥٣٨م)، طبقات المفسرين، تحقيق: علي محمد عمر، القاهرة، مطبعة الاستقلال الكبرى، ط١، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.
- الدمشقي، جعفر بن علي (القرن ٦هـ/١٢م)، الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، اعتنى به وقدم له وعلق عليه: محمود الأرناؤوط، بيروت، دار صادر، ط١، ١٩٩٩م.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت، ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- سير أعلام النبلاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، حققه وقيد نصه وعلق عليه: بشار عواد معروف وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

- كتاب تذكرة الحفاظ، وضع حواشيه: زكريا عميرات، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- الرازي، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي (ت، ٣٢٧هـ / ٩٣٨م)، كتاب الجرح والتعديل، حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط ١، ١٢٧١هـ - ١٩٥٢م.
- الربيعي، علي بن محمد (ت، ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م)، فضائل الشام ودمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي، مطبعة الترقوي، ١٩٥٠م.
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت، ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس، الكويت، وزارة الإرشاد والأبناء، ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م.
- الزرنوجي، برهان الإسلام (ت، ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م)، كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم، تحقيق ودراسة: محمد عبد القادر أحمد، القاهرة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- السرياني، ميخائيل، تاريخ ميخائيل السرياني الكبير (ت، ٥٩٦هـ / ١١٩٩م)، ترجمة: مارغريغوريوس صليبا شمعون، حلب، دار ماردين، ط ١، ١٩٩٦م.
- السلمي، محمد بن الحسين بن محمد بن موسى (ت، ٤١٢هـ / ١٠٢١م)، طبقات الصوفية، تحقيق: نور الدين شرييه، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط ٢، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت، ٥٦٢هـ / ١١٦٦م)، أدب الإملاء والاستملاء، بيروت، دار الكتب العلمية، (د. ت).
- الأنساب، وضع حواشيه: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر الخضير (ت، ٩١١هـ / ١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق: رحاب خضر عكاوي، بيروت، مؤسسة عز الدين، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

- طبقات المفسرين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، حققه وعلق عليه: عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، المدينة المنورة، مكتبة الدار، ط ١، ١٤٠٤هـ.
- الشابشتي، علي بن محمد (ت، ٣٨٨هـ / ٩٩٨م)، الديارات، تحقيق: كوركيس عواد، بغداد، مطبعة المعارف، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
- الشتيمري، الأعلم (ت، ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م)، شرح ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: درية الخطيب، لطفي الصّقال، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت، ٥٤٨هـ / ١١٥٣م)، الملل والنحل، عرض وتعريف: حسين جمعة، دمشق، دار دانية، ط ١، ١٩٩٠م.
- الشيباني، محمد بن الحسن (ت، ١٨٩هـ / ٨٠٤م)، شرح كتاب السير الكبير، تحقيق: أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل الشافعي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- شيخ الربوة، محمد بن أبي طالب (ت، ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الشيرازي، إبراهيم بن علي بن يوسف (ت، ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م)، طبقات الفقهاء، حققه وقدم له: إحسان عباس، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٧٠م.
- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت، ٥٨٩هـ / ١١٩٣م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: السيد الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- الصابئ، هلال بن المحسن (ت، ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م)، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: خليل منصور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

- رسوم دار الخلافة، عني بتحقيقه والتعليق عليه: ميخائيل عواد، بيروت، دار الرائد العربي، (د.ت).
- الصفدي، خليل بن أيبك (ت، ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، أمراء دمشق في الإسلام، تحقيق: صلاح الدين المنجد، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط٢، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، تحقيق: إحسان بنت سعيد خلوصي وزهير حميدان، دمشق، دار البشائر، ط٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- الوافي بالوفيات، ج٣، ٦، تحقيق: س. دريدرينغ، فيسبادن، فرانز شتاينر، ١٩٧٢م، ١٩٧٤م؛ ج١٠، باعثناء: جاكلين سوبله وعلي عمارة، فيسبادن، فرانز شتاينر، ١٩٨٢م؛ ج١٦، باعثناء: وداد القاضي، فيسبادن، فرانز شتاينر، ١٩٨٢م.
- الصنوبري، أحمد بن محمد بن الحسن الضبي (ت، ٣٣٤هـ/٩٤٥م)، ديوان الصنوبري، حققه: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٠م.
- الصولي، محمد بن يحيى (ت، ٣٣٥هـ/٩٤٦م)، أخبار الشعراء المحدثين في كتاب الأوراق، عني بنشره: ج. هيورث. دن، لبنان، دار الميسرة، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨٢م.
- أخبار أبي تمام، نشره وحققه وعلّق عليه: خليل محمود عساكر وآخرون، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م.
- الطبري، محمد بن جرير (ت، ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار سويدان، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.
- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت، ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، تهذيب التهذيب، تحقيق: مصطفى عبد القادر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- العصفري، خليفة بن خياط (ت، ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

- كتاب الطبقات، حققه: سهيل زكار، دمشق، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، ١٩٦٦م.
- العكبري، عبد الله بن الحسين (ت، ٦١٩هـ/ ١٢١٩م)، شرح ديوان المتنبي، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، بيروت، دار المعرفة، (ت).
- علوان، علي بن عطية بن حسن (ت، ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م)، نسبات الأسحار في كرامات الأولياء الأخيار، (أعراس الشام في أواخر القرن التاسع الهجري)، نشر: عبد الهادي هاشم، دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، مج ٣٢، ج ٢، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م.
- الفسوي، يعقوب بن سفيان (ت، ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م)، المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
- القاسبي، علي بن محمد بن خلف (ت، ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م)، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، دراسة وتحقيق: أحمد خالد، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ط ١، ١٩٨٦م.
- قدامة بن جعفر، قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت، ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م)، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق: محمد حسين الزبيدي، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨١م.
- نبذ من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، وضع مقدمته وحواشيه وفهارسه: محمد مخزوم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- القرشي، يحيى بن آدم (ت، ٢٠٣هـ/ ٨١٨م)، كتاب الخراج، صححه وشرحه ووضع فهارسه: أحمد محمد شاكر، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤٧هـ.
- القرطبي، عريب بن سعد (ت، ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م)، صلة تاريخ الطبري، ملحق بالجزء (١١) من تاريخ الطبري.

- القشيري، عبد الكريم بن هوازن (ت، ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م)، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٧٢م.
- القفطي، علي بن يوسف (ت، ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م)، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، مكتبة المتنبى، (د.ت)؛ وطبعة بغداد، مكتبة المثنى، (د.ت).
- القلقشندي، أحمد بن علي (ت، ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط ٢، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- الكتاني، عبد العزيز بن أحمد (ت، ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م)، ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، تحقيق: عبد الله بن سليمان الحمد، الرياض، دار العاصمة، ط ١، ١٤٠٩هـ.
- الكتبي، محمد بن شاعر (ت، ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣م.
- الكندي، محمد بن يوسف (ت، ٣٥٠هـ / ٩٦١م)، كتاب ولاة مصر، ويلىه كتاب تسمية قضاتها، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- الكندي، يعقوب بن إسحق (ت، ٢٦٠هـ / ٨٧٣م)، السيوف وأجناسها، تحقيق: عبد الرحمن ذكي، بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- الماروردي، علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت، ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت).
- المرزوقي، أحمد بن علي الأصفهاني (ت، ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)، كتاب الأزمنة والأمكنة، حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف، ط ١، ١٣٣٢هـ.

- المزي، يوسف (ت، ٧٤٢هـ / ١٣٤١م)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
- المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت، ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- التنبيه والإشراف، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٩٣م.
- مسكويه، أحمد بن محمد (ت، ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)، تجارب الأمم، تحقيق: أمدروز، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، (د. ت).
- المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المعروف بالبشاري (ت، نحو ٣٨٠هـ / ٩٩٠م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدمته وحواشيه وفهارسه: محمد مخزوم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
- المقدسي، المطهر بن طاهر (ت، ٣٥٥هـ / ٩٦٦م)، كتاب البدء والتأريخ، المنسوب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، باريز، ١٩٠٧م.
- المقرئ، أحمد بن علي (ت، ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- النقود الإسلامية المسمى "بشذور العقود في ذكر النقود"، تحقيق وإضافات: السيد محمد بحر العلوم، بيروت، دار الزهراء، ط٦، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

- ناصر خسرو، ناصر خسرو القبادياني المروزي (ت، ٤٨١هـ / ١٠٨٨م)، سفرنامه، ترجمة وتقديم: أحمد خالد البديلي، الرياض، جامعة الملك سعود، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- النديم، محمد بن إسحاق (ت، بعد ٣٨٥هـ / ٩٩٥م)، الفهرست، تحقيق: شعبان خليفة، وليد محمد العوزة، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، ١٩٩١م.

- النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت، ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، (نسخة مصورة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق عن طبعة دار الكتب المصرية)، القاهرة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

- الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت بعد ٣٤٤هـ / ٩٥٥م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط٣،

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- الهمداني، محمد بن عبد الملك (ت، ٥٢١هـ / ١١٢٧م)، تكملة تاريخ الطبري، تحقيق: ألبرت يوسف كنعان، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ط٢، ١٩٦١م.

- الوأواء دمشقي، محمد بن أحمد الغساني (ت، ٣٧٠هـ / ٩٨٠م)، ديوان الوأواء دمشقي، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه: سامي الدهان، دمشق، المجمع العلمي العربي، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.

- وكيع، محمد بن خلف بن حيان (ت، ٣٠٦هـ / ٩١٨م)، أخبار القضاة، بيروت، عالم الكتب، (د.ت).

- اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن واضح (ت، ٢٨٤هـ / ٨٩٧م)، البلدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.

ثانياً - المراجع:

١ - المراجع العربية:

- ابن بدران، عبد القادر بن أحمد الدومي الحنبلي (ت، ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م)، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، (١ - ٥ مج) مطبعة روضة الشام من سنة ١٣٢٩ - ١٣٣٢هـ (ج ٦) مطبعة الترقفي بدمشق ١٣٤٩هـ (ج ٧) مطبعة الترقفي، ١٣٥١هـ.
- أبيض، ملكة، التربية والثقافة العربية - الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، بيروت، دار العلم للملايين، ط ١، ١٩٨٠م.
- إثناسيو، متري هاجي، موسوعة بطريركية أنطاكية التاريخية والأثرية، سورية المسيحية في الألف الأول الميلادي، ط ١، ١٩٩٧م.
- أمين، أحمد، فجر الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١١، ١٩٧٩م.
- ضحى الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١٠، ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م.
- الأهواني، أحمد فؤاد، التربية في الإسلام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨م.
- الإبيش، أحمد، وفتية الشهابي، دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٨م.
- باشا، عمر موسى، الأدب في بلاد الشام من العصر الإسلامي حتى نهاية العصر العباسي، دمشق، دار طلاس، ط ١، ١٩٨٦م.
- البعلبكي، ميخائيل ألوف، تاريخ بعلبك، بيروت، المطبعة الأدبية، ١٨٨٩م.
- بيطار، أمينة، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ١٣٢ - ٣٥٨هـ/٧٥٠ - ٩٦٨م، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٠م.
- تامر، عارف، القرامطة، أصلهم، نشأتهم، تاريخهم، حروبهم، بيروت، دار الكاتب العربي، بغداد، مكتبة النهضة، (د. ت).

- تدمري، عمر عبد السلام، لبنان من قيام الدولة العباسية حتى سقوط الدولة الإخشيدية (١٣٢-٣٥٨هـ/٧٥٠-٩٦٩م)، طرابلس، جروس برس، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- جبور، جبرائيل، البدو والبادية، صور من حياة البدو في بادية الشام، أشرف على تحريره: سهيل جبرائيل جبور، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٨م.
- جوده، جوده حسنين، جغرافية لبنان الإقليمية، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٨٥م.
- حتي، فيليب، تاريخ العرب موجز، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩١م.
- حسن، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، بيروت، دار الجيل، ط١٥، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- حسن، حسن إبراهيم، وعلي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط٤، ١٩٧٠م.
- سولاف فيض الله، دور الجواري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٥٠-١٢٥٨م)، دمشق، صفحات للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١٣م.
- الحلو، عبد الله، تحقيقات تاريخية لغوية في الأسماء الجغرافية السورية استناداً للجغرافيين العرب، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، ط١، ١٩٩٩م.
- خزنة كاتب، غيداء، الخراج منذ الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، (د.ت).
- الخطيب، نشأت، نور الدين، المجتمع العباسي، الشمس للطباعة والتجارة، ط١، ١٩٩٦م.
- التاريخ والمؤرخون العرب (تصور ومنهج)، بيروت، شركة النعمات التجارية، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- خماش، نجدة، الشام في صدر الإسلام، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٨٧م.
- الإدارة في العصر الأموي، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- الخوري، منير، صيداء عبر حقب التاريخ، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٦٦م.

- خير،
- الدوري، صفوح، مدينة دمشق، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والسياحة،
١٩٦٩م.
- غوطة دمشق، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٦م.
- تقي الدين عارف، عصر إمرة الأمراء في العراق، بغداد، مطبعة أسعد، ط١،
١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- الدوري، عبد العزيز، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت،
مركز دراسات الوحدة العربية، ط٤، ١٩٩٩م.
- مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت، دار الطليعة، ط٢، ١٩٧٨م.
- رحال، عاطف، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، بيروت، بيسان
للنشر والتوزيع والإعلام، ط١، (د.ت).
- رفاعي، أحمد فريد، عصر المأمون، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٤، ١٣٤٦هـ -
١٩٢٨م.
- الروسان، نايف وآخرون، جغرافية الأردن، عمان، دار الشروق، ط١، ٢٠٠١م.
- ربحاوي، عبد القادر، مدينة دمشق تراثها ومعالمها التاريخية، دمشق، ١٩٦٩م.
- الزحيلي، محمد، مرجع العلوم الإسلامية، دمشق، دار المعرفة (د.ت).
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط١٤، ١٩٩٩م.
- زركلي، رياض، بلاد الشام منذ سقوط الدولة الأموية حتى قيام الدولة الطولونية،
رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- الزرو، خليل داود، الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة،
بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٩٧١م.
- زعرور، إبراهيم، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي،
دمشق، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- زكار، سهيل، أخبار القرامطة في (الإحساء - الشام - العراق - اليمن)، الرياض، دار الكوثر، ١٤٢٠هـ - ١٩٨٩م.
- زكريا، أحمد وصفي، عشائر الشام، دمشق، دار الفكر، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، مصر، مطبعة الهلال، ١٩٢٢م.
- زيود، محمد أحمد، العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والإخشيدي، ٢٥٤ - ٣٥٨هـ / ٨٦٨ - ٩٦٨م، دمشق، دار حسان، ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني وحتى نهاية العصر الفاطمي، بيروت، دار الفكر، (د.ت).
- سالم، السيد عبد العزيز، العصر العباسي الأول، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٣٩٨هـ.
- السامر، فيصل، ثورة الزنج، دمشق، دار المدى، ط ٢، ٢٠٠٠م.
- السامرائي، حسام قوام، المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية خلال الفترة ٢٤٧ - ٣٣٤هـ / ٨٦١ - ٩٤٥م، دمشق، مكتبة دار الفتح، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- شبارو، عصام محمد، تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، بيروت، دار مصباح الفكر، ١٩٨٧م.
- القضاء والقضاة في الإسلام، العصر العباسي، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٣م.
- الشدياق، طنوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان، وقف عليه وناظر طبعه: المعلم بطرس البستاني، بيروت، ١٨٥٩م.
- الشكعة، مصطفى، سيف الدولة الحمداني، بيروت، الدار المصرية، ط ٢، ١٩٧١م.
- شلبي، أحمد، التربية الإسلامية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ٧، ١٩٨٢م.
- الشهابي، قتيبة، أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٦م.

- معجم دمشق التاريخي، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٩م.
- نقود الشام، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠٠٠م.
- الصايغ، فتح الله (ت، بعد ١٨٤٧م)، رحلة فتح الله الصايغ الحلبي إلى بادية الشام وصحارى العراق والعجم والجزيرة العربية، تحقيق: يوسف شلحد، دمشق، دار طلاس، ١٩٩١م.
- ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، مصر، دار المعارف، ط٦، (د.ت).
- طلس، محمد أسعد، التربية والتعليم في الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٥٧م.
- طوطح، خليل، التربية عند العرب، دمشق، وزارة الثقافة، سلسلة آفاق ثقافية، العدد /١٨/، ٢٠٠٤م.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، الكويت، دار السلاسل، ط٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- عبد السلام، عادل، جغرافية سورية، دمشق، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
- عثمان، محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، الكويت، عالم المعرفة، العدد /١٢٨/، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- عطوان، حسين، الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي، بيروت، دار الجليل، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي، دار الجليل، ط١، ١٩٨٦م.
- عيسى، رياض، الحزبية السياسية منذ قيام الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
- عيسى بك، أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، بيروت، دار الرائد العربي، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

- الغزي، كامل، نهر الذهب في تاريخ حلب، تحقيق: شوقي شعث، محمود فاخوري، حلب، دار القلم، ط ٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- فرفور، حسام الدين، معجم الشعراء من تاريخ مدينة دمشق للإمام الحافظ أبي القاسم علي ابن الحسن بن هبة الله الشافعي الدمشقي المعروف بابن عساكر، دمشق، دار الفكر، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- فرّوخ، عمر، العرب في حضارتهم وثقافتهم إلى آخر العصر الأموي، بيروت، دار العلم للملايين، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
- القاسمي، ظفر، الحياة الاجتماعية عند العرب، بيروت، دار النفائس، ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- قدسي، إلياس عبده، نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية، بيروت، دار الحمراء، ط ٢، ١٩٩٢م.
- قدورة، زاهية، الشعبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٧٢م.
- قساطلي، نعمان، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت، دار الرائد العربي، ط ٢، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- كاشف، سيدة إسماعيل، مصر في عصر الإخشيديين، القاهرة، جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٠م.
- كانار، ماريوس، نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار سيف الدولة الحمداني المتوفي سنة ٣٥٦هـ، الجزائر، ١٩٣٤م.
- كحالة، عمر رضا، الفنون الجميلة في العصور الإسلامية، دمشق، المكتبة التعاونية، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٥، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- علوم الدين الإسلامي، دمشق، مطبعة الحجاز، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- كرد علي، محمد، خطط الشام، دمشق، مكتبة النوري، ط٣، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- غوطة دمشق، دمشق، المجمع العلمي العربي، ط٢، ١٩٥٢م.
- كيال، منير، الحمامات الدمشقية، دمشق، مطابع ابن خلدون، ١٩٨٦م.
- الكيال، سامي، سيف الدولة وعصر الحمدانيين، حلب، المطبعة الحديثة، ١٩٣٩م.
- لامنس، هنري، تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار، لبنان، دار الرائد اللبناني، ط٢، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- اللجمي، أديب وآخرون، المحيط معجم اللغة العربية، بيروت، دار المحيط، ط٢، ١٩٩٤م.
- ماجد، عبد المنعم، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥، ١٩٨٦م.
- محاسنة، محمد حسين، تاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفاطمي، دمشق، الأوائل، ط١، ٢٠٠١م.
- محمد، رياض عبد الله، سياسة الدولة العباسية تجاه بني أمية حتى نهاية العصر العباسي الأول ١٣٢ - ٢٤٧هـ / ٧٤٩ - ٨٦١م، دمشق، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م.
- مصطفى، شاكر، جنوب بلاد الشام في العصر العباسي ١٣٢ - ٣٥٨هـ / ٧٥٠ - ٩٦٩م، عمان، ١٩٩٢م.
- التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٣م.
- مكارم، سامي، التقية في الإسلام، لندن، ط١، ٢٠٠٤م.
- مكّي، محمد كاظم، المدخل إلى حضارة العصر العباسي، بيروت، دار الزهراء، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- الملاح، حسين، الإمام الأوزاعي محدثاً وحافظاً، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- المنجد، صلاح الدين، خطط دمشق، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٤٩م.
- معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط١، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- المنجد، في اللغة والأعلام، بيروت، دار المشرق، ط٣٣، ١٩٩٢م.
- مؤنس، حسين، أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- النميري، حسن، السيف العربي ومكائنه في أدبنا، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م.

٢- المراجع المترجمة إلى العربية:

- منير الدين، تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري، ترجمة: سامي الصقار، الرياض، دار المريخ، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- أحمد، آ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الهادي عبلة، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨٥م.
- آشتور، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أحمد فارس، منير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٦٨م.
- تاريخ الأدب العربي، نقل الكتاب إلى العربية: عبد الحلیم النجار وآخرون، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.
- بروكلمان، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة: كمال اليازجي، بيروت، دار الثقافة، ط٣، ١٩٨٣م.

- تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة: أنيس فريجة، بيروت، دار الثقافة، ط ٣، ١٩٧٨ م.
- حتي، رينهارت، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، مجلة اللسان العربي، مج ٨، ج ٣، الرباط، المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي، (د.ت).
- دوزي، ميكال يان، القرامطة (نشأتهم، دولتهم، وعلاقتهم بالفاطميين)، ترجمة وتحقيق: حسني زينه، بيروت، دار ابن خلدون، ط ٢، ١٩٨٠ م.
- دي خويه، رينه، العرب في سورية قبل الإسلام، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي، القاهرة، ١٩٥٩ م.
- ديسو، م. س، الفنون الإسلامية، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مصر، دار المعارف، ١٩٥٤ م. ★ ★
- ديهان، جاك. س.، الحضارة العربية، ترجمة: غنيم عبدون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (د.ت).
- ريسلر، فؤاد، تاريخ التراث العربي، نقله إلى العربية: محمود فهمي حجازي، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م.
- سزكين، جان، دمشق الشام، ترجمة: فؤاد أفرام البستاني، تحقيق: أكرم حسن العليبي، ط ١، ١٩٨٩ م.
- سوفاجيه، يوسف، دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، ترجمه عن الفرنسية: نزار أباطة، محمد صباغ، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١ م.
- العش، سيد أمير، مختصر تاريخ العرب، ترجمة: عفيف البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٨١ م.

- علي، موريس، أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ترجمة: حسني زينة، بيروت، دار المشرق، ١٩٩٠م.
- فييه، كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية: بدر الدين القاسم، بيروت، دار الحقيقة، ط١، ١٩٧٢م.
- كاهن، كي، بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية ووضع فهارسه: بشير فرنسيس - كوركيس عواد، بغداد، المجمع العلمي العراقي، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.
- لسترانج، غوستاف، حضارة العرب، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ط٣، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.
- لويون، أرشيبالد. ر.، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ - ١١٠٠م)، ترجمة: أحمد محمد عيسى، القاهرة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، (د.ت.).
- لويس، برنارد، أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية، راجعه وقدم له: خليل أحمد خليل، بيروت، دار الحدائق، ط٣، ١٩٩٣م.
- لويس، نينا بيغو، ثقافة السريان في القرون الوسطى، ترجمة: خلف الجراد، دمشق، ط١، ١٩٩٠م.
- ليفسكايا، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبوريدة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٩م.
- منتز، أندريه، الإسلام وحضارته، ترجمة: زينب عبد العزيز، صيدا - بيروت، المكتبة العصرية، (د.ت.).
- ميكيل، ف.، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.
- هايد، فالتر، المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، الجامعة الأردنية، ط٢، (د.ت.).
- هنتس،

٣- الأبحاث والدوريات والمقالات:

- ملكة، مؤسسات التربية العربية في الشام حتى أواسط القرن الرابع الهجري، التربية العربية الإسلامية، (المؤسسات والممارسات)، عمّان، مؤسسة آل البيت، ج ١، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.
- أبيض، أحمد، فقهاء الشام في العصر العباسي الأول وعلاقتهم بالخلفاء العباسيين، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
- بدر، عفيف، المدينة العربية الإسلامية ونموذجها دمشق القديمة، الحوليات الأثرية السورية، مج ٢٦، ج ١-٢، ١٩٧٦م.
- بهنسي، إبراهيم، الشام والدعوة العباسية، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
- بيضون، أمينة، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام بين سنتي ١٣٢ - ٣٥٩هـ، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد الثالث، ١٩٨٠م.
- بيطار، عمر عبد السلام، دار العلم في طرابلس الشام خلال القرن الخامس الهجري، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج ١٢، ١٩٨١م.
- تدمري، الشرطة، دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة عن الأصليين الإنكليزي والفرنسي، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشتناوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣٣م، مج ١٣.
- تسترشتين، الخراج، دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة عن الأصليين الإنكليزي والفرنسي، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشتناوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣٣م، مج ٨.

- جوينبل، سامي خلف، الطبيب عيسى بن حكم الدمشقي ورسالته الهارونية، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- حمارة، نجدت، التنظيم الإداري في الشام، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- خمّاش، عبد العزيز، الأصناف والحرف الإسلامية، مجلة الرسالة، القاهرة، العدد /٩٨٣/، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.
- الدوري، عبد القادر، قصور الحكام بدمشق، الحوليات الأثرية السورية، مج ٢٢، ج ١ - ٢، ١٩٧٣م.
- خانات دمشق في الإسلام، مجلة الحوليات الأثرية السورية، دمشق، مج ٢٥، ج ١ - ٢، ١٩٧٥م.
- تاريخ دمشق العمراني، الحوليات الأثرية السورية، دمشق، مج ١٤، ١٩٦٤م.
- ربحاوي، تيسير، طرق التجارة والحج في بلاد الشام في العصر العباسي، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- زواهره، نقولا، التطور الإداري لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٩٨٦م.
- تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر العباسي (١٣٢ - ٤٥١هـ / ٧٥٠ - ١٠٥٩م) المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمّان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- زيادة، محمد أبو الفرج، الزجاج السوري المموه بالمينا والذهب في العصر الوسيط، مجلة الحوليات الأثرية السورية، دمشق، مج ١٦، ج ١، ١٩٦٦م.
- العش، أبو نصر الفارابي، دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة عن الأصلين الإنكليزي والفرنسي، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشتناوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣٣م، مج ١.

- كاراده فو، كلود، الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الإسلامية خلال القرون الوسطى، ترجمة: علي مقلد، مجلة الاجتهاد، بيروت، دار الاجتهاد، العدد السادس، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- كاهن، أبو تمام، دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة عن الأصليين الإنكليزي والفرنسي، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشتناوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣٣م، مج ١
- مرجليوث، خليل، عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، مجلة المجمع العلمي العربي، مج ٣٢، ج ٣-٤، ١٩٥٧م.
- مردم، شاكرا، الحركات الشعبية وزعمائها في دمشق، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العددان ٣-٤، ١٩٧٣م.
- مصطفى، زريف، الأسواق في بلاد الشام في العصر العباسي، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام؛ عمّان، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
- المعاينة، بشار عواد، مؤسسات التعليم في العراق في القرنين الخامس والسابع الهجريين، التربية العربية الإسلامية، (المؤسسات والممارسات)، عمّان، مؤسسة آل البيت، ج ٢، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- معروف، صلاح الدين، منازل القبائل العربية حول دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، مج ٣٠، ج ١، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.
- المنجد، جند، دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة عن الأصليين الإنكليزي والفرنسي، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشتناوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣٣م، مج ٧.
- يحيى، هيوار، فؤاد، جرد أثري لخانات دمشق، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، دمشق، العدد ٣١/، ١٩٨١م.

٤ - المراجع بالإنكليزية والفرنسية:

- Bahnassi, Afif, Damascus, the Capital of the Umayyad dynasty, Damascus, Dar Tlass, First print, 2002.
- Bianquis, Thierry, Damas et la Syrie sous la Domination Fatimide (359-468/ 969-1076) Damas, 1986.
- Cahen, cl, M. talbi; hisba, encyclopédie, de L' Islam, Paris, 1999, tome III.
- Elisseeff, N, Diasmhk, The Encyclopaedia of Islam, Leiden, 1983, vol II.
- Hodgson, M.G.S, Bātiniyya, encyclopédie de L'islam, paris, 1960, tome I.
- Lombard, Maurice, L'islam dans sa premiere grandeur, Paris, 1971.
- Madelung. W, ismā'iliyya, encyclopédie de L'islam, paris, 1978, tome IV.
- Salibi, Kamal, Syria under Islam, empire on trieal 634-1097, Lebanon, first published, 1977.
- Sourdel, d, etj, La civilisation de L' Islam classique, Paris, 1983.



الهيئة العامة
السنورية للكتاب

فهرس

الصفحة

مقدمة ٥

تمهيد

جغرافية منطقة جند دمشق ٩

الفصل الأول

الوضع السياسي والإداري في جند دمشق ٢٥

أ- الوضع السياسي ٢٧

١- المدة العباسية الأولى ١٣٢ - ٢٦٤هـ / ٧٥٠ - ١٨٧٧م ٢٧

٢- العصر الطولوني ٢٦٤ - ٢٩٢هـ / ٨٧٧ - ٩٠٤م ٥١

٣- المدة العباسية الثانية ٢٩٢ - ٣٢٣هـ / ٩٠٤ - ٩٣٤م ٦٤

٤- العصر الإخشيدي ٣٢٣ - ٣٥٩هـ / ٩٣٤ - ٩٦٩م ... ٦٨

ب- الوضع الإداري ٧٩

١- الوالي ٨٢

٢- الكاتب ٩٠

٣- الحاجب ٩٤

٩٥	٤ - صاحب الخراج
١٠٣	٥ - صاحب البريد
١٠٧	٦ - صاحب المعونة
١٠٨	٧ - صاحب الشرطة
١١٠	٨ - القاضي
١١٨	٩ - صاحب المظالم

الفصل الثاني

١٢٣	الحياة الاجتماعية في جند دمشق
١٢٥	أ - البنية الاجتماعية
١٢٥	١ - سكان المدن
١٧٥	٢ - سكان الأرياف
١٩١	٣ - سكان البادية
٢١٩	ب - الأحوال الدينية
٢٢٠	١ - المسلمون
٢٥٣	٢ - المسيحيون
٢٥٦	٣ - اليهود

الفصل الثالث

- الأوضاع الاقتصادية في جند دمشق ٢٥٩
- أ- الزراعة ٢٦٥
- ١- المناطق الزراعية ٢٦٥
- ٢- طرق الري ووسائله ٢٦٧
- ٣- أصناف الأراضي الزراعية وملكيته ٢٧١
- ٤- طرق الزراعة واستثمار الأرض ٢٨٢
- ٥- المحاصيل الزراعية ٢٨٦
- ٦- الأشجار المثمرة ٢٩٣
- ٧- الأشجار غير المثمرة ٣٠٢
- ٨- المراعي ٣٠٥
- ٩- الثروة الحيوانية ٣٠٥
- ب- الصناعة والحرف ٣٠٨
- ١- أوضاع الحرفيين والتنظيم الحرفي ٣٠٩
- ٢- أنواع الصناعات والحرف ٣١٢
- ج- التجارة ٣٤٣
- ١- العوامل المؤثرة في التجارة ٣٤٣

٣٤٧	٢- الطرق التجارية
٣٥٣	٣- أماكن نزول التجار
٣٥٥	٤- التجارة الداخلية
٣٧٢	٥- التجارة الخارجية
٣٧٩	٦- وسائل التعامل التجاري
٣٨٤	٧- المكاييل والأوزان

الفصل الرابع

٣٨٩	الحياة الفكرية في جند دمشق
٣٩١	أ- العوامل المؤثرة في الحياة الفكرية
٣٩٢	١- دور الولاة والأمراء في رعاية رجال الفكر والأدب ...
٣٩٦	٢- زيارات الخلفاء العباسيين
٤٠٠	٣- الغنى الاقتصادي
٤٠٢	٤- الرحلة في طلب العلم
٤١١	ب- التعليم
٤١١	١- مراكز التعليم
٤١١	أولاً - الكتاتيب
٤٣٢	ثانياً - المساجد والجوامع

٤٤٤	ثالثاً - المكتبات
٤٤٦	رابعاً: مراكز أُنخر للتعليم
٤٤٨	٢ - تعليم المرأة
٤٥٠	٣ - طرائق التعليم
٤٥٨	٤ - العلاقة بين أهل العلم
٤٦٢	٥ - آداب العالم والمتعلم
٤٦٧	٦ - مكانة العلماء الاجتماعية وأوضاعهم المادية

ج - العلوم  

٤٧١ ١ - العلوم النقلية

٥٢٥ ٢ - العلوم العقلية

٥٤٨ خاتمة

٥٥٧ الملاحق

٥٥٩ (١) الولاة

٥٨٢ (٢) القضاة

٥٩٣ الخرائط

٥٩٧ قائمة المصادر والمراجع

٦٣١ الفهرس



الهيئة العامة
السنورية للكتاب

د . سامي مرعي

- أستاذ التاريخ العباسي في قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم
الإنسانية - جامعة تشرين.

- له: الرحالة الفارسي ناصر خسرو، دار آرام، دمشق، ٢٠٢٢م.

- له جملة من الأبحاث العلميّة المنشورة في مجلات محكمة.



الهيئة العامة
السورية للكتاب



الهيئة العامة
السنورية للكتاب



الهيئة العامة السورية للكتاب



الهيئة العامة
السنورية للكتاب